

تاريخ
الأدب
العربي

٣

دكتور شوقي ضيف

العصر العباسي الأول



دار المعارف

تاريخ
الأدب العربي
٣

العصر العباسي الأول

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثامنة



دار المعارف

العصر العباسي الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاصٌ بالعصر العباسي الأول ، وكان طبعياً أن أبدأ فيه بدراسة الحياة العباسية التي فترَصَتْ نفسها على الأدباء العباسيين فترَضاً ، سواء الحياة السياسية وما كان يجرى فيها من نُظم وظروف وأحداث مختلفة ، أو الحياة الاجتماعية وما كان يَشيع فيها من تحضر وترف وشغف بالغناء وإغراق في المجون وزندقة وزهد ونسك ، أو الحياة العقلية وما التحم بها من ترجمة الثقافات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ونَقْل علوم الشعوب المستعربة ووضع العلوم اللغوية والتاريخ والعلوم الدينية والكلامية .

وقد بسطتُ القول في ازدهار الشعر العربي حينئذ ازدهاراً رائعاً ، إذ أكبَّ الشعراء على العربية يتقنونها ويمثلون ملكتها وسليقتها تمثلاً دقيقاً ، نافذين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفى يجمع حيناً بين الجزالة والرصانة ، وحيناً يجمع بين الرقة والعذوبة . وكان تأثيرهم عميقاً بالثقافات المترجمة وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار في عقولهم ونفوسهم كثيراً من المعاني والخواطر التي لا تكاد تُحصَى ، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطوراً نلمس فيه روح العصر وخصب الفكر ورهافة الشعور ، وأضافوا إليها موضوعات جديدة بما نفذوا إليه من تحليل المعاني والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة وحياتهم اليومية . وفتحوا صفحة لم تكن تتخاطر لأسلافهم على بال ، هي صفحة الشعر التعليمي الذي صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيوانية منظومات طريقة . واكتشفوا للشعر أوزاناً لم تكن معروفة وأنماطاً من القوافي كانت مجهولة .

ودرستُ دراسةً نقدية تاريخية أعلام الشعر في العصر ، وهم بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، وحاولتُ أن أرسم شخصياتهم الأدبية وأثرهم في تطور الشعر العربي وتجديده ، فأما بشار فسنّ للشعراء أن يزوجوا مزوجة

دقيقة بين عناصر الشعر التقليدي وعناصره التجديدية ، بحيث يتدافع فيه تيار القديم الموروث دون تعويق لتيار الحديد المستحدث وسيوله الحضارية والاجتماعية والعقلية . وكان تأثير هذه السيول في أبي نواس أشد عمقاً وأكثر حدة ، فتعمق مذاهب المتكلمين وأسرف على نفسه في اللهو والحجون . وعكف أبو العتاهية على الحكمة الفارسية والهندية واليونانية عكوفاً أفضى به إلى تنوع واسع في أشعار الزهد والمواظع والأمثال . وجذب مسلم بن الوليد الشعراء إلى أبنية الشعر المحكمة الشائخة مع التدقيق الشديد في المعاني والإكثار من ألوان البديع . أما أبو تمام فامتزج الشعر عنده بالفلسفة امتزاجاً رائعاً ، بحيث أصبح معروضاً باهراً لطرائف البديع وطرائف المعاني والأخيلة البارة .

ووراء هؤلاء الأعلام كثيرون كان لكل منهم دور في تطور الشعر في العصر تطوراً متفاوت قوة وضعفاً ، مما دفعني إلى رسم موجز لشخصياتهم وخصائصهم ، ووضعهم في فصائل متقابلة ، والتمست لكل فصيلة صفة من يمثلونها ، فللسياسة ممثلوها ، وكذلك للمديح والهجاء والغزل والحجون والزندقة والزهد والنسك والاعتزال والنزعات الشعبية .

وانتقلت أدرس النثر وماحدث من تطوره وكثرة فنونه بتأثير ما ثقفه الوعاط والمتكلمون والكتّاب من كنوز الثقافات والآداب الأجنبية . وقد نشطت الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعاظ وقصص وقصاص . ونفذ المتكلمون إلى فن نثرى مستحدث هو فن المناظرات ، ونحوه ورقوا به رقيّاً بعيداً . وازدهر النثر الديواني وكل ما اتصل به من رسائل سياسية ومن عهود ووصايا وتوقيعات ، وحبر الكتّاب كثيراً من الرسائل الإخوانية البديعة متناولين فيها الأغراض التي كان ينظم فيها الشعراء والتي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، ودبج نفر منهم رسائل أدبية خالصة حللوا فيها النفس الإنسانية وأهواءها وسلوكها حيناً ، وحيناً حاكوا قصص كليلة ودمنة قاصدين بمحاكاتهم إلى التربية السياسية والاجتماعية .

وعُتبت برسم شخصيات أعلام الكتّاب في العصر وآثارهم الأدبية ، وهم ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات ، فأما ابن المقفع فنقل إلى العربية أروع ما تحمل لغته من ذخائر فارسية وغير فارسية ،

وكتب رسائل إخوانية وأدبية بديعة . وافتنَّ سهل بن هرون في كتابة رسائل قصصية وأخرى أدبية وإخوانية مع العناية بالازدواج وجمال الجرس والأداء . وبرع أحمد بن يوسف في كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية مُضَفِّياً على أساليبه كل ما يستطيع من صور الترميق . وحرص عمرو بن مسعدة على التأنيق والاقتصاد المسرف في التعبير . ولم يكن ابن الزيات يتأَنَّق في كتاباته ، غير أنه كان يُعْنَى بِحُسْنِ القول وجزالة اللفظ ورصانته . والله أسأل أن يُلْهِمَنِي السَّداد والإخلاص في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

شوقي ضيف

القاهرة في أول ديسمبر سنة ١٩٦٦ م

الفصل الأول

الحياة السياسية

١

الثورة العباسية

تُعَدُّ هذه الثورة نهاية الثورات الكثيرة التي نشبت ضد بني أمية ، وهي ثورات أراد بها أصحابها إلى الإصلاح الاجتماعي ، ومنهم من كان يتخذ إلى ذلك طريق الرفق على نحو ما هو معروف عن جماعة الفقهاء ، وأكثرهم كان يتخذ طريق العنف يريد أن يمحو سلطان الأمويين محوً على نحو ما كان يريد ابن الزبير والخوارج والشيعة وابن الأشعث ويزيد بن المهلب . وقد شهر هؤلاء الثائرون السلاح في وجوههم مراراً ، كانت تتعرض فيها دولتهم للخطر أيما تعرض غير أنهم استطاعوا دائماً أن يكبحوا جماح الثائرين خائضين إلى ذلك بحاراً من الدماء ، متخذين من القضاء على كل ناثر وأنصاره نكالا لكل من يحاول الثورة على نظمهم السياسية والاجتماعية .

وقد انتهت ثورات ابن الزبير وابن الأشعث ويزيد بن المهلب بمجرد الفتك بهم وبأنصارهم ، أما ثورة الخوارج ، ومثلها ثورة الشيعة ، فظلت تشتعل من حين إلى حين في العراق وجنوبيه وشماليه وما وراءه من الشرق . وكانوا كلما قضوا على ثورة وقتلوا منها مقتلة عظيمة هبَّت ثورة ثانية . وكلفتهم ثورات الخوارج خاصة جهوداً هائلة ، إذ كانوا لا يستيئون أبداً ، وكان قد استقر في نفوسهم أن الأمويين نهبوا السلطان من الأمة وينبغي أن يعود إليها بحيث تتحقق المساواة بين أفرادها وبحيث يعم العدل الذي لا تستقيم حياة الناس بدونه . وقد مضوا يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً ، لا يصانعون فيه ولا يدهنون ، بل يشهرون سيوفهم باذلين أرواحهم في سبيل عقيدتهم ، وكلما هُزمت منهم طائفة امتشقت الحسام طائفة أخرى ، فقد باعوا أنفسهم لله ودينه الحنيف يقاتلون في سبيله ، فيقتلون من خالفوا

الطريق السوى في رأيهم ويُقْتَلُونَ راضين . وأهم ثورات الشيعة المسلحة ثورة المختار الثقفي بالكوفة ، وقد تكفل مصعب بن الزبير حين كان والياً لأخيه على العراق بالقضاء عليها قضاء مبرماً . ولم تقم الشيعة بعده قائمة حتى كانت ثورة زيد ابن علي زين العابدين في أول العقد الثالث من القرن الثاني ، وقد انتهت بإخفاق ذريع ، ولم يلبث ابنه يحيى أن قُتِلَ على أثره ، كما قُتِلَ بعده بقليل عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب .

وكانت تنضم إلى كل هذه الثورات فئات من الموالى الذين اضطهدهم بنو أمية ، وحرموهم المساواة بالعرب في الحقوق ، مخالفين نظرية الإسلام وما يدعو إليه من التسوية المطلقة بين العرب وغير العرب في الضرائب وغير الضرائب وقد احتملوا في ذلك ألواناً من البؤس الذى يُطاق والذى لا يُطاق . فكان طبيعياً أن تكثر مطالباتهم بالعدل الاجتماعى وأن يطمحوا إلى حكماء جدد يُقررون فيهم مبادئ الإسلام الذى يوجب المساواة بين أفراد الأمة في جميع الواجبات المالية وغير المالية والذى ينكر الظلم أشد الإنكار ، كما ينكر أن تستغل طبقة من الأمة بعض الطبقات فيها لآربها العاجلة . وقد وضعت كثرتهم آمالها في أبناء على وأسرته الهاشمية لما تميز به حكمه من مساواة تامة بين العرب والموالى بحيث أصبحوا شيعتهم ، غير أنهم فقدوا في أسرة على وأبنائه وأحفاده الشخص الحصيف الحرى الذى يستطيع تنظيم ثورتهم بحيث يُكْتَسَبُ لها النجاح .

وعرف ذلك فيهم أبناء عمومتهم العباسيون ، ولكن كيف يلون هذه الزعامة ، والشيعة من حولهم ينضون تحت ألوية أبناء على وحدهم دون من سواهم من الهاشمين؟ لقد أخذوا يفكرون في ذلك ، ولم يلبثوا أن نفذوا إلى أمنيته المبتغاة عن طريق فرقة الكيسانية الشيعية التى تكونت حول ابن الحنفية ، فقد استوطن ابنه أبو هاشم - الذى ورث عنه زعامة هذه الفرقة وإمامتها - بلدة الحُمَيْمَةِ ببلقاء الشام ونزلها معه على بن عبد الله بن العباس وأسرته ، وسرعان ما توثقت الصلة بين ابنه محمد وبين أبى هاشم ، ورأى فيه أبو هاشم خير خلف له على جماعته ، فلما حضرته الوفاة سنة ثمان وتسعين للهجرة أوصى له وصية صريحة بالإمامة من بعده . وبذلك وجد محمد ركيزة يعتمد عليها في إثبات حقه في الخلافة ، وكان حصيف الرأى بعيد

النظر ، فعمد تَوًّا إلى تنظيم الدعوة العباسية سرًّا من مقره في الحَمِيْمَة متخذاً من الكوفة دار التشيع ومستقره مهداً لها ومركزاً^(١) ، ووضع خطة تنظيمها هناك في يد ميسرة ، وجعل له الإشراف على الدعوة بخراسان حيث كان الموالي هناك يمتثلون سخطاً وموجدة على الأمويين الذين كانوا لا يزيلون عنهم ظلماً إلا ليقبوا مكانه ظلماً أشد عنفاً . وقد اتخذ دعائه هناك من التجار وكانوا أخلاطاً من عرب وموال ، ففضوا يثيرون الناس هناك ضد بني أمية مصورين ما ينبغي أن يسود في الأرض من العدل وإزالة الظلم ، ومات ميسرة سنة ١٠٥ فأقام محمد بن علي مكانه بُكَيْر^(٢) بن ماهان ، وكان لا يقل عن سلفه دهاء ونهوضاً بعظائم الأمور ، فوثق الدعوة ونظمها بخراسان خير تنظيم . وتوفي الإمام محمد بن علي سنة ١٢٥ عاهداً بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم فارتضاه الدعاة وتوفى على إثره بكير فخلفه على الدعوة صهره أبو سلمة^(٣) الخَلَّال ، فجعداً في الأمر وجعداً معه الدعاة . وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قد ولي الخلافة ، وكان مدمناً للخمر منادماً للفُسَّاق والمغاني ، وكأنما كان إشارة الوقت لما أدرك الخلافة الأموية من ضعف وفساد ، فاستغل ذلك أيما استغلال دعاة أبي سلمة في خراسان ، فقد بدا في وضوح فساد الحكم كما بدا فساد النظم الاجتماعية التي رزح الموالي تحت أثقالها الباهظة . وتراءى حينئذ في الأفق أن سلطان البيت الأموي يؤذن بالسقوط ، لا لما انتشر فيه من فساد الترف فحسب ، بل أيضاً لما نشب من خلاف عنيف بين أفرادها ، إذ لم يلبثوا أن قتلوا الوليد وأخذوا يتطاحنون على عرش الخلافة تطاحناً مرّاً ، وتغلب بأخرة مروان بن محمد ، غير أنهم نابذوه وثاروا ضده ، وانتهر الخوارج الفرصة ، فنازلوه في الموصل وفي اليمن والحجاز .

وفي هذه الأثناء تولى أبو مسلم الخراساني قيادة^(٤) الدعوة في موطنه ، وكان من دهاة الرجال ومن أكفئهم في النهوض بجلال الأعمال ، فأخذ يصور للناس فساد الحكم الأموي وما يسومهم به من خسف وظلم وكيف أنه سيملّكهم الأرض ويجعلهم

(١) انظر في تنظيم الدعوة العباسية فلهوزن في

كتابه تاريخ الدولة العربية وسقوطها (ترجمة

أبي ريدة) ص ٤٧٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٤٨٠ والطبري

(٣) طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة ٣٧٦/٥ .

(٤) فلهوزن ص ٤٨٦ وما بعدها والطبري

٦٢٢/٥ .

(٥) فلهوزن ص ٤٩١ .

سادة بعد أن كانوا عبيداً مسترقين والناس يسمعون له ويحفون به وينضمون إلى دعوته حتى كثف جمعهم وحتى غدا نزاله لنصر بن سيار وإلى الأمويين هناك قاب قوسين أو أدنى . غير أنه رأى أن يتمهل قليلاً قبل أن يبدأ مغامرته الخطيرة متخذاً لها من الأسباب ما يكفل النجاح المحقق ، ولم يلبث أن عمد — بدهائه — إلى الإيقاع بين الكرمانى ومن معه من القبائل اليمنية وبين نصر بن سيار ومن معه من القبائل المضرية ، واشتعلت الحروب بين الفئتين ، وسُفِكَ فيها كثير من الدماء . حتى إذا وهنت قوة نصر أعلن أبو مسلم الثورة عليه وعلى من وراءه من الأمويين ، وأخذت رايات العباسيين السوداء تخفق فوق جنوده ، وحواضر خراسان تسقط — واحدة إثر أخرى — فى يده . ويستصرخ نصر بن سيار مروان بن محمد وابن هبيرة وإليه على العراق أن يمداه بالنجدة ، ولكنهما كانا فى شغل عنه بشواث الخوارج فى العراق وغير العراق ، ويموت كمدأ بين الرى وهمذان . وتتقدم جيوش أبى مسلم بقيادة قحطبة وابنه الحسن مستخلصه المدن والحصون مدينة مدينة وحصناً حصناً ، وما تلبث أن تقتحم العراق ويسرع ابن هبيرة للقائها عبر الفرات ، ويحاول قحطبة أن يتجنبه متجهماً إلى الكوفة ، ثم يلتقى به فتدور عليه — كما دارت على نصر بن سيار من قبله — الدوائر ، فينحاز بجيشه إلى واسط . ويُقَتِّل قحطبة فى ظروف غامضة ، ويتولى القيادة بعده ابنه الحسن ويدخل الكوفة دون أن يلقى أى مقاومة ، وحينئذ تبرز إلى النور حكومة بنى العباس السرية وعلى رأسها أبو سلمة الخلال .

وكان مروان بن محمد قد قبض — قبل دخول الحسن بن قحطبة الكوفة بوقت قصير — على إبراهيم بن محمد الإمام ، إذ عرف أنه هو الذى يدبر هذه الثورة من مقره فى الحميمة ، وعرف إبراهيم أنه قاتله ، فعهد بالأمر من بعده إلى أخيه أبى العباس السفاح . وقُتِّل إبراهيم ، ونقلت الأنباء إلى أبى العباس دخول الحسن ابن قحطبة الكوفة ، فخرج إليها فى أهله يتقدمهم أعمامه : داود وعيسى وصالح وعبد الله وإسماعيل وعبد الصمد ، وأخوه أبو جعفر ، وابن عمه عيسى بن موسى ابن محمد .

وظل العباسيون — طوال المدة السرية لدعوتهم — لا يذكرون للناس أنهم طُلَّابُ خلافة ، إنما يذكرون لهم أنهم يطلبون إسقاط الدولة الأموية الجائرة التى

طالما أهرقتهم بعسفها وظلمها وطالما احتكرتهم لمآربها وشهواتها مع الاستبداد بالشعب واستعباده ومع ما يعيش فيه الأمويون من ترف بالغ أفسد أداة الحكم إفساداً لاصلاح لها بعده إلا بمحوهم محواً . وبذلك وارى العباسيون أشخاصهم وقد موا القضية التي نصبوا أنفسهم للدفاع عنها ، قضية نصرة الحكم الصالح ونصرة الحق والعدل على الباطل والظلم المتصل . ولكي يحكموا خطتهم كانوا لا يأخذون البيعة لأنفسهم بالخلافة ، إنما يأخذونها لإمام رِضاً^(١) من آل البيت النبوى ، حتى لا يثيروا أبناء عمهم العلويين عليهم ، بل حتى يجمعوهم تحت لوائهم . وكانوا يشيعون دائماً أنهم نهضوا لهذا الأمر كي يثأروا للشهداء من أبناء فاطمة الزهراء .

وكان أبو سلمة الخلال الذى لقبوه بلقب « وزير آل محمد » يرى أن يختار للخلافة أحد أحفاد على بن أبى طالب ، ومن أجل ذلك أخفى أمر أبى العباس وأهله حين نزلوا الكوفة وعزلم عزلاً تاماً عن جند خراسان ، غير أن أبى العباس استطاع الاتصال بأبى مسلم إذ وجهه إليه مَنْ أطلعه على نوايا أبى سلمة ، فأرسل إليه وفداً من زعماء الدعوة بخراسان سلموا عليه بالخلافة ، واضطُرَّ أبو سلمة اضطراراً أن يعلن تأييده^(٢) له ، واتَّجه أبو العباس تنوُّاً إلى المسجد الجامع فى الكوفة ، فبايعه الناس ، وارتقى المنبر ، فاشرَّبت إليه الأعناق وأصغت إليه الآذان ، فإذا هو محتج بأبى القرآن الكريم على أن يبيته العباسى أحق بالخلافة من بيت العلويين . وكان متوَعكاً فانقطع عن متابعة الكلام ، وتابعه عمه داود متحدثاً باسمه ومؤكداً فضل الخراسانيين فى تحرير الأمة من نير الأمويين^(٣) ، ومن حكمهم الباغى الفاسد . ولم يطمئن أبو العباس لمقامه فى الكوفة ، دار العلويين من قديم ، فتحول عنها إلى معسكر الخراسانيين ، ثم فارقه إلى الحيرة وأخذ فى بناء الهاشمية لتكون مقر سلطانه ، وأغرى أبى مسلم الخراسانى بأبى سلمة فدىسَّ إليه مَنْ قتلته^(٤) .

وكانت الجيوش قد اتجهت لمتابعة حرب مروان بن محمد بقيادة عبد الله بن على عم السفاح ، فالتقت به على الزاب شمالى العراق ، وهزمته هو وجيشه هزيمة

(٣) طبرى ٨١/٦ وما بعدها .

(٤) طبرى ١٠٣/٦ والمسعودى ١٩٩/٣ .

واليعقوبى ٨٩/٣ .

(١) انظر الطبرى ٧٩، ٢٧/٦ .

(٢) الطبرى ٨٥/٦ ومروج الذهب للمسعودى

(طبع دار الرجا بالقاهرة) ١٨٣/٣ وتاريخ

اليعقوبى (طبعة النجف) ٨٦/٣ .

ساحقة ، فولّتى مع بعض فلول جيشه حتى حران وتركها إلى نهر أبى فطرس
 بفلسطين والأردن ، وتبعه عبد الله بن على ، وتلقاه بلدان الشام بالتهليل والترحيب
 إلا ما كان من دمشق ولكنها سرعان ما انقادت له . وبرحها إلى نهر أبى فطرس ،
 فلذا مروان قد آوى إلى مصر ، فأرسل وراءه أخاه صالحاً فما زال يفر أمامه من
 بلدة إلى بلدة حتى لقي حتفه فى بوسير من بلدان الصعيد لأواخر سنة ١٣٢ للهجرة .
 وكان لا يزال يزيد بن عمر بن هبيرة يقاوم فى واسط ، وقد ضرب من حوله الحصار ،
 حتى إذا جاءه نعى مروان بن محمد أخذ يفاوض العباسيين فى التسليم لهم ، وسرعان
 ما عقدوا له أماناً فتح على إثره أبواب واسط ، غير أنهم عادوا ففتكوا به وبكثيرين
 ممن كانوا معه ^(١) .

وتذكر كتب التاريخ والأدب أن العباسيين مضوا يفتكون بأفراد البيت الأموى
 فتكاً ذريعاً يريدون أن يستأصلوهم من الأرض استئصالاً ، حتى ليتخذ ذلك
 شكل احتفالات دامية ، وكان أول من بدأها عبد الله بن على إذ دعا فى أبى فطرس
 نحو ثمانين منهم إلى وليمة ، ولم يكادوا يجتمعون لها حتى انبرى بعض الشعراء
 يحرضونه على الفتك بهم ثاراً للإمام إبراهيم بن محمد ومن قتلوا من العلويين والهاشميين ،
 فأمر بهم جميعاً أن يضربوا بالعمد حتى يلقوا حتفهم ^(٢) . نكالا لهم ولآبائهم .
 وصنع صنيعه بجماعات أخرى منهم السفاح وعماه داود وسليمان ^(٣) ، وكأنهم
 لا يريدون أن يبقوا على وجه الأرض أحداً منهم ، وحتى موتاهم لم يفلتوا من هذا
 العقاب الصارم ، إذ يقال إنه نُبشت قبور خلفائهم — ما عدا قبرى معاوية وعمر
 ابن عبد العزيز الخليفة الورع — وحُرقت بقايا جثثهم بالنار تحريقاً ^(٤) . وكان
 هذا البطش الذى لا يُبقي ولا يذر دافعاً لعبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن
 عبد الملك إلى أن يلوذ بالفرار إلى الأندلس حيث أسس بها دولة أموية جديدة
 ظلت نحو ثلاثمائة عام .

وعلى هذا النحو ظفرت الثورة العباسية بالبيت الأموى الذى كانت نفوس
 الرعية تمتلئ سخطاً وحفيظة عليه لما أذاقهم من الظلم ، ولما حرّمهم من الإنصاف

(١) طبرى ١٠٤/٦ . (طبع دار الكتب) ٣٤٤/٤ .

(٢) (٤) المسعودى ١٤١/٣ واليعقوبى ٩٣/٣ .

(١) طبرى ١٠٤/٦ . (٢) الطبرى ٩٧/٦ واليعقوبى ٩٢/٣ .
 (٣) الطبرى ٩٧/٦ ، ١١١ والأغانى

والعدل الاجتماعى ، ولما ازدرى من الحق والواجب . ورأى العباسيون أن يتخذوا من العراق موثلاً لخلافتهم ، فعلا نجمه ، بينما هوى نجم الشام إذ أصبحت ولاية تابعة له بعد أن كان يتبعها . واتخذ السفاح — كما أسلفنا — الهاشمية مقر الدولة ، ولم يلبث أبو جعفر المنصور أن اختار قرية صغيرة على الضفة الغربية لدجلة لتكون حاضرة الخلافة ، هي بغداد .

٢

بناء بغداد ثم سامراء

رأى أبو جعفر المنصور أن يبتعد بحاضرة دولته عن الكوفة مركز العلويين من قديم حتى يأمن على نفسه مما قد ينشب فيها من ثورات ، وحتى يعزل جنده عن أهلها فلا يفسدوهم . وكان مما دفعه إلى ذلك ثورة الراوندية ، وهم نفر من شيعته كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح ، وحدث أن اجتمعوا بالهاشمية هاتفين بأن المنصور ربهم ، فلما خرج إليهم ينهاهم عن سوء معتقدهم تدافعوا إليه كالموج ، وكادوا يفتكون به لولا دفاع معن بن زائدة الشيباني عنه وحسن بلائه^(١) .

ولما انتهت هذه الفتنة رأى المنصور — بثاقب نظره — أن يحول حاضرتهم من الهاشمية إلى موضع يأمن فيه الفتن ، فبعث بجماعة من أصحابه يرتادون له المكان الذى يبتنى به مدينته المحصنة الجديدة ، وخرج بنفسه يرتاد معهم . وأعجبه بقعة بغداد التى لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، فأحضر صاحبها وأصحاب القرى المجاورة لها من بطارقة ورجال ، وأخذ يسألهم عن أحوالها ، فانبرى صاحبها يذكر له أنه يحفُّ بها أربعة طساسيج^(٢) : طَسْوجان فى الجانب الغربى هما قَطْرُبُل وبادوربا ، وطسوجان فى الجانب الشرقى هما : نهر بوق وكتلواذا ، فإن أجذب طسوج أخصب طسوج ثان . ثم ذكر له قربها من الفرات وما يُحتمل فيه من طرائف الشام والمغرب ومصر ووقوعها على دجلة وما يحتمل فيه من متاجر البصرة التى

(٢) انظر الطبرى ٢٣٦/٦ وابن الطلق ص ١٨ . والطساسيج : جمع طسوج وهو الناحية .

(١) الطبرى ١٤٧/٦ والفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطلق (طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة) ص ١١٦ .

تأتيها من المحيط الهندي وأيضاً ما يحمل فيه من عروض أرمينية والخزيرة والموصل وما وراءه ، وكيف أنها محجوزة وراء دجلة وأمام الفرات وكأنهما سدان منيعان أمام الأعداء ، ثم هي وسط في سواد العراق وبين مدنه .

حينئذ اعتزم المنصور اتخاذ تلك القرية المسماة ببغداد عاصمة الدولة ، وقد اختلف الباحثون في أصل اسمها ، فقال فريق إنه اسم فارسي وقال آخرون إنه اسم آرامي^(١) ، وسماها المنصور « دار السلام » أخذاً من قوله جَلَّ وعزَّ ، (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) وبهذا الاسم كانت تُضرب النقود العباسية . وقد كانت منطقتها موثلاً لحضارات مختلفة إذ كانت تلتقي بها قبل الإسلام الحضارات : الكلدانية والفارسية والآرامية ، وكانت تنبثُ حوالها أديرة كثيرة .

وعنى المنصور عناية بالغة ببناء حاضرتَه ، بل قلعتَه الحصينة ، فأحضر لها المهندسين والفعلة والصناع من أطراف الأرض ، ومثل لهم صفتها التي في نفسه ، وهي أن تكون مدورة على شاكلة المدن الفارسية والآشورية القديمة ، ووضع أول لبينة فيها بيده سنة ١٤٥ قائلا : « بسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ويقال إنه جلب إليها كثيراً من مواد البناء التي كانت لا تزال قائمة في المدائن حاضرة الساسانيين . وظل البناء قائماً بها حتى سنة ١٤٩ .

ويمكن إجمال وصفها في أنه كان يستدير حولها خندق^(٢) كبير وسوران شاهقان عريضاً الجدران ورائهما سور داخلي مبالغاً في تحصينها . وفُتح في كل سور أربعة أبواب متساوية الأبعاد : باب الشام في الشمال الغربي ويقابله باب البصرة في الجنوب الشرقي على الصراة التي تأخذ من الفرات وتمضي حتى تتصل بدجلة ، وباب خراسان في الشمال الشرقي بحذاء دجلة ويقابله باب الكوفة في الجنوب

وختصر البلدان لليعقوبي وكتاب بغداد قديماً وحديثاً الآنف الذكر ، وبغداد في عهد الخلافة العباسية لجى لسترايج ترجمة بشير يوسف فرنسيس (طبع المطبعة العربية ببغداد) وبغداد مدينة السلام لطف الراوى (طبع دار المعارف) .

(١) راجع كتاب بغداد قديماً وحديثاً لمصطفى جواد وأحمد سوسة (طبع مطبعة المجمع العلمي العراقي) ص ١٧ وما بعدها .

(٢) انظر في تخطيط بغداد الجزء الأول من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ومعجم ياقوت

الغربي . وكان على كل باب خارجي مجلس يُصعد إليه على الخيل وقباب مذهبة في رأسها تماثيل تتجه مع الريح ، وكان بين كل قبتين ثمانية وعشرون برجاً مجهزة بأدوات الدفاع عن المدينة . وبُنِي في الرحبة الداخلية مسجد كبير ، وبني بجواره قصر المنصور المسمى باسم قصر الذهب ، وقد أقيم في صدره إيوان شامخ يتصل بإيوان مثله جعلت فوقه قبة عظيمة عرفت باسم القبة الخضراء ، وكان يعلوها تماثيل فارس بيده رمح ولا يزال الفارس يدور مع الريح . وبُنيت دور كثيرة للدواوين والخزائن . وأقطع المنصور قواده كثيراً من القطائع داخلها ، ومن أجل ذلك نُسبت دروبها إليهم ، وأقطع الجند أرباضها كما أقطع أهل بيته أطرافها ، وابتنى لنفسه قصرًا صيفيًا على دجلة وراء باب خراسان سماه « قصر الخلد » . وأجرى الماء إليها في قناتين بُطِّنتا وغطَّيتا بخشب الساج حتى لا تلوَّثَهما دوابُّ السقائين ، وتعددت فيها وفي ضواحيها بعد ذلك القنوات . وفي سنة ١٥١ أمر المنصور بإنشاء معسكر للمهدي أمامها شرق دجلة ، جعل له سورًا وخندقًا ، ومن ورائهما قصر الرصافة بناه للمهدي . وسرعان ما أنشأ كبار القواد حول القصر منازل لهم وتكاثرَت الأبنية وضمَّ إليها كثير من الأرباض بحيث أصبح هذا المعسكر شطر بغداد الشرق . ووصل المنصور بين الشطرين بجسرين كبيرين من السفن . وبذلك اتسعت بغداد فشملت المدينة المدورة في الغرب والرصافة في الشرق ، كما شملت أرباضًا ومحالَّ كثيرة من أهمها محلة الحربية نسبة إلى حرب أحد قواد المنصور ، ومحلة الكرخ وبها كانت أسواق التجار ودور الملاحى . ومن محلاتها الشرقية محلة الشماسية ، وبها ابتنى البرامكة كثيرًا من قصورهم .

وما لبثت بغداد أن أصبحت أهم مدينة في العالم العربي ، إذ بُنيت بها مئات المساجد وعشرات القصور الفخمة ، وتكاثر بها التجار والصناع ، وكان لكل طائفة منهم شارع خاص أو سوق خاصة ، فهذا سوق العطارين وذاك سوق البزازين ، وهذا سوق الصياغة مستبدلى النقود وذاك سوق الورَّاقين ، وهذا سوق بائعي الحلى والطرف المعدنية وذاك سوق الرقيق المكتظ بالحواري من كل جنس . وأمَّها المغنون والمغنيات ، ونزلها الأدباء والعلماء من كل صنف وعلى كل لون . فزخرت بالحياة ، تزينها البساتين الملحقة بالدور والقصور والمتنزهات وميادين اللاعب بالصوبلجان وغيره ،

كما تزينها القوارب التي كانت تتلأأ على صفحات دجلة بأشكالها المتنوعة من طيارات وسميريات وحديديات وحراقات وزلاات وجعفریات .

ولم تزل بغداد حاضرة للخلفاء العباسيين حتى استكثر المعتصم في عسكره من الترك وأذوا العامة بما كانوا يجرون من خيلهم في الأسواق والشوارع ، فكانوا يرصدونهم ويقتلونهم . حينئذ رأى المعتصم أن يعتزل بجنده في موضع ناء عن بغداد ، حتى يبعد أذاهم عن العامة ، ولم يزل يتخير لهم موضعاً حتى انتهى إلى سامراء شرق دجلة بين بغداد وتكريت ، فأعجبه موقعها ، وكان بها دير كبير فاشتره من أصحابه ، وأخذ في بنائها سنة ٢٢١ واختلف الباحثون في اسمها ، كما اختلفوا في بغداد ، فقليل هو اسم فارسي ، وقيل : بل هو آرامي^(١) . وأمر المعتصم أن تسمى « سُرَّ مَنْ رَأَى » وبهذا الاسم كانت تضرب النقود العباسية .

وقد أحضر لها المعتصم المهندسين والفعلة والصناع من سائر الأمصار وأبتدأ فيها ببناء قصره^(٢) المسمى بالجوسق وابنتي بجواره مسجداً كبيراً ، كما ابنتي دوراً مختلفة للدواوين ، وأخرى لقواده ورجال حاشيته وموظفيه الكبار . وابنتي لجنده قطائع في المطيرة جنوبيها ، واختط فيها الشوارع والدروب ، وأفرد لأهل كل صناعة وتجارة سوقاً خاصة بهم . فارتفع بها البنيان وكثرت العمارة ، ويقال إن المعتصم حمل إليها الساج وسائر الخشب من البصرة والرخام من أنطاكية واللاذقية . وأجرى فيها قنوات تأخذ من دجلة ، وعقد عليه جسراً يصلها بجانبه الغربي ، وأنشأ بها كثيراً من المتنزهات والملاعب . ويقال إنه جلب إليها الغروس من البصرة ومن الشام وخراسان وسائر البقاع .

وظل الخلفاء بعد المعتصم يقيمون بها حتى سنة ٢٧٦ إذ تحولوا منها إلى بغداد ، وكان ذلك سبباً في أن أسرع الخراب إليها ، فلم يكد يتقدم القرن الرابع الهجري حتى أصبحت أطلالا ورسوماً إلا ما كان من مسجدها الذي تأنق المعتصم في بنائه حتى قال المقدسي إنه يفضل مسجد الوليد بن عبد الملك بدمشق في عمارته ، ولا تزال مأذنته الشاهقة قائمة إلى اليوم .

(٢) راجع في تخطيط سامراء المرجعين السالفين
والمسمودي ٩/٤ وكتاب البلدان لليعقوبي ومعجم
البلدان لياقوت .

(١) انظر بلدان الخلافة الشرقية تأليف
لسترانج وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد
ص ٧٦ ومادة سامراء في دائرة المعارف الإسلامية.

النظم السياسية والإدارية

كان تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد على سواعد الجيوش الحراسانية إيذاناً بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية للدولة العباسية ، فقد قامت في المجال الفارسي وعاشت تنفّس فيه . وقد بلغ الفرس قبل الفتوح الإسلامية مرتبة عالية في تنظيم الحكم ، حتى لرى العرب بعد فتح ديارهم يسارعون إلى التأثر بهم في هذا التنظيم ، فقد روى الرواة أن عمر بن الخطاب اتخذ ديوان العطاء أو ديوان الجند ، مقتدياً فيه بصنيع الساسانيين ، يقول ابن الطقطقى : « لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة ، وهى خلافة عمر رضى الله عنه ، رأى أن الفتوح قد توالى وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تابعت ، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك ، وكان بالمدينة بعض مرازية الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له : يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً جميع دُخلهم وخرَجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل . فتنبّه عمر رضى الله عنه ، وقال : صِفْهُ ، فوصفه المترزبان . ففطن عمر لذلك ودوّن الدواوين وفرض العطاء ^(١) » .

وكان هذا الديوان الأصل الذى تأسست عليه الأداة الحكومية للخلافة الإسلامية . وارتضى عمر لولاته في الشرق أن يستعينوا في جمع الخراج بنفس عمّال الفرس الذين كان يستعين بهم الساسانيون في جمع الضرائب وهم المسمون بالدهاقين لخبرتهم التامة بكل الشؤون المتصلة بهذا الجمع ، وخاصة من حيث تقدير الخراج . وبذلك استمرت في أيدي هؤلاء الدهاقنة سجلات الخراج الإسلامى ، وظلوا يكتبونها بالفارسية حتى أمر عبد الملك بن مروان بتعريبها في العراق ، كما أمر بتعريب الدواوين الرومية في الشام ومصر . وصدع الحجاج واليه على العراق بأمره فعربها ،

(١) ابن الطقطقى ص ٦٠ .

غير أنها ظلت لا تعرّب في خراسان حتى سنة ١٢٤ وهى السنة التى أمر فيها نصر ابن سيار بتعريبها هناك .

وعلى هذا النحو استعان العرب منذ أوائل الفتوح فى العراق وخراسان بدهاقنة الفرس فى إدارة شئون الخراج وجبايته . ولم يتوسع عمر فى الاقتباس من نظام الحكم الساسانى ، فإنه لم يتعدّ فى اقتباسه ديوان العطاء ، أما نظام الحكم الوراثى الذى كان متبعاً عند القوم فإنه لم يخطر بباله ، إذ أبقي الخلافة على أساس شورى انتخابى تؤخذ فيه البيعة للخليفة ، حتى إذا كان عهد معاوية رأيناه يتأثر هذا النظام ، فيجعل الخلافة وراثية فى بيته ، وتبعه على ذلك مروان بن الحكم وأبناؤه . وتوسع معاوية بجانب ذلك فى التأثير بنظم الدواوين الفارسية ، فاتخذ ديواناً للخاتم وديواناً للرسائل محاكياً بذلك الدواوين الساسانية .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا النظم الساسانية تنتقل بحذافيرها فى كل شئون الحكم ، وكأنما أصبح الخليفة العباسى ملكاً ساسانياً ، فهو يحكم حكماً مطلقاً وهو حكم ينتقل بالوراثة ويطبعه الدين كما كان يطبع الحكم الساسانى . إذ كان الساسانيون يعدون أنفسهم رؤساء للدين وحماة له وحراساً . وكان العباسيون من بيت النبوة ، فكانوا يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين ، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سنداً لهم فيما يزعمون ، وهو زعم باطل ، لأن الولاية العامة على المسلمين لا تورث ، وإلا ورثها العباس عم الرسول بعده ، ولم يرثها أبو بكر الصديق ، وحتى الأموال والأعيان التى تركها الرسول لا تورث ، لما صح فى الحديث النبوى من قوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » . وإذا كان هذا الإرث ممنوعاً فى الأعيان والأموال فمنعه فى ولاية الأمة ألزم وأوجب ، إذ ينبغى أن يتولاها الكفاء الصالح على نحو ما تولاها أبو بكر وعمر .

ومهما يكن فقد أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث الرسول ، ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس كان لها أسوأ الأثر فى خنوع الناس وخضوعهم للظلم والفساد ، ونعجب أن نرى الفقهاء والأتقياء الذين كانوا يعارضون بنى أمية ويعدونهم دنيويين ظالمين ينصاعون انصياعاً أعمى للعباسيين ويعدونهم رؤساء شرعيين للأمة من الناحيتين الزمنية والروحية .

وقد أخذ العباسيون يلقون — على شاكلة الساسانيين — في وعى الناس أنهم أصحاب حق إلهي في الحكم فهم « سلطان الله في أرضه »^(١) . وأحاطوا أنفسهم — على مثالهم — بنظام تشريعات معقد ، مختفين عن أعين الناس وراء أستار صفيقة ، ومتخذين كثيرين من الحُجَّاب أو رؤساء التشريعات . وبذلك لم يعد العرب يدخلون على الخلفاء كلما أرادوا كما كان الشأن في عصر بني أمية ، بل لا بد لهم قبل الدخول عليهم من استئذان هؤلاء الحُجَّاب ، وكانت كثرتهم من الأعاجم الذين احتكروا لأنفسهم أكثر شئون الحكم . وكان الخليفة يستقبل مَنْ يدخل عليه وكبير حُجَّابيه في جانب ، وفي جانب آخر كبير حراسه المعروف باسم الجلاد^(٢) والنَّطْع دائماً أمامه ، فمن غضب عليه أطاح برأسه تَوْأً .

وبذلك أصبحنا إزاء حكم استبدادي أشد ما يكون الاستبداد ، حكم لا يُحْسَبُ فيه أى حساب للرعية ، فهي أدوات مسخرة للحاكم ، وليس لها من الأمر أى شيء ، ففي يده كل الأمور وكل السلطان ، يولى الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة والمحسبين الذين يراقبون الأسواق ، ويعزلهم جميعاً ، حسب مشيئته وهواه . وكان يختار الوالي غالباً من أهل بيته أو من أكفأ حاشيته وخاصة الأعاجم ، وكذلك كان يختار قواده . ومن البيوت العربية التي لمعت في العصر بيت المهلبين وبيت معن بن زائدة الشيباني .

واتسع الخلفاء في محاكاة الدواوين الساسانية ، وكان في كل ولاية ديوان للخراج يقوم عليه موظف كبير ينفق منه على الولاية ويرسل ما تبقى من الأموال إلى بغداد حيث كان بها لكل ولاية ديوان خاص ، ويسمى مجموع هذه الدواوين باسم ديوان الزمام أو بيت المال ، وقد ولَّى عليه السفاح خالد بن برمك كما ولاه على ديوان الجند^(٣) الذي كان يُعْنَى برواتبهم . وكان لدار الخلافة ديوان خاص يقوم على نفقاتها . ومن أهم الدواوين ديوان الرسائل الذي لعب دوراً خطيراً في نهضة النثر العربي ، وكانت تصدر عنه رسائل الخلفاء . وكان بجواره ديوان الخاتم الذي تُخْتَمُ فيه تلك الرسائل بعد مراجعتها ، وديوان التوقيع وهو خاص بالنظر

(٣) كتاب الوزراء والكتاب الجيهشاري

(طبعة الحلبي) ص ٨٩ .

(١) طبرى ٣٣١/٦ .

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٣٢٩/٢ .

في المظالم ورقاع أصحاب الشكوى وكانوا يسمونها باسم القيصص ، وكان من عادة ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا عليها بعبارات موجزة بليغة ، فجاراهم خلفاء بني العباس ووزرائهم في هذا الصنيع .

وكان هناك ديوان كبير على رأسه صاحب الخبر ، وكانت تأتيه أخبار الولايات بواسطة موظفين مهتمهم أن يوافوه بكل ما يجري في الولايات من أحداث وأسعار ، وهم يشبهون - في عصرنا - أدق الشبه مراسلي الصحف ومندوبيهم . وكانوا يُحصّون كل كبيرة وصغيرة للوالى ومن وراءه من قواد الجيش والقضاة وعمال الخراج والمحتسين ورجال الشرطة ويبلغونها إلى صاحبهم ، وهو بدوره يبلغها إلى الخليفة^(١) . وقد أحكم هذا النظام للبريد إحكاماً دقيقاً ، فكان هناك رسل موقوفون على حمل تلك الأخبار في سرعة شديدة على خيل مضمرات توجد في عدة أماكن على الطرق الممتدة من الولايات إلى بغداد . وقد ألّفت من أجلهم كتب المسالك والممالك المشهورة لابن خرداذبة وغيره ، وهي كتب تفيض بوصف الأحوال الجغرافية والاقتصادية لولايات الدولة وبلدانها المختلفة في المشارق والمغارب .

وليس هذا كل ما أخذته العباسيون عن ملوك بني ساسان من النظم الإدارية والسياسية ، فقد أخذوا عنهم أيضاً نظام الوزارة ، وكلمة وزير عربية فقد وردت في القرآن الكريم يقول جلّ شأنه على لسان موسى : (واجْعَلْ لى وزيراً من أهلى هرون أخى) ومعناها في الآية الكريمة المؤازر والمساعد ، غير أنها أخذت تُطْلَقُ منذ فاتحة العصر العباسى على المستشار الأول للخليفة في إدارة شئون دولته . وهى وظيفة كانت معروفة في الدولة الساسانية ، إذ كانوا يقيمون - لاحتجابهم عن الرعية - وسطاء بصرفون أمور الدولة ويرسمون سياستها ويعيّنون موظفيها ، ومن أشهرهم بُزُرْجَمِهَر وزير أنوشروان الذى عُرف بحكمته وحنكته . وكان العباسيين رأوا أن يجاروهم في هذا النظام ، فاتخذوه لأول مرة في تاريخ الخلافة العربية ، وأطلقوا على صاحبه اسم الوزير ، يقول ابن الطقطقى : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون في طباعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة ... »

والوزارة لم تتمهد قواعدها وتنقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس ، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررّة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوى الحجّى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمّى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمّى كاتباً أو مشيراً^(١) .

وقلما نجد للعباسيين وزيراً غير فارسي ، وهو شيء طبيعي ، إذ كانوا هم الذين يستأثرون بشئون الخلافة ويرقون إلى أعلى المناصب ، وقد أحكموا للعباسيين هذا النظام وصاغوه صياغة على قوانينه الساسانية . وأول من اتخذ العباسيون وزيراً منهم أبو سلمة الخلال حتى إذا قضى نَحْبُه اتخذ السفاح بعده خالد بن برمك ، وكان قد جعل تحت لواء أبي مسلم في حروبه ضد بني أمية ، وأظهر بسالة وحُسن حربية . وهو ينحدر من أسرة كانت تقوم على سدانة معبد النوبهار البوذى في بلخ . واتصلت وزارته في عهد المنصور وناط به حكم بعض الولايات وقيادة بعض الجيوش فأظهر كفاءة نادرة ، ووكّى ابنه يحيى أذربيجان فنهض بولايتها خير نهوض . ووكّى المهدي بعد أبيه المنصور ، فاستدعى يحيى إلى بغداد ووصله بابنه هرون كاتباً له ومستشاراً ، وتوفّى المهدي وولى بعده ابنه الهادي ، فحاول أن يخلع أخاه هارون عن ولاية العهد ، غير أن يحيى البرمكي عرف بسعة حيلته كيف يصرفه عن فكرته ، وكان لذلك وقع حسن في نفس الرشيد ، حتى إذا صارت الخلافة إليه خاطبه بالأبوة إجلالاً له قائلاً : « يا أبت أنت أجلسني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلّدتك أمر الرعية وأخرجته من عنق إليك فاسكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت ، وافرض (اعط راتباً) لمن رأيت ، وأسقط من رأيت ، فإنني غير ناظر معك في شيء »^(٢) ودفع إليه خاتم الخلافة ، فصار بيده الحل والعقد ، فقلّد ابنه الفضل المشرق كله من الشَّهْرَوان إلى أقصى بلاد الترك ، وقلّد ابنه جعفرًا المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية^(٣) . وشخص الفضل إلى عمله فأزال ما وقع على الناس من ظلم وبني الحياض

(١) ابن الطلق ص ١١٠ وما بعدها . (٢) الجهمياري ص ١٩٠ .

(٢) الجهمياري ص ١٧٧ والمسعودي ٢٥٧/٣ .

والمساجد وزاد في عطاء القواد والجند ، أما جعفر فأقام بحضرة الرشيد وأرسل نواباً عنه إلى أقاليم ولايته ، إذ كان الرشيد لا يطيق صبراً على بعده عنه .

وظل يحيى البرمكي وابناه جعفر والفضل يلون أمور الدولة سبعة عشر عاماً كانوا هم المتصرفين أثناءها في جميع شئونها ، وأتاح ذلك لهم أن يصبغوها بصبغة فارسية خالصة ، حتى إذا كانت سنة سبع وثمانين ومائة نكبهم الرشيد نكبتهم المشهورة ، إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وإخوته ما عدا محمداً ، ومات يحيى والفضل ابنه محبوس . واختلف المؤرخون وأصحاب السير في هذه النكبة ، فردّها بعضهم إلى أسباب شخصية ، وردّها ثانون إلى أنهم جردوا الرشيد من كل سلطان وكل أمر ونهى ، وردّها ثالثون إلى أن الرشيد وقف على ما كانوا يبطنون من الزندقة ، ويظهر أن سببها الحقيقي يرجع إلى إطلاق جعفر لعلوي نائر من محبسه ، هو يحيى ابن عبد الله ، كان قد استأمنه الرشيد عليه ، فلم يوفّ أمانته (١) .

ونمضى إلى عصر المأمون فنجد أسرة بنى سهل الفارسية تتقلد منصب الوزارة له ، وتمكّن بدورها للتقاليد الفارسية في الحكم ، وكان أول من وليها منهم الفضل ابن سهل الملقب بذي الرياستين : رياسة السيف والقلم ، وكان قهرماناً ليحيى بن خالد البرمكي يلي شئون بيته ، أما أبوه سهل فكان مجوسياً وأسلم . وقد لزم المأمون منذ حياة أبيه الرشيد ودبر أموره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره ، ويروى الرواة أنه كان إذا دخل عليه وهولاً يزال بمرور « يجلس على كرسي مجنّح ويحُمّل فيه ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فإذا وقعت وُضع الكرسي ونزل عنه ، فثبى . وحُمّل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون ، ثم يسلم ، ويعود فيقع على الكرسي . وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك إلى مذهب الأكاسرة فإن وزيراً من وزرائها كان يُحُمّل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين أيديها عليه. » (٢)

فحتى تقاليد وزراء الساسانيين في دخولهم على الأكاسرة وجلسهم بين أيديهم كانت تُحاكى محاكاة دقيقة . وكان من رَسَم ملوك الفُرس أن يلبس أهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل

(١) انظر الطبري ٤٨٤/٦ وما بعدها

والمسعودي ٢٨٤/٣ والجهمي ص ٢٠٦ ،

٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ وابن الطقطقي

ص ١٥٦ .

(٢) الجهمي ص ٣١٦ .

إلى الملك عرف بلبسته صناعته والطبقة التي هو فيها» ^(١) . وطبق العباسيون هذا الرسم على موظفيهم تطبيقاً دقيقاً حكاه الجاحظ إذ يقول : « ولكل قوم زيٌّ ، فللقضاة زيٌّ ، ولأصحاب القضاة زيٌّ وللشُرَطَ زيٌّ ، وللكُتَّاب زيٌّ ، وللقُضاة زيٌّ . . . وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب ، فمنهم من يلبس المبطَّنة ، ومنهم من يلبس الدُّرَّاعة ^(٢) ، ومنهم من يلبس القباء ^(٣) ، ومنهم من يلبس البازيكند ^(٤) ، ويعلق الخنجر ويأخذ الجرُّز ^(٥) » ويتخذ الجمَّة ^(٦) . وكان الفقهاء يلبسون المبطَّنة والطيلسان ^(٧) والقلائس ^(٨)

فتقاليد الساسانيين حوكت حتى في أزياء رجال الحاشية والموظفين وطبقاتهم ، وكان ما دخل منها في شئون الحكم أقوى قوة ، مما دفع كثيرين من الفرس إلى ترجمة الكتب التي تصورها عن لغتهم ، وعملُ ابن المقفع في هذا الميدان ذائع مستفيض ، فقد نقل إلى العربية طائفة من الكتب والرسائل التي تتصل بالحكم الساساني ورسومه من مثل كتاب « آيين نامه » ومعنى آيين النظم والتقاليد . ولم يقف عمله في هذا الصدد عند الترجمة ، فقد نقل في رسائله القصيرة والطويلة كثيراً من وصايا الفرس في السياسة والحكم على نحو ما يلقانا في رسائله المعروفة باسم « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » و « رسالة الصحابة » وهو يريد بهم صحابة السلطان وحاشيته . وقد بعث البرامكة وبنو سهل — بعد ابن المقفع — المترجمين على نقل كثير من الكتب والرسائل التي تحمل تقاليد الساسانيين في الحكم والسلطان وحقاً فقدت الكثرة الكثيرة من هذه الكتب ، ولكن بقيت منها نصوص وفيرة تلقانا في حديث الطبري عن الفرس في أوائل تاريخه الكبير وفي مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهمشيارى وفي عيون الأخبار لابن قتيبة . ولعلنا لا نغلو بعد ذلك كله إذا قلنا إن النظم السياسية والإدارية في الدولة العباسية طُبعت بطوابع فارسية

مايسقط على المنكين من الشعر .
(٧) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٦٠/٥ .
والطيلسان : ثوب فارسي .
(٨) أغاني ٢٩١/٦ والقلائس : جمع قلنسوة وهي غطاء فارسي للرأس .

(١) الجهمشيارى ص ٣ .
(٢) الدراعة : جبة فارسية .
(٣) القباء : ثوب فارسي قصير .
(٤) البازيكند : كساء يلقى على الكتف .
(٥) الجرُّز : آلة من حديد يضرب بها .
(٦) البيان والتبيين ١١٤/٣ والجمَّة :

قوية ، تحولت في أثنائها الخلافة ملكاً كسروياً يقوم على الاستبداد والقهر والبطش الذى لا يعرف رفقاً ولا ليناً .

٤

العلويون والخوارج

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن العباسيين ظلوا طوال دعوتهم السرية يدعون للرضا من آل البيت ، لكى لا يصطدموا بأبناء عمهم العلويين ، وأيضاً فإنهم أرادوا أن يثبتوا الأصل الذى تعتمد عليه خلافتهم المبتغاة وهو ميراثها عن الرسول ، فهى حق شرعى لآل بيته ، وقد تحدثنا آنفاً عما فى هذا الأصل من فساد ، لأن الرسول لا يورث فى ماله فضلاً عن الولاية العامة للمسلمين .

ولم يكد العباسيون يستولون على مقاليد الخلافة ، حتى أخذ العلويون يشيعون فى الناس أنهم اغتصبوها منهم ، فهم ورثتها الحقيقيون ، إذ هم أبناء بنت الرسول : فاطمة ، وأبناء على ابن عمه . وردّ عليهم العباسيون بأنه ينبغي أن يرجع فى ذلك إلى أصل حكم الله فى الموارث ، وما فُرض فيها من حجب العم لابن العم وحرمان ابن البنت من ميراث جده لأمة ، فهم يدّعون للرسول بعمه العباس الذى آل إليه ميراثه ، وهم لذلك أولو الأمر وأهله «خُصُّوا برحم رسول الله وقربته ونشأوا من آبائه ونبتوا من شجرته» (١) . وإذا كان العلويون يزعمون أن الرسول نصّ على إمامة على بن أبى طالب بعده وأن أبناءه ورثوا منه إمامته فقد زعم العباسيون أن الرسول قال لخدمهم العباس : إن الخلافة تكون فى ولدك (٢) .

وأخذت الخصومة تشتد بين الفرعين الهاشميين فى أيهما أقرب إلى الرسول وأمسّ به رحماً وأيهما أحق بميراث ولايته على الأمة ، وسرعان ما أخذ المنصور يرصدهم العلويين فى دارهم : المدينة ، ويضيق الخناق عليهم . وترامت إليه الأنباء بأن محمد بن عبد الله سليل الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية يبت الدعاة له فى الحجاز والعراق ، فأمر عامله على المدينة أن يجدّ فى طلب العلويين ، وحجّ ، فقبض على

(٢) ابن الطقطقى ص ١٠٣ .

(١) انظر خطبة السفاح بعد بيعته فى الطبرى ٨٢/٦ .

جماعة منهم ، وأوثقهم بالحديد ، وحملهم معه إلى الحيرة ، وهناك ألقي بهم في سرداب تحت الأرض عند قنطرة الكوفة لا يعرفون ليلاً ولا نهاراً حتى ماتوا جميعاً . ولا نصل إلى شهر رجب من سنة ١٤٥ حتى يعلن محمد بن عبد الله ثورته^(١) ويغلب على المدينة وكان يحيى بن زيد بن علي زين العابدين قد فوّض له الأمر من بعده^(٢) ، وأخيراً رأى إعلان الثورة على المنصور ، وهى أول ثورة للزيدية . ويفزع المنصور فيكتب إليه كتاباً يعرض عليه فيه الأمان له ولأهله وأن يعطيه ألف ألف درهم ويتزل على أى بلد شاء . ويردّ عليه محمد بكتاب طويل يصور فيه اغتصابهم للخلافة من دون أصحابها الشرعيين في رأيه قائلاً : « إن الحق حقنا وإنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا . . وإن أبانا عليّاً كان الوصى والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء . . وإن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لى ، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمهم لإسلاما وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبى طالب ، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلّى للقبلة ، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة » . ولم يكذ المنصور يقرأ هذا الكتاب حتى ردّ عليه بكتاب نقض فيه حجج النفس الزكية نقضاً قائلاً : « بلغنى كلامك فإذا جُلّ فحرك بالنساء لتُضِلّ به الجفأة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة^(٣) . . وإنكم بنو ابنة رسول الله وإنها لقربة قريبة ، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تؤمّ (في الصلاة) فكيف تورث الإمامة من قبيلها . . وأفضى أمر جدك إلى أهلك الحسن ، فسلمّه إلى معاوية بخيرقٍ ودراهم ، وأسلم في يديه شيعة . . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعمتموه . . ولقد خرج منكم غير واحد ، فقتلكم بنو أمية وحرّقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ، ورفعنا أقداركم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم . . ولقد علمت أنه توفى رسول الله صلّى

(١) انظر في ثورة النفس الزكية الطبرى

١٨٣/٦ واليعقوبى ١١٠/٣ والمسعودى

٢٢١/٣ وابن الطقطقى ص ١٢٠ .

(٢) راجع الملل والنحل للشهرستانى (طبع

لندن) ص ١١٧ .

(٣) المصبة : الذين لا يرثون إلا بما بقى من

أصحاب القروض ، يشير إلى أن جده العباس

يحجب ابن أخيه على بن أبى طالب .

الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب» (١). ولما لم تُجند المفاوضة أرسل المنصور إلى النفس الزكية جيشاً بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فالتقى به وبمن معه قرب المدينة ، واحتدم القتال ، فانهزم الناس عن النفس الزكية ، وأحيط به فلم يستسلم ولم يلق السلاح ، بل قاتل حتى قُتل واحتُزَّ رأسه وحُمل إلى المنصور . وكان أخوه إبراهيم قد مضى يدعو له في البصرة وكثرت جموعه فاستولى عليها ، وأذعنت له فارس وعظم خطره . وعاد عيسى بن موسى من الحجاز ، فوجهه المنصور إلى إبراهيم فالتقى به وبجموعه عند « باخسَمَرَا » بالقرب من الكوفة ، وسرعان ما دارت على إبراهيم الدوائر ، فقتل ولاذت جموعه بالفرار ، وأُخذ كثير من العلويين فأُلقي بهم في غياهب السجون (٢).

وإذا كان المنصور قضى على هذه الثورة العنيفة للعلويين في أيامه فإنه لم يقض على التشيع ، بل لقد أخذ يزداد مع الأيام سرّاً وجهراً ، وأخذت فرقه تتكاثر ، وأهمها حينئذ الزيدية والإمامية ، أما الزيدية فكان مقرها البصرة حيث التحمت بالاعتزال ، وأما الإمامية فكان مقرها الكوفة ، وبذلك ورث ما كان فيها من تراث شيعي ، وقد انقسمت بمرور الزمن إلى فرق كثيرة أهمها الإسماعيلية والإثناعشرية .

والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفي في حياة أبيه فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حملاً إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه كما مات إسماعيل. ويتلو محمدًا — عندهم — أربعة أئمة مستورون يعقبهم عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية . ومنهم خرجت شعبة القرامطة في البحرين . أما الاثنا عشرية فذهبت إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه موسى الكاظم الذي عاش بعده ، وسماوا بالاثني عشرية لأن الإمامة تتوالى — عندهم — في اثني عشر إماماً هم : علي فالحسن فالحسين فابنه علي زين العابدين ، فمحمد الباقر فجعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٨ هـ فموسى الكاظم المتوفى في سجن الرشيد سنة ١٨٣ هـ فعلي الرضا المتوفى سنة ٢٠٣ هـ فمحمد الجواد المتوفى سنة ٢٢٠ هـ فعلي

(٢) راجع في مقتل إبراهيم وحربه الطبري ٢٥٠/٦ واليعقوبي ١١٢/٣ والمسعودي ١٢٢/٣ وابن الطقطقي ص ١٢٢ .

(١) انظر في هذين الكتابين المتبادلين بين المنصور والنفس الزكية الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٧٨٦ والطبري ١٩٥/٦ .

المهادى ، فالحسن العسكري ، فمحمد المهدي المنتظر المتوفى حوالى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه غاب وسيعود فيملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، ولما لم يكن له ولد توقفت هذه الفرقة عنده . ومن المهم أن نعرف أنها كانت تعتنق - مثل فرقة الإسماعيلية - التقية ، فلم تجنحوا إلى ثورة علنية ضد العباسيين في هذا العصر ، وكأنما تركوا ذلك لأبناء الحسن بن على بن أبى طالب من مثل النفس الزكية وكانوا يعتنقون نظرية الزيدية .

والعجب العاجب أن نرى جمهور المسلمين في هذا العصر لا يعودون بالخلافة إلى نظام الشورى وأن تصبح حقاً للأمة ، فقد ضللتهم دعاية البيت الهاشمى وجعلتهم يقتنعون بأنها ميراث آلِ إلههم من الرسول ، وانقسموا إزاء ذلك إلى معسكرين كبيرين : معسكر عباسى بيده مقاليد الحكم ، ومعسكر علوى يحاول الوصول إلى الحكم ، وبذلك انتكست الأمة صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ شُغلت بحروب وفتن داخلية ما زالت تنخر فيها حتى توزعت دولا ، ولو أنها لم تُشغَل بها وظلت لها وحدتها لفتحت أكثر العالم وتغير وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ نظر الناس إلى الخليفة على أنه وريث شرعى وأن حقه في الخلافة مقدس ، ولو بغى وطغى وظلم ، وعليهم دائماً طاعته مهما أشاع من الطغيان والفساد . ومن غير شك تقع على الفقهاء تبعة ذلك ، إذ كان من الواجب عليهم أن يوضحوا للناس نظرية الإسلام الحقيقية في الخلافة وأنه لا يجعلها وراثية في بنى هاشم بل يقيهما على الشورى ليتولاها الأجدر بها . وبذلك أخذ الصحابة الأولون في تولية أبى بكر وعمر وعثمان ، فأجدر المسلمين كفاء للخلافة سواء أكان من البيت الهاشمى أو غيره ، وسواء أكان من بيت شريف أم بيت مشروف ، فالعبرة بالجدارة والكفاءة لا بالنسب . وشيء من هذه التبعة يقع على عاتق المتكلمين ، وحقاً إنهم عُنُوا بالرد على الزنادقة والملاحدة والدهريين ، ولكنهم قلما عنوا بالتفكير في المصلحة العامة للأمة والخروج بالخلافة من نطاق فكرة الميراث إلى نطاق فكرة الشورى بحيث تختار الأمة الخليفة الصالح دون نظر إلى هاشميته أو قرشيته .

وقد ظل العلويون يقاومون العباسيين سرّاً وجهراً ، وظل أتباعهم يزدادون ، والعباسيون يرصدونهم جميعاً ، فن حدثته نفسه بالثورة أو الفتنة قُبِلَ أو رُجِّ به

في السجون . وكان بعض شيعتهم يصل إلى أرفع مناصب الدولة ، فما هي إلا أن تُعرف سريرته حتى يُنكسبَ فنصادر أملاكه ويلقى به في غياهب السجون أو يقتل ويصلب نكالا لأمثاله . وأول ما يلقانا من ذلك بعد المنصور إيقاع المهدي بوزيره يعقوب بن داود حين علم بإطلاقه - وكان زيدى الهوى - أحد العلويين من السجن وردّ حريته إليه ، فقد ألقي به في السجن وظل سجيناً إلى أن شفع له يحيى البرمكي عند الرشيد فأمر بإطلاقه^(١) .

وفي عصر الهادي خرج الحسين بن علي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب في مكة والحجاز ، فلقبه ومنّ معه جيش عباسي بالقرب من مكة ، في مكان يقال له « فنج » وقاتل قتالاً عنيفاً حتى قُتل ، وقُتل معه كثيرون من أنصاره ، وظلوا في العراء حتى أكلتهم السباع والعقبان^(٢) . وهرب خاله إدريس بن عبد الله بن الحسن أخو النفس الزكية إلى المغرب ، فغلب على فاس وأسس بها دولة الإدارة^(٣) . وهرب أيضاً خاله يحيى بن عبد الله إلى خراسان ، وما زال الرشيد يتعقبه حتى طلب منه الأمان ، فأجابه إلى طلبه وقدم عليه ، فدفعه إلى جعفر بن يحيى البرمكي وأمره بحبسه ، فحبسه ، ورقّ له فأطلقه دون إذن الرشيد^(٤) ، مما كان سبباً في نكبته ونكبة أسرته كما أسلفنا ، ووقع يحيى في يد الرشيد ثانية فسجنه حتى مات . واعتقل الرشيد موسى الكاظم بن جعفر الصادق الإمام السابع عند الشيعة الإثني عشرية ، وظل في السجن إلى وفاته^(٥) .

ونمضي إلى عصر المأمون فيخرج عليه قبل انتقاله إلى بغداد إبراهيم بن موسى سليل الحسين بن علي بن أبي طالب باليمن وتعظم ثورته ويقضى عليه^(٦) . ويخرج محمد بن جعفر الصادق بمكة ، وسرعان ما يؤخذ فيعفو عنه المأمون^(٧) . ويخرج بالكوفة أبو السرايا داعياً لمحمد بن إبراهيم سليل الحسن بن علي بن أبي طالب

والطبري ٦/٤٥٠ ، ٤٨٥ والمسعودي ٣/٢٦٢

وابن الطقطقي ص ١٤٤ والنجوم الزاهرة ٢/١١٥ .

(٥) اليعقوبي ٣/١٤٥ والمسعودي ٣/٢٦٥

وابن الطقطقي ص ١٤٥ والنجوم الزاهرة ٢/٧٢ .

(٦) الطبري ٧/١٢٣ .

(٧) الطبري ٧/١٢٥ وابن الطقطقي ص ١٦٥ .

(١) الجهشيارى ص ١٥٩ والطبري ٦/٣٨٤ .

(٢) اليعقوبي ٣/١٣٧ والطبري ٦/٤١٠

والمسعودي ٣/٢٤٨ والنجوم الزاهرة ٢/٥٩ .

(٣) اليعقوبي ٣/١٣٧ والطبري ٦/٤١٦

والمسعودي ٣/٢٢٢ والنجوم الزاهرة ٢/٤٠ ،

٥٩ .

(٤) اليعقوبي ٣/١٤٠ والجهشيارى ص ١٩٠

المعروف بابن طباطبا ويقضى على ثورته قضاء مبرماً^(١) . وكان المأمون حر الفكر ويظهر أنه كان يأسى لما أصاب أبناء عمه العلويين في دولتهم ، واستغل ذلك فيه وزيره الفضل بن سهل ، وكان فيه تشيع لهم ، فزيّن له - وهو بمرو - أن يعهد بالخلافة من بعده إلى على الرضا بن موسى الكاظم الإمام الثامن في ترتيب الشيعة الإثني عشرية وكان مثالا للتقوى والورع وكان المأمون يبعثه ويعظمه ، فاستصوب رأى وزيره وجعله وليّ عهده من بعده ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، وأمر بخلع السواد شعار العباسيين ولُبس الخصرة شعار العلويين^(٢) . ولم يكد يصل هذا الصنيع إلى العباسيين ببغداد حتى وجدوا على المأمون موجدة شديدة ، جعلتهم يسارعون إلى خلعه والبيعة لعمه إبراهيم بن المهدي . وأحسّ أن الأمر يوشك أن يخرج من يده ، فتجهّز للمسير إلى بغداد ، وفي طريقه بطوس توفّي على الرضا ، فلم يتخذ وليّاً لعهد من العلويين ، بل عاد إلى بني العباس واغتيل حينئذ الفضل بن سهل . وما إن وصل إلى بغداد حتى اختفى عمه إبراهيم وظل مستخفياً مدة حتى عفا عنه . وعاد ثانية إلى لبس السواد ، وظل يعطف على أبناء عمه العلويين ، على الرغم من خروجهم عليه مراراً^(٣) ، وكان مما وثق هذا العطف في نفسه ثمامة بن أشرس النمري مقدم المعتزلة في مجالسه ، وكان شيعي الهوى ، ولعله هو الذي دفعه إلى أن يأمر منادياً ينادى في الناس سنة ٢١١ : «برئت الذمة من ذكر معاوية بخير أو فضله على أحد من الصحابة ، وإن أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضي الله عنه»^(٤) وأيضاً لعله هو الذي دفعه إلى أن يكتب في شهر ربيع الأول من السنة التالية إلى الآفاق بتفضيل على بن أبي طالب - رضي الله عنه - على جميع الصحابة^(٥) . وربما كانت أهم ثورة للشيعة بعد المأمون

(٣) انظر الطبري ١٦٨/٧ والنجوم الزاهرة ١٨٣/٢

(٤) الطبري في حوادث سنة ٢١١ ٢١٢٠ وراجع النجوم الزاهرة ٢٠١/٢ .

(٥) الطبري في حوادث سنة ٢١٢ والنجوم الزاهرة ٢٠٣/٢ وقد أوصى المعتصم عند وفاته بأبناء عمه العلويين خيراً وأن يتقاضى عن مسيئتهم فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى . انظر الطبري ٢١٠/٧ .

(١) اليعقوبي ١٧٥/٣ والطبري ١١٧/٧ والمسعودي ٣٤٨/٣ وابن الطقطقي ص ١٦٥ والنجوم الزاهرة ١٦٤/٢ وفي مواضع متفرقة (انظر الفهرس) .

(٢) انظر في بيعة المأمون لعلى الرضا كتاب اليعقوبي ١٧٦/٣ والطبري ١٣٩/٧ والمسعودي ٣٤٩/٣ وابن الطقطقي ص ١٦٢ والنجوم الزاهرة ١٦٩/٢ .

ثورة محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين لعهد المعتصم سنة ٢١٩
فقد خرج بالطائفتان يدعو إلى الرضا من آل محمد فاجتمع عليه خلق كثير ،
وما زالت جيوش عبد الله بن طاهر وإلى خراسان تواقعه حتى انهزم وأسر ، فأرسله
ابن طاهر إلى المعتصم فحبسه ، ولكنه هرب من السجن واختفى فلم يوقف له على
أثر ولا على خبر (١) .

وقد استأثر التشيع في هذا العصر بالجانب الأكبر من معارضة العباسيين .
أما مذهب الخوارج فضعف شأنه بسبب فتك الأمويين بهم فتكاً ذريعاً ، بحيث
لم يبق منهم إلى العصر العباسي سوى فلول في أنحاء متفرقة بعمان والجزيرة وخراسان
وتونس . وكانت نظريتهم في الخلافة وإمامة المسلمين صائبة ، غير أنهم صرفوها
إلى قتال إخوانهم المسلمين وبذلك لم يكتب لها النجاح من قديم ، فقد كانوا يرون
أن تُردّ الخلافة إلى الأمة ، بحيث يليها أجدر المسلمين بها ولو كان عبداً حبشياً ،
غير أنهم مضوا فكفروا المسلمين واستحلّت بعض فرقهم لادماءهم فحسب ، بل
أيضاً دماء أطفالهم ونسائهم ، وبذلك ضلّوا الطريق ، إذ أغمدوا الدعوة الحسنى وشهروا
السيوف متهمين إخوانهم في الدين بالكفر والردة ، وبدلاً من أن يتعاونوا معهم في
حرب أعدائهم جميعاً من الأمم الأجنبية حاربوهم حرباً عنيفة يريدون أن يمحوهم
من الأرض محواً . وبذلك لم تعد المسألة مسألة تحقيق المساواة بين المسلمين في
حقوق الحكم وما يتبع ذلك من إقرار العدالة التي لا تطيب الحياة إلا بها ولا تستقيم
إلا عليها ، بل أصبحت مسألة كفر وإيمان وسيوف مشرعة ودماء مسفوحة .

وأول ثورة تلقانا لهم في هذا العصر ثورة خوارج عُثمان الإباضيين بقيادة الجُلُندى
وقد جرّد له السفاح جيشاً جرّاراً بقيادة خازم بن خزيمة ، ففضى عليه (٢) .
وفي عهد المنصور ثار ملبّد بن حرمة الشيباني بالجزيرة ففضى عليه أيضاً خازم
ابن خزيمة (٣) ، وثار الإباضية بتونس وقضى عليهم يزيد (٤) بن جاتم المهلبى .
وفي عهد المهدي ثار بخراسان في طائفة من الخوارج يوسف بن إبراهيم المعروف
بالبرم ، فتصدّى له يزيد بن مزيد الشيباني ، وأسرّه في جماعة من أصحابه ،

(٣) طبرى ١٤١/٦ .

(١) اليعقوبى ١٩٨/٣ والطبرى ٢٢٣/٧ .

(٤) اليعقوبى ١٢٠/٣ والطبرى ٣٥٨/٦ .

والمسعودى ٨/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٠/٢ .

(٢) طبرى ١١٤/٦ .

وبعث بهم جميعاً إلى المهدي ، فأمر بقتلهم وصلبهم^(١) ، وثار بقنسر بن عبد السلام الخارجي وقضى عليه بعض^(٢) القواد . وفي عهد الرشيد ثار الوليد بن طريف الشيباني بالجزيرة واشتدت شوكته ، فوجه إليه إبراهيم بن خازم بن خزيمه فقتل به ، وسار إلى أرمينية وكثرت بها جموعه ، فجرد له الرشيد يزيد بن مزيد في جيش كثيف ، فحققه محققاً^(٣) . وعاث حمزة الشاري في خراسان ولقى حتفه^(٤) ، كما عاث ثروان الحروري في ضواحي البصرة ولقى نفس المصير^(٥) . وفي عهد المأمون خرج مهدي بن علوان الحروري بسواد العراق وباعت ثورته بالفشل^(٦) على نحو ما باعت ثورة بلال الشاري^(٧) . ولا نسمع بعد ذلك عن ثورات للخوارج إلا ما كان من ثورة محمد بن عمرو الشيباني بديار ربيعة وقضاء أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري عليه^(٨) . وعلى هذا النحو كان الخوارج لا يلبثون — حين يثورون — أن يُقضى عليهم ، وفرق بعيد بين ثوراتهم في هذا العصر وثوراتهم في العصر الأموي ، فقد أخذت دعوتهم تضعف ضعفاً شديداً ، ولعلها من أجل ذلك لم تترك أثراً واضحاً حينئذ في الحياة الأدبية إذ قلما نجد لهم شاعراً معروفاً .

٥

أحداث مختلفة

لم تطل مدة أبي العباس السفّاح إذ سرعان ما توفي سنة ١٣٦ وخلفه أبو جعفر المنصور ، وهو يُعدُّ المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، فهو الذي أصلها « وضبط المملكة ورتب القواعد وأقام الناموس »^(١) ولم يكد يتسلم مقاليد الحكم حتى ثار عليه عمه عبد الله في شمالي سوريا وكان يقود جيشاً ضخماً لحرب البيزنطيين ،

- | | |
|-------------------------------------|--------------------------------|
| (١) طبري ٣٥٨/٦ واليعقوبي ١٣٠/٣ | (٥) طبري ٤٢٥/٦ |
| والنجوم الزاهرة ٢٧/٢ | (٦) طبري ١٤٢/٧ |
| (٢) طبري ٣٧٢/٦ وانظر النجوم الزاهرة | (٧) طبري ١٨٩/٧ والنجوم الزاهرة |
| ٤٢ ، ٤١/٢ | ٢٠٩/٢ |
| (٣) طبري ٤٦٥/٦ والنجوم الزاهرة ٩٢/٢ | (٨) اليعقوبي ٢٠٧/٣ |
| ٩٥ ، | (٩) انظر ابن الطقطقي ص ١١٦ |
| (٤) طبري ٤٧٢/٦ | |

فوجه إليه المنصور أبا مسلم الخراساني في جيش جرار ، فهزمه هزيمة منكرة فرّ على إثرها إلى البصرة عند أخيه سليمان بن علي واليها ، فأخذ يستعطف له هو وأخوه عيسى ابن علي والي الأهواز المنصور حتى رضى أن يكتب له كتاب أمان ، وتولى ابن المقفّع كتابته فشدّد فيه العهد والميثاق على المنصور حتى أحفظه عليه . ومازال المنصور يُمكّر بعمه حتى وفد على بابه ، فحبسه مدة إلى أن مات في حبسه (١) .

ولم يكن همُّ المنصور بعد القضاء على ثورة عمه إلا أخذ أبي مسلم الخراساني وكان قد عزم بعد هزيمته لعبد الله بن علي أن يعود إلى خراسان ، وخشى المنصور أن تحدثه نفسه بخلعه حين يرجع إلى موطنه ، إذ كان كل منهما يجد على صاحبه موجدة شديدة ، فكتب إليه بالقدوم عليه ، وخشى أبو مسلم مغبة قدومه ، فكتب إليه بالطاعة وأنه متوجه إلى خراسان . وقلق المنصور ، وكان مدبراً ذاهية ، فكتب إليه يؤكد له حسن رأيه فيه ذاكرّاً خدماته لدولتهم ، وأرسل له رسلاً يزبنون له المثل بين يديه ، فما زالوا به حتى قدم عليه ، وكان بالقرب من المدائن ، فلما دخل إليه لقيه بالتوبيخ والتفريع ، ولم يلبث أن قتله ، وبادر إلى مَنْ كانوا معه من القواد فأعطاهم جوائز سنّية وفرّق في جنده أموالاً كثيرة ، فرضخوا للواقع ورضوا به (٢) .

وغضب أتباع أبي مسلم في خراسان حين علموا بمصيره ، ولم يلبث أن ظهر بينهم سبّاذ ، فقادهم معلناً أن أبا مسلم لم يمت وإنما اختفى وسيعود ليرفع الظلم وينشر العدل ، وتابعه كثير من مكوّنين فرقة المُسلمية أو الحرّمية (٣) ، وقدم بهم إلى الرّى فغلب عليها ، والتقى به المنصور بن جمهور العجلي في جيش كثيف ، فقضى عليه وعلى ثورته (٤) ، ولكنه لم يقض على عقيدة فرقته ، فقد أخذت تَسْرى في نفوس كثير من الخراسانيين والإيرانيين مختلطة بالعقائد المزدكية .

وكان السفاح قد جعل ولاية العهد بعد المنصور لعيسى بن موسى فرأى المنصور أن يحولها عنه إلى ابنه المهدي وما زال به حتى خلع نفسه منها ، فصيرّها في ابنه ،

(٣) انظر في الحرّمية وعقيدتهم المسعودي

٢٢٠/٣ والفرق بين الفرق (طبع مصر)

ص ٢٥١ .

(٤) الطبري ١٤٠/٦ والمسعودي ٢٢٠/٣

وابن الطقطقي ص ١٢٥ .

(١) الجهشباري ص ١٠٣ واليعقوبي

١٠٤/٣ والطبري ١٢٤/٦ ، ١٤٥ ، ٢٦٩

والمسعودي ٢٣٠/٣ والنجوم الزاهرة ٧/٢ .

(٢) طبري ١٣٠/٦ واليعقوبي ١٠٢/٣

والمسعودي ٢١٧/٣ .

وبايعة الناس^(١) ، وأقرَّت بذلك بلدان الخلافة ما عدا باذغيس إذ ثار بها شخص يسمى أستاذسيس ادَّعى النبوة وتبعه خلق كثير وتفاقم شره ، فتصدى له خازم ابن خزيمة التميمي وفضَّ جموعه ، وحمله إلى المنصور أسيراً ، فأمر بقتله^(٢) .

وولى المهدي بعد أبيه سنة ١٥٨ وفي عهده تحركت الحرَّمية حركتين ، أما أولاهما فحركة رجل من أتباع أبي مسلم يسمى حكيماً من أهل مرو ، وقد أعلن ثورته في سنة ١٦١ واتخذ لوجهه قناعاً من ذهب ركَّبه عليه حتى لا يُرَى ، ولذلك اشتهر باسم المقنَّع الخراساني . وكان يقول بتناسخ الأرواح ، فزعم أنه نبي وأنه التجسد الجديد للذات الإلهية بعد أبي مسلم . وبايعة خلق عظيم أضلهم واستغواهم حتى كانوا يسجدون إلى ناحيته ، وثب بهم على بعض ما وراء النهر ، فوجه إليه المهدي القواد وعلى رأسهم سعيد الحرَّسيّ ، فاعتصم منهم بقلعة من أعمال كش على مقربة من جرجان ، ولما يثس من المقاومة أضرم ناراً عظيمة أحرق بها كل ما في القلعة من دواب وثياب ومناج وألقى فيها بنفسه وأولاده ونسائه ، ويقال : بل مَصَّ سَمّاً وأسقى نساءه وأولاده فتتلف وتلفوا ، وبذلك خمدت حركته^(٣) . أما الحركة الثانية فكانت في سنة ١٦٢ إذ ظهرت طائفة من الحرَّمية بجرجان تسمى الحمَّرة لحرمة رباياتها ، وكان على رأسهم شخص يسمى عبد القهار ، فقتلوا وأفسدوا وعاثوا في الأرض ، فسار إليه من طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وقتله ودمَّر جنده^(٤) .

وعظمت - في عهد المهدي - حركة الزندقة ببغداد والعراق ، ورأى المهدي فيها شراً مستطيراً يتهدَّد كيان الدولة والإسلام جميعاً ، فجَدَّ في طلب الزنادقة منذ سنة ١٦٦^(٥) وقيل بل منذ سنة ١٦٣ واتخذ لهم ديواناً يتعقبهم ، جعل عليه عمر الكلواذاني^(٦) ، وأخذ يقتلهم ويصلبهم نكالا لغيرهم ، وكان ممن قتله عبد الله ابن وزيره أبي عبيد الله وبشار بن بُرد وتوفَّى الكلواذاني سنة ١٦٨ فخلفه على الديوان حمْد وَينَه^(٧) وهو محمد بن عيسى من أهل ميسَّسان .

والنجوم الزاهرة ٤٢/٢ .
(٥) الجهشيارى ص ١٥٣ وقارن بالنجوم الزاهرة ٤٥/٢ .
(٦) الجهشيارى ص ١٥٦ والكلواذاني نسبة إلى كلواذا وهي قرية على بعد فرسخين من بغداد .
(٧) اليعقوبي ١٣٣/٣ والطبري ٣٩١/٦ والنجوم الزاهرة ٥٥/٢ ، ٥٦ .

(١) اليعقوبي ١١٥/٣ والطبري ٢٧١/٦ وابن الطقطقي ص ١٢٦ والنجوم الزاهرة ٧/٢ ، ٥٣ ،
(٢) اليعقوبي ١١٥/٣ .
(٣) طبري ٣٦٧/٦ ، وابن الطقطقي ص ١٣٢ والنجوم الزاهرة ٣٨/٢ ، ٤٥ .
(٤) اليعقوبي ١٣٠/٣ والطبري ٣٧٣/٦ .

وفي عهد المهدي أغار الروم على سميساط^(١) ونكّلوا بأهلها ، فجرد إليهم جيشاً ضخماً بقيادة العباس بن محمد فبلغ أنقرة . وتوالى غزو الروم حتى إذا كانت سنة ١٦٣ تولى هرون الرشيد قيادة الجيوش الغازية ، فعصف بهم عصفاً ، حتى إذا كانت سنة ١٦٥ بلغ خليج القسطنطينية دون مقاومة تذكر ، وامتلاً الروم هولاً ورعباً وفزعاً ، فتعهدوا أن يؤدوا الجزية كل عام سبعين ألف دينار وهم صاغرون^(٢) .

وبما يؤثر للمهدي لإجراؤه الرواتب على المجذمين . وتوفي سنة ١٦٩ فخلفه ابنه الهادي ، وسار على سنته في تتبع الزنادقة وقتلهم ، وفي عهده خرج دحية بن المصعب ابن الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان بناحية أهناس في صعيد مصر وملك أكثر بلاده ، وهزم جيوش الولاة مراراً ، وأخيراً قُضى عليه في سنة ١٦٩^(٣) . واعتزم الهادي خلع الرشيد من ولاية عهده ، ولكن يحيى البرمكي عرف - كما قدمنا - كيف يصرفه عن ذلك ، وسرعان ما توفي بعد أربعة عشر شهراً من خلافته .

وولى الرشيد سنة ١٧٠ وامتدت خلافته إلى سنة ١٩٣ ويُعدُّ عصره العصر الذهبي للخلافة العباسية بما بلغته من أبهة الملك وفخامته ، ولا تزال ذكراه حيّة في نفوس العرب إلى اليوم ، وربما كان للقصص المحكية عنه في « ألف ليلة وليلة » أثر في ذلك فإن مترجميها وواضعي بعض قصصها رأوا أن يدخلوه في ثنايا القصص حتى يصوروا ما بلغته بغداد من الرّفه والتّرف والبذخ . وحفلت حينئذ بالعلماء من كل صنف والمترجمين والأطباء والشعراء والمغنين والمغنيات والحواري من كل جنس وعلى كل لون . وكان الرشيد كدّيفاً بالسماع والمتاع بنعيم الحياة مع إعطاء الدين حقوقه ، يقول ابن الطقطقي : « كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، وكان يحج سنة ويغزو سنة كذلك مدة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة ، وحجّ ماشياً ، وكان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم . . ولم يرَ خليفة أسمح منه بالمال ، وكان يحب الشعر

(١) سميساط : مدينة غربي الفرات في طرف

والنجوم الزاهرة ٤٧/٢ .

(٣) اليعقوبي ١٣٧/٣ والنجوم الزاهرة

٤٩/٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٠ .

(٢) اليعقوبي ١٣٥/٣ والطبري ٣٧٩/٦

والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه» (١) وكان إذا لم يحجَّ أحجَّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابعة والكسوة الباهرة ، وكان يتصدق من صُلْب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته (٢) ، وكانت أيامه تشبّه بأيام العروس لما امتازت به من بهاء وجمال .

ولم تخل أيامه من الفتن والثورات ، وقد ذكرنا آنفًا ما كان من حركات بعض العلويين والخوانسار ، وفي عهده هاجت العصبية بالشام بين اليمنية والمضرية وأطفا نائرتها جعفر بن يحيى البرمكي (٣) ، وثار أهل الخوف بمصر وقضى على ثورتهم هَرَثمة بن أعين كما قضى على ثورة أخرى بإفريقية (٤) ، وثار الحمرة بجرجان وفضّ جمعهم على (٥) بن عيسى بن ماهان ، وانتفض الخزر في القوقاز وأرمينية وقلم أظافرهم خازم (٦) بن خزيمة ويزيد بن يزيد الشيباني ، وثار الحرّمية بأذربيجان وعصف بهم عبد الله (٧) بن مالك ، وثار بلاد الزاب جنوبي الجزائر ، وأعاد الأمن إلى نصابه هناك إبراهيم بن الأغلب فكافأه الرشيد بكتابة عهد له على إفريقية نظير خراج يؤديه سنويًا ، فأنشأ هناك دولة الأغالبة ، واتخذ حاضرة له «العباسة» التي بناها جنوبي القيروان .

وامتنع نقفور لإمبراطور بيزنطة عن أداء الجزية التي فُرضت على بلاده في عهد المهدي ، كما أسلفنا ، ولم يكتف بذلك فقد كتب إلى الرشيد يطالبه برد ما أدّوه منها في السنوات الماضية ، وكتب إليه الرشيد على ظهر كتابه : «بسم الله الرحمن الرحيم ، من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام» (٨) وشخص إليه على رأس حملة قوية اخترق بها آسيا الصغرى وغنم مغنم كثيرة وافتتح هرقله ، فارتاع نقفور وفرغ فرعًا شديدًا وتعهد بأداء الجزية صاغراً (٩) . ورأى الرشيد - فيما يقال - أن يصطنع شارلمان ملك الفرنجة في غربى أوروبا حتى يؤديه ضد إمبراطور

(٥) طبرى ٤٦٦/٦ .

(٦) طبرى ٤٧١/٦ .

(٧) طبرى ٥٢٤/٦ والنجوم الزاهرة ١٣٩/٢ .

(٨) طبرى ٥٠١/٦ .

(٩) طبرى ٥٠٩/٦ .

(١) ابن الطلق ص ١٤٣ .

(٢) طبرى ٥٣٠/٦ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٤٥٧/٦ .

٤٦٦ .

(٤) طبرى ٤٦١/٦ .

بيزنطة ، وكان شارلمان يود لو أيدته الرشيد ضد الأمويين في الأندلس ، وسفرت بينهما السفارات وتبادلا هدايا ثمينة ^(١) .

وفي سنة ١٩٠ ثار رافع بن الليث بسمرقند وتفاقمت ثورته ، فرأى الرشيد أن يسير إليه بنفسه في سنة ١٩٢ . ولكنه توفي في طريقه إليه بطوس سنة ١٩٣ ، وتمت الغلبة بعد ذلك على رافع وشيعته . وكان الرشيد قد عقد ولاية العهد من بعده لابنه محمد سنة ١٧٣ ولقبه بالأمين ، وضمَّ إليه الشام ومصر ، ثم عقد لابنه عبد الله ولاية العهد من بعد أخيه سنة ١٨٣ ولقبه بالمأمون ، وضمَّ إليه الولايات الشرقية ، وأكد هذا العقد بين الأخوين بتوقيعهما عليه وقسمهما على الوفاء به وتعليقه ^(٢) في الكعبة سنة ١٨٦ وفيها بايع الرشيد بولاية العهد لابنه القاسم بعد أخويه ولقبه المؤتمن وضمَّ إليه الجزيرة والثغور وكان لا يزال صبيًّا .

وكان هذا الصنيع من الرشيد نذير شؤم فإن بساطاً قد يتسع لنوم عشرة من الناس ، ولكن مملكة بأسرها لا تتسع لسلطان حاكمين . فلم يكد ينتقل الرشيد إلى جوار ربه حتى شجر الخلاف ^(٣) بين الأمين والمأمون إذ أخذت حاشية الأمين تسوّل له أن ينقض العهد الموثق في البيت الحرام . وشاءت الظروف أن يقع الأخوان فريسة للتنافس بين الحزبين : العربي والفارسي ، وكان الحزب الأول يغلب على الأمين بينما كان الحزب الثاني يغلب على المأمون ، وكانت أم الأمين هاشمية عربية فهي زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، بينما كانت أم المأمون أمة فارسية تسمى مراجل . وما زال الحزب العربي - فيما يقال - يغوى الأمين بخلع أخيه وتولية ابنه موسى ولاية العهد من بعده ، حتى استجاب له ، وتردّت المراسلات بينه وبين المأمون وأوشك أن يجيئه إلى ما يريد من خلع نفسه ، ولكن الفضل بن سهل وزيره ردّه عن ذلك ونهض بأمره ، واستمال له الناس ، وضبط الثغور .

ولم يلبث الأمين أن أمر بقطع اسم المأمون من خطبة الجمعة وصنع المأمون صنيعة بخراسان ، وأخذ في إعداد الجيوش ، وسارع الأمين فأنفذ على بن عيسى

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمن

(الترجمة العربية) ٢١/٢ وقصة الحضارة

لؤل ديورانت (الترجمة العربية) ٩٤/١٣ .

(٢) الطبري ٤٧٥/٦ والمسمودي ٢٧٠/٣ ،

٣٠٨ والنجوم الزاهرة ١١٩/٢ .

(٣) انظر في هذا الخلاف الطبري ٢/٧

والمسمودي ٣٠٢/٣ ، ٣٠٨ والجهشياري

ص ٢٨٩ وابن الطقطقي ص ١٥٩ .

ابن ماهان في جيش جرار لمنازلة المأمون وجنده والتقى به في الرى طاهر بن الحسين ، فقتله ومزق جيشه تمزيقاً . وشغب الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان على الأمين فخلعه وجبسه ، غير أن بعض العسكر خلصوه ، ونعجب إذ نراه يعفو عنه ويؤليه قيادة جيشه ويوجهه إلى طاهر ، ويلقاه ، غير أنه سرعان ما يفر ويقتل في فراره ، كما يقتل قواد آخرون أرسل بهم الأمين . وفي هذه الأثناء تدخل مكة والمدينة في طاعة المأمون ، ويحاصر قائداه طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بغداد لنحو خمسة عشر شهراً ويرميانها بالحنانيق فيكثر بؤا الحرق والهدم وتفضى الحياة فيها إلى هول هائل ، فتنهب الأموال وتقترب المنكرات ، ويحاول سهل بن سلامة الأنصاري وابن الدريوش أن يقمعا الفساد وشذوذ الدُّعَّار^(١) ولكن أنى لهما أن يدفعا ما تردّت فيه بغداد من أهوال الشر ، والنيران تأخذها من كل جانب أياماً طويلاً والمساجد قد عطلت والصلاة قد أهملت . ويبكى الشعراء من أمثال الحريري بغداد بكاء مرّاً ، وتسقط محلاتها محلة إثر محلة في يد الجيوش المحاصرة ، ولا يجد الأمين أخيراً مفرّاً من الاستسلام ، فيسلم نفسه لأعدائه ، ويقتل في طريقه لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ ويصبح الأمر خالصاً للمأمون ، وما توافى سنة ٢٠١ حتى يعزل أخاه القاسم من ولاية العهد ويولى عليها مكانه علي الرضا كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وتثور عليه أسرته ببغداد ، وتبايع عمه إبراهيم بن المهدي فيعزم على المسير إلى دار السلام ، ويدخلها في شهر ربيع الأول سنة ٢٠٤ ، فيتوارى عمه إبراهيم مدة ويعفو عنه كما أسلفنا .

وعصر المأمون من أزهى عصور الدولة العباسية ، فقد كان حر الفكر شغوفاً بالمعرفة ، ولم يكد يستقر في بغداد حتى جعل من مجامع ندوة علمية كبيرة يتحاور فيها ويتناظر الفقهاء والمتكلمون والعلماء من كل صنف ، وجعله اتصاله بعلماء الكلام وفي مقدمتهم ثمامة بن أشرس النمرى وبشر بن غياث المريسي يعني بالفلسفة وعلوم الأوائل حتى مهر فيهما ، وقد استطاعا أن يجرّاه إلى الاعتزال وإلى القول بأن القرآن مخلوق ، وأن من لا يقول بذلك يدخل في عداد المشبهة ، وما توافى سنة ٢١٢ حتى يجعل المأمون من فكرة خلق القرآن عقيدة رسمية للدولة ، ويكتب إلى الآفاق

(١) طبى ١٣٦/٧ وما بعدها .

بامتحان^(١) الفقهاء فيها ، فمن لم يقر بأنه مخلوق ضُرب وحبس وأشخص إلى بغداد . وتوفى ثمانية سنة ٢١٣ وتولى كبر هذه المحنة بشر المريسى المتوفى سنة ٢١٨ ثم أحمد ابن أبى دؤاد أحد رموس المعتزلة ، لا فى عهد المأمون فحسب ، بل أيضاً فى عهد المعتصم والوائق أى إلى نهاية هذا العصر . وأعظم سنة اشتدت فيها هذه المحنة سنة ٢١٨ إذ عنف المأمون بالفقهاء عنفاً شديداً ، فضرِب من لم يُقرأ بأن القرآن مخلوق وأهينوا وردّ عوا بالسيف وغيره ، وكان ممن ثبت على رأيه أحمد بن حنبل فقيّد وأمر المأمون بأن يحمل إليه هو ومن امتنع مثله عن الإقرار بخلق القرآن ، وكان يغزو بأرض الروم شمالى الشام ، فأوثقوا بالحديد ، وحُمِلوا إليه . وما إن وصلوا إلى الرقة ، حتى جاء الخبر بنعى المأمون ، فردُّوا إلى بغداد ، وعاد المعتصم إلى امتحان ابن حنبل ، فثبت للمحنة ولم يرجع عن رأيه .

وقد حدثت فى عصر المأمون ثورات كثيرة كان يعهد فى إخمادها إلى قواده الأكفاء من مثل طاهر بن الحسين ، وقد ولّاه خراسان فى سنة ٢٠٥ ففضى على رموس الفتن بها ، ويقال إنه فكر فى خلع طاعة المأمون ولكن الموت عاجله ، وجعل المأمون بعده ولاية خراسان لابنه طلحة فظل بها إلى وفاته سنة ٢١٣ وولى المأمون عليها من بعده أخاه عبد الله فأسس هناك الدولة الطاهرية التى ظلت نحو قرن من الزمان . وكان عبد الله قد أدّى للدولة خدمات جليلة ، إذ ولّاه المأمون الرقة لحرب نصر بن شبث العقيلي وضيق عليه الخناق حتى ألقى له عن يد طالباً الأمان^(٢) لسنة ٢٠٩ وكانت نار الفتنة مشتعلة^(٣) بمصر منذ حروب الأمين والمأمون ، إذ ناصرت القيسية الأمين واليمينية المأمون ، واشتبكت الفتنان فى حروب دامية ظلت مضطربة ، وظلت معها القلاقل ، وزاد فيها نزول جموع من الأندلس فى الإسكندرية كان قد طردهم الحكم أمير قُطْرهم فولّوا وجوههم إليها واستولوا عليها . فرأى المأمون أن يولّى على مصر عبد الله بن طاهر حتى يجمع ما بها من فتن وحتى يرد الأندلسيين

وابن طيفور ص ٧٧ .
(٣) انظر فى أحداث مصر التسالية الطبرى
١٧١/٧ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، والنجوم الزاهرة
٢١٠/٢ - ٢١٦ واليعقوبى ١٨٧/٣ - ١٩٢ .

(١) انظر فى هذه المحنة الطبرى ١٩٥/٧ وما بعدها واليعقوبى ١٩٤/٣ وكتاب بغداد لابن طيفور (طبع القاهرة) ص ١٨١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/٢ ، ٢١٨ وما بعدها ، ٢٢٤ .
(٢) اليعقوبى ١٨٧/٣ والطبرى ١٧١/٧ ،

عن الإسكندرية ، فدخلها في ربيع الأول سنة ٢١١ وهزم عبيد الله بن السرى وأعاد الأمن إلى نصابه ، وأكره الأندلسيين على الانسحاب إلى جزيرة إقريطش (كريت) فزولوها واستوطنوها لسنة ٢١٢ ، وعاد ابن طاهر إلى بغداد في رجب من نفس السنة واستخلف عليها عيسى بن يزيد الجلودى فأقره المأمون على إمرتها ، وعزله في السنة التالية وولّى عليها أخاه المعتصم ، فاستخلف عليها عمير بن الوليد ، وثار عليه القيسية واليمنية ، وخرج لحربهم بالحوّف في ربيع الأول لسنة ٢١٤ غير أنه قتل في المعركة ، فاستخلف عليها المعتصم عيسى بن يزيد الجلودى ثانية ، واشتبك مع اليمنية والقيسية وهزموه هزيمة منكرة ، فخرج إليها المعتصم بنفسه ، فقمع ما بها من فساد ، وعاد إلى الموصل . وثار القبط في مستهل سنة ٢١٦ وقضى على ثورتهم الأفشين ، غير أن الفتن ظلت قائمة بمصر حتى دخلها المأمون لخمس خلون من المحرم سنة ٢١٧ فههّدها ورتب أحوالها واستقرت ، وقد ظل بها تسعة وأربعين يوماً .

وكانت قد اندلعت في أذربيجان منذ سنة ٢٠١ ثورة عنيفة للخرمية بقيادة بابك ، فوجه إليه المأمون محمد بن حميد الطوسي سنة ٢١٢ فواقعه مراراً منكلاً به وبأنصاره ، حتى إذا كانت سنة ٢١٤ خانه الحظ في بعض معاركه معه ، فخرّ صريعاً^(١) ، وكان لذلك رنة حزن عميقة في العالم العربى جعلت الشعراء يبيكونه طويلاً . وبعث المأمون إلى بابك من بعده على بن هشام وخالد بن يزيد الشيباني ، فاشتبك معه في غير موقعة ، ولكنهما لم يستطيعا القضاء عليه . وعلم المأمون أن لإمبراطور بيزنطة يعين بابك في حروبه ، فاستشاط غضباً ، وأخذ منذ سنة ٢١٥ يقود بنفسه حملات عنيفة ضده وضد البيزنطيين^(٢) ، يتقدمه قواده من أمثال أخيه المعتصم والأفشين وخالد بن يزيد الشيباني وجعفر الخياط ، ومضى في بعض حملاته حتى بلغ أنقرة ، فارتعدت فرائص تيوفيل لإمبراطور بيزنطة وطلب الصلح والمهادنة ، غير أن المأمون ظل يوالى حملاته حتى إذا كان في آخر حملة له سنة ٢١٨ نزل به مرض شديد ، ولم يلبث أن لبّى نداء ربه في موضع يسمى «البُدَندون»

واليمقوي ١٩٣/٣ والنجوم الزاهرة في السنوات ٢١٥-٢١٨ وكتاب العرب والروم لغازيليف (نشر دار الفكر العربي) ص ٨٩ وما بعدها .

(١) اليمقوي ١٩٠/٣ والطبرى ١٨٩/٧ والنجوم الزاهرة ٢٠٩/٢ .
(٢) انظر الطبرى ١٨٩/٧ وما بعدها

وقد حُمل منه جثمانه إلى طرسوس .

ويخلف المعتصم أخاه المأمون وتظل في عهده محنة القول بخلق القرآن قائمة وإن كان قد خفف من حدتها كثيراً . وكان قد استكثر من الترك وأذوا العامة في بغداد فبنى لهم سامراء ، كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع . وفي أوائل عهده ثار الزُّطُّ بالبصرة وقضى على ثورتهم عجيف^(١) بن عنبسة . وماتوا في سنة ٢٢٠ حتى يعد جيشاً ضخماً لحرب بابك بقيادة الأفشين ويمده بكثير من القواد أمثال أبي دُلَاف العجلى ومحمد بن يوسف الثغرى ، وتتوالى انتصارات هذا الجيش على بابك وشيعته ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٢ سُحقت جموعه سحقاً ، واستسلم صاغراً^(٢) ، ولم يلبث أن أُدخل إلى بغداد مقيداً مغلولاً ، فتعالى التكبير ، وقتل وعُلقت رأسه وأُحرق جسده عبرة ونكالا . وكان إمبراطور بيزنطة — كما ذكرنا آنفاً — يضع يده في يد بابك ، وحدث أن أغار على زَبْطُرَة^(٣) وأعلى الفرات فأمر المعتصم بإعداد جيش جرَّار لتأديبه قاده بنفسه ، ووطئت جنوده بلدان^(٤) الروم في آسيا الصغرى بقيادة الأفشين وجعفر بن دينار وخالد بن يزيد الشيباني ومحمد بن يوسف الثغرى وغيرهم ممن ساموا البيزنطيين ذلاً وصغاراً ، وقد أخبروا فيما أخبروا أنقرة وسلطوا مجانيقهم على عمورية حتى فتحت أبوابها عنوة . وعاد المعتصم قرير العين ، وعلم في عودته أن العباس ابن أخيه المأمون يدبر مؤامرة ضده ، فأحبط مؤامره . وثار مازيار بطبرستان سنة ٢٢٤ وجاءت به الجيوش التي حاربتة مكبلاً بالحديد إلى بغداد ، فقتل وصلب^(٥) . وثبت أن الأفشين كان يكاتبه سرّاً آملاً في عودة دين آبائهما المجوس ، فسجنه المعتصم سنة ٢٢٥ وظل في سجنه حتى مات وصلب بعد موته^(٦) .

وتوفى المعتصم سنة ٢٢٧ فخلفه ابنه الواثق ، وقد أعاد محنة القول بخلق القرآن

واليعقوبى ٢٠١/٣ والمسدودى ١٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٨/٢ وفازيليف ص ١٢٤ وما بعدها .

(٥) اليعقوبى ٢٠٢/٣ والمسدودى ١٦/٤ والطبرى ٣٠٢/٧ والنجوم الزاهرة ٢٤٠//٢ .

(٦) اليعقوبى ٢٠٣/٣ والطبرى ٣٠١/٧ والمسدودى ١٦/٤ والنجوم الزاهرة ٢٤٢/٢ .

(١) طبرى ٢٢٥/٧ واليعقوبى ١٩٨/٣ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٢ .

(٢) أنظر الطبرى ٢٢٦/٧ وما بعدها واليعقوبى ٢٠١/٣ والمسدودى ١٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٢/٢ وما بعدها .

(٣) زبطرة : مدينة بين سميساط والحدث في الطريق إلى بلاد الروم .

(٤) أنظر في هذه الحملة الطبرى ٢٦٣/٧

جذعة ، إذ نراه يكتب إلى الولايات المختلفة بامتحان الفقهاء والعنف بمن لا يُقرّون
بأنه مخلوق . ولم تحدث في سنواته الخمس فتوق كثيرة سوى ما كان من شغب
بعض الأعراب في الحجاز وقد قضى على شغبهم بغا الكبير^(١) . وشغب
بعض الأكراد وسحق شغبهم وصيف^(٢) التركي . وسرعان ما توفّي الواثق
سنة ٢٣٢ للهجرة .

(٢) طبرى ٣٣١/٧ .

(١) طبرى ٣٢٢/٧ وما بعدها واليعقوبي
٢٠٥/٣ والنجوم الزاهرة ٢٥٧/٢ .

فصل الثانی

الحياة الاجتماعية

١

الحضارة والثراء والترف

لما فتح العرب العراق وإيران والشام ومصر ورثوا ما فى الأولى والثانية من الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية وما فى الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية ، وأخذوا يكوّنون من ذلك ومن تراثهم العربى الخالص حضارتهم الإسلامية ، وكان طبيعياً أن تغلب على الأمويين بدمشق الحضارة البيزنطية وما كان بالشام من عناصر سامية حضارية ، حتى إذا نقل العباسيون حاضرة الخلافة إلى العراق غلبت عليهم الحضارة الساسانية وغلبت على ما كان به من عناصر كلدانية وآرامية ، وهى تبدو واضحة فى بناء بغداد إذ أقامها المنصور مستديرة على شاكلة طيسيفون المعروفة باسم المدائن حاضرة الساسانيين ، وابتنى فيها قصره المعروف بقصر الذهب على طراز قصورهم ذات الأواوين الفخمة .

وقد كشفت حفائر سامراء عن طريق بناء الدور والقصور لافها فحسب ، بل أيضاً فى بغداد ، فقد كان يصل بين الدار والقصر وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف^(١) يفضى إلى فناء واسع يسلم إلى القاعة الكبرى أو الإيوان ، وتتناثر فى الدهليز والفناء عُرف متجاورات للسكنى والمرافق المنزلية ، وتتصل بالإيوان بعض الغرف الصغيرة . ويجانب الفناء الكبير للدار أفنية صغرى ثانوية تعلوها بعض القباب ، وأكبرها جميعاً قبة الإيوان . وفى الدار حمامات ومجار تحت الأرض وسرايب معدة للسكنى ، وتكثر الأساطين فى الأفنية ، وتكثر الشرفات وتلحق بها

الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٢٠٩
ووصف إيوان قصر المعتصم فى الموشح للمرزبانى
ص ٣٠١ .

(١) انظر فى ذلك كتاب الحضارة الإسلامية
لآدم ميتز (الترجمة العربية) ١٥١/٢ وما
بعدها ، وراجع وصف إيوان قصر الأمين فى طبقات

بعض البساتين وبعض النافورات والبرك . وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش وتتألق النوافذ بالزجاج الملون ، وتزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار ، وقد يذهب السقف والأبواب والحيطان وتعلق هنا وهناك ستائر الحرير المزركشة ، وقد تحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء ، أما أرض الدار فكانت تموج بالبسط الإيرانية والأرمنية والطنافس ومناضد الآبنوس والتحف الثمينة وتمائيل العقيان والحمامات المذهبة والأواني المرصعة بالجوهر . ولا ريب في أن هذا البذخ إنما كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسي ومن الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين شعراء ومغنين ومن العلماء والمثقفين ، وكأنما كُتب على الشعب أن يكدح ليملاً حياة هؤلاء جميعاً بأسباب النعيم ، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق . ومردُّ ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد ، وقد مضوا هم وبطاناتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة ، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد ، وطبقات قُتِرَ عليها في الرزق ، فهي تشقى إلى غير حد ، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم .

وكانت خزائن الدولة هي المعين الغدق الذي هيا لكل هذا الترف ، فقد كانت تُحمَل إليها حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض ، حتى قالوا إن المنصور خلَّف حين توفي أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستائة مليون من الدراهم ^(١) وإن دخل بيت المال سنوياً لعهد الرشيد كان نحو سبعين مليوناً من الدنانير ^(٢) . وكانت هذه الأنهار الدافقة من الأموال تُصَبُّ في حجور الخلفاء ومن يحفّ بهم من بَيْتِهِمْ ومن الوزراء والقواد والولاة والعلماء والشعراء والمغنين . ونسوق من ذلك أطرافاً تصور ما آل إليه ذلك من شيوع الإقطاع والثراء العريض في الطبقة الحاكمة وحواشيها ومن يلوذون بها ، فقد روى عن المنصور أنه فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم في كل عام ^(٣) ، ويقال إن غلّة

وضحي الإسلام (الطبعة الأولى) ١ / ١١١ .

(٣) طبرى ٦ / ٣٢٧ .

(١) المسعودي ٣ / ٢٣٢ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة

البهية) ص ١٢٧ والجهمشيارى ص ٢٨١

الخيزران زوجة المهدي من إقطاعاتها كانت تبلغ سنوياً مائة وستين مليوناً من الدراهم^(١)، وكانت إقطاعات محمد بن ساليان بن علي العباسي والى البصرة تُدرّ عليه كل يوم مائة ألف درهم^(٢)، وكانت للفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين قطيعة تُغِلّ له سنوياً مليون درهم^(٣)، ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن عمرو ابن مسعدة وزير المأمون خلّف بعد وفاته ثمانين ألف ألف دينار ونُقل ذلك إلى المأمون فلم يأخذه العجب، بل قال: هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا^(٤).

وكان الخلفاء والوزراء والولاة والقواد يغدقون على العلماء والأطباء والشعراء والمغنين، ورَسَمُ المهدي لمروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على مدحته ذائع مشهور، وكان يصنع الصنيع نفسه مع المغنين^(٥) حين يطرب لبعض أصواتهم، وتجاوز رسمه لمروان ابنه الهادي فأعطاه يوماً على مدحته فيه مائة وثلاثين ألف درهم^(٦)، وأطربه مغن فأهداه سبعمائة^(٧) ألف دينار. وكان الرشيد بحراً فياضاً ما بنى ينهل على العلماء والفقهاء من أمثال قاضيه أبي يوسف والأصمعي والكسائي، والأطباء من مثل جبرائيل بن بختيشوع، ويقال إنه صار إليه في عهده ما يزيد على أربعة ملايين من الدراهم^(٨)، وكان يجزل للشعراء والمغنين من نواله، ويكفي أن نعرف أنه وصل سلماً الخاسر وحده لمداخحه فيه بعشرين ألف دينار^(٩)، وطرب يوماً لغناء مخارق فأقطعه ضيعة وداراً ووصله بثلاثة آلاف دينار^(١٠)، أما مغنيه الأثير عنده وهو إبراهيم الموصلي فيقال إن صلاته له تجاوزت مائتي ألف دينار^(١١) أما الأمين فقد تجاوز بصلاته كل حدٍّ حتى قالوا إنه أجاز عبد الله بن أيوب التيمي الشاعر يوماً بمائتي ألف درهم^(١٢)، وطرب ليلة لغناء إسحق الموصلي، فأعطاه ألف ألف درهم^(١٣)، وكان يعجب بمغنية تسمى بدلا، فأنفق عليها أموالاً طائلة،

(٧) طبرى ١٣٩/٦.

(٨) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (طبعة دار الفكر بيروت) القسم الأول من الجزء الثاني ص ٥٨.

(٩) أغاني طبعة (الساسي) ٧٧/٢١.

(١٠) أغاني ١٤٤/٢١.

(١١) أغاني طبعة (دار الكتب) ١٩٢/٥.

(١٢) النجوم الزاهرة ١٨٩/٢.

(١٣) أغاني ٣٦٨/٥.

(١) المسعودي ٢٥٧/٣.

(٢) الجهشيارى ص ٢٥٠.

(٣) المسعودي ٢٣٦/٣.

(٤) النجوم الزاهرة ٢٢٧/٢.

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٢/٦.

(٦) النجوم الزاهرة ٦٤/٢ والأغاني ٨٠/١٠.

ويقال إن سلماً الخاسر أنشده مدحة فيه فأعطاه

ثلاثمائة ألف درهم انظر الجهشيارى

ص ١٧٣.

ويقال إنه أهداها من الجوهر ما لم تملك واحدة مثله^(١). وكان المأمون كثير الإغداق على حاشيته حتى قالوا إنه فرق في ساعة واحدة أربعة وعشرين ألف ألف درهم^(٢)، ويروي ابن تغرى بردى أنه أمر يوماً لكل من ابنه العباس وأخيه المعتصم وعبد الله ابن طاهر بخمسمائة ألف دينار، وعجب ابن تغرى بردى من تفريقه هذه المبالغ الطائلة، فعقب على ذلك بقوله: لعل الدينار يوم ذاك لم يكن مثل دينارنا اليوم^(٣) وكأنما ذهب عن ابن تغرى بردى أن أموال الدولة كلها كانت في أيدي المأمون وسابقه وتاليه يبذلونها للناس حسب مشيئتهم وينثرونها عليهم نثراً.

ونافسهم الوزراء في هذا البذل الواسع، وللبرامكة فيه ما ليس لأحد، حتى يقال إنه لم يكن يُرى جليس خالد البرمكي دار إلا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له، ولا دابة إلا وخالد حملة عليها^(٤)، وصنيع ابنه يحيى وولديه جعفر والفضل في هذا الباب فوق صنيعه درجات، فقد كانت بأيديهم خزائن الدولة لعهد الرشيد، فقلأوا منها أيدي العلماء والأطباء والمترجمين والمغنين والشعراء بالأموال، بل بالثروات الضخمة، على نحو ما يُحكى من أنهم أعطوا إبراهيم الموصل يوماً ستمائة ألف درهم وضيعة بمائة وستين ألفاً^(٥)، وأعطى يحيى البرمكي يوماً ابنه إسحق مائة ألف درهم ليبْتَاع بها داراً وأعطاه ابنه جعفر مائة ألف لقرشها، وأعطاه ابنه الفضل مائة ألف لخرقتها، وأعطاه ابنه محمد مائة ألف رابعة لئفقتها^(٦)، وبلغ - فيما يقال - ما أعطوه لسلم الخاسر الشاعر عشرين ألف دينار^(٧)، وكأنهم كانوا يبارون فيه الرشيد. وكان ينافسهم في هذا البذل الواسع الفضل بن الربيع وبنو سهل وكبار الولاة والقواد من أمثال معن بن زائدة وابن أخيه يزيد بن يزيد الشيباني وابنه خالد ويزيد بن حاتم المهلبى وأخيه روح ومحمد بن حميد الطوسي وأبي دلف العجلي، وآل طاهر وفي مقدمتهم طاهر نفسه، ويقال إن صلته بلغت يوماً أثنى درهم وسبعمائة ألف وأن ابنه عبد الله تجاوز بصلاته يوماً هذا الرقم، بل لقد ضاعفه إذ بلغ به أربعة آلاف ألف درهم وسبعمائة ألف^(٨).

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٨/٥.

(٦) أغاني ٣٠٨/٥ وما بعدها.

(٧) أغاني (سأسى) ٧٧/٢١.

(٨) النجوم الزاهرة ١٩٥/٢.

(١) أغاني (سأسى) ١٣٨/١٥.

(٢) طبرى ٢١٢/٧.

(٣) النجوم الزاهرة ٢٠٥/٢.

(٤) الجهشيارى ص ١٥٠.

وكان لهذه السيول التي كانت ما تنى تسيل إلى حجبور العلماء والأطباء والمترجمين والشعراء والمغنين أثرها الواسع في نهضة العلوم والآداب والفنون ، فقد كُنِيَ أصحابها مئونة العيش ، وكان منهم كثيرون يرتَّب لهم رزق معلوم يأخذونه في كل شهر أو في كل سنة ، بل لقد كان منهم وخاصة من المغنين والشعراء من يثرى ثراء فاحشاً حتى ليقال إنه صار إلى إبراهيم الموصلي المغنى أربعة وعشرون مليون درهم سوى رزقه أو راتبه الجارى وهو عشرة آلاف درهم في كل شهر وسوى غلات ضياعه^(١) ، ويقال إن سلماً الخامس خلف حين توفي خمسين ألف دينار^(٢) ، وما وصل الأصمعي من الرشيد والبرامكة يتجاوز كل حد ، وكذلك ما وصل أبا يوسف القاضي من الرشيد ، ويقال إنه دخل عليه وفي يده درتان بديعتان يقلَّبهما وينظر فيهما ، فقال له : هل رأيت أحسن منهما ؟ فأجابه : نعم الوعاء الذى هما فيه ، فألقى بهما إليه^(٣) ، ويروى أن زُبَيْدَةَ زوجة الرشيد سُرَّت بإحدى فتاواه فأهدته حقاً من فضة بداخله حقان مملوءان طيباً ، وبأحدهما جام من ذهب مملوء دراهم وبالثانى جام فضة مملوء ذهباً ، مع غلمان وتخوت من ثياب وبعض الدواب القاهرة^(٤) . وسنعرض في الفصل التالى لما سكبته الخلفاء والوزراء والولاة وعلية القوم من أموال على العلماء والمؤدبين والأطباء والمترجمين مما جعل حياتهم نعيماً خالصاً .

وطبيعى أن تدفع هذه الأموال لا إلى النعيم فحسب ، بل أيضاً إلى الترف في الحياة وكل أسبابها المادية من دور مزخرفة وفرش وثيرة وثياب أنيقة معطرة ومطاعم ومشارب من كل لون والتماس لكل أدوات الزينة والتفنن فيها تفنناً يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة . ويصور ذلك من بعض الوجوه ما يروى عن مجلس للمهدى كان يجلس فيه على فرش مودة وعليه ثياب مودة وعلى رأسه جارية تلبس هى الأخرى ثياباً مودة^(٥) ، وما يروى عن مجلس الرشيد من أنه كان يعنى بالطيب والزعفران والأفاويه من كل شكل^(٦) ، وأيضاً ما يروى عن زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل ، فقد أنفق فيه ما يفوق أغرب القصص الخيالية ، إذ قيل إن أباهما فرَّق على حاشية المأمون رقاعاً بأسماء كثير من الضياع وبدراً من

(١) أغاني ١٦٣/٥ .

(٢) المسعودى ٢٦٠/٣ .

(٣) الجهشيارى ص ١٦٠ .

(٤) الطبرى ٥٣٧/٦ .

(٥) أغاني (سالى) ٧٧/٢١ .

(٦) النجوم الزاهرة ١٨٢/٢ .

الدنانير والدرهم كل بدرة عشرة آلاف ، وأعطى المأمون بوران ألف ياقوتة وأوقد لها شموع العنبر وبسط لها حصيراً منسوجاً بالذهب مككلاً بالدر والياقوت ، ونثرت جدتها عليها حين جلس إليها المأمون ألف درة^(١) . وينوء المؤرخون بأناقة المعتصم حتى قيل إن ثيابه كانت تشبه بالزهره لتألقها^(٢) ، واشتهر بلبس قلانس طويلة ذات ألوان مختلفة سميت بالمعتصميات ، كما اشتهر بأنه ألبس قواده وكبار جنده دراعات الديباج المنسوجة بالذهب المرصعة بالياقوت والأكاليل المرصعة بالدر من كل لون^(٣) ، ويصف بعض المغنين مجلس الوراق فيقول : « لم يزل الخدم يُسلمونني من خدم إلى خدم حتى أفضيت إلى دار مفروشة الصحن ملبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب ثم أفضيت إلى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك ، وإذا الوراق في صدره على سرير مرصع بالجواهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب »^(٤) . وكان الوزراء وغير الوزراء من علىة القوم يحسبون هذه الحياة المترفة وينغمسون فيها انغماساً ، جامعين لقصورهم ومجالسهم كل ما يمكنهم من طُرف ، ويصور ذلك — من بعض الوجوه — ما يروى عن الأصمعي من أنه دخل على الفضل بن يحيى البرمكي في يوم بارد من أيام الشتاء « فإذا هو في بهو قد فرش بالسَّمُور (ضرب من الفراء) وهو في دَسْت منه وعلى ظهره دَوَاج (ثوب) سمور أشهب مبطن بخز ، وبين يديه كانون فضة فوقه أنثيئة ذهب في وسطها تمثال أسد رابض في عينيه ياقوتتان تتوقدان »^(٥) .

وطبيعي أن يشيع في هذا الجو الزاخر بالترف التأنق في الملبس والثياب ، وقد عمَّ حينئذ ببغداد لبس الأزياء الفارسية ، ومرَّ بنا في الفصل السابق كيف كانت كل طائفة من طوائف الموظفين ورجال الدولة تلبس زياً خاصاً بها يميزها من الطوائف الأخرى . وكان المنصور أول من دفع إلى ذلك إذ رسم للوزراء لبس الدرّاعات والطيلسانات والشاشيات ، وأمر أفراد حاشيته بلبس القلانس الطوال

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢١ والطبرى

١٨٧/٧ واليعقوبي ١٨٦/٣ والمسدودي ٣٥١/٣

وإبن طيفور ١١٤ وإبن الطقطقي ص ١٦٧ .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٤٥/٥ .

(٣) المسدودي ٩/٤-١٢ .

(٤) أغاني ١١٦/٤ .

(٥) طبقات الشراء لابن المعتز (طبع دار

المعارف) ص ٢١٤ .

مما جعل أبا دلالة مضحكه ينشده^(١) :

وكنا نُرَجِّي من إمامٍ زيادةً فزاد الإمام المصطفى في القلائس
نَراها على هامِ الرجال كأنها دنانُ يهودٍ جُدِّلَتْ بالبرانسِ^(٢)

وكان الشعراء يلبسون الوشي والمقطعات الحريرية^(٣) ، ويلبس المغنون قطوع
الدباج والخز^(٤) ، ويقال إنه كان لعمارة بن حمزة أحد كتّاب الخراج ألف
دَوَاج من صوف وفراء^(٥) .

واستكثروا حينئذ من العطور وأنواع الطيب من الغالية والمسك والكافور والعنبر
والروائح الأرجة التي كانت تستخلص من البنفسج والزرجس والتيلوفر وغير ذلك
من الأزهار ، واشتهرت جور الفارسية بماء الورد وأدهنة الزعفران .

وبالغ النساء حرائر وجواري في زينتهن وأناقتهن ، فكن يرفلن في الثياب
الحريرية ويختلن في الحلى والجواهر متخذات منها تيجاناً وأقراطاً وخلائيل وعقوداً
وقلائد ، وقد ينظمنها على شعرهن^(٦) أو على عصائبهن^(٧) ، ويقال إن دنانير
جارية البرامكة كانت تتحلّى بعقد من الجوهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار
كان قد أهدها إليها الرشيد^(٨) . وكن يتعطرن بأنواع الطيب من مفرقهن إلى أقدامهن ،
ويقال إن عَرِيب المغنية كانت تغسل شعرها من جمعة إلى جمعة وتغلفه في كل
غسلة بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً^(٩) . وكن يمشطن شعورهن بأمشاط من الصدف
والصنّدل^(١٠) ويعقصنّه أو يرسلنه غدائر تنوس ، وقد يلوينه على أصداغهن في
هيئة النون أو هيئة العقرب ، وفي ذلك يقول أبو نواس واصفاً طائفة منهن^(١١) :

أصداغهنَّ مَعْقَرَبَا تٌ وَالشَّوَارِبُ مِنْ عَيْبَرٍ

(٨) أغاني (طبعة الساسي) ١٦/١٣٢ وانظر
في عقد آخر نفيس أعداه الواثق لفريدة الصغرى
المغنية الأغاني (طبعة دار الكتب) ٤/١١٧ .
(٩) أغاني (ساسى) ١٨/١٨٧ .
(١٠) وكان الرجال يتخذون هذه الأمشاط
أيضاً . انظر كتاب البخله الجاحظ (طبعة
دار الكاتب المصرى) ص ٥٣ .
(١١) ديوان أبي نواس (طبعة آصاف)
ص ٨٣ .

(١) أغاني ١٠/٢٣٦ .
(٢) الهام : الرووس . جللت : غطيت . البرانس
كالقلائس ، والشاشيات : أغشية للرأس .
(٣) البيان والتبيين ٣/١١٥ .
(٤) أغاني ٦/٢٩٣ وانظر ٥/٣١٧ .
(٥) الجهشيارى ص ١٤٩ . والدواج : من
الملابس التي يلتحف بها .
(٦) طبرى ٦/٤٣٥ .
(٧) أغاني (طبع دار الكتب) ١٠/١٦٢ .

وكنَّ يلبسن جوارب الحرير ويتحلين بعقود الأزهار من بنفسج وغير بنفسج ، ويقول الجاحظ إن المرأة حين كانت تزوجَّ ابنتها تحليها بالذهب والفضة وتكسوها المروزيَّ والوشى والقَزَّ والخَزَّ وتعلِّق لها المعصفر وتدق الطيب حتى تعظم أمرها في عين زوجها وأهله^(١) . ولعل امرأة لم تبلغ من التأنيق ما بلغته زُبَيْدَة زوجة الرشيد وفيها يقول المسعودي إنها : « أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكحلة بالجواهر وصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب من الوشى الذى اتَّخذها خمسين ألف دينار . . وهى أول من اتخذ القباب من الفضة والآبنوس والصندل . . ملبسة بالوشى والسمور (الفراء) والدباج وأنواع الحرير . . واتخذت الحفاف (النعال) المرصعة بالجواهر ، وشمع العنبر ، وتشبَّه الناس بها »^(٢) .

ولا ريب في أن هذا كله كان على حساب العامة المحرومة التى كانت تحيا حياة بُؤْس تقوم على شظف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة وأمراء البيت العباسى الذين بلغوا هم وأبناؤهم نحو ثلاثين ألفاً لعهد المأمون^(٣) . وطبيعى أن يعم البؤس والشقاء من جانب ، بينما يعم النعيم والترف من جانب آخر ، بل لقد كان للشقاء والبؤس أكثر الجوانب في الحياة العباسية ، فالجمهور يعيش في الضنك والضيق لا الرقيق منه فحسب الذى كان يعمل في القصور والضياع ، بل أيضاً جمهور الناس من الأحرار ، وكأنما كانوا جميعاً أرقاء في هذا النظام الذى كُفِّلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترف لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة .

ولعل هذا البذخ وما صحبه من اعتصار الشعب هو السبب الحقيقى في كثرة الثورات على العباسيين وخاصة في إيران ، مما عرضنا له في الفصل السابق ، وأيضاً لعله السبب الحقيقى في تعلق الناس بالمهدى المنتظر من أبناء على الذى ينشر العدل الاجتماعى في الأرض ، مما هيا لكثرة الجمعيات السرية واعتناق الناس لعقيدة التشيع على اختلاف فرقها . غير أن المسألة لم توضع وضعاً سليماً صريحاً على أساس مشكلة العدالة الاجتماعية واستنزاف الشعب لمصلحة طبقة تعيش معيشة

(٢) المسعودى ٢٤٤/٤ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣ .

(١) البخلاء ص ٢٥ . والمروزي نسبة

إلى مرو . ويريد الجاحظ بالمعصفر السور

الحريرية التى كانت تعلق على الحيطان .

باذخة مسرفة في البذخ ، بل وجهت توجيهاً خاطئاً ، على أساس دعوات دينية مارقة كدعوة الحرمة التي استوجبت آراء المزدكية والمانوية ، وحتى الشيعة وفرقهم أعلوا المقاصد الدينية على مقاصد العدالة الاجتماعية . وبذلك أخفقت هذه الثورات جميعاً ، لأنها لم تضع للشعب اللافئات والشعارات الحقيقية التي يلتف حولها ويعمل من أجلها ، ومضى العباسيون وجواشيهم يغرقون إلى آذانهم في البذخ والترف .

وقد هيا هذا الترف لنشوء طبقة وسطى في بغداد ومدن العراق من التجار والصناع الذين كانوا يقومون على مطالب الترف وأدواته ، أما التجار فكانت سفنهم وقوافلهم غادية رائحة في البحر والبر تجلب الطرف النفيسة من جميع أنحاء العالم ، وأما الصناع فكانوا يتفننون في صوغ التحف الثمينة . وكان مركزهم جميعاً في الأسواق حيث تتجمع حوانيت كل طائفة منهم في سوق أو شارع . وكانت رؤوس أموالهم تختلف قلة وكثرة وضيقاً وسعة ، فمنهم من كان رأس ماله ثلاثة آلاف دينار^(١) ومنهم من بلغ رأس ماله مائة وأربعين ألف دينار ومليونين وسثمائة ألف من الدراهم^(٢) ، ويقال إن ربح بعض التجار بلغ في صفقة واحدة مائة ألف دينار^(٣) . وكان أكثرهم ثراءً البزازين والعطارين وتجار التحف النفيسة .

ومن أهم الجوانب التي يتضح فيها بذخ الطبقة المترفة مطاعمها ومشاربها ، فقد طعموا وشربوا في أواني الذهب والفضة وصحاف الصيني المزخرفة والصحاف الزجاجية المنقوشة والمحفورة ، وتفنن لهم الطهارة في ألوان الطعام والشراب ، وكانوا يسمون باسم ما يعدونه منها من خبّاز وشوّاء وطبّاخ وخبّاص وهو الذي يصنع الحلوى وشترابى وهو صانع الشراب وألوانه . وفي كتاب البخلاء للجاحظ حشّد كبير من الأطعمة والمشارب وهي في جمهورها فارسية ، فمنها السبّاج وهو لحم يطبخ بخلٍّ مع شيء من الزعفران لتطيب رائحته ، والطبّاخ وهو طعام من لحم وبيض وبصل ، والشبّارات وهي شرائح مشوية من اللحم ، ومنها الفانيد وهو حلوى من الدقيق والسكر والسمن ، والحشكنان وهو كعك يحشى بالجزر والسكر ، والفالودج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، ومنها الجلاب وهو شراب من ماء الورد .

(٣) الجهشيارى ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

(١) البخلاء ص ١٠١ .

(٢) البخلاء ص ٣٤ .

وكانوا يتفننون تفتناً واسعاً في إضافة الأفاويه إلى الأطعمة وصنع المشهيات والمخلّلات الحريفة وصنوف النُقْل من مثل مملوح البندق والجوز واللوز والقسق. وتكثر عندهم أسماء الفواكه من مثل التين والعنب والموز والكمثرى والخوخ والمان والوجاص والسفرجل والتفاح ، وكان البطيخ لديهم كثيراً حتى نسبوا إليه سوق الفاكهة ، فسموها باسم سوق البطيخ ودار البطيخ .

وما يدل على كثرة أفاوين الطهارة في الأطعمة ما يروى من أن مائدة المأمون ضمت ذات يوم ثلاثمائة لون^(١) ، وقد انبهر الأصمعي لكثرة ما رآه على مائدة الفضل بن يحيى البرمكي من ألوان الطعام وما غسلوا به أيديهم بعد الأكل من ألوان الطيب والغالية والعنبر^(٢) . ويقال إن المأمون كان ينفق على طعامه يومياً ستة آلاف دينار بينما كان ينفق وزيره ابن أبي خالد على طعامه يومياً ألف درهم^(٣) ، وهو نفس المبلغ الذي كان ينفقه إبراهيم الموصلي يومياً على طعامه وطيبه^(٤) .

ومن تنمة هذا الترف في المطعم أن نراهم يتواضعون على طائفة من آداب المائدة اقتبسوا كثيراً منها عن الفرس^(٥) ، فمن ذلك أن يضم الآكل شفتيه في أثناء المضغ وأن لا يستأثر لنفسه بشيء من محاسن الطعام وأن لا يسمح فمه بكلمه وأن لا يتناول إلا ما بين يديه وأن لا ينظر إلى ما بين يدي غيره وأن لا يطلب ما عسى أن لا يكون موجوداً .

وعلى نحو ما كان للمائدة آدابها كان لمجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم أيضاً آدابها ، وهي تعرف بآداب المسامرة^(٦) ، وكان لابد للنديم من إحسانها ، حتى يخفّ على قلب منادمه ، وكثير من هؤلاء الندماء استطاع أن يعتلى منصب الوزارة بما كان يحسنه من التبسط إلى الخليفة في الحديث في ساعات صفوه وغضبه ، ومن لم يعتل منهم منصب الوزارة سالت عليه الصلوات السنية ، ولذلك لا نعجب أن يصبح الخدق بالمنادمة وما تتطلب من كياسة مطمحاً لكثير من العلماء والأدباء ومن اللغويين والفقهائ وكل من يريد الخطوة عند خليفة أو وزير . وتلمع في هذا الجانب أسماء الأصمعي وأبي يوسف منادمي الرشيد وثمامة بن أشرس نديم المأمون .

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب)

٢١٤/٣

(٦) المسعودي ١٩٥/٣ وما بعدها

(١) ابن طيفور ص ٣٦ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٤ .

(٣) ابن طيفور ص ١٢٣ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٦٤/٥ .

وكان النديم يورد في أحاديثه أخبار العامة ونواديرهم وبعض الحكايات القصيرة وبعض الطرف الأدبية . وكان بين هؤلاء الندماء مضحكون لا يزالون يوردون فكاهات مضحكة ، ومن أشهرهم أبو دلالة الشاعر مضحك السفاح والمنصور والمهدى ، وله فكاهات كثيرة تدور في كتب الأدب ، ومنهم ابن أبي مريم مضحك الرشيد « وكان محدثاً فكهاً ، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته ، وكان ممن جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد الحبان » (١) ومنهم أبو الشمقمق وكان الناس يتهافون على جمع نوادره (٢) .

وكانت هناك أدوات للترويح ولعب كثيرة ، من ذلك سباق الخيل (٣) وسباق الحمام الزاجل (٤) ولعبة الصولجان وهو كرة تضرب من فوق ظهور الخيل ، ومن ذلك المحادثة بين الديوك والكباش والكلاب ، ولعبُ أبي نواس بالكلاب هو الذي أتاح له التفوق في وصفها بطردياته ، ومن ذلك لعبة الشطرنج حتى ليشتهر شخص بإحسانها يسمى أبا حفص الشطرنجي ، ولعبة التَّرْد (الطاولة) ويقال إن واضعه أراد به تمثيل الحياة ، فرقعته تقابل الأرض المبسوطة لسكانها ، ومنازله الأربع تقابل الطبائع الأربع وخطوطها وهى أربعة وعشرون تقابل ساعات الليل والنهار وبيادقة (حجارته) الثلاثون تقابل عدد أيام الشهر واختلاف ألوانها بين البياض والسواد تقابل اختلاف الليل والنهار وفَصَّاه (الزهر) يقابلان القضاء . ويظهر أنهم عرفوا لعبة خيال الظل ، فقد هدّد دُعْبِلُ ابناً لأحد طبّاخي المأمون بأنه سيهجوّه ، فقال له : والله إن فعلت لأخرجنَّ أملك في الخيال (٥) .

ومن أسباب اللّو التي فتن بها الخلفاء الصيد بالبُزاة والشواهين والصقور والكلاب والفهود ، والصيد قديم عند العرب والفرس جميعاً ، ومن الملوك الذين اشتهروا به عند الأخيرين بهرام جور (٦) ، وأولع به المهدي ، فكان يخرج إليه في مواكب كبيرة ومعه الحرس والوُصفاء وبعض حاشيته ، ويروى أن على بن سليمان العباسي خرج معه يوماً فعرض لهما ظبي سانح ، فرماه هو والمهدي بسهمين ،

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٤/١٤ .

(٥) الديارات للشابشي ص ١١٩ .

(٦) الحيوان ١٤٠/١ .

(١) طبري ٥٣١/٦ .

(٢) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ٦١/١ .

(٣) الجعشاري ص ٢٠٧ والمسعودي ٢٧٩/٣ .

أما المهدي فأصابه وأما علي بن سليمان فأصاب كلباً كان قد أرسل عليه وقتلها جميعاً، فقال أبو دلامة متندراً^(١) :

قد رمى المهدي ظبياً شك بالسهم فوَّادَه
وعلى بن سليماً ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما ك ل امرئ يأكل زاده

وشُغِف بالصيد كل من جاء بعد المهدي من الخلفاء^(٢) ، وكان يشغف به الفضل بن يحيى البرمكي شغفاً شديداً^(٣) .

وكان للعامة ملاهيهم وفي مقدمتها الفرجة على القُرَّادين والحوَّاثين ، وكانوا يتجمعون حول قُصَّاص يطرفونهم بحكايات خيالية ، كما كانوا يتجمعون حول طائفة من الحكَّاثين الذين كانوا يحكون في دقة لهجات سكان بغداد ونازليها من الأعراب والنبط والحراسانيين والزُنوج والفرس والهنود والروم ، ويصور الجاحظ عملهم ، فيقول : « إنا نجد الحاكِية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً وكذلك تكون حكايته للحراساني والأهوازي والزنجي والسندي والأحباش وغير ذلك ، نعم حتى تجده كأنه أطع منهم ، فإذا ما حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جُمِعت كل طرفة في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد ، وتجده يحكى الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله ، فكأنه قد جمع جميع طرف حركات العميان في أعمى واحد ، ولقد كان أبو دبَّوبة الزنجي مولى آل زياد يقف بباب الكرخ بحضرة المُكَّارين ، فينهق ، فلا يبق حمار مريض ولا هريمٌ حسير ولا مُتَّعِبٌ بهيرٌ إلا نهق ، وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبث لذلك ، ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دبَّوبة فيحركها ، وقد كان جمع جميع

ص ١٧٣ والطبري ٤٩٤/٦ والأغاني ٣٤٤/٥

٤١٨ ، ١٥٨/٧ .

(٣) المسعودي ٢٨٤/٣ .

(١) أغاني ٢٤٠/٦ والمسعودي ٢٩٧/٣

وإبن الطقطقي ص ١٣١ ، ١٣٣ .

(٢) انظر المصايد والمطارد لكشاجم (طبع دار المعرفة ببغداد) ص ٣ وما بعدها والجيشاري

الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد ، وكذلك كان في نباح الكلاب » (١) .

٢

الرقيق والحوارى والغناء

كثر الرقيق في العصر العباسي كثرة مفرطة بسبب كثرة مَسَنَ كانوا يؤسرون في الحروب وبسبب انتشار تجارته ومعروف أن الإسلام يقصر الاسترقاق على أسرى الحروب من الأجانب ، غير أن تجارة الرقيق كانت منتشرة في إيران وخراسان وما وراءهما وفي الدولة البيزنطية ، وعظمت هذه التجارة في الإسلام على مر السنين ، حتى كان في بغداد شارع خاص بها يسمى شارع الرقيق (٢) ، وكان يقوم عليه موظف يسمى قيسم الرقيق .

وكان الرقيق حينئذ يُجَلَسُ من بلاد الزنج وإفريقية الشرقية ومن الهند وأواسط آسيا ومن بيزنطة وجنوبي أوروبا وكان الزنوج يعملون في فلاحه الأرض غالباً ، أما غيرهم فكانوا يقومون بالأعمال اليدوية والخدمة في المنازل والقصور . وقد دعا الإسلام دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق فكان كثير منهم يُحرَّرُونَ ، وقد يصل بعضهم إلى أرفع المناصب في الدولة مثل الربيع بن يونس مولى المنصور وحاجبه ثم وزيره (٣) . وكان الرشيد يستكثر منهم حتى قال إنه سار يوماً وبين يديه أربعمائة منهم (٤) ، ومعروف شغف المعتصم بالرقيق التركي ، وما زال يشتريهم من أيدي مواليهم ومن النخاسين حتى اجتمعوا له بالآلاف وحتى اضطرَّ أن يبني لهم - كما أسلفنا - سُرّاً من رأى كى يجنب العامة شرهم وأذاهم .

وكان يتشيع بينهم الخِصَّيان ونحن نعرف أن الإسلام يحرم خِصاء الإنسان احتراماً لأدميته ، ولكنه كان متشرباً في العالم القديم بين البيزنطيين (٥) وغيرهم ،

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢١٨/٥ .

(٥) انظر الحضارة البيزنطية لرنسيان (نشر

مكتبة النهضة المصرية) ص ٢٤٣ .

(١) البيان والتبيين ٦٩/١ .

(٢) المسعودي ٣١٦/٣ .

(٣) انظر الجهشيارى ص ١٢٥ وابن العلقم

ص ١٢٩ .

وما نصل إلى العصر العباسي حتى نجد القصور في بغداد وغيرها من بلدان العالم الإسلامي تكتظ بهم ، ومن المؤكد أن المسلمين لم يكونوا هم الذين يقومون بهذا العمل البغيض من الحضارة ، إنما كان يقوم بذلك اليهود والنصارى متحملين وزرّة وإثمه . وقد اشتهر الأمين بكلفة بهم كلفاً شديداً حتى تندر عليه معاصروه^(١) .

وكان رقيق النساء من الجوارى أكثر عدداً من رقيق الرجال فقد ذخرت بهن الدور والقصور ، إذ أحلّ الإسلام للشخص أن يملك من الإماء والجوارى ماشاء ، وبينما قيّد حريته إزاء الحرائر فحرّم عليه أن يتزوج منهن بأكثر من أربع أطلق حريته إزاء الجوارى فلم يقيده بعدد منهن ، وإن كان قد حرم عليه بيع من يستتولدها وردّها إليها حريتها بعد وفاته وجعل أولاده منها أحراراً منذ ولادتهم . وكان الرجال بعامة يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس مختلفة ، فنهن السنديات والفارسيات والحبشيّات والحراسانيات والأرمنيّات والتركيّات والروميّات ، وأيضاً ربما كان للحجاب دخل في ذلك ، فقد كانوا لا يرون من يريدون الاقتران بهن من الحرائر ، أما الجوارى فكانن معروضات بدور النخاسة تحت أعينهم ، فكانوا يختارونهن حسب مشيئتهم وهواهم ، وصوّر ذلك الجاحظ فقال : « قال بعض من احتجّ لليلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيّرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ما خلا حُظوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرّة إنما يُستَشَار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلاً ولا كثيراً ، والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك . وقد تحسّن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف وكأن عينها عين غزال وكان عنقها لم يريق فضة وكان ساقها جُمارة وكان شعرها العناقيد وكان أطرافها الممداري وما أشبه ذلك ، وهناك أسباب أخر بها يكون الحب والبغض »^(٢) .

وكانت هؤلاء الجوارى والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة ، فأثّرن آثاراً واسعة في أبنائهن ومحيطهن ، وهي آثار امتدت إلى قصر الخلافة وعملت فيه عملاً بعيد الغور ، فقد كان أكثر الخلفاء من أبنائهن ، فالمنصور

أمه حبشية والهادى والرشيد أمهما الخيزران رومية والمأمون أمه مراجل فارسية وكذلك أم المعتصم ماردة ، وكانت أم الواثق رومية وتسمى قراطيس . وقد أخذ هؤلاء الجوارى يكثرن في القصر منذ المهدي وكان بينهن من يعلقن الصُّلْبَان ويقال إنه اشترى جاريته مكنونة بمائة ألف درهم^(١) . وقد استكثر الرشيد وزوجه زُبَيْدَة من الجوارى والإماء حتى قيل إنه كان عند كل منهما زهاء أُلْفى جارية في أحسن زى من الثياب والجوهر^(٢) ، وكانت سِحْرٌ وضياء وخُنُثٌ من بينهن يشغفن قلبه ، وفيهن يقول ، وقيل : بل نظم ذلك العباس بن الأحنف على لسانه^(٣) :

ملك الثلاثُ الآتِساتُ عِنايَ وحَلَلْنِ من قَلْبِي بكلِّ مكانِ
مالى تطاوعنى البريَّةُ كُلُّها وأطيعهنَّ وهُنَّ فى عصيانى
ما ذاكُ إلا أن سلطانَ الهوى - وبه عَزَزَنَ - أعزُّ من سلطانى

وكان قصر الأمين يزخر بالجوارى الغلاميات اللاتى يلبسن لبس الغلمان^(٤) ، وزخر قصر المأمون بالجوارى المسيحيات^(٥) ، كما زخر بهن وبغيرهن قصر المعتصم والواثق^(٦) .

وكانت قصور الوزراء والأمراء تمتلئ بهن ، حتى ليرَوَى أنه كان لاعتبابة زوج يحيى بن خالد البرمكى مائة وصيفة ، لبوسُ كل واحدة منهن وحليُّها خلاف لبوس الأخرى وحليِّها^(٧) . ويفيض كتاب الأغاني بأخبارهن في دور عليَّة القوم وفي دور النخاسة والقيان ويصور كيف كان يغشى الدور الأخيرة الشعراء ، والجوارى يستصبين قلوبهم وكثيراً ما يقع حب جارية في قلب شاعر ويصبح محنة لا يجد إلى التخلص منها سبيلاً ، وكان من الشعراء من يقاوم إغراءهن ، ولكنه يغاديهن صباح مساء مفتوناً بهن . وعلى هذا النحو كانت دور النخاسة والقيان معارض للجمال ، وهى معارض مفتوحة ليلاً ونهاراً يجتمع فيها الفتيان من الشعراء وغير

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠/١٦٢ .
(٢) أغاني ١٠/١٧٢ وانظر طبعة الساسى ١٦/١٣٢ .
(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٦/٣٤٥ .
(٤) المسعودى ٤/٢٤٤ .
(٥) أغاني (ساسى) ١٩/١٣٨ .
(٦) أغاني (دار الكتب) ٥/٢٨٨ ،
٧/٩٨ ، ١٢/٥١ ، ١٦/١٢ .
(٧) الجهشيارى ص ٢٤١ والمسعودى ٣/٢٩٧ .

الشعراء يتملّون بالجمال ومفاته ، وفي ذلك يقول أبو دلالة^(١) :

إِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْعَيْشَ حُلُوًّا صَافِيًا فَالشَّعْرَ أَغْزِبْهُ وَكُنْ نَخَاسًا
تَنْلِي الطَّرَائِفَ مِنْ ظُرَافٍ نُهْدٍ يُحَدِّثُنَ كُلَّ عَشِيَّةٍ أَغْرَاسًا

وهي أعراس ظلت قائمة طوال العصر ، وظل الشعراء يختلفون إليها ، وكان أحياناً يزرنهم في دورهم ويبتنّ عندهم ، وقد يشتري الجارية الخليفة أو وزير أو أمير أو قائد مشهور أو أحد العلية من أبناء البيوتات فيظل الشاعر متعلقاً بها وتظل تملك عليه كل شيء من أمره على نحو ما كانت تملك عتبة إحدى جوارى قصر المهدي قلب أبي العتاهية وجنان جارية الثقفين قلب أبي نواس وفوز جارية محمد بن المنصور فتى العسكر قلب العباس بن الأحنف .

وكانت كثيرات منهن يتقنن الآداب ، فكن يجمعن إلى جمالهن عذوبة الحديث ، فيملأن على الشعراء وغيرهم قلوبهم وعقولهم ، بل كان منهن من يتقنن نظم الشعر مثل عنان جارية الناطق وسكن جارية محمود الوراق وقد عرض عليه بعض الطاهريين أن يشتريها منه بمائتي ألف درهم فأبى التفريط فيها^(٢) لما كانت تسعّر به قلبه من الحب المضطرم . وكان منهن من يضيفن إلى ذلك إجادة الغناء فكنّ فتنة من فتن العصر على نحو ما كانت دنائير جارية البرامكة ومتيسم جارية على بن هشام أحد قواد المأمون وعريب جارية الأمين والمأمون .

وكان للغناء في الناس لهذا العصر أثر أي أثر ، فقد شغلوا به أي شغل ، وكأنه نعيمهم من دنياهم الذي لا يؤثرن سواه لما يبعث في نفوسهم من غبطة وابتهاج ، ومعروف أنه انتقل من الحجاز إلى العراق لأواخر عصر بني أمية ، إذ نرى ابن رامين الكوفي يستقدم مغنيات الحجاز^(٣) ، ويقم داراً واسعة يقصدها الناس . وما تنشأ بغداد ويطلّ عصر المهدي حتى تصبح داراً كبيرة للغناء ، فقد جذبت إليها المغنين والمغنيات من كل فجّ ، ونثرت الأموال عليهم ثراً ، بل كالتها كيلاً . وأول من كالمها من الخلفاء المهدي ، واقتدى به الهادي ، وخلفهما الرشيد فجعل المغنين

(٣) انظر أغاني (دار الكتب) ١١/٣٦٤ -

(١) أغاني ١٠/٢٥٠ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٢ .

مراتب وطبقات على نحو ما جعلهم أردشير^(١) بن بابك ، وهو الذى طلب إلى إبراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وفلّسّح بن أبى العوراء أن يختاروا له الأصوات المائة التى أدار أبو الفرج الأصبهاني - فيما بعد - كتابه الأغاني عليها . وكان الأمين يعيش للسمع والقصف ، ويقال إنه اشترى بذلا المغنية بعشرين ألف ألف درهم^(٢) . وكان فى المأمون وقار فامتنع عن السماع بعد قدومه من خراسان أربع سنوات ، ثم أقبل عليه فلأ مجالسه بإسحق الموصلى ومخارق ، ويقال إنه اشترى عريب المغنية المحسنة الشاعرة بمائة ألف درهم ، واشتراها المعتصم بنفس الثمن بعد وفاته^(٣) ، وكان الواثق أشد كلفاً بالغناء لإحسانه الضرب على آلاته ، وله فيه أصوات سجلها صاحب الأغاني ، ويقال إنه اشترى له قلم الصالحية المغنية بعشرة آلاف دينار^(٤) .

ومن أبرز المغنين حيثئذ إبراهيم الموصلى ، ويقال إنه خلّف تسعمائة صوت صنعها ابتداء^(٥) ، وكان يغنى الرشيد على ضرب زلزل وزمر برصوما^(٦) ، وفى ذلك ما يدل على أنهم عرفوا غناء الجوقات . ومنهم ابن جامع مغنى الرشيد وكان يقال فيه إنه زق عسل حلو ، وطرب الهادى لصوت غناه فأعطاه ثلاثين ألف دينار^(٧) . ومنهم مخارق وكان الناس يبكون لجمال غنائه ورقته ، وسمعه أبو العتاهية فقال له : يا دواء المجانين لقد رقت حتى كدت أن أحسوك ، فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أدماً ، ولو كان شرباً لكان ماء الحياة^(٨) . ومنهم علكويه ، وكان يقول فيه الواثق : غناء علكويه مثل نقر الطست يبقى فى السمع ساعة بعد سكوته^(٩) .

وأنبه المغنين فى العصر لإسحق الموصلى ، وقد تلقن الغناء عن إبراهيم أبيه والضرب على العود عن زلزل ، وفى ترجمته بالأغاني أنه أعطاه على تعليمه له مائة ألف درهم . وكانت صنعته محكمة الأصول ، وكان يتصرف فى جميع بسط الإيقاعات . ويظهر أنه استطاع أن ينتقل بالغناء من حد التطريب إلى حد التعبير ، بل لعل

(١) كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ

(٥) أغاني ١٨٧/٥ .

(٦) أغاني ٢٤١/٥ .

(٧) أغاني ٣٠٣/٦ .

(٨) أغاني (سأسى) ١٤٧/٢١ .

(٩) أغاني (دار الكتب) ٣٣٧/١١ .

(٢) أغاني (طبعة السأسى) ١٣٨/١٥ .

(٣) أغاني ١٨٢/١٨ .

(٤) أغاني (دار الكتب) ٣٥٠/١٣ .

ذلك كان شأواً ارتفع إليه المغنون في عصره ، فقد روى صاحب الأغاني أن مغنياً تغنى في مجلس الواصل بصوت له ، فنظر إليه مخارق نظراً شزرّاً حتى إذا خلا به قال له : « ويحك أتدري أى صوت غنيت ؟ إن إسحق جعل صيحة هذا الصوت بمتزلة طريق ضيق وعُرَّ صعب المرتقى ، أحد جانبي ذلك الطريق حرف الجبل ، وعن جانبه الآخر الوادى ، فإن مال مرتقيه عن محجته إلى جانب الوادى هَوَى ، وإن مال إلى الجانب الآخر نطحه حرف الجبل فَتَكَسَّر »^(١) . ولعله بفضل ما كانت تحمل أصوات الغناء من صور التعبير كانت تعلّم وتباع بأغلى الأثمان حتى لقد بيع صوت بمائة ألف دينار^(٢) ، وكان سُرّة بغداد يتهادونها كما يتهادون التحف الثمينة^(٣) .

ويبلغ من رقى هذا الفن وارتفاع شأنه في النفوس أن أقبل أبناء الخلفاء وعلية القوم على تعلمه وإتقانه حتى لزمهم يصنعون فيه الحاناً وأصواتاً تنسب إليهم ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك آنفاً عند الواصل ، وقد فتح أبو الفرج في أغانيه فصلاً بل فصلاً طويلة^(٤) لأبناء الخلفاء وما أثر عنهم من أصوات ، وأشهرهم في هذا الباب إبراهيم ابن المهدي وأخته عُلَيسِيّة وكان إبراهيم يُعَدّ في كبار المغنين المحسنين ، وله أصوات^(٥) كثيرة ، وكانت عليه مثله تجيد الغناء وقد خلّفت فيه ثلاثة وسبعين صوتاً^(٦) . ومن برع في الغناء وأثرت عنه أصوات بديعة فيه عبد الله^(٧) بن طاهر ، وأبو دلف^(٨) العجلي قائد المأمون المشهور .

وقد جعل هذا الغناء الذى ملأ حياة الناس واستأثر بقلوبهم يرفع من أثمان الجوارى المسمّين بالقيان اللائى كن يتقننه ويدلن ناره في القلوب ونسيمه الخلو الصافى ، وقد مرّ بنا ما بيعت به عريب مرارا وما بيعت به بتدلّ وقلم الصالحية ، ويقال إن صالح بن على عم المنصور اشترى سعدة بتسعين ألف درهم واشترى ابن أخيه جعفر بن سليمان رُبَيْسِحَة بمائة ألف والزرقاء بمائة ألف ثانية^(٩) ، والثلاث

(١) أغاني ٣٠٥/٥ . انظر ترجمته في الأغاني ٩٥/١٠ .

(٢) أغاني ١٧٤/١٠ .

(٣) أغاني ١٠٦/١٢ .

(٤) أغاني ٢٤٨/٨ .

(٥) أغاني ٦٢/١٥ وما بعدها .

(١) أغاني ٣٠٥/٥ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٠٠/٧ .

(٣) أغاني ٣٨٤/٥ .

(٤) أغاني ٩٥/١٠ ، ١٦٢ وفى مواضع متفرقة .

من جوارى ابن رامين اللأثى استقدمهن من الحجاز ، واشترى المهدي سرّاً من أبيه المنصور بَصْبَصَ جارية ابن نفيس بسبعة عشر ألف دينار^(١) ، واشترى الرشيد ذات الحال بسبعين ألف درهم^(٢) ، بينما اشترى على بن هشام أحد قواد المأمون مئتين الهاشمية بعشرين ألف درهم^(٣) .

وكانت هذه الأثمان الباهظة التي تدفع في شراء الجوارى اللاتي يحسن الغناء سبباً في أن يُعَنَّى المقيّنين بتعليمهن هذا الفن حتى يصيبوا من ورائهن الأرباح الطائلة ، وجاراهم في ذلك بعض المغنين الحاذقين من أمثال إبراهيم الموصلي ، حتى يقال إنه كان عنده ثمانون جارية يعلمهن فن الغناء^(٤) . وكان ابنه إسحق على شاكلته يعلم الجوارى والغلمان جميعاً ، ويقال إنه علم غلامين - لبعض أمراء البيت العباسي - الغناء نظير مائة ألف درهم^(٥) . ولم يكن هو وأبوه وحدهما يحترفان هذا التعليم والتتقيف ، فقد شركهما فيه كبار المغنين لعصرهما من مثل ابن جامع ويزيد بن حوراء وبعض الجوارى المحسنات للغناء ، وهذا هو سر ما نجده عند صاحب الأغاني من نصه دائماً على أساتذة المغنى المتقن والقينة المحسنة وتلامذتهما .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق في بغداد ولا في الكوفة ولا في البصرة سرّياً إلا عمل على أن يَقتَنَى قينة أوقيانا يُشِعْنَ المرح في داره . وكان من لا يستطيع اقتناء قينة يمكنه أن يستأجر من المقيّنين إحدى قياتهم لتغنيه ليلة أو ليلتين متصلة ، فالرواة يذكرون أنه كان لأبي النضير عمر بن عبد الملك جوار يغنين ويخرجن إلى أهل البصرة^(٦) ، وكانت قيان بربر في الكوفة ما يزلن يخرجن إلى مطيع بن إلياس ورفقته^(٧) ، وبالمثل كانت قيان بغداد يُكثِرْنَ من الاختلاف إلى دور الشعراء ، وكان الشعراء وغيرهم من فتيان بغداد يزورونهن في دور أصحابهن من المقيّنين ، وكانت أشبه بنوادٍ كبيرة للغناء والموسيقى ، فالناس يذهبون إليها شعراء وغير شعراء للمتعة بالسماع ورؤية الجمال من كل شكل وعلى كل لون ، وكثيراً

من الجوارى فن الغناء .

(١) أغاني ٢٧/١٥ .

(٥) أغاني ٢٩٣/٥ .

(٢) أغاني ٣٤٢/١٦ .

(٦) أغاني (طبع الساسي) ٧٤/٢٠ .

(٣) أغاني ٢٩٣/٧ .

(٧) أغاني (طبع دار الكتب) ٣١١/١٣ .

(٤) أغاني ١٦٤/٥ وانظر ٢٥١/٣

٣٢٢ ،

حيث اشترك مع يزيد بن حوراء في تعليم طائفة

ما كان يقع الشعراء في حب بعض الجوارى المكتملات الخَلَقُ الجميلات الجسد، فيستأنرن بكل ما فيهم من عاطفة وهوى على نحو استئثار ريم بقلب مطيع^(١) بن إياس، وعبادة بقلب عبد الله^(٢) بن محمد البواب وعنان بقلب أبي النضير^(٣)، وسلسل بقلب أبان^(٤) بن عبد الحميد. وكن يتبارين في جذب الشعراء بما يُشعن في أحاديثهن من عذوبة حلوة وبما يحسن من صنوف الغزل والعبث بقلوب الرجال.

وكثيرات من هؤلاء القيان والجوارى كن يحسن الرقص، ويظهر أنه بلغ حينئذ حظاً واسعاً من الرق على نحو ما يصور لنا ذلك المسعودى بما ضبط من إيقاعاته على الغناء ورسم من صفاته^(٥)، ويذكر ابن خلدون أنه كان للرقص عندهم آلات خاصة في الملبس وما يستخدم من قضبان مع ما يترنم به من أشعار، ويقول إنه كان عندهم ضرب آخر من الرقص يتخذ فيه آلات تسمى الكرج وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقيية، يلبسها النساء ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكررن ويفررن كأنهن في حرب^(٦)، وفي كتاب الأغاني أن الأمين كان يرتكض في الكرج بصحن قصره، بينما الوصائف من حوله يغنين على الطبول والسرنايات والمخنثون يزمررون ويضطربون^(٧).

وقد أشاع هؤلاء الجوارى والقيان في المجتمع كثيراً من ضروب الرقة والظرف، فقد جعلت كثرة معاشرتهن الرجال هن يتعودون كيف يتلطفون لقلوبهن، وكيف يستنزلونهن بالكلام الرقيق إلى ودّهم، وكيف يحيطونهن بأشراك الحديث الساحر الذي يشغف قلوبهن ويملؤها بالعطف والحنان، وكان لذلك أثره البالغ في الشعر والشعراء، فقد شاعت في كثير من معانيهم الرقة المفرطة والإشارة الدالة واللمحة المعبرة.

واقترنت بهذا الظرف مظاهر كثيرة في الأزياء وفي العطور وآداب الطعام والسمر، ومن أهم مظاهره تهادى القوم بالأزهار والرياحين رامزين بأسماؤها وأشكالها

(١) أغاني ٣٠٠/١٣ .
 (٢) أغاني (سأى) ٤٤/٢٠ .
 (٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٦/١١ .
 (٤) أغاني ٤٨/١٠ .
 (٥) المسعودى ١٦١/٤ .
 (٦) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) ص ٣٠٠ .
 (٧) أغاني (طبعة السأى) ١٣٣/١٦ .

إلى معاني المودة والمحبة^(١) ، وكان الجوارى والقيان يَكْلَفْنَ بالورود كلفاً شديداً ،
ويروى أن مقيم الهاشمية جارية على بن هشام ومغنيته كان يعجبها البنفسج جداً
فكانت لا تخلو منه كمها^(٢) . وكان لهذا الإعجاب والكلف أثره في العناية بالأزهار
والرياحين وتغنى الشعراء بها غناء كثيراً^(٣) .

وكان الجوارى يهدين التفاح كثيراً إلى من يكلفون بهن أو يتعلقن هن بهن ،
وكن يضعن عليه أثر أخذه بأفواههن ، وقد يفلجنه ويشققننه بالمسك وغيره من
أنواع الطيب ، وقد يكتبن عليه بعض أبيات رقيقة ، تصور صبايتهن ، وفي أخبار
المهدي أن جارية من جواريه أهدت إليه تفاحة وطيبتها وكتبت عليها^(٤) :

هَدِيَّةٌ مِنِّي إِلَى الْمَهْدِيِّ تَفَاحَةٌ تُقَطَّفُ مِنْ خَدَيَّ
مَحْمَرَةٌ مَصْفَرَةٌ طُيِّبَتْ كَأَنَّهَا مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ

واستغلن أبيات الحب والعشق كثيراً لا في أحاديثهن فحسب ، بل في كل
ما يتصل بهن ، فكن يكتبنها على المناديل الحريرية التي يرسلن بها تذكاراً إلى
عاشقيهن ، وقد يكتبنها على عصائبهن وذوائبهن وثيابهن وأكمامهن وفرشهن وما
يمسكن به من مراوح ، ويروى بعض الأشخاص أنه دخل على هرون فرأى
الوصائف من ورائه وقد تزينن بعصابت نطمت فيها الدرر والياوقيت وكتبت
عليها أبيات في صفائح الذهب ، مثل قول بعض الشعراء^(٥) :

مَالِي رَمِيتُ فَلَمْ تُصِيبْكَ سِهَامِي وَرَمِيتَنِي فَأَصَابْتَنِي يَا رَامِي

وقول آخر على لسان إحدى الجوارى :

أَفْلَتُ مِنْ حُورِ الْجَنَانِ وَخُلِقْتُ فِتْنَةً مِنْ بَرَانِ

ويذكر إسحق الموصلي أنه دخل على الأمين يوماً فوجد من حوله وصائف

(٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ٤٠٦/٦ .

(٥) العقد الفريد ٤٢٤/٦ .

(١) أغاني ١٧٠/٧ .

(٢) أغاني ٣٠٦/٧ .

(٣) انظر على سبيل المثال وصف إبراهيم

ابن المهدي للرجس في الأغاني ١١٥/١٠ .

يَخْتَلِنَ فِي حَسَنِهِ ، وَبِأَيْدِيهِمْ مِرَاحٍ نَقَشَتْ عَلَيْهَا آيَاتُ غَزَلٍ مُخْتَلِفَةٍ ، مِنْهَا هَذَا الْبَيْتُ ^(١) :

أَتَهْوُونَ الْحَيَاةَ بِلَا جُنُونٍ فَكُفُّوا عَنْ مِلَاحِظَةِ الْعَيُونِ
وَكُنْ يَتَبَارِعِينَ فِي التَّهَادِي بِالتَّحْفِ النَّفِيسَةِ ، مِنْ ذَلِكَ مَا يُرَوَى عَنْ مُؤَنَسَةَ
جَارِيَةِ الْمَأْمُونِ مِنْ أَنَّهَا أَهَدَتْ إِلَى مَتِيمِ الْهَاشِمِيَةِ جَارِيَةَ عَلِيِّ بْنِ هِشَامٍ فِي يَوْمٍ احْتَجَمَتْ
فِيهِ مِخْنَقَةً (قِلَادَةً) فِي وَسْطِهَا حَبَّةٌ — لَهَا قِيَمَةٌ جَلِيلَةٌ — كَبِيرَةٌ وَعَنْ يَمِينِ
الْحَبَةِ وَيَسَارِهَا أَرْبَعُ يَوَاقِيتٍ وَأَرْبَعُ زَمْزَمَاتٍ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شُذُورِ الذَّهَبِ ، وَغَمَسَتْهَا
فِي الْغَالِيَةِ ^(٢) .

وَعَلَى هَذَا النِّحْوِ كَانَتْ الْجَوَارِي وَالْقِيَانُ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الْعَوَامِلِ الْفَعَّالَةِ فِي
إِنْتِشَارِ الظُّرْفِ وَالرَّقَّةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْعَبَّاسِيِّ حَتَّى أَصْبَحَا سَمْتَيْنِ بَارِزَتَيْنِ فِيهِ ، وَبِذَلِكَ
رَقَّتِ الْمَشَاعِرُ وَالْأَحَاسِيسُ وَدَقَّتِ الْأَذْوَاقُ وَأَرْهَفَتْ إِرْفَافًا شَدِيدًا .

٣

المجون

وَرِثَ الْمَجْتَمَعُ الْعَبَّاسِيُّ كُلَّ مَا كَانَ فِي الْمَجْتَمَعِ السَّاسَانِيِّ الْفَارِسِيِّ مِنْ أَدَوَاتٍ
لَهُوٍ وَمَجُونٍ ، وَسَاعَدَ عَلَى ذَلِكَ مَا دَفَعَتْ إِلَيْهِ الثَّوْرَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ مِنْ حُرِّيَّةٍ مَسْرُوقَةٍ ، فَإِذَا
الْفَرَسُ الْمُتَنَصِّرُونَ يَمْعَنُونَ فِي مَجُونِهِمْ وَيَمْعَنُ مَعَهُمُ النَّاسُ ، فَقَدْ مَضَوْا يَعْبُونَ الْخَمْرَ
عَبًّا وَيَحْتَسُونَ كُنُوسَهَا حَتَّى الثَّمَالَةِ ، وَحَاكَاهُمْ مِنْ عَابِثِهِمْ حَتَّى أَصْبَحَ الْإِدْمَانُ
عَلَيْهَا ظَاهِرَةً عَامَةً عَلَى الرَّغْمِ مِنْ نَهْيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنْهَا وَحُضُّهُ عَلَى اجْتِنَابِهَا إِذْ يَقُولُ
عَزَّ شَأْنُهُ : (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ
فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ . إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ
وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) . وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ
إِنْتِشَارِهَا وَإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهَا أَنْ أَدَّى اجْتِهَادُ بَعْضِ نَهْءِ الْعِرَاقِ إِلَى تَحْلِيلِ بَعْضِ
الْأَنْبِئَةِ كَنَيْزِ التَّمْرِ وَالزَّيْبِ الْمَطْبُوعِ أَدْنَى طَبِخٍ وَنَبِيذِ الْعَسَلِ وَالْبُرِّ وَالتَّيْنِ ^(٣) .
فَشَرِبَ الْخُلَفَاءُ هَذِهِ الْأَنْبِئَةَ وَشَرَبَهَا النَّاسُ ، وَتَهَالَكَ بَعْضُ النَّاسِ — إِمَاعَانًا فِي

(٣) ضَمَّى الْإِسْلَامُ لِأَمِينٍ ١١٩/١ .

(١) الْمُقَدِّ الْفَرِيدُ ٤٢٤/٦ .

(٢) أَغَانِي ٣٠٦/٧ .

المجون - على أنواعها المحرمة بإجماع الفقهاء .

والمعروف أن الهادي أول خليفة عباسي أغرى بالخمير^(١) ، وتبعه الرشيد^(٢) ومن جاءوا بعده ، وأغلب الظن أنهم لم يكونوا يتجاوزون الأنواع المحللة إلى الأنواع المحرمة إلا ما كان من الأمين الذي كان يعيش للخمير المسكرة يشربها أرتالاً^(٣) ، وكأنما كان في قلبه جذوة من الغرام بها لا سبيل إلى إطفائها إلا بشربها متتابعاً ، حتى ليصل أحياناً مساءه فيها بصباحه ، حدث ابن المعتز أنه اصطبح بها يوماً مع أبي نواس وطائفة من ندمائه : « فأُتي بالشراب كأنه الزعفران ، أصفى من وصال المعشوق وأطيب ريحاً من نسيم المحبوب ، وقام سقاة كالبذور بكنوس كالنجوم فطافوا عليهم ، وضربت المغنيات خلف الستائر بمزاهرها . فشربوا معه من صدر نهارهم إلى آخره في مذاكرة (أحاديث) كقطع الرياض ، ونشيد كالدرد المفضل بالعقيان ، وسماع يحجي النفوس ويزيد في الأعمار . فلما كان آخر النهار دعاً بعشرة آلاف دينار في صوائف فأمر فنشرت عليهم فانتبهوها والشراب - بعد - يدور عليهم بالكبير والصغير من الصرف والمزوج » حتى إذا نام واستيقظ في السحر طلب إلى أبي نواس أن ينشطه إلى متابعة السكر ببعض الأبيات ، فأنشده :

نبه نديمك قد نعس يسقيك كأساً في الغلس
صرفاً كأن شعاعها في كف شاربها قبس
تذر الفتى وكأنما بلسانه منها خرس
يُدعى فيرفع رأسه فإذا استقل به نكس

فهش الأمين ونشط ودعا بالشراب يصطبح به لليوم التالي وينعم بنشوته^(٤) ، غير مفكر في وقار خلافة ولا في دين ، فقد احتلت قلبه وبسطت سلطانها عليه فأحبها وهام بها هياماً .

والأمين في خمرة ومجونه ليس شذوذاً في عصره بل هو امتداد لموجة حادة

٢٢٤ ، ٢٩٩ ، وطبري ٢١٥/٧ وأغانى ٣٢٩/٥

٣٥٥ ، ٣٤٢ ،

(٣) الجهشيارى ص ٢٩٩ والمسعودى ٣/٣٠٥ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٠ .

(١) الجهشيارى ص ١٤٤ والطبري

٤٣٠/٦ ، ٤٣٥ وقارن بالأغانى ١٦٠/٥

والطبري ٣٢٩/٦ .

(٢) طبري ٤٨٩/٦ وأغانى ٢١٦/٥ ،

بدأها الوليد بن يزيد في دمشق لآخر عصر بني أمية ثم مطيع بن إياس ورفقاؤه من أمثال والبة بن الحباب في الكوفة وبشار وأضرابه المُجَنَّان في البصرة . ومن الحق لو أن العصر العباسي لم يقبل ويقبل معه الخراسانيون من الشرق لما اتسعت تلك الموجة ولا انحسرت في حيز ضيق ، فقد أحسَّ الفرس أن الحياة واتتهم وأخذوا يعبثون كئوس الخمر مترعة ، وتهالك الشعراء عليها من حولهم حتى أصبحت من أهم الموضوعات الجديدة في الشعر العباسي ، واشتهر فيها غير شاعر بخمرياته ، على نحو ما هو معروف عن أبي نواس . ومن يقرأ في الأغاني لأبي الفرج يخيّل إليه أن الناس جميعاً شرفاء ومشرفين قد تورطوا في إثمها تورطاً ، وكان منهم من يسرف في شربها إسرافاً شديداً حتى ليتناول منها عشرة^(١) أرطال دفعة واحدة . ويؤثر عنهم أنهم كانوا يكرهون أن يدور الشراب بين اثنين ، لأن أحدهما قد ينهض لحاجة فيبقى صاحبه واجماً ، ومن أجل ذلك استحبوا أن يدور الشراب بين ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، بحيث لا يزيدون عن ذلك ، حتى لا يستحيل الشراب إلى لون من ألوان الشغب ، وفي ذلك يقول أبو نواس^(٢) :

ثلاثة في مجلس طيب وصاحب الدعوة والضارب
فإن تجاوزت إلى سادس أتاك منهم شغبٌ شاغبٌ

وقد تفنن الشعراء في وصف نشوتها وآثارها في الجسد والعقل ووصف دنانها وكئوسها ومجالسها ونُدَمَائها وسقاتها وكانوا عادة من النصارى والمجوس واليهود ، وكانوا يزينون رءوسهم بأكاليل الزهر كما يزينون قاعة الشراب بالرياحين ، وفي ذلك يقول أبو نواس خمريته^(٣) التي كان يعجب بها الجاحظ إعجاباً شديداً :

ودارِ نَدَامَى عَطَّلُوها وأَدْلَجُوا بها أَثَرُ منهم جَدِيدٌ وِدَارُسُ^(٤)
مَسَاحِبُ من جَرِّ الزُّفَاقِ عَلَى الثَّرَى وَأَضْغَاثُ رِيحَانٍ جَنَى وَيَابِسُ^(٥)

(٤) أدجلوا : ساروا الليل كله أو آخره .
دارس : محو .
(٥) الزقاق : دنان الخمر . أضغاث : أخطا .

(١) الحيوان ٢/٢٢٦ والأغاني ٥/٢٢٥ .
(٢) ديوان أبي نواس (طبعة آصاف)
ص ٣٥٦ وانظر ٣٥٨ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٠٦ .

حبستُ بها صحتي فجددتُ عهدهم وإني على أمثال تلك لحابسُ
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يومُ الترحُّلِ خامسُ
تُدار علينا الرَّاحُ في عسجديةً حبَّتْها بألوانِ التصاويرِ فارسُ^(١)
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهى تدرِّبها بالقسيِّ الفوارسُ^(٢)
فللخمر ما زُرْتُ عليه جيوبها وللماء ما دارتْ عليه القلائسُ^(٣)

وهي خمرية تقطر حينئذٍ وجباً للخمر ، فقد بثَّ في مطلعها لوعة عشاق العرب لإزاء الرسوم الدائرة لوعة تجعلهم يحبسون مطيعهم عندها وفاء لحق حبهم فيها ، حتى إذا استتم هذه الصورة مضى يعلن صبايته بتلك الدار وكيف حبس بها صاحبه أياً ما يتداولون كثوس الخمر التي كانت تشيع فيهم البهجة والفرحة بشكلها المادي وما ارتسم عليها من صور فارسية بديعة وبما تسكب في بطونهم من رحيق الخمر ومتاعها المتصل .

ومنذ أول العصر نجد الخمر تقترن بالغناء والرقص ، إذ تحول المقيِّنون في كرخ بغداد وفي البصرة والكوفة بدورهم إلى حانات كبيرة للشرب والقصف كل مساء ، فكان الشعراء وغيرهم يؤمونها للشراب على غناء القيان وضرب الطبول والدفوف ، ومن أشهر تلك الدور دار ابن رامين المقيِّن في الكوفة ، فقد جلب إليها طائفة من قيان الحجاز ، كان يختلف إليهن للشراب والسماع مطيع بن إياس وصاحبه من الشعراء وابن المقفع ومعن بن زائدة الشيباني وروح بن حاتم الباهلي^(٤) . وعلى شاكلتها دار لإسماعيل القراطيسي المقيِّن في بغداد ، وكانت مألفاً لأبي نواس والحسين بن الضحاك وأبي العتاهية وغيرهم من الشعراء^(٥) .

وكانت البساتين في ضواحي بغداد تمتلئ بالخانات التي يختلف إليها الشعراء وغيرهم من الفتيان كحانة بستان صَبَّاح التي وصفها مطيع بن إياس في بعض شعره^(٦) ، ويروى الصولي أن أبان بن عبد الحميد أظهر من التهالك على الشراب

(١) عسجدية : كأس ذهبية .

(٢) المها : البقر الوحشي . تدرِّبها : تدفعها .

(٣) الجيوب : أطواق الثياب .

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٦٤/١١ ،

٦٧/١٥ .

(٥) أغاني (ماتى) ٨٩/٢٠ .

(٦) أغاني (دار الكتب) ٣٢١/١٣ وانظر

كتاب الورقة (طبع دار المعارف) ص ٣٧ .

والحجون ما جعل أباه ينصحه أن يخرج إلى بعض البساتين لعله يسلو الخمر ، وغاب فيها طويلا ، فكتب إليه أبوه بتشوقه ، وما كان أشد عجبه حين أجابه بقوله ^(١) :

يا أباي لا تَرث لي من غيبتى أنا في خير ولهو ودعة
ومعى في كل يوم مُسمعُ حاذقٌ يُطربني أو مُسمعه
وندامى كمصابيح الدجى كلهم يأخذ كأساً مُترعه
لا يبالي مَنْ لَحَا في شُرْبِها أبداً حتى يوارى مصرعه

فالبساتين أو على الأقل طائفة منها تحولت إلى حانات كبيرة للخمر والقصف والمتعة بسماع بعض المغنين والقيان .

وكانت الأديرة تقدم لروادها الخمر المعتقة وقد استحالت قاعات شرابها إلى مجتمعات لطلاب الخمر والحجون من الشعراء وغيرهم ، وكانت متناثرة في ضواحي بغداد وغيرها من مدن العراق ، ونرى الشعراء الماجنين يذكرون خمرها ونشوتها ورهبانها وراهباتها من مثل قول أبي نواس ^(٢) :

يا دَيْرَ حَنَّةٍ من ذات الأَكِيرِاحِ مَنْ يَصُحُّ عنك فإني لستُ بالصاحي
رأيتُ فيك ظباءً لا قرون لها يلعبن منا بألبابٍ وأرواحِ
بل لقد كثرت أشعارهم فيها كثرة مفرطة دفعت كثيرين إلى تخصيص مؤلفات لها على نحو ما هو معروف عن كتاب الديارات للشابشتي ، وفيه نراها تتحول في العراق إلى دور واسعة للهو والعبث .

وكثير من دور الشعراء أنفسهم في بغداد وغير بغداد تحولوا بها إلى مقاصف للخمر والحجون على نحو ما كانت دور مطيع بن إياس ورفقائه في الكوفة ودار بشار في البصرة ودار أبي نواس في بغداد . وكانت هناك أيام على مدار السنة يخرجون فيها للهو والقصف والعبث والحجون ، وهي أيام الأعياد : أعياد الإسلام وأعياد الفرس والنصارى وكانت تأخذ شكل كرنفالات عظيمة ، يخرج فيها الناس للشراب

زيات (طبع بيروت) ص ٢٢ . وذات الأكيراح : موضع .

(١) الأوراق للصلو ، أخبار الشعراء ص ٢٦ .

(٢) الديارات النصرانية في الإسلام لحبيب

واللهو المباح وغير المباح والفرجة على أصحاب المساخر ، وكان منهم من يتهادون على صفحة دجلة في القوارب الجميلة ومنهم من يبعد في البساتين . أما أعياد الإسلام فهي عيد الفطر وعيد الأضحى ، وأما أعياد الفرس فكانت كثيرة ، مثل عيد السّدق وهو عيد مجوسى للنار وكانوا يوقدونّها طوال الليل متغنين من حولها وراقصين ، ومن أعيادهم عيد هرمزّد إله الخير ، وفيه يقول والبة بن الحباب^(١) :

قد قابلتُنا الكئوسُ ودابرُتنا النحوسُ
واليوم هُرْمَزْدُ روزِ قد عظمتَه المجوسُ

وأهم أعيادهم عيد النيروز ، وهو عيد الربيع ، وكانوا يحتفلون به احتفالات صاخبة لأول الربيع حين تدخل الشمس بُرْجَ الحمل ، وفيه يقول أبو نواس^(٢) :

أما ترى الشمس حَلَّتِ الحَمَلَا وقام وَزَنُ الزمان فاعتدلا
وَعَنَّتِ الطير بعد عُجْمَتِها واستوفتِ الخمر حولَها كَمَلَا
واكتستِ الأرضُ من زخارفها وَشَى نِباتٍ تخاله حَلَلَا
فاشربْ على جِدَّةِ الزمان فقد أصبح وجه الزمان مقتبلا

وكانوا يحتفلون بعيد المهرجان بعده بمائة وأربعة وتسعين يوماً .

وكانت أعياد النصارى كثيرة أيضاً ، فمنها عيد الميلاد وعيد الفصح وعيد دِيَرِ الثعالب في الجانب الغربى لبغداد وعيد دير أشمونى بقطر بئِل ، ومنها عيد الشعانين وكان عيداً قديماً للأشجار وخاصة أشجار الزيتون ، وكانت الجوارى النصرانيات يحتفلن به في قصر الخلافة ، إذ يَرَوِى أحمد بن صدقة المغنى أنه دخل على المأمون في هذا العيد ، فرأى بين يديه عشرين وصيفة رومية أدرن الزنّار حول أساطهن وتزين بالديباج وعلّقن في أعناقهن صُلبان الذهب وأمسكن في أيديهن بالحوص والزيتون ، ولم يكد المأمون يراه حتى طلب إليه أن يغنيه في أبيات تصفهن ، تجرى على هذا النمط :

ظِبَاءُ كَالدَّنَانِيرِ مِلَاحٌ فِي الْمَقَاصِيرِ

(١) ابن المعتز ص ٨٨ وروز: يوم بالفارسية . (٢) ديوان أبي نواس ص ٣١٣ .

جلاهنَّ الشَّعاعينُ علينا في الزَّنايرِ^(١)
وقد زُرُقنْ أصدَاغا كأذْنا ب الزرايرِ^(٢)
وأقبلنْ بأوساطٍ كأوساطِ الزَّنايرِ^(٣)

وغناه فيها ابن صدقة ورقصت الوصائف في أثناء الغناء ، وشرب المأمون على رقصهن وغنائه وأكثر من شربه حتى تغشاه السكر^(٤) .

وما لا ريب فيه أن إدمان الخمر حيثئذ دفع إلى كثير من المحبون والعبث والإباحية ، وكان المجتمع زاخراً بزنادقة وملاحدة وأناس من ديانات شتى مجوسية وغير مجوسية ، ففضى كثيرون يطلقون لأنفسهم العنان في ارتكاب الآثام متحررين من كل قانون للخلق والعرف والدين . وكان من أهم العوامل التي هيأت لذلك السلع التي كانت تباع وتشتري من الجوارى والقيان ، فقد كن من أجناس وشعوب مختلفة ، ولم يكن يشعرن إلا في النادر بشيء من الكرامة ولا كن يصطنعن شيئاً من التحفظ والاحتشام وسعر ذلك في قلوبهن النحاسون والمقينون الذين يبتزون عن طريق علاقتهن بالشباب والفتيان أموال السَّراة . وبذلك تحولت كثرتهم إلى أدوات فتنة وإغراء وريبة ومجون وعبث ، وأخذن يتفنَّنَّ في الحيل التي يجذبن بها قلوب الرجال من شعراء وغير شعراء ، مداعبات لهم بالتبسم وغامزات بطرف العين وناشطات معهم بالسكر ، ولم تكن الواحدة منهم تكتفي برجل واحد ، فقد كن يستكثرن من اتخاذ الخلان سالكات إلى ذلك طرقاً مستقيمة ومعوجة ، ووصف ذلك الجاحظ فقال : « ربما اجتمع عند القينة من معشوقها ثلاثة أو أربعة . . فتبكي لواحد بعين وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذلك ، وتعطى واحداً سِرَّها والآخر علانيتها وتوهمه أنها له دون الآخر وأن الذي يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرُّمها بالباقيين وحرصها على الخلوة به دونهم ، فلو لم يكن لإبليس شريك يقتل به ولا علم يدعو

الريش .

(٣) الزناير : جمع زبور وهو النحل .

(٤) أغاني (طبعة السامي) ١٣٨/١٩ .

(١) الزناير : جمع زمار وهو خيط كان يشده غير المسلمين على أوساطهم تمييزاً لهم .

(٢) الزراير : جمع زرزور وهو طير مفوف

إليه ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان لكفاه»^(١) . ويمضى الجاحظ فيصور العلة التي جرت إلى فُجُر القينة وتها لكها على الإثم وأوزاره ، فيقول : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء وتتعلَّمُ الألسن والأخلاق بالمشأ ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث ... وبين الخُلعاء والمُجَّان ومن لا يسمع منه كلمة جيد ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة ، وترَوَى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصنعتها منكبة عليها تأخذها من المطارحين الذين طرَّحهم كله تجميش وإنشادهم مرادة . »

وقد دفع هذا الفساد الخلقي الذي كان يشيعه القيان والحوارى في هذا العصر إلى انتشار الغزل المكشوف الذي لا تصان فيه كرامة المرأة والرجل جميعاً ، فقد كانت المرأة غير الحرة تبتذل ابتذالاً ، وتطورت الحياة فلم يعد العرب هم الذين يستبدون بالشعر مصورين فيه مروءتهم وارتفاعهم بالمرأة عن الصغار والامتهان ، بل مضى شعراء الفرس يستبدون به ، إذ كان أكثر الشعراء حينئذ منهم ، فلم يعرفوا للمرأة حقها من الصيانة والارتفاع عن الفجر الفاجر ، بل لعلمهم كانوا يدفعونها إليه دفعاً ، بما كانوا ينظمون من أشعار صريحة عاهرة ، على نحو ما يلقانا عند مطيع بن إياس ورفقته في الكوفة وبشار بن برد ومعاصريه في البصرة ، وقد استحال شعر بشار إلى نداء صارخ للغريزة الجسدية ، نداء يندى له جبين الشرف والخلق مما جعل وعاظ بلدته من أمثال واصل بن عطاء ومالك بن دينار يصرخون به أن يكف عن غيئه ، وتعالى صياحهم ونظرائهم حتى وصل سمع^(٢) المهدي ، فهده وأنذره أن ينزل به عقابه إن هو لم يزدجر ولم يسرعو ، واضطر أن ينزل على مشيئته

متفرقة من ترجمة بشار في هذا الجزء .

(١) ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧١ .

(٢) انظر الأغاني ١٨٢/٣ وفي مواضع

وبكى ذلك طويلاً في أشعاره. على أن تدخل المهدي جاء متأخراً ، فقد عمّ طوفان هذا الغزل لا في البصرة والكوفة وحدهما بل أيضاً في بغداد عند أبي نواس وأضرابه ، بحيث عدّ ظهور العباس بن الأحنف بغزله الطاهر العفيف شذوذاً على جيله ومجتمعه .

وليس معنى ذلك أن الحياة في بغداد كانت كلها مجوناً ونهاكاً على الفجر والعهر ، فإن تعدد الزوجات الذي أباحه الإسلام وما أعطاه للرجل من حق تسريّ الجوارى ، كل ذلك كان يحول دون سقوط بغداد جميعها في هوة الفساد ، ومن أجل ذلك ينبغي أن لا نبالغ في تصور موجة المجون والعبث حينئذ وأن نطن أن أهل بغداد جميعاً قد تخلوا عن الحياة المستقيمة الطاهرة التي يحوطها الخلق والتقاليد والدين ، إنما هو الكرخ حيث بيوت النخاسين والمقينين ومن يفدون عليها من الفتيان والشعراء للشراب والمجون في غير استخفاء ولاحياء .

وقد أشاع هؤلاء المجان والخلعاء آفة مزرية هي آفة التعلق بالغللمان المُرْد ، وكان أول من اشتهر بالغزل فيهم والبة بن الحباب ، وهو يصرح بذلك تصرّحاً في غير موارد ولا استحياء^(١) ، ويقال إنه هو الذي يتحمل وزر لإفساد أبي نواس ، بل هو في رأينا الذي يتحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذي يخفق كرامة الشباب والرجال خفقاً . وربما كان من أسباب شيوعه كثرة الغلمان الخصبان في بغداد وغيرها من مدن العراق، وكان منهم من تسقط عنه رجولته حتى ليلبس لبس النساء . وكان من الجوارى من يلبس لبس الغلمان لفتاً للشباب والرجال ، ويرَوَى أن الأمين حين أفضت إليه الخلافة قدّم الخصبان وآثرهم ، فشاعت قالة السوء فيه ، ورأت أمه زُبَيْدَة دَرءاً لتلك القالة أن تبعث إليه بعشرات من الجوارى ، ألبستهن لبس الرجال ، حتى ينصرف عن الخصبان فكُن يختلفن بين يديه ، وأبرزهن للناس ، ولم يلبث كثير من أن جاروه في هذا الصنيع^(٢) ، وكن يسمّين بالغلمايات ، وعمّت هذه البدعة في الساقيات^(٣) بالحنات ، ولعل ذلك هو السر في أن أبا نواس كثيراً ما يتحدث عن بعض

(٢) المسمودى ٢٤٤/٤ .

(٣) أغاني ٣٣٠/٥ .

(١) البيان والتبيين ٣/٢٢٠ واظفر ترجمته

في الأغاني (طبع السامى) ١٤٢/١٦ .

الحوارى بضمير المذكر . ومن تنمة هذا التبادل بين الحواري والحصيان فى الزرى والهينة حيثند كثرة المخبثين بين المغنين والضاريين على الدفوف ، وكانوا يتشبهون بالنساء فى عاداتهن وثيابهن وضفقر شعورهن وصنغ أظافرهن بالحناء^(١) .

٤

الشعوبية والزندقة

نادى الإسلام فى قوة بهدم الفوارق العصبية للقبائل والفوارق الجنسية للشعوب ، حتى يسود الوثام بين أفراد الأمة الإسلامية ، فلا عدنانى ولا قحطانى ولا عربى ولا أعجمى ، إنما هى أمة واحدة يتساوى أفرادها فى جميع الحقوق ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح ، يقول جلّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى »^(٢) .

وهذا بلا ريب مثل أعلى أرادده الإسلام لأمتة ، غير أنا لا نصل إلى عصر على بن أبى طالب وما نشب لعهدده من حترّب صفيّين حتى نرى العصبية القبيلة تعود جندعة بين القبائل ، وكأنهم لم ينسوا حياتهم القديمة ، بل لقد اضطربت اضطراباً لم تهدأ نائثرته طوال عصر بنى أمية . وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادة الدين فى معاملة الموالى ، فهم يرهقونهم بكثرة الضرائب ، وهم لا يسوون بينهم وبين العرب فى الحقوق ، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة ، فلم يؤثّر عمله فى هذا الجانب أى ثمرة .

وكانت هذه المعاملة السيئة للموالى سبباً فى اضطغانهم على العرب ، أو بعبارة أدق على الدولة الأموية ، فشاركوا الخوارج والشيعه فى الثورة عليها ، وأخذ فريق منهم يمثلهم إسماعيل^(٣) بن يسار النسائى يفاخر العرب بحضارة أمتة الفارسية وملوكها

(٣) أغانى ٤/ ١٠ وما بعدها .

(١) أغانى ٧/ ٤ .
(٢) البيان والتبيين ٣٣/ ٢ .

الساسانيين الذين غلبوا على الأرض . وعظم حقد الموالى على الدولة ، وملأت الحفيظة والموجدة صدورهم ، والتفت منهم جماعات كثيرة حول أبى مسلم داعية العباسيين بخراسان ، وما لبثوا أن زحفوا فى جيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين وللفرس من العرب إדالة نفذوا فى أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا ، بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولاة ، وخاصة حين استولى على أزمة الحكم البرامكة فى عهد الرشيد وبنو سهل فى عهد المأمون .

وكان هذا التحول الخطير فى مقاليد الحكم وما أصبح للفرس من مكانة رفيعة فى المجتمع العباسى الجديد سبباً فى بروز نزعة الشعوبية نسبة إلى الشعوب الأعجمية ، وهى نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب — وفى مقدمتها الشعب الفارسى — للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم وما كان العرب فيه من بداعة وحياة خشنة غليظة . وكان منهم معتدلون وقفوا عند حد التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب حسب تعاليم الإسلام فلا عربى يفضل أعجمياً ولا أعجمى يفضل عربياً ، إذ ليست العروبة ولا العجمة ميزة فى نفسها تُعلى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواء وقد خلّقوا من تراب ويعودون إلى التراب .

وكان بجانب هؤلاء المعتدلين متطرفون تجاوزوا التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب إلى الإزراء عليهم والتزول بهم دونها مرتبة أو مراتب ، وهؤلاء هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعوبيين ، إذ قدموا الشعوب الأجنبية على العرب وتنقصوا قدرهم وصغروا شأنهم ، وكانوا طوائف مختلفة فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان ، ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحت ديارهم وقوضوا دولهم وهى مشاعر ما زالت تحتدم فى نفوس الفرس حتى أحبوا لغتهم ودولتهم فيما بعد ، ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة . وأشد من كل هؤلاء عنفاً وغيظاً من العرب الملاحدة الزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة ، وفيهم يقول الجاحظ : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادى فيه وطول الجدال المؤدى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك

الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وهي السلف والقُدوة » (١) .

وكانت أهم مطاعنهم التي وجهوها إلى العرب أنهم كانوا بدواً (٢) رعاة أغنام ولابل ، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا معرفة بالعلوم ، فأين هم قديماً من ملك الأكاسرة والقيصرية ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية والرومية ؟ وأين هم من علوم الهند والفرس والكلدان واليونان والرومان ؟ وقد مضوا يُزرون على خطابتهم واعتمادهم فيها على العصى وإشارتهم بها واتكائهم على أطراف القسي كما أزرؤا على أسلحتهم الساذجة وأطعمتهم الخشنة . وأخذوا يتتبعون مثالبهم ويحصدونها عليهم ويستقصونها ، وكان العرب بسبب أهاجيتهم القبلية العنيفة قد وضعوا تحت أيديهم مادة وفيرة منها ، فاستغلوها في ذمهم وأضافوا إليها مادة مُختلقة صاغوها في قصص وأشعار وأضافوها إليهم . وبلغ من سوء نيتهم وشدة موجدتهم عليهم أن حاولوا تقييح بعض شيمهم الرفيعة كشيمة الكرم ، وقايسوا بين ما عندهم من المعارف والتعمق في السياسة وبين ما للعرب من حكم مثورة . وزعموا - فيما زعموا - أن الرسول فضلهم على العرب بمثل قوله : « لأنابهم أوثق مني بكم » (٣) والوضع في هذا الحديث لا يحتاج دليلاً . وحاولوا أن يستلثوا قريشاً قوم الرسول من العرب ويدخلوهم في غمارهم فزعموا أن سائلاً سأل الرسول عن أهله وأصل قريش ، فقال : نحن قوم من نبط كوثي (٤) .

ومن المحقق أن رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر ابن الحسين كانوا يُدّعون نازحاً هذه الشعوبية فيمن حولهم من الفرس ، وقد اختلف الناطقون عنها بين عالم وأديب وشاعر ، نذكر منهم أبا عبيدة اللغوي الإخباري المشهور ، وأصله من يهود فارس ، وقد صبَّ عنايته على تسجيل مثالب العرب

(١) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر (والمقد
الفريد ٤٠١/٣ وما بعدها .

(٢) انظر تيسير الوصول ١١١/٣ ، ١٢٧ .

(٣) انظر مادة كوثي في معجم البلدان لياقوت .

(١) الحيوان ٧/٢٢٠ .

(٢) انظر في هذه المطاعن البيان والتبيين

٥/٣ - ١٢٤ و كتاب العرب لابن قتيبة في
مجموعة رسائل البغلاء بتحقيق محمد كرد علي

وبلغ من فساد طويته أن طعن في بعض أسباب^(١) الرسول صلى الله عليه وسلم .
وليس من شك في أن عنايته بتلك المثالب هي التي دفعته إلى شرح نقائص جرير
والفرزدق لما تحمل منها من وقود جزل ، وكان في الوقت نفسه يُعَنِّي بالكتابة
في فضائل الفرس^(٢) . ومنهم علّان الشعوبى الفارسي وكان منقطعاً إلى البرامكة
ونسَخ في بيت الحكمة للرشد والمأمون ، وألّف في مثالب القبائل العربية كتاباً
سماه الميدان^(٣) . وكان يستشعر هذه النزعة في أعماقه الكاتب الأديب سهل بن
هرون الفارسي أحد صنائع البرامكة ، وقد أسند إليه المأمون الإشراف على بعض
خزائن بيت الحكمة ، وكان يتعصب على العرب تعصباً مسرفاً ، وصنف في ذلك
كتباً كثيرة^(٤) ، وقد افتح الجاحظ كتابه البخلاء برسالة له أشاد فيها بالبخل
وغضَّ غَضّاً شديداً من فضيلة الكرم العربية .

وأهم شاعر في العصر أوقد نيران هذه الخصومة وظل يمدّها بحطب جزل من
أشعاره بشار بن برد وكان في عصر بني أمية يكثر من الفخر بمواليه من قيس ،
حتى إذا حدث الانقلاب العباسي انقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسباً
ولاءه إلى الله ذى الجلال ، يقول^(٥) :

أصبحتُ مولى ذى الجلالِ وبعضهم مولى العُريبِ فخذُ بفضلِكَ فافخرِ
وقد مضى يشنُّ حرباً عنيفة على العرب ، وكان أبوه طيئاناً يضرب اللّبن ،
فاعتزى إلى أشراف العجم وملوكهم داخلا - كما يقول الجاحظ - بذلك في باب
فسيح لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه . ولم يكتف بهذا النسب الذي
ادعاه فقد مضى يزعم أنه يتنسب من قبل أمه إلى قياصرة الروم على نحو ما نجد
في قصيدته^(٦) :

هل من رسولٍ مُخْبِرٍ عني جميعَ العربِ

(٤) الفهرست ص ١٧٤ .

(٥) أغاني ١٣٩/٣ .

(٦) ديوان بشار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٣٧٧/١ .

(١) الفهرست (طبعة القاهرة) ص ٧٩ .

(٢) الفهرست ص ٨٠ والبيان والتبيين

٣٠٨/١ والكامل للبرد ص ٣٥١ .

(٣) الفهرست ص ١٥٣ .

وهي تصور ضراوة حقه العنيف على العرب ، وقد مضى فيها يقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه اللينة من الفرس والروم . وفي الحق أن شعوبيته كانت صارخة ، إذ كان زنديقاً وعدواً للعرب ودينهم الخفيف عداوة ترسب في ضميره وفؤاده .

ومن يُسَلَكُون في شعراء الشعوبية أبو يعقوب الخريزمي ، ولم يكن جاداً في تعصبه على العرب وخصومتهم ، إنما كان يطلب التسوية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، ولذلك ينبغي أن ينحى عن جماعة الشعوبيين ، وأدخل منه فيهم أبو نواس وشعوبيته إنما ترجع إلى شغفه بالخمرة وعكوفه على المجون وإعجابه بالحضارات الأجنبية ، فهي شعوبية ناشئة عن الاستمتاع باللذات ، وكان يبتغيها ما وجد إليها سبيلاً ، ويجعلها غاية الغايات من حياته ، وقد مضى يصور ذلك بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المتبدية الحشنة وما يتصل بها من بكاء الأطلال والوقوف برسوم الديار إلى الحياة الناعمة المترفة وما يتصل بها من النشوة بالخمرة والغلو في الشراب والإغراق في اللذات ، وله في ذلك أشعار كثيرة . وكانت تسقط أسراب من هذه النزعة إلى شعراء النبط والهند ، من مثل قول أبي الأصمعي الهندي يفخر بالهند وما أخرجت بلاد الهند^(١) :

لقد يَغْدُلْنِي صَخْبِي وما ذلك بِالْأَمْثَلِ
وفي مِدْحَتِي الْهِنْدُ وَسَهْمُ الْهِنْدِ فِي الْمَقْتَلِ
وفيه السَّاجُ وَالْعَاجُ وفيه الْفِيلُ وَالْدَغْفَلُ^(٢)

وينبغي أن نعرف أن الروح العربية — على الرغم من هذه الشعوبية — ظلت شائعة مهيمنة ، يسندھا الخلفاء وزعماء العرب من الولاة والقواد ومستشاري الدولة ، كما يسندھا الفقهاء والمحدثون وعلماء اللغة ورواة الشعر . وقد ردّ بعض شعراء العرب على الشعوبية وأصحابها على نحو ما نجد عند أبي الأصمعي الأموي في تصدّيه لعبد الله بن طاهر حين افتخر في قصيدة له بنسبه من الفرس وبأبيه طاهر بن

والدغفل : ولد الفيل .

(١) الحيوان ١٧١/٧ .

(٢) الساج : نوع ثمين من الخشب ،

الحسين قاتل الأمين ، فقد نقضها نقضاً بقصيدته^(١) :

لَا يَرُغِكِ الْقَالُ وَالْقِيلُ كُلُّ مَا بُلِّغْتَ تَضْلِيلُ

وتجرد نفر من الموالى أنفسهم للرد على أصحاب هذه النزعة الخبيثة وما تحمل من كيد للعرب ودينهم الحنيف على نحو ما يلقانا عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وابن قتيبة في رسالته التي سماها « كتاب العرب » ومروى بنا منذ قليل رأى الجاحظ في أنها كانت تدفع الموغلين فيها دفعاً إلى الإلحاد في الدين والزندقة .

وكلمة الزندقة ليست عربية إنما هي تعريب لمصطلح إيراني كان يطلقه الفرس على صنيع من يؤولون « الأفستا » كتاب دأيتهم زرادشت تأويلاً ينحرف عن ظاهر نصوصه ، ومن أجل ذلك نعتوا به دعوة ماني ومن فُتِنُوا بها من الفرس . وأخذ مدلول الكلمة يتسع في العصر العباسي ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس ، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والإثم .

ومعروف أن جمهور الفرس قبل الإسلام كانوا مجوساً على دين زرادشت الذي ظهر في ديارهم حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد وما وضعه لهم من تعاليم^(٢) ضممتها كتابه « الأفستا » وفيه زعم أن للعالم إلهين هما « أهورا مزدا » إله النور خالق كل خير و « أهرمن » إله الظلمة خالق كل شر ، وأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يكون فيها حساب الشخص على أعماله فإما النعيم وإما الجحيم ، وأن النار مقدسة طاهرة مما جعل الإيرانيين يقيمون لها المعابد في كل مكان . وظهر عندهم في القرن الثالث الميلادي داعٍ يسمى ماني مزج في تعاليمه بين الزرادشتية والبوذية والنصرانية^(٣) ، فأبقى من الأولى على عقيدة إلهي النور والظلمة واستباحة الزواج بالبنات والأخوات ، وأخذ من الثانية عقيدة التناسخ وتحريم ذبح الحيوان والطيور ، وأخذ من الثالثة الزهد والنسك ، وفرض على أصحابه صلوات وأدعية

١- أحمد أمين (الطبعة الأولى) ص ١١٨ .

(٣) راجع في ماني والمناوية الفهرست

ص ٤٥٦ والشهرستاني ص ١٨٨ ومختصر تاريخ

الدول لابن العبري ص ١٢٢ وفجر الإسلام

ص ١٢٤ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٠٤/١٢

وابن الممتز ص ٣٠٠ .

(٢) انظر في تعاليم زرادشت الملل والنحل

للشهرستاني (طبعة كيورتن) ص ١٨٥ وتراث

فارس (الطبعة العربية) ص ٣٦ وفجر الإسلام

كثيرة . وفي أواخر القرن الخامس للميلاد يظهر في إيران داع جديد هو مَزْدَك وكان ثَنَوِيًّا^(١) يؤمن بإلهي النور والظلمة وتقديس النار ، وقد مضى يدعو دعوة صارخة إلى العكوف على اللذات والشهوات والإمعان فيها ، وأحلّ النساء وأباح الأموال وجعلهما شركة للناس ، وكان له - كما كان لماني - أتباع كثيرون .

وقد عامل الإسلام والمسلمون الجوس معاملة أهل الكتب السماوية ، وبذلك ظلت الجوسية حية حياة قوية حتى العصر العباسي ، ومرّ بنا ما كان من ثورات سنباذ والخرمية في خراسان وأذربيجان وطبرستان ، وهي ثورات كانت تستوحى هذه الملل الجوسية السابقة ، وكانت تسرى في نفوس كثيرين من نازلة بغداد والعراق سرّاً وجهرّاً ، وكانت المانوية أخطرها جميعاً لما كانت تأخذ به من الزهد ومن بعض التعاليم المسيحية ، مما جعلها تقترب من دعوات الديانات السماوية في السلوك وفي التخلّق بالخلق الحسن ، وإن افترقت عنها بعد ذلك افتراقاً شديداً في ثنويتها وتحليلها الزواج بالبنات والأخوات وما جلبته من بعض مذاهب الهند .

وتنبه المهدي لانتشار هذه الملل الجوسية المارقة في أمصار العراق ورأى فيها خطراً أي خطر على الدولة والإسلام ، فأمر - كما أسلفنا في الفصل السابق - باتخاذ ديوان خاص لتعقب من يعتنقها من المسلمين ونصب لهم حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، فكل من ثبت عليه زندقته قُدِّمَ وقوداً لتلك الحرب التي ظلت قائمة إلى عهد ابنه الرشيد . ويظهر أن الفرس كانوا قد نشطوا نشاطاً واسعاً في نشرها بين الناس ونشط معهم كثير من الزنادقة أنفسهم يترجمون كتب النحل الفارسية ويصنّفون في الدعوة لها وفي تعاليمها ، وأيضاً فهم وبعض النصاري نقلوا إلى العربية كتب بعض مارقة النصاري وملحدتهم مثل مَرْقِيون^(٢) وابن ديصان^(٣) ، يقول المسعودي : « أمنع المهدي في قتل الملحدّين والمداهنين في الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومَرْقِيون

(١) انظر في مزدك والمزدكية الفهرست ص ٤٧٩ والشهرستاني ص ١٩٢ وفجر الإسلام ص ١٣٠ .

(٢) من أهل آسيا الصغرى وكان يعتنق المسيحية وانحرف عن تعاليمها وكون لنفسه مذهباً مستقلاً

كان فيه الملهم لابن ديصان ، وقد طردته الكنيسة سنة ١٤٤ م .

(٣) من أهل الرها ولد سنة ١٥٤ وكان يعتنق المسيحية وشذّ علّ تعاليمها مكوناً عقيدة مستقلة طردته الكنيسة .

فما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنّف من ذلك ابن أبي العوّاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المتأينة^(١) والديصانية والمرقيونية ، فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس^(٢) . ويقول الجاحظ : « لولا متكلمو النصارى وأطبائهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيائنا وظُرفائنا ومجاننا وأحدائنا شيء من كتب المتأينة والديصانية والمرقيونية .. ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ومخبّأة في أيدي ورثتها فكل سخنة عين رأيناها في أحدائنا وأغبيائنا فن قبّلتهم كان أولها »^(٣) .

ولم ينصب المهدي وخلفاؤه للزنادقة حرب السيف وحدها ، فقد نصبوا لهم أيضاً حرب اللسان : لسان المتكلمين انذين مضوا بجادلونهم وينحمونهم وينقضون شبهاتهم بالبرهان القاطع والدليل الساطع ، وصنفوا في ذلك الرسائل والكتب الطوال ، ومن يقرأ كتاب الحيوان للجاحظ يجده يتوقف كثيراً ليُورد ردّ النظام وغيره من المتكلمين على هؤلاء الزنادقة وكيف كانوا يسددون إليهم أدلة مصمية رادعة ، وكان للمعتزلة في ذلك القيدُحُ العلّى ، فهم الذين عاشوا يناظرونهم ويدفعون شرهم عن العامة والخاصة موضحين ما في شبههم من زيف وتمويه وما في عقائدهم من فساد ومناقضة للعقل المنطقي السليم .

وقد قُتل كثيرون من رموس الزنادقة لهذا العصر ، يتقدمهم ابن المقفع الذى قُتل لعهد المنصور ، وفيه يقول المهدي : « ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع^(٤) » . وقُتل منهم كثيرون لعهد المهدي ، منهم — في بعض الروايات — صالح بن عبد القدوس^(٥) ، وكان يعتنق المانوية ، ويحاضر فيها ويناضر فقُتل وصلب على الجسر ببغداد^(٦) . نكالا للناس وعظة ، ومنهم بشار وكان يعلن إشادته بالنار معبودة قومه المجوس ويفضلها على الطين كما يفضل إبليس على الإنسان ، وبلغ من تحمس المهدي لقتله أن خرج بنفسه إلى البصرة ليشهد مقتله^(٧) . وكانت

(٥) يجزم ابن المعتز بأنه قتل في عهد الرشيد.

(٦) أمالي المرتضى ١٣٤/١ وانظر ترجمته في

تاريخ بغداد ٣٠٣/٩ .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣/٢٤٤ .

(١) النسبة إلى ماني إما ماني أو مانوي .

(٢) المسعودي ٢٤٢/٤ .

(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠ .

(٤) أمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ١٣٤/١ .

البصرة - فما يظهر - أكبر وكثير حينئذ للزنادقة والملاحدة ، ففيها نبت وعاش بشار وصالح بن عبد القدوس ، ونرى محمد بن سليمان العباسي واليهما للمهدي يقتل من ملاحدتها زنديقين كبيرين هما عبد الكريم^(١) بن أبي العوجاء وحمام^(٢) عجرد « وكان عبد الكريم مانوياً يؤمن بالتناسخ ويتخذ من سيرة ماني وسيلة لدعوته إلى الزندقة وتشكيك الناس في عقائدهم »^(٣) ولما قُدم للقتل قال : « لئن قتلتموني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة »^(٤) . وفي ذلك ما يصور جانباً من دس هؤلاء الزنادقة على الإسلام ومحاولة تشويه هديه الكريم . وقد تنبّه لهم رواة الحديث النبوي فأسقطوا ما وضعوه وبينوا كذبه واختلاقه . ومراً بنا آنفاً أن حمام عجرد كان ممن يؤلفون الكتب في تأييد الإلحاد والزندقة استغواء للعامة وإفساداً لها وقد سلك معه المسعودي في هذا الاتجاه يحكي بن زياد الحارثي ومطيع بن إياس ، ولا نجد ذكراً لقتلهما ولا لحبسهما على الزندقة ، وربما لم تثبت عليهما ثبوتاً قاطعاً .

واشتد الهادي مثل أبيه في طلب الزنادقة حين ولي الخلافة لسنة ١٦٩ وقتل منهم جماعة^(٥) من بينهم أحد أبناء عمه داود بن علي ويعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب . وسرعان ما خلفه هرون الرشيد لسنة ١٧٠ فسار فيهم نفس السيرة ، ومن تعقبهم يزيد^(٦) بن الفيض ، ويونس بن أبي فروة وكان قد ألف كتاباً في مثالب العرب وعيوب الإسلام - بزعمه - وصار به إلى ملك الروم فأغدق عليه مالا كثيراً^(٧) . وطلب الرشيد أيضاً على بن الخليل الشاعر لما ذاع من زندقته ، غير أنه تبرأ منها فأطلقه^(٨) .

وكان المأمون إذا سمع بزندق أو زنادقة أمر بحملهم إليه وأحضرهم مجالسه حيث المتكلمون ودفعهم جميعاً إلى المناظرة ، لعلهم يقنعونهم ويردونهم إلى الإسلام ومحجته المستقيمة ، وكان يناظرهم هو نفسه أحياناً^(٩) ، فإذا لم يكفوا عن غوايتهم

- (١) لسان الميزان لابن حجر ٥١/٤ وما بعدها .
 (٢) لسان الميزان ٣٥٠/٢ .
 (٣) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٤٩ .
 (٤) أمالي المرتضى ١٢٨/١ .
 (٥) طبرى ٤٠٨/٦ وما بعدها .
 (٦) طبرى ٤٤٤/٦ .
 (٧) انظر أمالي المرتضى ١٣٢/١ والحيوان ٤٤٨/٤ والطبرى ٤٤٤/٦ .
 (٨) أغاني (طبع دار الكتب) ١٧٤/١٤ .
 (٩) أمالي المرتضى ١٤٦/١ .
 (١٠) الحيوان ٤٤٢/٤ .

أمر بقتلهم ، ويقال إنه بلغه خبر عشرة رجال في البصرة يجتمعون على المانوية ، فأمر بحملهم إليه ، فلما أُدْخِلُوا عليه امتحنهم ، وحاول أن يردّهم عن ضلالهم ، غير أنهم ثبتوا على عقيدتهم الفاسدة فأمر بقتلهم جميعاً^(١) . ومروا بنا في الفصل السالف ما كان من ثبوت الزندقة على الأفشين قائد المعتصم التركي ، مما جعله يزج به في غياهب السجن حتى مات وصلب بعد موته .

ومما لا ريب فيه أن خلفاء بني العباس لم يكونوا يقتلون على الزندقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها ثبوتاً لا يرقى إليه شك ، ويظهر أنهم إنما كانوا يقتلون من يتزع نزعة مجوسية وخاصة أصحاب النزعة المانوية كما تشهد بذلك الأخبار السابقة ، فكثرة المقتولين تضاف إليهم صفة المانوية ، ويؤكد هذا تأكيداً قوياً وصية المهدي لابنه الهادي بتتبع الزنادقة ، فقد وصفهم له وصفاً يدل على أنه إنما أراد من يعتنقون تعاليم المانوية^(٢) . ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا يقتلون على الإباحة المسرفة والإمعان في المحن ولا كانوا يعاقبون عليهما عقاباً صارماً ، وكان حريّاً بهم أن يشددوا في ذلك حتى لا تؤول الحياة في أمصار العراق إلى ما آلت إليه في بعض جوانبها من الفساد والتحلل الخلقي .

٥

الزهد

ليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة والمجون أن المجتمع العباسي كان مجتمعاً منحلاً أسلم نفسه للإلحاد والشهوات ، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا في طبقة محدودة من الناس كان جمهورها من الفرس ، وكانت موجة المجون أكثر حدة ، ولكنها لم تكن عامة في المجتمع ، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين . أما عامة الشعب فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجوناً ، أما من حيث الزندقة فإنها لم تكن تعادي الإسلام وصاحبه ، بل كانت مسلمة حسنة الإسلام تهتدي بأضوائه وتسجى على سنته ، وأما من حيث المجون فإنها لم تكن مترفة ولا

(٢) طبرى ٤٣٢/٦ وما بعدها .

(١) المسعودي ٣/٣٢٢ .

ثرية ، بل كانت تعيش على الكفاف ، بل كان كثير منها يعيش في البؤس والضنك والضييق وقلوبه تنقطع حسرات على ما تحظى به الطبقة المترفة من أسباب النعيم . وكانوا ساخطين سخطاً شديداً على كل ما يرونه حولهم من جموح الأهواء والإمعان في المجون ، وهو سخط اتسع في أيام الفتنة بين الأمين والمأمون حين حوصرت بغداد واستطال شر المُجَّان والعُهَّار ، وظلت من ذلك بقية في سنتي ٢٠١ و ٢٠٢ فإذا جماعات كبيرة تتطوَّع للذكير عليهم والأخذ على أيديهم^(١) .

وإذا كانت حانات الكترخ ودور النخاسة والمقينين به اكتظت بالجواري والإماء والقيان والمغنين ، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالعبَّاد والنسَّاك وأهل التقوى والصلاح ، وكان في كل ركن منها حلقة لواعظ يذكر بالله واليوم الآخر وما ينتظر الصالحين من النعيم المقيم والعاصين من العذاب والجحيم . وكان من الوعَّاظ مَنْ يفتح قصر الخلافة ليعظ الخلفاء على نحو ما هو معروف عن عمرو بن عبيد في وعظه للمنصور^(٢) وصالح بن عبد الجليل في وعظه للمهدي^(٣) وابن السماك في وعظه لهرون الرشيد^(٤) ومن كلامه : « الدنيا كلها قليل والذي بقي منها في جنب الماضي قليل ، والذي لك من الباقي قليل ، ولم يبق من قليلك إلا القليل »^(٥) .

وكان الوعظ في هذا العصر يلتمح بالقصص للعة والعبرة ، وهو التحام قديم منذ تميم الداري وكعب الأخبار في عصر الخلفاء الراشدين ومنذ قصَّاص الفتح من أمثال أبي سفيان بن حرب . وقد ازدهر هذا الوعظ القصصي في عصر بني أمية عند الحسن البصري وأضرابه ، وتكامل ازدهاره في هذا العصر . وينبغي أن نميز بين هذا الضرب من القصص الديني وقصص آخر كان الناس يجتمعون حول أصحابه في طرقات بغداد وغيرها من أمصار العراق ليسلِّوهم بالنوادر والحكايات القصيرة ، ومن أجل ذلك قرُّنوا بأصحاب السَّاخر من مثل القسَّاردين^(٦) . وقد كثر قصاص الوعظ الذين كانوا يدفعون الناس إلى العبادة ورفض المتاع الدنيوي وسلوك السبيل الواضحة إلى نعيم الآخرة كثرة مفرطة^(٧) .

(٥) النجوم الزاهرة ١١٢/٢ .

(٦) انظر ما كتبه الجاحظ عن أبي كعب

الصوفي في كتابه الحيوان ٢٤/٣ وراجع التاج

ص ٤٠ .

(٧) القصاص لابن الجوزي ص ١٨ .

(١) طبري ١٣٦/٧ وما بعدها .

(٢) انظر عيون الاخبار ٣٣٧/٢ والمقد

الفريد ١٦٤/٣ .

(٣) عيون الاخبار ٣٣٣/٢ والمقد الفريد

١٥٨/٣ .

(٤) طبري ٥٣٨/٦ والمقد الفريد ١٦٤/٣ .

وكان بجانب هؤلاء القُصَّاص الواعظون كثير من النساك ، ومن الصعب استقصاؤهم إذ كانوا منتشرين في كل الأمصار ، وكان يحيون حياة زهد خالصة كلها تبتل وعبادة وتقشف وانقباض عن الاستمتاع بالحياة وملذاتها وانصراف عن كل نعيم فيها انتظاراً لما عند الله من النعيم السرمدي الذي لا يزول . وفي البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد منشورات رائعة من أقوال مشاهيرهم أمثال سُفْيَان الثوري المتوفى سنة ١٦١ وداود الطائي المتوفى سنة ١٦٥ وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١ والفضيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧ وسُفْيَان بن عُيَيْنَةَ المتوفى سنة ١٩٨ وكان يقول : « فكرك في رزق غدٍ يكتب عليك خطيئة »^(١) ويقول : « لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله قد استجاب دعاء شَرِّ الخلق وهو إبليس (قال رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قال فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ) ، وكان يستحب أن يقال في الدعاء : اللهم استرني بسترِكَ الحميل »^(٢) . ومن مشهورى هؤلاء النساك عبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ وهو الذى أنشأ أول رباط أو أول صومعة للناسكين في عَبَّادَان بالقرب من الكوفة ، وفيهم وفي رباطهم يقول أبو العتاهية^(٣) :

سَقَى اللهُ عَبَّادَانِ غَيْثًا مُجَلَّلًا فَإِنْ لَهَا فَضْلاً جَدِيدًا وَأَوَّلًا
وَقُبَّتْ مَنْ فِيهَا مُقِيمًا مَرَابِطًا فَمَا إِنْ أَرَى عَنْهَا لَهُ مَتَحَوَّلًا
إِذَا جِئْتَهَا لَمْ تَلَقَ إِلَّا مَكْبَرًا تَخْلَى عَنْ الدُّنْيَا وَإِلَّا مَهْلَلًا
فَأَكْرَمَ بَيْنَ فِيهَا عَلَى اللهِ نَازِلًا وَأَكْرَمَ بَعْبَادَانِ دَارًا وَمَنْزِلًا

وقد أخذت تُقام في هذا العصر رباطات أخرى في أنحاء العالم الإسلامى ، وكانت الدولة التى تقيمها أحياناً ، فى أخبار الفضل بن يحيى البرمكى أنه شخص إلى خراسان فى سنة ثمان وسبعين ومائة ، فبنى المساجد والرباطات^(٤) .
ويدل أكبر الدلالة على ارتفاع موجة النسك حينئذ أنه أخذت تنبثق بين

(٣) ديوان أبي العتاهية (طبع بيروت) ص ٢١٨ .
(٤) الجيهشيارى ص ١٩٠ وما بعدها .

(١) عيون الأخبار ٣١٥/٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ١٥٨/٢ .

النُّسَّاك مقدمات نزعة التصوف متمثلة في شيوخ كثيرين ، في مقدمتهم إبراهيم ابن أدهم البلسخى المتوفى سنة ١٦٠ و رابعة العدوية المتوفاة بالبصرة سنة ١٨٠ وشقيق البلخي تلميذ ابن أدهم المتوفى سنة ١٩٤ ويقال إنه أول من تكلم في التصوف وعلوم الأحوال بكونه خراسان وأن له يداً طولى في إشاعة مبدأ التوكل^(١) . ومن مشهورهم معروف الكرخي من أهل كرخ بغداد المتوفى سنة ٢٠٠ ومن مآثور كلامه : « مَنْ كَابِرَ اللَّهَ صَرَعَهُ ، وَمَنْ نَازَعَهُ قَسَمَهُ ، وَمَنْ مَآكَرَهُ خَدَعَهُ ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ مَنَعَهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ لَهُ رَفَعَهُ »^(٢) . ومن مشهورهم أيضاً عَبْدُكَ الكوفي وأبو سليمان الداراني الشامي المتوفى سنة ٢٠٥ وبشر بن الحارث الخافي الخراساني نزير بغداد المتوفى سنة ٢٢٧ وكان يقول : « الْجُوعُ يَصْنِي الْفُؤَادَ وَيُمِيتُ الْهَوَى وَيُورِثُ الْعِلْمَ الدَّقِيقَ ، وَالْمُتَقَلِّبُ فِي جُوعِهِ كَالْمُتَشَحِّطِ فِي دَمِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِذَا أَعْجَبَكَ الْكَلَامُ فَاصْمِتْ ، وَإِذَا أَعْجَبَكَ الصَّمْتُ فَتَكَلَّمْ »^(٣) . وتلقانا من هؤلاء المتصوفة جماعة بمصر على رأس المائتين^(٤) .

وينبغي أن لا نبالغ فنزعم أن التصوف نضج في هذا العصر ، إنما أخذت مقدماته في البروز والظهور ، أما تكونه التام فقد حدث في العصر التالي ، أما في هذا العصر فقد تفتحت تباشيره الأولى ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربط ربطاً وثيقاً بين زهد هؤلاء النُّسَّاك وبين زهد الرهبان المسيحيين الذين كانوا متشربين في العالم الإسلامي وخاصة في العراق والشام ومصر^(٥) ، ونحن لا نمنع التأثير العام ، ولكن ينبغي أن يستقر في نفوسنا أن الزهد الإسلامي يختلف عن الزهد المسيحي في جوهره إذ الزهد عند المسيحيين ورهبانهم يقوم على أساس من فكرة الخطيئة ، والإسلام لا يُقرُّ هذه الفكرة ولا ما تؤدي إليه من تعذيب الجسد ، فإن لبدن المسلم عليه حقاً ، ومن أجل ذلك نتهى الإسلام عن العزوبة ، بينما دعت إليها المسيحية .

وقد حاول جولد تسيهر أن يربط بين مقدمات نزعة التصوف الإسلامية وبين

(٤) كتاب الولاية والقضاء للكننص ص ١٦٠ .

(٥) العقيدة والشريعة في الإسلام . لجولد

تسيهر (طبعة دار الكاتب المصري) ص ١٣١ وما بعدها .

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢١ وانظر في تاريخ وفاته ١٤٦/٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢/١٦٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ٢/٢٥٠ .

تعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يتصل بها من مذهب الفيض ووحدة الوجود^(١) ، كما حاول أن يربط بين هذه المقدمات وبوذية الهند ، إذ رأى في سيرة إبراهيم بن أدهم التي صورها بعض من تحدثوا عن أخباره ما يحكى محاكاة تامة سيرة بوذا ، إذ يقال إنه كان ابن ملك من ملوك بلخ ورأى من إحدى نوافذ قصره رجلاً مسكيناً فتدبر أمره ، ولم يلبث أن خلع ثوب الإمارة إلى الأبد ولبس أطماراً بالية وفارق قصره وزوجه وأولاده وأوى إلى الصحراء سائحاً مطوّفاً عابداً ربه^(٢) . وهي سيرة لابن أدهم صنعتها له الأجيال المتأخرة^(٣) فلا يصح أن تُحمّل على العصر العباسي الأول ولا أن تتخذ دليلاً على أن متصوفه كانوا يتأثرون البوذية وما ترويه عن بوذا الناسك . وقد رأى جولد تسيهر الجاحظ يروى خبراً عن ناسكين سائحين^(٤) فقال إنهما من ناسكي البوذية ، كى يدعم دعواه ، وهما من ناسكي المانوية .

والحق أن جولد تسيهر يبالغ في كل ما رآه من هذا الربط بين مقدمات التصوف الإسلامي والبوذية من جهة والأفلاطونية من جهة أخرى . يمكن أن يكون قد حدث ذلك في بعض جوانب التصوف فيما بعد هذا العصر إذ كان التصوف لا يزال يستمد من معين الإسلام ذاته كما لاحظ ذلك نيكلسون^(٥) ، وهو حينئذ لم يكن أكثر من نمو للزهد الإسلامي وما ارتبط به من نسل ، وآية ذلك القاطعة أن نظريتي الفيض ووحدة الوجود لم تمدا ظلالهما عليه حتى هذا التاريخ . على أن هذا الزهد الإسلامي وما ارتبط به من مقدمات التصوف كانت تجرى بجانبه أسراب من زهد فاسد هو زهد الزنادقة الذين اعتنقوا تعاليم المانوية على نحو ما يلقانا في أشعار صالح بن عبد القدوس المقتول لمانويته وهي تزخر بالترغيب عن متاع الدنيا الزائل حتى ليقول ابن المعتز إن له في ذلك ما ليس لأحد^(٦) .

يا إبراهيم ماهذا العيب ؟ ! أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة ، فنزل عن دابته ورفض الدنيا . وانظر صفة الصفوة ١٢٧/٤ .

(٤) الحيوان ٤/٤٥٦ وما بعدها .

(٥) انظر كتاب في التصوف الإسلامي وتاريخه لنيكلسون (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣ .

(٦) ابن المعتز ص ٩١ .

(١) العقيدة والشرعية في الإسلام ص ١٣٦ .

(٢) العقيدة والشرعية في الإسلام ص ١٤٣ .

(٣) قارن هذه السيرة التي حكاها جولد تسيهر بما قاله ابن قنرى بردي في النجوم الزاهرة ٣٦/٢ وهو من المصادر المتأخرة ، يقول :

« كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف ، وكان أبوه شريفاً كثير المال والخدم والجنان (الدواب) والبزاة ، فبينما إبراهيم يأخذ كلابه وبزاته للصيد ودوعلى فرسه يركضه إذ هو بصوت يتناديه :

ومعنى ذلك أن العصر العباسى الأول شهد لوزين من الزهد : زهداً إسلامياً خالصاً أعدَّ للنسك والتصوف ، وزهداً مانويّاً مارقاً ، وهو الذى يمكن أن يوصل بينه وبين البوذية ، إذ المانوية تتأثر بها — كما مر بنا — من قديم . وقد مضت الدولة تقاومه وتقاوم أصحابه مقاومة عنيفة على نحو ما أسلفنا ، وكان من تمام النسك فى هذا الزهد المارق المنحرف أن يعيش الناسك من سؤال الناس^(١) .

افصل الثالث

الحياة العقلية

١

الامتزاج الجنسي واللغوى والثقافى

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ومن المحيط الهندى والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والخزر والروم والصقالبة شمالاً ، وبذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب . وهى أوطان كثيرة ، وكان يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة فى الجنس واللغة والثقافة ، غير أنها لم تكد تدخل فى نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربى امتزاجاً قوياً ، فإذا بنا إزاء أمة عربية تتألف من أجناس مختلفة ، وقد مضت هذه الأجناس تنصهر فى الوعاء العربى حتى غدت كأنها جنس واحد .

ومن أهم الأسباب التى هيأت لذلك نزول القبائل العربية فى الأمم المفتوحة وامتزاجها بشعوبها فى السككنى وعن طريق المصاهرة وتسرى الإماماء ، بحيث غدت بيوت العرب تزخر بالحوارى من كل جنس : سديات وحشيات وفارسيات وخراسانيات وتركيات وروميات وصقليبات ، وبحيث أصبح العربى خالص الدم فى بغداد نادراً ، فالكثرة الكثيرة من أبناء العرب أمهاتهم من الحوارى والإماماء ، وكذلك الشأن فى الخلفاء أنفسهم على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق .

وكان وراء هذا المزج الدموى بين العنصر العربى والعناصر الأجنبية مزج روحى عن طريق الولاء الذى شرعه الإسلام والذى اتخذ شكل رابطة تشبه رابطة الدم ، فالشخص يكون فارسياً أو هندياً أو رومياً أو قبطياً ويكون عربياً ولأه ، وحتى الرقيق كانوا بمجرد تحريرهم يصبحون موالى لأصحابهم وينسبون إلى قبائلهم مثل أبنائها الأصليين ، وقد دعا الإسلام إلى هذا التحرير دعوة واسعة ،

وجعله كفارة عن كل ذنب كبير أو صغير ، وكان كثير منهم حين يبحرون يجِدُون ويعتَلون المناصب الكبرى في الدولة .

وهذا الرقيق إنما كان قلة قليلة بالقياس إلى أحرار الموالى الذى كانت تتكون منهم الشعوب المفتوحة ، وقد دخلت كثرتهم في الإسلام ، وامتزجوا بأهله من العرب ونعموا بما يُكفَلُ للناس من عدل ومساواة ، وحقاً تعسف معهم الأمويون ولكن العباسيين ردوا الأمر إلى نصابه ، بل لقد فسحوا للفرس كى يغلبوا على العرب في تصريف شئون الدولة . وحتى من لم يسلم من الموالى : من المجوس والصابئة والنصارى أخذ يندمج في المحيط العربى بفضل ما شرعه الإسلام لهم من حقوق اجتماعية وحرية دينية . وبذلك فُتحت بينهم وبين المسلمين أبواب التعاون الوثيق — على مصاريعها — في جميع شئون الحياة ، وحقاً دخل جمهورهم الضخم في الإسلام ولكن دون إكراه أو عنف أو عسف .

وبذلك استطاع الإسلام — بتعاليمه السمحة — أن يحدث امتزاجاً قوياً بين العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الدولة العربية ، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة ، إنما بلغه بامتلاك القلوب ، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التى انبسط عليها سلطانها تسلم وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة .

وقد أسرع من أسلموا من الشعوب المفتوحة جميعاً إلى تعلم لغة القرآن الكريم والحديث النبوى ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العربية تسود في كل أنحاء العالم الإسلامى لا بين المسلمين وحدهم ، بل أيضاً بين غيرهم ممن بقى على دينه القديم لافى البيئات التى كانت قد أخذت تستعرب في العصر الجاهلى : بيئات العراق والجزيرة والشام فحسب ، بل أيضاً في البيئات النائية : في إيران وخراسان ومصر وبلاد المغرب ، وهى بيئات لم يكن لها بالعروبة عهد من قبل ، فإذا هى تتعرب وتتعرب معها الأطراف الغربية للقارة الأوربية في الأندلس .

وكان سكّان هذه البيئات يتكلمون لغات مختلفة ، ففي إيران كانوا يتكلمون الفهلوية ، وفي العراق والجزيرة كانوا يتكلمون الآرامية وما انبثق منها من النبطية والسريانية ، وفي الشام كانوا يتكلمون اللغة الأخيرة ولغات سامية مختلفة ، وفي مصر

كانوا يتكلمون القبطية وفي بلاد المغرب كانوا يتكلمون البربرية . وكانت اللغة اليونانية قد أخذت تشيع — منذ غزو الإسكندر — في الأوساط الثقافية بالشرق كله : في إيران والعراق والحزيرة والشام ومصر ، بينما كانت اللاتينية تشيع في تلك الأوساط بشمال إفريقيا والأندلس .

ولا نكاد نتقدم في كل هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحائها القريبة والبعيدة ، وكان هذا تطوراً خطيراً حدث فيها ، إذ أصبحت شعوبها جميعاً عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة . وقد اختلف إسرعها إلى هذا التعرب باختلاف مواقعها من الحزيرة العربية ، فكان أسرعها تعرباً العراق والحزيرة والشام ، وكان تعربها جميعاً قد بدأ في الجاهلية ، فأتمته الفتوح العربية سريعاً ، فإذا اللغات السامية التي كانت تنتشر في تلك البيئات وعلى رأسها السريانية ترك مكانها من ألسنة الناس وتنحاز إلى الأديرة وإلى بيئة الصابئة في حران وبعض المراكز الثقافية القديمة كمدرسة جنديسابور . وتعرب مصر وبلاد المغرب تدريجاً .

وقد أقبل الفرس على التعرب إقبالاً منقطع النظير ، فقد أكبوا على تعلم العربية حتى أتقنوها واتخذوها سريعاً للتعبير عن عقولهم ووجداناتهم بحيث لا نكاد نتقدم في العصر العباسي حتى يصبح جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم ، فهم يقبلون على درس الشريعة الإسلامية ويتألق فيها نجم أبي حنيفة وتلاميذه ، وهم يقبلون على جمع العربية وتدوين أصولها النحوية على نحو ما هو معروف عن سيبويه وهم يقبلون على إحسان صناعة الكتابة على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع ، وهم يقبلون على الشعر بحيث يصبح أعلامه النابهن منهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس .

وليس معنى ذلك أن جميع أصحاب اللغات القديمة هجروا لغاتهم تماماً ، فقد ظلت من ذلك بقايا حتى في أكثر البيئات تعرباً أي في العراق والشام ، مما نشأ عنه سقوط بعض كلمات نبطية وآرامية إلى العربية^(١) . وأعل أهم لغة قديمة

بكثرة ما كان يدخل في أشعاره من ألفاظ نبطية
هو الطرماع : انظر الموشح للمرزباني ص ٢٠٨ .

(١) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ١٧٦/٥
وقد اشتهر في أواخر عصر بني أمية شاعر عربي

ظلت حية هي الفارسية ، لا بين سكان إيران فحسب ، بل أيضاً بين سكان الأمصار في العراق ، إذ زحفت إليها منذ عصر بني أمية جموع كبيرة منهم ، وازداد زحفهم في هذا العصر الذي علا فيه سلطانهم . ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يرويه الجاحظ عن قاصٍّ من قُصَّاص البصرة ووعاظها هو موسى الأسنوارى إذ يقول : « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية ، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرهما لهم بالفارسية فلا يُدْرَى بأى لسان هو أبين » (١) . وكان كثير من العرب أنفسهم يتعلم الفارسية ويحسنها ، حتى لنها تدور في مجالسهم (٢) ، وحتى لنى الأصمعى العربى القُحَّ يفهم ما يجرى منها على لسان بعض الفرس (٣) . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت تشيع على ألسنة كثيرين في الحياة اليومية لبغداد والكوفة والبصرة ، وبسبب من ذلك ولأنها كانت لغة الحضارة الفارسية دخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة ، وخاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس . ودخل العربية في هذا العصر بعض ألفاظ هندية وخاصة في أسماء النباتات والحيوانات من مثل الآبنوس والبيغاء والفلفل كما دخل بعض ألفاظ يونانية وخاصة ما اتصل بأسماء المقاييس والموازين والأمراض والأدوية من مثل القيراط والأوقية والقولنج .

ولم تُفسد هذه الكلمات الدخيلة العربية فقد كانت تأتي على هامشها ، وكثيراً ما كانت تعرّب بحيث تتفق والاسان العربى ، وقد ألفت العرب فيها مصنفات كثيرة تميزأها وتعريفأ بها . ولم يكونوا يعمدون دائماً إلى استعارة الأسماء الأجنبية لمدلولاتها التى لم يكونوا يعرفونها ، بل كانوا يحاولون فى أحوال كثيرة أن يضعوا لتلك المدلولات أسماء عربية خالصة إما عن طريق الاشتقاق وإما عن طريق التوسع فى مدلولاتها ومعانيها القديمة . وبذلك اتسعت العربية وتحولت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة الشديدة على مقوماتها ومشخصاتها وأوضاعها وأصولها الاشتقاقية والصرفية والنحوية .

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٧/٥ .

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٨ .

(٢) أغاني (طبعة السامى) ١٩/١٧ .

وَحَقًّا أَخَذَ يَفْشُو الْاَلْحَنَ وَلَكِن عِلْمَاءُ اللُّغَةِ كَانُوا بِالْمُرْصَادِ لِكُلِّ مَنْ يَلْحَنُ ،
 حَتَّى لَكَأَنَّهُمْ كَانُوا يَعِدُّونَ الْاَلْحَنَ لِاحْدَى الْكِبَائِرِ ، وَقَدْ مَضُوا يَسْجُلُونَ عَلَى كُلِّ
 عَالَمٍ وَكُلِّ كَاتِبٍ وَكُلِّ شَاعِرٍ مَا تَعَثَّرَ فِيهِ أَحْيَانًا مِنْ بَعْضِ الْاَلْحَنِ . وَجَمَعَ مِنْ ذَلِكَ
 « يَوْهَانَ فَاك » فِي كِتَابِهِ « الْعَرَبِيَّة » مَادَّةً وَاسِعَةً ، وَمَنْ يَنْعَمُ النَّظْرُ فِيهَا يَعْرِفُ أَنَّ
 الْاَلْحَنَ لَمْ يَكُنْ مَتَفَشِيًّا فِي أَوْسَاطِ الْمُتَقَفِّينَ بَلْ كَانَ مَحْدُودًا جَدًّا ، إِذْ مَبْلَغُ مَا يُضَافُ
 إِلَى أَيِّ شَخْصٍ لَا يَتَجَاوَزُ عِدَدَ أَصَابِعِ الْيَدِ الْوَاحِدَةِ إِلَّا فِي النَّادِرِ . وَقَدْ وَقَفَ يَوْهَانَ
 فَاك طَوِيلًا عِنْدَمَا سَاقَهُ الْخَاضِعُ فِي كِتَابِهِ « الْبَيَانُ وَالتَّبْيِيحُ » مِنْ لُكْنَاتِ بَعْضِ
 الْأَعَاجِمِ ، وَهِيَ لُكْنَاتُ مُرْدُّهَا إِلَى مَا كَانَ يَجِدُهُ نَفَرٌ مِنْهُمْ مِنْ صُعُوبَةٍ فِي التَّكْيِيفِ
 الْعَضْوِيِّ لِمَخَارِجِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي لَا تَوْجَدُ فِي لُغَاتِهِمْ ، إِذْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَبْدُلُ
 الرَّاءَ غَيْنًا وَالزَّايَ ثَاءً وَالشَّيْنَ سَيْنًا وَالْعَيْنَ هَمْزَةً وَالْقَافَ كَافًا أَوْ طَاءً وَالْجِيمَ زَايًّا أَوْ
 ذَالًا وَالْحَاءَ هَاءً وَالصَّادَ سَيْنًا وَالظَّاءَ زَايًّا وَاللَّامَ يَاءً . وَهَذِهِ اللَّكْنَاتُ إِنَّمَا كَانَتْ تَشِيعُ
 عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَامَةِ وَقَلَّمَا سَقَطَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَى أَلْسِنَةِ الْفَصَحَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْمَوَالِي .
 وَهَذَا نَفْسُهُ يَلَاظُ فِي الْاَلْحَنِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَشِيعُ فِي أَوْسَاطِ الْعَامَةِ ، وَكَانَ عِلْمَاءُ
 اللُّغَةِ يَعْنُونَ بِتَنْقِيَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَصْفِيَّتِهَا مِنَ الشَّوَائِبِ ، وَفِي ذَلِكَ أَلْفُ الْكَسَائِي كِتَابُهُ فِي
 لَحْنِ الْعَامَةِ ، وَهُوَ مَطْبُوعٌ .

وَمَا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ الْفَصْحَى كَانَتْ الْمِثْلُ الْأَعْلَى لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ،
 وَخَاصَّةً الطَّبَقَةُ الْمُتَقَفَّةُ ، وَكَانَ أَهْمُ مَا دَعَمَهَا وَبَسَطَ سُلْطَانَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، وَحَتَّى
 الشَّعَوِيُّونَ وَالزَّنَادِقَةُ اتَّخَذُوهَا لِسَانَهُمْ وَأَدَاتِهِمْ فِي التَّعْبِيرِ وَلَمْ يَحَاوِلُوا الْخُرُوجَ عَلَى
 قَوَانِينِهَا . وَقَدْ عَاشَ عِلْمَاءُ اللُّغَةِ بِحُطُونِهَا وَبِحِرْسُونِهَا حِرَاسَةً حَفِظَتْ لَهَا كُلَّ مَقُومَاتِهَا
 الْاِسْتِقَاقِيَّةَ وَالتَّعْبِيرِيَّةَ وَالنَّحْوِيَّةَ وَمَكْتَنَّتْهَا مِنَ الثَّبَاتِ وَالْجَرَيَانِ عَلَى الْأَلْسِنَةِ لَا فِي الْأَوْسَاطِ
 الثَّقَافِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ فَحَسَبَ ، بَلْ أَيْضًا فِي أَوْسَاطِ الْعَامَةِ وَبَيْنَ الْعُنَاصِرِ الَّتِي لَمْ تَدْخُلْ فِي
 الْإِسْلَامِ مِمَّا أَحَالَهَا وَعَاءٌ كَبِيرٌ لِكُلِّ مَا لَقِيَتْهُ مِنْ ثِقَافَاتٍ فِي الْبِلَادِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا
 وَمِنْ مَعَارِفٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَبَايِنَةٍ ، وَهِيَ مَعَارِفُ امْتَزَجَتْ فِيهَا مِنْذُ فَتُوحِ الْإِسْكَانْدَرِ عُنَاصِرُ
 شَرْقِيَّةٍ بِعُنَاصِرٍ إِغْرِيْقِيَّةٍ مَكُونَةٌ مَا يُسَمَّى بِاسْمِ الثَّقَافَةِ الْهِيلِينِيَّةِ ، وَمَعْرُوفٌ أَنَّ فَتُوحَهُ
 شَمِلَتْ مِصْرَ وَلِيبِيَا وَالشَّامَ وَالْعِرَاقَ وَإِيرَانَ وَخِرَاسَانَ وَأَفْغَانِسْتَانَ وَشَطْرًا مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ،
 وَقَدْ عُنِيَ بِنَشْرِ الثَّقَافَةِ الْإِغْرِيْقِيَّةِ فِي كُلِّ الْبِلَادِ الَّتِي افْتَتَحَهَا وَمَضَى خَلْفَاؤُهُ الَّذِينَ

ورثوا ملكه يستنون بعمله . وبذلك امتزجت هذه الثقافة بثقافات الأمم المفتوحة ، وتكونت من هذا الامتزاج ثقافة جديدة فيها من فلسفة الإغريق المتشعبة وفيها من ديانات الشرق وروحانياته وأساطيره ومعارفه الفلكية وغير الفلكية . وكانت تقوم على هذه الثقافة الهيلينية قبل الإسلام مدارس مختلفة في الإسكندرية وقيسارية وأنطاكية والرها ونصيبين وحسّرآن وجُنْدِسابور ، فاتصلت العربية بكل هذا التراث وأخذت تعمل على المزج بينه وبين معارف العرب وآدابهم ، واتخذ هذا المزج صوراً كثيرة ، منها الترجمة ونقل علوم الأرائل وسنعرض لذلك في موضع آخر . ومنها تأثر العرب بالمعارف العملية التطبيقية عند الأجانب مما اضطروا إلى الوقوف عليه في إنشاء المدن وضبط الدواوين وعمل الأساطيل وإعداد الجيوش والنهوض بالزراعة والتجارة . ومنها جدالهم لأصحاب الملل والنحل ، فقد كانوا ناشرين للدين الإسلامي ، فاضطربت المجادلات والمناظرات بينهم وبين البوذيين والمجوس والصابئة والنصارى واليهود وغيرهم ، وتعرفوا على عقائدهم ونحلهم . وأعمق من ذلك تحول أصحاب النحل والديانات المختلفة إلى الإسلام ، فقد تحولوا إليه بترائهم العقيدى ، بل بكل تراث آبائهم الثقافى .

ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ألوان الثقافات العامة التى كانت ماثلة في البلدان المفتوحة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس تحولت إلى العربية دون حاجة إلى ترجمة منظمة لسبب طبيعى وهو أن شعوب هذه الثقافات تحولوا عرباً ، فكان طبيعياً أن تتحول معهم ثقافتهم وأن لا تنتظر حتى ينظم لها النقل والترجمة . وأهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية والفارسية واليونانية . وكانت الثقافة الهندية تصل العرب حينئذ عن طريقين : طريق الفرس وما سقط إليهم منها من قديم وطريق من دخلوا منهم حديثاً في الإسلام واندمجوا في عرب العراق ، ومعروف أن جمهور الهنود وثنيون يدينون بالبوذية ، ومنهم براهمة^(١) ينكرون النبوات ودهريون لا يؤمنون بشئ سوى الدهر وسُمتية لا يؤمنون بشئ سوى الحس وقد ناظرهم قديماً جهم^(٢) ابن صفوان ، وظل المعتزلة على نحو ما يصورهم الجاحظ في كتابه الحيوان —

(٢) المنية والأمل لابن المرتضى ص ٢١ .

(١) انظر في نحل الهند الشهرستانى ص ٤٤٤ .

وما بعدها .

يردون عليهم ردًا عنيفاً^(١) ، ونعجب أن نرى عربياً أزدياً يعتقد عقيدة السَّمَسِيَّة^(٢) . وكانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح إيماناً شديداً حتى ليقول البيروني : « كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحلها لم يك منها ولم يعد من جملتها»^(٣) إذ استقر بينهم أن الأرواح تنتقل من جسد إلى جسد تطلب بذلك الكمال ، وما تزال تطلبه حتى تستوفي شرف ذاتها وتستغنى عن الاتصال بالأبدان ، وحينئذ يتحد العقل والعامل والمقول ويصبحون جميعاً شيئاً واحداً . وقد سقطت هذه العقيدة — كما مر بنا في غير هذا الموضع — إلى ماني والمانوية كما سقطت إلى بعض الشيعة القائلين بتناسخ النور الإلهي في الأئمة ، وأيضاً فإنها سقطت في هذا العصر إلى الحرورية ، وكان يؤمن بها أحمد بن حنبل المتكلم صاحب فرقة الحائطية ويدافع عنها دفاعاً شديداً^(٤) . وكان يشيع على ألسنة عامتهم بعض قصصهم كقصّة السندباد . وقد تأثرت المانوية — على نحو ما أشرنا في الفصل السابق — بزهد البوذيين وطرقهم في النسك وتحريمهم لذبح الحيوان .

وكانت الثقافة الفارسية الشعبية أبعد تأثراً في المحيط العربي لهذا العصر ، فقد دخل جمهور الفرس في الإسلام واقتبس العرب كثيراً من صورة حياتهم في المطعم والملبس وبناء القصور ونظام الخدم والحشم ، وكانوا يحتفلون معهم بأعيادهم كما أسلفنا ، ويحكون عنهم أقاصيصهم عن رسم وإسفنديار وأخبارهم عن ملوكهم وحكامهم . وكانت المجوسية لا تزال حية بمعابد نيرانها ونحلها المختلفة من زرادشتية ومانوية ومزدكية وما كانت تجتمع عليه هذه النحل من تَسْوِيَّة أو إيمان بأن للعالم إلهين : إلهاً للنور وإلهاً للظلمة . ونعجب إذ نجد بعض العرب يصبح ثنويّاً مانويّاً على نحو ما كان صالح بن عبد القدوس . وكان تأثير المزدكية في المجتمع أشد عمقاً ، بما كانت تدعو إليه من التحلل الخلقي والعكوف على اللهو والجنون والاندفاع في إباحية مسرفة .

ولم يختلط العرب باليونان والبيزنطيين إلا اختلاطاً محدوداً عن طريق الرقيق البيزنطي الذي كان يقع في الأسر أو يباع في أسواق النخاسة ، وكان تأثيره في

(١) انظر مثلا الحيوان ٧٠/٤ وما بعدها . (٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٤ .
(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ١٤٧/٣ . (٤) الشهرستاني ص ٤٢ .

الجال العربي محدوداً ، وحقا أن الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثرت في الفكر العباسي ، ولكن عن طريق النقل والترجمة لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب ، وأيضاً عن طريق ما ألقته من ظلال على الثقافة الهيلينية الشعبية العامة التي كانت سائدة في المنطقة والتي حملت في أطوائها معارف الكلدانيين والصابئة عن النجوم والكواكب ومعارف الشاميين والمصريين عن شئون الزراعة وما كان يتداول هنا وهناك من أقاصيص عن السحر والعرافة وما يجري في كل ذلك من إيمان بالغيبات ومن نزعات روحية عميقة .

وكان يشارك في الحياة اليومية أصحاب الديانتين النصرانية واليهودية ، ويصور لنا الجاحظ في رسالته « الرد^(١) على النصارى » موقف العرب منهم حينئذ ومن اليهود فيقول إنهم كانوا أقرب من اليهود إلى العرب مودة وأسلم صدوراً ، فإن اليهود طووا قلوبهم على عداوة الإسلام ورسوله الكريم منذ مقامه بين ظهرانهم في يثرب ، على حين آوى نصارى الحبشة من هاجروا إليهم من أصحاب الرسول فراراً من اضطهاد قريش ومدّوا إليهم يد البرّ والعون . ويقول إن نصارى بغداد كانوا ينهضون بالصناعات المربحة مندجين في حياة الخلفاء والرعية ، بينما كان اليهود يحترفون الصناعات الرذيلة الحقيرة ، فن النصارى كتاب السلاطين وأطباء الأشراف والعطارون والصيافة ، أما اليهود فنهم الصباغون والدباغون والقصابون والشعّابون ، وقد رسخ في ذهن العرب أنهم أفقر الأمم . ونرى نفراً منهم يسلمون منذ عهد الإسلام الأول ويذيعون كثيراً من الإسرائيليات التي دخلت في تفسير القرآن الكريم على نحو ما هو معروف عن كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وقد استغلها القصاص في وعظهم للعامة استغلالاً واسعاً ، وكان منهم من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه ، ففضى بسر عداوته للإسلام ويحاول أن يهدمه هدماً بما يدخل عليه من عقائد منحرفة وبما يثير من الفتن بين أصحابه مثل عبد الله بن سبأ ، وقد لعب دوراً واسعاً في فتنة عثمان والتأليب عليه وإحداث أول فرقة في الإسلام ، حتى إذا حدثت أخذ يلقي في روع بعض الضعفاء والعوام أن على بن أبي طالب فوق البشر وأن روح الرسول حلّت فيه ، ولما مات قال إنه اختفى وسيعود . وبذلك وضع نواة

(١) انظر هذه الرسالة في ثلاث رسائل الجاحظ .

التشيع الباطن ، بل وضع نواة غلاة الشيعة جميعاً ورافضتهم الذين طالما حاجتهم وجادلهم المعتزلة في هذا العصر . وكان له خلفاء كثيرون من جنسه مضوا يفسدون على شاكلة إفساده ، بل لقد كان ممن ظلوا على يهوديتهم مَنْ يخالطون العرب في مجالسهم ^(١) ويوردون عليهم بعض معتقداتهم الفاسدة من مثل التشبيه على الذات العلية ^(٢) ، حتى ليصبح هناك قوم معروفون باسم المشبهة من الرافضة وغيرهم . وقد عُنِيَ المعتزلة طويلاً بتسفيه أحلامهم ونقض ما زعموه من التشبيه على الله نقضاً . وكانوا يقولون إن التوراة محدثة ومخلوقة وأكبر الظن أن المعتزلة أو نفرأ منهم نقلوا عنهم هذه الفكرة فقالوا إن القرآن مخلوق ^(٣) . وإنما يدفعنا إلى هذا الرأي أنه كان من رموس القائلين بها ثمامة بن أشرس وبشر بن غياث المريسى المتكلم ، وكان غياث يهودياً يسكن بغداد وأسلم ابنه واشتغل بعلم الكلام والقول بخلق القرآن ^(٤) وما زال هو وثمامة بالمأمون حتى اعتنق هذا القول وجعله محنة وبلاء على الفقهاء والعلماء . وهو بلاء جَرَّ إلى صدع متفاقم بين المعتزلة وأهل السنة حتى لقد قضى قضاء مبرماً على ما كان للأولين من مجد في العصر العباسي الأول .

وقد شكنا الجاحظ — على نحو ما مر بنا في الفصل السابق — من متكلمي النصارى وأطبائهم ومنجميهم لنقلهم إلى العربية كتب المانية والديسانية والمرقونية المارقة ، مما أفسدوا به عقول العوام ، ولكن من الحق أن النصارى لم يكونوا يبطنون للإسلام من العداوة ما أبطنه اليهود على نحو ما لاحظ ذلك الجاحظ نفسه ، وكان المسلمون يَبْرُؤُونهم ويعاملونهم معاملة كريمة ، وقد دخل منهم جمهور غفير في الإسلام وامتزج العرب بهم وأكثروا من تسرى جواربهم مما هياً للقاح واسع بين العناصر الإسلامية والمسيحية في المجتمع العباسي ، ولا نقصد اللقاح الدموي فحسب ، بل نقصد أيضاً اللقاح الثقافي ، إذ نشأ جيل كبير أمهاته من المسيحيات روميات وغير روميات ، وطبيعي أن يحمل هذا الجيل عن أمهاته ثقافتهن وكثيراً

(٣) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/٣٣٤ .

(٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٢٨ وقارن ب ١٨٧/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩ .

(٢) انظر الشهرستاني ص ٦٤ - ٦٥ ، ٧٧ حيث يقول إن التشبيه في اليهود طبع حتى قالوا في الله : اشتكت عيناه فعداته (فزارته) الملائكة .

من طباعهن وعاداتهن وربما بعض معتقداتهن ، ونرى أحد المتكلمين وهو أحمد بن حائط الذى ذكرناه منذ قليل يزعم أن المسيح تدرّع بالجسد الجسمانى وأنه الكلمة القديمة المحسدة (١) .

وكان للأناجيل تأثير — من بعض الوجوه — فقد كانوا يقرءونها ويستظهرون كثيراً من كلام المسيح وأقواله فى وعظهم ، وفى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ من ذلك مادة وافرة ، وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى ما كان من تأثير الرهبان المنشين فى العالم الإسلامى من أثر عام فى زهد الزهاد حينئذ ، إذ كانوا يرون تقشفهم وخلوصهم للعبادة والنسك . وأشرنا أيضاً فى غير هذا الموضع إلى ما كانت تقدمه الأديرة للمجان والخلعاء من خمور معتقة . وما لا شك فيه أن المسلمين اندمجوا فى النصرارى لهذا العصر اندماجاً واسعاً ، وهو اندماج جعلهم يحتفلون بأعيادهم الدينية ويتخذون منهم كتاب الدواوين والأطباء والمنجمين ونقله علوم الأوائل ، كما جعلهم يملئون قلوبهم أمناً ورضاً دون أى عسف أو ظلم .

٢

الحركة العلمية

أذكرى الإسلام جذوة المعرفة فى نفوس العرب إذ دفعهم دفعاً قوياً إلى العلم والتعلم ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم اللغوية والدينية توضع أصولها ، وحتى أخذ العرب يلمون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة ، وقد مضوا فى هذا العصر يتقصونها وينقلونها بكل موادها إلى لغتهم ، ونهض التعليم حينئذ نهضة واسعة ، وعادة كان الناشئ يبدأ بالتعلم فى الكتاتيب حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعض سور القرآن الكريم وشيئاً من الحساب وبعض الأشعار والأمثال (٢) ، وكان بعض محلمى هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة أيضاً السنن والفرائض والنحو والعروض (٣) . وكانوا يؤثرون فى تعليم البنات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة

(٣) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .

(١) الشهرستانى ص ٤٢ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٨٠ .

النور^(١)، ويورد الجاحظ وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب^(٢) من مثل أبي البيداء الرياحي اللغوي ومحمد بن السكن المحدث وأبي عبد الرحمن السلمى المقرئ وأبي صالح الإخباري. وخص الجاحظ هؤلاء المعلمين برسالة ملأها بنوادرهم^(٣)، مما كان سبباً في أن تدور شخصية معلم الكتاتيب بين الشخصيات المضحكة في الأدب العربي، ومن كثرة التندير عليه في هذا العصر منهم علقمة ابن أبي علقمة النحوي الذي كان يتقعر في كلامه مكثرأ فيه من الغريب الشاذ وكان يعنى في مكتبته بتعليم الناشئة العربية والنحو والعروض ومات في خلافة المنصور^(٤) وقد ألف بعض الأدباء رسالة تجمع نوادره^(٥)

وكان للناشئة ألواح من الخشب العادى أو من الآبنوس يكتبون فيها دروسهم وكلما فرغوا من درس محوه منها وأثبتوا مكانه درساً آخر. وكان معلومهم يؤدبونهم بالجلد والضرب والحبس، وفي أخبار إبراهيم الموصلى أنه «أسلم إلى الكتاتيب فكان لا يتعلم شيئاً، وكان لا يزال يضرب ويحبس ولا يتنجع ذلك فيه، فهرب إلى الموصلى وهناك تعلم الغناء»^(٦) ويذكر الجاحظ أنه كان لأعشى بنى سليم ابن رآه مسناً كان يدع الكتاتيب ويلعب بالكلاب، فكتب أبوه إلى معلمه^(٧):

ترك الصلاة لأكلب يلهو بها طلب الهراش مع الغواة الرجس
فاذا خلوت فعضه بملامة أو عظه موعظة الأديب الأكيس
وإذا هممت بضربه فيلدة وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبس
وكان هؤلاء المعلمون يتقاضون من الناشئة أجوراً زهيدة، لا تتجاوز أحياناً

بعض رُغفان من الخبز كانت تختلف أحجامها وأنواعها باختلاف أحوال آبائهم غنى وفقراً، حتى لقد ضربت برغفان المعلم الأمثال على شدة الاختلاف والتفاوت. وكان بجانب معلمى أولاد العامة في الكتاتيب معلمون لأبناء الخاصة، كان منهم اللغوي والإخباري والفقيه والمحدث والمقرئ، وكانوا أحسن حالا من معلمى

(١) البيان والتبيين ١/١٨١.

(٢) انظر البيان والتبيين ١/٢٥١ والمعارف

لاين قتيبة (طبعة وستفولد) ص ٢٧١.

(٣) انظر قطعاً من هذه الرسالة بين رسائل

الجاحظ المطبوعة على هامش الكامل للمبرد.

(٤) المعارف ص ٢٧٢.

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٤٣٥.

(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥٧/٥.

(٧) الحيوان ٢/٨٤ وانظر عيون الأخبار

١٦٧/٢.

أبناء العامة ، على أن الجاحظ يقول في جمهورهم : « يكون الرجل نحوياً عروضيّاً وقسّاماً فَرَضِيّاً وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما »^(١) . وهذا إنما يصدق على من كان منهم يعلم أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كان يعلم أبناء الخلفاء والوزراء والبيت العباسي والقواد والسّراة فقد كانت تُفَرِّضَ لهم رواتب كبيرة ، جعلتهم يعيشون في خَفَقْض من العيش وسعة من الرزق ، نذكر من بينهم المفضل الضبي معلم المهدي وله اختار مجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات ، والكسائي معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون ، وقطرب مؤدب الأمين وأبناء أبي دلف العجلي قائد المأمون المشهور ، وعلى بن المبارك الأحمر أحد مؤدبي الأمين ويقال إنه أعطاه يوماً ثلاثمائة ألف درهم^(٢) ، ومنهم الزبيدي يحيى بن المبارك مؤدب أبناء يزيد بن المنصور الحميري خال المهدي ومن أجل ذلك لقب باليزيدي ، ومنهم الفراء معلم أبناء المأمون ، وأبو عبيد القاسم بن سلام مؤدب أبناء هرثة قائد الرشيد والمأمون .

وامتازت في هذا العصر البصرة بسوق باديتها المعروف باسم المربد ، وكان منهاً لشباب البصرة يغدون عليه ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب والتحدث إليهم تمريناً لألستهم وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب السليقة العربية المصفاة من شوائب العجمة . وكانوا يكتبون ما يسمعونهم منهم من طرائف الشعر ، على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبي نواس وأنه كان يغدو على المربد بألواحه للقاء الأعراب^(٣) . وكان من شباب الشعراء من يرحل إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعهما الأصلية على نحو ما هو معروف عن بشار^(٤) .

وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى ، فلم تكن بيوتاً للعبادة فحسب ، بل كانت أيضاً معاهد لتعليم الشباب حيث يتحلقون حول الأساتذة ، يكتبون ما يلقونه أو يملونه ، وكان الأستاذ يستند عادة إلى أسطوانة في المسجد ، ثم يأخذ في إلقاء محاضراته أو إملائها ، وفي الحلقات الكبيرة كان يردّد مستمل كلامه حتى يسمعه ويكتبه البعيدون عنه في الحلقة . وكان لكل فرع من المعرفة حلقاته أو حلقاته

(١) البيان والتبيين ٤٠٣/١ .
 (٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي
 (٣) الحيوان ٢٣٩/٦ .
 (٤) أغاني (طبع دار الكتب) ١٥٠/٣ .
 (نشر الخانجي) ص ١٤٧ .

الخاصة ، فحلقة لفقيه وحلقة لمحدث وحلقة لقصاص أو لمنسر وحلقة للغوى وحلقة لنحوى وحلقة لمتكلم ، وكانت حلقة الفقهاء من أكبر الحلقات إذ كان يقصدهم طلاب الفقه ومن يريدون أن يتولوا منصب القضاء أو الحسبة ، وكذلك كانت حلقة المتكلمين لما يجرى فيها من مناظرات ومحاورات بينهم أنفسهم وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل . وكان يتحلّق كثيرون فى حلقات اللغويين والنحاة ، ويقال إنه كان يحضر حلقة ابن الأعرابى الكوفى زهاء مائة شخص^(١) ، وكثيراً ما كانت تدور فى تلك الحلقات هى الأخرى مناظرات بين أصحابها على نحو ما يروى عن الأخفش من أنه تعرض للكسائى فى حلقة وسأله عن مائة مسألة محاوراً له ومناقشاً مناقشات مستفيضة^(٢) . وكانت هناك حلقات للشعراء ينشدون فيها أشعارهم^(٣) .

وهذه الحلقات الكثيرة التى لم يكن يشترط للحضور فيها أى شرط سوى الرغبة فى السماع والتى كانت مباحة لأى وارد كى يأخذ منها ما يريد من زاد المعرفة هيات لظاهرتين كبيرتين ، أما أولاهما فكثرة العلماء المتخصصين فى كل علم وفن ، حتى ليروى أن النضر بن شُمَيْل تلميذ الخليل بن أحمد حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان شيّعه نحو ثلاثة آلاف شخص بين محدث ونحوى ولغوى وعروضى وإخبارى^(٤) ، ولا بد أنه كان وراء هذا العدد الضخم كثيرون تخلفوا عن توديعه وتشييعه . وإذا كانت البصرة قد اشتملت على هذا العدد الوفير من العلماء فإنه مما لا شك فيه أن بغداد كانت تشتمل منهم على أضعاف له مضاعفة . وتلك هى الظاهرة الأولى ، أما الظاهرة الثانية فهى نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوعوا معارفهم تنوعاً واسعاً ، إذ لم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة واحدة ، بل مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات آخذين بطرف من كل لون من ألوان المعرفة حتى أصبحوا يشبهون الصحفيين المعاصرين الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثاً شائقاً فى كل صور المعرفة والثقافة . وكان يطلق على هذه الطائفة فى البصرة

اسم المسجدين ، وكان لهم حلقات خاصة بهم في المساجد ، يسوقون فيها فنوناً من الجدال والحوار في أى شىء يعنّ لهم ، وقد عرض الجاحظ في كتاب البغلاء صورة من جدالهم تناولوا فيها الاقتصاد في النفقة والتشهير للمال^(١) . وكانت لهم سوق نافقة في مجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم ، إذ كانوا يستطيعون أن يظرفوهم بالأحاديث الطلية ويروّحوا عنهم في ساعات صفوهم وغضبهم بما يوردون على سمعهم من طرائف الأخبار والمعارف . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن ظهور هذه الطائفة وما حظيت به في المجتمع العباسي هو الذى جعل الجاحظ وغيره يحوّلون كتبهم الأدبية إلى دوائر معارف واسعة ، بل لقد استقر في الأذهان أن الأدب هو الأخذ من كل علم وفن بطرف .

وإذا كان الخلفاء ووزراؤهم قد أغدقوا على هذه الطائفة كثيراً ، فإنهم لم يحرّموا طائفة العلماء المتخصصين ، بل كثيراً ما كانوا يضيفون عليهم عطاياهم الجزيلة ، وجاراهم في ذلك الولاة وكبار القواد ، وكان أول من سنّ ذلك وجعله تقليداً للدولة المهدى فإنه أكثر من مكافأته للعلماء كثرة جعلتهم يشدونّ إليه الرحال من كل بلدة^(٢) ، واحتذاه في ذلك ابنه الرشيد ، ويقال إنه وصل الأصمعي يوماً بمائة ألف درهم^(٣) وكان من المحظوظين لدى البرامكة ، ويروى أن جعفرأ البرمكى وصله بخمسمائة ألف^(٤) . وكان المأمون سحابة منهلة على العلماء والمتكلمين . وقد أعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميراً بمرور خمسين ألف درهم^(٥) . ويروى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وصل أبا عبيد القاسم بن سلام بألف دينار ثم عاد فوصله بثلاثين ألفاً ، وأجرى عليه ابنه عبد الله عشرة آلاف درهم في كل شهر^(٦) .

وليس من شك في أن هذا الصنيع كان من أهم الأسباب في ازدهار الحركة العلمية بالمساجد ، إذ كان من يبرز نجمه في حلقاتها لا يلبث أن يستدعى إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء ، فإذا العطايا تُسبّغ عليه وإذا الرواتب تُفَرّض له شهرياً . وحقاً كان بين علماء الفقه والحديث من لا يبغون بعلمهم وتعليمهم سوى الثواب من الله ، ولعله من أجل ذلك شاع بينهم التكسب من الحرف

(١) كتاب البغلاء للجاحظ (طبعة دار

الكاتب المصرى) ص ٢٤ .

(٢) إنباه الرواة ٢/٣٤٩ .

(٣) إنباه الرواة ٣/٣٤٩ وما بعدها .

(٤) إنباه الرواة ٣/١٦ وما بعدها .

(٥) طبى ٥٤١/٦ .

(٦) إنباه الرواة ٢/١٩٩ - ٢٠١ .

أو التجارة كأبى حنيفة وكان بَزَّازاً ، غير أن الكثرة وخاصة من علماء اللغة وأصحاب العلوم الدنيوية كانوا يتخذون علمهم حرفة لهم ومتجرأ ، بل لقد كان متجرأ راجحاً .

وكان من أهم الأسباب في بلوغ الحركة العلمية غايتها من النهضة الواسعة استخدام الورق ، إذ أخذ يعمُّ منذ مفتتح هذا العصر وكانوا قبل ذلك يكتبون في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى . ولم يلبث الفضل بن يحيى البرمكى أن أنشأ في عهد الرشيد مصنعاً ببغداد للورق ، ففشت الكتابة فيه لخفته وغلبت على الكتابة في الجلود والقراطيس . وكان الإملاء حينئذ أعلى مراتب التعليم ولكن لم تلبث أن ظهرت المصنفات الكثيرة واحتيج معها إلى النسخ ، فانتسعت صناعة الوراقة ، وهى تحل في هذا العصر محل الطباعة في عصرنا الحديث ، وقد مضى العلماء حينئذ يفيدون منها ، فاتخذوا لأنفسهم ورّاقين ينقلون عنهم كتبهم ويذيعونها في الناس مثل دماذ أبى غسان وراق^(١) أبى عبيدة . وكان مما دفع لرواج الوراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات ، وقد أقامت الدولة منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هى دار الحكمة وعُنيّت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التى تحمل كنوز الثقافات الأجنبية ، ولا ريب في أن هذه المكتبة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة .

وقد أخذ كثيرون من الأفراد يعنون باقتناء المكتبات ، وكانوا يوظفون فيها بعض الوراقين للنسخ ، من ذلك مكتبة إسحق بن سليمان العباسى وكانت تمتلئ بالكتب والأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر^(٢) ، وأضحى منها وأعظم مكتبة يحيى بن خالد البرمكى ويقال إنه لم يكن في مكتبته كتاب إلا وله ثلاث نسخ^(٣) ، وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخماً مكتبة الواقدى المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٢٠٧ وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب^(٤) وكان له مملوكان يكتبان له ليلاً ونهاراً^(٥) .

ولعل في ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن الكتب أصبحت مادة أساسية

(٤) معجم الأدباء ٢٨١/١٨ .

(٥) الفهرست ص ١٤٤ .

(١) الفهرست ص ٨١ .

(٢) الحيوان ٦١/١ .

(٣) الحيوان ٦٠/١ .

الكسائي الكوفي واليزيدي البصري بين يدي المهدي^(١) وما يُروى من مناظرة الكسائي وسيبويه بين يدي الرشيد أو بين يدي يحيى بن خالد البرمكي^(٢) . وكانت مجالس البرامكة ندوات كبيرة للمتكلمين والمتفلسفين من كل نحلة يتجادلون فيها ويتحاورون في كل ما يعرض لهم من مسائل ، وفي ذلك يقول المسعودي : « كان يحيى بن خالد البرمكي ذا بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل ، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام في الكمون والظهور والقدم والحدوث والإثبات والنفي والحركة والنسكون والمماسّة والمباينة والوجود والعدم والجوهر والطفرة والأجسام والأعراض والتعديل والتجوير والكمية والكيف والمضاف والإمامة أنص^٣ هي أم اختيار وسائر ما تورّدونه من الكلام في الأصول والفروع فقولوا الآن في العشق على غير منازعة ، وليورد كل منكم ما سنع له فيه وخطر بباله »^(٣) ويورد المسعودي أطرافاً من كلامهم وحوارهم في العشق تصور كيف كانوا يفرعون الأفكار ويستنبطونها ويشعّبونها في الموضوعات المختلفة التي كانت تمس مسائل الفلسفة وعلم الكلام ومذاهب الشيعة والسنة في الإمامة .

وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة ، وكان مثقفاً ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، ففضى يحول مجالسه في دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة وفي ذلك يقول يحيى بن أكرم : « أمرني المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم^(٤) » ويمضى ابن أكرم فيقول : إنه لما انتهى ذلك المجلس طلب إلى المأمون أن أنوع مجالسه بحيث تكون لكل طائفة من العلماء مجلس . ويعرض طيفور في كتابه بغداد كثيراً من هذه المجالس وما طُرِح فيها من موضوعات مختلفة للجدل والمناظرة . ويصور المسعودي ما عاد على الحركة العلمية من هذه الندوات التي غدت كأنها مجمع علمي كبير ، فيقول : « قَرَّب المأمون إليه كثيراً

(٣) مروج الذهب ٢٨٦/٣ .

(٤) بغداد لطيفور ص ٤٥ .

(١) مجالس العلماء للزجاجي ص ٢٨٨ .

(٢) إنباه الرواة ٢٧١/٢ .

من الجدلّيين والنظّارين كأبي الهذيل العلّاف وأبي إسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما (يريد من المعتزلة وغيرهم) وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق (الرواتب) فرغب الناس في صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ، ووضع كل فريق منهم كتباً ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله ^(١) .

وقد كُفّلت الحرية العقلية في هذا المجلس أو هذا المجمع إلى أبعد غاية ممكنة ، بحيث كان كل رأى يُعرّض للمناقشة العقلية الخالصة حتى آراء الزنادقة ^(٢) . وما لا شك فيه أن المجتمع كان يرتبط حينئذ بالإسلام ارتباطاً وثيقاً في جميع شئونه الروحية والاجتماعية ، ولكن كأنما أصبح سلطان العقل فوق سلطان الدين ، وكل ذلك باعثة الحقيقي رقى الحياة العقلية في هذا العصر ، فإذا كل شيء يناقش في حرية ، وإذا كل شيء يعرض على بساط البحث والجدل .

وكان وراء هذا المجلس الكبير ومجلس يحيى بن خالد البرمكي مجالس صغرى ما يزال يجتمع فيها العلماء ويتجادلون ويتناظرون ، من ذلك مجلس أيوب بن جعفر ابن أبي جعفر المنصور ، وقد اجتمع فيه يوماً النظام وأبو شَمير المتكلم ، وكانت في أبي شمر رزانة تجعله لا يحرك يديه ولا منكبيه إذا جادل أو ناظر ، فاضطره النظام بما أورد عليه من الحجج وأثقل عليه من البراهين في مسألة ناظره فيها أن يحرك يديه وأن يحبوا إليه حبواً يريد أن يسكته بيده بعد أن أعجزه أن يسكته بالأدلة العقلية ^(٣) ، ومن ذلك مجلس أزدى بالبصرة وفيه يقول صاحب الأغاني : « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء ورجل من الأزد ، فكانوا يجتمعون في مجلس الأزدى ويختصمون عنده » ^(٤) ويتحدث صاحب النجوم الزاهرة عن مجلس آخر في نفس البلدة ، فيقول : « كان يجتمع بالبصرة عشرة في مجلس لا يُعرَفُ مثلهم : الخليل بن أحمد صاحب العروض سُنيّ ، والسيد ابن محمد الحميري الشاعر رافضى وصالح بن عبد القدوس شُنويّ ، وسفيان بن

(١) مروج الذهب ٤/٢٤٥ .

(٢) الحيوان ٤/٤٤٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٩١ .

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣/١٤٦ .

مجاهد صُنْفَرِيّ ، وبشار بن برد خليف ماجن ، وحمام عجرد زنديق ، وابن رأس الجالوت الشاعر يهودي ، وابن نظير النصراني متكلم ، وعمرو بن أخت الموبذ مجوسي ، وابن سنان الحرّاني الشاعر صابئي ، فتنناشد الجماعة أشعاراً وأخباراً^(١) .

وواضح من هذين النصين كيف كان يلتقي أصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة في المجالس ، وكيف كانوا يثيرون كثيراً من المسائل التي تتصل بأهوائهم ونحلهم ومللهم ويتحاورون فيها حواراً طويلاً . وكانت هناك مجالس أخرى للمتفلسفة والمتكلمين ، ويقال إن مجلس يوحنا بن ماسويه « كان أعمر مجلس بمدينة بغداد لمطبيب أو متكلم أو متفلسف إذ كان يجتمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب » وكان تلاميذه يقرءون عليه في هذا المجلس كتب المنطق لأرسططاليس وكتب جالينوس في الطب^(٢) . وعلى شاكلة مجلسه مجلس حنين^(٣) ابن إسحق ، ويقال إن المأمون رسم له على كل كتاب ينقله إلى العربية أن يأخذ وزنه ذهباً . وكانت لابن أبي دؤاد المعتزلي مستشار المأمون والمعتمد والواثق ندوة كبيرة يحضرها من كبار المترجمين والأطباء سلمويه وابن ماسويه وبختيشوع بن جبريل^(٤) .

ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت أزواد المعرفة والثقافة ملقاة في كل مكان بأبصار العراق وهي حقاً كانت مطروحة في الطرقات معرضة لكل الأيدي ، فأبواب المساجد مفتوحة على مصاريعها لكل الواردين ومثلها دكاكين الوراقين ، ولا مصاريف تطلب للتعليم ، والتعليم مجاناً من حق الجميع . وكان لذلك آثار بعيدة ، فإن جمهور العلماء والشعراء لهذا العصر كانوا من أبناء العامة ، ويكفي أن نعرف أن أعلام الشعر حينئذ وهم بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام كانوا جميعاً من الطبقة الدنيا في الشعب فبشار كان أبوه طيئاناً يضرب اللبن ، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوص ومن هذا الغزل كانت تعوله ، وأبو العتاهية كان في صغره يحمل الخبز والحِرار على ظهره في شوارع الكوفة يبيعه للناس ، وكان أبو مسلم حائكاً ، أما أبو تمام فكان أبوه عطاراً أو خماراً ، ومن

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩٠ .

(٢) ابن أبي أصيبعة (٣) ص ١٣٩

(٤) الحيوان ٤/١٢٣ .

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩٠ .

(٢) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة (طبعة

دار الفكر العربي بيروت) القسم الأول من الجزء

الثاني ص ١٢٤ وابن القفطي في أخبار الحكماء

وراءهم من الشعراء كان جمهورهم من أبناء العامة ، وكذلك كان العلماء في جميع فروع العلم ، بل كان منهم من يجمع بين علمه وحرفته التي نشأ فيها مثل أبي أحمد التَّمَّار وشعيب القلال الذي كان يصنع فعلا القلال ، وهما من المتكلمين .

وأبعد من ذلك وأعمق أن بين أيدينا من النصوص ما يدل على أن أكثر العامة كانوا يصيرون حظوظاً مختلفة من الثقافة ، إذ لم يكن بينهم وبينها أى حجاب ولا أى حاجز ، بل لقد كانوا يروحون ويغدون عليها في المساجد ودكاكين الوراقين ، فنهل كلُّ ما نزع إليه من ينابيع المعرفة ، ومن خير ما يصور ذلك أن نرى الجاحظ يقول : « وسألت بعض العطارين من أصحابنا المعتزلة ^(١) » وكأن العطارين كانوا أقساماً منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم ولا بد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف ، فهم يناصرون هذا المذهب أو ذاك ، وهم يناصرون هذا الأستاذ أو ذاك ولكل أستاذ أتباعه لا من أوساط المثقفين فحسب ، بل من العامة أيضاً ، وبذلك نفهم قول صاحب النجوم الزاهرة عن النظام ونشاطه في الدعوة لآرائه الاعتزالية ببغداد إذ يقول : « وفي سنة ٢٢٠ ظهر لإبراهيم النظام وقرر مذهب الفلاسفة وتكلم في القدر ، فتبعه خلق ^(٢) » . ونرى الجاحظ في رسالته « الرد على النصارى » ينكر على العامة تعرضهم لمناقشة الملحدّين في آرائهم الفاسدة لعدم إحاطتهم الدقيقة بتلك الآراء وما ينقضها نقضاً من الأدلة ، يقول : « ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدّين من أحد » . ويهمننا ما تدل عليه شكواه من أن كل مسلم لعصره أصاب حظاً من طريقة المتكلمين في حجاج أصحاب الملل والنحل الفاسدة ، وبالمثل كانت العامة تصيب حظوظاً من الثقافة الدينية واللغوية والشعرية .

وليس من شك في أن ذلك كان ثمرة ازدهار الحركة العلمية في العصر ، فقد تغلغت المعرفة والثقافة في جميع الأوساط حتى في أوساط العامة ، وأصبحتنا غداء لجميع العقول والقلوب ، وبرزت صفوة من العلماء والأدباء كان جمهورها من أبناء هؤلاء العامة قادت الحركتين العلمية والأدبية قيادة خصبة باهرة ، إذ استطاعت أن تسيع كل ما نقل إلى العربية من ثقافات متباينة وأن تضيف إليها من عقولها

وقلوبها ما دعم حضارتنا العربية دعماً ، بما أحدثوا من علوم وبما كتبوا من آثار عقلية رائعة وآيات شعرية خالدة .

٣

علوم الأوائل : نقل ومشاركة

كان من أهم الأسباب التي دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية لهذا العصر الاتصال الخصب المثمر بين الثقافة العربية الحالصة وبين ثقافات الأمم المغلوبة المستعربة وما طوى فيها من معارف وعلوم . وكان هذا الاتصال يأخذ منذ عصر بني أمية طريقين : طريق المشافهة مع المستعربين وطريق النقل والترجمة وقد ظل الطريق الثاني ضيقاً زمن الأمويين ، إذ لا يعدو ما يُذكر من أنه تُرجمت لخالد بن يزيد بن معاوية بعض كتب في الصنعة والطب والنجوم^(١) وأن عمر بن عبد العزيز أمر بترجمة كتيب في الطب لأهرن^(٢) بن أعين وأن كتاباً في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية تُرجم لهشام^(٣) بن عبد الملك . وقد مضت يثبات المستعربين العلمية تمارس نشاطها حينئذ ، وكانت تمثلها الأديرة وما بها من حلقات علمية من المدارس متناثرة في جُنْدِسابور القريبة من البصرة وفي نصيبين وحرّان والرّها وأنطاكية والإسكندرية ، وكانت تغلب عليها جميعاً الثقافة اليونانية ، كما كان يغلب عليها علماء السريان المسيحيين ، وكانوا قد نشطوا منذ القرن الرابع الميلادي في ترجمة الآثار اليونانية ، واستمر نشاطهم في هذه الترجمة محتدماً حتى القرن التاسع ، ومن أشهر مترجميهم قبل الإسلام يوحنا فيلوبونوس الإسكندري المعروف باسم يحيى النحوي وكان يعيش في القرن السادس الميلادي ونقل عن اليونانية كتباً كثيرة في المنطق والطب والطبيعات^(٤) . ومن أبرزهم في العصر الأموي سويرس سيپوخت

(١) ابن النديم ص ٣٤٠ والبيان والتبيين

٣٢٨/١ .

(٢) طبقات الأطباء والحكّاء لابن جليل

(نشر المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة) ص ٦١ .

(٣) انظر صفحات عن إيران لصديق

نشأت ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو

بالقاهرة) ص ٨١ .

(٤) انظر ابن أبي أصيبعة في الجزء الثاني من

القديم الأول (طبعة بيروت) ص ٦ وأخبار

الحكّاء للقفطي ص ٢٣٢ وعلوم اليونان وسيل

انتقالها إلى العرب لأوليري (نشر مكتبة النهضة

المصرية) ص ٣٧ ، ١٢٣ .

أسقف دير قنسرين ويعقوب الرهاوى ، وله مصنف مهم فى النحو السريانى .
 وكان لمن خلفوهم فى العصر العباسى اليد الطولى فى ترجمة المصنفات اليونانية
 من لغتها الأصلية التى كان كثير منهم يحذقها ومن لغتهم السريانية إلى اللغة
 العربية . وكان من أهم مراكزهم مدرسة جنديسابور القريبة من البصرة ، ولعلها
 لذلك سبقت الكوفة فى التعرف على الفلسفة اليونانية . وكان كثير من مصنفات
 اليونانيين قد ترجم إلى الفارسية ، فأدلى الفرس بدلوهم لا فى نقل ثقافتهم فحسب ،
 بل أيضاً فى نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل ابن المقفع
 لمنطق أرسطو ، وقد نقل كليلة ودمنة الهندي الأصل إلى العربية ، وفى ذلك إشارة
 إلى ما كان فى الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نقلتهم^(١)
 وسرى عما قليل أن قوماً من مستعربى الهند شاركوا فى هذا النقل .

ونرى الخلفاء العباسيين منذ فاتحة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة
 وينفقون عليه الأموال الطائلة وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية ،
 يتقدمهم فى ذلك المنصور وفيه يقول المسعودى : « كان أول خليفة قرَّب المنجمين
 وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى وأسلم على يديه — وهو أبو هؤلاء
 النوبختية — وإبراهيم الفزارى المنجم وعلى بن عيسى الإسطرلابى المنجم . وهو أول
 خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ومنها كتاب كليلة
 ودمنة وكتاب السند هند ، وتُرجمت له كتب أرسططاليس من المنطقيات وغيرها ،
 وتُرجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الأثرماتيقي وكتاب أوقليدس^(٢) » .
 واهتمام المنصور بالتنجيم يقترن بنوبخت الفارسى ويظهر أنه كان منجماً
 كبيراً ، إذ ينسب له وضع بعض الجداول^(٣) الفلكية ، وكذلك كان أصحابه وثانيتها
 وهو على بن عيسى رسالة فى الاسطرلاب — وهو آلة فلكية لرصد الكواكب —
 وقد نشرها لويس شيخو . ولم يكتف المنصور بما كان عند الفرس من علم الفلك
 والتنجيم ، فقد نُقل له كتاب السندهند الهندي وكتاب المجسطى اليونانى لبطليموس
 وهما فى علم الهيئة والنجوم وحركات الأفلاك والكواكب . ومعنى ذلك أن العرب

(٢) المسعودى ٢٤١/٤ .
 (٣) علوم اليونان لأوليرى ص ٢١١ .

(١) كانت مدينة بلخ أهم مركز لإيرافى امتزجت
 فيه الثقافتان الفارسية والهندية ، وكان بها معبد
 النوبهار البونى المشهور . انظر أوليرى ص ١٤٩ .

استمدوا في هذا العلم من الفرس والهند واليونان ولا بد أنهم استمدوا فيه أيضاً من الصابئة ورثة الكلدانيين في الفلك والتنجيم .

وصورٌ نالينو أثر كتاب السندهند في علم الفلك العربي وكيف وصل إلى العرب ونُقل إلى العربية فقال : « إن وَقْدًا من الهند وَقَدَ على أبي جعفر المنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه (بَرَاهْمَسَبْهُطْسِيدْ هانت) ألفه سنة ٦٢٨ م أو ٦ ، ٧ هـ الفلكي الرياضي (برهمكبت) فكلّف المنصور ذلك الهندي بإملاء مختصر الكتاب ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية وباستخراج كتاب منه تتخذ العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال . وتولى ذلك الفزارى وعمل منه زيجاً^(١) اشتهر بين علماء العرب حتى إنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس في الحساب والجدول الفلكية . . واقتصر العرب على الجزء الأخير من اسم الكتاب السابق وهو (سِيدْ هانت) ثم حرّفوه قليلاً وسَمَّوه السندهند^(٢) . » . ويذكر نالينو ممن أخذوا عن هذا العالم الهندي يعقوب بن طارق وكان رياضياً ممتازاً وله مؤلفات قيمة في الفلك^(٣) .

ويذكر المسعودي أنه ترجم للمنصور بجانب المجسطى كتب أرسططاليس من المنطقيات وغيرها وكتاب الأثرمطيق في الحساب وكتاب أفليدس وهو في علم الأشكال الهندسية أمهاتها ومركباتها ، وجميع تلك الكتب يونانية . ولم يذكر المسعودي عناية المنصور بنقل الكتب الطبية إلى العربية ، ومعروف أنه استدعى في سنة ١٤٨ للهجرة جورجيس بن جبريل بن بختيشوع كبير الأطباء في بيمارستان جنديسابور ورئيس مدرسته ليكون بجانبه وقد نقل كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية^(٤) وأغلب الظن أنها كانت في جمهورها كتباً طبية . وكان جورجيس من السريان النساطرة ، وتعاقت من بعده أجيال من أبنائه وأحفاده تخدم الطب

وعلم اليونان لأولبري ص ٢٠٩ .
(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٣٧ والقفطي ص ١٠٩ .

(١) الزيج : علم الجداول الفلكية .
(٢) انظر علم الفلك وتاريخه عند العرب لنالينو ص ١٤٩ .
(٣) نالينوس ص ١٥٦ والفهرست ص ٣٨٨ .

والترجمة . ومن لمع اسمهم لعهد المنصور في ترجمة كتب الطب اليوناني أبو يحيى البطريق المتوفى سنة ١٨٠ إذ عُني بنقل طائفة من كتب أبقراط وجالينوس^(١) . وتنشط الترجمة في عصر الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة أو خزانة الحكمة وتوظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها وجلب الكتب إليها من بلاد الروم ، وكان يقوم على هذا العمل الضخم يوحنا بن ماسويه وكان طبيباً نسطورياً من مدرسة جنديسابور ، وفيه يقول ابن جليل : « قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة الطبية ، مما وُجد بأنقرة وعمورية وبلاد الروم حين سبأها المسلمون ، ووضعه أميناً على الترجمة ، ووضع له كتاباً حذّاقاً يكتبون بين يديه^(٢) » . وقد عاش ابن ماسويه طويلاً إذ توفي سنة ٢٤٣ وله مؤلفات كثيرة في الطب وتركيب الأدوية . وأسهم في الترجمة حينئذ جبريل بن بختيشوع كبير أطباء الرشيد إذ تُضاف إليه كتب مختلفة في الطب وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق .

والبرامكة فضل عظيم في إذكاء الترجمة حينئذ ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية ، من ذلك طلب يحيى بن خالد البرمكي إلى بطريك الإسكندرية أن يترجم في الزراعة كتاباً عن الرومية ، وقد ترجمه برسمه^(٣) ، وكان مما عنوا به إعادة ترجمة بعض الكتب اليونانية التي ترجمت قبل عصرهم ، بحيث تكون أكثر دقة وإتقاناً ، على نحو ما صنع يحيى بن خالد بكتاب المجسطي لبطليموس ، فقد ندب له أبا حسان وسلاماً صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين ، فاخترنا نقلهم وأخذنا بأفصحها وأصحها^(٤) . وقد عنوا عناية واسعة بترجمة التراث الفارسي ونرى جيلاً كبيراً ينهض في عصرهم والعصر الذي تلاهم بهذه الترجمة نذكر من بينهم آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة كتب الفلك^(٥) ، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل وكان يترجم للمأمون في حدائنه بعض الكتب

الإسكندرية وانتقلها إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي .

(٤) الفهرست ص ٣٧٤ .

(٥) الفهرست ص ٣٨٢ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٤ وذكر أوليى أنه ترجم لبطليموس كتاباً في التنجيم . انظر علوم اليونان ص ٤٢ .

(٢) ابن جليل ص ٦٥ والقفطي ص ٢٤٩ .

(٣) انظر مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة

الفارسية ويعجب بترجمته^(١) . ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسي حينئذ محمد بن جهم البرمكي وزادويه بن شاهويه وبهرام بن مردانشاه وموسى بن عيسى الكسرى وعمر بن القسطنطين وسلم صاحب خزانة الحكمة وسهل بن هرون أحد خزنتها المشهورين^(٢) . ومن أنفس ما نقلوه أمثال بُزْرُجْمَهْر وعهد^(٣) أردشير بن بابك إلى ابنه سابور وكتاب جاويدان^(٤) خرد في صنوف الآداب ومكارم الأخلاق وكتاب هزار أفسانه وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة . وقد نقل أبان بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة إلى الشعر وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكي ، ويقال إنه نظمها في أربعة عشر ألف بيت^(٥) ، وأيضاً فإنه نقل إلى الشعر العربي سيرة أردشير وسيرة أنوشروان^(٦) . وعلى نحو ما دفع البرامكة إلى ترجمة التراث الفارسي واليوناني دفعوا أيضاً إلى الانتفاع بالتراث الهندي وترجمته ، يقول الجاحظ : « اجتلب يحيى بن خالد البرمكي أطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقليسرقل وسندباد وفلان وفلان » وقد عملوا في البيمارستان الكبير ببغداد وسرعان ما استعربوا وشاركواهم وغيرهم من مستعربة الهند في نقل بعض الكنوز الهندية وخاصة في الطب والعقاقير^(٧) وشمل نقلهم صحيفة طويلة في قواعد البلاغة سجلها الجاحظ في بيانه^(٨) ، كما شمل قصة السندباد وكتباً كثيرة في الخرافات والأسفار مما تولع به العامة^(٩) .

وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أبعد غاياتها في عهد المأمون ، إذ تحول بخزانة الحكمة إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً وقد ألحق بها مرصده المشهور وجدد في الترجمة ، يقول ابن النديم : « لما استظهر (غلب) المأمون على ملك الروم كتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا

(٤) انظر جمع الجواهر للحصري ص ٧٤

وما بعدها .

(٥) الجهشيارى ص ٢١١ .

(٦) الفهرست ص ٢٣٢ .

(٧) الفهرست ص ٣٤٢ ، ٤٢١ .

(٨) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(٩) الفهرست ص ٤٢٤ .

(١) الجهشيارى ص ٢٣٢ .

(٢) انظر في هؤلاء النقلة عن الفارسية

الفهرست ص ١٧٤ ، ٣٤١ وكتاب البيان

والتبيين ٢٩/٣ .

(٣) راجع في هذا الكتاب وسابقه ثلاث

رسائل للجاحظ (نشر فتكل) ص ٤٢ وابن أبي

أصيبعة ص ١٠٩ .

ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله ، فنُقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه من نفذ إلى بلد الروم^(١) » ويقول ابن نباتة في ترجمته لسهل بن هرون : « جعله المأمون كاتباً على خزائن الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نُقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد ، فأرسلها إليه ، واغتنب بها المأمون ، وجعل سهل بن هرون خازناً لها^(٢) » .

ونحن نقف قليلاً عند هؤلاء المترجمين بتلك المؤسسة الكبيرة ، وأولهم الحجاج ابن مطر وقد اشتهر بتحريره لكتاب الأصول في الهندسة لأوقليدس^(٣) وكتاب المجسطى لبطليموس^(٤) . وأما يحيى بن البطريق فكان يجيد اللاتينية واليونانية جميعاً وقد ترجم لأفلاطون قصة طيمائوس وترجم لأرسططاليس مختصراً في النفس وكتبه في الآثار العلوية وفي الحيوان وفي العالم^(٥) وكتاب أرسطو إلى الإسكندر المعروف باسم سر الأسرار ، وهو مما نُحل على أرسطو ويشتمل على مزيج من القصص وبعض القواعد في السياسة وفي الصحة والتغذية ، وترجم أيضاً كتاب الترياق لجالينوس^(٦) . وقد مضى التعريف بيوحنا بن ماسويه ، أما سلم وسهل بن هرون فلم يكونا ممن ينقلون عن اليونانية ، إنما كانا ممن يراجعان النقل عنها وينقّحان فيه ، وهما من أنبه المترجمين عن الفارسية كما أسلفنا . ومن أخذ اسمه يلمع منذ عهد المأمون في الترجمة حنين بن إسحق ، وكان دقيقاً في ترجمته حتى قالوا إن المأمون رسم له أن يأخذ وزن ما يترجمه ذهباً وقد عاش إلى سنة ٢٦٤ ومكانه لذلك كتاب العصر العباسي الثاني . ومن كبار المترجمين سوى من سميناهم عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى حول سنة ٢٢٠ للهجرة وقد اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسططاليس وشرح يحيى النحوى (يوحنا فيلوبونوس) على كتاب السماع الطبيعي له أيضاً ،

(١) الفهرست ص ٣٣٩ .

(٢) سرج العيون لابن نباتة (طبع مطبعة الموسوعات بالقاهرة) ص ١٦٦ .

(٣) يقول ابن النديم ص ٣٧١ : نقل هذا الكتاب نقلين يعرف أحدهما بالهاروني نسبة إلى هرون الرشيد والثاني بالمأموني نسبة إلى المأمون ، انظر ابن أبي أصيبعة ص ١٧٢ والحيوان للجاحظ

١/ ٨٠ والفقه ص ٦٤ .

(٤) علوم اليونان لأوليري ص ٢١٥ .

(٥) تاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور

(نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٢ .

(٦) ابن جليل ص ٦٧ وأوليري ص ٢١٧ .

والعلم عند العرب لآلدميل (نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية) ص ١٢٧ وما بعدها .

وترجم كتاباً نُسب إليه خطأ وهو كتاب الربوبية أو أولولوجيا أرسطو ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلاطون الإسكندري المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد ومن أجل ذلك يفيض الكتاب بنزعة أفلاطونية محدثة قوية (١) .

وقد جعل المأمون الإشراف على مرصده الكبير ليحيى بن أبى منصور وألحق به طائفة من نابهي الفلكيين (٢) مثل على بن عيسى الإسطرلابي ومحمد بن موسى الخوارزمي والعباس بن سعيد الجوهري . ولم يلبث هذا المرصد أن تحول إلى مدرسة رياضية فلكية كبيرة تخرج فيها غير فلكي مثل بنى موسى بن شاكر . وقد أفادت هذه المدرسة من الأبحاث الفلكية الرياضية والجغرافية التي سبقها إليها الهنود والفرس واليونان ، وأضافت إلى ذلك إضافات جديدة باهرة ، إذ وضعت لحركات الأفلاك زيجات وجداول أكثر دقة مما كان لدى الأقدمين وأدخلت تحسينات على خريطة بطليموس ، واستطاعت أن تقيس درجتين من درجات محيط الأرض على أساس كرويتها ، إلى مباحث فلكية وجغرافية ورياضية كثيرة (٣) .

ومحمد بن موسى الخوارزمي هو أكبر العلماء الرياضيين والفلكيين الذين قاموا على أبحاث هذا المرصد ، وهو يُعَدُّ بحق منشىء عصر جديد في التاريخ العالمى للرياضيات إذ اكتشف علم الجبر وقواعده وأعطاه اسمه الذى شاع من بعده في العالم كله ، وقد أضاف إليه أبحاثاً مبتكرة في أرقام الحساب الهندية وفي حساب المثلثات وفي الجغرافية وفي الأرياج أو الجداول الفلكية ، يقول ألدوميللى : « وله في هذا المجال أعظم تأثير ، أولاً في الشعوب الإسلامية ثم بعد ذلك في الشعوب الغربية المسيحية ، وحسابه المفقود نصه العربى مع وجود ترجمة لاتينية له من القرن الثانى عشر الميلادى كان له أعظم الفضل في تعريف العرب واللاتين من بعدهم بنظام العدد الهندى ، وكتابه المشهور المختصر في حساب الجبر والمقابلة لم يؤدِّ فقط إلى وضع لفظ علم الجبر وإعطائه مدلوله الحالى ، بل إنه افتتح عصرأ جديداً في الرياضيات . . وألف أيضاً كتباً في الهندسة ، ووضع جداول خاصة بحساب

(١) انظر دى بور ص ٢٢ وعلوم اليونان

لأوليرى ص ٢١٧ .

(٢) راجع في الفلكيين لعهد المأمون الفهرست

ص ٣٨٣ .

(٣) انظر في بحوث هؤلاء الفلكيين ألدوميللى

ص ١٤٨ وأوليرى ص ٢٢٣ .

المثلثات والسطوح الفلكية^(١) .

وقد نشر على مصطفى مشرفه ومحمد مرسى أحمد كتابه « الجبر والمقابلة » وهو يذكر في مقدمته تشجيع المأمون له منوهاً به . ويظهر أنه نجح في صنع الجداول الفلكية نجاحاً رائعاً ، ويقول نالينو إنه « اصطنع زيجاً سماه السندهند الصغير جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس ، وجعل أساسه على السندهند ، وخالفه في التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس^(٢) » .

والخوارزمي — بدون ريب — يفتتح افتتاحاً رائعاً سلسلة الرياضيين والفلكيين والجغرافيين من علماء العرب العظام . وقد نبغ في هذا العصر كثيرون في الطب وعلم العقاقير على نحو ما تشهد بذلك كتب طبقات الأطباء وما تزرع به من سيول الرسائل والكتب في الأمراض وطرق علاجها والعقاقير وتركيبها . وقد استطاع يوحنا ابن ماسويه — بما كان يعكف عليه من تشريح القردة^(٣) — أن يضيف بعض النتائج الجديدة إلى ما خلفه جالينوس في علم التشريح ، وله في طب العيون رسالة مهمة سماها « دغل العين » وقد دوت شهرتها في عصره وبعد عصره وترجمت إلى اللاتينية^(٤) .

وقد مضى العرب يُعَسِّونَ — منذ خالد بن يزيد بن معاوية — بعلم الصنعة (الكيمياء) وظلوا يزدادون فيه علماً حتى ظهر لهذا العصر جابر بن حيان ، وهو ابن صيدلى كوفى ، فأرسي هذا العلم على دعائم التجربة وخلّف فيه كثيراً من النظريات في الأكسير وخواصّه ، وصوّر ذلك في أكثر من مائة رسالة ، تُرجمت منها طائفة كبيرة إلى اللاتينية وأفاد منها الأوربيون فوائد جلّى مما كان له أكبر الأثر في نهضة الأبحاث الكيميائية بديارهم . وقد تشكك في شخصية جابر ومصنفاته بعض الباحثين المحدثين^(٥) ، وهو شك بدأه بعض القدماء حتى لئرى ابن النديم يرد عليهم ردّاً طويلاً^(٦) ، وهو — دون نزاع — المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند

(٥) انظر كتاب جابر بن حيان لزكى نجيب محمود في سلسلة أعلام العرب ص ١٩ والدوبييل ص ٩٩ ومادة جابر في دائرة المعارف الإسلامية .
(٦) الفهرست ص ٤٩٩ .

(١) ألدوبييل ص ١٥٤ وقارن بصفحة ١٤٨ .
(٢) نالينوس ص ١٧٥ .
(٣) ابن أبي أصيبعة ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٤) علوم اليونان لأوليبرى ص ٢٢٤ .

العرب ، كما أن الخوارزمي المؤسس الأول للعلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ، وكما أن يوحنا بن ماسويه المؤسس الأول للأبحاث الطبية العربية .

وكان مما عنوا بنقله إلى العربية كتب الموسيقى لأوقليدس وغيره^(١) ، وكان لها تأثير بعيد في نهضة الغناء والتلحين وقد استطاع الخليل بن أحمد أن ينفذ مما ترجم منها إلى وضع علم العروض العربي ، وأيضاً فإنه ألف كتاباً بديعاً في علم الإيقاع اتخذته إسحق الموصلي قدوته في كتبه الموسيقية^(٢) .

وكل هذه السيول من الترجمة كانت تجري معها سيول أخرى من تراث اليونان والفرس والهند ، حتى ليكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شيء من هذا التراث لم ينتقل إلى العربية ، سواء منه ما اتصل بالعلوم أو ما اتصل بالصناعات أو ما اتصل بالعجائب والأسفار والخرافات ، أو ما اتصل بالملل والنحل . وكانت كل هذه السيول تتجمع في دكاكين الوراقين ، ويطلب كلٌّ منها ما يجد فيه متاعه .

وكانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية أعظم ما حَمَلت هذه السيول ، وقد مضى العقل العربي يسيغهما ويتمثلهما ويضيف إليهما إضافات باهرة، والمتكلمون — وعلى رأسهم المعتزلة — هم أهم من تعمقوا الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها ، وقد عرضوها على بساط البحث ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى كثير من النظريات والأفكار والآراء التي لم يسبقهم إليها سابق .

وعلى هذا النحو أصبح العقل العربي في العصر العباسي الأول عقلاً متفلسفاً كما أصبح عقلاً علمياً، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضاً من حيث إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علوماً لأول مرة في تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمي علم الجبر . وكان هذا العقل قد أظهر نصبه العلمي وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثاني ، مما نراه متجلياً في العلوم اللاغوية والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام .

(٢) إنباه الرواة ٣٤٣/١ ومعجم الأدباء
٧٣/١١ والمزهر (طبعة الحلبي) ٨١/١ .

(١) الفهرست ص ٣٧٢ والأغاني (طبعة
دار الكتب) ٢٧١/٥ .

العلوم اللغوية والتاريخ

عنى - منذ أواخر عصر بنى أمية - جمهور كبير من العلماء فى البصرة والكوفة بجمع ألفاظ اللغة وأشعار العرب فى الجاهلية والإسلام، وكان من أهم الأسباب فى هذه العناية حاجة الشعوب الأجنبية التى دخلت فى الإسلام إلى تعلم لغة القرآن الكريم، ثم ما كان من شيوع اللحن على ألسنة الموالى المستعربين، وعلى ألسنة بعض العرب أنفسهم بسبب اختلاطهم بالعناصر الأجنبية وما حدث من ضعف سلاقتهم بسبب تحضرهم، وكان كثيرون منهم قد نشأوا فى حجور أمهاتهم من الإماماء فضعفت عندهم الملكة اللغوية وأخذ اللحن يفسو فى كلامهم. وكانت هناك لهجات كثيرة تتفاوت قرباً وبعداً من الفصحى وتدور على ألسنة العرب الذين نزلوا واستوطنوا البلدتين الكبيرتين.

ولكل هذه الأسباب انبرى علماء البصرة والكوفة يجمعون ألفاظ اللغة وأشعارها حتى لا تفى العربية فى لغات الشعوب المستعربة، وحتى تسلم لها مقوماتها الأصلية، وحتى تُسَنَّفَ عنها وتُطَرَّحُ شوائب اللهجات القبلية. وقد اشترطوا على أنفسهم أن لا يأخذوا اللغة من عربى حضرى وأن يرحلوا فى طلبها إلى باطن الجزيرة حيث ينابيعها الصافية، وكانوا يقصدون بذلك إلى غايتين، أولاهما أن يقوموا ألسنتهم ويكتسبوا السليقة اللغوية السليمة، وثانيتهما أن يلتقطوا من الأفواه مباشرة مادتهم اللغوية النصححة التى يعرضونها على الناشئة فى حلقات المساجد، ويصور أبو نصر الفارابى صنيعهم فى هذا الجانب فيقول: «والذين عنهم نُقِلَت العربية وبهم اقتُدى عنهم أُخِذَ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وقيم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتَّكَلَّ فى الغريب وفى الإعراب والتصريف، ثم هُذِلَ وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سُكَّان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم

يؤخذ لا من لَحْم ولا من جُذام لمجاورتهم أهل مصر والقط ، ولا من قُضاة وغَسَّان وإباد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم^(١) .

وعلى هذا النحو كان اللغويون يتوغلون في نجد حيث المادة اللغوية الفصيحة التي يجمعونها من هنا وهناك ويمثلون بها حقائبهم ، وعن أبي عمرو بن العلاء شيخ البصرة : « لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية » يقصد الجزء الغربي من نجد وما يترأى إليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز . وسرعان ما أقبل من أغوار نجد إلى البصرة والكوفة ثم بغداد بعض الأعراب الفصحاء ليتكسبوا برواية الأشعار وتلقينها للناشئة وبعض العلماء اللغويين مثل ثور بن يزيد الذي أخذ عنه ابن المقفع الفصاحة^(٢) ، وأبي سَوَّار الغنوي أستاذ أبي عبيدة^(٣) ، ويسوق ابن النديم أسماء^(٤) طائفة كبيرة من هؤلاء الأعراب .

وقد تعاقبت في هذا العصر ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة تجمع اللغة والشعر ، ورأس الجيل الأول في البصرة أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩ وهو أحد القراء السبعة المقدمين الذين أخذت عنهم قراءات القرآن الكريم ، وكان حجة ثبناً صدوقاً ، وفيه يقول الجاحظ : « كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس^(٥) » . وأشهر أفراد الجيل التالي له خلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠ والأصمعي المتوفى سنة ٢١٣ وفي تعيين سنة وفاته اختلاف كبير وأبو زيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٤ وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ . وكان الأصمعي ثقة ثبناً ومجموعته الشعرية الملقبة بالأصمعيات بعيدة الشهرة ،

(٤) الفهرست ص ٦٥ وما بعدها .

(٥) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

(١) المزهري للسيوطي (طبعة الحلبي) ١/٢١١ .

(٢) الفهرست ص ٦٧ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

ورُويت عنه دواوين كثيرة أشهرها مجموعة الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة . وكان أبو زيد مثله صدقاً وأمانة وصَبَّ عناية على جمع اللغات الشاذة كما يتضح في كتابه « النوادر » في اللغة . وأبو عبيدة ينزل عنه وعن الأصمعي درجات في الثقة به إذ كان شعوبياً ذمياً ومن أشهر مصنفاته شرح نقائض جرير والفرزدق وكتاب المجاز في القرآن . وأهم أفراد الجيل الثالث من لُغَوِيِّ البصرة محمد بن سلام الجمحي صاحب « طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين » وهو كتاب نفيس إذ يصور عمل المدرسة البصرية في توثيق الشعر القديم ووضع شعرائه في طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنية .

ورأس الجيل الأول من لغوي الكوفة حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ وكان عالماً بالشعر والغريب غير أنه كان ماجناً فاسقاً زنديقاً ، فشاب روايته بالوضع والانتحال على ألسنة العرب ، مما جعل علماء البصرة وعلماء الكوفة أنفسهم من مثل المفضل الضبي معاصره يسقطونها ويزيفونها . وكان المفضل ثقة صدوقاً وحجة في الغريب ، ومجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات أنفَسَ مجموعات الشعر القديم . وأشهر أفراد الجيل الثاني في الكوفة أبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ ويقال إنه دخل البادية ومعه دَسْتِيجَان^(١) حَبِيراً فما خرج حتى أفناهما بكتابة سماعه عن العرب الفصحاء ، ويقال إنه كتب أشعار نيف وثمانين قبيلة . ولا يقل عنه شهرة معاصره ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ وقد رويت عنه دواوين كثيرة ، وهو إلى أن يكون في جيل الكوفة الثالث أقرب منه إلى أن يكون في جيلها الثاني . ومن أهم أفراد الجيل الثالث أبو عُبَيْدُ القاسم بن سلام ، ويقال إن الناس لم يكتبوا في اللغة أصح من كتبه ولا أكثر فائدة ، وله مصنفات كثيرة من أشهرها غريب الحديث والغريب المصنف .

ومن ينعم النظر فيما سجلت كتب طبقات اللغويين والنحويين لهؤلاء العلماء من مصنفات يجدها تتطور من التأليف في موضوعات جزئية مفردة مثل كتاب القرس وكتاب الإبل إلى تأليف المصنفات المطولة حتى لتتحول إلى معاجم لغوية على

(١) الدَسْتِيج : إناء .

شاكلة كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد ، وسترى الخليل بن أحمد يضع منهج أول معجم لغوى فى العربية . وينبغى أن نعرف أن الطريقة الأولى التى تُعنى بالجزئيات المفردة ظلت غالبية على محاضرات اللغويين طوال القرون : الثانى والثالث والرابع على نحو ما يصور ذلك الكامل للمبرد ومجالس ثعلب وأمالى القالى . وإذا تركنا جمع اللغة ورواية الشعر إلى النحو وجدنا البصرة تسبق الكوفة إلى وضع قواعده ومصطلحاته وصَبَّغها بالصبغة العلمية ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربطوا بين النحو العربى والنحو اليونانى أو السريانى ، محاولين أن يشبها وجوها من الصلة بينهما وبين النحو العربى ، وكأنه نشأ على هديهما ^(١) . وأكبر الظن أنه وليد العقل العلمى العربى الذى استوى على سوقه فى القرن الثانى ، ودفع دفعا إلى وضع علوم عربية كبيرة ، منها اللغوى ومنها الدينى .

وجاء فى بعض المصادر القديمة أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ وشبّه على بعض القدماء والمحدثين أنه وضع شيئاً من قواعد النحو ، والحقيقة أنه لم يضع منها شيئاً ، إنما الذى وضعه حقاً وكان أول واضعيه نَقَطُ المصحف نَقْطاً يعين حركات أواخر الكلم فيه أو بعبارة أدق يعين حركات الإعراب ^(٢) ، فكان يضع نقطة فوق الحرف الأخير للكلمة إشارة إلى الفتحة ، ونقطة بين يديه إشارة إلى الضمة ، ونقطة تحته إشارة إلى الكسرة ، وإذا تبع شيئاً من هذه الحركات غنة أو تنوين نقط الحرف نقطتين . واختلط التعبير عن هذا الصنيع بكلمة العربية على بعض أصحاب كتب الطبقات فظنوا أنه وضع بعض أبواب النحو أو بعض مسائله .

وأول نحاة البصرة الحقيقين عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى المتوفى سنة ١١٧ وعيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٤٩ . أما ابن أبى إسحق فيقال إنه أول من نهج النحو ومدّ القياس وشرّح العلل ، وأما عيسى بن عمر فإنه أول من وضع الكتب فى النحو إذ ألف فيه مصنفين هما الإكمال والجامع ، ويقال إن الأخير أصل كتاب سيبويه ، زاد فيه وحشاه . ويعد الخليل بن أحمد المتوفى فى سنة ١٧٥ هو الواضع الحقيقى لعلم النحو فى صورته النهائية التى أدّاها عنه تلميذه سيبويه فى

(٢) انظر المحكم فى نقط المصاحف لأبى عمرو الدانى (طبع دمشق) ص ٤ وما بعدها .

(١) راجع فى ذلك تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٢٤/٢ . ونولده فى مجلة الجمعية الشرقية الألمانية ، المجلد ٥٩ ص ٤١٤ .

مصنفه الملقب باسم « الكتاب » وهو في كثير من صفحاته يحكي آراءه وقد ذكره في نحو ثلاثمائة وسبعين موضعاً ، ويقول السيرافي : « كل ما قال سيويه : سأنته أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل ^(١) » ويقول إنه كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، ويقول الزبيدي : إنه استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد وما لم يسبقه إلى مثله سابق ^(٢) .

فالخليل هو المؤسس الحقيقي لصرح النحو العربي ، بل هو المقيم لقواعده والمشيّد لبنانيه وأركانها ، وكانت المادتان الأساسيتان اللتان اعتمد عليهما في رفع هذا الصرح إلى عنان السماء - كما يوضح ذلك كتاب تلميذه سيويه - القياس والعلل ، أما القياس فيتضح في ضبطه القواعد واطرادها بحيث تُنفَى الشواذ ، وأما العلل فمقدمات القياس التي تثبت صحته بما تقدمه من أدلة عقلية سديدة .

ويظهر أن الخليل كان يتقن المنطق الذي ترجمه صديقه ابن المقفع وما يتصل به من القياس ، وأيضاً فإنه كان يتقن العلوم الرياضية ^(٣) ، وهو إتقان جعله يقف على ما يصنعه أصحاب الحساب والرياضيات في مسائلهم الفرضية لترسخ ملكة هذه العلوم في عقول الناشئة . وعلى ضوء من هذا الصنيع مدّ القياس في التصريف والنحو ، فتولدت له ألفاظ جديدة وفروض في الصيغ بقصد تمرين التلاميذ وتدريبهم وهي ما يسميه النحاة بالتمارين غير العملية . وقد تمثل تمثلاً دقيقاً فكرة المعادلات والتوافق والتباديل التي هيأت عند الخوارزمي لنشأة علم الجبر ، وهي تلاحظ عنده في الميزان الصرفي وفي الخطة التي وضعها لصنع المعجم المعروف باسم « العين » إذ دفع تلميذه الليث بن نصر بن سيار أن يقلب كل الصيغ الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية على حروف الهجاء وبذلك حصر جميع الكلمات مما نطقت به العرب ومما لم تنطق مع نصّه في المعجم على الطرفين . وجعله يرتبه على مخارج الحروف بالضبط كما ترتّب عند الهنود حروف السنسكريتية ^(٤) ، وفي ذلك ما يشير إلى إطلاعه على بعض الأبحاث الهندية في الأصوات ، ولعل ذلك ما جعله

(٣) الزبيدي ص ٤٣ وإنباء الرواة ١/ ٣٤٦ .

(٤) انظر ترجمة الخليل في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي (طبعة كرنكو) ص ٤٠ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (انشر الحانجي) ص ٤٣ .

يعنى بالهمز والتشديد والروم والإشمام^(١) . ويبلغ تطبيقه لفكرة التباديل والتوافيق الرياضية الغاية في وضعه لعلم العروض ، لا من حيث ما اقترحه فيه من تفاعيل فقط ، بل أيضاً من حيث ما وضعه فيه من دوائر ، إذا قُدِّمَتْ فيها أجزاء التفعيلات بعضها على بعض خرجت الأوزان التي استعملها العرب وأوزان أخرى أهلوها ولم يستعملوها ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام العباسيين كي يجدوا في الأوزان حسب إرادتهم الفنية .

وخَلَّدَتْهُ على تراثه النحوى سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ غير متجاوز للأربعين من عمره في أرجح الأقوال ، وقد أودع هذا التراث مصنفه الموسوم باسم « الكتاب » مضيفاً إليه من أنظاره ما يدل دلالة بينة على فطنته ونفاذ بصيرته . والكتاب يُعَدُّ آية خارقة من آيات العقل العربى حتى سماه بعضهم قرآن النحو ، ويقول صاعد ابن أحمد الأندلسى : « لا أعرف كتاباً أَلَّفَ في علم من العلوم قديمها وحديثها اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب ، أحدها المحسطى لبطليموس في علم هيئة الأفلاك ، والثاني كتاب أرسططاليس في علم المنطق والثالث كتاب سيبويه البصرى النحوى ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شيء إلا مالا خطار له^(٢) » . وأهم من تلقى هذا الكتاب عن سيبويه من البصريين الأخنس الأوسط سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١١ فكان الطلاب يقرءونه عليه ويشرحه لهم ويفسره ، وله في النحو مصنفات كان ينشر فيها ضرباً من النغموض والتعقيد رغبة في التكبس بها^(٣) ، واشتهر بأنه أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحتها كما اشتهر بإتقانه لعلم العروض وتأليفه فيه .

ولم يكن النشاط النحوى منذ أوائل هذا العصر خامداً في الكوفة ، فقد كان بها طائفة من النحاة غير أنهم لم يبرعوا في النحو براعة البصريين ، ومن أجل ذلك كانوا يكثر من الرحلة إليهم والتلمذة عليهم ، حتى إذا تقدم العصر أخذوا يستقلون عن نظرائهم في البصرة بمذهب نحوى خاص بهم بحيث أصبح في النحو مذهبان متقابلان : مذهب البصرة الذى يعنى بالقياس مستنداً له من استعمال العرب الشائع ، ومذهب الكوفة الذى يُعْنَى بالسماع ويقدمه على القياس مهما كان شاذاً نادراً .

(٢) معجم الأدباء ١٦/١١٧ .

(٣) الحيوان ١/٩١ .

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطى (طبعة

مطبعة حجازى بالقاهرة) ١٧١/٢ .

وأقدم نحاة الكوفة أبو جعفر الرؤاسي تلميذ عيسى بن عمر أستاذ البصريين ، وخلفه ما ذاب بن مسلم الهراء المتوفى سنة ١٨٧ ويقال إنه هو الذي وضع علم الصرف غير أننا نشك في ذلك لأن الصرف مندمج في كتاب سيبويه المتوفى قبله . وأرسخ منه قدماً في الدراسات النحوية الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ وقد تتلمذ للخليل وتلقى عن الأخفش كتاب سيبويه ، ونراه يشيد بالقياس قائلاً :

إنما النحو قياس يُتَّبَعُ وبه في كل أمرٍ يُنْتَفَعُ

ويقول بعض البصريين : « لولا أنه دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل ^(١) »

وأهم نحاة الكوفة في العصر الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ وكان مثل أستاذه الكسائي يقدم السماع على القياس ، وأكثر من قراءة كتاب سيبويه ، ليحاول تعقبه ومخالفته في بعض ألقاب النحو ، وقد صاغ منها كثيراً أشاعه في كتابه « معاني القرآن » مثل الجحد بدلا من النفي والتكرير بدلا من البذل والتفسير بدلا من التمييز ^(٢) . وهو الذي جَسَّم الخلاف بين المدرستين الكوفية والبصرية لقدرته على الحجاج والجدل ، ويقال إنه كان مثقفاً ثقافة فلسفية واسعة ، وأنه كان يستخدم في كتبه ألفاظ الفلاسفة ، ويدل على ذلك كتابه « الحدود » في النحو فإن اسمه يحمل صلة قوية بينه وبين مباحث الحدود في المنطق ، ومن أهم كتبه « معاني القرآن » وهو يكتظ بآرائه النحوية .

وواضح مما قدمناه أن الكوفة لم تُسهم مساهمة حقيقية في وضع أصول النحو فقد سبقتها البصرة إلى ذلك محتكمة احتكاماً شديداً إلى القياس ^(٣) ، وإلى نظرية العامل التي ينفرد بها نحونا العربي والتي تُعَدُّ قوامه ، وهي تدل على أن هذا النحو لم يوضع على أساس نحو أجنبي ، فمحوره الذي تدور حوله بحوثه محور عربي خالص ، إنما كل ما يمكن أن يقال إنه أفاد من العقلية العلمية الحصبة التي اكتسبها العرب في العصر العباسي الأول من خلال تمثلهم للثقافات الأجنبية الفلسفية والعلمية .

(١) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي (نشر

مكتبة نهضة مصر) ص ٧٤ .

(٢) انظر معاني القرآن للفراء ١/٥١ ، ٥٢

، ٢٢٥ .

(٣) انظر مقدمتنا لكتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي (طبع القاهرة) .

وبما كان يعنى به النحاة واللغويون أنساب العرب وأخبارهم التى تؤديها أشعارهم ، وهى عناية اقترنت بنمو الكتابة التاريخية حينئذ ، وهو نمو ارتبط بالسيرة النبوية ، وانضمت إليها مادة من تاريخ الرسل ومن تاريخ العرب ثم تاريخ الأمم المجاورة للجزيرة العربية وخاصة الفرس .

وكانت السيرة النبوية مثبتة فيما يروى من الأحاديث ، فأخذ كثيرون يستخلصونها منها ، وعُنى بالقصص عن الأنبياء والرسل لتوضيح جوانب من القصص القرآنى وللوعظ والتذكير بالله واليوم الآخر ، وعُنى أيضاً بكتابة أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها وملوكها . وما نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى تكثُر الكتابة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه وبعوثة الحربية ، ويلمع فى هذا الجانب اسم محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ وقد وزَّع السيرة النبوية على ثلاثة أقسام كبيرة ، هى المبتدأ والمبعث والمغازى . ويتضمن المبتدأ تاريخ العرب القديم وقصص الأنبياء ، ويتضمن المبعث حياة الرسول فى مكة ، ويتضمن المغازى حياته فى المدينة . ولم يصلنا هذا الكتاب ^(١) ، إنما وصلتنا رواية مهذبة له رواها عبد الملك بن هشام المتوفى بالقسطاط سنة ٢١٨ .

ومن المؤرخين الكبار الذين عنى بكتابة السيرة والمغازى النبوية فى هذا العصر محمد بن عمر الواقدى قاضى المأمون المتوفى سنة ٢٠٧ وله مصنفات كثيرة فى الفتوح وتاريخ الخلفاء وأيام الناس ، ونشرت له قطعة خاصة بالمغازى ، وقد ضمَّن كتابه وتلميذه محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ كتابه « الطبقات الكبرى » سيرة مطولة للرسول عليه السلام .

وكان من أثر الاهتمام بالمدينة فى السيرة الزكية أن أخذت تُفسرُ لها المصنفات على نحو ما هو معروف عن محمد بن الحسين بن زُبالة المتوفى بعد المائتين ، وكتابه الذى خصه بها هو الأصل الذى ألهم العلماء بعده التأليف فى تاريخ المدن .

وعنى كثير من المؤرخين بالكتابة فى أحداث الدولة العربية على نحو ما هو معروف عن أبى مخنف لوط بن يحيى الأزدي المتوفى سنة ١٥٨ وله كتب مختلفة فى الفتوح وفى حروب صفين ، وسيف بن عمر التميمى المتوفى سنة ١٨٠ ويشتهر بمؤلفات

(١) توجد قطعة من هذا الكتاب فى مكتبة الرباط العامة بالمغرب .

له في الردة والفتوح ووقعة الجمل ، ونصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢ وقد نُشرت له بالقاهرة وقعة صيفين .

وصبَّ هشام بن محمد الكلبي عنايته على تاريخ العرب القديم وما يتصل به من أنساب وأيام وأشعار ، وكان متهماً بالوضع عند معاصريه ، ونُشر له بالقاهرة كتاب الأضنام . ومن أعلام المؤرخين لهذا العصر المدائني المتوفى سنة ٢٢٥ . وكان له كتاب ضخيم في أخبار الخلفاء وآخر في الدولة العباسية ومصنفات مختلفة في السيرة النبوية وفي الفتوح وأيام الناس ، وهي تُعَدُّ بالمئات ، وقد استقصاها ياقوت وابن النديم . وأخذت تُؤلف في هذا العصر كتب الرجال الذين حملوا الحديث النبوي من صحابة وتابعين على نحو ما يصور ذلك كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد الذي أشرنا إليه آنفاً ، ومثله كتاب معرفة الرجال ليجي بن معين المتوفى في سنة ٢٢٣ .

وعلى هذا النحو نشطت كتابة التاريخ في العصر العباسي الأول ، فلم تقف عند السيرة النبوية ، بل اتسعت لتشمل تاريخ العرب في الجاهلية وفتوحهم ودولهم في الإسلام وتاريخ الرسل والأنبياء ، وهبطت إليهم رواقد من تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس ، إذ عُني ابن المقفع وغيره بترجمة الكتب المؤلفة في سير ملوك العجم .

٥

العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال

نشأت العلوم الدينية في ظلال الحديث النبوي ، وقد أخذ رواته يضيفون إليه ما أُثر عن الصحابة لا في تعاليم الدين الخفيف فحسب ، بل أيضاً ما أثر عنهم وعن الرسول الكريم في تفسير الذكر الحكيم . وبذلك حمل الحديث كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير . وقد أخذ يدوّن تدويناً عاماً منذ أوائل القرن الثاني للهجرة ، على نحو ما هو معروف عن ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ وما أنكاد نتقدم في العصر العباسي حتى يتكاثر التصنيف فيه ، وكانوا يوزعونه في

مصنفاته غالباً على أبواب الفقه ، وأول جيل يلتقانا لمصنفه^(١) في هذا العصر جيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة المتوفى سنة ١٥٠ ومعمربن راشد باليمن المتوفى سنة ١٥٣ وسعيد بن أبي عروبة بالبصرة المتوفى سنة ١٥٦ ومواطنه الربيع ابن صبيح المتوفى سنة ١٦٠ ومواطنهما حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٥ وسفيان الثوري بالكوفة المتوفى سنة ١٦١ وعبد الرحمن الأوزاعي بالشام المتوفى سنة ١٥٧ والليث بن سعد بالفسطاط المتوفى سنة ١٧٥ . ويتبع هذا الجيل جيل ثان على رأسه مالك بن أنس بالمدينة المتوفى سنة ١٧٩ وسفيان بن عيينة بمكة المتوفى سنة ١٩٨ وعبد الرازق الصنعاني باليمن المتوفى سنة ٢١١ وعبد الله بن المبارك بخراسان المتوفى سنة ١٨١ وهشيم بن بشير بواسط المتوفى سنة ١٨٣ ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة بالمداين المتوفى سنة ١٨٣ ومحمد بن فضيل بن غزوان بالبصرة المتوفى سنة ١٩٨ ووكيعة بن الجراح بالكوفة المتوفى سنة ١٩٦ وعبد الله بن وهب بالفسطاط المتوفى سنة ١٩٧ .

وأهم كتاب وصلنا عن هذين الجيلين كتاب «الموطأ» لمالك بن أنس إمام أهل المدينة ، وهو مرتب على أبواب الفقه ، وفي كل باب أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - المتعلقة به وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين وفتاوى مالك نفسه . وقد ظل عليه على طلابه نحو أربعين عاماً ، وهو يزيد وينقص فيه وفي أحاديثه ، ولذلك اختلفت رواياته ، وأشهرها رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد شرحها الزرقاني وشرحه مطبوع .

وأخذت تقترن في أواخر القرن الثاني بالطريقة السالفة في تصنيف الحديث طريقة جديدة تقوم على تخليص الحديث من الفقه ، مما جعل أصحابها يوزعون الحديث في مصنفاتهم على أساس رواته من الصحابة ، وهي الطريقة المعروفة باسم «المساند» إذ يُسند المؤلف لكل صحابي ما روى عنه من الأحاديث ، ومن سبقوا إلى التأليف على هذه الطريقة الربيع بن حبيب الإباضي البصري المتوفى سنة ١٧٠ ومسنده مطبوع وأبو داود الطيالسي المتوفى بالبصرة سنة ٢٠٣ ومسنده هو الآخر مطبوع .

وأشهر المصنفات في هذا الاتجاه مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وهو مطبوع في ستة أجزاء ضخام .

وبجانب الطريقتين السالفتين في تصنيف الحديث أخذت تشيع طريقة ثالثة توزع فيها الأحاديث على المعاني والموضوعات التي تتصل بها فقهية وغير فقهية ، ومن أقدم من ألفوا فيها أبو بكر عبد الله بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ وفيه يقول المقرئ : « تفرد بتكثير الأبواب وجودة التصنيف وحسن التأليف ^(١) » واتبع طريقته في العصر العباسي الثاني البخاري وغيره من أصحاب الصّحاح الستة .

وأخذ المحدثون منذ هذا العصر يعرضون رواة الحديث على نقد شديد حتى يحيطوه بسياج متين من الصحة والثقة ، مما أدّى إلى نشوء علم هو علم الرجال أو علم التعديل والتجريح ، وهو علم مخصّص مادة الحديث ونقّى عنها الزيف والتدليس ، وأهم من بدأ التصنيف فيه — كما أسلفنا في غير هذا الموضع — محمد بن سعد ويحيى بن معين . ومن العلوم التي نشأت حول الحديث لهذا العصر علم غريبه ، وهو علم يعنى بتفسير ما فيه من ألفاظ غريبة ، وقد ألف فيه كثيرون من لغوي ^(٢) هذا العصر وعلى رأسهم أبو عبيد القاسم بن سلام .

وإذا تركنا التصنيف في الحديث إلى التصنيف في تفسير القرآن الكريم وجدنا مصنفات كثيرة فيه تستمد مما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وخاصة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وما أذاعه تلاميذه الكثيرون عنه ، وقد سجل ابن النديم أسماء طائفة كبيرة من هذه المصنفات ^(٣) ، وتولّاها العلماء بالشرح والتعديل ، فمنها ما اتهموه ومنها ما وثقوه ، وقد أجمعوا على صحة ما دوّنه على بن أبي طلحة المصري عن ابن عباس ، وفي ذلك يقول ابن حنبل : « بمصر صحيفة في التفسير (عن ابن عباس) رواها ابن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً » ^(٤) . ومن أهم المفسرين في هذا العصر بتلك الطريقة التي تعتمد على التفسير بالمأثور سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بالمدينة ووكيع بن الجراح وأبو بكر بن أبي شيبة . وقد ضاعت كتبهم هم

(٤) الإتيقان للسيوطي (طبع مطبعة حجازي)

١٨٨/٢ .

(١) خطط المقرئ ١٤٣/٤ .

(٢) الفهرست ص ١٢٩ .

(٣) الفهرست ص ٥٠ .

ومن سبقهم غير أن الطبرى احتفظ في تفسيره الكبير بكل هذه الثروة الماثورة الغنية. وقد أخذ الشيعة يستقلون — منذ هذا العصر — بتفاسير للقرآن خاصة بهم ، لعل أهمها تفسير^(١) جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ ، إن صحت نسبته إليه . ونشط المعتزلة في كتابة تصانيف عن التشابه في القرآن على نحو ما يروى عن بشر^(٢) بن المعتمر وأبى الهذيل^(٣) العلاف ، وما زالوا يعنون بتأويل الآيات التي قد تفيد التشبيه على الله أو تفيد الجبر وبمباحث مختلفة حول القرآن وإعجازه حتى استطاع أخيراً أبو بكر الأصم المتوفى سنة ٢٣٢ أن يصنف أول^(٤) تفسير اعتزلى . ونشأت بجانب التفسير — لهذا العصر — علوم قرآنية كثيرة ، أحصاها ابن النديم إحصاء دقيقاً ، ذا كراً أهم من صنفوا فيها ومصنفاتهم^(٥) ، وهى علم نقطه وشكله وأهم من ألفوا فيه الخليل بن أحمد ومعروف أنه أول من ابتكر الشكل فى الغريبة ، وقد أخذ من صور حروف العلل الممدودة فالضمة واو صغيرة الصورة والكسرة ياء تحت الحرف والفتحة ألف مبطوحة فو^(٦) . ومن تلك العلوم علم الوقف والابتداء فى آياته ، ومن ألفوا فيه الفراء ، وعلم غريبه ومن ألفوا فيه محمد بن سلام الحمصى وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم لغاته ومن صنفوا فيه الأصمعى وأبو زيد الأنصارى ، وعلم معانيه ومن صنفوا فيه الفراء وأبو عبيدة ، وعلم قراءاته ومن صنفوا فيه أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم ناسخه ومنسوخه ومن صنفوا فيه أحمد بن حنبل ، وعلم أحكامه ومن صنفوا فيه الشافعى ويحيى بن أكرم صنفى المأمون وقاضيه .

وازدهرت دراسات الفقه فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، فإذا الفقهاء يصوغونه صياغة علمية دقيقة على نحو ما صاغ اللغويون النحو وغيره من العلوم اللغوية . ومعروف أن الإسلام فتح أمام الفقهاء أبواب الاجتياز على مصاريعها ، وكان منهم من يبحث عن نص من القرآن أو السنة يفتدى به فى فتواه ، وقلما اعتمد عقله أو استنباطه العقلى ، ومنهم من كان يتسع فى الاستنباط والقياس

(٤) انظر مذاهب التفسير الإسلامى لجولد تسيهر

(نشر الخانجى) ص ١٣٥ .

(٥) الفهرست ص ٥١ - ٥٧ .

(٦) المحكم فى نقط المصاحف ص ٧ .

العصر العباسى الأول

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع

دار المعارف) ٣/٣٤٣ .

(٢) الفهرست ص ٥١ .

(٣) الفهرست ص ٥٥ .

السديد على ضوء الإسلام وتعاليمه. ويمثل الأولين أهل الحجاز بينما يمثل الثانين أهل العراق ولذلك سُمُّوا أهل الرأي ، وسرعان ما تحول الاتجاهان في هذا العصر إلى مذهبين واضحين في الفقه والتشريع : مذهب أبي حنيفة في الكوفة والعراق ومذهب مالك في المدينة والحجاز ، وينفذ الشافعي من خلال المذهبيين إلى مذهب مستقل به ، وبأخرة من العصر ينفذ ابن حنبل إلى مذهب رابع كانت تتبعه فيه عامة بغداد .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت يرجع إلى أصل فارسي ، وقد ولد سنة ٨٠ للهجرة وتوفي ببغداد سنة ١٥٠ وكان بزازاً وهو مع ذلك يتشقق بالحديث والقرآن والفقه والتفسير حتى صار أبرع أهل زمانه في الفقه والرأي ، بل لقد نفذ إلى مذهب مستقل به ، وهو مذهب كان يعتمد على الكتاب والسنة ، كما كان يعتمد على القياس العقلي اعتماداً واسعاً متخذاً منه حلولاً للأحكام الكثيرة التي تطلبها المشاكل التي نشأت في حياة الناس من الجهتين الدينية والدنيوية ، ويقال إنه أفتى في ثلاث وثمانين ألف مسألة منها ثمان وثلاثون ألفاً في العبادات والبقية في المعاملات . وإلى دقته في استخدام القياس يشير مساور الوراق إذ يقول (١) :

إذا ما الناس يوماً قايسونا بآبدٍ من الفتيا ظريفه
أتيناهم بمقياسٍ طريفٍ مصيبٍ من قياس أبي حنيفة

ونخص من بعده بمذهبه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب المولود بالكوفة سنة ١١٣ والمتوفى سنة ١٨٢ وهو الذي انتشر به مذهب أبي حنيفة في العراق وسائر الأقطار التابعة للخلافة العباسية ، إذ كان قاضي القضاة في عهد الهادي والرشيد وكان لا يولى على أى بلد قاضياً إلا من الفقهاء المنتمين إلى مذهبه (٢) ، وله في الخراج كتاب مشهور مطبوع ، وهو أول من ألف في علم الحيل (٣) وهو علم يفتح بفتاويه المثورة فيه المنافذ لكي يخرج منها من يقع في حرج . وانتهت رئاسة المذهب بعده إلى تلميذه محمد بن الحسن الشيباني الكوفي المتوفى سنة ١٨٩ وكان

(٢) انظر المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١/١٦٤ .
(٣) الحيوان ١١/٣ .

(١) أغاني (طبعة الساسي) ١٦/١٦٣ .
وانظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر
٧٧/٢ وميون الأخبار لابن قتيبة ٢/١٤٠ .

قد سمع أبا حنيفة وتلمذ له ، كما سمع مالك بن أنس والأوزاعي فقيه الشام ، ومن أخذ عنه الشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو الذي حرّر المذهب الحنفي بكتبه الكثيرة من مثل المبسوط والسير الكبير والجامع الكبير والجامع الصغير ، وقد نوه ابن جنى بدقة استخدامه للعلل في كتبه ^(١) . وإلى هؤلاء الأئمة الثلاثة يرجع الفضل في صياغة الفقه الحنفي ومصطلحاته صياغة علمية دقيقة .

وكان يقابل هذا المذهب العراقي مذهب مالك بن أنس في الحجاز ، على نحو ما يمثله كتابه « الموطأ » الذي تحدثنا عنه بين كتب الحديث والذي تُعرّض فيه أبواب الفقه ومسائله على أساس رواية الحديث النبوي والآثار عن الصحابة والتابعين . ومن أهم من تلقوا هذا المذهب عن مالك تلميذه عبد الرحمن بن القاسم المتوفى بالقسطاط سنة ١٩١ وقد أدّاه بدوره إلى سحنون عالم القيروان المتوفى سنة ٢٤٠ فألف فيه كتابه الملقب باسم « المدونة الكبرى » ونشره ببلاد المغرب . وتلقى المذهب عن مالك أيضاً يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، ونشره بموطنه على نحو ما نشر أبو يوسف مذهب أبي حنيفة إذ كان مقدّمًا عند حكام الأندلس وجعلوا له تولية القضاة فكان لا يولي قاضياً إلا من أصحابه المالكية .

ونفذ من خلال هذين المذهبين إلى تكوين مذهب جديد الشافعي محمد بن إدريس المولود بغزة سنة ١٥٠ والمتوفى بالقسطاط سنة ٢٠٤ وقد نشأ بمكة وحمل ما بها من حديث ، وفي سنة ١٧٠ رحل إلى المدينة ولزم مالكا إلى أن توفي ، فرحل إلى اليمن واتّهم باشتراكه في ثورة لبعض العلويين ، فأُرسِلَ به إلى الرشيد وعفا عنه . وانتهاز فرصة مقامه ببغداد فقرأ كتب محمد بن الحسن الشيباني وناظره طويلا ، وخرج إلى مصر ونشر بها مذهبه الذي يجمع بين طريقة الحجازيين في الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين في الاعتماد على القياس . وقد انتهت عنده الروح العلمية الأصيلة التي سادت في مباحث الفقهاء إلى الغاية المنتظرة إذ استطاع أن يضع في كتابه الملقب باسم الرسالة علم أصول الفقه لأول مرة ، وفيه حرّر المناهج في استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس . وهو بذلك يقف علماً في تاريخ الفقه الإسلامي ، يقول الرازي : « واعلم أن نسبة الشافعي

(١) راجع الخصائص (طبعة دار الكتب المصرية)

إلى علم الأصول كنسبة أرسططاليس إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض . . فإن الناس كانوا قبله يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعارضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضاتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعي - رحمه الله - علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانوناً كلياً يُرجعُ إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسططاليس إلى علم العقل^(١) . وعاد الشافعي إلى العراق في سنة ١٩٥ ثم رجع إلى مصر سنة ١٩٨ وتركها إلى مكة ولم يلبث أن عاد إليها وظل بها إلى وفاته . وحمل عنه مذهبه في مصر تلاميذ كثيرون من أهمهم البُويطي المتوفى سنة ٢٣١ وقد انتشر مذهبه في كثير من بلدان العالم الإسلامي .

وأكبر تلامذة الشافعي في العراق أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وقد استقل بمذهب فقهي جديد يُعَلَى من شأن الحديث إلى أبعد غاية ، وبذلك عُدَّ ممثلاً لأهل السنة ، غير أن مذهبه لم يكتب له الانتشار كما كُتِبَ للمذاهب الثلاثة السالفة ، وإن كان قد ازدهر حديثاً بين الوهابيين .

وكان للشيعة في هذا العصر نشاط مستقل في الفقه ، إذ ينسب للإمام العلوي جعفر الصادق كتب مختلفة فيه مثل كتاب « مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة » المطبوع في طهران ومثل كتاب « فقه الرضا » لعلی الرضا حفيده وهو كسابقه مطبوع بطهران .

ولعل علماً لم يزدهر في هذا العصر كعلم الكلام ، ويراد بالكلام الجدل الديني في الأصول العقيدية لا عند المسلمين وحدهم ، بل عند جميع الملل والنحل ، ومن أجل ذلك نرى الوصف بالمتكلم يضاف إلى بعض الرافضة مثل هشام بن الحكم وشيطان الطاق^(٢) ، بل نراهم يضيفونه إلى أهل الحجاج من المسيحيين^(٣) ، بل لقد أضافوه إلى أهل الجدل من المنانية الثنوية القائلين بلهى النور والظلمة الذين يحامون ويناضلون عن عقيدتهم الفاسدة^(٤) . وقد مضى كل متكلم مدافع عن

(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠ .

(٤) الفهرست ص ٣٣٨ .

(١) مناقب الإمام الشافعي للرازي ص ١٠٠ .

(٢) الفهرست ص ٢٩ - ٢٥٢ .

عقيدة في هذا العصر يتسلَّح في دفاعه بالفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق وغير منطق حتى ليقول الجاحظ : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين في وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ^(١) » .

وأهم فرق المتكلمين في هذا العصر فرقة المعتزلة الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن عقيدة الإيمان الإسلامية وما يتصل بها من توحيد الله وتنزيهه عن التشبيه وحقائق النبوة والثواب والعقاب في الآخرة أمام المرجئة والجبرة وروافض الشيعة والنصارى واليهود والدهرين الماديين والمناوئين الشنويين . وقد ملئوا بحججهم وحججهم لهم مساجد البصرة وجذبوا بحسن بَيَانِهِمْ وقوتهم في الإقناع وإفحام الخصوم الشباب شعراء وغير شعراء . ورحل كثير منهم منذ أواخر القرن الثاني إلى بغداد ، فخلبوا الألباب هناك ببياناتهم الساحرة وبما أوردوا على الناس من دقائق الأفكار ، وإذا الناس لا حديث لهم غير الاعتزال والمعتزلة ومناظراتهم لأصحاب الملل والنحل في المساجد الجامعة ، وإذا المأمون يعتقد عقيدتهم ، حتى شعبة خلق القرآن التي دلع شررها بشر المريسي كما مرَّ بنا ، وحاول أن يعلنها عقيدة رسمية للدولة .

ولعلنا لا نغلو إذا سمينا هذا العصر عصر الاعتزال ، فقد بلغ من ازدهاره أن استولى على صولجان الحكم وأن وجهه حسب مشيئته ، وربما كان ذلك هو الخطأ الوحيد الذى ارتكبه أصحابه ، فإنهم وضعوه ووضعوا معه محنة خلق القرآن على رقاب الناس ، فكان ذلك سبب سقوطه من حائق . ولكنه إذا كان قد أخفق حين استخدم السيف وغياهب السجون فإنه نجح نجاحاً كبيراً في أن صبغ العقول بصبغة فلسفية وأن مرتها تمريناً واسعاً على دقة التعليل والمهارة في الاستنباط لخفيات المعاني ودقائقها والبراعة في تفريعها وتشعيبها وتوليدها ، مع القياس الناصع والبرهان الساطع . وسرت من ذلك أسراب في جميع جوانب الفكر العباسي ، إذ أكبَّ الناس على مناظراتهم وأكبَّ معهم الشعراء ، بل قلما نجد شاعراً نابهةً في هذا العصر إلا وتلمذ لهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس وأبان اللاحق والعتابي ومنصور النمرى وأبي تمام .

واختلف الباحثون في سبب تسميتهم معتزلة ، فقيل إن ذلك يرجع إلى اعتزال

أستاذهم الأول واصل بن عطاء للحسن البصرى ومجالسه ، وقيل بل يرجع إلى سريان نزعة زهد فيهم واعتزالهم الناس ، ورجح نالينو أنهم نعتوا بذلك لا ابتعادهم عن المنازعات الناشئة بين الخوارج وخصومهم من أهل السنة والشيعة ، فقد وقفوا على الحياذ لا ينصرون فريقاً على فريق^(١) ، وبالمثل لم ينصروا العلويين على أبناء عمهم العباسيين ، بل ظلوا متمسكين بحيادهم ومضوا يناضلون غلاة الشيعة نصالاً عنيفاً على نحو ما ناضلوا المانويين والدهريين ، ولذلك احتضنهم العباسيون . واستطاع أستاذهم واصل أن يؤثر في زيد بن علي بن الحسين تأثيراً واسعاً وأن يحمله على التخلص من الآراء الشيعية الغالية .

وتميز الاعتزال بأصول خمسة ، هي التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والقول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فأما التوحيد فأراد به المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فهو ليس بحسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وقد أولوا الآيات التي يُفهم منها مشابهته للمخلوقات من مثل : (يد الله فوق أيديهم) فعنى اليد في الآية عندهم القدرة ، ومضوا ينفون عن الله الصفات لأنها من عوارض الأجسام ، فقالوا إنها عين الذات حتى لا يتعدّد القديم جلّ جلاله ، ومن أجل ذلك نفوا عنه صفة الكلام ، ومن هنا اندفعوا إلى القول بأن القرآن مخلوق حتى لا يُظنّ أنه قديم ، ولا قديم سوى الله .

أما العدل فقد مضوا يؤسّسون عليه فكرة خلق العباد لأفعالهم وأنهم أحرار في إرادتهم ، وهي حرية ضرورية لكي يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم دون أن يظلمهم الله مثقال ذرة ، وقد أولوا الآيات التي تدلّ على الجبر من مثل : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ودفعهم هذا الأصل إلى القول بالصلاح والأصلح وأن الله لا يأمر بالشر ولا يعمل إلا ما فيه صلاح العباد وما هو أصلح لهم .

وأما الوعد والوعيد فهو أن الله صادق فيما وعد من ثواب وأوعد من عقاب ولا مبدل لكلماته ، وهم بهذا الأصل يردون على المرجئة الذين يرجئون الحكم على مرتكب الكبيرة ، فالله لن يغفر لمرتكب كبيرة إثمه إلا إذا تاب وأناب ، وهو لا بد مدخل

(١) انظر التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية
لعبد الرحمن بدوي ص ١٧٣ وما بعدها .

الأتقياء الجنة حسب وعده الذى وعده ، ومدخل العصاة النار حسب إيعاده الذى أوعده .

وأما القول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين فهو قول نفذوا به من خلال رأى الحوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر ويجب حربه وقتله ورأى الحسن البصرى القائل بأن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق ، فقد اعتزلوا الرأيين جميعاً وقالوا إنه فى منزلة وسطى بين منزلتي المؤمن والكافر . وبذلك لم ينتصروا — كما يقول نالينو — لطرف من طرفى هذه الخصومة .

وأما الأصل الخامس فيريدون به أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجباً على سائر المسلمين كل^١ حسب استطاعته ، وكان ينبغى وهم يعتنقون هذا الأصل أن يدفعوا الدولة للضرب على أيدي الحжан والفساق وأرباب الدعارة ، وأيضاً كان ينبغى أن يصرخوا فى وجوه الخلفاء ضد طغيانهم وظلمهم للعامة ، وأن يصارحهم بنظرية الإسلام فى الخلافة وأنها ليست حقاً من حقوق أهل البيت إنما هى حق الأكفاء من أبناء الأمة .

وقد أدأهم النظر فى الأصول السالفة إلى مباحث كبيرة فى العلاقة بين الله والإنسان وبين الله والطبيعة وما فيها من قوى فعالة ، مما جعلهم يتوسعون إلى أقصى حد فى الأبحاث الطبيعية والرياضية والفلسفية . وتجردوا للرد على الملاحدة وأصحاب النحل والملل ودفعهم ذلك إلى الوقوف على كل التراث العقيدى والفكرى عند المستعربين من أهل الكتب السماوية وغيرهم كالحجوس والصائبة .

وواصل بن عطاء المتوفى بالبصرة سنة ١٣١ هـ مؤسس فرقتهم كماقدمنا ، وهو أول من قال منهم بأن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلتي الإيمان والكفر^(١) ، وكان يكثر من جدال أصحاب الملل والنحل . وخلفه على آرائه ختنه عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٥ هـ وكان يكثر من الجدال فى عقيدة العدل وما يتصل بها من حرية^(٢) الإرادة . وقد مضى تلاميذه فى البصرة يفرعون فى مسائل الاعتزال وبعض المسائل الفلسفية تفرعات انبثقت منها شعب اعتزالية كثيرة أهمها البشرية والثمامية والهديلية والنظامية .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٦٩ وضحى الإسلام

(١) انظر أمالى المرتضى ١/١٦٥ والشهرستانى

والبشرية نسبة إلى بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠ وقد تحول من البصرة إلى بغداد فنشر بها الاعتزال ، وكان يقول بتفضيل علي بن أبي طالب على بقية الصحابة ومنه سرى هذا القول إلى أصحابه من معتزلة بغداد ، وله أشعار كثيرة نظمها في التاريخ الطبيعي وفي أصناف الفرق والاحتجاج على أصحابها . وهو أول^(١) من ذهب إلى تولد الأفعال بعضها من بعض كالحجر يُرمَى فيحطم زجاجاً ، فتتطاير منه شظية فتصيب إنساناً ، وقد اشتق من هذه الفكرة بحثاً واسعاً في تحديد المسؤولية إزاء مثل هذا الفعل المتولد عن غيره . وكان يخالف بعض رفاقه من المعتزلة في فكرة وجوب الأصلح على الله لعباده ، لأنه لا غاية لما يقدر عليه من الصلاح ، فما من أصلح إلا وفوقه أصلح منه ، وإنما الذي عليه حقاً أن يمكن العبد بالقدرة والاستطاعة .

والثامية نسبة إلى ثمامة بن أشرس النعماني البصري المتوفى سنة ٢١٣ وقد تحول مثل بشر بن المعتمر إلى بغداد ، وكان يقول هو الآخر بتفضيل عليّ على الصحابة ، كما كان يقول بخلق القرآن ، وأكبر الظن أن بشراً المريسي هو الذي أقنعه بذلك . وكان المأمون يقدمه ويجعل له الرياسة على المتكلمين في مجالسه . وكان يذهب إلى أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها^(٢) وأن المعارف كلها ضرورية وأن الحسن والقبح ذاتيان في الأفعال ، وعلى أساسهما يدور التحليل والتحريم في الأوامر والنواهي الإلهية .

والهذيلية نسبة إلى أبي الهذيل العلاف المتوفى بسمراء لسنة ٢٢٧ وقيل : بل سنة ٢٣٥ وهو تلميذ عمرو بن عبيد وقد عُمر طويلاً ، ويُعدّ المؤسس الحقيقي للاعتزال . وكان يرى أن الصفات الإلهية عين الذات العلمية^(٣) . وفرّق بين أفعال الإنسان الاختيارية وأفعاله الطبيعية أو بعبارة أخرى بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح . وتحدث في مسائل فلسفية كثيرة كمسألة الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ ومسألة الكمون ككمون النار في الحجر وغير ذلك مما يتصل بالأبحاث الفلسفية والطبيعية .

(١) الشهرستاني ص ٤٤ وضحي الإسلام

(٢) الشهرستاني ص ٤٩ وضحي الإسلام

٢٤٧/٣ .

(٣) الشهرستاني ص ٣٤ وأمالى المرتضى ١/ ١٧٨

وضحي الإسلام ٩٨/٣ ودی بورص ٥٧ .

والنظامية نسبة إلى النظام المتوفى سنة ٢٣١ ويقول الشهرستاني إنه خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة وإنه كان يميل إلى تقرير مذاهب الطبيعيين من الفلاسفة دون الإلهيين ، وكان يرى أن الله لا يفعل إلا الأصلح لعباده ، وأن إرادته التي يتحدث عنها القرآن الكريم إنما يراد بها الخلق والإنشاء . وكان ينفي الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ^(١) . وأعلّى في مباحثه سلطان العقل إعلاءً بعيداً .

(١) الشهرستاني ص ٣٧ وضحي الإسلام
١٠٦/٣ ودي بورص ٥٩ .

الفصل الرابع

ازدهار الشعر

١

ملكات الشعراء اللغوية

كانت البادية في هذا العصر لا تزال تمد الحاضرة بكثير من الشعراء ذوي السليقة العربية السليمة من مثل أبي البَيْدَاء وابن الدُّمَيْنَة وابن مِيَّادَة وأبي حِيَّة التَّمِيمِيّ وأبي ضَمَّضَم الكلابيّ وابن عمه أبي زياد والعُمانيّ وشُبَيْل بن عَزْرَة الضُّبَيْعِيّ وأبي العَمَيْشَل وعُمارة بن عَقِيل حفيد جرير . وقد تحول كثير من هؤلاء الشعراء إلى معلمين يعلمون الناشئة اللغة ورواية الشعر القديم^(١) . وكان يقابلهم في المدن شعراء لم ينشأوا في البادية ، ولكن السليقة العربية تحولت إليهم وتمثلت في دخائلهم ، حتى أصبحوا لا يقلون عن شعراء البادية فصاحة وبياناً .

ولعلماء اللغة الذين تحدثنا عنهم في الفصل السابق الفضل في تحول هذه السليقة إلى شعراء الحضر ، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلي والإسلامي ، ووضعوا لهم مقاييسهما وضعاً دقيقاً ، وظلوا طوال العصر يبعثون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القدوة المشلّى . وكان من هؤلاء اللغويين شعراء بارعون بادروا إلى الاحتذاء على هذه القدوة ، نذكر من بينهم حمادا الراوية والخليل بن أحمد وخلفا الأحمر والأصمعي .

ولم يعرض هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب ، بل لقد كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذجه العويصة المليئة بالحوشي والألفاظ الغريبة ، ومضوا فجعلوها مدار إملاءاتهم ومحاضراتهم حتى ليقول الجاحظ : « لم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إغراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج^(٢) » . ومعروف أن أهم مجموعتين للشعر القديم ألّفنا في العصر هما المفضليات للمفضل

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) (٢) البيان والتبيين ٤/ ٢٤ .

الضبي الكوفي والأصمعيات للأصمعي البصري ، وهما تزخران بالغريب . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلي أو إسلامي إلا سجلوها ودونوها ، وفسروها وشرحوها . وبذلك انقادت اللغة وسلسلت لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء .

وكان من أهم ما حفزهم إلى ذلك القرآن الكريم والحديث النبوي ، حتى لا تستغلق دلالتهما على أفهام الناس وأفهام العلماء أنفسهم ، مما جعل الجاحظ يقول : « للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإراداتهم . فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل . فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك الناس ^(١) » . وانضم إلى ذلك باعث سياسي ، فإن خلفاء بني العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وبعثوا العلماء على مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار . وقد جعلوا مقياس وظائفهم الكبيرة التفوق فيها ، فكانوا لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا من حذقها وبرع في أدائها . وأخذوا أبناءهم بتعلمها ، بل بإتقانها ، فأحضروا لهم كبار اللغويين ليحفظوهم كثيراً من نماذجها الشعرية وكى يفقوهم على صياغاتها وأساليبها ، وتألّف المفضل الضبي للمهدى كتاب المفضليات ، وهو لا يزال ناشئاً في عهد أبيه ، ذائع مشهور . وبذلك سرى في القصر العباسي ذوق محافظ كان له أثره في الشعراء ، إذ كانوا يمشلون بين أيدي الخلفاء مادحين لهم . وكانوا يقيسون جودتهم بهذا الذوق ، فكان لا بد لهم أن يتلاءموا معه حتى يظفروا بما يبتغون من جوائز كبيرة . وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من مثل الكسائي والأصمعي ، فكان لا بد للشعراء أن يروقوهم حتى ينالوا استحسانهم ، ويرى ذلك الخلفاء منهم فيجزلوا لهم في العطاء .

وبذلك أصبح اللغويون سدنة الشعر في هذا العصر وحراسه ، فمن نوّها به طار اسمه ، ومن لوّحوا في وجهه ختملّ وغدّا نسيّاً منسياً . وبلغنا كثير من الشعراء يعرضون عليهم أشعارهم قبل إنشادها في المحافل العظام ، فإن استحسناها مضوا فأنشدوها ، وإن لم يستحسناها ذهبوا يعاودون الكرة بصنع قصائد جديدة آملين أن تظفر باستحسانهم ، فمن ذلك ما يروى عن مروان بن أبي حَفْصَة

من أنه لما نظم قصيدته : (طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خَيَالَهَا) وهي إحدى رواثه في المهدي ذهب إلى حلقة يونس النحوي فقال له : قد قلت شعراً أعرضه عليك ، فإن كان جيداً أظهرته ، وإن كان رديئاً سترته . وأنشده القصيدة ، فأعجب بها يونس وقال له إنها بريئة من العيوب^(١) . حينئذ مضى فأنشدها المهدي ، فزحف من صدر مُصَلَّاهٌ حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع ، ثم قال مروان : كم هي ؟ قال مروان : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف درهم أعطيت لشاعر في أيام بني العباس^(٢) . ويسوق المرزباني في كتابه الموشح فصلاً طويلاً^(٣) ، يصور فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليحجزوها لهم ، فهم قضاة الشعر وصيارفته ، وفي ذلك يقول الخليل بن أحمد لابن مناذر : « إنما أنتم - معشر الشعراء - تَسَبَّعُ لِي ، وأنا سُكَّانُ السفينة إن قَرَّظْتُمْ ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتكم^(٤) » .

وعلى هذا النحو سيطر اللغويون على سوق الشعر العباسي ، وقد مضوا يتمسكون بالمثل الشعري القديم تمسكاً شديداً ، وهو تمسك جعل كثيرين منهم يُسْقَطُونَ الشعراء العباسيين إسقاطاً حتى لنرى أبا عمرو بن العلاء يختم الشعر بذي الرُّمَّةِ والرَّجَزِ بِرُؤْبَةٍ قَائِلًا في المَحْدَثِينَ : « إنهم كَلَّ^(٥) على غيرهم ، إن قالوا حَسَنًا فقد سَبَقُوا إليه ، وإن قالوا قبيحاً فن عندهم^(٦) » . وكان الأصمعي يختم الشعر بابن ميادة وابن هرمة وأضرابهما من شعراء نجد والحجاز الذين أدركوا الدولة العباسية^(٧) . وأنشده إسحق الموصلي بيتين من شعره دون أن يسمى قائلهما ، فلما أظهر إعجابه بهما قال له إسحق : إنهما من نظمه ، فبادره قائلاً : أفسدت الشعر ، إن التوليد فيهما لبَيِّنٌ^(٨) . ويروى الرواة أن ابن مناذر كان يقول لأبي عبيدة : « اتَّقِ الله واحْكُم بين شعري وشعر عدي بن زيد ، ولا تقل ذاك جاهلي وهذا عباسي ، وذاك قديم وهذا مُحْدَثٌ » ، فتحكم بين العصرين ولكن احكم بين الشعرين ، ودع العصبية^(٩) . وكان ابن الأعرابي يقول : إنما أشعار هؤلاء

- | | |
|-----------------------------------|-------------------------------|
| (١) أغاني (طبع دار الكتب) ٨٢/١٠ . | (٦) أغاني (سأسي) ١٠٩/١٦ . |
| (٢) أغاني ٨٨/١٠ . | (٧) أغاني (دار الكتب) ٢٧٣/٤ . |
| (٣) الموشح ص ٣٥٨ وما بعدها . | (٨) أغاني ٣١٨/٥ . |
| (٤) أغاني (طبعة السأسي) ١٦/١٧ . | (٩) أغاني (سأسي) ١٢/١٧ . |
| (٥) كل - عالة . | |

المحدثين — مثل أبي نواس وغيره — مثل الرِّيحان يَشْتَمُ يوما وَيَذَوَى فَيُرمَى به ،
وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حرَّكته ازداد طيباً^(١) » .

ولا شك في أن إهدار اللغويين لشعر العباسيين بسبب حوادثه خطأ في التقويم ،
إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحدثة ، والشعر الجيد في كل زمان ومكان .
ولكن من الحق أنهم — بهذا الموقف — جعلوا نماذج الشعر القديم ، بالقياس إلى
العباسيين ، تصبح كالأمهات الغاذية ، فكلهم نهلوا من أئدائها وتغذوا بها غذاء
سرى في قلوبهم وتمكن من نفوسهم . ويأخذنا العجب حين نقرأ هؤلاء الشعراء ،
فأراهم عرباً تامين وكأنهم فصلوا تنوياً من الجزيرة . ومع هذه العروبة اللغوية القوية
فيهم كان اللغويون لا يستشهدون بأشعارهم مخافة أن يحدث اضطراب في النموذج
الشعري القديم ، وحتى يحتفظوا له بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة . وقد
مضوا يعدون عليهم سقطاتهم ، وهي ليست سقطات بالمعنى الصحيح ، إذ هي
في كثرتها إما ضرورات رأها الشعراء العباسيون في الشعر القديم ، فقاسوا عليها ،
وإما لغات شاذة رأوها أيضاً في هذا الشعر وظنوا أن من حقهم مجاراتها ، وإما اشتقاقات
وأبنية استحدثوها على ضوء المقاييس اللغوية التي تلقنوها . وقرأ في كل ما نثره
المرزباني في « الموشح » من هذه السقطات فستراه قلما يتعدى وهذه الوجوه الثلاثة .
ونضرب مثلاً لذلك : ما كان يأخذه الأخفش على بشار من اشتقاقه في بعض
أشعاره كلمتي « الوَجَلَتِي ، والغَزَلِي » من الوجل والغزل ظناً منه أن هذا من حقه
وإن لم يُسَمَّع عن العرب ، وكذلك جمعه لفظة « نون » بمعنى البحر على « نينان »
ظناً منه أن الكلمة تدخل في قياس هذا الجمع^(٢) . وأبو نواس هو أكثر العباسيين
مآخذ^(٣) ، وهي تُرَدُّ عنده إما إلى ضرورات شعرية وإما إلى بعض لهجات
عربية ، وفي ذلك يقول ابن قتيبة : « وقد كان أبو نواس يُلَحِّنُ في أشياء من
شعره لا أراه فيها إلا على حُجَّة من الشعر المتقدم وعلى عِلَّة بَيِّنَةٍ من علل
النحو ، منها قوله :

فَلَبِيتَ مَا أَنْتَ وَاطٍ مِنْ الدُّرَى لِي رَمَسَا^(٤)

(٣) الموشح ص ٢٧٢ وما بعدها .

(٤) رمسا : قبرا .

(١) الموشح ص ٢٤٦ .

(٢) الموشح ص ٢٤٦ وما بعدها .

أما تركه الهمز في « واطى » فحجته فيه أن أكثر العرب ترك الهمز وأن قريشاً تركه وتبدل منه . وأما نصبه « رمسا » فعلى التمييز . . ألا تراه قال : (فليت ما أنت واط من الثرى لى) فتم الكلام وصار جواب ليت في « لى » ثم بيّن من أى وجه يكون ذلك ، فقال « رمسا » كما تقول في الكلام : « ليت ثوبك هذا لى » ثم تقول « إزاراً » لأن جواب ليت صار في قولك « لى » وصار الإزار تمييزاً^(١) . ومضى ابن قتيبة يوجه له أبياتاً أخرى وقف اللغويون والنحاة عند حروف منها .

ولعل من الغريب أن يقف يوهان فك في كتابه « العربية » عند هذه الأبيات^(٢) وما يماثلها مما أخذ على أبى نواس وعند أخرى تشبهها لشعراء آخرين متخذاً منها دليلاً على مخالفة العباسيين لقواعد العربية ، وكأنه لم يقرأ ما نقلناه عن ابن قتيبة . ولو أنه أنعم النظر فيما سجله الموشح على شعراء الجاهلية والإسلام من مثل هذه الأحرف لعرف أن العباسيين لم يخرجوا على قواعد الفصحى في الصورة التى رسمها لهم اللغويون ، وأن كل ما هناك أنهم قاسوا أشعارهم على أشعار الأقدمين ، فأجازوا لأنفسهم ما كان يجيزه أسلافهم من بعض الضرورات وبعض الشواذ ، وهم في ذلك يتابعونهم ويصوغون على إرث منهم .

ووقف يوهان فك عند استخدام نفر من الشعراء العباسيين لبعض الألفاظ والصيغ الفارسية في أشعاره معتمداً على ما كتبه الجاحظ في « البيان والتبيين » عن بعض الأعراب مثل العُماني والعُدافر الكندي ذاكراً أنهما كانا يتملحان بإدخال بعض الألفاظ الفارسية في أشعارهما ، وتمثل للعُماني بلفظتين ، وساق لشاعر يسمّى أسود بن أبى كريمة قطعة اختلطت فيها الألفاظ الفارسية بالألفاظ العربية^(٣) . وقد جعل ذلك يوهان فك يزعم أن الفارسية أدخلت في هذا العصر ضيماً على العربية ، مبالغاً في تصور هذا الضيم^(٤) ، وهى مبالغة لا تسندها نفس النصوص التى رواها الجاحظ ، إذ كان الشعراء يسوقون في أشعارهم أحياناً بعض الألفاظ الفارسية تملحاً وتطرفاً كما يلاحظ الجاحظ نفسه ، أما بعد ذلك فإنهم كانوا يحافظون على ما استقر في ملكاتهم من قوانين الصياغة العربية ، وربما كان أكثرهم استخداماً

(٣) البيان والتبيين ١/١٤١ وما بعدها .

(٤) كتاب العربية ص ١١٢ وما بعدها .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبع دار

المعارف) ص ٧٩٤ .

(٢) كتاب العربية ص ٩١ وما بعدها .

للألفاظ الفارسية في شعره أبا نواس إذ كان يأتي بها في بعض خمرياتة تعابثا ومجاجة ، وخاصة حين يوجه كلامه إلى بعض غلمان المحجوس مقسماً عليهم بالهتهم وشعائهم الدينية وأعيادهم المحجوسية ، على شاكلة قوله ^(١) :

والمهرجانِ المُدارِ لوقته الكرارِ ^(٢)
والنوكروزِ الكبيرِ ^(٣) وجشنِ جاهنبارِ ^(٤)
وآبسالِ الوهارِ ^(٥) وخُرّه إيرانِ شارِ ^(٦)

ولم يكن يصنع ذلك دائماً إنما كان يصنعه في الحين بعد الحين تملحاً وتندراً . وقد تسقط على لسان بعض الشعراء لفظة نبطية ، من مثل قول إبراهيم الموصلي واصفاً وداعه لخمّارِ نَبَطِيٍّ ^(٧) :

فقال : إزلِ بشين ، حين حدثني وقد - لعمرك - زُلْنَا عنه بالشَّينِ
وكلمة « إزلِ بشين » نبطية ، ومعناها : امضِ سلام . غير أن ما قدمنا ومثله لم يتحول إلى ظاهرة عامة ، فقد كان يأتي على ألسنة الشعراء في الندرة ، وكثرتهم - على الرغم من أصولهم الفارسية - لم يتورطوا في شيء منه . ومن أجل ذلك كان ينبغي أن لا يندفع باحث إلى القول بأن السليقة العربية انتقصت في نفوس العباسيين ، فقد كانت أقوى قوة من أن تنتقص ، حتى لَدَى مَنْ كانوا يحسنون الفارسية مثل أبي نواس . وقد كانت اللغة العربية تتعمق جوهر نفسه بفضل من زودوه بها من اللغويين أمثال خلف الأحمر أستاذه ، ومضى ينهلها من ينابيعها الصافية في البادية ، فأقام بها حولاً كاملاً ^(٨) ، يعبُّ منها ويرتوي . وأكْبَّ على دواوين الجاهليين والإسلاميين من أصحاب القصيد والرجز يستظهرها ، حتى قالوا إنه كان يحفظ دواوين ستين امرأة فضلاً عن الرجال ^(٩) ، وإنه حفظ

(٦) خرّه : موضع الشرب ، أوعيد ، إيران شار : إيران العزيزة .

(٧) أغاني (طبع دارالكتب) ١٧٦/٥ .

(٨) أخبار أبي نواس لابن منظور (طبع مصر) ص ١٢ .

(٩) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع داز المعارف) ص ١٩٤ .

(١) انظر أشعاراً مثلاً في كتابنا «الفن ومذاهبه

في الشعر العربي» (طبع دارالمعارف) ص ١٢٣ .

(٢) المهرجان : من أعياد الفرس .

(٣) النوكروز : عيد النيروز .

(٤) جشن : من أعياد الفرس . جاهنبار :

الدعوة العامة .

(٥) آبسال : ابتداء الربيع . الوهار : المشرق .

سبعمائة أرجوزة غير ما كان يحفظه من قصائد الجاهليين والخنزيرين والأمويين^(١) ، وفيه يقول الجاحظ : « ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة لاستكراه^(٢) » ويقول أبو عمرو الشيباني العالم اللغوي المشهور : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لاحتججنا بشعره ، لأنه محكم القول^(٣) » .

ولم يكن أبو نواس وحده الذى حذى العربية وبرع فيها ، فقد كان من سبقوه وعاصروه من الشعراء لا يقلّون عنه براعة وحذقاً بأساليبها ، ويكفى أن نرجع إلى بشار الفارسي الأصيل زعيم المحدثين فسنراه يعلل لإتقانه العربية بنشأته في بني عَقِيل وتبديّه أعواماً طويلة ، يقول : « ولدت ههنا (في البصرة) ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عَقِيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت على نسائهم فنسأوهم أفصح منهم ، وأَيْفَعْتُ فأبدتُ (دخلت البادية) إلى أن أدركت (بلغت الحُلُم) فن أبن يأتيني الخطأ^(٤) » . ولم تكن المسألة مسألة خلو كلامه من الخطأ ، إنما كانت — في حقيقتها اكتساب السليقة العربية ، حتى غدا كأنه عربى أصيل ، مما جعل اللغويين يشيدون به طويلاً^(٥) .

وبشار من خير الأمثلة على مدى استيعاب العباسيين ممن يرجعون إلى أصول غير عربية لصورة الشعر العربى بقصيده ورجزه ، وتروى له في ذلك طرائف كثيرة ، منها ما رواه أبو الفرج من أنه استمع إلى عقبة بن رُؤبة وهو ينشد عقبة ابن سلم وإلى البصرة أرجوزة يمدحه بها ، فلما فرغ منها قال له : هذا طراز لا تحسنه يا أبا معاذ ، فغضب بشار وقال له : ألى يقال مثل هذا الكلام ؟ أنا والله أرجز منك ومن أهلك وجدك (يريد العَجَّاج) . ومضى إلى منزله فألّف أرجوزة بديعة ، وغدا فأنشدها عقبة بن سلم وعنده عقبة بن رُؤبة ، وهى التى يستهلها بقوله :

يا طَلَلَ الحىُّ بذات الصَّمَدِ بالله خَبِرَ كيف كنت بعدى^(٦)

فطرب عقبة بن سلم وكأفاه مكافأة كبيرة ، وانكسر عقبة بن رُؤبة انكساراً

وما بعدها .

(٥) أغاني ١٤٣/٣ وما بعدها .

(٦) ذات الصمد : موضع .

(١) ابن المعتز ص ٢٠١ .

(٢) أخبار أبي نواس ص ٦ .

(٣) ابن المعتز ص ٢٠٢ .

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ١٤٩/٣

شديداً^(١) ، ويروى أنه أنشد في شعر الأعشى الكبير :

وأنكرتني وما كان الذي نكرتُ من الحوادث إلا الشئبَ والصَّلَعَ
فأنكره ، وقال : هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى ، ولم يلبث الرواة
أن تحققوا من قوله^(٢) . وذكر الرواة أنه أنشد خلفاً الأحمر قصيدته في سلم بن
قتيبة :

بَكْرًا صاحبي قبل الهَجِيرِ . إن ذاك النجاح في التَّبْكِيرِ
فلاحظ فيها إكثاره من الغريب ، وسأله عن سبب ذلك ، فقال له : بلغني
أن سلماً يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه . وقال له خلف :
لو قلت مكان (إن ذاك النجاح في التبكير) (بَكْرًا فالنجاح في التبكير) كان
أحسن . فأجابه بشار : « إنني بنيتها أعرابية وحشية فقلت : (إن ذاك النجاح)
كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت (بَكْرًا فالنجاح) كان هذا من كلام
المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة ، فقام خلف ،
فقبل بين عينيه^(٣) » .

وعلى هذا النحو كان الشاعر العباسي يحوّل إلى نفسه نماذج الشعر القديم بكل
خصائصها وكل شاراتها ، يعينه في ذلك اللغويون بما يعرضون عليه منها تجاه سمعه
وتحت بصره . وشركهم في ذلك بعض الشعراء على نحو ما هو معروف عن أبي تمام ،
ومجموعاته الشعرية التي انتخبها بذوقه من أشعار القدماء والمحدثين ، وفي مقدمتها
ديوان الحماسة . ولم يكتف اللغويون بما عرضوا من القصيد والرجز ، فقد وضعوا
للشعراء أقيسة اللغة في الاشتقاق والتصريف والنحو وموسيقى الشعر وعروضه . وبذلك
وضعوا في أيديهم جميع الآلات التي تعينهم لا على التثقف بالعربية والتدرب
عليها فحسب ، بل أيضاً على أن يتقنوا التعبير بها والتصرف فيها حسب حاجاتهم
الوجدانية والعقلية والحضارية .

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن اللغويين هيّأوا للشاعر العباسي من العلم بالشعر القديم

(٢) أغاني ١٤٣/٣ .

(٣) أغاني ١٩٠/٣ .

(١) أغاني ١٧٤/٣ وانظر ابن المعتز ص ٢٥

والموشح ص ٣٦٦ .

ما لم يكن يتهيأ لأصحابه أنفسهم ، فقد جمعه له وكشفوا مادته من جميع أطرافها ، وأخذت تونق وتزدهر من جديد ، وهو ازدهار نفذ منه العباسيون إلى أسلوب لهم حديث عُرِف باسم أسلوب المولدين ، وهو أسلوب قام على عتاد من القديم وعدة من الذوق الحضري الجديد ، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية والنحوية ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة بحيث تُنفَى عنه ألفاظ العامة المبتذلة كما تُنفَى عنه ألفاظ البدو الوحشية . وكان من الشعراء ذمّراً يسرفون على أنفسهم في النهج على أساليب الرُّجَزاء المحشوة بأوابد الألفاظ ، ولكنهم كانوا يُعَدُّون نابين على ذوق العصر ، ومن خير مَنْ يُمثل ذلك ابن منذر ، وقد تعرّض له أبو العتاهية يوماً قائلاً : « إن كنت أردت بشعرك العجّاج ورؤبة فما صنعت شيئاً ، وإن كنت أردت أهل زمانك فما أخذت مآخذنا^(١) » . وأبو العتاهية إنما يشير إلى ما حدث لأساليب اللغة في عصره ، فقد تناولها في الحاضرة صنّاع مهرة لم يلبثوا أن اشتقوا لهم منها أسلوباً متميزاً يبتعد عن خشونة البدو وألفاظهم الكثرة . وليس ذلك فحسب فإنهم أشاعوا في هذا الأسلوب الألفاظ المنتخبة مع العذوبة والرشاقة حيناً والجزالة والرصانة حيناً آخر ، يهديهم في ذلك ذوقهم المتحضر الدّمث الذي ينفر من كل لفظة غريبة وكلمة وعرة .

وعلى هذا النحو دفع المتحضر شعراء العصر العباسي الأول إلى استحداث أسلوب مولّد جديد ، وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة ، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال ، تُختار الكلمات فيه ، وكأنما هي جواهر تختار في عقود ، إذ تحوّل الشعراء إلى ما يشبه الصّاغة ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته في صياغته وسبكه بما ينتخب من الكلمات التي يحسن وقعها في السمع والتي تصنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة .

وبشار في طليعة من أرسوا هذا الأسلوب المولد الجديد ، وفيه يقول ابن المعتز : « كان شعره أنقى من الراحة ، وأصفى من الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العذب^(٢) » . وأسلوبه يمتاز بالنصاعة والرصانة والصفاء والرونق . وتلاه جيل من

(٢) ابن المعتز ص ٢٨ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٩٠/٤

والموشع ص ٢٩٥ .

الشعراء توزَّعوا بين من يؤثرون الجزالة والفخامة وقوة البناء وضخامته مثل مسلم بن الوليد ، ومن يؤثرون الليونة والسهولة مثل أبي العتاهية الذي عَمَّم ذلك في الشعر الرسمي: شعر المديح ، والشعر الشخصي : شعر الخمر والغزل ، وشعر الزهد والوعظ ، وكان معاصره أبو نواس يحتفظ بكل ما يمكن من جزالة في الشعر الرسمي ، وفي بعض شعره الشخصي ، وكثيراً ما يعمد في الضرب الأخير إلى السهولة المفرطة . على أن الشعراء سرعان ما انصرفوا عن طريق أبي العتاهية مؤثرين طريق بشار وما انتهى إليه هذا الطريق عند مسلم من المتانة وقوة البناء والرصانة ، وخلفه أبو تمام فأوفى بهذا الأسلوب الجزل الرصين على غايته من الفخامة والروعة . وبذلك رُدَّ الأسلوب المولد إلى قوة السبك وضخامة البناء . وحقاً جمد بعض الشعراء وأسرفوا في الاقتداء بأساليب القدماء من الرجاز وأضرابهم ، ولكنهم سقطوا صرَّعَى في الميدان الفني ، إذ ازورَّ عنهم جمهور الشعراء منضوين تحت لواء بشار ومسلم وأبي تمام . أو تحت لواء أبي العتاهية وأبي نواس ، بحيث ينتخب الشاعر أنصع الألفاظ وأجزلها وأرشفها وأعذبها مكوِّناً أصداف شعره وجواهره المتألقة .

٢

طوابع عقلية دقيقة

رأينا في الفصل السابق كيف رقيت الحياة العقلية في هذا العصر رقيّاً بعيداً . وهو رقى هيأت له الكتب الكثيرة التي ترجمت عن الهند والفرس واليونان ، كما هيأت له المحاورات والمناظرات بين أصحاب الملل والنحل والأهواء ، وهي مناظرات ومحاورات دفعت الشعراء كما دفعت غيرهم إلى التفكير المتصل ، الذي ما ينبي صاحبه يحاور وينظر ، متناولاً كل شيء ، حتى يصقل عقله ، وحتى يبلغ أقصى ما يريد من العلم والمعرفة . وما لم يعرفه ولم يعلمه سأل عنه العلماء ، ليصوروه له ، وليزيلوا الشبهة فيه عن نفسه ، وفي ذلك يقول بشار (١) :

(١) عيون الأخبار ١٢٣/٢ وأدب الدنيا والدين للماوردي (طبعة الحلبي) ص ٥٠ .

شفاء العَمَى طولُ السؤال وإنما دوامُ العَمَى طولُ السكوتِ على الجَهْلِ
فكُنْ سائلاً عما عَدَاكَ فإنما دُعِيتَ أخا عَقْلٍ لتبحثَ بالعَقْلِ
ولم يكن الشاعر العباسي يلتمس المعرفة عند العلماء ولقائهم وسعيه لسؤالهم
وإلحاحه في السؤال فحسب ، بل كان يلتمسها أيضاً في الكتب المترجمة من كل
صنف ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات لمحمد بن يسير ، يشرح فيها أنه في بيت
كتبه ، وكنوزُ الآداب من حوله ، يغذى بها نفسه وعقله غذاء ممتعاً ، يقول (١) :

هم مؤنسون وألأفُ غَنِيَتْ بهم فليس لي في أنيسٍ غيرهم أربُ
فأما أدبٍ منهم مددتُ يدي إليه فهو قريبٌ من يدي كَثَبُ (٢)
حتى كأنني قد شاهدتُ عَصْرَهُمْ وقد مضتْ دونهم من دهرهم حَقَبُ
وابن يسير إنما يعبر عن نزوع الشعراء عامة في عصره للترود بجميع ألوان المعرفة
وما كانوا يجدون في ذلك من لذة عقلية لا تعد لها لذة . وقد مضوا يتمثلون كثيراً
من هذه الألوان ويحولونها غذاءً شعرياً بديعاً ، سواء منها الهندي والفارسي واليوناني ،
وما لم يحلوه تأثروا به من قريب أو من بعيد . ولنقف قليلاً عند الثقافة الهندية ،
فقد لاحظ ابن قتيبة أن أبا نواس كان يتأثر بعض أفكارها في أشعاره ، من ذلك
قوله في الخمر :

تُخَيَّرَتْ والنجوم وُقِفَتْ لم يتمكن بها المدَارُ

يقول ابن قتيبة : « يريد أن الخمر تُخَيَّرَتْ حين خلق الله الفلك ، وأصحاب
الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة في بُرْجٍ
ثم سيرها من هناك ، وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها
فيه ، وإذا عادتُ إليه قامت القيامة وبطل العالم ، والهند تقول إنها في زمان نوح
اجتمعت في الحوت إلا يسيراً منها ، فهلك الخلق بالطوفان ، وبقى منهم بقدر
ما بقي منها خارج الحوت (٣) » . وينشد ابن قتيبة قول أبي نواس في بعض المغنين
هاجياً :

(٣) الشعراء والشعراء ص ٧٧٤ .

(١) الحيوان ٩٥/١ .

(٢) كتب : قريب .

قُلْ لزهيرِ إذا حدا رَشدا
أَقْلِلْ أو أَكْثِرْ فَأَنْتَ مِهْذَارُ
سَخُنْتَ من شدة البرودة حـ
تَنَى صِرْتَ عِنْدِي كَأَنَّكَ النَّارُ
لا يعجب السامعون من صفتي
كذلك الثَّلْجُ بارِدٌ حارٌ

ويعلق بقوله : « هذا الشعر يدل على نظر أبي نواس في علم الطبائع ، لأن الهند تزعم أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً ، ووجدت في بعض كتبهم : لا ينبغي للعاقل أن يغترّ باحتمال السلطان وإمساكه ، فإنه إما شرّس الطبع بمنزلة الحية إن وطئت فلم تلتسّع لم يغتترّ بها فيعاد لوطئها ، أو سمح الطبع بمنزلة الصنّيد الأبيض البارد إن أفرط في حرّكه عاد حاراً مؤذياً^(١) » . وأكبر الظن أن ابن قتيبة يريد ببعض كتبهم كتاب كليله ودمنة الذي ترجمه الفرس عن الهندية ، ثم نقله ابن المقفع إلى العربية ، على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وخلفه أبان بن عبد الحميد فظمه شعراً بكل ما فيه من قصص وحكم . وكان أثره عميقاً فيما صاغه العباسيون من حكم وأمثال ، ونرى ابن عبد ربه في العقد الفريد يتمثل بحكمة منه هي : « إن الحازم يكره القتال ما وجد بداً منه ، لأن النفقة فيه من النفس والنفقة في غيره من المال » . ولاحظ أن أبا تمام نقل هذا المعنى إلى شعره فقال^(٢) :

كم بين قومٍ إنما نفقاتهم مالٌ وقومٍ ينفقون نفوسا

وكان تأثير الثقافة الفارسية في الشعر والشعراء أشد وأقوى من تأثير الثقافة الهندية ، إذ كان كثير من الشعراء يتقنون اللغة الفهلوية ، لا من يرجعون إلى أصول فارسية فحسب مثل أبي نواس ، بل أيضاً بعض من يرجعون إلى أصول عربية مثل العتّابي ، وكان يعكف على قراءة كتبها ، وراه شخص يوماً ينسخ بعض صحفها ، فسأله متعجباً : لم تكتب كتب العجم ؟ فأجابه منكرّاً سؤاله : وهل المعاني والبلاغة إلا في كتب العجم ؟ اللغة لنا والمعاني لهم^(٣) . وقد مضى الشعراء منذ ظهور كتابي الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع يتأثرون بما نقله فيهما من تجارب الفرس

وحكمهم ووصاياهم في الصداقة والمشورة وآداب السلوك والسياسة ، ومن يرجع إلى
بشار يجده يفرد للمشورة قطعة طويلة في إحدى مدائحه ، يقول فيها^(١) :

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةٍ حَازِمٍ
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً مَكَانُ الْخَوَافِ نَافِعٌ لِلْقَوَادِمِ^(٢)

وقد نُقلت أمثال بزرجمهر الوزير الفارسي إلى العربية ودارت في كتب
الأدب ، وتمثل الشعراء كثيراً من معانيها البديعة ، من مثل قوله : « إذا أقيمت
عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تفي ، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى » وقد
أخذه بعض الشعراء وزاد عليه قائلا^(٣) :

فَأَنْفَقْ إِذَا أَنْفَقْتَ إِنْ كُنْتَ مُوسِرًا وَأَنْفَقْ - عَلَى مَا خَيَّلَتْ^(٤) - حِينَ تُعْسِرُ
فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ وَلَا الْبَخْلُ يَبْقَى الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرٌ^(٥)

ويقال إنه كان في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعجم^(٦) .
ولا ريب في أن الثقافة اليونانية كان تأثيرها في الشعر والشعراء أعمق وأبعد
غوراً ، بما فتحت أمامهم من أبواب الفكر الفلسفي وأبواب المنطق ومقاييسه وأدلتها ،
وما بعثت فيهم من محاولة استكشاف دفائن المعاني واستخراج دقائقها . وقد مضى
كثير من الشعراء يزدون محصولهم من تلك الثقافة ، بل كان منهم من ألف في
المنطق^(٧) ، حتى يشحذ ذهنه وأذهان الشعراء من حوله . وكان مما تُرْجِمَ لهم من
تلك الثقافة مراثي فلاسفة اليونان للإسكندر المقدوني عند وفاته ، وقد نقل منها
أبو العتاهية أطرافاً إلى مراثيه^(٨) في صديقه علي بن ثابت ، من ذلك أن أحدهم
وقف عند رأسه ، وقال : سكنت حركة الملك في لذاته وقد حرَّكنا اليوم في سكونه
جزعاً لفقده ، فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية قائلاً :

(١) أغاني ١٥٦/٣ وانظر ص ٢١٤ .
(٢) القوادم : الريش الطويل في جناح الطائر
والخوافي : الريش القصير .
(٣) عيون الأخبار ١٧٩/٣ .
(٤) على ما خيَّلت : على أي حال .
(٥) الجلد : الحظ .

(٦) التحفة البهية ص ٢١٧ .
(٧) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ٢٧/١٧ .
(٨) أغاني (طبع دار الكتب) ٤٤/٤
والبيان والتبيين ١/٤٠٧ وزهر الآداب للحصري
٩١/٣ .

يا على بن ثابت بان منى صاحب جلّ فقده يوم بنتا
 قد لعمرى حكيت لى غصص المو ت وحرّكتنى لها وسكنتا
 وقال فيلسوف آخر : « الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم
 أوعظ منه أمس » . فتمثله أبو العتاهية فى مريّة أخرى لصديقه على هذا النمط :

بكيتك يا على بدمع عيني فما أغنى البكاء عليك شيئا
 كفى حزنا بدفنيك ثم أنى نفضت تراب قبرك عن يديا
 وكانت فى حياتك لى عظام وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقد ذكرنا فى الفصل السابق أن كثيرا من أقوال المسيح فى الأناجيل نقل إلى
 العربية وتداوله الوعاظ فى وعظهم كما تداوله شعراء الزهد ، واستوحوه فى كثير من
 أشعارهم ، من ذلك ما يروى عن المسيح من أن قومه عيروه بالفقر ، فقال : من
 الغنى أتيتم ، واستوحى محمود الوراق هذا المعنى وزاد عليه إيضاحاً وتبييناً بقوله (١) :

يا عائب الفقر ألا تزدرى عيب الغنى أكثر لو تعتبر
 من شرف الفقر ومن فضله على الغنى إن صح منك النظر
 أنك تعصى كى تنال الغنى وليس تعصى الله كى تفتقر

وسنعرض فى ترجمتنا لأبى العتاهية وصالح بن عبد القدوس بعض ما دخل على
 الزهد من عناصر غريبة بوذية أو مانوية .

ولعل أكبر بيئة عُنيت بهذه الثقافات المتنوعة ، وكان لعنايتها بها أثر واسع
 فى الشعر والشعراء ، بيئة المعتزلة إذ كانت تقوم من الفكر العباسى فى هذا العصر
 مقام السكان والمجذاف من السفينة ، فهى تثيره وتدفعه إلى أن يزيد محصله من
 جميع المعارف والمعتقدات ، وأن يتمثلها إلى أبعد حد ممكن . وبدءوا بأنفسهم
 فتثقفوا أروع ما يكون الثقف بكل ما ترجم عن الهنود والفرس واليونان ، وعكفوا على
 الفلسفة اليونانية عكوفاً جعلهم يتقنون على كل شعبها وكل مناحيها فى الفكر الدقيق ،
 ولم يلبثوا أن استكشفوا لأنفسهم عالمهم العقلى الذى يمج بطرائف الذهن فى جميع

المعاني الحسية والعقلية . وكانوا ما يزالون يحاورون أصحاب الملل والنحل في المساجد الجامعة ، ومن حين إلى حين يحاور بعضهم بعضاً في غوامض الفلسفة ، محللين مستنبطين كأروع ما يكون التحليل والاستنباط ، وكثيراً ما ردوا على فلاسفة اليونان واشتقوا لهم آراء جديدة ، يدعمها العقل الذى شغفوا به وبأدلته وبراهينه ، وهو شغف صورته منهم بشر بن المعتمر تصويراً طريفاً ، إذ يقول^(١) :

لله درُّ العقل من رائدٍ وصاحبٍ في العُسرِ والبُسرِ
وحاكمٍ يقضى على غائبٍ قضية الشاهد للأمرِ
وإن شيئاً بعضُ أفعاله أن يفصل الخيرَ من الشرِّ
لنوقوى قد خصه ربُّه بخالص التقديس والطهرِ

وقد سخرَ بشر عقله في الرد على أصحاب المقالات والنحل وفي نظم قصائده تدخل في التاريخ الطبيعى يتحدث فيها عن مشاهد الطبيعة ودلالاتها على قدرة الصانع الأكبر . وكان وراءه من المعتزلة شعراء لم يبعدها بشعرهم عن دوائر الشعر المألوفة من المديح والغزل والهجاء والثناء والوصف ، ولكنهم طبعوا ما نظموه بطوابع جديدة من دقة المعاني ومن غرائب الأخيصة والصور ، على نحو ما يلقانا عند العتّابى والنظام ، وسنخصص كلاماً منهما بمحدث مستقل في الفصل السابع .

وقد سرت هذه الطوابع في شعر الشعراء ، وخاصة من التحموا منهم بالمعتزلة ومباحث المتكلمين ، ويكفى أن نصور ذلك عند ثلاثة من الشعراء النابيين هم : بشار وأبو نواس وأبو تمام . فأما بشار فكان يُعَدُّ من أصحاب الكلام ، وكان يكثر من الاختلاف إلى مجالس واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، ويستمتع إلى ما يجرى فيها من حوار بين أصحاب الملل والنحل سماوية وغير سماوية ، وتشوش عقله ، فإذا هو يصبح زنديقاً ، مما سنعرض له في ترجمته . وكان من أهم المشاكل التى يحاور فيها واصل خصومه مشكلة الجبر والاختيار ، وكان يرفض فكرة الجبر وتعطيل إرادة الإنسان أمام إرادة الله المطلقة ، لما يؤدى إليه ذلك من فقدان الإنسان لحرية في أعماله وأنه كتبها عليه القضاء المحتوم ، وأيضاً لما يؤدى إليه ذلك من

ظلم الله للناس فهو يكتب عليهم الشقاء ويأخذهم به ، والله لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وما يأتون من أفعال وأقوال إنما يأتونه بإرادتهم وحريرتهم ، وهم لذلك مسئولون عنه ومحاسبون . وقد مضى بشار في أشعاره يعارض واصلا في هذه المشكلة الإنسانية الكبرى ، مصراً على أن الإنسان مسير في رحلته الدنيوية بقضاء يخطئ له غده ومستقبله ، وفي ذلك يقول (١) :

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِيَّ غَيْرَ مُخَيَّرٍ هَوَايَ وَلَوْ خَيْرْتُ كُنْتُ الْمَهْدَبَا
أُرِيدُ فَلَا أُعْطَى وَأُعْطَى وَلَمْ أُرَدْ وَيَقْصُرْ عِلْمِي أَنْ أَنَالَ الْمُغَيَّبَا
فَأُصْرَفُ عَنْ قَصْدِي وَعِلْمِي مَقْصُرٌ وَأُمْسِي وَمَا أَعْقَبْتُ إِلَّا التَّعَجُّبَا

وربما كان لفقده بصره أثر في اعتناق هذا المذهب . وأهم من هذه المشكلة وأدخل فيما نحن بصدد الحديث عنه من الطوابع العقلية الدقيقة التي تغلغت في الشعراء العباسيين وأشعارهم أننا نجد عنده استدلالات عقلية كثيرة على نحو ما مررنا بنا في أبيات الصداقة والصديق ، كما نجد عنده توليدات وتشعيبات للمعاني التي طرقها القدماء لا تكاد تحصى ، مع محاولة الأطراف والإتيان بالمعنى المبتكر والصورة البديعة . ولنقف قليلا عند معنى طول الليل الذي وقف عنده امرؤ القيس ، في معلقته ، إذ يقول :

فيا لك من ليلٍ كأنَّ نجومه بكلِّ مُغارِ الفتلِ شُدَّتْ يَدَبْلُ (٢)

فهو يتصور نجوم الليل لطوله الشديد كأنما سُمِّرَتْ ، فهي لا تريم . وقد مضى الجاهليون والإسلاميون بعده يتناولون هذا المعنى ، وقلما أضافوا إليه إضافة جديدة ، حتى إذا كان بشار أخذ يتناوله بطُرُقٍ مختلفة تدل دلالة بينة على دقة العقل العباسي وقدرته على التعليل والتحليل وأنه يستطيع أن يؤدي المعنى القديم في معارض جديدة شديدة الروعة ، من ذلك قوله (٣) :

خَلِيلِي مَا بَالُ الدُّجَى لَيْسَ يَبْرَحُ وَمَا بَالُ ضَوْءِ الصَّبْحِ لَا يَتَوَضَّحُ
أَضَلَّ الصَّبَاحُ الْمُسْتَنِيرَ طَرِيقَهُ أَمْ الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرَحُ

(٣) الديوان ١٠٤/٢ .

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٢٧/٣ .

(٢) مغار : محكم . يدبل : جبل .

وهو خيال زاخر بالحركة ، وفيه تعميم ، فقد تحول الدهر ليلاً مظلماً لا آخر له . ويعود إلى التفكير في نفس المعنى ، وما يزال يلحُ في التفكير والتخيُّل حتى تتكوَّن له صورتان جديدتان لا تقلان طرافة عن الصورتين السابقتين ، إذ يقول عن نفسه وقد بات ليلة مسهَّدة إثر فراقه لإحدى صواحبه (١) :

كَأَنَّ جَفُونَهُ سُمِلَتْ بِشَوْكِ فليس لو سَمَتْ فِيهَا قَرَارُ
أَقُولُ وَلَيْلَتِي تَزْدَادُ طَوْلًا أَمَا لِلَّيْلِ بَعْدَهُمْ نَهَارُ
جَفَّتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيزِ حَتَّى كَأَنَّ جَفُونَهَا عَنْهَا قِصَارُ

واكن أيكفيه أن يعلل لمعنى طول الليل القديم وما يُطَوَّى فيه من السهر بهذه العلل البارة ؟ أو لا ينبغي أن يسلك مسالك المتكلمين والمعتزلة لا في الإتيان بالعلل الخفية المستورة وإنما في الإتيان بما ينقض المعنى نقضاً من أساسه على شاكلتهم في محاوراتهم ومداوراتهم ؟ وإذن فليُنقَضْ ما يقال من طول الليل ، إنما هو السهر والسهاد الطويل الذي يخيلُ إليه كأن الليل يطول ، والليل مظلوم ، وفي ذلك يقول : (٢)

لَمْ يَطْلُ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمَ وَنَفَى عَنِ الْكَرَى طَيْفُ أَلَمٍ

وتشيع هذه القدرة على التعليل الطريف في جميع جوانب شعر بشار ، كما تشيع معها قدرته على قلب المعاني والاحتياال للتوليد فيها والتفريع ، على شاكلة قوله (٣) :

وَعِيُّ الْفِعَالِ كَعِيُّ الْمَقَالِ وَفِي الصَّمْتِ عِيُّ كَعِيُّ الْكَلِمِ

فقد جعل العيَّ أقساماً ، فهو لا يكون في الكلام فحسب ، بل يكون أيضاً في الصمت حين يكون واجباً ويكون الكلام ثرثرة ، بل إنه يكون أيضاً في الفعال السقيمة .

ولعل في ذلك ما يوضح من بعض الوجوه كيف منح المعتزلة ومباحثهم بشاراً هذه الطوابع العقلية التي جعلته يمتاز في شعره بشخصية قوية . ولم يكن ما مُنحه أبو نواس من تلك البيئة أقل حظاً وقدرًا ، بل لعله ظفر منها بأكثر مما ظفر بشار ،

(٣) البيان والتبيين ٤/١ .

(١) الديوان ٢٤٩/٣ .

(٢) أغاني ١٥١/٣ .

إذ كان يغدو ويروح في نشأته على مجالس المتكلمين والمعتزلة ، وفي أشعاره سيول من ألفاظهم وأفكارهم ، من ذلك فكرة التولد ، وهي الفعل الذى ينشأ عن فعل آخر دون قصد ، فقد صدر عنها في قوله متغزلاً بجَنَان (١) :

وذا تِ خَدَّ مورَّد فتَّابة المتجرَّد
تأملُ العين منها منحاسناً ليس تنفدُ
فبعضُها قد تنهى وبعضها يتولَّد

ومن ذلك فكرة الجزء الذى لا يتجزأ أو فكرة الجوهر الفرد ، وكان النظام ينكره ، وتجادل فيه طويلاً مع نظرائه من المعتزلة ، وقد ألمَّ بها أبو نواس في قوله متغزلاً (٢) :

يا عاقدَ القلب عني هلا تذكرَ حلاً
تركتَ منى قليلاً من القليل أقلاً
يكاد لا يتجزأ أقلُّ في اللفظ من لا

ويقال إن النظام سمع منه هذه الأبيات ، فقال له : « أنت أشعر الناس في في هذا المعنى ، والجزء الذى لا يتجزأ — منذ دهرنا الأطول — نخوض فيه ما خرج لنا فيه من القول ما جمعت أنت في بيت واحد (٣) » . ومن ذلك قوله في شخص كان يبغضه (٤) :

كمنَ الشَّانُ فيه لنا ككُمُونِ النارِ في حَجَرَةٍ

ونظرية الكمون إحدى النظريات التى تحاور فيها النظام مع بعض معاصريه طويلاً ، إذ كان يرى أن الله جلَّ جلاله خلق الموجودات دفعة واحدة ، ثم أكن بعضها في بعض على نحو ما أكن في آدم أبنائه . وبما كان يحاوره فيه أبو نواس فكرة صدق الوعد والوعيد على الله وهي إحدى الأفكار الأساسية في عقيدة المعتزلة ،

(١) البيان والتبيين ١/ ١٤١ .

(٢) نفس المصدر والصفحة ، وانظر في أشعار أخرى له تزرع بالفاظ المتكلمين أخبار

أبي نواس لابن منظور ص ١٣ .

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ص ١٣ .

(٤) الديوان (طبعة آصاف) ص ٦٧ .

كما مر بنا في الفصل السابق ، وقد جعلتهم يرفضون فكرة العفو التي قال بها المرجئة والتي تذهب إلى أن الله من حقه أن يترك وعيده لمن أجرم وارتركب الكبائر ، فيسدل عليه أستار عفوهِ ، وكان أبو نواس يصُدر عن فكرة المرجئة في حوارهِ للنظام بمثل قوله في إحدى خمرياته (١) :

فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلَسْفَةً حَفِظْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
لَا تَحْظَرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرَجًا فَإِنْ حَظَرَكَه بِالْدِينِ إِزْرَاءُ
وقد فتقت مجالس المعتزلة والمتكلمين عقل أبي نواس ، فإذا هو يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلاً بالمعاني المبتكرة والأخيلة المبتدعة من مثل قوله (٢) :

لَا أَزُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرِهِ
خَفْتُ مَأْثُورَ الْحَدِيثِ غَدًا وَغَدُ دَانٍ لِمُنْتَظَرِهِ
وقوله (٣) :

وَكَأْسٍ كَمَصْبَاحِ السَّمَاءِ شَرِبْتُهَا عَلَى زَوْرَةٍ أَوْ مَوْعِدٍ بَلْقَاءِ
أَنْتَ دُونَهَا الْآيَامُ حَتَّى كَأَنَّهَا تَسَاقُطُ نُورٍ مِنْ فُتُوقِ سَمَاءِ
وتلقانا في كثير من جوانب شعره طوابع المعتزلة في لغتهم وفي حجاجهم وفي تفكيرهم المجرد من مثل قوله يصف الخمر (٤) :

تَوَهَّمْتُهَا فِي كَأْسِهَا فَكَأَنَّهَا تَوَهَّمْتُ شَيْئاً لَيْسَ يُدْرِكُ بِالْعَقْلِ
وَصَفْرَاءُ أَبْقَى الدَّهْرُ مَكْنُونٌ رُوحَهَا وَقَدْ مَاتَ مِنْ مَخْبُورِهَا جَوْهَرُ الْكُلِّ
فَمَا يَرْتَقِي التَّكْيِيفُ مِنْهَا إِلَى مَدَى تُحَدُّ بِهِ إِلَّا وَمِنْ قَبْلِهِ قَبْلُ
وقوله (٥) :

وَقَدْ خَفِيتُ مِنْ لُطْفِهَا فَكَأَنَّهَا بَقَايَا يَقِينٍ كَادَ يُذْهِبُهُ الشُّكُّ

(٤) الصناعتين (طبعة الحلبي) ص ٣٦٤ .

(٥) خزانة الأدب للحموي (طبع الطبعة

الخيرية) ص ١٨٣ .

(١) الديوان ص ٣٥ .

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه (طبعة

الحلبي) ص ٥٨ .

(٣) الوساطة ص ٥٩ .

وواضح ما في هذه الآيات من ألفاظ المتكلمين ومصطلحاتهم وتجريداتهم التي تبلغ حد الوهم ، فقد جعل الخمر لا تُدْرَكُ بالعقل كأنها معنى خفي لا ينكشف ، ودعاها : « جوهر الكل » وقال إنه لا يحيط بها كَيْفٌ أو تكييف تُحَدِّثُ به وتُعَرِّفُ ، وعاد يصور خفاءها ببقايا يقين تسترهما سحب الشك حتى لا تكاد تبين . وكان أبو تمام — على شاكلة أبي نواس — يتعمق الاعتزال وعلم الكلام ، بل يظهر أنه مدَّ تعمقه إلى الفلسفة وما يتصل بها من المنطق ، وقد ألح إلى ذلك الآمدي في فاتحة كتابه : « الموازنة بين الطائيتين » فقال إن شعره إنما يعجب أصحاب الفلسفة . وتراءى ألفاظها عنده من حين إلى حين كقوله في هجاء بعض خصومه^(١) :

هَبْ مَنْ لَهُ شَيْءٌ يَرِيدُ حِجَابَهُ مَا بَالُ لَا شَيْءٍ عَلَيْهِ حِجَابُ
وكلمة لا شيء في اصطلاح المتفلسفة تعني العدم . ومن ذلك قوله^(٢) :

لَنْ يَنَالَ الْعُلَا خُصُوصاً مِنَ الْفِتْ يَانِ مَنْ لَمْ يَكُنْ نَدَاهُ عُمُوماً^(٣)
والعموم والخصوص من كلام المناطق . ومن ذلك قوله في أحد ممدوحيه^(٤) :

اغهم ذو الجلال من جوهر المَجْ وصاغ الأنام من عَرَضَةٍ
والجوهر عند الفلاسفة والمتكلمين أثبت من العرض . وفي أشعاره بعض إشارات إلى المذاهب الكلامية ، وعلى رأسها مذهب الاعتزال والجهمية ، يقول في أبي سعيد الشَّعْرَى أحد القواد المشهورين في عصره^(٥) :

عَمَرِيٌّ عَظُمَ الدِّينَ جَهْمِيٌّ النَّدَى يَنْفَى الْقَوَى وَيُثَبِّتُ التَّكْلِيفَا
وهو في أول البيت يجعله عمرى العقيدة ، يريد أنه على مذهب عمرو بن عبَّسَيد إمام المعتزلة بعد واصل بن عطاء ، فهو يأخذ — كما يأخذ عمرو وأصحابه — بفكرة

(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ٣١٧/٢
وطبعة بيروت ص ١٦٨ .

(٥) الديوان (طبع دار المعارف) ٣٨٧/٢
وطبعة بيروت ص ١٨٥ .

(١) ديوان أبي تمام (طبع المطبعة الأدبية
بيروت) ص ٤٣٦ .

(٢) نفس الديوان (طبعة دار المعارف)
٢٢٥/٣ وانظر الطبعة السابقة ص ٢٥٩ .

(٣) الندى : الكرم .

حرية الإرادة الإنسانية ، وأن الإنسان يتصرف كما يشاء له عقله ، ولا يلبث أن يجعله في نداه وكرمه على مذهب جهنم بن صفوان الذي كان يقول — كما يقول المعتزلة — بوجوب التكاليف الشرعية بينما كان يؤمن بالجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية . وكل ذلك ليبالغ في مدح أبي سعيد بالكرم وأنه قدر مقدور عليه ، لا يستطيع عنه حولا . ويعود إلى مذهب جهنم ، ولكن لا في الجبر وإنما في أسماء الله وصفاته ، فقد كان يمتنع عن تسميته باسم ، حتى لا يُثبت عليه شيئاً من التشبيه بالمخلوقات . وقد استمد أبو تمام من هذه الفكرة الدقيقة في نعته الحمر ، إذ يقول (١) :

جَهَنَّمِيَّةُ الْأَوْصَافِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ لَقَّبُوهَا جَوْهَرَ الْأَشْيَاءِ

فالحمر في رأيه رَفَّتْ حتى كادت لا تَسِين ، بل حتى كادت لا تسمى — على مذهب جهنم — باسم ، ولكنها لعظم شأنها لُقِّبَتْ جَوْهَرَ الْأَشْيَاءِ . ولعل ذلك ما يشهد بأن أبا تمام كان يتغلغل في معرفة مذاهب المتكلمين ، وهو تغلغل التحم بتغلغله في قراءة الفلسفة ، فإذا شعره يُطْبَعُ بطوابع الفكر الدقيق ، وهو فكر يجلِّله الغموض في كثير من جوانبه ، ولكنه الغموض الزاهي الذي يلذ العقل والشعور ، والذي ما تزال توليداته واستنباطاته الخفية فيه تروع قارئه روعة شديدة ، وهي روعة جعلت القدماء يقولون إنه أكثر العباسيين اختراعاً وابتكاراً (٢) . ولا تقف المسألة في شعره عند اختراع بعض المعاني وابتكار بعض الصور ، فقد نشر في صحف أشعاره التضاد الذي يقف عنده المناطق واستخرج منه ما لا يحصى من المعاني والصور الجديدة ، كقوله يصور جمال إحدى صواحيبه : (٣)

بِضَاءٍ تَسْرِي فِي الظَّلَامِ فَيَكْتَسِي نَوْرًا وَتَسْرُبُ فِي الضَّمَاءِ فَيُظْلِمُ

فقد جعلها تكسف نور الشمس ببهائها ، وكأنها القمر يكسف ضوء الكواكب حتى ليصبح ضياء النهار مظلماً لشدة نورها . وهو تضاد بديع ، فالضياء يظلم . ويمكن لهذا المعنى ويزيده عمقاً فيقول واصفاً إحدى صواحيبه في ساعة الوداع (٤) :

(٣) الديوان (طبع دار المعارف) ٢١٣/٣

وطبعة بيروت ص ٢٥٢ .

(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ٢٤٩/٣

وطبعة بيروت ص ٢٧٧ .

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٣٤/١

وطبعة بيروت ص ١٢ .

(٢) انظر العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية)

١٧٧/١ ، ١٨٩/٢ .

وَلِهَتْ فَأَظْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ دُونَهَا وَأَنَارَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ مُظْلَمٍ .
 فهي تودعه والهة لفراقه ، ويحس كأنما طمست بنورها كل ضوء من حولها ،
 وأنها سرعان ما كست الوجود بنورها ، ففارقت الأشياء الظلمة والظلام . وكثيراً
 ما يمتدّ هذا التضاد في وصفه ، فتتوالى الأبيات مغموسة به ، على نحو وصفه المشهور
 لقلم ابن الزيات وزير المعتصم ، وفيه يقول (١) :

لَعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ وَأَرَى الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدِي عَوَاسِلُ (٢)
 لَهُ رِيْقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنَّ وَقْعَهَا بِأَثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَابِلُ (٣)
 فَصِيحٌ إِذَا اسْتَنْطَقْتَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ وَأَعْجَمٌ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهُوَ رَاجِلُ (٤)

وكثير من كانوا وراء أبي تمام وأبي نواس وبشار كانوا لا يقلون عنهم محاولة
 في الإتيان بطرائف المعاني والصور ، وكانوا ما يزالون يغدون ويروحون على مجالس
 المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ، كما كانوا يكبّون على قراءة كتب الفلسفة والثقافات
 الأجنبية ، محاولين أن يكتسبوا من ذلك كله ما يتيح لهم في أشعارهم أن يشيعوا فيها
 المعاني النادرة والأخيلة المبتكرة .

٣

التجديد في الموضوعات القديمة

ظل العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح مما كان
 ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون وبذلك أبقوا للشعر العربي على شخصيته الموروثة ،
 وقد مضوا يدعمونها دعماً بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الخصبية وأذواقهم
 المتحضرة المرفهة ، فإذا هي تتجدد من جميع أطرافها تجدداً لا يقوم على التفاصيل
 بين صورة هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة ، بل يقوم على التواصل
 الوثيق .

(٣) الطل : المطر والندى الخفيف . والوايل
 المطر الغزير .

(٤) راجل : ضد راكب ، ويريد بركوبه
 إمساك الأصابع به للكتابة .

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ١٢٣/٢
 وطبعة بيروت ٢٢٩ .

(٢) لعاب الأفاعي : سمها . والأرى : العسل
 واشتاره : جنه .

وأول موضوع نقف عنده المديح ، ومعروف أن الشاعر الجاهلي والإسلامي كان يرسم في ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة التي تقدرها الجماعة ، وإذا كان مؤثراً في حياة عصره السياسية كأن يكون خليفة أو والياً عرض لأعماله ، وللأحداث التي شارك فيها ، أما إذا كان بطلاً يقود الجيوش ضد أعداء الأمة العربية فإنه يصور بطولته وما خاضه من معارك حربية . وقد اضطرت هذه الغايات للمدح في العصر العباسي ، إذ نرى الشعراء يعيدون ويبدئون في تصوير المثل الخلقية صوراً حية ناطقة ، ويعدو الحصر ، استنبطوه من معان طريفة في السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة والبأس ، وقد جسموها في الممدوحين تجسيمياً قوياً ، حتى لتصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كي يحتذوها ويحوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء . وبذلك ظلت المدحة تبت في الأمة التريية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة . والذي لا ريب فيه أنها تحمل خصالنا وخصائصنا النفسية ، وقد أشعل الشعراء العباسيون جذوتها في النفوس بما رقدوها به من عقولهم الحصبة وأخيلتهم البارعة . وقد مضى الشعراء في مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحكم وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التي لا تصلح حياة الأمة بدونها ، وبذلك كانوا صوتاً قوياً لها ، صوتاً ما ينبغي يهتف في آذان الحكام بما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم وسياستهم من مثل قول مروان بن أبي حفصة في مطاع قصيدة للمهدي (١) :

أَحْيَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ سُنَنَ النَّبِيِّ : حَرَامُهَا وَحَلَالُهَا
وفيه يقول الحسين بن مُطَيَّر (٢) :

يَعِفُّ وَيَسْتَحْيِي إِذَا كَانَ خَالِيَا كَمَا عَفَّ وَاسْتَحْيَا بِحَيْثُ رَقِيبٌ
ويقول أبو العتاهية في هرون الرشيد (٣) :

وَرَاعٍ يُرَاعِي اللَّهَ فِي حِفْظِ أُمَّةٍ يَدَافِعُ عَنْهَا الشَّرَّ غَيْرَ رَقُودٍ

(٣) أغاني ١٠٤/٤ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٨٩/١٠ .

(٢) أغاني ٢٣/١٦ .

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها مفارقة ليست بدار خلود
وفيه يقول منصور النَّمَرِي (١) :

بُورِكَ هَرُونُ من إمام بطاعة الله ذى اعتصام
له إلى ذى الجلال قُرْبَى ليست لِعَدَلٍ ولا إمام

وقد يكون الخليفة سبي السلوك مثل الأمين ، ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الكريمة للخلفاء ، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو ، وإنما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم ، وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينه الشعارات التي تطلبها الأمة في خليفاتها وراعيها ، لعله يثوب إلى طريق الرشاد . وقد نمت من هذا المديح فروع الشعر السياسى ، الذى يقف فيه الشاعر مدافعاً عن حق حزب من الأحزاب فى الحكم والخلافة ، وهو نمو بدأ منذ وقعة صفين ، وهياً لظهور أحزاب الخوارج والشيعة ، ومعروف أن حركة الأولين خمدت فى هذا العصر ، أما حركة الشيعة فظلت مضطربة ، وسنعرض لشعرائها وأشعارهم السياسية فى الفصل السادس ، وأيضاً لمن كانوا يشايعون العباسيين .

ولم يصور الشعراء مثاليتنا الخلقية العامة فى مدائحهم وكذلك مثاليتنا السياسية فحسب ، بل صوروا أيضاً الأحداث التي وقعت فى عصور الخلفاء ، وخاصة الفتن والثورات الداخلية وحروب أعداء الدولة من الروم والترك ، وبذلك قامت قصيدة المديح فى هذا العصر مقام الصحافة الحديثة ، فهي تسجل الأحداث التي عاصرها الشاعر والأعمال الكبرى التي ينهض بها الخلفاء ، مما يعطيها قيمة بعيدة إذ تصبح وثائق تاريخية ، ومن أجل ذلك كنا نرى الطبرى فى تاريخه يتوقف من حين إلى حين لينشد ما نظمه بعض الشعراء فى الحادث الذى يرويه ، وليجلوه جلاء تاماً على لسان هؤلاء الشعراء الذين عاصروه . وبذلك أعدوا من بعض الوجوه ليتحول المديح إلى تاريخ ، وكان من أوائل من نفذ إلى ذلك السيد الحميرى ، فإنه حوّل أخبار على بن أبى طالب ومناقبه إلى مدائح بديعة ، وفى ترجمته بكتاب الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني من ذلك طرائف كثيرة .

وربما كان أهم ما سجلته صحف المديح في هذا العصر صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضد أعدائها من الترك والبيزنطيين ، فقد أشادت إشادة رائعة بكل معركة خاضوا غمارها وكل حصن اقتحموه ، حتى كادت لا تترك موقعة ولا بطلا دون تصوير يضرم في النفس العربية الاستبسال والمضاء وجلاد الأعداء جلاداً عنيفاً ، وكل كاتب في هذه الصحف أو قل كل شاعر يتفنن في رسم بطولة القائد الذي يمدحه رسماً يشعل الحماسة في نفوس جنوده ونفوس الشباب العربي من ورائهم فإذا هم يترامون على منازل أعدائهم ترمى الفراش على النار يريدون أن يسحقوهم سحقاً . وكان الرشيد والمأمون والمعتصم يقودون بأنفسهم الجيوش التي كانت تمحق البيزنطيين محققاً ، فتغنى الشعراء بانتصاراتهم غناء يسكب الفرح في كل نفس ، لعل من أروع غناء أشجع شاعر البرامكة بفتح الرشيد لهرقلة في آسيا الصغرى واكتساحه لجيش نفور لإمبراطور بيزنطة^(١) ، وأكثر منه روعة غناء أبي تمام بفتح المعتصم لأنقرة وحرقة لعمورية في بائته المشهورة ، وهي إلى أن تكون ملحمة أقرب منها إلى أن تكون قصيدة . وتكتظ كتب الأدب ودواوين الشعراء بتصويرهم لبسالة جميع القواد ، لا الذين أسهموا في حروب البيزنطيين فحسب ، بل أيضاً في حروب الترك وبابك الحرّمي وغيره من الثائرين في شرق الدولة . ولم يكتف الشعراء بهذا التصوير فقد عنوا بتسجيل كل ما يستطيعون من تفاصيل عن المعارك الحربية ، وبذلك لم تعد قصائدهم مديحاً فحسب بل أصبحت أيضاً تاريخاً ، وهو تاريخ كتب شعراً ، تاريخ أبطالنا وأجدادهم الحربية . وكان هؤلاء الأبطال ومن ورائهم الخلفاء يرصدون الجوائز الضخمة للشعراء كي يرسموا هذه البطولات ، ورسموها حقاً رسماً باهراً سنرى مقتطفات منه في تضاعيف تراجمهم ، ويكفي أن نسوق قطعة من تصوير علي بن جبلة لبطولة أبي دُلَيْف العِجْلِيّ قائد المأمون المشهور ، إذ يقول من قصيدة طويلة يصف فيها بعض وقائعه^(٢) :

المنايا في مَقَانِيهِ والعطايا في ذَرَا حُجْرَةٍ^(٣)
وزحوف في صواهلِهِ كصياح الحشَر في أَمْرِهِ^(٤)

فناوها .

(٣) زحوف : صفة مبالغة من الزحف ، يريد الجيش . والأمر : الكثرة .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٧٥

والأغاني (طبعة السامي) ١٠٣/١٨ .

(٢) المقاب : جماعات الخيل ، ذرا الحجر

- قُدَّتْهُ والموتُ مكتنمٌ في مذاكيه ومُشْتَجِرُهُ (١)
 فرمتُ جيلُوه منه يدُ طوتِ المنشورَ من بطره (٢)
 زُرْتُهُ والخيَل عابِسةٌ تحملُ البؤسى إلى عُقْرِهِ (٣)
 فأبَحْتَ الخيَل عَقْوَتَهُ وَقَرَيْتَ الطيرَ من جَزَرِهِ (٤)
 صاغك الله أبأ دَلَفٍ صيغَةً في الخَلْقِ في خِيرِهِ
 كلُّ من في الأرض من عَرَبٍ بين باديه إلى حَضَرِهِ
 مستعيرٌ منك مكرمةٌ يكتسيها يومَ مُفْتَحَرِهِ

وكانت المدحة قديماً تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعثاً ما يركبه من بعير أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشى ، وقد يعرض لوصف مشهد الصيد ، وكثيراً ما يضمونها بجانب ذلك حكماً توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة . وكل ذلك استبقاه شاعر المدحة في العصر العباسي ، ولكن مع إضافات كثيرة ، حتى يلائم بينه وبين عصره . وتتسع الإضافة أحياناً وتضيق أحياناً ، ولكنها دائماً تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسي . وقد نعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية ، غير أنهم اتخذوها رمزاً ، أما الأطلال فلحبيهم الدائر ، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان في الحياة ، وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين للذكريات حبيهم ومعاهده لا يزال يترقق في أشعارهم من مثل قول مسلم بن الوليد (٥) :

هلا بكيتَ ظعائناً وحُمولاً ترك الفؤادَ فراقهم مخبولاً
 فإذا زجرتُ القلب زادَ وجيبُهُ وإذا حبستُ الدمع زادَ هُمولاً (٦)

الضيافة . والجزر : ما يذبح .
 (٥) ديوان مسلم (طبع دار المعارف) ص ٥٣ .
 (٦) واضح أن مسلماً يخاطب نفسه وكأنه يخاطب غيره ، والظعائن : النساء في الهوادج .
 والحمول : ما يحمله معهن .

(١) المذاكي : الخيل ، والمشتجر : القنا والرماح .
 (٢) جيلوه : من ثوار أذربيجان . البطر : الطفيلان بالنعمة .
 (٣) المقر : محلة القوم .
 (٤) العقوة : ساحة الدار . والقرى :

وإذا كتمتْ جَوَى الأَسَى بعثَ الهوى نَفْساً يكون على الضمير دليلاً^(١)
 واهاً لأَيام الصِّبا وزمانه لو كان أمتع بالمُقَام قليلاً
 وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور
 الحاضرة المأنوسة ، وحينئذ كان لا يترسل في وصف حنينه ، على شاكلة أشجع
 إذ يستهل إحدى قصائده بقوله^(٢) :

قَصُرَ عليه نَحِيَّةٌ وسلامٌ نشرتْ عليه جمالها الأَيامُ
 وعلى نحو ما استبقوا الأطلال وما يتصل بها من حنين يعبث بنفوسهم استبقوا
 رحلة الصحراء ، وتفتنوا في وصف وعوثة طرقها ورياحها الحارة التي تكاد تتوقد
 توقداً ، على شاكلة قول مسلم^(٣) :

ومَجْهَلٍ كاطْرَاد السيفِ مُخْتَجِزٍ عن الأدلاء مسجور الصياخيد^(٤)
 تمشى الرياحُ به حَسْرَى مَوْلَهةً حَيْرَى تلوذ بأطراف الجلاميد^(٥)
 فالرياح من شدة الحر وما يجرى في قلبها من الفزع تلجأ إلى أطراف الصخور
 المستعلية فوق الآكام ، كأنها تريد الفرار من هذا الجحيم المطبق . وقد داروا حول
 وصف الحيوان الوحشي محاولين أن يستنبطوا بعض الصور الطريفة من مثل قول
 بشار في بائيته^(٦) ، يصور ما نال أُنثى الوحش من خرقعة العطش الشديد :

غدتْ عانةٌ تشكوباً بَصَارها الصَّدَى إلى الجَبَابِ إلا أنها لا تخاطبُه^(٧)
 وهى صورة تخفق بالحياة ، إذ مثَّل العطش في غَوَر أحداقها ، حتى لتهمُّ
 بالكلام شاكية لحمارها ، ولكن أنثى لها ذلك وهى عجماء لا تُبين . وكان الشاعر
 القديم يكثر من وصف نحول بعيره ونوقه لطول الطرق الوعرة وما يصيبها من شدة
 الكلال والإعياء ، حتى يشبهها بالأقواس والأهلة ضموراً وهزلاً ، وردَّد الشاعر

(١) جوى الأَسَى : ناره وحرقة .

(٢) ابن المعتز ص ٢٥٢ .

(٣) الديوان ص ١٥٤ .

(٤) مسجور : موقد . الصياخيد : جمع

صيخود وهو اليوم اللافح الحر .

(٥) الجلاميد : الصخور .

(٦) انظر القصيدة في الديوان ٣٠٥/١ .

(٧) العانة : القطيع من الأتُن . الجَبَاب :

حمار الوحش . الصدى : العطش . ومعنى

شكواها العطش بأبصارها أنه قد تبين في أحداقها

فغارت .

العباسي هذا المعنى طويلاً محاولاً الخلوصل إلى بعض الأفكار المستحدثة ، من مثل قول أبي الشيبص مخاطباً أحد ممدوحيه وواصفاً نحول نوقه ونحول راكبيها^(١) :

أَكَلِ الْوَجِيفُ لَحْمَهَا وَلَحْمَهُمْ فَاتُّوكَ أَنْقَاضاً عَلَى أَنْقَاضٍ^(٢)
وَلَقَدْ أَتَنْتَ عَلَى الزَّمَانِ سِوَا خَطَا فَرَجَعْنَ عَنْكَ وَهْنٌ عَنْهُ رَوَاضِي
وتحول الشاعر العباسي في أحيان كثيرة من وصف الصحراء ومسالكها وسمومها وحيوانها إلى وصف الرياض في الحاضرة ومناظرها البهيجة في الربيع ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة أبي تمام في مديح المعتصم التي يستهلها بقوله^(٣) :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمَرُّمُرٌ وَغَدَا الثَّرَى فِي حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ^(٤)
وقد مضى يتحدث في إسهاب عن جمال الطبيعة في الربيع ، وكأنه يتخذ منه رمزاً لعصر المعتصم . واتخذوا أحياناً من وصف السفن ورحلتها في الأنهار صورة مقابلة لرحلة البعير في الصحراء ، مثل قول بشار في إحدى مدائحه للمهدى^(٥) :

وعذراء لا تجرى بلحمٍ ولا دمٍ قَلِيلَةُ شَكْوَى الْأَيْنِ مُلْجَمَةُ الدُّبْرِ^(٦)
إِذَا ظَعْنَتْ فِيهَا الْفُلُولُ تَشْخَصَّتْ بِفُرْسَانِهَا لَا فِي وُعُوثٍ وَلَا وَغْرِ^(٧)
تُلاعِبُ تَيَّارَ الْبَحُورِ وَرَبْعَا رَأَيْتَ نَفُوسَ الْقَوْمِ مِنْ جَرَّيْهَا تَجْرِي
وجعلتهم موجة المحون الحادة في العصر يصفون في مقدمات مدائحهم الخمر أحياناً ، واستهل ذلك بشار ، وتوسع فيه مسلم وأبو نواس وأبو العتاهية سعة شديدة . وعُتُوا على نحو ما عني الشاعر القديم بيتاً الحكم في قصائدهم ، وكان قد ترجم كثير من الحكم الفارسية والهندية واليونانية ، فأفادوا من ذلك كله ونثروه في تضاعيف مدائحهم ، مضيفين إليه كثيراً من تأملاتهم في الحياة والطباع ، من مثل قول أبي تمام في فضل المحسود ونقص الحسود^(٨) :

(٥) أغاني طبعة دار الكتب (٢٤٢/٣) .
(٦) الأين : الإعياء .
(٧) الفلول : الجماعات . ووعوث : جمع وعث وهو المكان السهل .
(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ٤٠٢/١ .
وطبعة بيروت ص ٧٨ .

(١) ابن المعتز ص ٧٦ .
(٢) الوجيف : السير السريع .
(٣) الديوان (طبع دار المعارف) ١٩١/٢ .
وطبعة بيروت ص ١٣٩ .
(٤) تمرر : تموج ليناً ونومة . الثرى : التراب ويريد به النبات . ويتكسر : يتشقق .

وإذا أراد الله نَشَرَ فضيلة طَوَيْتَ أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرَفُ العود ^(١)

وهو كثير الحكم في مدائحه ، وقد صبَّ فيها كثيراً من شكوى الزمن وخطوبه ،
بحيث يعد مقدمة قوية لابن الرومي والمتنبي . وهو يمزج شكواه بمغالبة عاتية للدهر
ونوازه ، وبذلك كانت مدائحه تسكب القوة في نفس كل عربي ، لا بما يصور
من بسالة الأبطال والقواد في الحروب فحسب ، بل أيضاً بما يودعها من فتوة عارمة
على شاكلة قوله ^(٢) :

أعاذلني ما أخشن الليل مركبا وأخشنُ منه في الملمات راكبة ^(٣)
ذريني وأهوال الزمان أفانها فأهو اله العظمى تليها رغائبه ^(٤)
ألم تعلمي أن الزماع على السرى أخو التجع عند النائبات وصاحبه ^(٥)
دعيني على أخلاقي الصم للتي هي الوفرة أو سرب ترن نواديه
فإن الحسام الهندواني إنما خشونته ما لم تفلل مضاربه

وعلى هذا النحو ازدهرت المدحة على لسان الشاعر العباسي لا بما رسم فيها من
مثاليتنا الخلقية وسجل من الأحداث وصور من البطولات العربية فحسب ، بل
أيضاً بما تمثل من العناصر القديمة وأذاع فيها من ملكاته وما أضافه إليها من عناصر
جديدة استمدّها من بيئته الحضارية ومن نفسيته وملكاته العقلية . ودفعتهم دقتهم
الذهنية إلى أن يلائموا بين مدائحهم وممدوحيههم ، فإذا مدحوا الخلفاء نوهوا بتقواهم
وعدلهم في الرعية ، وإذا مدحوا القواد أطلوا في وصف شجاعتهم ، وإذا مدحوا
الوزراء تحدثوا عن حسن سياستهم ، وكذلك صنعوا بالفقهاء والقضاة والمغنين ،
فلكل أوصافه التي تخصه ، وهي أوصاف طلبوا فيها وفي كل مدائحهم الفكر
الدقيق والتعبير الرشيق .

أصعب منه. الفتى من الرجال الصلب .

(٤) أفانها : تفتني وأفنيها .

(٥) الزماع : المضاء في الأمر ، يقول :

من ترك الدعة ورحل في طلب المجد نال طلبته .

(١) العرف : الرائحة والشنى .

(٢) الديوان (طبع دار المعارف) ٢٢٦/١

وطبعة بيروت ص ٤٤ .

(٣) يقول إن السرى في الليل صعب ولكنه

وإذا تركنا المديح إلى الهجاء وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها في المديح الخالص ، إذ كان يتصل بحياة الشعب والعامة اتصالاً لعله أدق من اتصال المديح ، وهي حياة لم يعد أساسها العصبية القبلية كما كان الشأن في العصر الأموي ، ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض لقيامه عليها إلا أسراباً قليلة كانت تظهر من حين إلى حين . ولكن إذا كان هذا الفن ضعف ، فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء ، وقد عمت فيه روح جديدة ، إذ أخذوا يرشونه سهاماً مصمية . ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية في شخص إلا صوروها ، وكأنما يريدون أن يطهروا المجتمع منها ، ولم يتورعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء ، كلما رأوهم ينحرفون عن الجادة على نحو ما هو مشهور عن دعبل . وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح ، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية ، والهجاء يرسم المساوى الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع الرشيد . وقد تبارى الشعراء في رسم معانيه ، تارة يسخرزون وخز الإبر ، وتارة يطعنون طعنات قاتلة ، من ذلك قول بشار في هجاء ابن قزعة بشحه^(١)

فلا تبخلاً بخُل ابن قزعة إنه مخافة أن يُرجى نَداه حزينٌ
إذا جثته للعرَف أغلق بابه فلم تلقه إلا وأنت كمين

وقول أبي تمام مصوراً غير شخص لا في موضع الغيرة من نسائه ، وإنما في الغيرة على طعامه ورُعفانه حتى لكان كسر رغيته كسر عظم من عظامه ، بل لكانه فتك به أشد الفتك ، يقول^(٢) :

صَدَّقْ أَلَيْتَهُ إِنْ قَالَ مُجْتَهِداً لا والرغيفِ ، فذاك البرُّ من قَسَمِهِ^(٣)
قد كان يعجبني لو أَنَّ غَيْرَ تَه على جَرادقه كانت على حُرْمِهِ^(٤)
إِنْ رُمْتَ قَتَلْتَهُ فَافْتِكْ بِخُبْرَتِهِ فَإِنَّ مَوْعِهَا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمِهِ

وأهم ليقة غمس فيها الشعراء هجاءهم ليقة الاستخفاف والتهمين والتحقير ،

(٣) أليته : قسمه وحلفه .

(٤) الجرادق : جمع جرذ وهو الرغيف ، معرب كرده .

(١) ابن المعتز ص ٢٦ .

(٢) الديوان (طبعة بيروت) ص ٤٥٩
وقارن بعيون الأخبار ٣/ ٢٤٦ .

وقد استمد منها حماد عجرد كثيراً حين استطار الهجاء بينه وبين بشار من مثل قوله (١) :

وأعمى يشبه القِرْدَ إذا ما عَمِيَ القِرْدُ
 دَنِيٌّ لَمْ يَرْخُ يوماً إلى مَجْدٍ ولم يَغْدُ
 ولم يَخْضَرْ مع الحُضَا ر في خَيْرٍ ولم يَبْدُ
 ولم يُخْشَ له دَمٌ ولم يُرَجَّ له حَمْدُ

ويقال إن بشارا حين سمع هذه الأبيات بكى من شدة إيلامها لنفسه ، فقال له قائل : أتبكي من هجاء حماد ؟ فقال : والله ما أبكي من هجائه ، ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه ، فيضنني ولا أصفه . وأتاه من باب جديد أهمته به الحضارة وما يأخذ به أهل الحاضرة أنفسهم من النظافة والتعطر ، فوصفه بالقذارة والدنس في أبيات لعلها كانت أشد إيلاما وأوجع وخزا لنفسه من الأبيات السابقة ، إذ يقول (٢) :

نهارُهُ أَخْبْتُ من ليلِهِ
 وليس بالمُقْلَعِ عن غِيَّهِ
 ما خلق الله شبيهاً له
 والله ما الخنزيرُ في نَتْنِهِ
 بل ريحُهُ أطيب من ريحِهِ
 ووجْهُهُ أحسن من وجْهِهِ
 وعودُهُ أَكْرَمُ من عودِهِ
 ويومُهُ أَخْبْتُ من أمْسِهِ
 حتى يوارَى في ثَرَى رَمْسِهِ (٣)
 من جِنَّه طُراً ومن إنْسِهِ
 بِرُبْعِهِ في النَّتْنِ أو خُمْسِهِ
 ومَسَّهُ أَلِينُ من مَسِّهِ
 ونَفْسُهُ أَنْبَلُ من نَفْسِهِ
 وجِنْسُهُ أَكْرَمُ من جِنْسِهِ

يقول الجاحظ : « وأنا - حفظك الله تعالى - أستظرف وضعه الخنزير بهذا

(٣) الرمس : القبر .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٢٩/١٤ .

(٢) الحيوان ٢٤٠/١ وأغاني ٣٣٠/١٤ .

المكان في هذا الموضع حين يقول : (وعُوده أكرم من عوده) وأى عود للخنزير قَبَّحَهُ الله تعالى وقَبَّحَ من يشتهي أكله » . وحماد يضيف إلى قذارة الجسد قذارة الخلق . ومع أن بشارا كان في الذروة الرفيعة من صنع الشعر ونظمه وكان حماد في السفح البعيد فإن حمادا كان يستعلي عليه في الهجاء . ولما أعياه أمره جاءه من باب ضيق ، محاولا أن يضع أغلال أولى الأمر في يديه ، إذ ادَّعى عليه أنه زنديق يؤمن بالهلى النور والظلمة كما يؤمن المجوس قائلًا في أبيات :

يا بن نيهيا رأس على ثَقِيلُ واحتمالُ الرءوس خَطْبُ جَلِيلُ
ادْعُ غَيْرِي إلى عبادة رَبِّي في فاني بواحد مشغولُ

ومكر به حماد فأشاع الأبيات لبشار في الناس وجعل فيها مكان (فاني بواحد مشغول) : (فاني عن واحد مشغول) ليثبت عليه الزندقة والكفر . يقول أبو الفرج : فما زالت الأبيات تدور في أبدى الناس حتى انتهت إلى بشار ، فاضطرب منها وتغيَّر وجَزِع ، وقال : عَرَضَنِي للقتل ، والله ما قلت إلا (فاني بواحد مشغول) فغيرها حتى يشهرني في الناس بما يهلكني ^(١) . وكانا جميعا زنديقين مستترين ، وكأنما خافا أن يفتضحوا ويحاكمهما المهدي . ونرى بشاراً يلطخ بالتهمة زنديقا ثالثا هو عمارة بن حريصة ، وله يقول ^(٢) :

لو كنت زنديقا - عمار - حَبَوْتَنِي أو كنت أعبد غير ربِّ محمدٍ
لكنني وحدثُ ربِّي مخلصاً فجفوتني بُغْضاً لكل موحدٍ

ويكثر في هجاء بشار وغيره هتك الأعراض ، وربما كان لشيوع المجون والفحش أثر في ذلك . وتشيع في كثير من قطع الهجاء روح السخرية المريرة ، وقد تشيع روح الفكاهة المضحكة ، على نحو ما يلقانا في هجاء أبي العتاهية لعبد الله ^(٣) بن معن وقد جعل منه فتاة تنزى لتلفت إليها الرجال . ودفعت بشاراً شعوبيته الذميمة ليهجو العرب بأشعار تُعدُّ وصمة في جبينه . وعلى نحو ما لاءموا بين مدائحهم ومدحويهم لاءموا بين أهاجيهم ومهجوهم ، فإذا كانوا قضاة وصفوهم بالظلم ، وإذا كانوا مغنين وصفوهم برداءة الصوت ودماثة المنظر . ولعل من الطريف

(٣) أغاني ٤ / ٢٢ .

(١) أغاني ١٤ / ٣٢٥ وما بعدها .

(٢) الحيوان ٤ / ٤٤٣ .

أن نجد شاعراً يهجو محمد بن يسير بما يدعى من معرفة السحر والشعبذة والعزائم على الجن والشياطين^(١) .

وظلت للفخر حيويته القديمة ، وإن كان قد ضعف فيه الفخر القبلي ، على أن أسراباً بقيت منه عند نفر من الشعراء ، وفي مقدمتهم أبو نواس إذ كان يتعصب لمواليه من بني سعد العشيرة القحطانيين وينظم في ذلك أشعاراً كثيرة ، ومثله كان دعبل ، وقد رد على مذهب الكمية التي تشيع فيها للزاريين على القحطانيين ردّاً عنيفاً ، مما جعل أبا سعد الخزومي يهاجيه طويلاً^(٢) . وحاول شاعر يسمى ابن قنبر أن يدفع مسلم بن الوليد للاشتباك به في معركة حامية من معارك الهجاء القبلي ، ولكن مسلماً أخرسه^(٣) . وكان بشار يتعصب في عصر بني أمية لمواليه القيسيين تعصباً حاداً ، حتى إذا نجحت الثورة العباسية أظهر ما كان يستره من كره الإسلام والعرب ، وأخذ يعنف بهم عنفاً شديداً ، مصوراً البغض الذي كان يحرق كبده . والجديد حقاً في الفخر لهذا العصر أن كثيراً من الشعراء صدروا في فخرهم عن شعور طاع بالمروءة والكرامة والشيم الرفيعة من مثل قول عوف بن محلم الخزاعي^(٤) :

وإني لذو حِلْمٍ على أن سَوَّرَني إذا هزَّني قومٌ حميتُ بها عِرْضِي^(٥)
وإني لأَجْزِي بالكرامة أهلها وبالحقد حقداً في الشدائد والخفْضِ
وقول بكر بن النطاح^(٦) :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعْشُ بِحَسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلُ
وَلَمَّا لَنَلْهُو بِالسَّيُوفِ كَمَا لَهَتْ فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أَوْ سِخَابٍ قَرَنْفُلٍ^(٧)

ونشط الشعراء في الرثاء نشاطاً واسعاً ، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا وأبْنُوهُ تأبيناً رائعاً ، وقد صَوَّرُوا في القواد بطولاتهم ومحنة الأمة والجيش في وفاتهم ، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعا . وحقاً رثاؤهم لم يفرض بالحزن

(٤) ابن المعتز ص ١٩٢ .

(٥) السورة : السطوة وشدة الغضب .

(٦) أغاني (طبعة الساسي) ١٧/١٥٥ .

(٧) السخاب : قلادة ، وعادة تكون من القرنفل وبعض الطيب .

(١) الحيوان ٢٣٢/٦ .

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ٢٩/١٨ .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٦٢/١٤ .

وانظر ترجمة أبي الفرج لمسلم الملحقة بديوانه ص ٣٨٣ وما بعدها .

واللوعة ، ولكنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد بطولتهم تمجيداً يضرم الحمية في نفوس الشباب للدفاع عن العرين حتى الموت ، دفاعاً يقوم على البأس والبسالة والاستطالة . وكان يحدث أن يخزّ بطل صريعاً في بعض الميادين ، حينئذ ينظم فيه الشعراء مرثى حماسية تؤجج لهيب الحفيظة في القلوب وتدفع إلى الاستشهاد تحت ظلال الرماح ذباً عن حرّات الوطن ، ومن خير ما يمثل ذلك مرثى أبي تمام في محمد بن حُمَيْد الطوسي الطائي ، فإنه أوقع ببابك وجنوده لعهد المأمون وقائع ملأته هو وعسكره فزعاً ورعباً ، ولكن حدث في آخر وقعة أن اندفع ابن حميد في مضيق حرج ، والتف به جنود بابك ، فظل قائماً يدافعهم ويقاومهم لا يتزعزع عن موضعه ، حتى إذا أحيط به لم يستسلم ولم يلق السلاح ، بل قاتل حتى قُتل عزيزاً كريماً . وحزنت الأمة حزناً عميقاً لموته ، وانبرى أبو تمام يرثيه مرثى رائعة تصور جلده في القتال وصبره في النضال حتى الموت الزؤام ، على نحو ما يلقانا في مرثيته العينية ، التي استهلها استهلالاتاً بديعاً بقوله (١) :

أصم بك الناعي وإن كان أشمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا (٢)
وفيها يقول :

فتى كلما ارتاد الشجاع من الردى مقرأ غداة المأزق ارتاد مصرعا (٣)
فإن ترم عن عمر تداني به المدى فخانك حتى لم تجد فيه منزعا (٤)
فما كنت إلا السيف لاقى ضريبة فقطعها ثم انثنى فتقطعا (٥)

ومن الأبطال الذين بكاهم الشعراء منصور بن زياد ، وقد أبلى لعهد الرشيد في القضاء على ثورة بالقيروان ، ووافاه القدر ، فرثاه عبد الله بن أيوب التميمي بقصيدة بديعة يقول في تضاعيفها (٦) :

أما القبور فإنهن أوانيس بجوار قبرك والديار قبور

والتشبيه واضح .
(٥) الضريبة : الرجل المضروب بالسيف
(٦) ديوان الحماسة بشرح المرزوق (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٩٥٠ .

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٣٥ .
(٢) المغنى : المنزل . البلقع : الحال .
(٣) ارتاد : طلب . الردى : الموت .
(٤) المنزع : مكان نزع السهام من القوس

والناس ماتمهم عليه واحدٌ في كل دارٍ رنةٌ وزفيرٌ
عجبا لأربع أذرعٍ في خمسةٍ في جوفها جبلٌ أشمٌ كبيرٌ
ولعل بطلا لم تُدْرِفْ دموع الشعراء عليه كما ذُرِفَتْ على يزيد بن يزيد الذى
فتك بخوارج الموصل فتكة لم تقم لهم بعدها قائمة ، وسنلتنى فى تراجم الشعر بمراث له
مختلفة ، وفى تأيينه يقول منصور النعمري (١) :

وإن تَكُ أفنته الليالى وأوشكتُ فإن له ذكراً سيفنى الليالى
وواضح ما فى هذه الأشعار من دقة التفكير وبعد الخيال ، ويلقانا ذلك دائماً
فى تأييناتهم ، إذ كانوا يتنافسون فى استنباط المعانى النادرة ، ومن طريف ما لمسلم
ابن الوليد من هذه المعانى قوله فى رثاء شخص (٢) :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيبُ تراب القبر دلاً على القبر
وكان الشاعر القديم كثيراً ما يفزع إلى العزاء بالأمم السالفة والقرون الخالية وأن
الموت كأس دائر يتجرع غصصه جميع الناس ، فردّد ذلك الشاعر العباسى فى
مراثيه ، وأخذ يضيف إليه من فكره الخصب تأملات فى حقائق الموت وسنن الوجود ،
من مثل قول ابن منذر فى تأيين عبد المجيد الثقفى (٣) :

كل حَيٍّ لاقى الحِمَامَ فمُودَى مالحى مؤمِّلٌ من خلود (٤)
لا تهاب المَنون شيئاً ولا تَرَى عَى على والدٍ ولا مولود (٥)
يَقْدَحُ الدَّهرُ فى شماريخ رَضوى ويحطُّ الصَّخورَ من هَبود (٦)
ولقد تترك الحوادث والآيا مٌ وهياً فى الصخرة الجلمود (٧)
يفعل الله ما يشاء فيمضى ما لفعل الإله من مردود (٨)
فكأننا للموت رَكَبٌ مُحِثُّون سراعٌ لمنهلٍ مورود

(١) العقد الفريد ٢٨٧/٣ . وشاربخه : أعاليه .

(٢) الديوان ص ٣٢٠ .

(٣) ابن المنز ص ١٢٢ .

(٤) الحِمَام : الموت . مودى : ميت .

(٥) المَنون : الموت .

هبود : موضع .

(٧) وهيا : شقياً .

(٨) محثون : مسرعون .

وشاع في العصر بكاء الرفقاء والأصدقاء ، بكاءً يفجر الحزن في النفس ، لما
يصور من شقاء الأصدقاء بموت رفاقهم وكيف يصطلون بنار الفراق المحرقة ، من مثل
قول بشار في ندب أحد أصدقائه من الزنادقة (١) :

أشربُ على تَلَفِ الأَحِبَّةِ إِنِّنا جُرُّرُ المنية ظاعنين وخَفَضًا (٢)
ويلي عليه وويلتي من بَيْنِهِ كان المحبُّ وكنت حِبًّا فانقضى
قد ذقتُ أَلْفَتَهُ وذقتُ فراقه فوجدتُ ذا عَسَلًا وذا جَمَرَ الغُضَا (٣)

وكان لإخوتهم وأبنائهم يموتون تحت أعينهم ، فتدور بهم الأرض ويكون
بدموع غزار ، وينفسون عن أنفسهم بأبيات تصور الحزن المقيم في قلوبهم لا
يبرح ، من مثل قول العُتْبِي في ابن له اختطفه الموت بعد أبناء آخرين ، وقد
مات في ريعان شبابه (٤) :

وقاسمني دهرى بَنَى بِشَطْرِهِ فلما تقضى شطره عاث في شَطْرِي (٥)
ألا ليت أُمى لم تَلِدْنِي وليتني سبقتك إذ كنا إلى غايَةٍ نَجْرِي
وكنت به أَكُنِّي فأصبحت كلما كُنيت به فاضت دموعي على نَجْرِي

وعلى نحو ما تفجعوا على أبنائهم وإخوتهم تفجعوا على زوجاتهم تفجعاً كله
عطف وبر ورحمة ، ولابن الزيات مراث مختلفة لزوجته ، توضح من بعض الوجوه
ثراء الفكر العباسي بالخواطر وقدرته على تحليلها وتمثيل أحزانه وحُزْنِ طِفْلِهِ الذي
افتقد عَطْفَ الأم وحنانها ، من مثل قوله (٦) :

ألا مَنْ رَأَى الطِفْلَ المَفارِقَ أُمَّهُ بُعِيدَ الكَرَى عيناه تَبْتَدِرَانِ (٧)

(٥) يريد أن الدهر قاسمه بنيه إذ أخذ نصفهم
وأبقى له نصفاً ثم عاد يميث في نصفه ونصيبه .

(٦) ديوان ابن الزيات (نشر جميل سعيد
بمطبعة نهضة مصر بالقاهرة) ص ٦٧ وانظر
العمدة لابن رشيق ١٢٥/٢ .

(٧) الكرى : النوم . تبتدران : تسحان
وتهملان بالدموع .

(١) المختار من شعر بشار للخالدين (طبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥ .

(٢) جزر : جمع جزور وهو البعير الذبيح .
ظاعنين : سائرين . خفضاً : جمع خافض
وهو المقيم .

(٣) الغضا : من شجر البادية .

(٤) الحماسة بشرح المرزوق ص ١٠٧١
وانظر زهر الآداب ٢/١٢٢ .

رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَابْنَهَا غَيْرَ أُمٍّ يَبِيتَانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيَانِ
وَبَاتَ وَحِيداً فِي الْفِرَاشِ تُجِنُّهُ بِلَابِلُ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ^(١)
فَلَا تَلْحِيَانِي إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَا أَدَاوِي هَذَا الدَّمْعَ مَا تَرِيَانِ^(٢)
وَهَبْنِي عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنِّي جَلِيدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لَابِنِ ثِمَانِ
ضَعِيفُ الْقُوَى لَا يَطْلُبُ الْأَجْرَ حِسْبَةً وَلَا يَأْتِسِي بِالنَّاسِ فِي الْحَدَثَانِ^(٣)

وظلت المآتم قائمة على قتلى الشيعة في العصر والعصور السابقة منذ قتل علي بن أبي طالب ، فهم ينوحون عليهم نواحاً حاراً ، ودموعهم لا ترقأ ولا تجف ، وسنعرض لذلك في الفصل السادس . وبكى الشعراء البرامكة طويلاً حين نكبتهم الرشيد ، من مثل قول سلم الخاسر^(٤) :

خَوْتُ أَنْجُمُ الْجَدَوَى وَشَلَّتْ يَدُ النَّدَى وَغَاضَتْ بِحَارُ الْجُودِ بَعْدَ الْبِرَامِكِ^(٥)
هَوْتُ أَنْجُمٌ كَانَتْ لِأَبْنَاءِ بَرَمَكٍ بِهَا يَعْرِفُ الْحَادِي طَرِيقَ الْمَسَالِكِ
وظهرت ضروب جديدة في الرثاء لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، من ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق ، وكان الجيش الذي أحاط ببغداد قبل مقتل الأمين رماها بالهجانق فاندلعت فيها النيران واحترقت بعض الأحياء ، وعم فيها نهب الأموال وقتل الأبرياء ، مما جعل كثيرين من الشعراء يبكونها وقد غمرهم الحزن والأسى ، من مثل قول بعضهم^(٦) :

أَلَا ابْنُكَ لِإِخْرَاقٍ وَهَدَمِ مَنَازِلِ وَقَتْلٍ وَإِنْهَابِ اللَّهِى وَالذَّخَائِرِ^(٧)
وَلِإِبْرَازِ رِبَّاتِ الْخُدُورِ حَوَاسِرَا خَرَجْنَ بِلَا خُمْرٍ وَلَا بِمَآزِرِ
كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَغْدَادُ أَحْسَنَ مَنَظَرَا وَمَلْهُى رَأَتْهُ عَيْنُ لَاهٍ وَنَاطِرِ
ومن ضروب الرثاء الجديدة مرأى الطير الصادح من مثل القُمْسَرَى والحَيَوَانَاتِ

(١) تجنه : تلفه وتشمل عليه .

(٢) لاتلحياني : لاتلومياني .

(٣) حبة الأجر : احتساب الثواب عند

الله بالصبر على نزول الموت . الحدثنان : نواب

الدهر .

(٤) مروج الذهب للمسعودي (طبعة مصر)

. ٢٩٦/٣

(٥) خوت : سقطت وخرت . الجدوى :

المطاء . الندى : الكرم .

(٦) مروج الذهب ٣/٣١٣ .

(٧) اللهى والذخائر : الأموال .

المستأنسة ، وقد جعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف كاتب المأمون ذلك وَكَدَه ، كما يقول أبو الفرج ^(١) الأصبهاني ، فاستغرق أكثر شعره فيه ، من مثل قوله يرثي شاة :

عَيْنُ ابْنِكِي لِعَنْزَنَا السُّودَاءَ كَالْعُرُوسِ الْأَدْمَاءِ يَوْمَ الْجَلَاءِ ^(٢)
 وكان لابن الزيات فرس أشهب لم يُرَ مثله فراهة وحسناً ، فوصفت للمعتصم فراهته ، فطلبه منه ، فلم يستطع رد طلبه ، حتى إذا بان عنه رثاه بقصيدة طويلة يقول فيها ^(٣) :

كيف العزاء وقد مضى لسبيله عَنَا فودّعنا الأَحْمَ الأَشْهَبُ ^(٤)
 منع الرقادَ جَوَى تَضَمَّنَه الحشأَ وَهَوَى أَكَابِدَه وَهَمٌ مُنْصِبُ ^(٥)
 ومن المراثي الجديدة الموضوع مرثية ^(٦) محمد بن يسير لبستان له عاثت فيه شاة أفلتت لأحد جيرانه ، ودخلت البيت ، فعاثت ببعض صحفه وقراطيسه ، وفيها يَسْنُدُ روعة هذا البستان قبل أن تعث به ضارِعاً إلى ربه بالشكوى من هذه الشاة وأن يَسْزِلَ بها عقاب أليم .

وقد أكثر الشعراء في العصر من العتاب والاعتذار متخذين لهما مسالك دقيقة تدل أوضح الدلالة على رهاقة الحس ونخصب الذهن من مثل قول أبي دلف معاتباً ^(٧) :
 وَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً إِلَى بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ
 وقول أبي تمام ^(٨) :

لئن كنت أخطو ساحة المَحَلِّ إِنْنِي لَأَتْرُكُ رَوْضاً مِنْ جَدَاكَ وَجَدُولاً ^(٩)
 وستلقانا في تراجمهم معاتبات كثيرة بين الأصدقاء ، تعبر عن عواطف

(٦) انظر الأغاني (طبعة دار الكتب)
 ٢٠/١٤ وما بعدها . وانظر مرثيته للوح أبونوس
 في الأغاني ٤٧/١٤ .
 (٧) العقد الفريد ١٦٥/٢ .
 (٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١٠٨/٣ .
 (٩) المحل : الجذب . الجدا : العطاء .

(١) أغاني (طبع السامي) ٥٦/٢٠ وانظر
 الأوراق للتصويل (أخبار الشعراء) ص ١٦٣ .
 (٢) الأدماء : السوداء .
 (٣) ديوان ابن الزيات ص ٦ .
 (٤) الأحم : الأسود ، الأشهب : من الشبهة
 وهي سواد يصدعه بياض .
 (٥) الجوى : حرقه الهوى . منصب : متمب .

الصداقة الدقيقة ، وقد تفننوا في صور اعتذاراتهم مستوحين قدرتهم العقلية في الحجاج والمنطق ، من مثل قول إبراهيم بن سيابة يعتذر للفضل بن الربيع ، وكان قد سخط عليه سخطاً شديداً^(١) :

إن كان جرئى قد أحاط بحرمتى فأحطَ بجُرئى عَفْوِكَ المأمولا
فكم ارتجيتك في التي لا يُرتجى في مثلها أحدٌ فَنِلْتُ السُّولا^(٢)
وضللتُ عنك فلم أجد لي مذهبا ووجدت حلمك لي عليك دليلا
هَبْنِي أَسَاتُ - وما أَسَاتُ - أُفِرُّكى يزداد عَفْوُكَ بعد طَوْلِكَ طُولا^(٣)
فالعفو أجملُ والتفضل بامرئٍ لم يَعْدِمَ الراجون منه جميلا

وواضح أن هذا الاعتذار مكتوب بأقيسة منطقية سديدة .

ولعل الشاعر العباسي لم يُعْنِ بموضوع قديم كما عُنِيَ بالغزل وتصوير عاطفة الحب الإنسانية التي كانت تخفق بأغانيها صباح مساء العبدان والطناير والدفوف والمعازف من كل شكل مختلطة بأصوات المغنيات والمغنين على جميع صور الإيقاعات من الشدة واللين . وكانت المغنيات خاصة أو بعبارة أخرى القيان يعبثن بقلبه هن ومن حولهن من الجوارى والإماء ، وكان يتصل بهن اتصالا غير مقطوع على نحو ما أسلفنا في الفصل الثاني ، وكل منهن تود لو استحوذت على شاعر ، وبادلته حباً بحب وهياماً بهيام . وكاد أن يكون لكل شاعر طائفة من الجوارى يحففن به ، وكان منهن كثيرات يحسنن نظم الشعر ، فكن يكتبن أبيات الغزل المثيرة على عصائبهن وثيابهن ، وقد يطارحن بعض الشعراء أبيات العشق والصبابة ، على نحو ما صورنا من ذلك في غير هذا الموضع .

ومن المحقق أن هؤلاء الجوارى والقيان هن اللاتي دفعن المجتمع العباسي في بعض جوانبه إلى الفساد الخلقي ، إذ كن يَعِشْنَ في بيوت النخاسة ، وكانت دوراً كبيرة للعبث واللهو ، ولم يكن يستمعن فيها إلى ما يعدل بهن إلى السيرة السوية ، إنما كن يستمعن إلى أحاديث العشق والصبوة ، ومن حولهن الشياطين الذين يستهينون

وخففت الهمة للشعر .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٩١/١٢ .

(٢) السؤل : السؤل ، وهو ما يسأله ،

(٣) الطول بفتح الطاء : الفضل ..

بكل شيء ، بل كان منهم من ينكر أصول الدين إنكاراً غارقاً في اللذة والمجون من أمثال بشار وأبي نواس . فطبيعي أن تسوء سيرتهم ، أو على الأقل سيرة طائفة منهم ، وأن يفتح ذلك الأبواب للغزل الإباحي الذي يدفع إليه الجشع الجسدي والذي لا يدع فارقاً بين الإنسان والحيوان ، وهو غزل لم يكن يعرفه العرب في العصور الماضية ، عصور الوقار والارتفاع عن أدرك الغرائز النوعية . حقاً عرفوا الغزل الصريح ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين في الصراحة وما وراء الصراحة من الجهر بالفسوق والإثم دون رادع من خلق أو زاجر من دين .

لذلك كان طبيعياً أن يشيع الغزل الماجن في هذا العصر ، وبلغ من حدته أن شاع الغزل الشاذ بالعلمان ، فحتى هذا الغزل المزرى بكرامة الرجل دار على كثير من الألسنة الدنسة . وقد استطاع تراث الغزل القديم أن يكبح جماح هذه الموجة المادية الحادة من بعض الوجوه ، فإن هؤلاء الشعراء الماجنين كانوا يستظهرونه ويتلونونه ، وكانوا يرون فيه إكبار الرجل للمرأة وإعزازها ، بل كانوا يرون فيه حباً عذرياً عفيفاً ، كله تحفظ واحتشام ، وكله عذاب وآلام . فزجوا ذلك بنداءات غرائزهم الجسدية . وأيضاً فإنه كان قد تُرجم — على ما يظهر — شيء من الحب الأفلاطوني اليوناني ، وأخذ مفكرو العرب ومتفلسفتهم يتحدثون عن العشق أحاديث فيها كثير من السمو والسعة والعمق ، على نحو ما يلقانا عند المسعودي ، إذ أورد مجلساً ليحيى البرمكي تناظر فيه نفر من المعتزلة والمتكلمين وبعض أهل الملل والنحل في العشق وحقائقه وظواهره وعذابه وحرارته ولطافته صاحبه ورقته ورهافة شعوره^(١) ، وهو حديث أوهى مناظرة دارت كلها حول العشق العفيف الطاهر الذي يستأثر بالقلوب ويملك عليها أهواءها وعواطفها ومشاعرها . وفي رأينا أن هذه المناظرة ترمز بوضوح إلى ما كان في أيدى الشعراء من كلام عن الحب النقي البريء بالإضافة إلى ما ورثوه عن أسلافهم وخاصة شعراء نجد العذريين من الحب السامي الذي يوقد في القلوب جذوة لا تنطفئ والذي يدلغ فيها جحياً من العذاب لا يطاق . وكل ذلك سرى في نفوس الغزلين الماجنين من العباسيين ، ومضوا يضيفون إليه من خواطرهم الثرية الخصبية ما أذكى جذوته ، ومن أجل ذلك كنت تقرأ عند بشار وأبي نواس وغيرهما

من الحجان قطعاً من الحب الأفلاطوني أو قل من الحب العفيف البريء الذي يرتفع
عن المادة والحس من مثل قول أولهما (١) :

دَعَا بفراق مَنْ تَهَوَّى أَبَانُ ففاض الدَّمْعُ واحترق الجَنَانُ
كَأَنَّ شرارةً وقعتْ بقلبي لها في مقلتي ودمي اسْتِنَانُ (٢)
إِذَا أَنشدْتُ أَوْ نَسَمْتُ عليها رِيحُ الصَّيْفِ هاجَ لها دُخَانُ

على أنه سرعان ما ظهر شاعر تخصص بالغزل العفيف واشتهر به هو العباس
ابن الأحنف ، وسنفرد له في الفصل السادس ترجمة خاصة . وكانوا في غزلهم العفيف
والصريح الماजन يحرصون دائماً على أن يملأوا معاصريهم إعجاباً بدقائق معانيهم
وطرائف أخيلتهم ، من مثل قول بشار (٣) :

أَتَتْنِي الشَّمْسُ زَائِرَةً وَلَمْ تَكْ تَبْرَحِ الْفَلَكَاءِ
وقول أبي نواس (٤) :

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَتْ نَ مِنْ أَزْوَارِهِ قَمَرًا
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا
بَعِثْنِي خَالِطَ التَّفَةِ يَرُ مِنْ أَجْفَانِهَا الْحَوْرَا
وَحَدَّ سَابِرِي لَوْ تَصَوَّبَ مَأْوُهُ قَطْرًا

وقول مسلم بن الوليد (٥) :

أَقِرُّ بِالذَّنْبِ مِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُهُ كَيْفَا أَقُولُ كَمَا قَالَتْ فَتَتَفَقُّ
حَبِسْتُ دَمْعِي عَلَى ذَنْبٍ تَجَدَّدَهُ فَكُلَّ يَوْمَ دَمَوْعُ الْعَيْنِ تَسْتَبِقُ

وقد اتسعت موجة المحجون كما مرَّ بنا ، واتسع معها وصف الخمر ، وكان القدماء
يصفونها على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدى بن زيد العبادي ، وأخذ

(٤) الديوان (طبعة آصاف) ص ١٦٥ .

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٩ .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٠٦/٣ .

(٢) استنآن : جرى شديد .

(٣) المختار من شعر بشار للخالدين ص ٦٤ .

وصفها يكثر في أواخر عصر بني أمية عند الوليد بن يزيد وأبي الهندي وأضرابهما . ونرى مجالسها ، منذ مطالع هذا العصر ، معقودة في البصرة والكوفة ، حتى إذا قامت بغداد نافستهما في تلك المجالس . وكانت تنبث حاناتها في الكرخ ببغداد وغير الكرخ وفيما وراءه من دور النخاسة والأديرة المنشورة في ضواحي الكوفة وعلى الطريق منها ومن البصرة إلى بغداد ، فأمتها جميعاً بمجان الشعراء هم وغيرهم من عامة الفساق ، وكانوا أخلاقاً ، منهم الزنديق الثائر على الإسلام وتعاليمه ، ومنهم الحزبن الذي لم تحقق له الدولة أحلامه ، فأكبَّ على الخمر يغرق فيها آلامه ، ومنهم المجوسى والدهرى الذى لا يؤمن بأى كتاب سماوى . وقد مضوا جميعاً يعبئون من الخمر حتى الثمالة ، وتلقانا منهم منذ أوائل العصر جماعات ألف المجون والعشق والفسق الآثم بينهم مثل جماعة مطيع بن إياس ووالبة وحماة وعجرد ويحيى بن زياد الحارثى في الكوفة وكانوا يعبئون الخمر أربالاً ويتغزلون الغزل المكشوف المالحن بالجوارى والغزل الشاذ الدنس بالغلمان ، متحررين من كل خلق وعرف ودين ، وفى ذلك يقول مطيع^(١) :

اخْلَعْ عِذارَكَ فى الهَوَى واشربْ مَعْتَقَةَ الدَّنانِ
وَصِلْ القَبِيحَ مجاهراً فَالْعَيْشُ فى وَصْلِ القِيانِ
لا يُلْهِينَكَ غير ما تَهْوَى فَإِنَّ العُمَرَ فانِ

وتبلغ حدة هذه الموجة غايتها في عهد الأمين ، إذ حوّل قصر الخلافة إلى ما يشبه مقصفاً للخمر والمجون ، واتخذ أبا نواس نديمه ، وكان يعكف على الخمر والمجون عكوفاً يقترن بعجيج وضجيج وهجوم على مقدمة الأطلال القديمة طالباً إلى الشعراء أن يضعوا مكانها وصف الخمر المعتقة ، صائحاً بذلك صياحا كثيراً من مثل قوله^(٢) :

قُلْ لمن يبكى على رَسْمٍ دَرَسَ واقفاً ما ضرَّ لو كان جَلَسَ^(٣)
تصفِ الرُّبْعَ وَمَنْ كان بِهِ مثل سَلَمَى ولُبَيْسَى وخَنَسَ^(٤)

(١) الديارات للشابثى ص ١٦٦ .
(٢) الديوان (طبعة آصاف) ص ٢٩٩ .
(٣) درس : انمى .
(٤) لبني : تصغير لبني . وخنس : الخنساء .

اترك الربيع وسلمى جانباً واضطرب كرخية مثل القبس^(١)
وتردد مع هذا الصباح في خمرياته مجاهرة بأنه يقترب ما يقترب من آثامه
دون تفكير في جنة أو نار ، ولكن من الحق أنه لم يكن زنديقاً ولا شعوبياً ، إنما
كان متحلل الأخلاق ساقط المروة ، وأكبر الظن أنه اندفع في مجونه هروباً من
واقع نشأته وواقع أمه على نحو ما سنوضح ذلك في ترجمته ، وكأنه يريد أن ينسى
ماضيه وذكرياته السيئة .

وقد انتشر في العصر شعر الزهد ، وكان أكثر اتصالاً بحياة الجماهير من شعر
الخمير والمجون ، فإنها لم تكن تعرف ترفاً ولا ما يشبه الترف ، وكانت تعيش حياة
دينية مستقيمة يشيع في بعض جوانبها النسك والعبادة . وإذا كان كتاب الأغاني
يفيض بالمجون فإن كتب الطبقات التي ترجمت للفقهاء والمحدثين تفيض بأخبار
العباد والزهاد الذين رفضوا الدنيا وشهواتها وملأوها وآثروا ما يبقى على ما يفنى ،
ممسكين أيديهم عن أخذ عطاء أو مال من خليفة أو وال . ويشيع مع هذه
الأخبار كثير من الأشعار التي تصور زهد هؤلاء الناسكين وانصرافهم عن متاع
الدنيا الزائل والإقبال على الآخرة بالتقوى والتوكل على الله والعمل الصالح . وقد
تبعهم كثير من الشعراء يردون نفس النغم ، حتى شعراء المجون أنفسهم فإن منهم
من كان يثوب إلى نفسه فيعاف ما تردى فيه من فسق ومجون ، وحينئذ إما أن يقلع
عن غيه إلى الأبد على نحو ما أفعل محمد بن حازم الباهلي^(٢) ، وإما أن يقلع إلى
حين يطول أو يقصر على نحو ما يلقانا عند أبي نواس مما جعل ديوانه يشتمل على
مثل قوله^(٣) :

ألا ربَّ وجهٍ في التراب عتيق وياربَّ حُسنٍ في التراب رقيق^(٤)
فقل لقريب الدار إنك راحلٌ إلى منزلٍ نائي المحلٍ سحيق
وما الناس إلا هالكٌ وابن هالكٍ وذو نسبٍ في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبیبٌ تكشفت له عن عدوٍّ في ثياب صديق

(١) كرخية : خمرًا منسوبة إلى الكرخ صاحبة
الملكى ببغداد .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠٥/١٤

وما بعدها .

(٣) الديوان ص ٢٩٩ .

(٤) عتيق : جميل .

وإذا كان أبو نواس شُغل في زهدياته بمصير الإنسان فإن ابن حازم ، وغيره كثيرون ، شغلوا بالدعوة إلى القناعة بالكفاف والرضا بالخط المقسوم والغنى عما في أيدي الناس والحكام من مثل قوله ^(١) :

أَضْرَعُ إِلَى اللَّهِ لَا تَضْرَعُ إِلَى النَّاسِ واقْنَعْ بِيَأْسٍ فَإِنَّ الْعِزَّ فِي الْيَأْسِ
وَأَسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ إِنَّ الْغِنَى مِنْ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ
وأخذت تظهر حينئذ تباشير التصوف ، غير أنه لا يزدهر في هذا العصر ، إنما يزدهر في تاليه ، وسنعرض لتلك التباشير في الفصل السادس ، وأيضاً سنعود إلى الحديث عن الزهد حديثاً أكثر تفصيلاً .

٤

موضوعات جديدة

رأينا موضوعات الشعر القديمة تتجدد تجدداً واسعاً في معانيها ، فقد أخذت تُعَرَّضُ بصورة أدق وأعمق ، وأخذت تدخل عليها إضافات كثيرة . ولم يقف الشاعر العباسي عند ذلك فقد أخذ ينمى بعض جوانب هذا الشعر حتى لتخرج منه فروع جديدة كثيرة . ونحن نعرضها بترتيب الموضوعات التي تحدثنا عنها ، وأولها مثالية الشيم العربية الرفيعة التي كان يصف بها الشعراء بمجدوحيم ، فقد تناولوا هذه الشيم شيمة شيمة ، وأخذوا يفردون بها بمقطوعات أو قصائد ، يجردونها لها محللين ، ومفكرين ملاحظين ، فقطعة في تصوير الكرم ، وقطعة في تصوير الحلم ، وقطعة في تصوير الحياء ، وقطعة في تصوير العفة ، وقطعة في تصوير الصبر والتنفير من اليأس من مثل قول محمد بن يسير : ^(٢)

لَا تَيَأْسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالِبَةٌ إِذَا اسْتَعْنَتْ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرْجًا
إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا انْسَدَّتْ مَسَالِكُهَا فَالصَّبْرُ يَفْتَحُ مِنْهَا كُلَّ مَا ارْتَجَا ^(٣)

حازم . انظر ص ٣٠٩ .
(٣) ارتج : أغلق .

(١) العقد الفريد ٢٠٧/٣ .
(٢) أغاني ٤٢/١٤ وقد نسبها ابن المعتز لابن

أَخْلَقَ بَذَى الصَّبْرِ أَنْ يَحْطَى بِحَاجَتِهِ ومَدَمَنْ الْقَرْعَ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا^(١)
فَاطْلُبْ لِرَجْلِكَ قَبْلَ الْخَطْوِ مَوْضِعَهَا فَمَنْ عَلَا زَلْقًا عَنْ غِرَّةٍ زَلَجًا^(٢)

وهيأ ذلك لفتح باب واسع من تحليل الأخلاق المحمودة . وأيضاً فإنهم وسعوا معاني الهجاء وما فيه من أخلاق مذمومة ، فتناولوها هي الأخرى بالبسط والتفصيل منفصلة عن أشعار الهجاء . وبذلك أتاحوا للمربين والمعلمين مادة طريقة لتأديب الناشئة وحثهم على الأخلاق الفاضلة وصددهم عن الأخلاق المذمومة . وقد وقفوا طويلاً عند واجبات الأخوة والصداقة واختيار الإخوان والأصدقاء وسبّر أخلاقهم قبل اصطفايهم فهم عاين طبعات منهم من يشبه الدواء ومنهم من يشبه الداء ، ومنهم المتصنع الملق الذي يشبه الثمرة المرة حسنة المنظر ، فإن نزل بك سوء فر منك وأزور عنك ، وفي ذلك يقول حماد عجرد^(٣) :

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَسْتَ تَنْكُرُهُ مَا دَمْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي يُسْرِ
مَتَصَنِّعٌ لَكَ فِي مَوَدَّتِهِ يَلْقَاكَ بِالترْحِيبِ وَالْبِشْرِ
يُطْرِي الْوَفَاءَ وَذَا الْوَفَاءَ وَيَذُ حَى الْغَدْرُ مَجْتَهِدًا وَذَا الْغَدْرُ^(٤)
فَإِذَا عَدَا - وَالْدَّهْرُ ذُو غَيْرٍ - ذَهَرُ عَلَيْكَ عَدَاً مَعَ الدَّهْرِ^(٥)
فَارْقُضْ بِإِجْمَالٍ مَوَدَّةً مِنْ يَقْلِي الْمُقِيلُ وَيَعْشَقُ الْمُشْرِى^(٦)
وَعَلَيْكَ مَنْ حَالَاهُ وَاحِدَةٌ فِي الْعُسْرِ إِمَّا كُنْتَ وَالْيُسْرِ
لَا تَخْلُطُنَّهُمْ بِغَيْرِهِمْ مِنْ يَخْلُطُ الْعَقِيَانِ بِالْصُّفْرِ^(٧)

وحمد يجعل مقياس الأخوة الصادقة المواصلة في العسر ، ويعرض علينا صورة الإخاء الكاذب الذى لا يعرف الأخ فيه أخاه إلا فى السراء ، أما فى الضراء فيزور عنه ازواراً . وجعلهم تفكيرهم فى الأخوة ينهون عن صحبة الحمقى لما تجرُّ من بلاء كثير ،

(٥) عدا الأولى من العدا والثانية من العدو أى جرى .

(٦) بإجمال : بأدب . يقل : يكره .

(٧) العقيان : الذهب . الصفر : النحاس .

(١) يلج : يدخل .

(٢) زلقاً : مكاناً زلقاً . غرة غفلة

زليج : زلق وزل .

(٣) ابن المعتز ٦٨ وأغانى ١٤ / ٣٥٩ .

(٤) يطرى : يلمح . يلحى : يذم .

وفي ذلك يقول أبو العتاهية: (١)

أخْذِرِ الْأَحْمَقَ أَنْ تَصْجِبَهُ إِنَّمَا الْأَحْمَقُ كَالثُوبِ الْخَلَقُ (٢)
كَلِمَا رَقَعْتَهُ مِنْ جَانِبٍ زَعَزَعْتَهُ الرِّيحُ يَوْمًا فَانْخَرَقَ
أَوْ كَصَدْعٍ - فِي زَجَاجٍ - فَاحْشٍ هَلْ تَرَى صَدْعَ زَجَاجٍ يَلْتَصِقُ
فَإِذَا عَاتَبْتَهُ كَيْ يَرْعَوِي زَادَ شَرًّا وَتَمَادَى فِي الْحُمُقِ

وكان الشاعر القديم كما أسلفنا يقدم لمدحته بوصف الأطلال معبراً عن حنين قوى للملاعب حبه في صباه وشبابه ، مستطرداً من ذلك إلى وصف الصحراء ، وقد صورنا ما حدث من إضافات في هذه المقدمات ، والمسألة تتسع ، فإذا هي توحى للشاعر العباسي بمقطوعات أو قصائد مستقلة وكأنه اتخذ منها نوافذ لموضوعات جديدة ، وهي موضوعات نجد بذورها في مدائحه ، فقد ذكرنا أنه عدل أحياناً عن وصف الأطلال إلى وصف القصور ، ولكن الذي نسجله هنا أنه ترك أطلال نجد إلى أطلال بعض القصور في الحاضرة وخصها بمقطوعات مفردة من مثل قول محمد ابن يسير في قصر خرب (٣) :

أَلَا يَا قَصْرُ قَصْرَ النُّوشَجَانِي أَرَى بِكَ بَعْدَ أَهْلِكَ مَا شَجَانِي (٤)
فَلَوْ أَغْنَى الْبَلَاءُ دِيَارَ قَوْمٍ لِفَضْلٍ مِنْهُمْ وَلِعُظْمِ شَانِي
لَمَا كَانَتْ تُرَى بِكَ بَيِّنَاتٍ تَلُوحُ عَلَيْكَ آثَارُ الزَّمَانِ

وهذا الموضوع الحديد هو الذي ألهم البحترى فيما بعد سينيته المشهورة في إيوان كسرى . وقد دفع الحنين الذي صحب وصف الأطلال الشاعر العباسي في بعض مدائحه إلى بَسْ حنين مقابل لوطنه وبلده حين ينأى عنه وتظل روحه ملتصقة به ، ولكن الحديد أنه أفرد لهذا الحنين قطعاً بديعاً من مثل قول دعبيل (٥) :

أَلَمْ يَأْنِ لِلسَّفَرِ الَّذِينَ تَحْمَلُوا إِلَى وَطَنِ قَبْلِ الْمَمَاتِ رَجُوعُ (٦)

(١) العقد الفريد ٣٥٧/٦ .
(٢) الخلق : البالي .
(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٩/١٤ .
(٤) شجاني : أحزني .
(٥) أغاني (سأى) ٤٤/١٨ .
(٦) يَأْنِ : يحق . تحملوا : ارتحلوا .

فقلتُ ولم أملك سوابقَ عَبرَةٍ نطقنَ بما ضُمتَ عليه ضُلوغُ
تَبَيَّنَ ، فكم دارِ تفرُّقِ شَمْلُها وشملِ شتيتِ عاد وهو جَميعُ
كذاك الليالي صَرَفُهنَّ كما ترى لكل أناسٍ جَذْبَةٌ ورَبيعُ^(١)

ومرَّ بنا أن الشاعر العباسي كان يحتفظ أحياناً في مقدمات مدائحه بوصف الصحراء وأحياناً يتركها إلى وصف الطبيعة في الحاضرة بيساتينها ورياحينها ، وقد أخذ يخص هذه الطبيعة بمقطوعات وقصائد كثيرة ، بحيث أصبحت موضوعاً جديداً واسعاً ، وكان يمزج نشوته بها في بعض الأحيان بنشوة الحب أو نشوة الخمر وسماع القيان ، وفي كثير من الأحيان كان يقف عند تصوير فنتته بها وبورودها ورياحينها من مثل قول إبراهيم بن المهدي في النرجس^(٢) :

ثلاثُ عيونٍ من النرجسِ على قائمٍ أخضرٍ أَمَلَسِ
يذكرُنني طيبَ رِيّا الحبيبِ فيَمَنَعَنِي لَذَّةَ المجلسِ^(٣)

وقد أكثروا من وصف الأمطار والسحب ، كما أكثروا من وصف الرياض وخاصة في الربيع حين تتبرج الطبيعة بمناظرها الفاتنة . وعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم أحياناً خلال هذا الوصف ، مما جعلهم يخاطبون بعض عناصرها ، وكأنها أناسٌ تحمل عواطف الإنسان ويصيبها ما يصيبه من ريب الزمان ، ومن خير ما يصور ذلك مخاطبة مطيع بن إلياس لنخلتي حلوان على هذه الشاكلة^(٤) :

أَسْعِدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلُوانِ وابْكِيَالِي من ريبِ هذا الزمانِ^(٥)
واعلما أن رَيْبَهُ لم يزل يَفُ رُق بين الأُلف والجيرانِ
ولعمري لو ذقنا أَلَمَ الفُرِّ قة أبْكَا كما الذي أبْكَانِي
أَسْعِدَانِي وَأَيَقِنَا أَنَّ نَحْساً سوف يلقاكما فتَفْتَرِقَانِ
كم رمتني صروفُ هذى الليالي بفراقِ الأحبابِ والخُلانِ

(١) جذبة : المرة من الجذب وهو القحط .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ١٠ / ١١٥

(٣) الريا : الرائحة الجميلة .

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ١٣ / ٣٣١ .

(٥) حلوان : من بلاد العراق في طرفه الشمالي

بما يلي إيران . أسعداني أعيناني بالدموع .

ونرى شعراء كثيرين يعنون بوصف مظاهر الحضارة العباسية المادية وما يتصل بها من الترف في الطعام والتأنق في الملابس والثياب ، ووصف القصور وما حولها من البساتين وما يجري فيها من الظباء والغزلان من مثل قول أبي عيينة المهلي في وصف قصر ابن عمه عمر بن حفص المهلي ^(١) :

فيا طيبَ ذاك القَصْرِ قصراً ومنزلاً بِأَفْيَحٍ ^(٢) سَهْلٍ غَيْرِ وَغَيْرٍ وَلَا ضَنْكٍ
يَغْرِسُ كَأَبْكَارِ الجَوَارِي وتُرْبِيهٍ كَأَنَّ ثَرَاهَا مَاءٌ وَرَدٍ عَلَى مِسْكٍ
وَيَسْرِبُ مِنَ الْغِزْلَانِ يَرْتَعْنَ حوله كَمَا اسْتُلَّ مَنْظُومٌ مِنَ الدَّرِّ مِنْ سِلْكٍ

وأكثرنا من وصف الحيوان والطيور والحشرات ، واشتهر بذلك خلف ^(٣) الأحمر وجهم ^(٤) بن خلف ، وفي كتاب الحيوان للجاحظ من ذلك مادة وافرة .

وعلى هذا النحو نفذ الشاعر العباسي من وصف الشاعر القديم للصحراء وحيوانها الأليف والوحشي إلى وصف بيئته بجميع مظاهرها وعناصرها الصامتة والمتحركة ، وقد وصف وصفاً دقيقاً الأمراض والآفات التي انتابته ، ويصور ذلك من بعض الوجوه قصيدة لعبد الصمد بن المعذل يصف فيها حمى اعترته ، وفيها يقول ^(٥) :

وبنتُ المنية تنتابني هُدُوءاً ^(٦) وتطرقني سُخْرَةٌ
كَأَنَّ لَهَا ضَرْماً فِي الْحَشَا وَفِي كُلِّ عَضْوٍ لَهَا جَمْرَةٌ
لَهَا قُدْرَةٌ فِي جِسْمِ الْأَنَامِ حَبَاهَا بِهَا اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
وَطَوْرًا أَلْقَبَهَا سُخْنَةٌ وَطَوْرًا أَلْقَبَهَا فَتْرَةٌ
وَصِرْتُ إِذَا جُعْتُ يَوْماً ظَلِلْتُ كَأَنَّ عَلَى كَبْدِي شَفْرَةٌ ^(٧)
وِيرِبُو الطَّحَالُ إِذَا مَا شَبِعْتُ فَتَعْلُو التَّرَائِبُ وَالصُّدْرَةُ ^(٨)

ص ١٢١ .
(٦) الهدوء : أوائل الليل . سحرة : وقت السحر .
(٧) الشفرة : حد السيف وبجانب النصل .
(٨) الصدر : الصدر .

(١) الشعر والشعراء ص ٨٥٣ والأغاني (طبعة السامى) ١٤/١٨ .
(٢) أفيح : أوسع ، أولم له من فائحة الرائحة .
(٣) الحيوان ٢٧٩/٤ .
(٤) الحيوان ٢٤٢/٣ وانظر الهامش .
(٥) الوساطة بين المتنبي وخصومه (طبعة الحلبي)

وَأَمْسَى كَأَنِّي مِنْ مَعْدِنِ لِبَسْتُ الثِّيَابَ عَلَى زُكْرَةٍ (١)
 إِذَا مَا رَأَيْتَ امْرَأً مُطْلَقاً لَهُ الْأَكْلُ تَخْنُقُنِي الْعَبْرَهُ (٢)
 كَأَنِّي فِي مَنْزِلِ مُخْصَبٍ بِبَلْقَعَةٍ جَذْبَةٍ قَفَرَهُ

وهو وصف دقيق لأثر الحمى في الجسم وأوقاتها التي تفد فيها وآلامه مع الجوع والأكل وما يحس به في جوفه من مرارة وحدة . وقد صور شعوره بالحرمان وغبطته الأصحاء على ما يطعمون ، وبيته حافل بألوان الغذاء ، ولكنه يشعر كأنما هو في فلاة مجربة .

وقد رأينا أبا تمام يخلط بعض مقدمات مدائحه بالشكوى من الزمن ونوازله ، وقد نظم هو نفسه قصائد خصها بيش شكواه من الدهر وهمومه (٣) ، وشركه في ذلك بعض الشعراء ، مما جعل هذا الباب يتسع منذ هذا العصر ويصبح أحد الموضوعات الأساسية في دواوين الشعراء ، وخاصة دواوين العصر التالي ، إذ ساءت أحوال المجتمع وانعكست أصداء ذلك على نفسيات الشعراء وبالتالي على أشعارهم .
 ومراً بنا اتساع الشعراء بمراثيهم حتى شملوا بها الطير والحيوان والبساتين والمدن ، وكان منهم من يبكي في مقدمات مدائحه أحياناً الشباب في بيت أو أبيات قليلة . وسرعان ما رأينا القصائد تستقل بهذا الموضوع ، ومن أروعها قصيدة محمد بن حازم ، وفيها يقول (٤) :

سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَّامِ الشَّبَابِ وَإِنْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ لَهُ رَسْمٌ وَلَا طَلَلُ
 لَيْتَ الْمَنَايَا أَصَابَتْنِي بِأَسْهُمِهَا فَكُنَّ يَبْكِينَ عَهْدِي قَبْلَ أَكْتَهَلُ
 عَهْدَ الشَّبَابِ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِي حَزْناً مَا جَدَّ ذَكَرُكَ إِلَّا جَدَّ لِي ثَكَلُ (٥)

وما استحدثوه من المراثي محللين لمشاعرهم تحليلاً دقيقاً بكاؤهم حين يخبو نور البصر ، ومن أكثروا من تصوير هذه المشاعر أبو يعقوب الخُرَيْمِيُّ ، وكان قد أصبح ضريباً ، حين طعن في السن ، فتحول يصور أحاسيسه ، متفجعا على عينيه

(١) الزكرة : زك الخل .

(٢) البلقة : الفلاة .

(٣) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٧٥ ،

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٩٤/١٤ .

(٥) الثكل : الحزن على فقد الولد .

تفجعاً يبعث الأسى في النفس من مثل قوله (١) :

أضنى إلى قائدى ليخبرنى إذا التقينا عمن يحيينى
أريد أن أعدي السلام وأن أفصل بين الشريف والدون
أسمع ما لا أرى فأكره أن أخطئ والسمع غير مأمون
لله عيني التي فجعته بها لو أن دهرأ بها يواتينى
لو كنت خيرت ما أخذت بها تعمير نوح في ملك قارون
وقد صوروا كثيراً من العواطف الدقيقة ، من ذلك التعاطف الرقيق بين الأب
وبنيه وبناته وما يطوى فيه من الرحمة والبر والحنان ، على نحو ما يلقانا عند ابن
يسير مصوراً عطفه على بنية له وكيف يستأثر به ويحشمه اقتحام المصاعب من
أجل سعادتها ، وكيف يحبه في الحياة خوفاً عليها من ذل اليم وجفوة الأهل ،
وإنه ليشفق عليها حتى من الدموع التي سترسلها حين يتأهب لمفارقة الحياة ،
يقول (٢) :

لولا البنية لم أجزع من العدم وزادنى رغبة في العيش معرفتى
ولم أجب في الليالي حندس الظلم ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحيم
وأخشى فظاظة عم أو جفاء أخ وكنت أخشى عليها من أذى الكلام
إذا تذكرت بنتى حين تندبنى جرت إبرة بنتى عبرتى بدم
وحلّلوا كثيراً من المشاعر ، من ذلك شعور الزوج بالغيرة الشديدة على
زوجته وما يجر ذلك عليهما من البلاء ، وللخريمى في ذلك مقطوعة بديعة يفرق فيها
بين الغيرة المطلوبة في حينها وبين الغيرة التي تتحول إلى ما يشبه مرضا يعزّ دواؤه ،
فإذا الزوج يشك في زوجته ، حتى ليعصف بها شكه ، فإذا هى توشك أن تتردى
في مسالك الريبة . وينصحه أن يمنحها ثقته وأن لا يشوب سلوكه بريية ، فتمسیر
سيرته المعوجة ويتقصد عليه كل شئ ، وفى ذلك كله يقول (٤) :

(٣) الدم هنا: الموت . الحندس شدة الظلمة .

(٤) عيون الأخبار ٧٩/٤ والشعر والشعراء .

ص ٨٣٤ .

(١) الحيوان ١١٣/٣ والشعر والشعراء .

ص ٨٣٠ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٨١ .

ما أحسن الغيرة في حينها وأقبح الغيرة في كل حين
 من لم يزل متهما عرسه تتبعها فيها لقول الظنون (١)
 يوشك أن يُغريها بالذي يخاف أن يُبرزها للعيون
 حسبك من تحصينها وضعها منك إلى عرض صحيح ودين
 لا تطلع منك على ريبة فيتبع المقرون حبلى القرين
 وقد صوروا تصويراً دقيقاً حياة البؤس والمسغبة التي كان يرزح تحت أثقالها
 جماهير الشعب ، ومن خير ما يمثل ذلك مقطوعة لأبي فرعون الساسي يصور فيها
 جوع عياله وكيف يبيتون في الشتاء القارص عراً لا يجدون ما يحميهم من هول
 البرد وزمهريره ، وهي تجرى على هذا النمط (٢) :

وصبئة مثل صغار الذر سود الوجوه كسواد القندر (٣)
 جاءهم البرد وهم بشر بغير قمص وبغير أزر
 تراهم بعد صلاة العصر وبعضهم ملتصق بصدرى
 وبعضهم ملتصق بظهرى وبعضهم متحجر بحجرى
 إذا بكوا عللتهم بالفجر حتى إذا لاح عمود الفجر
 ولاحت الشمس خرجت أسرى عنهم وحلوا بأصول الجدر
 كأنهم خنافس في جحر

وقد أسلفنا في حديثنا عن الحياة الاجتماعية ولع الخلفاء بالصيد ، وكيف كانوا
 يخرجون إليه في مواكب حافلة ، ومعهم البزاة والصقور والكلاب ، وتبعهم في هذا
 الصنيع الوزراء وعليسة القوم . وقد نظم الشعراء في هذه المتعة الرياضية أراجيز
 كثيرة سموها الطرديات ، وأكثر من النظم فيها أبو نواس ، وأحسن غاية الإحسان
 في وصف الكلاب « لأنه كان قد لعب بها زماناً وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب » .
 وحقا سبقه في هذا الموضوع بعض شعراء العصر الأموي من مثل الشمردل

لابن الجراح (طبع دارالمعارف) ص ٥٤ .

(٣) الذر : الحمل .

(١) الظنون : سوء الظن .

(٢) ابن المعتز ص ٣٧٧ وانظر كتاب الورقة

وأبى نُخَيْلَةَ، ولكنه هو الذى مدَّ طُنْبُهُ وفتح أبوابه ، لا من حيث كثرة ما نظمه فيه فحسب ، بل أيضاً من حيث دقة وصفه لأدواته وجوارحه مما جعل الجاحظ ينوّه بطردياته طويلاً فى الجزء الثانى من كتابه « الحيوان » وقد أنشد منها طائفة معجِباً ببراعته وحذقه ، من مثل قوله فى إحداها (١) :

ما البرقُ فى ذى عارضٍ لَمَّاحٍ ولا انقضاضُ الكوكبِ المُنْصاحِ (٢)
ولا انبثاتُ الدَّلْوِ بالمتَّاحِ أجدُ فى السَّرعَةِ من سِرِّياحِ (٣)
يطير فى الجوّ بلا جَنَاحٍ يفترُّ عن مثل شَبَا الرِّماحِ (٤)
فكم وكَم ذى جُدَّةٍ لَيَّاحٍ ونازِبٍ أَغْفَرَ ذى طِمَاحِ (٥)
غادره مضرَّجَ الصَّفاحِ (٦)

وكانت مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء تعنى بالنوادر والفكاهات ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وهياً ذلك لشيوع روح الهزل فى بعض المقطوعات والقصائد ، وكانوا أحياناً يختارون لذلك بعض القصائد التى اشتهرت بقوتها الحماسية مثلاً ، فيقلّبونها فى الدعوة إلى اللهو والتواصى بشرب الخمر (٧) ، وأحياناً يختارون موضوعاً جاداً ، كقصّة العشق العذرى الذى كان يفضى بأصحابه — كما يقول القصاص — إلى الجنون أو الموت ، فيجرونه على لسان حمارٍ أحب ومات عشقاً ، مما تلقاه عند بشار ، فقد ذكر الرواة أنه مات له حمار ، فانتظر حتى اجتمع إليه رفاقه ، فأظهر لهم أنه مغموم محزون ، وألحوا عليه يريدون أن يعرفوا سبب حزنه وغمه ، فقال لهم : إننى رأيت حلمًا مزعجاً : رأيت حمارى فى النوم فقلت له : ويلك ! مالك متّ ؟ قال : إنك ركبتنى يوم كذا ففررنا على باب

-
- (١) الحيوان ٦٨/٢ .
(٢) العارض: السحاب . المنصاح: المضيء .
(٣) انبثات الدلو: انقطاعها وهويها .
المتاح : الذى يستق بالدلاء . وسرياح : اسم الكلب الذى يصفه .
(٤) شبا الرمح : حده .
(٥) ذو الجدة : حمار الوحش ، والجدة :

- الخطّة السوداء فى ظهره . ليّاح : أبيض . النازب : الظي . الأغفر : ما يملو بياضه حمرة طماح : جام .
(٦) الصفاح : الجوانب . يريد أنه تركه مضرّجاً بدمائه .
(٧) ابن المعتز ص ٢٢٧ .

الأصبهاني فرأيت أتاناً عند بابه ، فعشقتها فت . وزعم بشار أنه أنشده هذه المقطوعة :

سَيْدِي ! مِلْ بَعْنَانِي نَحُو بَابِ الْأَصْبَهَانِي
 إِنَّ بِالْبَابِ أَتَانًا فَضَلْتُ كُلَّ أَتَانٍ
 تَيْمَمْتَنِي يَوْمَ رُحْنَا بِشَنَائِيهَا الْحِسَانِ
 تَيْمَمْتَنِي بَيْنَانٍ وَبَدَلُ قَدْ شَجَانِي
 وَبُحْسِنِ وَدَلَالٍ سَلَّ جَسْمِي وَبَرَانِي
 وَلَهَا خَدُّ أَسِيلُ مِثْلُ خَدِّ الشَّيْفَرَانِ
 فِيهَا مِتُّ وَلَوْ عَشْتُ مِتُّ إِذْنُ طَال هَوَانِي

فقال له أحد جلسائه : ما الشيفران ؟ قال : ما يُدْرِنِي هذا من غريب الحمير ! فإذا لقيتم حماراً فسلوه^(١) . ولعلهم لم يكثرُوا من التندير على شيء كما أكثرُوا من التندير على اللَّحَى ، وكان كثير من أهل الوقار يطيلونها ويعرضونها جدًّا ، فتندّر عليهم الشعراء طويلاً من مثل قول مروان بن أبي حفصة في لحية شيخ يسمى رَبَاحًا^(٢) :

لَقَدْ كَانَتْ مَجَالِسُنَا فِسَاحًا فَضِيْقَهَا بِلَحِيَّتِهِ رَبَاحُ
 مَبْعَثَرُهُ الْأَسَافِلُ وَالْأَعَالَى لَهَا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ جَنَاحُ

ولم نتحدث حتى الآن عن فن استحدثه الشعراء العباسيون ، ولم تكن له أى أصول قديمة ، ونقصد فن الشعر التعليمي الذي دفع إليه رقى الحياة العقلية في العصر ، فإذا نفر من الشعراء ينظمون بعض القصص أو بعض المعارف أو بعض السير والأخبار . ومن أوائل ما يلقانا من ذلك تحدث صفوان الأنصاري في أشعاره عن فضل الأرض وما تحمل من كنوز ومعادن كريمة^(٣) . ولا ريب في أن أبان ابن عبد الحميد هو الذي عمل على إشاعة هذا الفن الشعري الجديد ، فقد نظم فيه

(١) أغاني ٢٣١/٣ والمقد الفريد ٤٤٢/٦ . (٣) البيان والتبيين ٢٧/١ وما بعدها .

(٢) عيون الأخبار ٥٦/٤ .

تاريخاً وفقهاً وقصصاً كثيراً^(١) ، فأما التاريخ فنظم فيه سيرتى أردشير وأنوشروان ، وأما الفقه فنظم فيه الأحكام المتعلقة ببابي الصوم والزكاة ، وصنع قصيدة فى مبدأ الخلق وضمنها شيئاً من المنطق . وأهم من ذلك كله أنه نظم فى القصص كتاب كليله ودمنة فى أربعة عشر ألف بيت . وفى كتاب الأوراق للصولى قطعة كبيرة من منظومته الفقهية وقطع أخرى من نظمه لكليلا ودمنة ، ونراه يستهلها بقوله^(٢) :

هذا كتابُ أدبٍ ومِحنةُ وهو الذى يُدعى كليله دِمْنَةُ
فيه دلالاتٌ وفيه رُشدُ وهو كتابٌ وضعته الهِنْدُ
فوصفوا آداب كلِّ عالمٍ حكايةً عن ألسنِ البهائمِ
فالحكماء يعرفون فَضْلَهُ والسخفاء يشتهون هَزْلَهُ
وهو على ذاك يسيرُ الحفظُ لذُّ على اللسان عند اللَّفْظِ

ويتأثره ابنه حمدان فى هذا الضرب من الشعر التعليمى فينظم مزدوجة طويلة مسرفة فى الطول يصف فيها الحب وأهله وطبيعته وصوره المختلفة . وعلى قَبَسٍ من عمل أبان ينظم أبو العتاهية مزدوجته التى سماها « ذات الأمثال » وهى — كما يتضح من اسمها — حكم وأمثال ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت . وقد أنشد أبو الفرج فى ترجمته قطعة منها ، ومن قوله فى تضاعيفها^(٣) :

حَسْبُكَ مما تَبْتَغِيهِ القوتُ ما أَكْثَرَ القوتَ لمن يموتُ
لكل ما يُؤْذَى - وإن قَلَّ - أَلَمْ ما أَطْوَلَ اللَّيْلَ على مَنْ لم يَنَمْ
ما انتفع المرءُ بمثل عقلِهِ وخيرُ دُخْرٍ المرءُ حُسْنُ فعلِهِ
إن الفساد ضِدُّه الصلاحُ وربُّ جِدِّ جرَّه المَزاحُ

واقفى محمد بن إبراهيم الفزارى أثر أبان ، فنظم فى علم النجوم مزدوجة طويلة ، يقول ياقوت إنها كانت تدخل فى عشرة مجلدات ، وقد بناها من ثلاثة أفعال أو

(٢) الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء)

ص ٤٦ .

(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٣٦/٤ .

(١) انظر ترجمة أبان فى كتاب الأوراق

للصولى (قسم أخبار الشعراء) وفى الأغانى

(طبع الساسى) ٧٣/٢٠ .

ثلاثة شطور ، ثلاثة شطور ، على هذا النمط (١) :

الحمد لله العليُّ الأعظم ذى الفضل والمجد الكبير الأكرم
الواحد الفرد الجواد المنعم
الخالق السبع العلا طياقا والشمس يجلو ضوءها الإغساقا (٢)
والبدْر يملأ نوره الآفاقا

ودخلت شعاعات من هذا الفن التعليمي الجديد إلى بيئات الأخباريين ، فإذا الأصمعي ينظم قصيدة طويلة في ذكر الملوك والجبابة الهاككين والأُمم الحالية البائدة (٣) وتتكاثر هذه الشعاعات في بيئات المتكلمين ، فإذا مَعْدَان الأعمى الشيعي الشُمَيْطِيُّ أحد متكلمي الشيعة الإمامية ينظم قصيدة طويلة في أصناف الشيعة وعقائدهم ، مقدماً عليهم فرق الشميطة الغالية (٤) . ولعل متكلماً لم ينظم في هذا الفن كما نظم بشر بن العتمر المعتزلي المشهور ، فقد أكثر من النظم في الرد على أصحاب المقالات والنحل المختلفة ، وقد ساق له الجاحظ في الحيوان قصيدتين طويلتين (٥) يمكن أن يدخلنا من بعض الوجوه في علم التاريخ الطبيعي إذ تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوانات ، وما يتجلى فيها جميعاً من حكمة الله البالغة في خلقه العجيب . ومن نمطهما قصيدة الحكم بن عمرو البهْراني في غرائب الخلق (٦) وقصيدة هرون مولى الأزد في وصف الفيل وصورة خلقه وتركيبه (٧) .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور النشاط العقلي والفني للشاعر العباسي وكيف كان يحرص على التجديد ، فهو يشتق من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده ، ولا يكتفي بها ، بل ما زال يكتشف موضوعات أخرى ، تلهمه بها بيئته الحضارية وحياته العقلية الراقية ، ولم يلبث أن اهتدى إلى الشعر التعليمي ، فسجل فيه كثيراً من القصص والتاريخ والدين والعلم والحكمة .

١ / ٢٣ ، ٣ / ٧٥ ، ٣٥٦ .
(٥) الحيوان ٦ / ٢٨٤ ، ٢٩١ .
(٦) الحيوان ٦ / ٨٠ .
(٧) الحيوان ٧ / ٧٦ .

(١) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١١٨ / ١٧
(٢) السبع : هي السموات السبع . طباقاً :
لمطابقة بعضها بعضاً . الإغساق : الظلام .
(٣) الحيوان ٦ / ١٤٩ .
(٤) الحيوان ٢ / ٢٦٨ والبيان والتبيين

التجديد في الأوزان والقوافي

سبق أن تحدثنا في كتاب « العصر الإسلامي » عن مدى ما أثر به الغناء المستحدث حينذاك في موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نظم المقطوعات القصيرة في الغزل وأخذ الشعراء يصنفون موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاماً خالصة: نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة. وقد مضى شعراء الغزل يعدلون غالباً عن النظم في الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم في الأوزان الخفيفة البسيطة، فإن ألبوا بالأوزان الأولى جزءاً منها غالباً حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا فيها من الخروق أو بعبارة أخرى من الزخافات، إكثاراً نفذ منه الوليد بن يزيد إلى استكشاف وزن المجتث وصنع بعض المقطوعات فيه. وانتقلت موجة هذا الغناء في أواخر العصر الأموي إلى الكوفة، حتى إذا كان العصر العباسي الأول بلغت في مدن العراق كل ما كان يُستَظَرُّ لها من حدة وقوة، فمن جهة صُفِّيت لغة الشعر وبلغت كل ما يمكن من رشاقة وعذوبة ونعومة على نحو ما مرَّ بنا في أوائل هذا الفصل، ومن جهة ثانية اتسعت الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء، فإذا القصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمي: شعر المديح والرثاء، بينما تشيع المقطعات في الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم. ومضى الشعراء ينظمون — على هدى الشعراء الأمويين — في الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفي وزن المجتث الذي اقترحه الوليد بن يزيد، ومن خير من يمثِّل ذلك مطيع بن إياس الكوفي فإننا حين نتصفح الشعر المبثوث في ترجمته بكتاب الأغاني نجد كثرة من مجزوءات الخفيف والبسيط والرجز والكمال والرمل أو من الهزج أو من المجتث على شاكلة قوله ^(١) :

ويلى مَمَّنْ جَفَّانِي وَحُبُّهُ قَدْ بَرَّانِي

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٩٢/١٣.

وَطَيْفُهُ يَلْقَانِي وَشَخْصُهُ غَيْرُ دَانِي
أَغْرُ كَالْبَدْرِ تَعْنَى بِحَسَنِهِ الْعَيْنَانِ

ولم يلبث الشاعر العباسي أن حاول النفوذ إلى أوزان جديدة ، وإذا هو يكشف وزنين سجلهما الخليل بن أحمد حين وضع نظرية العروض ، وهما وزنا المضارع والمقتضب ، أما المضارع فأجزاؤه مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن ، ودائماً تُحذفُ فيه التفعيلة الأخيرة ، ومنه مقطوعة أبي العتاهية (١) :

أَيَا عُتْبَ مَا يَضُرُّ لَكَ أَنْ تَطْلُقَ صِفَادِي (٢)

وأما المقتضب فأجزاؤه مفعولات مستفعِلن مستفعِلن ، وتُحذفُ منه التفعيلة الأخيرة أيضاً ، كما يلقانا عند أبي نواس في مقطوعته (٣) :

حَامِلُ الْهَوَى تَعِبُ يَسْتَخْفُهُ الطَّرْبُ
إِنْ بَكَى يَحِقُّ لَهُ لَيْسَ مَا بِهِ لَعِبُ

وواضح أن هذا الوزن أكمل نغماً وإيقاعاً من سابقه ، ولعل ذلك هو الذي جعله يشيع ويتداوله الشعراء ، بينما كادوا يهملون المضارع ، واكتشف الشاعر العباسي أيضاً وزن المتدارك أو الخبيب ، ويقال إن الخليل لم يسجله في عروضه ، إنما سجله تلميذه الأخفش (٤) ، ولكنه إن كان لم يقترح له اسماً فإنه عرفه ونظم منه أشعاراً مختلفة (٥) ، من مثل :

أَبَكَيْتَ عَلَى طَلَلٍ طَرَباً فَشَجَاكَ وَأَحْزَنَكَ الطَّلَلُ

ومثل :

لَيْسَ الْمَرْءُ الْحَامِي أَنْفَاً مِثْلَ الْمَرْءِ الضَّمِيمِ الرَّاضِي (٦)

(٥) إنباء الرواة ٣٤٢/١ وانظر مراتب التحويين لأبي الطيب اللغوي ص ٣٢ .
(٦) الحامي أنفاً : العزيز الأبي . الضميم : الدليل .

(١) الفصول والغايات لأبي العلاء ص ١٣٢ .

(٢) الصفاة : القيد .

(٣) الديوان ص ٣١٦ .

(٤) شرح الدمشوري على الكافية (طبع

مكتبة محمود توفيق) ص ٣٩ .

وبذلك وضع للشاعر العباسي منه نماذج كي يحاكيها ، وكان أول مَنْ بادر إلى محاكاته - فيما نظن - أبو العتاهية فله على نسق مقطوعته الثانية بيتان نظمهما في بعض القضاة على هذه الشاكلة ^(١) :

همُّ القاضي بَيِّتٌ يُطْرِبُ قال القاضي لما طوَّبَ
ما في الدنيا إلا مُذْنِبٌ هذا عُدْرُ القاضي واقلِبْ

والحق أن الخليل اكتشف للشعراء أوزاناً جديدة كثيرة لم يستخدمها أسلافهم ، وذلك أنه - كما مر بنا في غير هذا الموضع - استضاء بفكرة التباديل والتوافق الرياضية في وضع عروض الشعر ، إذ جعل أوزانه تدور في خمس دوائر أو بعبارة أدق تدور أجزاءها من الأسباب والأوتاد ، فإذا هو يحصى الأوزان التي استخدمها العرب واضعاً لها ألقابها ويحصى أو يستنبط أوزاناً أخرى مهملة لم يستخدموها في أشعارهم ، كي ينفذ منها الشاعر العباسي إلى ما يريد من تجديد في أوزان الشعر وبحوره . وكان من أوائل من استغلوا صنيعة تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمِيدَع البصري ، وفيه يقول أبو الفرج : « أخذ العروض عن الخليل بن أحمد ، فكان مقدماً فيه وانقطع إلى آل سليمان بن علي ، وأدب أولادهم ، وكان يمدحهم كثيراً . . . وكان يقول أوزاناً من العروض غريبة في شعره لم ثم أخذ ذلك عنه ونسحا نحوه فيه رُزَيْنَ العَرُوضِي ، فأتى فيه ببدايع جَمَّة ، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس » ^(٢) . ولم يصلنا من شعره سوى قصيدة واحدة احتفظ بها ياقوت في معجمه ، وهي في مديح الحسن بن سهل وزير المأمون ، وأولها :

قَرَّبُوا جَمَالَهُمُ للرحيل غُدْوَةً أَحْبَبْتُكَ الأَقْرَبُوكَ
خَلَّفُوكَ ثُمَّ مَضُوا مدلجين مفرداً بِهِمُّكَ ما ودَّعوكَ ^(٣)

وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناها تجري على وزن من أوزان الخليل المهملة ، هو عكس وزن المنسرح ، فوزنها مفعولات مستفعلن فاعلن . وربما كان أهم شاعر

(٣) مدلين : سائرین لیلا .

(١) المسعودی ٣/ ٣٦٠ .
(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٠/٦٦ .

نابه عُنَى بصنع أشعار على تلك الأوزان المهملة ، هو أبو العتاهية ، فقد روى له ابن قتيبة قوله ^(١) :

للمنون دائراتٌ يُدِرْنَ صَرَفَهَا هُنَّ يَنْتَقِينَنَا واحداً فواحداً
وقوله :

عُتِبَ ما للخيال خَبْرِي ومالى لا أراه أتانى زائراً مُذْ لىالى
ووزن البيت الأول فاعلن مستغفلن مرتين فهو عكس البسيط بينما وزن البيت الثانى فاعلن فاعلاتن مرتين وهو عكس وزن المديد . والوزنان جميعاً من الأوزان المهملة التى تستنبط من دوائر الخليل . على أنه ينبغى أن نعرف أن هذه الأوزان المهمة التى استخدمها أبو العتاهية ورزين وابن السميدع لم تشع على ألسنة العباسيين ، وكأنهم أحسوا نقص أنغامها وإيقاعاتها بالقياس إلى الأوزان المستعملة . وينسب إلى هذا العصر وزن شعبي هو وزن « المواليا » ويقال إن سبب ظهوره أن الرشيد منع الناس من رثاء البرامكة ، فلم يجروا على رثائهم ، ولكن جارية لجعفر بن يحيى البرمكى بكتته فى أشعار نظمته من هذا الوزن بالعامية ، وكانت تختتمها بكلمة « يامواليه » غير أن هذه القصة — فيما يظهر — أسطورة إذ لم يثبت أن الرشيد منع الشعراء من رثاء البرامكة ، وفى كتب الأدب من مراثيهم أشعار كثيرة . ولعل مما ينقضها نقضاً أن ابن تغرى بردى أنشد مواليا للعتابى شاعر البرامكة والرشيد على هذا النمط ^(٢) :

يا ساقياً خُصَّنِي بما تهوَاهُ لا تمزج أقداحى رعاك الله
دَعَهَا صِرْفاً فَإِنِّى أَمْزَجَهَا إِذْ أَشْرَبَهَا بِذَكَرٍ مِنْ أَهْوَاهِ
وكان المواليا لم تبدأ عامية ملحونة ، وإنما بدأت فصيحة ، ثم تحولت إلى العامية ، إذ ازورَّ عنها شعراء الفصحى كما ازورُّوا عن الأوزان المهمة السابقة .
١ وعلى نحو ما جدَّ دوا — لهذا العصر — فى الأوزان جدَّ دوا فى القوافى مستحدثين ما سموه باسم المزدوج والمسمَّطات ، أما المزدوج فالقافية فيه لا تطرد فى الأبيات ، بل تختلف من بيت إلى بيت ، بينما تتحد فى الشطرين المتقابلين ، وعادة تُنظَّم من

بحر الرجز . وتُنسَبُ إلى الوليد بن يزيد منظومة من هذا الطراز صاغ فيها خطبة من خطب يوم الجمعة^(١) ، وإذا صح ذلك كان هو أول من استحدثه ، ثم تلاه العباسيون وفي مقدمتهم بشار ، إذ نعتة الجاحظ بأنه صاحب مزدوج^(٢) ، وإن كنا لا نجد منه أمثلة فيما طُبِعَ من ديوانه . وبمجرد أن ظهر الشعر التعليمي ازدهر هذا الضرب الجديد ، إذ صاغ أبان بن عبد الحميد فيه كل ما نظمته من قصص وتاريخ وعلم ودين ، وكذلك صنع محمد بن إبراهيم الفزاري في مزدوجته الفلكية ، وإن جعل وحدتها ثلاثة شطور لا شطرين . وقد نظم أبو العتاهية من هذا النمط الجديد مزدوجته « ذات الأمثال » وسبق أن اقتبسنا منها أبياتاً . ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقوى على النظم في المزدوج من بشر بن المعتمر وإنه كان أقدر فيه من أبان بن عبد الحميد^(٣) ، وقد روى له في الحيوان مزدوجة طويلة ، في تفصيل على بن أبي طالب والرد على الخوارج^(٤) . وللقاشي مزدوجة طويلة في الحجون والخلاعة^(٥) وكذلك لبكر بن خازجة مزدوجة في أعياد النصارى وشرائعهم وأديرتهم^(٦) . ونرى الفرس حين يعودون إلى لغتهم ويحدثون نهضتهم الأدبية يستخدمون هذا الضرب من الشعر في قصصهم متخذين له اسماً جديداً هو « المثنوى » . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه هو الذي رشح لظهور الرباعيات في الأدبين العربي والفارسي ، وهي تتألف من أربعة شطور ، تتفق أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يتخذ نفس القافية وقد لا يتخذها ، من مثل قول بشار مازحاً مع جاريته ربابة^(٧) :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

ويروى أن حماد عجرد صاغ من هذا النمط الرباعي أشعاراً مزوجة كان يقرأ بها الزنادقة من أمثاله في صلاتهم^(٨) ، وما يروى من رباعياته غير الدينية قوله

- (١) أغاني (طبع دار الكتب) ٥٧/٧ .
(٢) البيان والتبيين ٤٩/١ .
(٣) أمالي المرتضى ١٨٧/١ .
(٤) الحيوان ٤٥٥/٦ .
(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .
(٦) أغاني (طبعة السامي) ٨٧/٢٥ .
(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٦٣/٣ .
(٨) أغاني ٣٢٤/١٤ .

يهجو غيلان جد عبد الصمد بن المعتز ، وكان على أعشار البصرة وظهرت منه خيانة^(١) :

ظهر الأمير عليك يا غيلانُ إذ خنته إن الأمير معانُ
أمع الدمامة قد جمعت خيانةً قبَّحَ الدميمُ الفاجر الخوانُ
وتكثر الرباعيات في ديوان أبي نواس وخاصة في الحمريات والغزل^(٢) ، ونستبعد أن تكون مقتطعة من مطالع قصائد له ضاعت ، لكثرتها عنده ، ومن أمثلتها الطريفة قوله^(٣) :

أدر الكأس وأعجل من حبسٍ واشمقنا ملاح نجمٍ في الغلس^(٤)
قهوةً كرخيةً مشمولةً تنفض الوحشة عنا بالأنس^(٥)

ومن يرجع إلى تراجم الشعراء في الأغاني يجد منها أمثلة كثيرة ، ومن كان يكثر منها - فيما يظهر - أبو العتاهية سواء في الغزل أو في الزهد، من مثل قوله في الموت الدائر على جميع الناس^(٦) :

الموتُ بين الخلق مُشترَكُ لا سوقةً يَبْقَى ولا مَلِكُ
ما ضَرَّ أصحابَ القليل وما أغنى عن الأملاك ما ملكوا
والمسمِّطات قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتركب من أربعة شطور أو أكثر، وتتفق شطور كل دور في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه مستقل بقافية مغايرة ، وفي الوقت نفسه يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة ، ومن أجل ذلك يسمى عمود المسمط فهو قطبه الذي يدور عليه . وإنما سُمِّيَ مسمطاً من السمط وهو قلادة تُنظَّم فيها عدة سلوك تجتمع عند لؤلؤة أو جوهرة كبيرة ، وكذلك كل دور في المسمط يجتمع مع الأدوار الأخرى في قافية الشطر

الظلام .

(٥) كرخية : نسبة إلى الكرخ صاحبة

الهُو والحون ببغداد . مشمولة : فائحة الرائحة .

(٦) أغاني ٩٨/٤ وانظر في رباعيات له

أخرى الأغاني ٢٠/٤ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١١٠ .

(١) أغاني ١٤/٣٦٢ .

(٢) راجع الديوان ص ١٢٩ ، ١٣١ ،

١٨١ ، ٢٤٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤٢٧ ،

٤٣٥ .

(٣) الديوان ص ٢٩٩ .

(٤) حبس : انتظر وتلبث . الغلس :

الأخير . ومن أمثلة المسمط المربع خميرية لأبي نُوَاس تتوالى على هذا النمط ^(١) :

مُـسْـلَافٌ دَنٌّ كَشْمِسٍ دَجْنٍ ^(٢)
 كَدَمْعٍ جَفْنٍ كَخْمَرٍ عَدْنٍ
 طَبِيخٍ شَمْسٍ كَلُونٍ وَرْسٍ ^(٣)
 رَبِيبُ فُرْسٍ حَلِيفٍ سِجْنٍ
 يَا مِنْ لِحافٍ عَلَى زَمَانِي
 اللَّهُمَّ شَانِي فَلَا تَلُمْنِي

وواضح أنه بنى شطورها على تفعيلة واحدة . وكان شيوع المسمطات الخمسة أوسع من شيوع أختها المربعة ، واشتهر بشار بنظمه لبعض الخمسات ^(٤) ، ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقوى على صنع الخمسات من بشر بن المعتمر ^(٥) ، وقد أنشد الهميري لأبي نواس خمسا ختمه بهذا الدور ^(٦) :

يَا بِلِيلَةَ قَضَيْتُهَا حُلُوءَ مَرْتَشَفًا مِنْ رَيْقِهَا قَهْوَةَ
 تُسَكَّرُ مَنْ قَدْ يَبْتَغِي سَكْرَةَ ظَنَنْتُهَا مِنْ طَيِّبِهَا لَحْظَةَ
 يَا لَيْتَ لَا كَانَ لَهَا آخِرُ

وقد اختار لآخر الخمس - كما هو واضح - صيغة يبدو من تركيبها أنها عامية ، وكأنه هو الذى ألهم الوشاحين الأندلسيين أن يختموا بعض موشحاتهم بأقفال عامية . ونفس الموشحات نجد صورة تقترب منها اقتراباً شديداً سواء من حيث الأدوار والمراكز أو الأقفال ، إذ يُنسَبُ لديك الجن صُنْعُهُ لمنظومة على هذا النحو ^(٧) :

قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى عند المنام

(٦) حياة الحيوان الكبرى للهميري (طبعة

ببلاط) ٩٦/١ .

(٧) خزائن الأدب الحموي (طبعة ببلاط)

ص ٩٧ .

(١) الديوان ص ٣٤٦ .

(٢) دجن : غيم .

(٣) الورس : نبات زهره أصفر .

(٤) العمدة لابن رشيقي ١٢٠/١ .

(٥) أمالي المرتضى ١٨٧/١ .

عند الرِّقَاقِ عند الهجوعِ عند الهجوذِ عند الوسنِ
 فعسى أنا فتنطفي ناراً تأججُ في العظامِ
 في الفؤادِ في الضلوعِ في الكبودِ في البدنِ
 جسدٌ تُقلِّبه الأكُفُّ على فراشٍ من سقامِ
 من قتادٍ من دموعٍ من وقودٍ من حزنِ
 أما أنا فكما علمتِ فهل لوصولك من دوامِ
 من معاذٍ من رجوعٍ من وجودٍ من ثمنِ

وواضح أن هذه المنظومة نشأت من فكرة بسيطة هي تكرار قافية البيت بروى جديد ، وكأنما وقعت هذه المنظومة لمقدم بن معافى القبرى الأندلسي شاعر الأمير عبد الله بن محمد المرواني (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) فنظم على نمطها بعض منظوماته إعجاباً بها ، واستحساناً لها . وكتب لهذا النمط أن يشيع بعده في الأندلس باسم الموشحات وأن يسكب الوشاحون فيه من الأنغام ما يمتنع الأسماغ والأفئدة .

إفصل الخامس

أعلام الشعراء

١

بشار (١)

وُلد بشار بن بُرْد بن يَرْجُوح^(٢) بالبصرة لأوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة . وجدُّه يرجوخ من طُخَارُسْتَان ممن سبَّاهم المهلب بن أبي صفرة وإلى خراسان (٧٩ - ٨١ هـ) . ومن أجل ذلك نشأ ابنه بُرْد على الرق . وكان أولاً في عداد رقيق خيرة القُشَيْرِيَّة امرأة المهلب ، ثم وهبته لامرأة من بني عُقَيْل ، وفي ملكها وُلد له بشار على الرق ، ولم تلبث العُقَيْلِيَّة أن اعتقت بُرْدًا . وبذلك عدُّ هو وابنه في موالى بني عُقَيْل . وقد نسب نفسه من جهة أمه إلى الروم ، إذ يقول^(٣) :

وقبصرٌ خالى إذا عددت يوماً نسبي

وإن صح ذلك كان فارسيّ الأب روى الأم ، وقد ذكرها حماد عمجد في بعض أهاجيه لبشار باسم غزالة^(٤) ، وقد ولدته أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وقد ذلك يقول^(٥) :

العربي (طبع دار المعارف) ص ١٤٨ وكتاب بشار بن برد للمازني (طبع عيسى الحلبي) وبشار ابن برد لعمر فروخ (طبعة بيروت) وبشار بن برد لطف الحاجري (طبع دار المعارف) . وقد طبع من ديوانه ثلاثة أجزاء بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) ذهب بعض الرواة إلى أن اسم جده بهمن . انظر الأغاني ١٣٥/٣ .

(٣) الديوان ٣٧٧/١ .

(٤) الحيوان ٣٥٤/١ ، ٤٥٣/٤ .

(٥) أغاني ١٤٢/٣ .

(١) انظر في بشار وترجمته الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣٥/٣ ، ٢٤٢/٦ ، والشعر والشعراء ص ٧٣٣ وابن المعتز ص ٢١ وتاريخ بغداد ١١٢/٧ والمختار من شعر بشار للخالدين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والموشع للمرزباني ص ٢٤٦ ونكت الحميان (طبعة المطبعة الجمالية بالقاهرة) ص ١٢٥ ومراة الجنان لليافعي ٣٥٤/١ وشذرات الذهب ٢٦٤/١ وابن خلكان ومراجعات في الآداب والفنون للعقاد ص ١١٩ وحديث الأربعاء لطف حسين ٢٣٢/٢ وكتابنا الفن ومذاهبه في الشعر

عَمِيْتُ جَنِينًا والذكاء من العَمَى فَجِئْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ للعلم موثلاً
وكان أبوه طَيَّانًا يعيش من ضَرْبِ اللَّيْنِ معيشة تقوم على الشظف ، ويقال
إنه كان له أخوان : بشر وبشير ، وكانا قَصَّائِينَ يبيعان اللحم ، ولم يكونا سَوِيَّتَيْنِ
إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبتَرُ اليد .

وحدَّدَتْ آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره ، فاتجه إلى المساجد وإلى مِرْبَدِ
البصرة ينهل من حلقات العلم والشعر ، وأعانتته نشأته في بنى عُقَيْلٍ على أن يتمثل
السليقة العربية . ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه .
وكان الهجاء حينئذ يضطرم في موطنه اضطراماً لا بين جرير والفرزدق فقط ، بل
بين جميع الشعراء ، فكان طبيعياً أن يكون أول موضوع ينظم فيه الغلام . ويقال
إن أباه كان يضربه بسببه ضرباً مبرحاً لكثرة ما يشكو الناس منه ، وكانت أمه
لا تزال تستعطفه عليه ، فيقول : إني لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس ، فقال له
بشار : قُلْ لَمْ : أليس الله يقول : (ليس على الأعمى حَرَجٌ) . وعادوا إلى
بردٍ يرددون شكواهم ، فتسلَّ عليهم الآية الكريمة ، فانصرفوا وهم يقولون : فَقَهُ
بُرْدٌ أَغْيَظُ لَنَا من شعر بشار . واشتد ببشار طموحه إلى إتقان العربية ، فيمَّ
نحو البادية ، فأقام فيها فترة مكَّنت له في عربية لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشئون
البادية .

وعاد إلى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم ، كما
يكثر من النظم في المديح وغير المديح ، ومن أقدم مدائحه ما نظمه في عبد الله بن
عمر بن عبد العزيز وإلى العراق لسنة ١٢٦ للهجرة^(١) . ولما خطب واصل بن عطاء
رأس المعتزلة بين يدي هذا الوالى مع بعض الخطباء البلغاء أشاد به وبيانه طويلاً^(٢) ،
مما يدل على أن صلة وثيقة كانت منعقدة بينهما ، وفي الأغاني أنه كان يحضر
مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع مَنْ يعتنقون مذاهب التَّنَوُّيَّةِ الجوسية والدهرية
الهندية^(٣) ، وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس وما يماثلها من مجالس
المتكلمين شيء من الفلسفة والمنطق، على أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينه وبين

(٣) أغاني ١٤٦/٣ .

(١) الديوان ١٧٢/٣ .

(٢) البيان والتبيين ٢٤/١ .

واصل إذ عرف فيه أنه يدين بالرجعة أو عودة الإمام الخنفي ويكفر جميع الأمة، وتتابع منه ما يشهد على إلحاده من مثل قوله يشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الأرض والطين^(١) :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وتماذى بفضل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين ، قائلا^(٢) :

إِبْلِيسُ أَفْضَلُ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ فَتَنْبَهُوا يَا مَعْشَرَ الْفُجَّارِ
النَّارُ عَنْصُرُهُ وَآدَمُ طِينُهُ وَالطِّينُ لَا يَسْمُو سَمَوُ النَّارِ

وتصدى له صفوان الأنصارى شاعر المعتزلة يرد عليه وعلى ما روى إليه من تصويب رأى إبليس في عدم سجوده لآدم وعصيانه لأمر ربه حين طلب إليه هذا السجود ، لأن النار ، في رأيه هو وأضرابه من الزنادقة الذين كانوا يقصدونها ، خير من الأرض . وأطال صفوان في تفضيل الأرض وذكر له العلة التي بعثته على تفضيل النار وأنها ليست إلا حقه وموجدته على الدين الحنيف ، قائلا^(٣) :

كَأَنَّكَ غَضَبَانٌ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَطَالِبٌ دَخَلَ لَا يَبِيتُ عَلَى حَقِّهِ^(٤)

غير أن بشارا مضى يعلن زندقته لا يزدجر مصرحاً بأنه لا يؤمن إلا بالعيان وما شهدته الحس^(٥) . فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا بيعث ولا حساب ، ويحاول أن يثير الغبار في وجه واصل وغيره من المعتزلة ، فيعلن أنه يعارض ما يذهبون إليه من أن الإنسان يخلق أفعاله ، ويقول إنه جبّري ، بل لا شيء سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية^(٦) .

وكل ذلك جعل واصل بن عطاء يثور عليه ثورة شديدة ، وكان مما زاد هذه الثورة في نفسه اضطراباً أن رآه يكثر من غزل ماديٍّ ثم يُعَدُّ خطراً أى خطر على شباب البصرة ونسائها^(٧) ، فهتف به في بعض خطبه الواعظة داعياً إلى قتله

(٤) دخل : نار .

(٥) أغاني ٢٢٧/٣ .

(٦) نفس المصدر والصفحة .

(٧) أغاني ١٨٢/٣ .

(١) البيان والتبيين ١٦/١ والأغاني ١٤٥/٣ .

(٢) رسالة الغفران لأبي العلاء (نشر كامل

كيلاني) ١٣٧/٢ .

(٣) البيان والتبيين ٢٩/١ .

بمثل قوله : « أما لهذا الأعمى الملحد المشنف^(١) المكنى بأبي معاذ من يقتله^(٢) »^(٣) وتعاون واصل وأتباعه من معتزلة البصرة أمثال عمرو بن عبيد على طرده عن مدينتهم ، وكان الخوف قد بلغ من نفس بشار ، فبارحها وظل غائباً عنها حتى توفي عمرو^(٤) ابن عبيد خليفة واصل سنة ١٤٤ للهجرة . ونراه يقصد إلى حرَّان في سنة ١٢٧ فيمدح سليمان^(٥) بن هشام بن عبد الملك إلا أنه لا ينيله ما كان يؤمله^(٦) ، فيتجه إلى واسط ، حيث يزيد بن عمر بن هبيرة وإلى العراق لعهد مروان بن محمد وزعيم قيس ، فيستقبله استقبالا حافلا ، ويغندق عليه من برِّه وصلاته السنية^(٧) ، ويغندق عليه بشار من شعره ، وكان يزيد يتعصب لقومه من قيس تعصباً قوياً ، وصادف ذلك هوى في نفس بشار إذ كان ولاؤه لبني عُقَيْل القيسيين ، وكان مروان بن محمد يؤثر قيساً على بقية القبائل العربية ويعتمد عليها في حروبه مع الثوار من بني عمه وغيرهم ، فاندفع بشار يمدح ابن هبيرة ويفخر بقيس ومواليه القيسيين فخراً عارماً .

ولم تلبث رايات العباسيين السوداء أن أقبلت في سنة ١٣١ للهجرة من خراسان ، وطوّحت جيوشهم ببني أمية واليهيم يزيد ، وانعقد لسان بشار شاعر خصومهم فلم يستطع أن يفد على السفاح ولا على المنصور ، وكان نجم خالد بن برمك آخذاً في التألق إذ استوزره المنصور ثم ولاه ولاية فارس ، وكانما رأى فيه بشار لحمه نسب تصله به إذ كان إيرانيّاً مثله ، فوفد عليه يمدحه ، ونخالد يجزل له في العطاء والإكرام^(٨) . ويحسُّ بشار في عمق بإقبال الدنيا عليه ، فيتغنّى بشعوبيته ويفخر بقومه الفرس فخراً مبرحاً .

ويعود إلى البصرة بعد وفاة عمرو بن عبيد ، ولا يكاد العام يستدير حتى يثور العلويون بزعامة إبراهيم بن عبد الله سنة ١٤٥ للهجرة ، ويخيل إليه أن الانتصار من إبراهيم وثورته قاب قوسين أو أدنى فيمدحه بقصيدة ميمية رائعة ، وسرعان

(١) المشنف: ذو القرب ، يقال إنه كان

يلبس قرطاً وهو صغير فلُقب بالمرعث من الرعاث وهو القرب . وإلى ذلك يشير واصل . انظر الأغاني

١٤٠/٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٦ والأغاني ١٤٦/٣ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٥ .

(٤) الديوان ١/٢٩١ والأغاني ٣/٢١٧ .

(٥) أغاني ٣/٢١٨ .

(٦) أغاني ٣/٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٧) أغاني ٣/١٩٢ .

ما يخيب فأله ، إذ قمع المنصور الثورة ، ويهارع بشار فيحدث تغييرات في القصيدة ، ويجعلها في مديحه^(١) ، غير أنه لا يستطيع الوفود عليه . ويأخذ منذ هذا التاريخ في مديح ولاية البصرة ، وخاصة سلم^(٢) بن قتيبة الباهلي الذي وليها لخمسـة أشهر في سنتي ١٤٥ و ١٤٦ وعقبة^(٣) بن سلم الهنائي الأزدي الذي وليها لأربع سنوات من سنة ١٤٧ إلى سنة ١٥١ .

ويمضي بشار في غزله الفاجر ، وكان كل شيء فيه ينفر المرأة ، إذ كان قبيح المنظر مجدور الوجه جاحظ العينين قد تغشاهما لحم أحمر ، ولعل هذا القبح ونفور النساء منه هو الذي كان يستثير عنده الغريزة النوعية ويدفعه إلى الإفراط من غزله المكشوف . على أن هذا الغزل نفسه جعل بعض بنات الهوى اللاتي كانت تكتظ بهن دور القيان يُقبلن عليه ويتغنين في شعره . وفي هذه الأثناء يصطلم بحماد عَجْرَد وتنشب بينهما معركة هجاء حامية الوطيس .

ويتوقى المنصور سنة ١٥٨ للهجرة ويخلفه المهدي فتطمح نفسه إلى الوفاة عليه والحصول على جوائزه ، ويقدم بغداد ويلجأ إلى يزيد بن مزيد الشيباني القائد الممدح المشهور كي يذكره للمهدي ويدخله عليه ، ويظهر أن يزيد كان يعرف سيرته فأخذ يسوفه ، غير أن قائداً آخر هو روح بن حاتم بلغه خبره وكأنما كان يود لو يصبح من ممدوحيه ، فتبرع بذكره للمهدي متلفحاً ، فأمر بإحضاره ، ولم يكذ يفرغ من إنشاده ملحة التي أعدّها حتى وصله بعشرة آلاف درهم وهب له عبداً وقبينة وخلع عليه خلعاً كثيرة^(٤) ، وجعله من سُمّاره ومن يحضرون مجالسه^(٥) . وكانت في المهدي شدة في شئون الدين وانتهى إليه من غير وجه أن بشاراً يفسد النساء والشباب بغزله الفاضح ، فأمره أن يكفّ عن ذلك ، وكفّ بشار على مضض ، وأخذ يردد في أشعاره أنه ترك الغزل والنسيب نزولاً على إرادة الخليفة من مثل قوله^(٦) :

-
- (١) أغاني ١٥٦/٣ - ١٥٨ .
 (٢) أغاني ١٩٠/٣ والديوان ٣٢٦/٢ - ٣٣٨ ، ٢٠٣/٣ .
 (٣) أغاني ١٧٤/٣ ، ١٧٨ ، ١٨٩ والديوان ١٠٧/١ ، ١٤٠ ، ٢١٩/٢ .
 (٤) أغاني ٢١٣/٣ .
 (٥) ابن المعتز ص ٢١ وما بعدها .
 (٦) أغاني ٢٣٩/٣ وانظر ص ٢٤١ وما بعدها .

يا منظرًا حسنًا رأيته من وجه جاريةٍ فديته
بعثتُ إلىَّ تسومني بُردَ الشباب وقد طويته
والله ربُّ محمدٍ ما إن غدرتُ ولا نويتُ
أمسكتُ عنك وربما عرضَ البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبته
ونهاى الملك الهما مُ عن النَّسِيب وما عصيته

وكان ذلك يؤذى الخليفة منه إذ كان يراه لا يكفُّ عن الغزل ، وترامت إليه زندقته وما يتغرَّق فيه من مجون ، فحرمه جائزته ، ولا نصل إلى سنة ١٦٦ حتى يتعقب المهدي الزنادقة ويقتل منهم خلقًا كثيرًا ، ويلزم بشار البصرة لإشفاقًا على نفسه ، غير أنه لا يصمت ، بل يأخذ في رثاء أصدقائه الذين يُقتلون على الزندقة ^(١) ، ويهجو المهدي ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعا ^(٢) . ويقدمُ المهدي إلى البصرة في سنة ١٦٨ فيشهد أمامه شهود موثِّقون بأن بشارا زنديق ، حينئذ يأمر بضربه حتى التلف ، فيضربُ سبعين سوطًا يموت على إثرها ويُرْمى به في البَطيحة ، ويحییء بعض أهله فيحملونه ويدفنونه .

وأخبار بشار في أسرته قليلة ، ويدلُّ هجاء حماد عَجَرْد له أنه كان له امرأة تسمى أمانة ^(٣) ، وهو يكثر في أشعاره من ذكر أطفاله الصغار يستعطف بهم ممدوحه حتى يضاعفوا له الجائزة ^(٤) ، وقد حزن حين اختطف منه القدر ابنه محمدا ^(٥) ، واختطف منه بنتًا صغيرة ^(٦) . ومر بنا في غير هذا الموضع أنه كانت له جارية تسمى ربابة ، وكانت له جارية أخرى سوداء ، وفيها يقول ^(٧) :

وغادةٍ سوداءٍ بَرَّاقَةٍ كالماء في طيبٍ وفي لينٍ

(٥) أغاني ٣/١٦١ ، ٢٢٠ ، وانظر الديوان ٢٥٦/١ .

(٦) أغاني ٣/٢٢٩ .

(٧) أغاني ٣/١٩٣ .

(١) أغاني ٣/٢٣٤ والمختار من شعر بشار ص ٢٥ وأمال المرتضى ٢/١٣٣ .

(٢) أغاني ٣/٢٤٣ .

(٣) أغاني ١٤/٣٦٥ .

(٤) الديوان ١/٢٣٩ .

كأنها صيغت لمن نالها من عَنَبَرٍ بالمسك معجون
ولعلها السندية العجماء التي لم يتبع جنازته سواها^(١) . وذكر في غزله كثيرات
من القيان والحوارى ، وفَتَن فتونا بعبدة ، وقد أفرد صاحب الأغاني لأخباره معها
فصلاً خاصاً^(٢) .

وواضح مما قدمنا أن طبيعة بشار لم تكن بسيطة ولا ساذجة ، بل كانت معقدة ،
فقد كان فارسي الأصل ، وورث عن الفرس حدة في المزاج ، ونشأ قيناً ابن قين ،
وولد أعشى لا يُبصر . وكان لذلك يحسُّ بغير قليل من المرارة ، وضاعفها في
نفسه فقرأسرته وتخلفها في المجتمع . وقد رُبِّي في مهد عربي ، فأتقن العربية وتمثَّل
سليقتها بكل مقوماتها . وسرعان ما أخذ يختلف إلى حلقات المتكلمين بالمسجد
الجامع يستمع إلى محاوراتهم لأصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة ، وليس من
ريب في أنه اطلع على ما نقله ابن المقفع إلى العربية من الآداب الفارسية وغير
الفارسية ومن الآراء المزدكية والمانوية . وكان ذلك كله سبباً في أن يحدث تشويش في
فكره وأن تمتلئ نفسه بالشك والحيرة ، ولم يستطع الخلوص من ذلك فتحول زنديقاً
يبغض الدين الخفيف ، حتى إذا نجحت الثورة العباسية تحول شعوبياً يبغض
العرب والعروبة . وكانت بيئته تكتظ بالحوارى والقيان ممن لا يعصمهم من الغواية
دين ولا عرف ، فاختلط بهم ، وتغزل فيهن غزلاً حسيّاً ، وربما دفعه فقد بصره
إلى ذلك من بعض الوجوه ، إذ الضرب لا يرى الجمال ببصره ، إنما يحسه بلمسه
ويده ، ويتسع جشعه الجسدى ، حتى ليصبح غزله ، في بعض جوانبه ضرباً من
صياح الغريزة النوعية الذى ينبو عن الذوق .

وكل هذه العناصر السالفة أثرت في طبيعة بشار وجعلتها شديدة التعقيد ،
ويجمع الرواة والنقاد على أنه زعيم الشعراء المحدثين ، وهى زعامة تُردُّ إلى أنه استطاع
أن ينهج لهم في قوة السبيل التي ترسمها الشعراء من حوله ومن بعده ، وهى سبيل
تقوم على التمسك بالأصول التقليدية للشعر العربى من جهة ، ومن جهة ثانية تفسح
لتجديد الشاعر العباسى بحكم رقيه العقلى ومعيشتة الحضارية . وبذلك ازدهر الماضى
في الحاضر ونما الحاضر من خلاله هذا النمو الذى جعل الشعر العربى عنده يحتفظ

(٢) أغاني ٢٤٢/٦ وما بعدها .

(١) أغاني ٢٤٨/٣ .

بشخصيته الخالدة ، إذ ظلت أساليبه — مهما لانت ورقّت — مطبوعة بطوابع
النصاعة والإيجاز والتركيز ، تلك الطوابع التي تشيع فيه الدقة والوضوح والجمال ،
كما ظلت معانيه وأغراضه البدوية القديمة بجميع رواسيها الخيالية . وحقاً حدث فيه
تجديد واسع ولكنه تجديد لا يفصله من تراثه ، بل يتيح لهذا التراث أن يعاد خلقه
بحسب متحضر وذوق مرهف وعقل بصير يعرف كيف يفيد من كنوز الآداب
والثقافات المترجمة وكيف يلائم بين ما يصوغه وبين بيئته المتحضرة . وقد أتاح
ذلك لأغراض الشعر عند بشار أن تتطور تطوراً قليلاً أو كثيراً ، بحيث يظل
الاتصال قائماً بين الشعر العباسي والشعر القديم .

وعجيبٌ حقاً أن يستطيل بشار على العرب وعلى دينهم الحنيف وأن يقهره
شعرهم ، ويملك عليه ذات نفسه ، ويسخره ليكون أداة من أدوات ازدهاره وبرهانه
ببينة على قوة شخصيته ، تلك الشخصية التي يظل فيها الماضي الفني ماثلاً ، مهما
سقط على أصحابه من اختلافات في الزمان والمكان ومهما وقع عليهم من مؤثرات
حضارية وثقافية ، ومهما ألدوا في العروبة والدين . وما من شك في أن بشاراً كان
ملحداً زنديقاً يكفر بالعرب ، ومع ذلك اضطرّ اضطراراً حين عاش شعرهم أن
يتمثل أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم وخواطرهم مخترقاً في تمثله حجب الزمان والمكان
مطأطئاً من غروره . وليس معنى ذلك أنه انفصل عن عصره ، فقد مضى يزاوج
بين الماضي والحاضر ، يتلقى الماضي ويحياه ، وأيضاً يتلقى الحاضر ويحياه ،
وبذلك وصل بين الحاضر والماضي بريقه العقلي وحياته الحضارية وصلاً خصباً

وقد يكون من الغلو أن نزع أن ذلك كان من عمل بشار وحده ، فقد شركه فيه
جميع شعراء عصره إلا نفرأ قليلاً ، إذ مثّل الشعر القديم أمامهم كالأم الغاذية ،
فكل شاعر يتغذى منه ما يقوم به عمله ، حتى إذا مرّ عليه أخذ يوازن بين الغذاء
القديم والغذاء الحديث : غذاء الثقافة والحضارة ، وهي موازنة غدت كأنها طبيعة
العصر ، وكان مما أدركي جذوتها في نفوس الشعراء أن شاعراً لم يكن يحظى بتقدير
بين أقرانه إلا إذا حقق لنفسه حظاً من هذه الموازنة ، وما لا شك فيه أن حظ
بشار منها كان موفوراً ، فإنه احتفظ للشعر بأصوله التقليدية ، ومضى يطور في
أغراضه ومعانيه تطوراً يختلف قلة وكثرة وسعة وعمقاً .

والمديح أهم غرض وصل بشاراً بالتراث القديم ، فقد حافظ فيه محافظة شديدة على سنته الموروثة ، سواء من حيث جزالة الصياغة ورسائنها ومتانتها ، أو من حيث المنهج الذى سار عليه القدماء ، إذ كانوا يقدّمون بين يديه وصف الأطلال والنسيب والغزل ووصف البعير أو الناقة ورحلتهم عليهما فى الصحراء مستطردين إلى وصف مشاهد الطبيعة وما يجرى فيها من حيوان ، ثم يخرجون من ذلك إلى المديح بمآثر الأفراد والقبائل ناثرين فى أطراف قصيدهم بعض الحكم . وكل ذلك احتذاه بشار فى كثير من مدائحه ، بل لقد احتذى نفس المعانى والأخيلة ، وبلغ من شدة هذا الاحتذاء عنده أن نظم بعض مدائحه على غرار أراجيز رؤبة مكثرأ فيها من الغريب الوحشى على نحو ما هو معروف فى أرجوزته ^(١) : (يا طلل الحى بذات الصّمَد) . ونراه يصرح فى بعض مدائحه بأنه بناها أعرابية وحشية حتى يرضى ممدوحه سلم بن قتيبة الذى كان يتباصر بالغريب ^(٢) .

وإذا تركنا إطار المديح ومقدماته إلى معانيه التى ساقها فى وصف الخلفاء والولاة وجدناه يخلع عليهم نفس الشيم الرفيعة التى طالما خلعها الجاهليون والإسلاميون على ممدوحهم من الكرم والمرءة والشجاعة والنجدة وإباء الضيم ، وكان الإسلاميون من أمثال جرير والفرزدق قد لاحظوا الفرق الحادث بين من يمدحونهم من الخلفاء والولاة وبين سادة القبائل فى الجاهلية ، فأسبغوا عليهم كثيراً من الصفات الدينية والزمنية ، ونرى بشاراً يقتدى بهم وخاصة فى مديحه للمهدى ^(٣) ، وكأنه حتى فى هذا الجانب لا يزال موصولاً بالتراث الفنى القديم . وكان طبيعياً لذلك أن يستمد جمهور معانيه فى المديح من القدماء ، وهذا نفسه يلاحظ على مقدماته الطلاية والغزلية ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام النقاد كى يبحثوا فى سرقاته منهم ، كما فتحها أمام الشعراء لكى يحتذوا على صنيعه . على أنه ينبغى أن نعود فنقرر أنه كان يحاول النفوذ من خلال هذا الصنيع إلى معان وصور جديدة يستلهم فيها حسه المرهف وعقله الدقيق وذوقه الحضارى المترف حتى حين يعتمد إلى المحاكاة المسرفة للقدماء على نحو ما يلقانا فى أرجوزته : « يا طلل الحى بذات الصّمَد » . وحرى بنا أن نقف

(٢) الأغاني ١٩٠/٣ وما بعدها .

(٣) انظر الديوان ٣٢١/٣ ، ٢٧٧/٢ .

وما بعدها ، ٢٩٧/٢ .

(١) الديوان ٢١٩/٢ والأغاني ١٧٤/٣

وراجع فى أراجيزه أخرى الديوان ١٣٤/١ ،

١٤٠/١ .

قليلا عند قصيدته البائية التي مدح بها يزيد بن عمر بن هبيرة وفي رواية أنه مدح بها مروان بن محمد ، وهي تلك التي يستهلها بقوله :

جفا وده فازوراً أو ملّ صاحبة وأزرى به أن لايزال يُعائيه

فلإننا نجده يستهلها بالنسيب ووصف سرى الليل على بعيره وسط الفياق المقفرة ، ويستطرد إلى وصف حمار الوحش وأتته وما مرّ بها وبه من أيام الربيع المنعشة ثم ما سقط من أيام الصيف اللافة التي أوقدت العطش في صدور الأتّين وحمارها ، فإذا هي تطلب الماء تريد أن تشفى غلتها منه ، وما إن تريد أن تقع عليه حتى يرسل الصائد عليها سهامه . ويمضي إلى مديح يزيد فيوغل في فخر شديد بقيس قبيلته التي كان لها ولاؤه ، ويطنل في وصف بلاتها في حروب مروان بن محمد وقسّم الثاثرين عليه . وبشار في كل ذلك ينزع متزع القدماء حين كانوا يمدحون سادة عشائهم فيفخرون بما أثر العشيرة ووقائعها الحربية ، وكأنه يقصد إلى ذلك قصداً ، ولكن لا تظن أنه طابق النموذج القديم تمام المطابقة ، فقد أدخل في نسيج قصيدته خيوطاً جديدة ، وتلقانا هذه الخيوط واضحة في نسيبه إذ تحدث فيه عن الصداقة والصديق ، وكأنه يستلهم ما كتبه فيهما ابن المقفع بكتابه « الأدب الكبير » كما يستلهم الكلاميين في قوة البرهان والحجة ، فإذا هو يقول ^(١) :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فعرش واحداً أوصل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبة ^(٢)
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاريه

ونمضي معه في وصف مشاهد الصحراء وصفاً حياً ، حتى إذا انتهى منه فخر بقيس مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد حتى ليمحقونهم حقاً ، يقول :

إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه ^(٣)

(٢) مقارف : مرتكب .
(٣) صمر خده : تكبر وعتا وبغى .

(١) أغاني ١٩٧/٣ وانظر القصيدة في الديوان
٣٠٥/١ .

وكنا إذا دبَّ العدو لسُخْطنا
ركبنا له جَهْرًا بكل مثقَفٍ
وجيشٍ كجُنْح الليل يزحف بالحصى
غدونا له والشمسُ في خِدر أمِّها
بضربٍ يذوق الموت من ذاق طعمه
كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فوق رعوُسنا
بعثنا لهم موتَ الفُجَاءة إننا
بنو المُلْك خَفَّاقٌ علينا سبائِبُهُ^(٦)

والفخر بالبلاء في الحروب قديم ، غير أن جديداً واضحاً يداخل معاني هذه الأبيات ، وهو يُرَدُّ من بعض الوجوه إلى مزاج بشار الفارسي الذي أدَّى به إلى المبالغة ومجاوزة القصد الذي يُعَدُّ من مميزات الطبع العربي الخالص ، كما يُرَدُّ إلى محاولة الإبداع في التصوير ، ويُروى أن الأصمعي وقف متعجباً إزاء البيت السابع وأنه قال : « وُلِدَ بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر البُصْرَاء أن يأتوا بمثله »^(٧) . وكان يعتمد في ذلك على ذكاء حاد جعله يستغلُّ ذاكرته من صور الأقدمين وأخيلتهم استغلالاً فاق فيه المبصرين من حوله ، مستعيناً بحس دقيق . وكان مما دفعه إلى ذلك شعوره بفقده لبصره ، وكأنه كان يريد أن يثبت أنه على الرغم من آفته يستطيع أن يؤلف الصور الحسية بل أن يبدع في تأليفها . على أن من يمعن النظر في تصاويره يلاحظ عجزه عن تمثيل الدقائق التي لا تُرى إلا بحاسة البصر .

ومهما يكن فقد استطاع بشار في مديحه أن يضيف إلى العناصر البدوية القديمة عناصر مستحدثة ، وهي تبدو قليلة في قصائده الأموية ، وكلما أوغلنا معه في العصر العباسي أحسنا بنموها ، فقد أخذ يتخفف من مشاهد الصحراء ومن

الريح . ثماله : أطرافه .

(٤) مثاله : معاييه .

(٥) النقع : غيار الحرب .

(٦) سبائِبُهُ : أعلامه وراياته .

(٧) أغاني ١٤٢/٣ .

(١) دب : مشى في استخفاء .

(٢) المثقَف : الريح المقوم . الأبيض :

السيف .

(٣) يزحف : يهجم . بالحصى أى أنه

كالحصى كثرة . الشوك هنا : السلاح . الخطي :

المقدمات الطللية مكثفياً بالغزل . ولما أمره المهدي بالكفّ عن الغزل الماخن أخذ يردد — كما أسلفنا — في مطالع بعض مدائحه له أنه سيكفّ عن الغزل نزولاً على مشيئته . وكان قد وصف السفينة في إحدى^(١) مدائحه لابن هبيرة ، ونراه يعود إلى ذلك مراراً في بعض مدائحه^(٢) للمهدي ، وكأنه يريد أن يضيف إلى المقدمات الطللية القديمة مقدمة جديدة من بيئته . وقد عكف على معاني المديح القديمة بولّد فيها ويفرّع ويستنبط دقائق كثيرة من مثل قوله في خالد بن برمك يصف سماحته ونائله الغمر^(٣) :

إذا جثته للحمّد أشرق وجهه وإليك وأعطاك الكرامة بالحمّد
مفيدٌ ومتلافٌ سبيلُ ثرائه إذا ما غدا أوراخ كالجزر والمد^(٤)
وقوله في عمر بن العلاء قائد المهدي الذي قضى على ثورة الحرّمية بجرّان^(٥)

فتى لا ينام على دمنّة ولا يشرب الماء إلا بدمٍ
يلدّ العطاء وسفك الدماء ويغدو على نعيمٍ أو نقمٍ
ويقرن دائماً في مديحه للقواد والولة الشجاعة إلى الكرم الفياض ، ويستنبط منهما دقائق كثيرة مستلهمًا لطائف عقله ودقائق تصويره ، من مثل قوله في مديح عقبة بن سلم وإلى البصرة^(٦) :

إنما لذّة الجواد بن سلم في عطاء ومركبٍ للقاء
كخارج السماء سببٌ يديه لقريبٍ ونازح الدار نائي^(٧)
ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلدّ طعم العطاء
يسقط الطير حيث ينتشر الحبوب وتغشى منازل الكرماء
لا يهاب الوغى ولا يعبدُ الما ل ولكن يهينه للشناء

(٥) المختار من شعر شارح الخالدين ص ٧٧ .

(٦) الديوان ١١١/١ والأغاني ١٨٩/٣ .

(٧) خراج السماء : الغيث . السيب : العطاء .

(١) الديوان ١٤٧/١ .

(٢) الديوان ٢٨٣/٢ ، ٢٨٠/٣ .

(٣) أغاني ١٩٢/٣ والديوان ١٢٥/٣ .

(٤) التراث هنا : المال مطلقاً .

أَرْيَحِيْ لَهُ يَدٌ تُنْطِرُ النَّيْ لَ وَأُخْرَى سُمُّ عَلَى الْأَعْدَاءِ (١)

وواضح أنه يجعل لذته في الكرم والشجاعة، ويصور كرمه واسترساله فيه بالغيث الذي لا مفر من سقوطه على القرييين والنائين . ويجرد عطاءه عن الغايات ، فهو لا يعطي خوفاً من هجاء ولا رجاء في مديح ، وإنما يعطي لأنه يجد لذة في العطاء من حيث هو ويجد فيه استرواحا . ويتمثل عكوف السائلين على بابهِ بسقوط الطير على الحب . ويصف شجاعته ويقول إنه لا يهاب الموت ، وإنه لا يزال يبذل ماله كأنه يريد أن يهينه لمن يثنون على صنيعه . ويصوره مراسلاً نداءه على السائلين وصواعق الموت على الأعداء الباغين . وتتضح في هذه القطعة خصائصه ، فهو يحاول أن يستقصى المعاني عارضاً لها في وجوه شتى تصور دقة فكره وطرافة أخيلته ، مستعيناً بالمقابلة والطباق وبيعض الحكم كما في البيت الرابع . وقد أفرد للحكم قصيدة خاصة (٢) .

ولم تؤثّر لبشار مرث كثيرة ، وربما رجع ذلك إلى أنه كان منغمساً في اللهو وأن نفسه لم تكن مفضولة على الحزن ، ومع ذلك فلأننا نرى الموت يهز نفسه هزاً حين فقد ابنه محمداً ، وفيه يقول (٣) :

أَصِيبَ بُنْيٍ حِينَ أَوْرَقَ غُصْنُهُ وَأَتَى عَلَى الْهَمِّ كُلِّ قَرِيبِ
وَكَاكَ كَرِيمَانَ الْعُرْسِ تَخَالُهُ ذَوَى بَعْدَ إِشْرَاقِ الْغُصُونِ وَطِيبِ
وَمَا نَحْنُ إِلَّا كَالْخَلِيطِ الَّذِي مَضَى فَرَانَسٌ دَهْرٌ مَخْطِئٌ وَمَصِيبِ
نُؤْمَلُ عَيْشاً فِي حَيَاةٍ ذَمِيمَةٍ أَضُرْتُ بِأَبْدَانٍ لَنَا وَقُلُوبِ

ونراه يحزن حزناً عميقاً على أصدقائه الذين فتك بهم المهدي فتكاً ذريعاً ، وكأنما رأى فيهم مصيره الذي ينتظره ، وقد مرت في الفصل السابق قطعة يرثي بها صديقاً منهم ، وكأنه يرثيهم جميعاً وقد ندبه بها أحرّ نذب وأشجاء . وروى له أبو الفرج ميمية رثى بها خمسة من أصدقائه تقطر أسى وحزنا ، ولانشك

(١) أريحي : كريم يهز الندى . النيل :
العطاء .

(٢) الديوان ٢٥٢/١
(٣) الديوان ٢٥٤/١ والأغاني ١٦١/٣ .

في أنهم جميعاً قتلوا على الزندقة ، إذ نراه فيها جزءاً أشد الجزع ، مُلتئاعاً أشدّ
الالتئاع على شاكلة قوله (١) :

كيف يصفون النعيم وحيداً والأخلاء في المقابر هاماً (٢)
نَفِسَتَهُمْ عَلَى أُمِّ المنايا فَأَنَامَتَهُمْ بعنفٍ فناموا
لا يَغِيضُ انسجامٌ عني عليهم إغما غاية الحزين السَّجَامُ (٣)

والرثاء عنده — على كل حال فن طارئ ، وكانت وراءه فنون أخرى عاش
لها حياته ، ونقصد فنون الفخر والهجاء والغزل والمجون . وقد بدأ حياته مفاخراً هاجياً ،
مستلهماً ما شاع في بيئة البصرة من الفخر والهجاء على لسان جرير والفرزدق ومن
كان حولهما من الشعراء . وحاول أن يدخل في معاركهما ، وهو لا يزال غَضٌّ
العود ، فهجا جريراً مؤملاً أن يردَّ عليه فيطير اسمه في الناس ، ولكن جريراً لم يحفل
به لأنه كان لا يزال فتى ناشئاً ، ولم يردّه عدم احتفال جرير به عن الميدان ،
فقد أخذ يصول ويجول في هجاء الناس ، ودخل في الخصومات القبلية بين عشيرته من
بنى عُقَيْل القيسية وغيرها من العشائر . ولما تفاقم شره شكاه الناس إلى أبيه ،
ولكنه ازداد شراً وإيذاءً ، كما مر بنا في صدر ترجمته .

وعوامل مختلفة جعلت بشاراً يسرف في هجائه وفخره ، من ذلك أنه كان يريد
أن يشتهر في هذين القنين شهرة جرير والفرزدق ، ومن ذلك أن نفسه كانت تنطوي
كما أسلفنا على غير قليل من المرارة بسبب فقد لبعصره ، وهي مرارة زاداها اضطراباً
في نفسه أنه كان مولى ، والمولى كانوا متخلفين في المجتمع الأموي ، وكان فقيراً
بائساً ، فاندلع بنفسه بفخره وهجائه عن قروحه النفسية ولكن بمن يفخر ؟ أما في
العصر الأموي فقد مضى يفخر بعشيرته وأصولها من قيس ، وكان مما أشعل هذا
الفخر في نفسه أن الخليفة حينئذ — وهو مروان بن محمد — كان قيسى الهوى ،
وأن وإلى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري كان يتعصب لأصوله من قيس
تعصباً شديداً ، وكان بشار يعيش في كنفه ، فضى آنذاك يفتخر بقيس ومضر

(٢) يغيض : يحف . السَّجَام : سيلان
الدمع .

(١) أغاني ٢/٢٣٦ .
(٢) هام هنا : أموات .

افتخاراً يحاول به أن يبلغ عنان السماء على نحو ما رأينا في قصيدته البائية وعلى شاكلة قوله ^(١):

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمَطِّرَ الدَّمَ
إذا ما أَعْرَضْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا
وإذا مضينا معه إلى العصر العباسي ، عصر انتصار الفرس على العرب وجدنا شعوره بالعصبية القبلية يتحول إلى شعور جديد بالعصبية الجنسية ، فإذا هو يفاخر العرب بماضى قومه التليد ، وإذا هو يتحول شعوبياً مارقاً يتغنى بأجداد قومه الحضارية كافريناً بالعرب والعروبة ، وتصور هذه النزعة عنده أدق تصوير قصيدته ^(٢):

هل من رسولٍ مخبرٍ عني جميعَ العربِ
وهي صياح وضجيج بتصور أبهه الملك الفارسي وأيضاً الملك الرومي ، إذ زعم أن الروم أخواله ، هاتفاً هتافاً مقدعاً بالعرب ومعيشتهم البدوية الحشنة .
واصطدم بشار بكثير من الشعراء ، وجرَّ عليه هذا الاصطدام بلاء كثيرأ وخاصة من حماد عجرد الذي سلقه بلسانه ، وأصلاه بناره ، مما جعل معارك هجائية عنيفة تنشب بين الواعلين على نحو ما مر بنا في الفصل السابق وهي معارك كانت تُسْتَخْدَمُ فيها غالباً مقطوعات قصيرة ، تشبه أدقَّ الشبه سهاماً مسمومة ، وقد اختلفت أنواع السموم التي كانا يغمسانها فيها ، فتارة يعمدان إلى التهوين والتحقير ، وتارة يعمدان إلى انتهاك العرض وقذف الزوجات والأخوات والأمهات ، مع محاولة كل منهما تلطيخ صاحبه بتهمة الزندقة . وما نسوقه من ذلك قول بشار في أم حماد ^(٣)
إذا سُئِلَتْ لم تكن كَرَّةً ولكنْ تَذُوبٌ ولا تَجْمُدُ
وراء هذا البيت في القصيدة أبيات يصرح فيها بفجورها وغوايتها تصريحاً تتفرَّز منه النفس الكريمة .

واشتهر بشار بالفن في الغزل ، ويتضح فيه عنده تمثله لكل ما نُظِمَ في هذا الفن قديماً من التشبيب والنسيب وبكاء الديار ، ومن الغزل المادى عند عمر بن

(٣) الديوان ١٢٣/٣ .

(١) أغاني ١٦٢/٣ .

(٢) الديوان ٣٧٧/١ وانظر ٢٢٩/٣ .

أبى ربيعة وأضرابه من شعراء مكة والمدينة ، ومن الغزل العذرى عند جميل وأمثاله من التجديدين والنازلين ببوادي الحجاز . وقد مضى فى ذلك كله يستلهم الرقى العقلى الحديث والحضارة المادية التى تنفّس فيها ، ونراه أحياناً يقترب اقتراباً شديداً من القدماء ، حتى ليتحدث عن الأطلال والرسوم فى مثل قوله ^(١) :

لَعَبْدَةٌ دَارُ مَا تَكَلَّمْنَا الدَّارُ تَلُوحُ مَغَانِيهَا كَمَا لَاحَ أَمْطَارُ ^(٢)
أَسَائِلُ أَحْجَارًا وَنُؤْيَا مَهْدَمًا وَكَيْفَ يَجِيبُ الْقَوْلَ نُؤْيُ وَأَحْجَارُ ^(٣)
وَمَا كَلَّمْتَنِي دَارُهَا إِذْ سَأَلْتُهَا وَفَى كَبْدَى كَالنَّقْطِ شُبَّتْ بِهِ النَّارُ
وَعِنْدَ مَغَانِي دَارِهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ لَمَكْتَسِبِ بَادِي الصَّبَابَةِ أَخْبَارُ
ويقترب أيضاً حين يستغل عناصر النسب والغزل القديم وما يجرى فيه من وصف لوعة الحب والسهاد الطويل ، وما صَوَّرَ عشاق العرب من إذعانهم لمعشوقاتهم وما يسكن فى قلوبهم من سحر وفتنة ، وما يبعث نسيم الصبا الحلواً المار بديارهن فى أنفسهم من برّد وأمن وغبطة وما ينصبون حولهن من شباك التضرع والتذلل والاستعطاف ، حتى ليخيلون إليهن أنهم قتلى حبهن وسهام عيونهن ، يقول من قصيدة فى معشوقته عَبْدَةٌ ^(٤) :

أَبَيْتُ أَرْمَدَ مَا لَمْ أَكْتَحِلْ بِكُمْ
رَقَّتْ لَكُمْ كَبْدَى حَتَّى لَوْ أَنْكَمُ
كَأَنَّ قَلْبِي إِذَا ذَكَرَاكُمْ عَرَضَتْ
مَا هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ أَرْضِكُمْ
يَرِقُ قَلْبِي وَتَزْدَادِينِ لِي غِلَظًا
تَحَرَّجِي بِالْهَوَى إِنْ كُنْتِ مُومِنَةً
وفى اكتحالى بكم شافى من الرَّمَدِ
تهوون أن لا أريد العيش لم أُرِدِ
من سحر هاروت أو ماروت فى عُقْدِ ^(٥)
إلا وجدتُ لها بَرْدًا عَلَى كَبْدِي
ما ذاك فيما أَرْجَى مِنْكَ بِالسَّدَدِ ^(٦)
بِاللَّهِ أَنْ تَقْتُلِي نَفْسًا بِلا قَوْدِ ^(٧)

بشارص ٨٢ .

(٥) العقد : ما ينقبه الساحر بزمزمته لفرض البحر .

(٦) السدد : السداد والصواب .

(٧) القود : القصاص .

(١) أغاني ٢٤٦/٦ .

(٢) مغانيها : منازلها المهجورة . أسطار :

جمع سطر ، يشبه المغاني بسطور الكتابة .

(٣) النؤى : حفرة يخفونها حول الخيمة على شكل هلال تمنع عنها سيول الأمطار .

(٤) انظر الديوان ٣١٥/٢ والمختار من شعر

وقد رقت الحضارة حسَّه وفتحت له في الغزل أبواباً من المعاني والصور التي
نمَّ عن أثر البيئة وما شاع فيها من ترف مادي وشعور رقيق حاد ، وما يمثل ذلك
عنده من بعض الوجوه قوله ^(١) :

ياليتي تزداد نُكْرًا من حُبٍّ مَنْ أَحْبَبْتُ بِكْرًا
حَوْرَاءُ إِنْ نَظَرْتُ إِلَيْكَ سَقَتُكَ بِالْعَيْنِينَ خَمْرًا
وَكَأَنَّ رَجَعَ حَدِيثُهَا قِطْعُ الرِّيَاضِ كُوسِينَ زَهْرًا
وَكَأَنَّ تَحْتَ لِسَانِهَا هَارُوتَ يَنْفُثُ فِيهِ سِحْرًا
وتخال ما جمعتُ عليَّ ثِيَابَهَا ذَهَبًا وَعِطْرًا
وَكَأَنَّهَا بَرْدُ الشَّرَا بَ صَفَا وَوَافَقَ مِنْكَ فِطْرًا
جَنِيَّةٌ إِنْ سِيَّةٌ أَوْ بَيْنَ ذَاكَ أَجَلُ أَمْرًا

وواضح في هذه القطعة أثر فقدته لبصره ، فإنه لا يكاد يرتفع عن نطاق الشم
والسمع واللمس والحسّ ، فهو يصف أنفاسها وما تنشره من طيب كطيب الرياض
ويصف حديثها وما تذيع فيه من سحر ، ويصور جسدها ذهباً وعطراً ، أما ما ينم
به من جمالها فشراب بارد سلسبيل صادف صائماً يتحرق عطشاً . وقلما ارتفع في
غزله عن الحس والسمع والأذن ، ونوّه بذلك كثيراً في شعره ، محاولاً أن يعتذر عن
فقدته لمتعة الجمال متعة حقيقية بالبصر ، ومن ثمّ مضى يردد في أشعاره أن السمع
يحلّ محلّ العين في تقدير الجمال والإحساس التام به ، من مثل قوله ^(٢) :

يَا قَوْمُ أَذْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالْأُذُنُ تَعَشِقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أحياناً
قَالُوا بَعْنِ لَا تَرَى تَهْدِي؟ فَقُلْتُ لَهُمْ الْأُذُنُ كَالْعَيْنِ تُوفِي الْقَلْبَ مَا كَانَا

وكان لذلك أثر عميق في غزله إذ طبعه بطوايع الحس ، وليس ذلك فحسب ،
فقد أماله بشار — كما أسلفنا — نحو الإفصاح في وضوح عن الغريزة النوعية لإفصاحاً
بثّ فيه كل ما استطاع من فحش وإثم وفسق ، لا يتحرج ولا يرمي ديناً ولا خلقاً ،

حتى ليصور جانبه الحيواني الجشع ، عامداً إلى التفصيل أحياناً ^(١) ، وأحياناً إلى الإجمال بمثل قوله ^(٢) :

فَبِتْنَا مَعَا لَا يَخْلُصُ الْمَاءُ بَيْنَنَا إِلَى الصَّبْحِ دُونِي حَاجِبٌ وَسُتُورٌ
وقد مضى يحضّ حصّاً صريحاً على الإثم ويغري الناس بفتنة الجسد ، وكأنما لم يعد لجمال المرأة عنده من معنى نفسى سام ، فقد رُدَّ جمالها كله إلى جسدها وأصبحت في رأيه أداة للغريزة الجنسية ، أداة طيعة تنال مهما تأبّت واستعصت ، إذ لا تلبث أن ترضى وأن تُبْلَغ الرجل منها ما يريد ، يقول ^(٣) :

لَا يُؤَيِّسُنْكَ مِنْ مَخْبِئَةٍ قَوْلٌ تَغْلُظُهُ وَإِنْ جَرَحَا
عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مَيَاسِرَةٍ وَالصَّعْبُ يُمْكِنُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

ويحاول أن يبرر المعصية ، فيحلّ القبلية ، ويغري باجتناء زهرات الجسد واقتطاف ثمراته ، بل خطيئاته ، دون التفات إلى الناس وإلى عرفهم وألستهم ، فالحياة فرص واستمتاع جسدى ، بل هجوم على هذا الاستمتاع وما يُطَوَى فيه من لذة وإثم ، يقول ^(٤) :

قَالُوا حَرَامٌ تَلَاقَيْنَا فَقُلْتُ لَهُمْ مَا فِي التَّلَاقِ وَلَا فِي قُبْلَةٍ حَرَجٌ
مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكِ اللَّهْجُ

ومن أجل ذلك كله ضاق به الوعاظ وأهل الصلاح وهتفوا به في وعظهم وكلامهم ، ولم يَرْعَوْ فرفعوا أمره إلى السلطان ، وتدخل المهدي ونهاه فأنتهى ، ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن شاع غزله الفاجر على كل لسان ، وكان مما هياً لذلك تعلق الجوارى والقيان بهذا الغزل وتغنيهن فيه ، وكان جمهورهن مثل بشار لا يعصمن خلق ولا عرف ولا دين ، وكان قد انغمس بعض الناس في اللذات . وقد يكون من المبالغة أن نجعل بشاراً وحده المسئول عن شيوع هذا الغزل العاهر ، فقد كان يشركه فيه الحبان من حوله في البصرة والكوفة وبغداد ، ولكنه على كل حال يعد

(٣) أغاني ٢٠٩/٣

(٤) أغاني ٢٠٠/٣

(١) أغاني ١٨٣/٣ وما بعدها .

(٢) المختار من شعر بشار ص ٢٤١ .

في طليعة من رَوْجوا له بحكم خصب ملكاته الشعرية . وقد مضى يكثر من وصف مجالس اللهو والغناء ، وله مقطوعات بديعة يصور فيها غناء بعض القيان ومدى ما كنَّ يخلبن به الألباب من غنائهن وضربهن على آلات الطرب^(١) ، وقد تغنى طويلاً بالخمير وكنوسها ودنانها ونُدْمانها وسُقَّاتها من مثل قوله^(٢) :

رَبِّ كَأْسٍ كَالسَّمْسَبِيلِ تَعْلُدُ	مَتُ بِهَا وَالْعَيُونُ عَنِ نِيَامٍ
حُبِسَتْ لِلشُّرَاةِ فِي بَيْتِ رَأْسٍ	عُتِّقَتْ عَانِسًا عَلَيْهَا الْخِتَامُ ^(٣)
نَفَحَتْ نَفْحَةً فَهَزَّتْ نَدِيمِي	بِنَسِيمٍ وَانْشَقَّ عَنْهَا الزُّكَّامُ
وَكَاَنَّ الْمَعْلُولَ مِنْهَا إِذَا رَا	حَ شَجَرَ فِي لِسَانِهِ بَرَسَامُ ^(٤)
صَدَمَتْهُ الشُّمُولُ حَتَّى بَعِينِي	هَ انْكَسَارُ فِي الْمَفَاصِلِ خَامُ ^(٥)
وَهُوَ بَاقِي الْأَطْرَافِ حَيَّتْ بِهِ الْكَأُ	سَ وَمَانَتْ أَوْصَالُهُ وَالْكَلامُ ^(٦)

وهو يصور صفاءها وقدمها وشذاها الذي يشق الزكام ، وتأثيرها الجسدى في الشارب وما تصيبه به من هذيان ومن فتور في العيون وارتخاء في المفاصل ، ثم ما تنزل به من هدوء وسكون وصمت حتى لكأنما ماتت أوصاله ومات الكلام . وهو يتصل في وصفه للخمير بترائثا القديم عند الأعشى وأضرابه وما أضيف إليه عند الوليد بن يزيد ونظرائه ، في الوقت نفسه يُعَدُّ مقدمة للماجنين من حوله ومن بعده لكي يزدوا في الطنبور ما شاءوا من أنغام وألحان .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف أن بشارا تمسك بالتراث الفنى وأصوله التقليدية وكيف مضى ينميه ويلائم بينه وبين حياته العقلية الحصبة وما عاش فيه من حضارة مادية حفَّ بها المحجون . وقد حاول ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، أن يجدد في شكل القصيدة ، فنظم في الرباعيات وفي المزدوج والمسمطات ، غير أنه ظل محتفظاً للغة الشعر بأساليبها الجزلة الرصينة ، وقد يرقّ ويلين ، ولكن دون

يريد الهذيان نفسه .

(٥) الشمول : الخمير . خام هنا : ارتخاء ،

وأصله طاقات الزرع الفضة .

(٦) حيث : حيث .

(١) أغاني ١٦٥/٣ .

(٢) أغاني ٢٣٥/٣ .

(٣) بيت رأس : من قرى فلسطين وتشتهر

بالكروم والخمر .

(٤) البرسام : مرض يصحبه هذيان ، وهو

أن يصيب أساليبه ضعف أو وهن ، إذ كان يفقه أسرار اللغة فقهًا دقيقًا وكل ما يتصل بلك الأسرار من رونق وبهاء وجمال .

٢

أبو نواس (١)

إذا مضينا بعد بشار إلى الجليل الذي خلفه وأبنا تأثره بالحضارة الفارسية المادية يزداد اتساعاً كما تزداد ثورته على العُرف والخلق والدين الحنيف ، حتى لتتحول في بعض جوانبها إلى صباح وعجيج وضجيج ، وطبيعي أن ذلك لم يكن عاملاً بحيث يشمل الجليل كله ، فقد كان هناك الفقهاء والوعاظ وأهل الصلاح ، إنما كان ذلك يَسْرِي بين نفر من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دور النخاسة وحانات المحون وبيوت اللهو والعبث ، فإن تركوها فلإلى دورهم التي حوّلوها إلى مقاصف للخمر والغناء يتطارحون فيها أشعارهم المعبرة عن غرائزهم وكل ما اقترن بها من شذوذ الغزل بالغلمان .

وأبو نواس الحسن بن هاني هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقي من جميع نواحيه ، وهو فارسي الأم والأب أيضاً ، وقد انبههم أمرأيه وجنسه على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بني سعد العشيرة اليمنيين ويتكئى بكنية يمنية هي أبو نواس ، وكذلك حين رأوا في أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام بينما ذهب بعض الأقدمين إلى أنه عربي ، وتماذوا فصنعوا له نسبا في بني سعد

منظور ولقي هفان وأبونواس لعبد الرحمن صدق وله أيضاً في غمريات كتاب ألحان ألحان طبع دار المعارف وانظر أيضاً « أبونواس الحسن بن هاني » للعقاد نشر مكتبة الأنجلو المصرية ومقالات طه حسين عنه في حديث الأربعاء الجزء الثاني وديوانه طبعة آصاف ، وقد طبع عدة طبعات .

(١) راجع في أبي نواس وترجمته وشعره الشعر والشعراء ص ٧٧٠ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٣ والأغاني (طبع السامي) ٢/١٨ وتاريخ بغداد ٤٣٦/٧ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢٥٤/٤ وابن خلكان في الحسن بن ابن هاني ونزعة الألبا ص ٩٩ وشذرات الذهب ٣٤٥/١ ورملة الجفان ٤٤٩/١ والموشح للمزباني ص ٢٦٣ وأخبار أبي نواس لابن

العشيرة^(١) . والصحيح أنه كان مولى فارسياً من موالى الجراح بن عبد الله الحكيم^(٢) والى خراسان لعهد عمر بن عبدالعزيز ، ويظهر أنه انتظم في جند الخلافة^(٣) ، وقد نزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد (١٢٧-١٣١ م) وهناك تعرف على جارية فارسية تسمى جُلْبَان كانت تغزل الصوف وتنسجه ، فاقترب بها ورزق منها عدة أولاد^(٤) ، منهم أبو نواس ، واختلف الرواة في السنة التي ولد فيها ، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة^(٥) ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي أبوه ، فنقلته أمه إلى البصرة ، وقامت على تربيته ، وسرعان ما دفعته إلى الكتّاب ، فحفظ القرآن وأطرافاً من الشعر ، وتفتّحت موهبته ، فأخذ يلهم بعض الأشعار ، وكان مليحاً صبيحاً^(٦) ، ويقال إن صبية وضيفة الوجه مرت به فازحته ساعة ، ثم رمت إليه بتفاحة معضضة ، فقال على البديهة من أبيات^(٧) :

ليس ذاك العُص من عيبٍ لها إنما ذاك سَوَّالٌ لِلْقَبْلِ

وشبَّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد العطارين ، فكان يذهب في العشي إلى المسجد يستمع من أبي عبيدة أخبار العرب وأيامهم ، ويلتقط من أبي زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر^(٨) وساقه القدر ليتعرف على والبة بن الحُباب أحد مجان الكوفة المشهورين ، ويقال إن هذه المعرفة نشأت في البصرة ، ويقال بل إن عامل الأهواز طلب صاحبه العطار ، فوافقه ، وكان عنده والبة ، فلم تكد تقع عينه على أبي نواس حتى استظرفه ، فحشّه على أن يصطحبه معه إلى الكوفة ، ولم يتردد الغلام ، ففضى معه^(٩) ، ويقال إن الذي أرغبه

(١) انظر أخبار أبي نواس لابن منظور ص ٣.

(٢) الاشتقاق لابن دريد (نشر الخالجي)

ص ٤٠٦ وابن المعتز ص ١٩٤ وأبو هفان

ص ١٠٩ ، ١٢١ .

(٣) وقيل : بل كان كاتباً من كتاب الجراح

وقيل بل كان حاكماً . انظر ابن منظور ص ٤ .

(٤) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٤

وما بعدها .

(٥) ابن المعتز ص ١٩٤ وانظر ابن منظور

ص ٥٥ .

(٦) راجع ابن منظور ص ٦ وابن المعتز

ص ٢٠٨ وذيل زهر الآداب للحصري ص ٩٤ .

(٧) ابن المعتز ص ٢٠٨ .

(٨) ابن منظور ص ٢٣ وما بعدها وأبو هفان

ص ١٠٩ .

(٩) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٧

وما بعدها وتاريخ بغداد ٤٨٧/١٣ . وأبو هفان

ص ١٠٩ .

فيه حسن شعره وما سمعه على لسانه من قوله ^(١):

ولها ولا ذنب لها حُبُّ كَأَطرافِ الرماحِ
في القلبِ يَجْرَحُ دائماً فالقلبُ مجروحُ النواحي

وربما كان من دوافع رحلته معه وإغراقه - فما بعد - في المحجون أنه كانت تؤذيه سيرة أمه في البصرة ^(٢) ، فارتحل معه ، وأخذ يَعْبُثُ من الخمر كي ينسى أمه ، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد وقع في حبال شيطان كبير ، غمسه في كل ما كان يقع فيه من خطايا وآثام هو ورفاقه تجان الكوفة من أمثال مطيع بن إياس وحماد عَجْرَد ، وكأنما كتب القدر عليه أن يصبح ضريبة الفسق والمحجون لعصره . وثاب قليلا إلى رشده ، فخرج إلى بادية بنى أسد ، وظل بينهم حولا كاملا يتزود من ينابيع اللغة ^(٣) ، وعاد ، ولكنه ولَّى وجهه نحو موطنه ، وأخذ يفد على المربد بألواحه للقاء الأعراب الفصحاء ^(٤) ، كما أخذ ينهل من دروس اللغويين ومحاضراتهم وخاصة خلفاً الأحمر الذي حثَّه على حفظ الشعر القديم وحفظ المئات من أراجيزه ، وكان خلف من أشعر رواة عصره وأعلمهم فحمل عنه أدبا واسعاً ، وفيه يقول في بعض مراثيه له ^(٥):

أودى جِماعُ العلمِ إذ أودى خَلْفٌ من لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفْ
كنا متى ما ندُّ منه نَعْتَرِفُ روايةً لا تُجْتَنَى من الصُّحُفِ

ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قالوا إنه: « كان عالماً فقيهاً عارفاً بالأحكام والفُتُيا بصيراً بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث ، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه » ^(٦) . وطلب أيضاً علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين ، ومرَّ بنا في الفصل السابق كيف كان يستظهر مصطلحاتهم في أشعاره ، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكَّد بعض الرواة أنه بدأ متكلماً ثم انتقل إلى نظم الشعر ^(٧) . وقد وصله هذا العلم

(٥) الديوان ص ١٣٣ .

(٦) ابن المعتز ص ٢٠١ .

(٧) ابن المعتز ص ٢٧٢ وانظر الحيوان

٤٥٠/٤

(١) ابن المعتز ص ٢٠٨ .

(٢) ابن منظور ص ٣٢ وما بعدها .

(٣) ابن منظور ص ١٢ .

(٤) الحيوان ٢٣٩/٦ .

بالثقافات التي كان يتصل بها المتكلمون، ومرت بنا أمثلة تصور أخذه من الثقافات الهندية ، ولا شك في أن اتصاله بالثقافتين الفارسية واليونانية كان أكثر عمقاً فقد كان فارسي الأصل ، وكان يحسن الفارسية إحساناً بعيداً جعله يلوك كثيراً من كلماتها في أشعاره ، ولا بد أنه نظر فيما ترجمه ابن المقفع وغيره من آدابها المختلفة ، وأيضاً لا بد أنه نظر في الفلسفة اليونانية وما اتصل بها من منطق بحكم ثقفه بعلم الكلام، إذ كان المتكلم لا يتمكن في هذا العلم ولا يجمع أفكاره « حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة »^(١) . وفي خمرياته ما يدل دلالة واضحة على أنه وقف وقوفاً دقيقاً على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم^(٢) . وتفرغ للتوادر والملاح وحفظ منها شيئاً كثيراً^(٣) ، وتصادف أن كان خفيف الروح ظريفاً^(٤) ، مما أعدّه لتكثر مطايباته ومداعباته ، وليكون سميراً للخلفاء والوزراء ويصف ذلك من نفسه ليحيى بن خالد البرمكي ، فيقول: ^(٥)

كم من حديثٍ معجبٍ لي عندك لو قد نبذتُ به إليك لسرّاً
إني أنا الرجلُ الحكيم بطبعه ويزيد في علمي حكاية من حكى
أتبع الظرفاء أكتب عنهم كما أحدثت من أحب فيضحك
وعلى الرغم من ظرفه لم يكن قريباً من نفس المرأة التي عاصرته ، فقد كانت تزدرى فيه غلامياته وسيرته الشاذة ، وكانت أول امرأة شغفته حباً ، وهو لا يزال في البصرة يختلف إلى المربد وحلقات العلماء ؛ جنان جارية الثقيين ، وعقد أبو الفرج فصلاً في أغانيه^(٦) لأشعاره فيها وأخباره معها ، ونراه يرسل لها بغزلياته ، وترسل له بسببها وشمها ، وهو يزداد بها شغفاً ، حتى يقول^(٧) :

أتاني عنك سبكِ لي فسبِّي أليس جرى بفيك اسمي فحسبي
وقولي ما بدالك أن تقولي فما ذا كله إلا لحبي
وغزله فيها غزل عفيف لا فحش فيه . وجذبت بغداد فيمن جذبت من شعراء

(٤) ذيل زهر الآداب ص ٩٤ .

(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٢ .

(٦) أغاني (طبع الساسي) ٢/١٨ وما بعدها .

(٧) الديوان ص ٣٦٢ .

(١) الحيوان ١٣٤/٢ .

(٢) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي

ص ١٢٣ وأباً هفان ص ٢٥ والديارات للشابشي

(طبع بغداد) ص ١٣١ .

(٣) ابن المعتز ص ٢٠١ .

البصرة ، ففارق موطنه إلى غير رجعة لا باكيًا عليه ولا آسفًا ، إذ كانت حياته فيه سلسلة من الإخفاق في علاقته بيجنان وعلاقته بالرفاق حتى كان يشعر كأنه سليب الحرية ، وفي ذلك يقول (١) :

أيا من كنت بالبَصْرَ ة أضنى لهم الودَّ
ومن كانوا موالئ ومن كنت لهم عبدًا
ومن قد كنت أرعاه وإن ملَّ وإن صدًا
شربنا ماء بغدادٍ فأنساناكم جدًا
فلا ترعوا لنا عهدًا فما نرعى لكم عهدًا

ولم يلبث حين قدم بغداد أن قدّمه هرثمة بن أعين إلى الرشيد فدحه ونال جوائزه ، وأخذ ينفقها في مبالذله ، غير تارك حانةً بالكرخ أو في ضواحي بغداد إلا ارتادها ، ملمًا من حين لآخر بدير من الأديرة المنبثة على شواطئ دجلة ، وكأنما تحولت حياته إلى حانة كبيرة يقترف فيها كل ما لذّ له من إثم وفجور ، وارتقى ذلك إلى سمع الرشيد فحبسه مراراً لعله يزدجر (٢) ، ولكنه كان سرعان ما يعود إلى سيرته السيئة حين تُردّ له حريته . وقد غضب عليه غضباً شديداً حين رآه يهجو عدنان ويفتخر بقحطان ومواليه اليمنيين ، فأطال حبسه (٣) ، ثم عاد فعفا عنه ، وربما كان للبرامكة أثر في هذا العفو المتكرر ، فقد كانوا يقربونه منهم ويفدقون عليه من برّهم ونوالهم الغمر ، ونراهم يحزنون عليهم حزناً عميقاً حين ينكبهم الرشيد سنة ١٨٧ للهجرة ويرثيهم بمثل قوله (٤) :

لم يظلم الدهرُ إذ توالّت فيهم مصيباته دراك
كانوا يجيرون من يُعادي منه فعاداهم لذاكا

ويولّي وجهه نحو الفسطاط بمصر ، ليمدح والى الخراج بها الخصيب بن عبد الحميد ، وكان فارسياً مثله . وقد استقبله استقبالا حافلا ، وأضنى عليه من

(٣) ابن منظور ص ١٥ .

(٤) أبو هفان ص ١٢١ .

(١) الديوان ص ١٦٦ .

(٢) أبو هفان ص ١٠٠ والموشع ص ٢٨٧ .

نواله كثيراً ، كما أضفى عليه أبو نواس غير مدحة ، وله يقول^(١) :

أنت الخصبُ وهذه مِصرُ فتدققا فكلكما بحرُ
النيلُ يُنعش ماؤه مبصرًا ونداك ينعش أهله الغمرُ

وسرعان ما أخذ يحنُّ حينئذٍ شديدًا إلى بغداد حيث المحجون قائم على قدم وساق ،
وصوّر هذا الحنين بصور مختلفة ، من مثل قوله^(٢) :

كني حزنًا أني بفسطاط نازحٌ ولي نحو أكناف العراق حنين

وعاد إلى بغداد ولم يلبث الرشيد أن توفي وخلفه الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) وكان فيه ميل شديد إلى اللهو فحوّل قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والرقص ، واتخذ أبا نواس نديمًا له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر ، واستغل ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين ، « فكان يعمل كتبًا بعبويه تُقرأ على المنابر بخراسان ، وكان مما عابه به أن قال إنه استخلص رجلا شاعرًا ماجنًا كافرًا يقال له الحسن بن هانيّ ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم ، وهو القائل :

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تَسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ
وبُخ باسم من تهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها سترُ

وكان يقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبي نواس في المحجون . فاتصل ذلك بالأمين فنهى أبا نواس عن الخمر ولم يته ، حينئذٍ أغراه الفضل بن الربيع وزيره بحبسه ، فحبسه ، وقد مضى في حبسه يستعطف الفضل بأشعار مشبعًا فيها روحه الفكهة بما يُصوّر من نسكه وعلامات السجود في جبهته وحمله للمسابيح والسُّبح في ذراعه والمصحف في لَبَّته^(٣) . وعطف عليه الفضل فتلطّف له عند الأمين وردَّ إليه

(٣) الديوان ص ١٠٨ .

(١) الديوان ص ١٠٢ .

(٢) الديوان ص ٣٩٩ وانظر ص ٩٧ .

حريته^(١) . وكانت قد تقدمت به السن^٤ وعلمته كبرة وشيخوخة ، فأخذ يُسَيِّب إلى ربه ، وينظم أبياتاً مختلفة في الزهد ، وفي أخباره ما يدل على أنه تنسك مراراً ، ثم عاد إلى غيبه ، وربما رقيت فترات هذا النسك إلى زمن الرشيد ، وحين كان يُلْقَى به في السجن ، إذ يقال إنه حج سنة ١٩٠ للهجرة^(٢) ، وكأنما هي صحوات كان يفيق فيها ثم يرجع إلى خطاياها . وتوفي الأمين ، ولم يلبث أن توفي من بعده ، وقد اختلف الرواة في تاريخ وفاته^(٣) ، فمنهم من تقدم به إلى سنة ١٩٥ ومنهم من تأخر به إلى سنة ١٩٩ وقيل بل توفي بعد المائتين بقليل وفي ديوانه رثاء للأمين يشهد بأن وفاته لم تكن قبل سنة ١٩٨ . واختلف الرواة أيضاً في سبب وفاته^(٤) ، فقيل إنه توفي وفاة طبيعية وقيل بل هجا إسماعيل بن نوبخت هجاء مقذعا ذكر فيه أمه ورماء بالبخل والرفض ، فـدس له شربة من سم قتلته بعد أربعة أشهر ، وقيل بل دس له من ضربه حتى مات .

ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على أن عناصر كثيرة اشتركت في تكوُّن طبيعة أبي نواس ، فقد كان فارسياً حاد المزاج وثقف كل الثقافات التي عاصرها من عربية وإسلامية ومن هندية وفارسية ويونانية ومن مجوسية ويهودية ونصرانية ، وغرق في حضارة عصره المادية وفي آثامها وخطاياها ، تدفعه إلى ذلك أزمته النفسية العنيفة لإزاء سيرة أمه المنحرفة وكأنما اتخذ من المحون والفسق أداة ، بل ملجأ ، للهروب من أزمته ومن هموم الحياة وأحزانها ، وتردَّى في أسوأ صور المحون ونقصد غزله الشاذ بالغلمان . ونراه أحياناً يعلن تمرداً وإلحاداً في الدين ، ولكنه إلحاد عابر ، لا إلحاد عقيدة كإلحاد بشار ، فقد كان بشار زنديقاً ، وكان يظهر زندقته حين لا يخشى على نفسه ، ويبطنها حين يأخذه الخوف ، أما أبو نواس فلم يكن يعتقد الزندقة إنما كان يعتقد المحون ، ويتعبد للملاذِّ الحضارة التي عاشها ، فصاح بالدين الحنيف كأنه يرى فيه عائقاً عن خمره ومجونه وإثمه . وهو من هذه الناحية مضطرب

١٥٦/٢ .

(٣) ابن منظور ص ٥ والشعر والشعراء

ص ٧٨٣ .

(٤) أبوهفان ص ٣٤ .

(١) زهر الآداب ١١١/٢ وما بعدها وذيل

زهر الآداب ص ١٣٦ وما بعدها والوزراء

والكتاب للجيشياري ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) أبوهفان ص ٩٨ وانظر النجوم الزاهرة

أشد الاضطراب تارة يعلن دهريته وأنه لا يؤمن بيعث ولا نشور^(١) وتارة يعلن أنه مؤمن عاص ، وأنه على الرغم من جهره بعصيانه وفسقه يعتمد على عفو الله ومغفرته على نحو ما مرّ بنا في الفصل السابق وحواره للنظام في فكرة العفو التي قال بها المرحّجة^(٢) .

ولا بد أن نلاحظ مع ذلك كله عنصراً مهماً في مزاجه هو عنصر التنذير والميل إلى الهزل والعبث ، ولعل ذلك هو الذي جرّه إلى صباح كثير في وجه الدين الحنيف ، وكان إذا تلوّمه بعض معاصريه قال : « والله ما أدين غير الإسلام ولكن ربما نَزَا بي الحجون حتى أتناول العظام »^(٣) وهو بذلك يعترف أن جمهور هذا الصباح إنما كان ينظمه في أثناء معاقبته للخمر هزلاً وتعايلاً ومجاجة ، ومن أجل ذلك ترددت نبراته في خمرياته ، إذ نراه في ثناياها يهاجم الدين أو يهاجم العرب ووقوف شعرائهم على الأطلال ، حتى إذا صحا وعادت إليه يقظته أوقف ثورته على الدين والعرب جميعاً ومضى يقدم لدائحه بوصف الأطلال وبكاء الديار ونسّعت رحلته في الصحراء على ناقته أو بعيره . .

وأبو نواس — على الرغم من مجونياته — يُعَدُّ من أعاجيب عصره في الشعر ، إذ كان يحظى بملكات شعرية بدیعة ، وهي ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبي نواس »^(٤) وأضاف إلى هذا العلم علماً دقيقاً بقوالب الشعر الجاهلي والإسلامي وما صارت إليه عند بشار وأضرابه من أوائل العباسيين ، ومن خلال هذه القوالب جميعها أخذت شخصيته تنمو في اتجاهين : اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعة دون أن يشتط في التجديد ، واتجاه يحدد فيه تجديداً واسعاً ، يحدد في معانيه وألفاظه .

ويمكن أن نسلک في الاتجاه الأول مدائحه وأراجيزه ومراثيه ، بينما نسلک في الاتجاه الثاني أهاجيه وغزلياته وخمرياته وكل ما يتصل بعبثه ولهو . أما المديح

(٣) أبو هفان ص ٣٨ .

(٤) تاريخ بغداد ٤٣٧/٧ .

(١) أبو هفان ص ٣٧ .

(٢) انظر الديوان ص ٢٣٥ .

فكان كثيراً ما يحتفظ فيه بمقدماته القديمة وله في ذلك قلائد بديعة مثل رائيته في الخصب (١) :

أجارة بَيْتِينَا أَبوكِ غَيُورُ وميسورُ ما يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرُ
وميمته في الأمين (٢) :

يا دارُ ما فعلتُ بكِ الأَيَّامُ لم تُبْقِ فَيْكِ بِشَاشَةً تُسْتَامُ (٣)
ويلاحظ أنه لم يكن يطيل مثل بشار في وصف رحلته بالصحراء وأنه كان يتعمق أكثر منه في المبالغة حين يلم بنعت الممدوحين كقوله في الرشيد (٤) :
وأخضتُ أهلَ الشُّرْكِ حتَّى إنه لتخافكِ التُّطْفُ التي لم تُخَلِّقِ
وقوله أيضاً فيه (٥) :

ملكُ تصوّر في القلوب مثالُهُ فكأنه لم يَخُلْ منه مكانُ
وقوله في الأمين مخاطباً ناقته (٦) :

يا ناقُ لا تَسْأَمِ أوتبَلِغِي ملكا تقبيلُ راحته والرُّكنِ سيَّانِ
محمدُ خير من يَمْشِي على قَدَمٍ مِمَّنْ بَرَا اللهُ من إنسٍ ومن جانِ

وزناه في هذه القصيدة يضاف على الأمين هالة كبيرة من القدسية والجلال حتى يشبهه بالرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم مما كان يتردّد في من هو ومجون ، واستطرد في تضاعيف ذلك يقرر حق العباسيين في الخلافة رادّاً ردّاً عنيفاً على بنى عهم العلويين . ومن مبالغاته الطريفة قوله في بعض ممدوحيه (٧) :

تَغَطَّيْتُ من دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَبَّيْتُ تَرِي دَهْرِي وليس يراي
فلو تُسْأَلُ الأَيَّامُ ما اسْمَى لما دَرْتُ وأين مكاني ما عَرَفَنَ مكاني
وجانب آخر في بعض مدائحه يمتاز به من بشار فإنه كان يعمد كثيراً إلى

(٥) الديوان ص ٥٩ .
(٦) الديوان ص ٦٥ وما بعدها .
(٧) الديوان ص ٩٧ .

(١) الديوان ص ٩٨ .
(٢) الديوان ص ٦٣ .
(٣) تستام : ترى
(٤) الديوان ص ٦٢ .

الألفاظ العذبة الرشيقة التي تموج بالنعومة والخفة فيؤلف منها مدائح على شاكلة سينيته في الأمين وفيها يقول^(١) :

أضحى الإمام محمدٌ للدين نوراً يُقْتَبَسُ
تبكى البدورُ لصِخْكه والسيفُ بضحك إن عَبَسَ

وكان له حس دقيق وذوق مرهف ، يعرف عن طريقهما كيف يختار أرق الألفاظ وأرشقها وأخفها في النطق وأحلاها في السمع ، وكان يدنو في ذلك حتى يمس شغاف القلوب ، إذ كان يحسن اختيار أسهل الألفاظ وأيسرها وأقربها إلى ما يجري على ألسنة الناس في حياتهم اليومية . ومن أجل ذلك كان يتجافى عن ألفاظ القدماء ، حتى في المديح ، أو قل في كثير منه ، فإنه كان يبتغي فيه أو على الأقل في بعضه أن يأخذ بألباب سامعيه بما يعرض عليهم من لغة عذبة تسيل خفة ورشاقة .

وأبو نواس في أراجيزه ووصفه للصيد وأدواته وجوارحه أكثر تمسكاً بالقوالب القديمة ، وقد سبقه ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، أبو نُحَيْلَة وأضرابه من شعراء العصر الأموي مثل الشَّعْرَدُكِل إلى اتخاذ الرجز أداة لهذا الوصف ، ومضى في إثرهم يحاكيهم في التمسك بهذا القالب وكل ما يتصل به من لفظ غريب . وقرن بهذه المحاكاة الشديدة ضرورياً من التجديد في المعاني والصور على شاكلة قوله في إحدى طردياته^(٢) :

لما تبدَّى الصُّبْحُ من حجابهِ كطلعة الأَشْمَطِ من جلبابهِ^(٣)
وانعدلَ الليلُ إلى مآبهِ كالحبشيِّ افترَّ عن أنيابه
هَجْنَا بكلب طالما هَجَّنَا بِهِ يَنْتَسِفُ المِقْوَدَ من كَلَابِهِ^(٤)
كَأَنَّ مَتْنِيَهُ لدى انْسِرَابِهِ مَتْنُ الشَّجَاعِ لَجَّ في انْسِيَابِهِ^(٥)

(٤) ينتسف : يتزع بقوة .
(٥) انسرايه : انسياه وإسراعه . الشجاع هنا : الأفي ، متناه : مكتنف صلبه .

(١) ابن المعتز ص ٢١١ .
(٢) الديوان ص ٢١٠ والحيوان ٤٠/٢ .
(٣) الأشمط : الذي يخالط سواد شعره بياض الشيب .

كأنما الأظفورُ في قنابه موسى صناع رُدُّ في نصابه^(١)
 كأن نسرًا ما توكلنا به يعضو على ما جرَّ من ثيابه^(٢)
 ترى سَومَ الوحش يُحتوى به يرُخَنَ أسرى ظُفره ونابه^(٣)

وتمتلي طردياته بمثل هذه الصور ، وهى تُعدُّ ركنا هامًا فى شعره إذ كان يكثر من التشبيهات والاستعارات ، وكان يعرف كيف يحدد فيها وكيف يأتى بالطريف النادر .

وكان يتخير لمراثيه أسلوبًا جزلا مصقولًا ، وقد يكثر فيه من الغريب ، وخاصة إذا كان من يبيكه من اللغويين مثل خلف الأحمر أستاذة ، وقد يتخفف من ذلك ، ولكنه على كل حال يظل محتفظًا بالأسلوب الرصين . وهوى مراثيه يمتاز بجملة من اللهجة وصدق العاطفة ، وربما كان أجودها جميعًا مراثيه فى الأمين ، وهى تفيض باللوعة والحزن العميق من مثل قوله^(٤) :

طوى الموتُ ما بينى وبين محمدٍ وليس لما تطوى المنيّةُ ناشرُ
 فلا وصلَ إلا عبْرَةٌ تستديمها أحاديثُ نفسٍ مالها الدهرُ ذاكرُ
 وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لى شيءٌ عليه أحاذرُ
 لئن عمرتُ دورٌ بمن لا أودُهُ لقد عمرتُ ممن أحبُّ المقابرُ
 ومن نفس هذا الأسلوب المتين المصقول أشعاره التى نظمها فى السجن يستعطف بها الرشيد والأمين ووزيره الفضل بن الربيع^(٥) .

وإذا كان أبو نواس اعتدَّ فى كل تلك الأغراض بسنن الأسلوب الموروثة ، فإنه حاول أن يحدد فى الهجاء والغزل والمجون ، وأهاجيه نوعان : نوع تمسك فيه بالأوضاع التقليدية ، وذلك حين كان يهجو العدنانيين ويفخر بمواليه القحطانيين^(٦) وكأننا نستمع إلى قصائد من نمط نقائص جرير والفرزدق ، فهى تعجّ بالمثالب

(٤) الديوان ص ١٢٩ .

(٥) الديوان ص ١٠٦ وما بعدها .

(٦) الديوان ص ١٥٥ وما بعدها .

(١) الأظفور : الظفر ، قنابه : غطاؤه .

صناع : ماهر . نصابه : قرابه وبقبضه .

(٢) توكلنا به : اعتمادنا عليه . يعضو : يمحو .

(٣) سَوم الوحش : الوحش المنطلقة فى الفياق .

القبلية التي عرفها في نقائضهما والتي طالما سمعها من أبي عبدة وهو يحاضر فيها طلابه بالبصرة ، ونوع ثان كان يجري فيه في نفس الدروب التي مهّدها من قبله بشار ، إذ نراه يشغب على العرب من جهة ، ويحاول أن يطلق على خصومه نفس السهام المسمومة التي كان يطلقها بشار وبعض من عاصروه . وأبو نواس لا يشغب على العرب شغب شعوبية كشعوبية بشار ، فشعوبيته - إن صح هذا التعبير - من لون آخر ، ذلك أنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين ، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجري فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفاً ، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار ، ودعوة حارة إلى المتاع بالخمر على شاكلة قوله ^(١) :

عاج الشقي على رسم يسائله وعُجّت أسأل عن خمارة البلد ^(٢)
يبكى على طلل الماضين من أسدٍ لا درّ درك قل لي من بنو أسدٍ؟
كم بين ناعت خمر في دساكرها وبين بالك على نُويٍ ومنتصد ^(٣)
دع ذا ، عديمك ، واشربها معتقةً صفراء تفرق بين الروح والجسد

ونحن نظلم أبا نواس إذا سمينا ذلك - كما ذهب بعض المعاصرين ^(٤) - شعوبية حقّة ، إنما هو تماجن وإمعان في التماجن . ولذلك لم يرفض هو نفسه البكاء على أطلال البادية ، بل لقد بكأها كثيراً . وقد دفعته حدة مزاجه إلى الاصطدام بكثيرين من الشعراء ومن كان يمدحهم ويرعى على موائدهم مثل إسماعيل بن نوبخت وكان ما يزال يرميه بالبخل من مثل قوله ^(٥) :

خُبِرُ إسماعيل كالوثة ي إذا ما انشَقَّ يُرْفَا
عجباً من أثر الصنّ عة فيه كيف يخفى

منتصد: مكان تجمع الناس ، يريد ديار الحبيبة .

(٤) حديث الأريماء (طبعة سنة ١٩٣٧)

ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥) الديوان ص ١٧٢ .

(١) الديوان ص ٢٦٦ .

(٢) عاج : عطف .

(٣) الساكر : جمع دسكرة وهي القرية العظيمة . النّوي : حفرة حول الخيمة لمنع السيول ،

إِنْ رَفَّاعَكَ هَذَا أَلْطَفُ الْأُمَّةِ كَفًّا

وأهم شاعرين اصطدم بهما أبان بن عبد الحميد وفضل الرقاشي ، أما أبان فكان البرامكة يقيمونه على ديوان الشعر والشعراء يقدر جوائزهم ، فبَخَسَته جائزته^(١) ، ويقال بل إن البرامكة طلبوا إلى أبي نواس أن ينقل لهم كليلة ودمنة شعراً ، فنصح له أبان أن لا يصنع لما يحشمه ذلك من صعاب كثيرة ، فاستغنى منه ، وتخلَّى به أبان فترجمه ، وأعطاه البرامكة على ترجمته مالا جزيلا . وعرف ذلك أبو نواس وتبين له أنه احتال عليه ، فهجاه ونشبت بينهما خصومة عنيفة^(٢) ، كان أبو نواس ما يزال يرميه فيها بالزندقة واقتراف الآثام^(٣) ، وكان من أشد ما هجاه به على نفسه نعتة له بصفات لا تليق بمن يكون سميراً للوزراء من أمثال البرامكة ، إذ يقول في إحدى أهاجيه مصورا ثقله^(٤) :

فِيكَ مَا يَحْمِلُ الْمَلُوكَ عَلَى الْخُرِّ قِ وَيُزْرِي بِالسَّيِّدِ الْجَحَّاحِ^(٥)
فِيكَ تَبِيَّةٌ وَفِيكَ عَجَبٌ شَدِيدٌ وَطِمَاحٌ يَفُوقُ كُلَّ طِمَاحٍ
بَارِدُ الظَّرْفِ مَظْلَمُ الْكَذِبِ تَبِيَّةً هُ مُعِيدُ الْحَدِيثِ غَثُ الْمَوَاحِ
وكانت هذه الأبيات سبباً في سقوط أبان عند البرامكة ، وصار له كالعَبْدِ لا يلقاه ولا يُذَكَّرُ له إلا بجلِّه . ويظهر أن اصطدامه بفضل الرقاشي يرجع إلى تقديم أبان والبرامكة له ، وكان خليعاً ، فأتاه أبو نواس من هذا الجانب كثيراً ، وله يقول^(٦) :

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ جَرِيرًا لَمَا كُنْتُ بِأَهْجَى لَكَ مِنْ أَصْلَاكَ
وله أهاج كثيرة في القيان والمغنين ، وحتى مَنْ أكرموه مثل الخصب والبرامكة لم يسلموا من هجائه ، وهو فيه دائماً يلتمس السيئات وكثيراً ما يُقْضَى إلى فحش وإفذاء شديد .

ولأبي نواس غزل كثير في المرأة والغلمان ، وأروع ما له من غزل في المرأة ما نظمته في جَنَّان ، إذ يعبر فيه عن مشاعر صادقة ، ومن الغريب أنها كانت

(٤) ابن المعتز ص ٢٠٣ .

(١) ابن المعتز ص ٢٠٢ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٤١ .

(٣) الديوان ص ١٨٠ وما بعدها .

(٥) الخرق : الحق . الجحاح : الجواد .

(٦) الديوان ص ١٧٨ .

تردّه ردّاً منكراً عنيفاً ، وهو كلما ردّته ازداد بها غراماً وعليها تهاكاً ، وكلف
بها أشد الكلف ، وله فيها مقطوعات بديعة من مثل قوله ، وقد رآها تندب في
بعض المآتم^(١) :

يا قمرًا أبصرتُ في مآتمٍ يندب شَجْوًا بين أترابِ
أبرزه المآتمُ لي كارها برغم داياتٍ وحُجّابِ
يبكى فيذري الدرّ من نرجسٍ ويلطِّمُ الوردَ بعُقابِ^(٢)
لا تبك ميثًا حلّ في حُفْرَةٍ وابك قتيلا لك بالبابِ
لا زال موتًا دأبُ أحبابه وكان أن أبصره دأبِ^(٣)

وعبنا استطاع يومًا أن يلقاها ، مما جعله يصطلي حقًا بحبها وناره المحرقة ،
ويتعذب عذابًا طويلا ، بثّه في كثير من أشعاره ، ولعلها المرأة الوحيدة التي
استأثرت بقلبه وملكت عليه كل شيء من أمره . ونراه في بغداد يسوق غزلا كثيرا
في إمائنها وجواربها ، يشوبه بكثير من الفحش الذي ينبو عنه الذوق ، حتى مع
عنان جارية الناطني ، وكانت شاعرة ظريفة ولها أيام تستقبل فيها الشعراء وتطارحهم
الشعر ، ممعنة معهم في كل ما يخوضون فيه من بذاعة نظرفاً ومعاينة^(٤) . وديوانه من
هذه الناحية يصور الجوارى المبتذلات اللائي كان يجلبهن النحاسون إلى بغداد ،
وكانت كثيرات منهن يقبلن على الخلاعة والمجون ، وقلما عرّفن شيئا من العفة
والطهارة .

ويتسع الفحش في غزل أبي نواس الشاذ بالغللمان ، حتى ليصبح وصمة في
جبين عصره ، وإن كان ابن المعتز يلاحظ أنه كان يتستّر بذلك عن فسقه الحقيقي
بالجوارى الخليعات^(٥) . وإذا صح ذلك يكون من الخطأ أن تفسّر نفسية أبي نواس
على أساس هذه الآفة الشاذة التي كان يتظاهر بها ليخفي حقيقة سريره وحياته
الماجنة . وينبغي أن نلاحظ هنا ما أشرنا إليه في حديثنا عن إلحاده ، فإن كثيرا
من غزله المفعشن في الغلمان والنساء جميعاً كان ينظمه في مجالس الخمر تعايشاً

(٣) الدأب : الشأن والعادة .

(٤) المقد الفريد ٥٧/٦ .

(٥) ابن المعتز ص ٣٠٩ .

(١) أغاني ٦/١٨ والديوان ص ٣٦١ .

(٢) استعمار الدرّ للدمع والبرجس للعين والورد

للخد والعناب لأطراف الأصابع .

ومجاعة ، على أننا كثيراً ما نقع في ثنايا هذا الغزل على أبيات رائعة من مثل قوله (١) :

يا مَنْ له في عَيْنِهِ عَقْرَبُ فكلُّ مَنْ مرَّ بها تضربُ
ومن له شمسٌ على خَدِّهِ طالعةٌ بالسَّعْدِ ما تَغْرُبُ

وهو أستاذ فن الحمزية في الشعر العربي غير مدافع سواء من حيث الكمية أو من حيث الكيفية ، فقد عاش للخمر يتغنى بها ، مجاهراً بالفسوق والمجون . وكان شيء من ذلك قد أخذ يشيع على ألسنة الشعراء منذ ظهور الوليد بن يزيد ، ونمائه بشار ومطيع بن إياس والبة بن الحباب وعصاباتهم من المجان في البصرة والكوفة ، غير أن أبا نواس اتسع به اتساعاً شديداً ، فإذا الحمزية تتكامل صورتها وتُفَرِّدُ لها القصائد والمقطوعات وتصبح فناً مستقلاً ، له وحدته الموضوعية ، مستعينة في ذلك بملكاته العقلية الخصب التي أمدته بكثير من المعاني الدقيقة ومستعينة أيضاً بملكاته الخيالية التصويرية البديعة التي رفدته بكثير من التشبيهات والاستعارات البارة ، وحتى إن فاته التصوير النادر والمعنى الدقيق أحياناً فإنه لم تكن تفوته حلاوة النغم ورشاقة اللفظ . وقد مضى يتحدث عن كثوسها ودنانها وعنتها وطعمها ورائحتها ومجالسها مصوراً كلفه بها وهيامه وتهالكه على احتسائها من أيدي سقاتها بين آلات الطرب ورنات القيان ، يقول (٢) :

إنما العيشُ سماعٌ ومُدامٌ ونِدامٌ
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا سلام

فلا حياة في رأيه سوى حياة الخمر والمجون في بيوت القيان وفي الحانات ، ومن ثمّ مضى يدعو في خمرياته دعوة واسعة إلى العدول عن وصف الأطلال إلى وصف الخمر والمتاع بما يقترن بها من غناء وسُقاة ، على نحو ما يصور ذلك في قوله (٣) :

لا تَبْكِ ليلى ولا تطربِ إلى هِنْدِ وأشربِ على الورد من حمراء كالورد
كأساً إذا انحدرت في حلقى شاربها أجذته حُمْرَتُها في العين والخد (٤)

(١) الديوان ص ٤٠٧ .

(٢) العقد الفريد ٦/٢٢١ .

(٣) الديوان ص ٢٦٥ .

(٤) أجذته : أفادته وأعطته .

فَالْخَمْرُ يَاقُوتَةُ وَالْكَأْسُ لَوْلُؤَةٌ فِي كَفٍّ جَارِيَةٍ مَمَشُوقَةٌ الْقَدِّ
تَسْقِيكَ مِنْ يَدِهَا خَمْرًا وَمِنْ فَمِهَا خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدٍّ
وَأَخَذَ بِجَدْفٍ كَثِيرًا ضِدَّ الدِّينِ الْخَنِيفِ الَّذِي يَحْرِمُ الْخَمْرَ وَجَمَلَةَ الْآثَامِ الَّتِي
كَانَ يَتَرَدَّى فِيهَا ، مُعْلَنًا ذَلِكَ إِعْلَانًا صَرِيحًا بِمِثْلِ قَوْلِهِ ^(١) :

تَرَى عِنْدَنَا مَا يُسْخَطُ اللَّهُ كُلَّهُ مِنَ الْعَمَلِ الْمُرْدِي الْفَتَى مَا عَدَا الشُّرَكَاءَ
وَقَدْ يَتِمَادَى فِي ذَلِكَ حَتَّى لِيُعْلَنَ دَهْرِيَّتُهُ وَأَنَّهُ لَا يُؤْمَنُ بَيْعُهُ وَلَا حِسَابُهُ وَلَا يَجْنَةُ
وَلَا نَارُ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتِمَاجَنُ وَيَتَعَابَثُ .

وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَلِمُ بِالْأَدِيرَةِ ، فَيَصِفُ مَعَاقِرَتَهُ الْخَمْرَ فِيهَا وَسُقَاتِهَا مِنَ الزُّهْدِ
وَالرَّاهِبَاتِ ، وَقَدْ يَلِمُ بِجَانَةِ الْحُجُوسِ أَوْ لِيُؤْدَى . وَأَتَاحَ لَهُ ذَلِكَ أَنْ يَصِفَ كُلَّ تِلْكَ
الْبَيْئَاتِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى حَانَاتِ الْكَرْخِ بِبَغْدَادٍ وَعَلَى ضُفَافِ دَجَلَةٍ ، وَشَعْرَهُ مِنْ هَذِهِ
النَّاحِيَةِ مَلَىءَ بِتَصْوِيرِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَةِ لِعَصْرِهِ .

وَفِي خَمْرِيَّاتِهِ فَحَشْ كَثِيرٌ ، وَكَأَنَّمَا وُجِدَ لِيَحْمِلَ ذُنُوبَ عَصْرِهِ وَجَمِيعَ خَطَايَاهُ .
عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ نَلَاظِحَ أَنَّهُ وَضَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الشَّعْرِ فِي هَذَا الْبَابِ ، إِذْ تَحُولُ
إِلَى مَا يَشْبَهُ شَخْصِيَّةَ أُسْطُورِيَّةٍ ، فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُ فِي قِصَصِ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ ، وَإِذَا
هُوَ تَوَضَّعَ فِي فَحْشِهِ وَنَوَادِرِهِ كَتَبَ مُسْتَقْلَةً ، بِدَآءِهَا أَبُو هَفَّانٍ فِي كِتَابِهِ « أَخْبَارُ
أَبِي نَوَاسٍ » وَمَضَتْ تَتَسَّعُ مِنْ بَعْدِهِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ فَحَسَبَ ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَشْعَارِ
الْمُجَنَّانِ الَّذِينَ عَاصَرُوهُ أَضِيفَتْ إِلَيْهِ ، وَعَرَفَ ذَلِكَ الْقَدَمَاءُ ، إِذْ نَرَى ابْنَ قُتَيْبَةَ يَنْصُ
عَلَى أَنَّ الْخَمْرِيَّةَ الْمَشْهُورَةَ : « يَاشُقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ » تُنْسَبُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَوَالِبَةُ ^(٢) ،
وَيَقُولُ أَبُو الْفَرَجِ فِي تَرْجُمَةِ الْحُسَيْنِ بْنِ الضُّحَّاكِ الْخَلِيعِ إِنَّهُ « كَانَ إِذَا شَاعَ لَهُ شَعْرٌ
نَادَرَ فِي الْخَمْرِ نَسَبَهُ النَّاسَ إِلَى أَبِي نَوَاسٍ » ^(٣) وَيَقُولُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ : « إِنْ الْعَامَّةُ
الْحَقِيقِيَّةُ قَدْ لَهَجَتْ بِأَنْ تَنْسَبَ كُلُّ شَعْرَةٍ فِي الْمَجْنُونِ إِلَى أَبِي نَوَاسٍ ، وَكَذَلِكَ تَصْنَعُ فِي
أَمْرِ مَجْنُونٍ بَنَى عَامِرٌ ، كُلُّ شَعْرَةٍ فِيهِ ذَكَرٌ لِيَلِيَّ تَنْسَبُهُ إِلَى الْمَجْنُونِ » ^(٤) وَلَمْ تَقِفْ
الْمَسْأَلَةُ عِنْدَ الْعَامَّةِ ، بَلْ تَعَدَّتْهُمْ إِلَى الرِّوَاةِ ، وَأَيْضًا لَمْ تَقِفْ عِنْدَ شَعْرِ الْخَمْرِ وَالْمَجْنُونِ

(٣) أَغَانِي ١٤٦/٧ .

(٤) ابْنُ الْمُعْتَزِّ ص ٨٩ .

(١) الدِّيَّانُ ص ٢٥٠ .

(٢) الشَّعْرُ وَالشُّعْرَاءُ ص ٧٧١ .

فقد نُسب إليه كثير من شعر معاصريه في جميع الموضوعات ، ويكفي أن نرجع إلى ترجمة النظام في ابن المعتز ، فسراه ينشد له في الخمر بيتين وردا في ديوان أبي نواس^(١) ، وينشد له قطعة في مديح الأمين جاءت أيضاً في ديوان أبي نواس^(٢) ، وإذا تركنا ابن المعتز إلى أمالي المرتضى وجدناه ينسب قطعة دالية في الغزل إلى النظام وهي ماثورة في الديوان^(٣) . وكان الرواة حملوا عليه شعر المتكلمين لما رأوا فيه من غوص على المعاني وبعد في الخيال والوهم . وكان حَمَلُهم عليه لأشعار المجَّان أوسع مدى ، بل إنهم حملوا عليه كثيراً من زهديات أبي العتاهية^(٤)

ونحن لا نريد أن نبرئه من الفحش ولا من الغزل الماجن ، إنما نزعم أنه حُمِلَ عليه كثير في هذا الباب ، ومن ثمَّ ينبغي أن لا نتسع في أحكامنا عليه ، وربما كانت أسوأ رواية لديوانه رواية حمزة الأصفهاني ، فإنها تمتلئ بالشعر الموضوع عليه ، ولذلك لا يصح أن تتخذ أساساً لدرسه وبحته . وهو يعتدُّ في كثير من خمرياته وغزلياته باللفظ المونق والأسلوب الرّصين ، وله فيها مقطوعات كثيرة تسيل عذوبة ونعومة ، غير أن له أيضاً وراء ذلك كثيراً من الشعر المهلهل ، إذ « كان لا يقوم على شعره ويقول على السكر كثيراً ، فشعره متفاوت ، لذلك يوجد فيه ما هو في الشَّرياً جودة وحسناً وقوة وما هو في الحضيض ضعفاً وركاكة »^(٥) . وكان كثيراً ما يَدْخُل ألفاظاً فارسية في خمرياته بحكم شيوع الفارسية في الحياة اليومية وبين خلعاء الغلمان المحجوس الذين كان يتغزل بهم ، ودَفَعَه ذلك إلى استخدام كثير من أساليب العامة الغثة ، مما جعل بعض اللغويين والنحاة يصطدمون به وجعله يكثر من هجائهم . وكان إذا خلص من هزله وعبثه وأفضى إلى حاسته الفنية أتى بالعجب العجائب من روائع الشعر ونادره ، وكانت ترفده مواهب فنية أصيلة ، جعلته يحكم تصاويره ويجري فيها كثيراً من الطباقات والمقابلات والجناسات البديعة .

وحين علت سننُ أبي نواس ووَخَطَه الشيب أخذ يفيق أحياناً من سكره مفكراً

(١) انظر ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ٢٦٢ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ١١٦ .

(٣) أمالي المرتضى ١٨٨/١ والديوان ص ٤١٩ .

(٤) انظر الأغاني ١١/٤ ، ٢٩ ، ٧٠ .

والديوان على الترتيب ص ٢٠٥ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ .

(٥) ابن المعتز ص ١٩٥ .

في الحياة وعواقبها وفي البعث والنشور والموت والفناء ، وكان من حين إلى حين ينيب إلى ربه ، مما جعله يردد أنغاماً مختلفة في الزهد والدعوة إلى الانصراف عن الشهوات ومتاع الحياة الزائلة والإعداد للآخرة بالتقوى والعمل الصالح من مثل قوله (١) :

يا طالب الدنيا ليجمعها جمحت بك الآمال فاقصد
والقصد أحسن ما عملت له فاسلك سبيل الخير واجتهد
واعمل لدار أنت جاعلها دار المقامة آخر الأبد
وكان يدعو الله ويبتهل له ابتهالات كثيرة . وكنا نتمنى لو اختلط مثل هذا التفكير في الحياة والموت ومصير الإنسان والقدر وما ينزله بالناس من خير وشر بمنجونيته وخمره ونشوته بها ، إذن لما انتظرنا طويلاً حتى يوجد عمر الحيام ولكان أبو نواس خياماً آخر ولوجد من مسائل الحياة الكبرى : مسائل المقادير والشقاء والسعادة والموت والفناء ما يشغله عن فسقه ومجونه وفحشه وهزله وعبثه الوقع مع الغلمان والجواري . ومرّ بنا في الفصل السابق أنه عنى في بعض أشعاره بقالب الرباعيات والمسمطات غير أنه لم يتسع بذلك ، وكان أهم ما وفّر له عنايته صفاء النغم وعدوبته . ولعل ذلك هو الذي دفعه إلى الإكثار من الأوزان القصيرة والحزوة .

٣

أبو العتاهية (٢)

وُلد أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسَان في « عين التَّمَر » بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ للهجرة ، وكان أبوه نبطياً من موالى بني عَسْرة ، أما

ومرآة الجنان ٤٩/٢ وشذرات الذهب ٢٥/٢
ومروج الذهب للمسعودي ٢٤٠/٣ ، ٢٧٤ ،
٣٥٨ وزهر الآداب للحصري ٣٤/٢ وما بعدها
وأبو العتاهية لمحمد أحمد برانق (نشر لجنة البيان
العربي بالقاهرة) . ونشرت ديوانه مطبعة الآباء
اليسوعيين ببغداد سنة ١٨٨٦ م .

(١) الديوان ص ١٩٣ .
(٢) راجع في ذى العتاهية وأخباره وأشعاره
أغاني (طبع دار الكتب) ١/٤ . وطبعة الساسي
في ترجمة والبة ١٤٢/١٦ وترجمة سلم الحاسر
٧٣/٢١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٦٥
وابن المعتز ص ٢٢٨ وما بعدها ٣٦٤ وتاريخ
بغداد ٢٥٠/٦ وابن خلكان والموشح ص ٢٥٤

أمه فكانت من موالى بنى زهرة القرشيين . وكان أبوه يشتغل بالحِجامة ويظهر أن سبل العيش ضاقت به في بلدته ، فانتقل منها إلى الكوفة بأسرته ، ومعه ابنه الصغيران : زيد وأبو العتاهية ، ولا يكاد يشبّ ثانيهما ، حتى نراه ينتظم في سلك الخنثين ممن كانوا يخضبون أيديهم ويتزينون ويلبسون ملابس النساء حاملين لزوامل تميزهم^(١) . ولعل في ذلك ما يدل على ما كان يحسه هذا الغلام من ضياع ، إذ نشأ في أسرة فقيرة مغموراً ، لا يعتزّ بأى شيء في دنياه من جاه أو حتى ثروة ضيقة ، وكان دميم الوجه قبيح المنظر^(٢) ، نزعت به نفسه إلى اللهو والهجون ، فإذا يصنع ؟ إنه لم يجد أمامه إلا أن ينخرط في جماعة الخنثين ، وبذلك كُتِب عليه أن يكون سيئ السيرة في مطالع حياته . وكان أخوه زيد قد احترف عمل الخزف وبيع الجرار والفخار ، فحاول أن ينقذه مما تردى فيه ، وما زال به حتى أشركه معه في حرفته ، وكان نبيع الشعر قد أخذ يتدفق على لسانه ، فكان يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره ويكتبونها على ما تكسر من الخزف وما يشرونه من الجرار^(٣) .

واشتهر أمر أبي العتاهية في الكوفة وأخذ يختلط ببيئات المجان من الشعراء أمثال مطيع بن أبياس والبالبة ، كما أخذ يختلف إلى حلقات العلماء والمتكلمين في مساجد الكوفة ، مما أتاح له إتقان العربية والوقوف على مذاهب أصحاب المقالات ، وهو في أثناء ذلك يكثر من نظم رقائق الغزل ومن الغدو والرواح إلى نوادي القيان والمغنين ، ولم تلبث الصلة أن توثقت بينه وبين مغن ناشئ من النبط دوت شهرته فيما بعد هو إبراهيم الموصلي ، وتعاقدا على أن ينزلا بغداد^(٤) ، لعل بضاعتها تروج فيها ، وفتحت الأبواب لإبراهيم بينما سُدَّت في وجه أبي العتاهية ، فصمم على العودة إلى الكوفة ، وعرج في طريقه على الحيرة ، ورأى بها نائحة تسمى سَعْدَى كانت مولاة لبنى مَعْن بن زائدة ، وكانت ذات حسن وجمال ، فشغفت قلبه حباً ، وأخذ ينظم فيها شعره ، غير أنها أعرضت عنه ، وتصدى له مولاها عبد الله ابن مَعْن ، ونهاه أن يعرض لها ، فعمد إلى هجائه هجاء مُقَدِّعاً ، فأُنزل به

(٣) أغاني ٩/٤ .

(٤) أغاني ٤/٤ .

(١) أغاني ٧/٤ .

(٢) أغاني ٧٥/٤ وانظر المسعودي ٣/٣٦٠ .

عقاباً صارماً إذ ضربه مائة سوط ، وتوسط بينهما مواليه من عترة ، وكفّ
أبو العتاهية لسانه^(١).

ويتم الكوفة غير أن مقامه لم يَطْلُ بها ، فإن إبراهيم الموصلي صديقه أقبلت
عليه الدنيا حين ولي الخلافة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) وقربته مع من قرب من
المغنين ، فأرسل إليه أن يَلْحَق به ، ليقدمه للخليفة ، وطار إليه أبو العتاهية ،
وأعجب الخليفة بمديحه ، وأخذ يغدق عليه جوائزه^(٢) ، وأوسع له في مجالسه حتى
أصبح أثيراً عنده مقدماً له على كثير من الشعراء ، وحتى نراه يقبل شفاعته في أحد
وزرائه وقد أمر بسجنه^(٣) . ويعظم شأن أبي العتاهية ويتهادله كبار رجال الدولة
وجوهرها وفي مقدمتهم خال المهدي يزيد بن منصور الحميري وقائده وواليه على
طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وله يقول من قصيدة :

إني أمنتُ من الزمان وزَيَّبه لما علقْتُ من الأمير حَيالاً
ويقال إنه وصله على القصيدة بسبعين ألف درهم^(٤).

وتمر الأيام بأبي العتاهية باسمه ، غير أن سحابة لا تلبث أن تنعقد في سماءها ، فقد تعلق
بجارية من جوارى زوجة المهدي رائطة بنت السفاح ، وهي عُتْبَة ، وكانت تزدره
كما ازدرت سَعْدَى من قبل ، ومضى لا يكفُّ عن غزله بها ولا يرعى ، ففرقت
مولاتها خبره وأثارها عليه ، فحدثت المهدي بشأنه ، فغضب لتعرضه لحرمة وجوارى
قصره ، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه ، ولم يلبث يزيد بن منصور الحميري أن
شفع له لدى المهدي ، فعفا عنه وردَّ إليه حريته ، ويقول الرواة إنه لم يكن يحبها
حباً صادقاً إنما كان يريد الشهرة في الأوساط الأدبية بذكرها وأنه امتحن في حبها
وأثبت الامتحان كذبه وأنه إنما كان يتكلف هذا الحبيب تكلفاً^(٥) ، وقد ظل يذكرها
ويتغنّى باسمها طويلاً ، ولعل ذلك هو الذي جعل المهدي يقول له إنك إنسان
معته ، فاستوى له بذلك لقبه « أبو العتاهية » وغلب على اسمه^(٦) .

وكانت بغداد لعهد المهدي قد جذبت إليها شعراء كثيرين من الكوفة والبصرة

٣٨/٤ .
(٥) انظر في قصته مع عتبة ابن المعتز
ص ٢٣٠ وزهر الآداب ٣٥/٢ وتاريخ بغداد
٢٥٤/٦ وما بعدها .
(٦) أغاني ٢/٤ .

(١) انظر القصة في الأغاني ٢٢/٤ وما بعدها .
(٢) انظر ابن المعتز ص ٢٣١ والمسعودي
٢٤٠/٣ وزهر الآداب ٣٨/٢ .
(٣) أغاني ٥٦/٤ .
(٤) زهر الآداب ٣٤/٢ وانظر الأغاني

قصد المعاش والتكسب ، وخرج إليها فيمن خرجوا جماعة الحجان من أمثال مطيع ابن إياس ووالبة وأبي نواس ، واختلط بهم أبو العتاهية وأخذ يعبث معهم من كنوس الحمر واللهو في دور القيان والحجانة بالكرخ من أمثال دار القراطيسي^(١) وفي الأديرة من مثل دير أشمونى^(٢) . ويفسد الأمر بينه وبين والبة ، فيصلبه ناراً حامية من هجائه بمثل قوله يعرض باعتزائه المزيف للعرب ، إذ كان ينسب نفسه في بني أسد^(٣) :

أَوالبُ أَنْتَ فِي الْعَرَبِ كَمَثَلِ الشَّيْصِ فِي الرُّطْبِ
هَلُمَّ إِلَى الْمَوَالِي الصَّيِّدِ فِي سَعَةِ وَفِي رَحَبِ
فَأَنْتَ بِنَا لِعَمْرِ الْإِلَهِ أَشْبَهَ مِنْكَ بِالْعَرَبِ
وما زال به حتى فضحه فعاد إلى الكوفة كالحارب وخمل ذكره^(٤) .

ويتوفى المهدي فيخلفه الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) ويلزمه أبو العتاهية ينشده مدائحه في كل مناسبة وعطاياه تهطل عليه كالغيث المنهمر ، ولا يلبث أن يعتلى الرشيد أريكة الخلافة (١٧٠ - ١٩٣ هـ) وكان منقطعاً إليه ملازماً له أيام أبيه المهدي ، فاتصل ما انقطع في مدة الهادي القصيرة ، وأصبح لا يفارقه في سفر ولا حضر « وكان يُجْرَى عليه في كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلوات السنية »^(٥) وكثيراً ما كانت تبلغ في المرة الواحدة مائة ألف درهم^(٦) . وينال جوائز كثيرة من كبار رجال الدولة حينئذ وعلى رأسهم يزيد بن يزيد الشيباني ، ويقال إنه أجازته في إحدى مدائحه فيه بعشرة آلاف درهم^(٧) . ويظهر أنه دق أبواب البرامكة طويلاً ، ولكنهم لم يفتحوها له ، إذ كانوا مشغولين عنه بشعرائهم من أمثال أبان وأشجع السلمى .

وظل يعيش للهو والقصف ، حتى كانت سنة ١٨٠ للهجرة ، وهى السنة التى نزل فيها الرشيد الرقة فإذا هو يتحول من حياة اللهو والحجون إلى حياة الزهد والتقشف ولبس الصوف . ويحاول الرشيد أن يعود به ثانية إلى حياته القديمة وإلى ما كان يصنع له من رقائق الغزل ، فيمتنع ويضيق الرشيد بامتناعه ، ويأمر بضربه وحبسه

(٤) أغاني ١٦ / ١٤٢ .

(٥) أغاني (دارالكتب) ٤ / ٦٣ .

(٦) أغاني ٤ / ٧٤ .

(٧) أغاني ٤ / ١٠٠ .

(١) أغاني (ساسى) ٢٠ / ٨٨ .

(٢) الديارات للشابثى ص ٣١ .

(٣) أغاني (ساسى) ١٦ / ١٤٣ .

والشيص : أودأ القمر .

في دار موسعاً عليه حتى يصدع لأمره ، ويسترسل أبو العتاهية في استعطافه بمثل قوله ^(١) :

إِنَّمَا أَنْتَ رَحْمَةٌ وَسَلَامَةٌ زَادَكَ اللَّهُ غِبْطَةً وَكَرَامَةً
لَوْ تَوَجَّعْتَ لِي فَرَوْحَتَ عَنِّي رَوْحَ اللَّهِ عَنْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

ويرق له الرشيد ويأمر بإطلاقه ، ويأخذ منذ هذا التاريخ في الإكثار من شعر الزهد وذكر الموت والفناء والثواب والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

وقد تشكك معاصروه في هذا الزهد الذي طرأ عليه ، وردته كثرتهم إلى عناصر مانوية ، حتى أوشك حمْدُوبَةُ صاحب الزنادقة المانويين أن يُنزل به العقاب الصارم الذي كان يُنزله بأمثاله ، لولا أن موته عليه بالقعود لحجامة الفقراء والمساكين ^(٢) ، ويقال إن منصور بن عمار هتف به في بعض وعظه ، وقال : إنه زنديق مستدلا على ذلك بأنه يكثر من ذكر الموت في شعره ولا يذكر الجنة والنار ^(٣) . وهي ملاحظة دقيقة ، ذلك أن أبا العتاهية يذكر الثواب والعقاب في الآخرة حقاً ، ولكنه لا يفصل الحديث فيهما تفصيل القرآن الكريم ، ومن المعروف أن المانوية كانوا يدعون للزهد في الدنيا والعمل للآخرة كما كانوا يدعون إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش ^(٤) ، ومن هنا يختلط الموقف على من يقرأ أشعار أبي العتاهية الزاهدة ، وخاصة أنه استقى فيها كثيراً من آي الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أن من يتعمق في هذه الأشعار يجد أبا العتاهية مشغولاً بما كان يراه المانوية من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ومن النور نشأ كل خير ومن الظلمة نشأ كل شر ، وأن أجناس الخير خلاف لأجناس الشر ، وفي كل حاسة من حواس الإنسان جنس قائم بنفسه من النوعين ، جنس مستقل عما يماثله في الحواس الأخرى ^(٥) ، وفي ذلك يقول أبو العتاهية ^(٦) :

لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْدِنٌ وَجَوْهَرٌ وَأَوْسَطٌ وَأَصْغَرٌ وَأَكْبَرُ

(٥) انظر الحيوان ٤٤١/٤ والشهرياني

ص ١٨٨ .

(٦) أغاني ٣٧/٤ .

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٧ .

(٢) أغاني ٧/٤ .

(٣) أغاني ٣٤/٤ .

(٤) طبرى ٤٣٣/٦ .

وكلُّ شيءٍ لا حِقُّ بجوهره أصغره متصلٌ بأكبـره
 الخير والشرُّ هما أزواج لذا نِتَاجٌ ولذا نِتَاجٌ
 لكل إنسانٍ طبيعتان خيرٌ وشرٌّ وهما ضِدَّان
 والخير والشر إذا ما عُدَّا بينهما بونٌ بعيد جدًّا

وكان المانوية يضيفون إلى ذلك إيمانًا بأن للعالم إلهين : إله النور وإله الظلمة ، وبذلك فارقوا أصحاب الديانات السماوية ، ويظهر أن أبا العتاهية لم يكن يجرى في العقيدة إلى آخر الشوط ، إذ كان يدين بالتوحيد على نحو ما يمثل ذلك قوله ^(١) :

فيا عجباً كيف يُعَصِّى الإلـه أم كيف يجحده الجاحـدُ
 وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدٌ

وكانه حاول أن يمزج بين عقيدة الإسلام وعقيدة المانوية ، وفي ذلك يقول أحمد بن حرب : « كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم إنه بَنَى العالم هذه البنية منهما .. وكان يزعم أن الله سيردُّ كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تَفنى الأعيان جميعاً ^(٢) » وهو يقصد بالجوهرين طبعاً النور والظلمة أو الخير والشر .

وابن حرب يضع في يدنا المفتاح لحل مشكلة أبي العتاهية ، فهو ليس مانوياً نَسَبَوا يؤمن بأن للعالم إلهين ، كما ظن ابن المعتز ^(٣) وبعض معاصريه ، إنما هو مانوى من نمط جديد ، إذ يمزج بين المانوية والإسلام ، إلا إذا كان قد موّه عن مانويته الخالصة بادعائه وحدانية ربه . ومر بنا في الفصل الثانى أن تعاليم مانى كانت مزيجاً من الزرادشتية والنصرانية والبوذية ، ونرى أبا العتاهية يصور لنا في بعض شعره الزاهد الناسك في صورة بوذا المشهورة إذ يقول ^(٤) :

يا مَنْ تشرف بالدنيا وزينتها ليس التشرفُ رَفَعَ الطَّيْنِ بالطَّيْنِ
 إذا أردت شريفَ الناس كلَّهم فانظرْ إلى ملكٍ في زِيٍّ مسكينٍ

(٣) ابن المعتز ص ٢٢٨ ، ٣٦٤ .

(٤) الديوان ص ٢٧٤ .

(١) أغاني ٣٥/٤ .

(٢) أغاني ٥/٤ .

ومعروف أن بوذا - عند الهنود - كان ملكاً أو ابن ملك خلع ثياب ملكه وساح في العالم عابداً ناسكاً . وخصّلة عند أبي العتاهية لا يمكن تفسيرها إلا على أساس نزعتة المانوية ، ذلك أنه كان مع دعوته إلى الزهد شحيحاً شُحاً شديداً مع كثرة ما كان يكتنز من الذهب والفضة وتُرَوَّى في شحه نوادر كثيرة ^(١) ، تدلُّ على حرصه البالغ ، حتى ليأبى أن يتصدَّق بدائق ، وتفسير ذلك أن المانوية كانوا يؤمنون بأن المانوي الصادق ينبغي أن يعيش على المسألة فلا يأكل إلا من كَسَبَ غيره الذي عليه غُرْمه ومأثمه ^(٢) ، فهو يحرمُّ ماله على نفسه وعلى غيره ويعيش على السؤال والاستجداء . وفعلًا ظل أبو العتاهية على الرغم من نسكه الظاهر بمدح الرشيد وينال جوائزه ، فهو يمدحه حين يعهد عهده المعروف لبنيه الثلاثة ^(٣) سنة ١٨٦ وهو يمدحه حين يهزم نقفور إمبراطور بيزنطة ويستولى على هرقله ^(٤) سنة ١٩١ . وحين يتوفَّى الرشيد يبادر إلى مديح الأمين بمثل قوله ^(٥) :

يا عمودَ الإسلام خيرَ عمودٍ والذي صيغ من حياء وجود
إن يوماً أراك فيه ليومٌ طلعت شمسُه يسعدُ السُّعُود

وينال جوائزه وجوائز أمه زبيدة . ولما قتل الأمين وقتلَدَ المأمون العراق الحسن ابن سهل أسرع يدقُّ بابه ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم ^(٦) ، وقدم المأمون فاستقبله بمثل قوله ^(٧) :

لخيرٍ إمامٍ قام من خيرِ عُصُرٍ وأفضلُ راقٍ فوق أعوادٍ مِنبرٍ

ويقول الرواة إنه كان يجري عليه في كل عام عشرين ألف درهم غير ما كان يقدِّم عليه من جوائزه في الحين بعد الحين ^(٨) . ومعنى ذلك أن زهده إنما كان زهداً في الظاهر ، أما في الباطن والواقع فقد ظل من طلاب الدنيا ومتاعها الزائل ، وظل يطلبها ويلح في الطلب إلحاحاً شديداً وسجَّل عليه سلم الخاسر ذلك في بعض أشعاره ^(٩)

- | | |
|--------------------------------|------------------------------------|
| (١) أغاني ١٦/٤ وما بعدها . | (٦) أغاني (طبع دار الكتب) ٨٩/٤ . |
| (٢) الحيوان ٤٥٩/٤ . | (٧) أغاني (سأسي) ١٣/٢١ . |
| (٣) أغاني ١٠٤/٤ . | (٨) أغاني (دار الكتب) ٥٣/٤ . |
| (٤) أغاني (طبع السأسي) ٤٦/١٧ . | (٩) أغاني (سأسي) ٧٦/٢١ وانظر أغاني |
| (٥) أغاني (طبع السأسي) ١١/٢١ . | (دار الكتب) ٧٦/٤ . |

وهكذا ظلَّ يسترفد الخلفاء والوزراء ، حتى وافته منيته سنة مائتين وإحدى عشرة وقيل سنة اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة .

ولعل فيما قدمنا ما يدلّ دلالة بينة على أن طبيعة أبى العتاهية كانت معقدة ، فهو نبطى أحسنّ غير قليل من المسكنة منذ نشأته ، وقاده هذا الإحساس أولاً إلى أن يصبح مخنثاً ، ثم ماجناً ، وقاده أخيراً إلى أن يصبح زاهداً على طريقة المانويين من سؤال الناس ومما طابت به أنفسهم له . وتدل نزعته المانوية على أنه اضطرب بين أصحاب المقالات ، ويؤكد ذلك عنده ما يقال من أنه كان على مذهب الشيعة الزيدية البُستريّة ^(١) ، ونؤمن — مع نيكلسون ^(٢) — بأنه لم يعيش هذا المذهب حقاً ، إذ يشيد فى أشعاره بأبى بكر وعمر وعثمان ^(٣) ، إنما هو ضرب من الاضطراب بين أصحاب النحل سرعان ما زايله . وقد دفعته صلته بالمانويين إلى الاطلاع الواسع على الآداب الفارسية ، ونقل كثيراً من حكمها إلى أشعاره ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته «ذات الأمثال» التى صور فيها نظرية الخير والشر المانوية والتى أنشدنا منها الأبيات السالفة . ويظهر أنه قرأ كثيراً مما تُرجم عن فلاسفة اليونان ، ومن ثمّ وصل بعض معاصريه بينه وبينهم ^(٤) ، ومرّبنا فى الفصل السابق نقله لجوانب من مرأى فلاسفة اليونان للإسكندر فى رثائه لصديقه على بن ثابت ، وكان من رءوس ^(٥) الزنادقة ، ولعله هو الذى دفعه فى هذا الطريق . وكان إلى ذلك مثقفاً ثقافة إسلامية واسعة ، وهى تتضح فى كثرة ما نقله إلى زهدياته من آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان أيضاً مثقفاً ثقافة عربية دقيقة جعلته يتقن اللغة ويرع فى الشعر ، حتى أصبح له طبعاً .

وكل هذه العناصر التى اصطلحت على تكوين طبيعة أبى العتاهية جعلتها أبعد الأشياء عن البساطة كما جعلتها خصبة واسعة الخصب . وكل من يقرأ أشعاره يلاحظ أنها تمثل حياته وما حدث فيها من انقلاب أوضح تمثيل ، فهو فى شطر منها يتغزل ويصف الحمر ، وهو فى الشطر الثانى يكف عن الغزل ووصف الحمر

(٣) الديوان ص ١٠٤ .

(٤) أغانى ٢/٤ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٤٧٣ .

(١) أغانى ٦/٤ .

(٢) انظر التاريخ الأدبى للعرب لنيكلسون

ص ٢٩٧ .

مستبدلاً بهما الزهد ونثر الحكم والدعوة إلى محاسن الأخلاق . وإذا كنا لاحظنا عند أبي نواس وبشار أنهما كانا يحافظان إلى حد كبير في مدائحهما على الأوضاع والتقاليد الموروثة في الصياغة وفي التمسك بوصف الأطلال وبكاء الديار ونعت الصحراء وإبلها وحيوانها وكل ما يتصل بها فإن أبا العتاهية يخطو إلى الإمام خطوة بمدائحهم إذ يتنحى عن الصحراء والأطلال إلا ما قد يأتي عرضاً ، وأيضاً فإنه لا يتمسك غالباً بالأسلوب القديم الجزل الرصين ، وكأنه يريد أن يفسح لأساليب عصره اللينة الخفيفة ، ومن خير ما يمثل ذلك مدحته اللامية للمهدى ، وفيها يقول ^(١) :

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مِنْقَادَةً إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَذْيَالُهَا
وَلَمْ تَكُ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ لَزُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا
وَلَوْ لَمْ تَطْعُهُ بَنَاتُ الْقُلُوبِ لَمَّا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا ^(٢)
وَإِنْ الْخَلِيفَةُ مِنْ بُغْضٍ لَا إِلَيْهِ لِيُبْغِضَ مِنْ قَالَهَا

والقصيدة من بحر المتقارب الخفيف ، وألفاظها تسيل نعومة وعدوبة . وأكبر خليفة عني بمدحهم هرون الرشيد فقد كان يمدحه في سلمه وحربه وفي كل المناسبات من مثل توليته العهد لبنيه ، وفي هذه التولية يقول ^(٣) :

وَشَدَّ عُرَى الْإِسْلَامِ مِنْهُ بِفَتْيَةٍ ثَلَاثَةِ أَمْلَاقٍ وَلَا عَهْدٍ
وَكَانَ يَحْرُسُ دَائِمًا عَلَى مَدِيحِهِ بِالتَّقْوَى وَالْإِنْصِرَافِ عَنِ الدُّنْيَا مُتَعَرِّضًا لَوْصَفِ
جَيْوشِهِ وَذَبَّ عَنِ حُمَى الْإِسْلَامِ وَمَا يُنْزَلُ بِأَعْدَائِهِ مِنْ مَوْتٍ يَمَحُتُ عَنْهُمْ كَحَقِّقًا ،
عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ ^(٤) :

وَهَرُونَ مَاءُ الْمَزْنِ يُشْفَى بِهِ الصَّدَى إِذَا مَا الصَّدَى بِالرِّيْقِ غَصَّتْ حَنَاجِرُهُ ^(٥)
وَأَوْسَطُ بَيْتٍ فِي قَرِيشٍ لَبَيْتُهُ وَأَوَّلُ عِزٍّ فِي قَرِيشٍ وَآخِرُهُ

(٤) أغاني ١٥/٤ .

(٥) المزن : السحاب المطر . الصدى :
يفتح الدال : العطش وبكسرها العطشان .

(١) أغاني ٣٣/٤ .

(٢) بنات القلوب : النيات .

(٣) أغاني ١٠٤/٤ .

وَزَحَفٍ لَه تَحْكِي الْبُرُوقَ سَيُوفُهُ وَتَحْكِي الرُّعُودَ الْقَاصِفَاتِ حَوَافِرُهُ
إِذَا نُكِبَ الْإِسْلَامُ يَوْمًا يَنْكَبُهُ فَهَرُونَ مِنْ بَيْنِ الْبَرِيَّةِ ثَائِرُهُ
وَمَنْ ذَا يَفُوتُ الْمَوْتَ ، وَالْمَوْتُ مَدْرُكٌ كَذَا لَمْ يَفُتْ هَرُونَ ضِدُّ يُنَافِرُهُ

والأسلوب هنا جزل رصين ، ولكنه لا يُبْعَدُ في جزالته ورسانيته ، إذ كان يُعْنَى باختيار ألفاظه من المعجم اليومي أو بعبارة أدق مما يقاربه سهولة . وقد نظم استعطافات كثيرة للرشد حين حبسه ، وهي لا تمتاز بالأسلوب السهل اليسير فحسب ، بل تمتاز أيضا بشدة التضرع ، حتى ليبادر الرشد بالهفو عنه كما أسلفنا لمثل قوله ^(١) :

أَنَا الْيَوْمَ لِي ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، أَشْهُرُ يَرْوَحُ عَلَيَّ اللَّهُمَّ مِنْكُمْ وَيَبْكُرُ
تَذَكَّرُ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحُرْمَتِي وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّينِي لَعَلَّكَ تَذَكَّرُ

وهو لا يكثر من الهجاء غير أن ما خلفه فيه يدل على إحكامه لسهامه ، حتى لنرى والبة بن الحُباب يفرُّ على وجهه منه إلى الكوفة ، ومن أوائل هجائه أشعاره في عبد الله بن معن مولى محبوبته الأولى سَعْدَى النَّائِثَةِ ، وقد صَوَّرَهُ في بعض هذه الأشعار صورةً نَدَى لَهَا وَجْهَهُ طَوِيلًا ، إذ أَخْلَاهُ مِنَ الْعَقْلِ وَالشَّجَاعَةِ بَلْ أَيْضًا مِنَ الرَّجُولَةِ ، حتى ليقول على لسانه ^(٢) :

أَنَا فَتَاةُ الْحَيِّ مِنْ وَاثِلٍ فِي الشَّرَفِ الشَّامِخِ وَالنُّبْلِ
مَا فِي بَنِي شَيْبَانَ أَهْلِ الْحِجَى جَارِيَةٌ وَاحِدَةٌ مِثْلِي
قَدْ نَقَطْتُ فِي وَجْهِهَا نَقْطَةً مَخَافَةَ الْعَيْنِ مِنَ الْكُحْلِ
إِنْ زُرْتُمُوهَا قَالِ حُجَّابُهَا نَحْنُ عَنِ الزُّوَّارِ فِي شُغْلِ

وكان يعرف كيف يرمى مهجويه بمثل هذه النبال المصمية ، فن ذلك أن الأمور فسدت بينه وبين سَلَمَ الْخَاسِرِ ، فما هو إلا أن قال فيه :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمَ بْنَ عَمْرِو أَذَلَّ الْحَرَصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

حتى سار البيت مسير الأمثال ، وحتى أن منه سلم طويلاً^(١) . ويقول ابن المعتز إنه « أتى باب أحمد بن يوسف كاتب المأمون ، فحجّب عنه ، فقال : متى يظفر الغادى إليك بحاجة ونصفك محجوب ونصفك نائم فسار بيته هذا في الآفاق ، وجعل الناس يتناشدونه ، فاعتذر إليه ابن يوسف^(٢) » وجلاً من أن ينادى في هجائه .

وبين أيدينا له مرث مختلفة ، لعل أحرها مرثيه في صديقه على بن ثابت الزنديق ، وقد أنشدنا منها أطرافاً في الفصل السابق ، وقد ظل يبكيه ويندبه طويلاً ندباً كله لوعة وحرقة وأسى عميق من مثل قوله^(٣) :

فَتَى لَمْ يَلْ النَّدى سَاعَةً * عَلَى عُسْرِهِ كَانَ أَوْ يُسْرِهِ
أَتَتْهُ الْمَنِيَّةُ مَغْتَالَةً * رُوَيْدًا تَحُلُّلَ مِنْ سِرِّهِ
فَحَلَّى الْقَصُورَ لِمَنْ شَادَهَا * وَحَلَّ مِنَ الْقَبْرِ فِي قَعْرِهِ
وَأَصْبَحَ يُهْدَى إِلَى مَنْزِلٍ * عَمِيقٍ تُوثِقُ فِي حَفْرِهِ
أَشَدُّ الْجَمَاعَةِ وَجْدًا بِهِ * أَشَدُّ الْجَمَاعَةِ فِي طَمْرِهِ

وليس له خمريات كثيرة وكأنا عصفت بخمرياته يد الزمن فيما عصفت به من شعره ، ونراه يقدم لإحدى مدائحه للهادى بنعت مرقصٍ للخمر ونُدْمَانِهَا وساقِيهَا ومن يلمُّ بهم من الجوارى الحسان ، يقول وقد طافت به بعض ذكرياته الماجنة في الكوفة^(٤) :

لَهْفَى عَلَى الزَّمَنِ الْقَصِيرِ * بَيْنَ الْخَوْرَنْقِ وَالسِّدِيرِ^(٥)
إِذْ نَحْنُ فِي غُرَفِ الْجَنَّا * نَنْعُمُ فِي بَحْرِ السَّرُورِ
فِي فَتِيَةٍ مَلَكُوا عِنَّا * نَالِدُهُرَ أَمْثَالِ الصَّقُورِ

(١) أغاني ٧٥/٤ وطبعته الساسي ٧٦/٢١ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٣٣ .
(٣) الديوان ص ١٢٤ .
(٤) أغاني ٦٠/٤ .
(٥) الخورنق والسدير : قصران قديمان بالقرب من الكوفة .

وَمُقَرَّطٍ يَمْشِي أَمَا م الْقَوْم كَالرَّشَاءِ الْغَرِيرِ^(١)
 بِزَجَاجَةٍ تَسْتَخْرِجُ السَّ رُ الدِّفِينَ مِنْ الضَّمِيرِ
 زَهْرَاءَ مِثْلَ الْكُوكَبِ الِ لُدْرِيَّ فِي كَفِّ الْمُدِيرِ
 وَمَخْصَرَاتٍ زُرْنَنَا بَعْدَ الْهَدُوِّ مِنَ الْخَدُورِ^(٢)
 يَرْفُلْنَ فِي حُلُلِ الْمَحَا سَنِ وَالْمَجَاسِدِ وَالْحَرِيرِ^(٣)

والمقدمة تكتظ على هذا النحو بغير قليل من مشاعر الفرح والبهجة .
 وقد مرَّ بنا تدلُّهُ بُعْتَبَةٌ ، وله فيها غزل كثير ، وهو فيه رقيق رقة بالغة ،
 وأكبر الظن أن رفته فيه جاءته من تخنثه القديم ، حتى ليقول ابن قتيبة إن غزله
 يشاكل طبائع النساء ، وكأنما سَرَتْ فيه مشاعرهن ، وهى مشاعر تفتن عنده
 بالتذلل والتضرع على شاكلة قوله :

بَسَمَطْتُ كَفِّيْ نَحْوَكُمْ سَائِلًا مَاذَا تَرُدُّونَ عَلَى السَّائِلِ
 إِنْ لَمْ تُنِيلُوهُ فَقُولُوا لَهُ قَوْلًا جَمِيلًا بَدَلِ النَّائِلِ
 أَوْ كُنْتُمْ الْعَامَّ عَلَى عُسْرَةٍ وَيَلِي فَمَنْوَهُ إِلَى قَابِلِ

ويقول ابن المعتز معلقاً على هذه الأبيات : « لهذا الشعر من قلوب النساء
 موقع الزلال البارد من الظمآن لرقته^(٤) » . وعلى نفس هذا المثال قوله في عُتْبَةٍ
 أيضا^(٥) :

كَأَنَّهَا مِنْ حُسْنِهَا دُرَّةٌ أَخْرَجَهَا الْيَمُّ إِلَى السَّاحِلِ
 كَأَنَّ فِي فِيهَا وَفِي طَرْفِهَا سَوَاحِرًا أَقْبَلْنَ مِنْ بَابِلِ
 لَمْ يُبْقِ مِنِّي حُبُّهَا مَا خَلَا حُشَامَةً فِي بَدَنِ نَاحِلِ
 يَا مَنْ رَأَى قَبْلِي قَتِيلًا بَكَى مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ عَلَى الْقَاتِلِ

(٣) يرفلن : يتبخترن . المجاسد : القمصان
 الداخلية الرقيقة .

(٤) ابن المعتز ص ٢٣٠ .

(٥) أغاني ٤/٤٥٠ .

(١) مقرطق : يلبس القرطق وهو ثوب ذو
 طاق واحد .

(٢) مخصرات : دقيقات الحصور . الهدو
 من الليل : أوائله .

ودائمًا يشكو مسكته وأن صاحبه لا تنيله كثيراً ولا قليلاً ، وأنها استرقته ولا ترد عليه
حريره ، وأنها أضنته وأسقمته ، وأنها تزهّد فيه وهو المحب الوامق الذي يرسل الدموع
مِدْرَاراً على من ظلمته ، وإنه ليستجير ولا يجير ويتصبّر ولا صبر إلا النواح
الطويل

وينتقل أبو العتاهية من مرحلة غزله وخمره إلى مرحلة جديدة تُعَدُّ انقلاباً
في حياته ، فقد تحول من حياة اللهو إلى حياة الزهد ، وظل نحو ثلاثين عاماً
يتغنى بالكأس الخالدة كأس الموت الدائرة على الخلق ، فالكل مصيره إلى الفناء
والكل وشيك الزوال ، والكل سيصبح تراباً في تراب ، يقول (١) :

لِدُواْ للموت وابنوا للخراب فكلُّكم يصير إلى تبابٍ (٢)
ويقول (٣) :

الناس في غفلاتهم ورخى النية تطحن
ويقول (٤) :

كل حَيٌّ عند ميته حظه من ماله الكفن
ويقول (٥) :

بين عيني كل حَيٍّ علّم الموت يلوح
نح على نفسك يامسه كين إن كنت تنوح

وهكذا يمضي ينعي الحياة إلى أهلها ويبكيها ويندبها ، مهولاً رعدة الموت
الأبدية ، ومنغصاً على مَنْ يسمعه كل لذة له وكل نعيم ، فالأجل قصير والمنايا
راصدة ، والقدر أزلّ ونحن آلات بأكفه . ولعله من أجل هذا الإحساس آمن
بالجبر والاضطرار (٦) ، وإنه ليصرخ من أعماق قلبه : ليس هناك إلا الفناء وإلا
الأسى والكآبة ، وهي نظرة سوداء جاءت من مانويته ، إذ الإسلام لا ينشعئ إلى

(٤) الديوان ص ٢٥٢ .

(٥) أغاني ١٠٣/٤ .

(٦) أغاني ٦/٤ .

(١) الديوان ص ٢٣ .

(٢) تباب : هلاك .

(٣) الديوان ص ٢٦٧ .

الناس حياتهم ولا يصورها لهم في كروب أبى العتاهية التى تخنق الأنفاس والى تجعله يقف طويلا عند سكرات الموت وما يعانيه المحتضر من آلام كما تجعله يقف عند نزلاء القبور والقبور نفسها يسألها عن أصحابها ، مسجّلا أن ذوى السلطان يستون مع السوق فى الموت وأن الطبيب كثيرا ما يسبق مريضه إلى ساحته ، يقول^(١) :

وقبلك داوى الطبيبُ المريضَ فعاش المريضُ ومات الطبيبُ
وهو يضيف إلى حديثه الطويل عن الموت والقبور حديثاً عن البعث والنشور ، ولكنه لا يسترسل فى ذكر عذاب الجحيم ونعيم الجنان ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، بل يلمّ إلماً بالبعث والحساب على شاكلة قوله^(٢) :

فلو أنا إذا مُتْنَا تَرَكْنَا لكان الموتُ غايةَ كلِّ حيٍّ
ولكننا إذا مُتْنَا بُعِثْنَا ونُسألُ بعده عن كلِّ شَيْءٍ

ويتسع أبو العتاهية فى أشعاره الزاهدة ، حتى لتؤلف وحدها ديواناً كاملاً ، وفعلًا جمع منها ابن عبد البرّ النّمرى الأندلسى ديواناً مستقلاً ، وقد بنى اليسوعيون على هذا الديوان نشرتهم لأشعار أبى العتاهية باسم « الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية » ضامين إلى رواية النمرى ما تيسر جمعه من أشعار الشاعر وقصائده . وأبو العتاهية فى زهدياته ، كما رأينا ، يطيل الحديث عن الحياة والموت والفناء ومصير الإنسان ، ويتحول بجانب ذلك إلى ما يشبه واعظاً ، وهو فى عظاته يستمد من القرآن الكريم والحديث النبوى ووعظ الوعاظ من أمثال الحسن البصرى ، كما يستمد من أشعار سابقيه ، وقد وقف المبرد عند موعظة له يستهلها بقوله :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا

وردّها إلى بعض الأحاديث النبوية وإلى كلام الحسن البصرى وعلى بن أبى طالب وإلى معانى بعض الشعراء مثل الخليل بن أحمد^(٣) . وهو فى جوانب من مواعظه يلتقى بآى الذكر الحكيم فى اتخاذ العبرة من الأمم الدائرة والقرون الخالية

(١) الديوان (طبعة سنة ١٩٠٩) ص ١٨ . (٢) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٢٣٠ وما بعدها . (٣) الديوان ص ٣٠٢ .

وفي تصوير الموت وسكراته ، وقد يسوق ذلك بلفظ القرآن الكريم من مثل قوله ^(١) :

يا عجباً كلُّنا يَحِيدُ عن الِّ حَيِّنْ وكلُّ لَحَيْنِه لا قِ
كَأَنَّ حَيًّا قد قام نادِبُه والتفَّت الساق منه بالساق ^(٢)
واستلَّ منه حياته ملك الِّ موتٍ خَفِيًّا وقيل : مَنْ راق ^(٣)

وطبيعي أن يطبع أسلوبه في الزهد بطوايع الأسلوب الوعظي من التكرار وكثرة النداء والاستفهام والأمر . ونراه يشيع في زهدياته أدعية وابتهالات لربه من مثل قوله ^(٤) :

سبحان من لا شئ يحجبُ علمه . فالسُّرُّ أجمع عنده إعلانُ
سبحان من هو لا يزال مُسَبِّحًا أبداً وليس لغيره السُّبْحان
وقوله ^(٥) :

إلهي لا تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي مُقِرٌّ بالذي قد كان مِنِّي
ومالي حيلةٌ إلا رجائي لعفوك إن عفوتَ وحُسْنُ ظَنِّي

ويجانب ذلك نراه يذيع دعوة واسعة إلى محاسن الأخلاق كما يذيع حكماً وأمثالاً كثيرة مقتبساً لها من الآداب الفارسية كما أسلفنا، وما رُوِيَ عن حكماء العرب مثل لقمان ^(٦) ، وأفرد لها - كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع - قصيدته « ذات الأمثال » التي يقال إنها امتدت إلى أربعة آلاف بيت .

وكانت عامة بغداد تتعلق بحكمه ووعظياته وزهدياته ، وفي أخباره أن بعض الملاحين غنوا الرشيد في إحدى نزهاته على صفحات دجلة بعظة من عظاته ^(٧) ، وفي ذلك ما يدل على ما كان لأشعارة الزاهدة من صدى عميق في نفوس الطبقة

الملائكة حين يسألون من يرقى به إلى السماء ،

أملأه الرحمة أم ملائكة العذاب .

(٤) الديوان ص ٢٥٨ .

(٥) الديوان ص ٢٦٣ .

(٦) البيان والتبيين ٧٦/٢ .

(٧) أغاني ١٠٢/٤ وما بعدها .

(١) البيان والتبيين ١٨٥/٣ .

(٢) الشطر الثاني اقتباس من الآية رقم ٢٩

من سورة القيامة . والتفاف الساق بالساق كناية عن فقدهما للحركة .

(٣) آخر البيت اقتباس من الآية ٢٧ من

سورة القيامة ، والقائل إما أهل الميت حين

يأسون منه ويطلبون له الرأى أو الطبيب ، وإما

العامة التي لم تكن تعرف ترفاً ولا نعيمًا ، إنما كانت تعرف الكدح وشظف العيش ،
وكأنما أحسّت عنده أنه يتغنى آلامها وبؤسها . ونراه يتعمقه الشعور بما هي فيه
من ضنك ، فإذا هو يرفع لبعض الخلفاء شكوى مريرة من غلاء الأسعار ، يقول
في تضاعيفها ^(١) :

من	مبلغٌ	عنى	الإما	مَ	نصائحًا	ممتاليةً
أنى	أرى	الأسعار	أمة	هَارَ	الرعيّة	غاليه
وأرى	المكاسب	نَزْرَةً	وأرى	الضرورة	فاشيه	
مَنْ	يُرْتَجى	للناس	غِيْ	رُك	للعيون	الباكيه
مِنْ	مُضْطِباتٍ	جُوعٍ	تسمى	وتصبح	طاويه	
مَنْ	يُرْتَجى	لدفاع	كَرْ	بِ	ملمّةٍ	هى ماهيه
من	للبطون	الجائعا	ت	وللجسوم	العاريه	
أَلْقَيْتُ	أخبارا	إلى	يك	من	الرعية	شافيه

ولم يكن أبو العتاهية يقرب من العامة بزهده وما صور فيه من بؤسها وأوصا بها
فحسب ، بل كان يقرب منها أيضًا بأسلوبه الذى كان يشقه اشتقاقًا من لغة
الحياة اليومية ببغداد ، وهو أسلوب ابتعد فيه عن الغرابة والتعقيد كما ابتعد عن
العجمة ، ولكنه بعد ذلك أجراه فى مستوى أفراد الشعب ، بحيث لا يعزُّ على أحد
منهم أن يفهمه ، ويؤثّرُ عنه أنه كان يقول : « الصواب لقائل الشعر أن تكون
ألفاظه مما لا تسخفى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التي فى
الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب
الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء . .
والعامة ، وأعجبُ الأشياءُ إليهم ما فهموه ^(٢) » ومن الحق أنه ظلت فى أسلوب شعره
منذ فاتحة حياته السهولة ، حتى إذا أخذ فى الزهد ضاعفها وأكّدها تأكيداً شديداً

حتى لتكاد تسقط منه بعض مقطوعاته ، لما يجرى فيها من ضعف ، وحتى ليقول صاحب الأغاني إنه كثير الساقط المزدول^(١) . وينبغي أن لا نبالغ مبالغة أبي الفرج ، فقد كانت لأبي العتاهية أذن موسيقية دقيقة وقلما نجد عنده قافية غير متمكنة في موضعها أو كلمة لم تحلّ في نصابها ، إذ كان الشعر عنده طبعاً أو كالطبع^(٢) ، حتى كان لا يسمع كلمة من مناد على بضاعة أو من بعض جلسائه تصلح أن تكون شطراً لببت حتى يبادر بصنع الشطر الثاني تنوّاً على البديهة^(٣) . وبلغ من اقتداره على صنع الشعر وسهولته على لسانه أن اخترع — كما أسلفنا في الفصل السابق — أوزاناً جديدة لا تدخل في بحور الشعر المستعملة ، وكان إذا روجع في ذلك وقيل له إن أشعارك لا تدخل في عروض الخليل قال : أنا أكبر من العروض^(٤) يريد أن الشعر يجرى على لسانه قبل أن يضع الخليل عروضه ، وهو لذلك أسنّ منه ، ولا نشك في أن ديوانه لو وصلنا كاملاً لاستخرجنا منه أوزاناً كثيرة طريفة ابتكرها ابتكاراً ، غير أن نَبَعَ الشعر عنده كان غزيراً ، فكثّر ما نظمه ولم تستطع الأجيال التالية أن تحمله تماماً لكثرت .

٤

مسلم^(٥) بن الوليد

وُلد في الكوفة حوالي سنة ١٤٠ للهجرة لأب كان يشتغل بالحياكة ، واختلفت المصادر القديمة في تصحيح نسبته ، ف قيل إنه خزرجي من الأنصار ، وقيل بل هو من مواليهم ، وهو القول الصحيح ، ويشهد له أنه كان من الصنّاع ، ولم يكن العرب يُقبَلون على الصناعات حتى هذا التاريخ . وفي أخبار مسلم وأشعاره ما يدل على أنه كان شيخاً صالحاً ، وأغلب الظن أنه كان من موالي الفرس ، ووُلد قبل

والشعراء لابن قتيبة ص ٨٠٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ وتاريخ بغداد ٩٦/١٣ وترجمته بالأغاني الملحقه بديوانه وكذلك بقية المصادر الملحقه بنشرة سائى الدهان للديوان (طبع دار المعارف) وراجع مسلم بن الوليد لفؤاد قرزى (طبع بيروت) .

(١) أغاني ٢/٤ وانظر رأى الأصمعي ص ٤٠ .

(٢) أغاني ١٣/٤ والبيان والتبيين ١١٥/١ .

(٣) أغاني ٣٩/٤ والحيوان ١٣٧/٥ .

(٤) أغاني (دار الكتب) ١٣/٤ .

(٥) انظر في أخبار مسلم وأشعاره الشعر

مسلم ابنُ كان يكبره يسمى سليمان ، وكان كفيفاً ، كما كان شاعراً مُجيداً ، ويُجمع الرواة على أنه كان زنديقاً وأن الذي لقنَه زندقته بشار^(١) ، ومن قول الجاحظ فيه : « كان من مستجبي بشار الأعمى ، وكان يختلف إليه وهو غلام ، فقَبِلَ عنه ذلك الدين^(٢) » . وفي اختلافه إليه ما يدلُّ على أنه نزل البصرة ، ويظهر أنه نزلها مع أبيه ، إذ كان لا يزال غلاماً ، وكان ضريراً ، يحتاج إلى من يعينه ويَعُوله ، وفي ديوان مسلم قصيدة طويلة^(٣) يذكر فيها مقامه أولاً بالكوفة ، ثم نزوله البصرة وذكرياته السعيدة بها ، وذكريات الحب واللهم .

وفي ذلك كله ما يدل على أن مسلماً نشأ بالكوفة ، ثم انتقل إلى البصرة ، ولا نرتاب في أنه كان يختلف مع أخيه سليمان إلى بشار ، وأن ذلك أتاح له أن يحمل عنه شعره ، ولكنه لم يحمل عنه زندقته ، كما حملها أخوه ، إذ لم يُعرف عنه شيء من الزندقة . ويظهر أنه مضى يثقف نفسه بكل معارف عصره وأنه عكف على قراءة كثير من الآداب المترجمة ، ونراه يصرح بأن قوله :

دَلَّتْ عَلَى عَيْبِهَا الدُّنْيَا وَصَدَّقَهَا مَا اسْتَرْجَعَ الدَّهْرُ مِمَّا كَانَ أَعْطَانِي

قد أخذ معناه من التوراة^(٤) . وفي أشعاره من التعمق في الأفكار ما يدل دلالة قاطعة على أنه اختلف إلى متكلمي البصرة وحذق على أيديهم النظر والتفكير وتصحيح المعاني والخلوص إلى دقائقها وطرائفها وحدودها الخفية . وأيضاً في أشعاره ما يدل دلالة بيّنة على ثقافة واسعة بالشعر القديم : الجاهلي والإسلامي ، فقد أُشْرِبَتْهُ روحه لا بصياغاته فحسب ، بل أيضاً بجميع معانيه وصوره وخصائصه الموسيقية . والتحمت في نفسه هذه الثقافة بشعر بشار ومعاصريه من شعراء الجليل العباسي الأول التحاماً قوياً خصباً .

ويظهر أن مواهبه الشعرية استيقظت في نفسه مبكرة ، وليس بين أيدينا أخبار

(١) انظر الحيوان ١٩٥/٤ ومجمع الأدباء ٢٥٥/١١ ونكت الهميان ص ١٦١ وفي الكتابين الأخيرين أنه ابن مسلم وهو خطأ ، انظر فيه الحيوان والبيان والتبيين ٢٠٢/٣ حيث ينصر الجاحظ على أنه أخوه ، وقد توفي قبله بنحو ثلاثين عاماً سنة ١٧٩ للهجرة .

(٢) الحيوان ١٩٥/٤ .
(٣) راجع الديوان (طبع دار المعارف) ص ٢٢٥ .
(٤) انظر ترجمة أبي الفرج لمسلم المحمقة بديوانه ص ٣٧٣ .

واضحة عن حياته في موطنه الأول الكوفة ولا في البصرة ، غير أننا نراه يصطبم
 بشاعر بصرى يسمى ابن قُسْبُر ، عُنِيَ بأن يَرُدَّ على الطرماح الشاعر الأموى
 الخارجى أهاجيه في قبيلته تميم ، وأن يهجو طيثاً والأزد وغيرهما من قبائل اليمن التى
 انتصر لها الطرماح ، وامتنع مسلم لمواليه من الأنصار الأزدية اليمنيين ، وزجَّ
 بنفسه معه في معركة هجاء عنيفة ، وكان أقوى منه شاعرية ، فهتكه ومزقه واضطّره
 إلى أن يمسك عن مناقضته .

وجدت بغداد مسلماً فهاجر إليها ، لعل بضاعته تروج فيها ويسحظى بمحظى
 به أعلام الشعراء في عصره من جوائز الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والقواد . ولا يُعرف
 بالضبط تاريخ هجرته ، ولكن في أخباره أنه هاجر إليها مع أخيه سليمان وانقطعا
 لمديح يزيد بن يزيد ومحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وقد توفي سليمان
 سنة ١٧٩ للهجرة . وفي أخبار مسلم أنه كان يمدح من دون الخليفة ولا يطمح إليه ،
 فكان يقول : أرى نفسى تذوب حشرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء من لا يوازي
 في أدب . ويدل ذلك على أنه ظل في بغداد مدة قصرت همته فيها عن لقاء الرشيد
 ثم لقيه ، ويقال إن منصور بن يزيد الحميرى خال الرشيد هو الذى أوصله إليه .
 وتلتقى أخبار لقائه له بمدائحه ليزيد بن يزيد وقضائه على ثورة الوليد بن طريف
 الخارجى في سنة ١٧٩ للهجرة ، ومن حينئذ لمع اسمه وعلا نجمه بين شعراء بغداد
 ويظهر أن صلة انعقدت بينه وبين البرامكة ، فقد كان وثيق الصلة بمحمد بن
 منصور كاتبهم ، وله فيهم مدائح مختلفة .

وفي ديوانه قصائد أربع في مديح الرشيد ، ويظهر أن كثيراً من مدائحه فيه
 سقط من يد الزمن ، ويقال إنه لما أنشدته لاميته فيه ، وأورد على سمعه قوله في
 مقدمتها :

هل العَيْشُ إِلَّا أَنْ أروح مع الصُّبا وأغدو صَرِيحَ الرَّاحِ وَالْأَعْيُنُ النَّجْلُ (١)

قال له : أنت صريح الغواني ، فلصقت به الكلمة ، وأصبحت لقباله لا
 يُعرف إِلَّا به (٢) . ونراه دائماً ينوه بانتصاراته على أعدائه ، من مثل قوله (٣) :

(٢) ابن المعتز ص ٢٣٥ والديوان ص ٤٣ .

(٣) الديوان ص ٢٥٤ .

(١) نجل : جمع نجلاء وهى الواسعة . الراح :
 الخمر .

خليفة الله إن النصر مُقْتَصِرٌ عليك مُذْ أَنْتَ مَبْلُوءٌ وَمُخْتَبِرٌ
أَعَدَدْتَ لِلْحَرْبِ سَيْفًا مِنْ بَنِي مَطَرٍ يَمْضِي بِأَمْرِكَ مَخْلُوعًا لَهُ الْعُدْرُ^(١)
لَاقَى بَنُو قَيْصَرٍ لَمَّا هَمَمْتَ بِهِمْ مِثْلَ الَّذِي سَوْفَ تَلْقَى مِثْلَهُ الْخَزَرُ
لَقَدْ بَعَثْتَ إِلَى خَاقَانَ جَائِحَةً خَرَقَاءَ حَصَاءَ لَا تَبْقَى وَلَا تَذُرُ
أَظْلَهُمْ مِنْكَ رُعْبٌ وَاقِفٌ بِهِمْ حَتَّى يُوَافِقَ فِيهِمْ رَأْيُكَ الْقَدَرُ

وهو يريد بسيف بنى مطر يزيد بن يزيد الشيباني ، وقد مضى يتحدث عن انتصارات الرشيد على الروم وظفره بخاقان ملك الترك ، وكان شخص إلى الفضل بن يحيى البرمكي في جيش ضخم سنة ١٧٨ للهجرة ، فأسره واستباح عسكره وغنم أمواله^(٢) . وفي أخباره أن الرشيد وصله صلات كثيرة ، حتى يقال إنه وصله مرة بمائتي ألف درهم^(٣) . وتقرن أخباره إعجاب الرشيد به بإعجابه بمدحيه لقائده يزيد ابن يزيد الشيباني ، وهو إعجاب نظن أن السياسة تتداخل فيه ، فقد كان كل شيء في الحكم بيد البرامكة الإيرانيين ، وأكْبَّ عليهم الشعراء بمدائحهم لإكبابًا جعل الخليفة يَنْفَسُ عليهم ذلك ، وربما كان مما يؤذيه أنه لا يجد لقادته من العرب الخُلَصَّ من يمدحهم وينوه بهم ، وكان البرامكة يقفون في وجه بعض هؤلاء القادة ويحاولون إبعادهم عن الخليفة ، وكان يُضْطَرُّ للنزول على إرادتهم لعلو نفوذهم ، وكان ممن صنعوا به ذلك يزيد بن يزيد ، فإنه لما قضى على ثورة الوليد ابن طريف وانصرف بالظفر حُجِبَ برأيهم وجاراهم الرشيد فأظهر سخطه عليه ، فقال : « وَحَقٌّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَصِيْفَنَ وَأَشْتُونَ عَلَى فَرْسِي أَوْ أَدْخَلَ ، فَارْتَفَعَ الْخَبَرُ بِذَلِكَ إِلَى الرَّشِيدِ ، فَأَذِنَ لَهُ ، فَدَخَلَ ، فَلَمَّا رَأَاهُ ضَحَكَ وَسُرَّ وَأَقْبَلَ بِصَبَحٍ : مَرْحَبًا بِالْأَعْرَابِي ، حَتَّى دَخَلَ وَأَجْلَسَ وَأَكْرَمَ^(٤) » وَأَقْبَلَ الشُّعْرَاءَ يمدحونه ، ومدحه مسلم بقصيدته المشهورة^(٥) :

(١) العذر : جمع عذار ، وهو هنا العزيمة .
(٢) اليعقوبي ١٣٩/٣ وقارن بالجهشياري ص ١٩٠ وما بعدها .
(٣) انظر ترجمة الأغاني الملحقه بالديوان
(٤) أغاني (دار الكتب) ٩٦/١٢ وما بعدها .
(٥) هي أولى قصائد الديوان .

أَجْرَزْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصُّبَا غَزَلٍ وَشَمَرْتُ هِمَمَ الْعُدَالِ فِي الْعَدَلِ (١)

وارتفعت إلى سمع الرشيد ، فطار سروراً بمدح قائده وبمادحه . ومن حينئذ توثقت الصلة بين الشاعر والخليفة من جهة وبينه وبين القائد من جهة ثانية ، وأخذ يزيد يُغَدِّق عليه نواله الغمَر ، حتى ليقال إنه أعطاه في إحدى وفاداته عليه مائة وتسعين ألف درهم ، وأقطعه إقطاعات تُغَلِّ مائتي ألف درهم . ولما ولي الرشيد يزيد أرمينية وآذربيجان سنة ١٨٣ للهجرة صحبه وظل معه حتى توفي سنة ١٨٥ . وقد احتفظ الديوان بقصيدته السابقة فيه وقصيدة ثانية ميمية ومقطوعة قصيرة ، وهو في القصيدة الأولى ينوّه بانتصاراته في حروب الروم وظفره بيوسف البَرَمَ الثائر في خراسان لعهد المهدي ثم الوليد بن طريف الخارجي الثائر بالجزيرة لعهد الرشيد . ونراه في القصيدة الثانية وهي التي يستهلها بقوله (٢) :

طَيْفَ الْخِيَالِ حَمِدْنَا مِنْكَ إِيْمَامَا دَاوَيْتَ سُقْمًا وَقَدْ هَيَّجْتَ أَسْقَامَا

بتغنى بانتصاره على الوليد بن طريف ويشيد بشجاعته وإقدامه .

وكان منذ نزوله بغداد يمدح محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وكان خليفة الفضل بن جعفر البرمكي بباب الرشيد ، وكان يسمى فتي العسكر لبلائه في الحروب ، ولمسلم فيه قصيدتان وبعض مقطوعات مثورة في ديوانه ، وهو في إحدى قصيدتيه ، وهي التي افتتحها بقوله (٣) :

عَاَصَى الشَّبَابَ فَرَاخَ غَيْرَ مَفْنَدٍ وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَلْدٍ (٤)

يشيد طويلاً بانتصاره في بعض حروب الروم وفتكه بأحد بطارقتهم ، كما ينوّه بانتصارات أبيه « منصور » على خوارج القيروان ، ولعله كان في عداد جيش يزيد بن حاتم المهلبى الذى فتك بهم فتكاً ذريعاً لعهد الخليفة المنصور (٥) . وقد وصله محمد بن منصور بن زياد بالبرامكة ، وفي ديوانه بيتان في مديح يحيى ، وقصيدة ومقطوعة في مديح ابنه جعفر ، وهو في القصيدة يشير إلى قضائه على فتنة

(٢) الديوان ص ٢٣٠ .

(٤) مفند : ملوم .

(٥) النجوم الزاهرة ٢/٢١ .

العصر العباسى الأول

(١) أجرت حبل خليع كناية عن تركه

يصنع ما يشاء .

(٢) الديوان ص ٦١ .

بالشام سيره إليها الرشيد سنة ١٨٠ للهجرة^(١) ، يقول^(٢) :

أعطى المقادة أهل الشام حين غشوا من جعفر بهنات مالها حول
وأبدع قصائده في البرامكة لاميته في الفضل بن جعفر ، وهي تُعدُّ من
روائعه^(٣) وإذا صح أن من سماه إسماعيل في قصيدته : « وإني وإسماعيل يوم وداعه »^(٤)
من البرامكة كانت هي الأخرى من دُرره فيهم . ونراه بعد وفاة يزيد بن يزيد
يتصل بدادود بن يزيد المهلب أحد قواد الرشيد وولاته على إفريقية ، وقد ولاه السند
سنة ١٨٤ فرمَّ ما فيها من شعث بين اليمينية والنزارية ، وفتح كثيراً من مدنها ،
ويقال إنه « كان يجلس للشعراء في السنة مجلساً واحداً فيقصده ذلك اليوم وينشدونه
مدائح ، فوجه إليه مسلم راويته بقصيدته فيه^(٥) :

لا تدعُ بي الشوقُ إلى غير معمودٍ نهى النهى عن هوى البيض الرعايد^(٦)

فلما أنشدها بين يديه أمر له بعشرة آلاف درهم وأمر لمسلم بمائة ألف ، وهي
إحدى فرائده ، ونراه فيها يتحدث عن انتصاراته في « كِرمَان » وسجستان ومن
فلك بهم من الخوارج والثوار ، وكيف دانت له السند واستقامت أمورها خير
استقامة .

ونرى مسلماً يمدح جماعة من كتاب الدواوين والولاة وكبار رجال الدولة في
عهد الرشيد ، وفي مقدمتهم يعقوب^(٧) بن سعدان ، وكان سعدان كاتب زُبَيْدَة^(٨)
زوج الرشيد ، وسهل^(٩) بن الصباح المدائني ، وكان من مقدمي رجال الدولة
وأجوادهم^(١٠) ، والحسن^(١١) بن عمران الطائي وإلى الرشيد على دمشق^(١٢) ، وزيد
ابن مسلم الحنفي أحد قواده ، وقد نوه به وبكرمه وشجاعته وبلائه في الحروب في

الإكفال .

(١) الجهشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٤٥٧/٦

و ٤٦٦ .

(٧) الديوان ص ١١٤ ، ٣٣٦ .

(٢) الديوان ص ٢٥٠ .

(٨) الجهشيارى ص ٢٥٦ .

(٣) الديوان ص ٢٦٠ .

(٩) الديوان ص ٢٤ وانظر ص ٣٢٦ ،

٣٣٣ ، ٣٣٧ .

(٤) الديوان ص ٣٣٢ وقارن بسط اللالي

(١٠) الجهشيارى ص ١٦٥ وما بعدها

٣٢٧ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار

(١١) الديوان ص ٢٥٧ .

المعارف) ص ٨٠ .

(١٢) زهر الآداب ٨٢/٤ .

(٥) الديوان ص ١٥١ .

(٦) معمود : عاشق . الرعايد : المرتجات

قصيدتين^(١) بديعتين . ونمضى معه إلى عصر الأمين ففراهِ بمدحه بقصيدته^(٢) :

شُغِلَ عن الدار أبكيها وأرثيها إذا خلت من حبيبٍ لى مغانيها
ونراه يشيد بانتصاراته على أعدائه فى الشرق ، وهو بلا ريب يشير إلى انتصار
هرثمة بن أعين على رافع بن الليث التأثير بسمرقند سنة ١٩٤^(٣) . ولا يابث الأمين
أن ينقض عقد ولاية العهد من بعده لأخيه المأمون ، ويأخذ من الناس البيعة لابنه
موسى مما أدّى إلى تطاحن الأخوين وظفر المأمون بأخيه على نحو ما مرّ بنا فى غير
هذا الموضع . ويولّى مسلم وجهه شطر مرو حيث المأمون ووزيره الفضل بن سهل .
وتلقّاه الفضل بترحيب عظيم ، إذ كان من ندمائه قبل وزارته للمأمون^(٤) ، ونظن
ظنّاً أن الصلة توثقت بينهما منذ كان مسلم يغدو ويروح على البرامكة ، وخاصة
على الفضل بن جعفر البرمكى فقد كان ابن سهل يخدمه أولاً ثم التحق بخدمة
المأمون . ولم يكد مسلم يمثل بين يديه حتى أنشده قوله فيه :

لو نطقَ الناسُ أو أثَنُوا بعلمهم
ونبأتُ عن معالى دهرِك الكُتُبُ
لم يبلغوا منك أدنى ما تمّتُ به إذا تفاخرتِ الأملاك وانتسبوا

فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم^(٥) ، وقد سقطت من
ديوانه ، كما سقطت قصيدة كافية له فى المأمون لم يبق منها إلا هذان البيتان^(٦) :

وردتْ على خاقان خَيْلُك بعدما كرهَ الطَّعان وقد أَطْلَنَ عِراكا
حتى وَرَدَن وراءَ «شاش» بِمَنْزِلٍ تَرَكْتُ به نَفْلاً له الأتراكا

وأيضاً فقد سقطت له قصيدة ثالثة فى الفضل بن سهل لم يبق منها إلا بيت
واحد^(٧) ، وحظى عنده حُظْوَة كبيرة جعلته يولّيه جرجان أو بعض ضياعها
أو بريدها أو مظالمها أو ضياع أصبهان على اختلاف فى الروايات^(٨) . ولعل

(١) الديوان ص ١٧٧ ، ٢٠٠ .

ص ٣٨٠ .

(٢) الديوان ص ٣٣١ .

(٣) الديوان ص ٢١٦ .

(٤) الديوان ص ٣٠٧ .

(٥) اليعقوبى ١٦٥/٣ .

(٦) انظر ملحقات الديوان ص ٣٥٣ ،

(٧) ابن الطقطقى ص ١٦٦ .

(٨) ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٤٣١ ، ٤٤٤ وما بعدها .

(٩) ترجمة مسلم فى الأغاني للملحق بالديوان

أولها أكثرها صحة ، ويقال إنه كان يربح ألف ألف درهم في العام ، وما زال يجران حتى لبى داعى ربه سنة ٢٠٨ للهجرة .

وواضح أن مسلماً أخذ يعيش في هناءة ورغد منذ أواخر العقد الثامن من القرن الثاني ، فقد انهالت عليه الدنيا وأخذ يظفر بجوائز ضخمة ، وما زال يرقى به شعره حتى تولى جرّان . وفي أخباره وأشعاره ما يدل على أنه كان يقبل على اللهو والطرب ، ويفسّح في حياته للحب والغزل ، ولكن يظهر أنه لم يكن يتغمس في ذلك انغماس أبي نواس وأخذه ، فقد كان فيه وقار ، وإحساس غير قليل بكرامته . وكل شيء يؤكد أن حياته في أسرته كانت تجرى رخاء ، فقد رُزق ابنة وولدين هما محمد وخارجة ، وسبقته زوجته إلى دار البقاء ، فحزن عليها حزناً شديداً ، ولعل في حزنه عليها ما يدل على أنها كانت له شديدة الوفاء والإخلاص .

وفيما قدمنا ما يدل دلالة بيّنة على أن ديوان مسلم لم يحتفظ بكثير من قصائده ، فأشعاره في المأمون والفضل بن سهل مفقودة كما أسلفنا ، إلا البيت بعد البيت ، وحتى من رُويت له فيهم بعض قصائده يظهر أن وراءها قصائد له فيهم سقطت من يد الزمن . وما يجعلنا نقطع بذلك أننا نجد ابن المعتز يشيد بلاميته السائرة التي أنشدتها الرشيد والتي لقبه كما مر بنا من أجل أحد أبياتها باسم « صريع الغواني » ويقول إن الرشيد كتبها بماء الذهب ^(١) ، ومع ذلك لم يبق منها في الديوان إلا مقدمتها ، ويصفها ابن المعتز بأنها « مشهورة سائرة جيدة عجيبة » . وكأن ديوانه مختارات تتضمن بعض قصائده وبعض مقطوعاته . ويظهر أن العبث بالديوان قديم ، حتى ليرى بعض الرواة أن مسلماً تغافل راويته يوما ويده دفتر ديوانه ، فقذف به في بحر ! ولهذا قلّ شعره ولم يبق منه بأيدي الناس إلا ما رواه بعض معاصريه العراقيين وإلا ما كان في أيدي المدوحيين من مدائحه ^(٢) . وربما كان هو نفسه أول من حوّل ديوانه إلى مختارات ، إذ كان شديد الحساب لنفسه ، وكأنه أسقط كثيراً من أشعاره ، حتى لا يبقى له في أيدي الناس إلا عيون شعره .

ولعل القرن الثاني للهجرة لم يعرف شاعراً جهد نفسه في صنع الشعر ، كما

(١) ابن المعتز ص ٢٣٥ .

(٢) انظر ترجمة الأغاني الملحقة بالديوان ص ٣٧٤ .

جهدها مسلم ، فقد أقبل يتمثل نماذج الشعر القديم : جاهليه وإسلاميه بكل معانيه وصوره وأساليبه ، وأضاف إلى هذا التمثيل تمثلاً لا يقل عنه عمقاً ولا دقة لنماذج الشعر العباسي عند بشار ومعاصريه . وبذلك التأم القديم والحديث في نفسه ، وعاش ينفق حياته الفنية في المزج بينهما ، مفكراً في كل التراث الشعري الذي سبقه وناقداً ومحللاً مستنبطاً . وهدهد ذلك منذ أول الأمر إلى أن يستكشف في وضوح أدوات البديع والتصنيع من جناس وطباق ومشاكله وتصوير وأن يجعلها أساساً في صنع شعره واعترف له القدماء بذلك حتى قالوا إنه « أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو الذي أعطاه لقبه ^(١) » . وحقاً نجده مبدعاً في أشعار بشار وأبي نواس وأضرابهما من سابقيه ومعاصريه ، ولكنه يأتي عندهم في الحين بعد الحين ، أما عند مسلم فإنه يتخذ وكده وغايته من عمل الشعر . وقد حاول ابن المعتز في كتابه « البديع » أن يرد البديع إلى الشعر القديم والقرآن الكريم ، فهو عربي الأصول . ولا يمكن لأحد أن يدعى أن مسلماً حين استظهر مذهب البديع والتصنيع في شعره لم يعتمد على أصول تركيبيته ، فقد كان منبشاً في العصور السابقة له ، إذ كان الجاهليون والإسلاميون يأتون به في خفة ، ثم عني به العباسيون منذ بشار ، حتى ليحمله الجاحظ زعيم فن البديع ، وبه اقتدى مسلم وحذا حذوه ^(٢) . ولا نستطيع أن نجري مع الجاحظ في ردّه مذهب البديع إلى بشار ، لأنه لم يقصر فنه عليه ، ولم يتخذ مذهباً يعيش له ويعيش به ، أما مسلم فإنه اتخذ مذهباً له ، وفرضه على شعره فرضاً منحازاً إليه واقفاً نفسه على التفكير فيه تفكيراً متصلاً معتمداً على حس دقيق وشعور رقيق وعقل مثقف ثقافة ممتازة .

وليس ذلك فحسب فقد اُشربت روح مسلم صياغة الشعر القديم بأبنيتها الجزلة الضخمة الناصعة ، وتحولت إليه هذه الصياغة بكل ما يجري فيها من روعة وجمال ، فإذا أساليبه معتدلة مستوية ليس فيها أى عوج أو انحراف إنما فيها التناسق الكامل الذى يفتن قارئه بدقته وباتساع جنباته ليث فيه مسلم بديعه ، ولينيميه مع روح عصره ، وليصب فيه نفسه وعقله وخياله ، وهو في ذلك يتكلف

(١) ترجمة الأغاني الملحقه بالديوان ص (٢) البيان والتبيين ٥١/١ .

كل ما يستطيع من جهد عنيف وعناء شاق ، مراجعاً نفسه ومتأنياً محتاطاً ، حتى يبلغ كل ما يريد من امتياز على أقرانه . وأعله لم يمنح موضوعاً عنايته كما منح المديح وهو فيه يلائم ملائمة دقيقة بين ماضى الشعر وحاضره ، فيستنفد ما قاله القدماء فى وصف الصحراء والنوق والتشيب ملتفتاً إلى إخراج العباسيين لهذه الموضوعات فى أشعارهم وما أضافوا إليها من وصف الحمر ، أو وصف السفن فى طريقهم إلى ممدوحهم . حتى إذا خلص إلى المديح أخذ ينفذ من خلال معانيه القديمة والحديثة إلى عرض جديد رائع يصور زاده الأصيل من التراث الفنى مضيفاً كثيراً من المعانى والصور البديعة ، وقرأ له هذه القطعة من لاميته الطويلة العجيبة فى يزيد بن مزيد وتصور فروسيته وكرمه وما ينزل بالأعداء من تقتيل ساحق ماحق وما يتسم به من مروءة كاملة :

لولا يزيد لأضحى الملك مطرَحاً
يرمى الفوارس والأبطال بالشعل^(١)
كأنه أجل يسعى إلى أمل^(٢)
كالبيت يفضى إليه ملتقى السبل^(٣)
ويجعل الهام تيجان القنا الذبل^(٤)
فهن يتبعنه فى كل مرتحل^(٥)
لا يأمن - الدهر - أن يدعى على عجل^(٦)
ولا يمسح عينيه من الكحل^(٧)

فإنك تشعر بضخامة البناء وقوة الحبك وأن مسلماً يتسلط على كلماته ومعانيه وصوره ، فلا نبوء ولا قصور وإنما ضبط وإحكام . وهو يستمد صورته فى البيت

(١) مطرَحاً : مخذولاً . الطول : الحبال .
وقد ضرب السك وال طول مثلاً لاستقامة الأمر
كاستقامة الخيمتين يقوم عمودها وتشد حبالها .
(٢) شهاب الموت : السيف . وأراد بالشعل
اللهيب المتساقط من الشهاب .
(٣) المهج : الأرواح . الرهج : غبار

الحرب .
(٤) يريد أن الطرق تلتقى براكيها عند الممنوع
لجوده النمر .
(٥) الهام : الروس . الذبل : الرقيقة الحادة .
(٦) لا يمسح عينيه من الكحل : لا يكتحل .

الأول من البادية وخيامها وما يُطَوَّى فيها من حبال وأعمدة . وطالما شبه الشعراء السيوف بالشهب ، غير أن مسلماً يضيف إلى ذلك تشبيهاً بشعل النار وهي في يد يزيد يرمى بها يميناً وشمالاً . ومضى في البيت الثالث يضيف إلى تصويره السابق جناسين واضحين . والتمس صورة سبقه إليها زهير في بيته الرابع ، إذ يقول في مديح صاحبه هرم بن سنان :

قد جعل المبتغون الخيرَ في هَرَمٍ والسائلون إلى أبوابه طُرُقاً
ومضى يصور فتكه بالأبطال تصويراً بديعاً في بيته الخامس ، وكان القدماء يذكرون صحبة الطير للجيش حين يصفونها كناية عما ستجد من أشلاء قتلاها ، فاستغل ذلك في بيته السادس وجعلها تتبع يزيد دائماً في رحلاته واثقة بما سيُميرها به ، حتى أصبح ذلك من عاداتها فهي دائماً مرفقة فوقه . ومثله في البيتين السابع والثامن شجاعاً تام الشجاعة حتى لا يفارقه درعه في أوقات أمنه وسلمه ، وحتى لا يتعطر شأن المترفين اللاهين فعطره شجاعته وما يسيل على سيفه من دماء الأبطال . وقرأ له هذه القطعة من مديح داود بن يزيد بن حاتم المهلبى ، وتصوره فيها لبسالته وبطوانته :

موحِّدُ الرأى تَنَشَّقُ الظنون له عن كل ملتبسٍ منها ومعقود^(١)
كاللَّيْثِ بل مثله اللَّيْثُ الهَـصُور إذا غَنَّى الحديد غناءً غيرَ تغريد
يلقى المنيَّةَ في أمثال عُدَّتْها كالسَّيْلِ يقذف جُلُوداً بجلمود
يجود بالنفس إذ ضَنَّ الجوادُ بها والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

فإنك تحس قوة البناء ودقة التعبير وروعة التصوير ، فداود محكم الرأى إذا فكر في شيء انكشف له غامضه ومتشابهه ، وهو كالليث في انقضاضه على فريسته ، بل الليث هو الذى يحاكيه ويتخذة قدوته ، وإن بسالته لتتحول إلى ما يشبه موجاً لا يزال يسقطه على الأبطال موجة في إثر موجة كالسيل يدفع جلموداً بجلمود . وإن

(١) ملتبس : مشتبه . معقود : غامض .

شجاعته لضرب رائع من جوده وكأنما الجود شريعته حتى بروحه الزكية . ومن رائع مدنيحه قوله في الفضل بن جعفر البرمكي :

تُسَاقُطُ يُمْنَاهُ النَّدَى وشاله الـ رَدَى وَعِيُونُ الْقَوْلِ مَنْطِقُهُ الْفَضْلُ^(١)
عَجُولٌ إِلَى مَا يُودِعُ الْحَمْدَ مَالَهُ يَعُدُّ النَّدَى غُنْمًا إِذَا اغْتَنِمَ الْبُخْلُ
بِكَفٍّ أَبِي الْعَبَّاسِ يُسْتَمَطَّرُ الْغِنَى وَتُسْتَنْزَلُ النُّعْمَى وَيَسْتَرْعَفُ النَّضْلُ^(٢)

والأبيات من طراز بنائه الضخم ، وهي متينة السبك ، قوية الحبك ، وانظر في البيت الأول كيف صور تصويراً بديعاً كرم الفضل وشجاعته وبلاغة بيانه ، وقد طابق في البيت الثاني بين الكرم والبخل ، وعاد في البيت الثالث إلى تركيزه الشديد وتجميعه المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، مع قوة تجسيمها وتجسيدها . ومن بارع مديحه قوله في إسماعيل البرمكي :

وإِنِّي وَإِسْمَاعِيلُ يَوْمَ وداعِهِ لَكَ الْغَمْدُ يَوْمَ الرَّوْعِ فَارِقَهُ النَّضْلُ
فَإِنْ أَغَشَّ قَوْمًا بَعْدَهُ أَوْ أَزْرَهُمْ فَكَالْحَوْشِ يُدْنِيهَا مِنَ الْأَنْسِ الْمَحْلُ^(٣)

يقول ابن المعتز : « وهذا معنى لا يتفق للشاعر مثله في ألف سنة^(٤) » . وفي نفس هذه القوالب القوية كان يصوغ مرثيته على شاكلة قوله في رثاء يزيد بن مزيد :

نَفَضْتُ بِكَ الْآمَالَ أَحْلَسَ الْغِنَى واسترجعتْ نُزَاعَهَا الْأَمْصَارُ^(٥)
أَجَلٌ تَنَافَسَهُ الْحِمَامُ وَحَفْرَةٌ نَفَسْتُ عَلَيْهَا وَجْهَكَ الْأَخْفَارُ^(٦)
فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ أَثْنَى عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوْعَارُ^(٧)

والصورة في البيت الأول دقيقة ، فقد أراد أن يصور قعود المعتفين والسائلين عن الرحلة في طلب نواله ، فقال إن الآمال نفضت أحلاس الغنى ، أى أنها لم تعد

(٥) أحلاس جمع جلس وهو كساء يوضع

على ظهر البعير تحت الرجل . نزاعها : الذين

يزعون إليه ويفتربون عن أوطانهم .

(٦) الحمام : الموت .

(٧) المزنة : السحابة المطيرة .

(١) الندى : الكرم . الردى : الموت .

(٢) يسترف : يقطر دماً . النصل حد السيف .

(٣) الأنس : بفتح الهمزة كالأنس بضمها ،

المحل : الجذب .

(٤) ابن المعتز ص ٢٣٦ .

تهَيَّئِ الإِبِلَ لِلارْتِحَالِ نَحْوَهُ . وجعل في البيت الثاني الموت والقبر يتنافسان عليه ، كل يريد أن يحوزه إليه ، ولم يلبث أن جعل جميع القبور تنفس على قبره جسده الغالي . ودعا له متمثلاً جوده الذي عَمَّ به الناس كما تعم السحابة بوابلها السهل والوعر . ومن دقائق معانيه في الرثاء قوله :

ومخادعِ السمعِ النَّعِيِّ ودونه خَطْبُ أَلَمٍ بِصَادِقٍ لَا يَخْدَعُ

وهو يصور في البيت ذهول الصديق حين يأتيه نعي صديقه فيفزع إلى تكذيبه ، ثم يثوب إلى رشده . وقد بدأ حياته بنقائض في الهجاء ناقض بها ابن قبر ، وهو في هذه النقائض يصدر عن روح النقائض القديمة عند جرير والفرزدق وما يُطَوَّى فيها من عصبيات ، ويتكافأ فلا يعود إلى هذا النمط القديم ، بل يأخذ في النمط المستحدث الذي وصفناه في غير هذا الموضع والذي كان يجري في أبيات قصيرة تشبه السهام المسمومة ، كقوله في دعبل تلميذه وقد فسد ما بينهما :

أما الهجاءُ فدَقَّ عِرْضُكَ دونه والمدحُ عنك كما علمتَ جليلُ
فاذهَبْ فَأَنْتَ طَلِيقُ عِرْضِكَ إِنَّهُ عِرْضُ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلُ

وتُرَوَّى له أبيات في هجاء يزيد بن مزيد ، وأكبر الظن أنها منتحلة أولعها أضيفت إليه خطأ ، ويظهر أنه مدح موسى بن خازم بن خزيمة وسعيد بن سلم ابن قتيبة ، فلم يَبْرَاه ، واستشاط غضباً ، فرماهما بسهام لاذعة من هجاء مرير ، على شاكلة قوله في موسى :

لَوْ أَنَّ كَنْزَ الْبِلَادِ فِي يَدِهِ لَمْ يَدْعِ الْإِعْتِذَارَ بِالْعُدْمِ^(١)
وقوله في سعيد :

وَأَحْبَبْتُ مِنْ حُبِّهَا الْبَاخِلَ بَيْنَ حَتَّى وَمِقتُ ابْنَ سَلَمٍ سَعِيداً^(٢)
إِذَا سِيلَ عُرْفًا كَسَا وَجْهَهُ ثِيَاباً مِنَ اللَّوْمِ صُفْراً وَسوداً^(٣)
وكان لا يزال يدقق في معاني الهجاء حتى يقع على معنى نادر يروع سامعيه ،

(٢) ومقت : أحببت .

(١) العدم : فقدان المال .
(٣) سيل : سئل ، خفف . العرف : المعروف والجود .

من مثل قوله يهجو رجلا بقبح وجهه وخلقه :

قَبُحَتْ مَنَاطِرُهُ فَحِينَ خَبَرْتُهُ حُسْنَتْ مَنَاطِرُهُ لَقُبْحِ الْمَخْبَرِ

وبنفس هذا النسيج من الصياغة وهذه الدقة في المعاني والصور كان مسلم ينظم في الحب والخمر ، سواء أودعها مقدمات مدائح أو أفردهما ببعض المقطوعات ، وهو يصور مترعه فيهما ومتعته بهما إذ يقول :

وما العيش إلا أن أبيتَ موسداً - صريعَ مُدامٍ - كفَّ أخوراً أكحل^(١)

وكان لا يزال يبقى فيهما على نفسه ولا يزال يحتفظ بغير قليل من كرامته . وهو في غزله لا يمجن ولا يفحش ، بل يقترب اقتراباً شديداً من أصحاب الهوى العذرى الذى يصور آلام العاشق وحنينه ونيران شوقه وحببه الذى يلذع فؤاده من مثل قوله :

إن كنتِ تَسْقِينِ غيرَ الرَّاحِ فاسقيني كَأَسَا أَلَذُّهَا مِنْ فَيْكِ تَشْفِينِي
عيناكِ راحي ، وريحاني حديثك لى وَلَوْ حَدَيْكَ لَوْنُ الْوَرْدِ يَكْفِينِي
وقوله :

ولما تلاقينا قَضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ بوجهِ كوجه الشمس ما إنْ له مِثْلُ
وخالٍ كخالِ الْبَدْرِ فى وَجهِ مِثْلِهِ لَقِينَا الْمُنَى فِيهِ فَحَاجَزْنَا الْبَدْلُ
وقوله :

وأقسمتُ أنسى الداعياتِ إلى الصُّبَا وقد فاجأتها العَيْنُ وَالسُّتْرُ واقعُ
فَغَطَّتْ بِأَيْدِيهَا ثِمَارَ نُحُورِهَا كَأَيْدَى الْأَسَارَى أَنْقَلَتْهَا الْجَوَامِعُ^(٢)

والخمر عند مسلم تأتي غالباً فى مقدمات مدائحه ، وفيها يحاول أن يستنبط المعانى النادرة والأخيلة المبتكرة من شاكلة قوله :

ومانحةٍ شُرَّابِهَا الْمُلْكُ قَهْوَةٌ مجوسيةٍ الأنساب مسلمة البعل

قد استودعت دنا لها فهو قائمُ بها شفقاً بين الكروم على رجل
شفقنا لها في الدن عينا فأنسبت كألجنة الحيات خافت من القتل^(١)

وقد جعلها في البيت الأول من بنات الجوس كما جعل شاربها مسلماً وسماء
بعلأ أو زوجاً ، لأنه اشتراها وخطبها وهو يعنى نفسه . أما في البيت الثانى فقال
إنها ظلت طويلا في شجرة الكرم ، وظلت واقفة بها شفقة لها وحنواً عليها . وقال في
البيت الثالث إنهم شفقوا لها في دنها ثقياً وهى تسيل منه حمراء مهتزة ، كأنها
ألجنة حيات ترتجف من القتل ، فهى لا تكف عن إرسالها لها خوفاً وفزعاً . ومسلم
من أمهر الشعراء وأدقهم في التصوير ، وهى دقة تراءى في جميع جوانب ديوانه
من مثل قوله مصوراً سرعة النوق ونحوها لطول السفر :

إلى الإمام تهادانا بإرحلتنا خلق من الريح في أشباح ظلمان^(٢)
كان إفلاتها والفجر يأخذها إفلات صادرة عن قوس حُسبان^(٣)

فقد جعل نوقهم كأنما خلقت من الريح لسرعتها ، وصورها في ضمورها
كأنها ذكور نعام وهى تمر مسرعة مرور ظبية رماها صائد فأخطأها ، فهى لا تنى
عن الانطلاق والعندو الشديد . وقد نوّه القدماء طويلا بتصويره للسفينة بمثل
قوله :

إذا أقبلت راعت بقنة قرهب وإن أدبرت راعت بقادمتى نسر^(٤)
أقلت بمجدافين يعتورانها وقومها كببح اللجام من الدبر^(٥)

كان الصبا تحكى بها حين واجهت نسيم الصبامشى العروس إلى الخدر^(٦)
وهو يشبه في البيت الأول صدرها برأس ثور وحشى كما يشبه مجدافها بجناحي
نسر ، ويرسم صورتها في البيت الثانى بمجدافها وسكانها الذى يقوم جموحها .

(٤) راعت : أفزعت . قنة قرهب : رأس

ثور وحشى . قادمة النسر : جناحه ، أراد بها

المجدافين .

(٥) أقلت : ارتحلت وصارت .

(٦) الخدر : البيت الذى تستتر فيه المرأة .

(١) يقصد بالعين الثقب . أسبلت : سالت

(٢) تهادانا : تحمّلنا . أشباح : أشخاص .

ظلمان : جمع ظلم وهو ذكر النعام .

(٣) إفلاتها سرعتها وانبعثها في السير . صادرة

راجمة . قوس حُسبان : ضرب مشهور في عصرهم

من القسي .

أما في البيت الثالث فيشبهها في سيرها الوثيد بالعروس في سيرها الرفيق إلى خدِّها .
وعلى هذا النحو لا يزال مسلم يلتقط لأبياته وأشعاره درر المعاني والصور ،
مضيفاً إلى ذلك حللٌ كثيرة من وشى الطباق والمقابلة والجناس والمشاكلة ، وهو
في ذلك لا ينسى العناية بموسيقاه الضخمة وما ترسل من رنين قوى محكم ، مزاجاً
بكل ما استطاع بين عناصر الشعر القديمة والحديثة ، فإذا أشعاره تحتفظ بالصياغة
الجزلة الرصينة التي تلذ الأسماع العربية ، وإذا هي تفسح لمذهب البديع الجديد
بكل طرائفه العقلية والخيالية ، بحيث يمتع القلوب والأفئدة .

٥

أبو تمام ^(١)

هو حبيب بن أوس الطائي ، وُلد بقرية جاسم بقر دمشق على الطريق منها
إلى طبرية ، وقد تعددت الروايات في سنة ولادته ، ف قيل سنة ١٧٢ وقيل سنة ١٨٢
وقيل سنة ١٨٨ وقيل سنة ١٩٢ ونُسب إليه أنه قال : ولدتُ سنة ١٩٠ ^(٢) . والآراء
متضاربة في صحة نسبه من طيئ ، فقد هجاه بعض معاصريه بأنه نبطي ^(٣) ،
وزعم قوم أن أباه كان نصرانياً ^(٤) يسمّى تدوس وأنه حرّفه إلى أوس وانتسب في
طيئ . وظن مرجليوث في ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية أنه ربما كان اسم
أبيه المذكور في المراجع القديمة على أنه تدوس محرف عن « تيودوس » وبَنَى

(١) انظر في أبي تمام وأخباره وأشعاره ابن
المعز ص ٢٨٣ والأغانى (طبع دار الكتب)
٣٨٣/١٦ وتاريخ بغداد ٢٤٨/٨ والموشح ص
٣٠٣ وابن خلكان (طبعة سنة ١٢٩٩ هـ)
١٥٠/١ وتهذيب ابن عساكر ١٨/٤ وشذرات
الذهب ٧٢/٢ ومراة الجنان ١٠٢/٢ وكتاب
الموازنة بين الطائنين للأمدى وأخبار أبي تمام
للصول وهبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام للبديعى
ودائرة المعارف الإسلامية في مادة أبي تمام ومن
حديث الشعر والنثر لطف حسين والفن ومذاهبه في
الشعر العربي (طبع دار المعارف) ص ٢١٩ وأبو

تمام الطائي : حياته وحياة شعره * لنجيب محمد
البيهقي « وأبو تمام » لعمر فروخ . وقد طبع ديوانه
طبعا ت مختلفة ، أهمها طبعة دار المعارف بشرح
التبريزي وقد ظهر منها ثلاثة أجزاء تشتمل على مدائحه ،
وسُرجع إلى هذه الطبعا ، وما ليس فيها سُرجع
فيه إلى طبعة بيروت سنة ١٨٨٩ م .

(٢) أنظر في ميلاده وفيات الأعيان وأخبار

أبي تمام للصول ص ٢٧٢ .

(٣) الصول ص ٢٣٥ .

(٤) الصول ص ٢٤٦ وانظر النجوم الزاهرة

. ٢٦١/٢

طه حسين على هذا الظن أنه يوناني الأصل^(١) ، بينما ذهب بروكلمان إلى أن اسم تدوس يشيع بين نصارى السريان^(٢) . ونصرانية أبيه — إن صحت — لا تنفيه من العرب ولا من طيء ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، وجمهور من ترجموا له من الثقات يذهبون إلى أنه طائي صليبية^(٣) ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيء وأنه اختار منها أكثر ممدوحيه ، ونوه تنويهاً عظيماً بمن سجلوا لها في عصره أجداداً حربية ، مما يدل على أنه طائي عريق وعربي أصيل .

وقد تضاربت الآراء أيضاً في نشأته ، فقليل إنه نشأ بمصر يستق الناس في مسجدها الكبير ، وأكثر المؤرخين له على أنه نشأ بدمشق وأن أباه كان عطاراً فيها وأنه ألحقه بمائك كى يحسن حياكة الثياب . ويبدو أنه أخذ يختلف — منذ نعومة أظفاره — إلى حلقات المساجد ينهل مما كان يجري فيها من جداول الشعر والثقافة ، وسرعان ما تدفق ينبوع الشعر على لسانه ، واتجه به إلى بعض اليمنين والطائيين في بلده وفي حمص مثل نوح بن عمرو السكسكي وبني عبد الكريم الطائيين . ونراه يولئ وجهه نحو مصر قاصداً عيَّاش بن لميعة الحضرمي الذي كان يقوم أحياناً على شرطتها وخراجها ، وله يقول في إحدى مدائحه^(٤) :

وأنت بمصر غاييتي وقرباتي بها وبنو الآباء فيها بنو أبي

وهو يشير دائماً في مديحه له إلى حرمة منه وأنه يبنى مثله ، ويلجج في الافتخار بملوك اليمن وأقبالها القدماء . ويظهر أنه عاد فازوراً عنه ، مما جعله يكثر من عتابه ، حتى إذا يثس منه أصلاه بنار هجائه . وليس بين أيدينا ما يدل دلالة صريحة على تاريخ قصده إلى عيَّاش ، غير أن في كتاب « الولاة والقضاة » للكندى أشعاراً له تتصل بأحداث مصر بين سنتي ٢١١ و ٢١٤ مما يؤكد مقامه بها في تلك الفترة ، وفي هذه الأشعار ما يدل على أنه تعرّف على عبد الله بن طاهر في ولايته على مصر (٢١١ — ٢١٣ هـ) وقد نوه به وبقضائه فيها على الفتن . وفي ديوانه بيتان هجا بهما

(٣) ص ٥٩ والأغاني ١٦ / ٣٨٣ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم (الطبعة الثانية بدار المعارف) ص ٣٩٩ .

(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ١ / ١٦٢

(١) مقدمة فقد النثر لقدامة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٩ وانظر مقالته عنه في كتابه « من حديث الشعر والنثر » .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٢ / ٧٢ .

المطلب بن عبد الله الخزاعي معلناً له أن مدحه فيه كان كذباً وبهتاناً ، وقد ولي المطلب مصر في سنتي ١٩٨ و ١٩٩ للهجرة وكان يقيم عياش بن لهيعة على شرطته ، فهل يعني ذلك أنه نزل مصر مرتين : مرة في أواخر القرن الثاني ومرة في أوائل العقد الثاني من القرن الثالث ؟ . الحق أنه ليس بين أيدينا ما يجعلنا نقطع برأى فاصل في ذلك ، وخاصة أنه ليس في ديوانه مديح للمطلب ، وربما قال هذين البيتين بعد عزل المطلب عن مصر أو ربما كانا منحولين عليه .

وقد عاد إلى موطنه في سنة ٢١٤ والمآتم منصوبة في كل مكان على بطل طيئ المغوار محمد بن حميد الطوسي الذي كافح بابل كفاحاً مريراً ، وخانه القدر فسقط في ميدان النضال لأوائل هذه السنة . وتعمقت الحادثة نفس أبي تمام فبكاه بكاء حاراً أخذ يدور على الألسنة وأخذ يحتلُّ به مكانة ممتازة بين الشعراء . وأخذ يتردد على الرقة والموصل ويمدح أجوادهما مثل حبش بن المعافى قاضي نصيبين ورأس عين ومحمد بن حسان الضبي ، ونراه يقول في إحدى مدائحه له ^(١) :

بالشام أهلى وبغدادُ الهوى وأنا بِالرَّقَّتَيْنِ وبالفُسطاطِ إخوانى
وما أظنَّ النَّوَى ترضى بما صنعتُ حتى تشافه بى أقصى خراسان

وذكره الفسطاط يدل على أنه كان حديث عهد بالأوبة منها ، ولا تزال ذكرى واليها عبد الله بن طاهر حية في نفسه ، ولذلك ينوى أن يزوره في خراسان : ولايته الجديدة ، وهو يتمنى أن تكتحل عيناه بمراى بغداد ، ويظهر أنه ألمَّ بها في صحبة محمد بن حسان الضبي إلاما قصيراً ^(٢) ، وفي ديوانه قصيدة موجهة إلى الحسن بن سهل الذى كان جوده الغدق لا يزال يسيل على الرغم من اعتزاله الوزارة وفيها يقول ^(٣) :

ستٌ وعشرون تدعونى فأتبعها إلى المشيب ولم تظلم ولم تحب ^(٤)
فإذا صح أنه مدحه بها في بغداد فإنه يكون قد زارها وهو في السادسة والعشرين من عمره . على أنه لم يلبث أن عاد سريعاً إلى الموصل متنقلاً بينه وبين موطنه ،

(١) الديوان (طبعة دار المعارف) ٣/٣٠٩ . (٢) الديوان (طبعة دار المعارف) ١/١١٥ .
(٣) ابن المعتز ٢٨٣ . (٤) لم تحب : من الحوب وهو الإثم .

وربما بدأ مديحه للملك بن طَوْق التغلبي والى الجزيرة منذ هذا التاريخ . ونراه يحاول
المثول بين يدي المأمون في إلمامه بدمشق وثغور الشام أثناء حملاته على الروم ،
وربما كان أول ما مدحه به قصيدته : (كُشِفَ الغطاء فأوقدى أو أخدمى) وفيها
يعلن له حبه لآل البيت مشيدا بقضائه على الثورات والفتن بمصر ، يقول (١) :

وانتاش مصر من اللُتَيَّا والتي بتجاوزٍ وتعطفٍ وتعهدٍ

والمعروف أن المأمون زار مصر في أول سنة ٢١٧ للهجرة ، وقد عاد منها إلى
دمشق ثم توجه منها إلى ثغر « أذنة » معسكراً بها وجيوشه تتغلغل وراء البيزنطيين ،
مبددين لجموعهم في غير جبهة ، وتقذّم بنفسه إلى حصن « لؤاؤة » فأناخ به ،
وجيوشه تغدو وتروح في آسيا الصغرى منزلة بالروم هزائم ساحقة . ونرى أبا تمام
يتغنى بتلك الانتصارات في ميميته للمأمون تغنياً بديعاً بمثل قوله يصف تلك الجيوش
واستبسالها في القتال (٢) :

مُسْتَرَسِلِينَ إِلَى الْحَتُوفِ كَأَنَّمَا بَيْنَ الْحَتُوفِ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامُ
آسَادُ مَوْتٍ مُخْدَرَاتُ مَالِهَا إِلَّا الصَّوَارِمَ وَالْقَنَا آجَامُ (٣)

وقد مضى يشيد بقائدين من حوادر هذه الحروب ، أما أولهما فخالد بن يزيد
ابن مزيد الشيباني والى أرمينية وقد سجل له انتصاراً حريياً ماحقاً على تيوفيل
إمبراطور بيزنطة مصوراً كيف ولّى الأدبار وكيف استولى الرعب على جنوده ،
يقول (٤) :

وَمَا رَأَى تُوفِيلُ رَايَاتِكَ الَّتِي تَوَلَّى وَلَمْ يَأَلِ الرَّدَى فِي اتِّبَاعِهِ
كَأَنَّ بِلَادَ الرُّومِ عُمَّتْ بِصِيحَةٍ إِذَا مَا اتَّلَّابَتْ لَا يَقَاوِمُهَا الصُّلْبُ (٥)
كَأَنَّ الرَّدَى فِي قَصْدِهِ هَائِمٌ صَبُ فُضِمَتْ حَشَاهَا أَوْرَغَا وَسَطُهَا السَّقْبُ (٦)

(٥) اتلّبت : تتابع هزها . الصلب : جمع

صليب ، ويريد النصارى .

(٦) السقب : ولد الناقة التي عقرتها ثمود

فصارت شؤماً عليهم وهلاكاً لهم .

(١) الديوان ٤٨/٢ . انتاش : خلص .

(٢) الديوان ١٥٦/٣ .

(٣) مخدرات : ساكنات بيوتها وغاباتها .

آجام : جمع أجمة وهي الشجر الكثير الملتف .

(٤) الديوان ١٩٧/١ .

وأما القائد الثاني فجعفر الحياط ، على أنه لم يتوسع في تصوير حروبه وانتصاراته ، ونظن ظناً أنه لقي في هذا الحين المعتصم إذ كان المأمون يعهد إليه بقيادة بعض تلك الجيوش الغازية للروم ، فقد جاء في بعض أخباره أن أول لقائه له إنما كان في المصبصة إحدى ثغور الشام^(١) ، وفي بعض الروايات أنه إنما لقيه بعد بنائه لسُرَّ من رأى وفتحها لعمورية في سنة ٢٢٣ للهجرة غير أنه في إحدى مدائحه له يقول^(٢) :

أَرْبِعِنَا فِي تِسْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً حَقًّا لَهْنِكَ لِلرَّبِيعِ الْأَزْهَرِ^(٣)
وواضح أنه يشير إلى سنة تسع عشرة بعد المائتين مما يؤكد أنه كان ببغداد في تلك السنة ، وكأنه شدَّ رحاله إليها بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ وقد أخذت تتوثق علاقة بينه وبين إسحق بن إبراهيم المصعبي القائم على شرطة بغداد وأعمالها ، وزراه يشيد بانتصاراته على الحميرة الذين ثاروا بالجليل شمالي إيران لسنة ٢١٨ ، ٢١٩ إشارات رائعة^(٤) . ويظهر أنه لم يلبث أن ارتحل إلى عبد الله بن طاهر وإلى خراسان ، واستقبله هو ومن حوله من الكتَّاب والشعراء استقبالا حافلا ، ويقال إنه لما أنشده قصيدته فيه : (هُنَّ عَوَادِي يَوْسُفَ وَصَوَاحِبَهُ) نَشَرَ عَلَيْهِ أَلْفَ دِينَارٍ . وقد دَبَّحَ قصائد كثيرة في رئيس ديوانه وكتَّابه محمد بن الهيثم بن شُبَّانَةَ وأيضاً في كثير من العُمَمَالِ والقوادِ هناك مثل محمد بن المستهلَّ ودينار بن عبد الله وحفص بن عمر الأزدي وعلي بن مرَّ ، ونوّه في طريقه بكثير من الولاة وخاصة الحسن بن رجاء وإلى فارس . وفي عودته نزل بهمدان على أبي الوفاء بن سلمة ، وتصادف أن حبسه الثلج عنده أشهراً ، فأكبَّ على خزانة كتبه يؤلف ويصنّف مجاميع من الشعر أشهرها كتاب الحماسة وهو مطبوع مراراً ، وطُبِعَ له شرحان : شرح التبريزي وشرح المرزوقي ، وهو يصوِّر لنا من بعض الوجوه دقة ذوق أبي تمام كما يصور ثقافته الواسعة بالشعر العربي ودرره النفيسة في القديم والحديث .

وعاد إلى « سُرَّ من رأى » وأخذ يتغنى بانتصارات القواد على بابك الحرمي وكان قد ثار منذ سنة ٢٠١ للهجرة ونازله كثيرون من قُودِ المأمون ، وما تُوفِّي

(٣) لَهْنِكَ : لغة في لَهْنِكَ .

(٤) الديوان ١٦٨/٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩٧ .

(١) الصول ص ١٤٤ .

(٢) الديوان ١٩٣/٢ .

سنة ٢٢٠ حتى يعقد المعتمد للأفشين على الجيوش التي تنازل أتباعه من الحرّمية في الجبال وأرمينية وأذربيجان ، وكان من أهم القواد الذين عصفوا حيثئذ بأتباعه أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى الطائى وقد مضى أبو تمام يشيد بانتصاراته وكأنه يحىّ في قبيلته طيناً وأمجاده الحربية الحديثة ، ومن ثمّ لم يترك له انتصاراً دون أن يسجله في ملحمة رائعة . ومجّد بجانبه بطلا عربياً ثانياً ممن نكلوا ببابك وأصحابه تحت لواء الأفشين هو أبو دؤلف العجلي ، وكان فارساً مغواراً ، وغيتشاً مدراراً ، فنوّه به تنويهاً رائعاً . وأخيراً في أوائل سنة ٢٢٣ قدم الأفشين ببابك مقيداً إلى سرّ من رأى ، فتعالى بها التكبير والضجيج ، وقتل وقطّع جسده وصّاب جزاءً وفاقاً لبغيه ونكته بالعهد . وأخذ الشعراء في مقدمتهم أبو تمام يهنئون المعتمد والأفشين بهذا النصر المبين ، وله فيه ثلاث قصائد رائعة ، هي : (غدا الملك معمور الحمى والمنازل) و (آلت أمور الشرك شرّ مال) و (بئذ الجلالد البئذ)^(١) فهو دفين . ولم يلبث تيوفيل إمبراطور بيزنطة أن أغار على زبطرة بالقرب من سميساط والحدث في طرف بلاده ، واستشاط المعتمد غضباً ، فجهرّ الجيوش لغزو الروم ، والتقى بتيوفيل وهزمه هزيمة ساحقة ، افتتح على إثرها عمورية وتفرقت جيوشه في آسيا الصغرى تمحق الروم محققاً ، وتوطئهم صغاراً وذلاً . وكان لمحمد بن يوسف الثغرى في تلك الحروب دور كبير جعل أبا تمام يتغنّى به وبانتصاراته طويلاً على نحو ما تصور ذلك قصيدناه : (لا أنت أنت ولا الديار ديار) و (ما عهدنا كذا نجيب المشرق) وهو فيهما يسمّى كثيراً من الحصون الرومية التي افتتح أقالها ، مصوراً كيف تغلغل حتى خليج القسطنطينية سائقاً بين يديه مئآت الأسرى والمغانم الكثيرة . ودرة تلك الحروب قصيدته في عمورية التي امتدح بها المعتمد : (السيف أصدق أنباء من الكتب) وهي ملحمة رائعة .

وأخذت تتوثق علاقة أبي تمام منذ عودته من خراسان بأحمد بن أبي دؤاد مستشار المعتمد وقاضى قضائه ، وبأحمد بن المعتمد وبكثيرين من رجالات الدولة وقوادها . وما نكاد نتقدم في سنة ٢٢٤ حتى يخلع الطاعة مازيار بطبرستان ، وما تزال جيوش الخلافة تنازله حتى تأتى به صاغراً إلى « سرّ من رأى » في سنة ٢٢٥ فيقتل ويصّلب

(١) البذ : كورة بين أران وأذربيجان خرج

بها بابك .

بجانب بابك . وتجمعت أدلة قاطعة على خيانة الأفشين وزندقته وأنه يبطّن الكفر ويتنوّى الغدر بالدولة والإيقاع بأبطالها وخاصة من العرب أمثال أبي دلف ، فيأمر المعتصم بالقبض عليه وإلقائه في غيايات السجون ، ويموت ، فيُصَلَّب بجانب بابك ، ثم يُحَرَّقُ بالنار التي كان يعبدها من دون الله ، وما يلبث أبو تمام أن ينشد المعتصم قصيدته البديعة ^(١) :

الحقُّ أَبْلَجُ والسيوفُ عَوَارِي فحذارٍ من أَسَدِ العَرِينِ حذارِ
وقد صَوَّرَ فيها كفران الأفشين بالإسلام وبنعم الدولة ونقضه لما بينه وبين المعتصم من عهود ومواثيق وبغيه الذي أوردته موارد الهلاك ، وما كان من حرقه بالنار وصلبه قبل ذلك بجوار بابك وما يزار يقول :

ما زال سِرُّ الكفر بين ضلوعِهِ حتى اصْطَلَى سِرُّ الزُّنَادِ الوَارِي ^(٢)
نارًا يُساور جسمه من حرِّها لهبٌ كما عَصَفَتْ شِقٌّ إِزارٍ ^(٣)
صَلَّى لها حَيًّا وكان وقودَهَا مَيِّتًا ويدخلها مع الفُجَّارِ
ولقد شَفَى الأحشاء من بُرَحَائِها أَنْ صار بابكُ جارَ مازِيَارِ
سودُ الثيابِ كأنما نسجتْ لهم أَيْدِي السَّمُومِ مَدَارِعًا من قَارٍ ^(٤)
كَادُوا النُّبُوَّةَ والهدى فتَقَطَّعَتْ أَعناقُهُم في ذلك المَضَارِ

وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن الزيات منذ وزارته للمعتصم سنة ٢٢٥ وكذلك بينه وبين كاتبه الحسن بن وهب وظل يمدح أبا سعيد الثغري وخالد بن يزيد وإلى أرمينية ومالك بن طوق التغلبي وإلى الجزيرة ، ومدح موسى بن إبراهيم الرافقي وإلى دمشق للمعتصم والواثق . وتهاداه الرؤساء وكبار رجال الدولة . وتوفى المعتصم وخلفه الواثق فهنأه وعزّاه بقصيدته البديعة : (ما للدموع تروم كلَّ مرام) ويُضَنَّى عليه مدائح مختلفة . ويظهر أنه أخذ يحس منذ ولاية الواثق سنة ٢٢٧ مله

(١) الديوان ١٩٨/٢ .

طولا .

(٤) يشير إلى صلب الثلاثة الأفشين وبابك وما يزار ، وأراد بسواد ثيابهم سواد جلودهم بالشمس وغبار الرياح .

(٢) يشير بسر الزناد الواري إلى حرقه بالنار .

(٣) يشير إلى أنه حرق بالنار وهو مصلوب على الجذع ، ومن أجل ذلك يشبهه بإزار عصفر نصفه

من حرفته ، وأنها تضطره أحياناً لبذل مديحه لغير مستحقه من مثل موسى بن إبراهيم الرافقي ، فتمنى لو صار له عمل في الدولة يدرّ عليه ما يكفيه مثوته ، وسرعان ما حقق له صديقه الحسن بن وهب أمنيته ، فعيّنه على بريد الموصل ، وظل هناك عامين ، جاءه فيهما نعي خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني فبكاه وبكى بطولته بكاء حاراً ، ولا يدور العام حتى يلجى داعي ربه سنة ٢٣١ للهجرة ويرثيه كثير من الشعراء ، وفي مقدمتهم الحسن بن وهب ، وفيه يقول ^(١) :

فُجِعَ القريضُ بخاتم الشعراء وغدير روضتها حبيب الطائي
ماتا معاً فتجاوزا في حُفْرَةٍ وكذلك كانا قَبْلُ في الأحياء

ويقال إن بني حميد الطوسي بنوا على قبره قبةً خارج باب الميدان على حافة الخندق ^(٢)

وأخبار أبي تمام في أسرته قليلة ، وبين مراثيه مرثية في زوجة له ، ويقال إنه كان له أخ يسمى سهماً يجرى على لسانه شعر ضعيف ^(٣) . وكان ابنه تمام يقول الشعر ، ويظهر أنه كان له بنون مختلفون ، وقد احتسب منهم اثنين رثاهما رثاء مؤثراً . ويقول الصولي إنه كان أسمر طُوالاً ، وكانت فيه تمتمة يسيرة جعلته يتخذ غلاماً لإنشاد شعره بين يدي المعتصم وغيره ^(٤) . ويقال إنه كان من أكثر الناس مزاحاً ^(٥) . تسعفه في ذلك بديهة حاضرة . وفي ديوانه رائية يمدح بها أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيها يفضل علياً ويشيد بمواقفه في عصر الرسالة ، فهل معنى ذلك أنه كان يتشيع ؟ . الحق أنه لم يكن متشيعاً ، أما هذه القصيدة فنظن ظناً أنه نظمها حين كتب المأمون إلى الآفاق في سنة ٢١٢ للهجرة بتفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر ، وكان حينئذ بمصر وفي القصيدة نفسها ما يدل على أنه نظمها بها إذ يقول في مطالعها ^(٦) :

وإن نَكِيرًا أَنْ يَضِيقَ بَيْنَ لَهُ عشيرةٌ مثلى أو وسيلته مِضْرُ

(٤) الصولي ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٥) ابن المعتز ص ٢٨٣ .

(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ١٤٣ .

(١) الصولي ص ٢٧٧ .

(٢) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٤٩ .

(٣) الصولي ص ١٤٤ .

ونراه في أول قصيدة لقي فيها المأمون يصرح له فيها كما قدمنا بأنه مشغوف بحب آل محمد ، تقريباً إليه وزُلفى ، حتى ليزعم أنه من شيعة الكوفة ، يقول متحدثاً عن قصيدته (١) :

ووسيلتي فيها إليك طريفةً شامٍ يدين بحبِّ آل محمدٍ
نِيطتُ قلائدُ عزمه بمحبرٍ متكوفٍ مُتَدَمِّشٍ مُتَبَغِّدٍ (٢)
حتى لقد ظن الغواة - وباطلٌ - أن قد تجسَّم في روح السيِّد (٣)

ومعنى ذلك أن تشيعه في القصيدتين جميعاً إنما كان في سبيل المأمون ، يحاول أن يمتَّ إليه بما يعطفه عليه . وفي أخباره أن الحسن بن رجاء لاحظ عليه وهو عنده أنه يصلي صلاة خفيفة لا يطيل فيها (٤) ، وتوسع بعض الباحثين في الخبر فقالوا إنه لاحظ عليه تقصيره في أداء الفروض الدينية (٥) . وديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد على صحة إسلامه ، وأيضاً ففيه قصيدة وصِّف بها حِجَّةَ حجَّها (٦) . وليس في ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابثاً أو ماجناً . يلهو ولكن بقسطاس وكأن خصومه حاولوا أن يغضُّوا منه فزيَّفوا عليه الخبر السالف طعناً عليه ومحاولة للنقص منه . أما الخبر الذي يُدَّكرُ فيه أنه كان له غلام روى وللحسن بن وهب غلام خنزري وكل منهما يتعشق غلام صاحبه (٧) ، فهو أدنى إلى الفكاهة ، ولعل غلام أبي تمام المذكور هو الذي كان ينشد شعره . والحق أنه كان وقوراً وكان يترفع عن الدنيا ، وكان مخلصاً لدينه كما كان مخلصاً لعروبه .

وشعر أبي تمام زاهر بما يدل على أنه انقضَّ على معارف عصره انقضاضاً حتى تمثَّلها تمثلاً دقيقاً ، وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق ، أما التاريخ فيتضح في كثير من جوانب مديحه ، وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها في الجاهلية والإسلام على نحو ما يلقانا في قصائده (٨) لخالد بن

(٥) انظر مقالة مرجليوث عن أبي تمام في دائرة المعارف الإسلامية .

(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٧٩ .

(٧) الصولي ص ١٩٤ .

(٨) الديوان (طبع دارالمعارف) ١٩٤/١

وانظر ٨٧/١ وما بعدها .

(١) الديوان (طبع دارالمعارف) ٥٥/٢ .

(٢) بمحبر : يقصد نفسه وأنه عبر القصائد

ويجودها . متكوف يقصد أنه كوفي تشيعاً .

متبغدد : يقصد أنه ظريف من أهل بغداد .

(٣) السيد : يريد السيد الحميري المشهور

بتشيعة .

(٤) الصولي ص ١٧٢ .

يزيد بن مزيد الشيباني ومالك بن طوق التغلبي ، وكذلك حين يقرن وقائع بعض الأبطال ودويتهما في الخافقين إلى وقائع جاهلية وإسلامية مشهورة على نحو ما نرى في تمجيده لانتصار إسحق بن إبراهيم المصعبي على الحمرة بالجليل^(١) ، وكان يعرف كيف يحول التاريخ شعراً على شاكلة قوله في إحدى قصائده لخالد بن يزيد الشيباني وانتصار قومه في يوم ذي قار المشهور على الفرس^(٢) :

انهم يومٌ ذي قار مَضَى وهو مُفْرَدٌ وحيدٌ من الأشباه ليس له صَحْبٌ
به علمتُ صُهْبُ الأعاجمُ أَنه به أعربتُ عن ذات أنفُسها العُربُ^(٣)
هو المشهدُ الفُصل الذي ما نجا به لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صُلبُ^(٤)

وكانت تميم قبل هذا اليوم أصابها جذب شديد ، فابتغت الرعى في أرض العراق ، وكانت والى الحيرة كسرى هل يأذن لهم في الرعى ؟ فاشتراط أن يقدموا رهائن منهم ، ولما طُلبت من رئيسهم حاجب بن زُرارة ، قال : ليس معي إلا قوسى ، فاسترهنوها منه ، ووفى لهم بما وافقهم عليه . فصار ذلك معدوداً في مناقب بني تميم . وإلى ذلك يشير أبو تمام في قصيدة يمدح بها أبا دُكَّاف متحدثاً عن المنقبة الكبرى لشيبان يوم ذي قار ، إذ فتكوا بالفرس الذين كسوا تميًا منقبة القوس وأدالوا منهم للعرب والعروبة ، مسجلين هذا المجد الحقيقي على التاريخ ، يقول^(٥) :

إذا افتخرت يوماً تميمٌ بِقَوْسِها وزادتْ على ما وُطِّدتْ من مناقبِ
فأنتم بذي قارٍ أمالتْ سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجبِ
محاسنُ من مجدٍ متى تقرنوا بها محاسنَ أقوامٍ تَكُنُ كالمعايبِ
مكارمُ لَجَّتْ في عُلوِّ كَأَنما تحاول ثأراً عند بعض الكواكبِ

وقد تحدثنا في الفصل السابق عن تعمقه في مذاهب المتكلمين وفي الفلسفة والمنطق تعمقاً جعله ينشر في معانيه الأضداد المتنافرة نشرًا يدخل البهجة على

(٤) السنام : كناية عن النوق . والصلب

هنا : كناية عن الخيل .

(٥) الديوان (طبع دار المعارف) ٢١٥ / ١ .

(١) الديوان ٣٠٠ / ٣ وما بعدها .

(٢) الديوان ١٩٥ / ١ .

(٣) صهب : شقر شعر الرأس ، ويوصف

الأعاجم بالشقرة لغلبة ذلك عليهم .

النفس بما يصور من تعاقبها في الحياة ، تصويراً يدل على عمق غوره في الإحساس بحقائق الكون ، وبترباط جواهرها ، حتى الجواهر التي تبدو متضادة ، فإن بعضها ينشأ من بعض ، ويلتقي التقاء وثيقاً ، على شاكلة قوله (١) :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ السَّرَى وَغَنَاءٍ مِنْ عَنَاءٍ وَنُضْرَةٍ مِنْ شُحُوبٍ (٢)

وجعلته صلته بالمنطق والفلسفة يكثر من استخدام الأدلة المنطقية ، وهي عنده تستمد من نفس إحساسه العميق بتشابك حقائق الكون ، فإذا بعضها يُرى من خلال بعض ، بل إذا بعضها يتخذ دليلاً وحجة على بعض ، من مثل قوله لمن عدلته على ضيق ذات يده (٣) :

لَا تُنْكِرْ عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغَنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي
وقوله في تحبيب الرحلة عن الأوطان (٤) :

وَطُولُ مُقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلَقٌ لِدِيَابِجَتِهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدُ (٥)
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ (٦)

ويتسع التأثير بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض في كثير من أبياته ، وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة في الصباح والغروب إذ يجلله دائماً شفق يأخذ بالألباب ، ونعجب إذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله (٧) ، كما حملوا على إكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير وألوان البديع (٨) ، حتى قالوا إنه أفسد الشعر ، وهو لم يفسده بل هياً له ازدهارا رائعاً ، تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق ، وبالشعر العربي قديمه وحديثه ، كما تسنده قوة ملكاته التي جعلته يُعَدُّ بحقٍّ حامل لواء الشعر العربي في عصره ، بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية ، أما الخصائص العقلية فتتضح في دقة معانيه وغوصه على طرائفها

بالديباجتين الوجه والمكانة الأدبية .

(٦) سرمد : دائم .

(٧) انظر مناقشتنا لهم في كتابنا الفن ومذاهبه

في الشعر العربي (الطبعة السادسة بدار المعارف)

ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٨) المصدر نفسه ص ٢٣٥ .

(١) الديوان ١/١٢٦ .

(٢) الخفض : سمة العيش . السرى : السير ليلاً ،

غناء : نفع .

(٣) الديوان ٣/٧٧ .

(٤) الديوان ٢/٢٣ .

(٥) مخلق : من أخلق أى أبلى . ويريد

النادرة ، محتكماً إلى قانوني التضاد والقياس وإلى كثرة التوليد والاستنباط ، وأما الخصائص الزخرفية فتتضح في روعة تصاويره وكثرة بديعه ، بل نحن لا نحقق حين نفصل بين الضربين من الخصائص ، إذ هما يتزاوجان عنده تزاوجاً رائعاً بحيث يصبح الزخرف عملاً عقلياً والعمل العقلي زخرفاً نادراً لا يكاد يتعاق به أحد .

والمدبح أهم الأغراض التي تتجلى فيها خصائصه ، وهو في كثير منه ، بل في جمهوره ، يحتفظ بالمقدمة الطليقة وما يتصل بها من التشبيب والنسب ، مودعاً فيها كثيراً من لفتاته وخواطره النادرة التي تدل على سعة خياله وتأمله الطويل وأنه يخضع التفكير للشعر ، وكأنه فياسوف يخضع فلسفته للشعر أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق ، وهل هناك جانب في شعره إلا وهو يفكر فيه تفكيراً متصلاً ، وهو تفكير كان يعرف كيف يصوغ به خواطره وكيف يبرزها في معارض من التصاویر والحكم الرشيقة من مثل قوله في تصوير أيام عشقه الماضية^(١) :

أعوامٌ وَضَلْ كَادَ يُنْسِي طَوْلَهَا ذَكَرُ النَّوَى فَكَأَنَّهَا أَيَّامٌ
ثُمَّ انْبَرَتْ أَيَّامٌ هَجَرَ أَرْدَفَتْ بِجَوَى أَسَى فَكَأَنَّهَا أَعْوَامٌ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنُونُ وَأَهْلَهَا فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامٌ

وواضح أن قانون التضاد يلعب بأقواسه الأرجوانية في هذه الأبيات ، فالأعوام أيام ، والأيام أعوام ، وأوقات الصبحو الممتعة أحلام . ومن طريف حكمه في الغزل والنسب قوله^(٢) :

أَجْدَرُ بِجَمْرَةٍ لَوْعَةٍ إِطْفَاؤُهَا بِالْدَمْعِ أَنَّ تَزْدَادَ طَوْلَ وَقُودِ
وقوله^(٣) :

أَحْلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ مَوَاقِعَا مِنْ كَانَ أَشْبَهُهُمْ بِهِنَّ خُدُودَا
وقد ردّد كثيراً في تضاعيف نسيبه شكواه المرة من الزمن وما ينزله به من الخطوب والكوارث ، حتى ليقول ضحيراً متأففاً منه ومن سياسته الخرقاء^(٤) :

(٣) الديوان ١/٤١٥ .
(٤) الديوان ٢/٣٢٤ .

(١) الديوان ٣/١٥١ .
(٢) الديوان ١/٣٩٢ .

لقد ساسنا هذا الزمان سياسةً سُدى لم يُسُسْها قَطُّ عَبْدٌ مجدُّ
تروح علينا كلَّ يومٍ وتغتدى خطوبٌ كأن الدهر منهن يُصرعُ

وقد أشرنا في الفصل السابق إلى أنه هو الذى ألهم ابن الرومي والمتنبي الشكوى من الزمن وما يصبه على الناس من البلاء وما يتصل بذلك من حكم ، وأيضاً فإنه هو الذى ألهم المتنبي اعتداده بنفسه وما طُوى في ذلك عنده من فخر محتدم ، وقرأ له هذه الأبيات التى ساقها بعد نسيبه في مديحه للحسن بن سهل (١) :

وغرَّبتُ حتى لم أجد ذكرَ مشرقٍ وشرَّقتُ حتى قد نسيْتُ المغاربا
خطوبٌ إذا لاقيتهنَّ رَدَدْنِي جريحاً كأنى قد لقيتُ الكتائباً
وقد يكهَمُ السيفُ المسمى منيةً وقد يرجع المرءُ المظفرُ خائباً (٢)
وكنْتُ امرءًا ألقى الزمانَ مسالماً فأليتُ لا ألقاه إلا محارباً

وهو نفس نغم الفخر والاعتداد بالنفس الذى تلقاه عند المتنبي مع ما يمسح عليه ويتخلله من شكوى الدهر ، ومع ما يسوده من الشعور بقوة النفس وصلابتها وأنها أقوى عوداً وأصلب من الزمن ، فهى لا تتخاذل أمامه ولا تضعف بل تحاول أن تقهره وتطعنه الطعنة المصمية .

وكان أبو تمام يضيف إلى نسيبه أحياناً وصفاً لبعيره وما يقطع من القلوات ، مستمداً من معانى القدماء في هذا الوصف ومضيفاً طرائفه الحديثة ، كقوله يصف بعيره وما أصابه من هزال لطول رحلته به إلى خراسان ليمدح ابن طاهر (٣) :

رَعَتْهُ الفياضُ بعد ما كان حِقْبَةً رعاها وماءُ الروضِ ينهلُ ساكِبَةً

فالصحراء بطرقها الوعثة كأنما هى التى رعته إذ أضمرته وأنزلته ، بينما كان يرعى أعشابها ، وهو تضاد بديع ، فهو يرعى الصحراء والصحراء ترعاه . وقد ألم بوصف الخمر في بعض مقدماته للمديح ، وهو ليس ممن يجيدون في وصفها ، لأنه لم يكن ممن ينغمسون في إثمها ، وقد يلقانا عنده بعض أبيات طريفة فيها كقوله (٤) :

(٣) الديوان ١/٢٣٠ .

(٤) الديوان ١/٣٤ .

(١) الديوان ١/١٤٧ .

(٢) يكهم : لا يقطع .

وضعية فإذا أصابت فُرصةً قتلْتُ كذلك قدرة الضعفاء
وكانَّ بَهْجَتها وبهجة كاسها نارٌ ونورٌ قُبداً بوعاء
وقد فسح في مقدماته مراراً للحديث عن الشيب ، وكان قد خطه في
سن مبكرة ، وهو لا يحاول تزيينه ، بل يعرف دائماً بأنه قبيح مكروه وخاصة في
عين المرأة ، ومن طريف ماله فيه قوله ^(١) :

لو رأى الله أَنَّ للشيب فضلاً جاورته الأبرارُ في الخلد شيئاً
ولعل من الطريف أنه وقف بعض مقدماته للمديح على وصف الطبيعة ، وهو
لا يبارى في تصوير مشاعر الطير وأحاسيسه ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده تصويره
لقُمرية وقمرى وهما يرشfan رحيق الهوى بينما هو يتعمقه الحزن ، وكأنما تثرى له
السماء فتستهل بروقها ورعودها ، والطبيعة من حوله مكتسبة بثياب الربيع المشرقة
والطواويس تومض بألوانها الزاهية وأذناها المزركشة ، وكأنها خدم هذا العرس
الرائع من أعراس الربيع ، يقول ^(٢) :

غنى فشاقل طائرٌ غريدٌ لما ترنم والغصونُ تميدُ
ساقٌ على ساقٍ دعا قُمريةً فدعت تقاسمه الهوى وتصيد ^(٣)
إلفان في ظلِّ الغصون تألّفاً والتفَّ بينهما هوى معقودُ
يتطعمان بريقَ هذا هذه مَجْعاً وذاك بريق تلك مُعيد ^(٤)
يا طائران تمتعا هنيئتما وعما الصباح فإننى مجهودُ
أبكى وقد تلت البروق مضيئةً من كل أقطار السماء رُعود
واهتزَّ ريعانُ الشباب فأشرقَتْ لتهلِّل الشجر القرى والبيد ^(٥)
ومَضَتْ طواويسُ العراق فأشرقَتْ أذئابُ مُشرقةٍ وهنَّ حُفود ^(٦)

(٤) مجعاً : حسواً .

(٥) يريد بريمان الشباب الربيع .

(٦) ومضت : لمعت وتلاذت . وحفود ، جمع

حافد ؛ وهو الخادم .

(١) الديوان ١/١٦٨ .

(٢) الديوان ٢/١٤٨ .

(٣) الساق الأولى : القمرى أو ذكر الحمام ؛

والساق الثانية : ساق الشجرة . تصيد : تصيده

وتوقعه في شبابها .

يَرْفُلْنَ أُمُثَالَ الْعَذَارَى طُوفًا حول الدَّوَارِ وَقَدْ تَدَانَى الْعِيدُ^(١)

وهي قطعة رائعة زاخرة بوصف المشاعر والأحاسيس، مشاعر أبي تمام المحزون وأحاسيس الطير المبتهجة بالحُب والطاويس المبتهجة بالربيع . ونراه في إحدى مدائحه للمعتصم يصور الربيع واصلاً بينه وبين عصر المعتصم وكأنه يرى عصره ربيع العصور العباسية . وقد مضى يحتكم في هذا الوصف للربيع وفتنته بأنه مجمع الضدين : الصيف والشتاء ، فالصيف يترأى في طقسه والشتاء يترأى في زهره^(٢) ، بل إن المطر في الشتاء ليحمل بين أطوائه الصحو المشرق الجميل كما يحمل الصحو بترطيبه للجو نضرة المطر ، يقول :

مَطَرٌ يَذُوبُ الصَّخْوُ مِنْهُ وَبَعْدَهُ صَخْوٌ يَكَادُ مِنَ النُّضَارَةِ يَمُطِرُ
ويتسع به الخيال فإذا الندى الذي تترقرق حباته على الأوراق والعصون كأنه طيب سقط من غدائر السحاب على لم الثرى ولحاه ، يقول :

وَنَدَى إِذَا ادَّهَنَتْ بِهِ لِمَمُ الثَّرَى خَالَتِ السَّحَابَ أَتَاهُ وَهُوَ مُغْدَرٌ
ويمضى في حُلْمِهِ ، فإذا هو يرى نفسه في رياض الربيع وأضواء الشمس تخالط الورود والرياحين كأنه في ليلة مقمرة جميلة ، والأحلام تفد عليه من كل صَوْب ، يقول :

يَا صَاحِبِي تَقْصِيَا نَظْرَيْكُمَا تَرِيَا وَجْهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصَوِّرُ
تَرِيَا نَهَارًا مُشْمِسًا قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرُّبِيِّ فَكَيْفَا هُوَ مُقْمِرُ

وله بائية^(٣) في مديح ابن الزيات استهلها بوصف ديمة ممطرة مصوراً فرحة الطبيعة بها بعد الجفاف الطويل ونراه يصل بينها وبين مديحه لابن الزيات وكأنه يرى فيها خلالة وكرمه الفياض . وهذا الوصل بين الممدوحين والطبيعة سواء في هذه القصيدة أو سابقتها يجعلنا نحس في وضوح عنده بوحدة القصيدة ، ودأبها بمقدماتها عمل فَنِّيٌّ نامٍ لا يزال بعضه يتولد من بعض .

(٣) الديوان ٢٩٦/١ وانظر هبة الأيام ص ٣٧ حيث نص على أنها في ابن الزيات .

(١) طوفاً : جمع طائفة . الدوار : صم كان النساء يطفن حوله في الجاهلية .

(٢) انظر القصيدة في الديوان ١٩١/٢ .

وإذا أخذنا ننظر في معاني مديحه وجدناه يحاول دائماً أن يستنبط منها مبتكرات
طريفة مستمدّاً من مناجم عقله الغنية وكنوز أخيلته الثرية التي تحفل دائماً بما يملأ
النفس إعجاباً به وبشعره ، كقوله يصف جود أبي دُلَف (١) :

تَكَادُ مَغَانِيهِ تَهْشُ عِرَاضُهَا فَتَرْكَبُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى كُلِّ رَاكِبٍ (٢)
وقوله يصور جود المعتصم وكثرة بذله ونواله (٣) :

تَعُودُ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ثَنَاها لِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أَنَامِلُهُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلَيْتَنِي اللَّهُ سَائِلُهُ
وقد تحول بوصفه بسالة الأبطال الذين تغنى بمدحهم وانتصاراتهم إلى ملاحم
كبرى جسمٌ فيها بطولتهم تجسيمياً يدلح الحماسة في قلب كل عربي ، ويضرمها
إضراماً . ونراه يتغنى طويلاً ببطولة محمد بن يوسف الثغري الطائي وما أنزله من
صواعق الموت على رءوس الحرورية أصحاب بابك ورءوس الروم ، وكأنه قيس
يتغنى بليلاه . ومن رائع ما له فيه قوله يصور هجومه من الجنوب واقتحامه حصون
العدو في الشمال ، والثلوج تغطي الطرق والآفاق (٤) :

لَقَدْ انْصَعَتَ وَالشَّيْءَ لَهُ وَجْهُ يَرَاهُ الرِّجَالُ جَهْمًا قَطُوبًا (٥)
طَاعَنَا مَنَحَرَ الشَّامِ مُتَبِيحًا لِبِلَادِ الْعَدُوِّ مَوْتًا جَنُوبًا
فِي لَيَالٍ تَكَادُ تُبْقِي بِخَدِّ الشَّامِ مَسَّ مِنْ رِيحِهَا الْبَلِيلِ شَحُوبًا
فَضْرِبَتِ الشَّيْءَ فِي أَخْدَعِيهِ ضَرْبَةً غَادَرْتَهُ عَوْدًا رَكُوبًا (٦)
لَوْ أَصَحْنَا مِنْ بَعْدِهَا لَسَمِعْنَا لِقُلُوبِ الْأَيَّامِ مِنْكَ وَجِييَا (٧)

وأمّ ملاحمه قصيدته في عمورية التي مدح بها المعتصم مسجلاً انتصاره العظيم
على البيزنطيين ، وهو فيها مبتهج ابتهاجاً لا حدّ له بهذا الفتح المبين ، وقد استهلها

القطوب : العيوس .
(٦) الأخدعان : العراق البارزان في العتق .
العود : البعير المسن . ركوب : مذل .
(٧) أصحنا : أرهقنا السمع . الوجيب :
الحققان .

(١) الديوان ٢١٢/١ .
(٢) العراض : الساحات .
(٣) الديوان ٢٩/٣ .
(٤) الديوان ١٧٣/١ وما بعدها .
(٥) انصعت : رجعت مسرعاً . الجهم ،

بتفضيل القوة على العقل والسيف على الكتب والهزؤ بالمنجمين وما زعموا من أن المعتصم لا يفتحها فإذا هي تسقط أركانها ويتداعى بنيانها أمام مجانيقه وجنوده البواسل ، ويفرُّ تيوفيل إمبراطور بيزنطة على وجهه ، وقد عصف بقلبه الرعب ، والنيران تأخذ عمورية من كل جانب ، يقول (١) :

فَتَحَّ الْفَتْوحُ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ نَظَّمُ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَشْرُ مِنَ الْخُطْبِ
فَتَحَّ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِ الْقَشْبِ

ويتحدث عن وقعتها وما حققت للمسلمين والإسلام من منى معسولة ومن عز ومجد، بينما هوت بالروم وديارهم في الخضيض. ويصور استعصاءها على ملوك الفرس والتبابعة وأنها عتيقة منذ الإسكندر ومع ذلك تحتفظ بشبابها للخليفة الموعود بفتحها وكأنما كان نصر جنود المعتصم في يوم « أنقرة » جرباً أصابها ، فإذا هي تركع صاغرة تحت قدمي المعتصم وقد لطخ الدم ذوائب فرسانها وجباهم ، ولتهمتها النيران التهاماً ، وعلى الرغم مما أصاب جسدها من جرب ووجهها من تشويه تسكب في نفوس العرب من الفرح والبهجة مالا تُدكر بجانبه فرحة ذى الرمة وبهجته حين كان يلمُّ بربع مية التي تغنت بحبه لها الأحياء والبيد ، يقول :

لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْخَشْبِ
غَادَرْتَ فِيهَا بِهَيْمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضُحَى يَشْلُهُ وَسَطَهَا صُبْحُ مِنَ اللَّهَبِ (٢)
حَتَّى كَانَ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغَبَتْ عَنْ لَوْنِهَا أَوْ كَانَ الشَّمْسُ لَمْ تَغِبْ
ضَوْءُ مِنَ النَّارِ وَالظُّلُمَاءُ عَاكِفٌ وَظَلَمَةٌ مِنْ دَخَانٍ فِي ضُحَى شَحِبِ
فَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أَفَلَتْ وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ فِي ذَا وَلَمْ تَجِبْ (٣)
مَا رَبْعُ مِئَةٍ مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ غَيْلَانُ أَبْهَى رَبِّي مِنْ رَبِّعِهَا الْخَرِبِ (٤)
وَلَا الْخُدُودُ وَقَدْ أَذْمِينَ مِنْ خَجَلٍ أَشْهَى إِلَى نَاطِرٍ مِنْ خَدِّهَا التَّرَبِ

(٣) واجبة ، آفلة : غاربة .

(٤) غيلان : ذوالرمة .

(١) انظر القصيدة في الديوان ٤٥/١ .

(٢) الليل البهيم : شديد الظلام . يشله : يطرده .

وواضح استمداده من قانون الأضداد في وصف حريقها ليلا ، وهو استمداد
تخلّق في تضاعيفه هذا الخيال بل الحلم العجيب ، فهو في الليل البهيم ويتصور
كأنه في الصبح المضيء ، بل هو في الضحى المنير ، وكأنما خلع الليل ثيابه بل
لكأنما رغب عنها ، بل كأن الشمس لم تغب ولم تغرب ، بل لقد غربت ولم تلبث
أن أشرقت في ربوع عمورية . فيا للحلم وبالأروعة ، وإن نشوة الظفر ليجرى
رحيقها في نفسه ، فإذا هو يحس إزاءها نفس أحاسيس ذى الرمة إزاء مية التي
شغفت قلبه حباً . وقد مضى يصور قوة المعتصم وجنوده ، وكيف فر تيوفيل بفلول
جيشه أمامه وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وما زال يصور فتك المعتصم
بجيوشه وأبطاله ، حتى قال والحدل يغمره :

خليفة الله ! جازى الله سعيك عن
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
إن كان بين صروف الدهر من رحم
فبين أيامك اللآتي نصرت بها
أبقت بنى الأصفر المراض كاسمهم
جرثومة الدين والإسلام والحسب^(١)
تنال إلا على جسر من التعب
موصولة أو ذمام غير منقضب^(٢)
وبين أيام بدر أقرب النسب
صفر الوجوه وجلت أوجه العرب^(٣)

وعواطفه الدينية والقومية بارزة في هذه الأبيات الأخيرة ، بل إنها تبرز في
جنبات الملحمة جميعها ، وإنه ليهدر فيها هدير الظافر المبتهج الذي تبددت
أمامه جحافل الأعداء وانجابت غياهب الظلام وحات مكانها أضواء النصر في
كل مكان .

وإذا تركنا ملاحمه إلى مدائحه الأخرى وجدناه يلازم دائماً بين مدحه ومدوحه ،
فإذا مدح كاتباً شاعراً مثل الحسن بن وهب نوه بأدبه وبلاغته ودرر لفظه ومعانيه ،
وكذلك الشأن في مدحه لابن الزيات ، وكان هو الآخر كاتباً شاعراً ، وجلّى
في وصفه لقلمه الذي أنشدنا منه قطعة في الفصل الرابع والذي استهله بقوله^(٤) :

(١) جرثومة : أصل .
(٢) صروف الدهر : أحداثه . منقضب :
(٣) بنو الأصفر : الروم .
(٤) الديوان ١٢٢/٣ وما بعدها .
منقطع .

لك القلم الأعلى الذى بشبابه تصاب من الأمر الكلى والمفاصل^(١)

وقد استمد فى وصفه له من قانون الأضداد مستنبطاً كثيراً من المعانى اللطيفة الدقيقة . ونحسُّ فى مديحه له وللحسن بن وهب ظاهرة نادرة هى الصداقة التى تنعقد بين رجال الأدب والشعر والفن ، وقد عبّر عنها تعبيراً بديعاً فى قوله لصديقه على بن الجهم الشاعر المعروف^(٢) :

إِنْ يُكْدِ مُطَرِّفُ الْإِخَاءِ فَإِنَّا نَعْدُو وَنَسْرِى فِي إِخَاءِ تَالِدِ^(٣)
أَوْ يَخْتَلِفُ مَاءُ الْوَصَالِ فَمَاؤُنَا عَذْبٌ تَحْدَرُ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدِ
أَوْ يَفْتَرِقُ نَسَبٌ يُوَلِّفُ بَيْنَنَا أَدَبٌ أَقْمَنَاهُ مُقَامَ الْوَالِدِ

ومراثى أبى تمام لا تقلُّ عن مدائحه روعة ، وإذا كان قد بلغ ذروة الإحسان فى أناشيد النصر وملاحمه فإنه بلغ أيضاً هذه الذروة فى مراثيه لابن حميد الطوسي الطائى ، وكان قد سقط — كما أسلفنا — فى ميدان الفضال ، وما إن أتاه نعيه حتى غمِسَ — كما يقول الرواة — طرف رداءه فى مداد ، ثم ضرب به كتفيه وصدره^(٤) وأخذ يندبه بقصيدته الرائية الخالدة بمثل قوله^(٥) :

فَتَى كَلِمَا فَاضَتْ عَيْنُ قَبِيلَةٍ
فَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ مِيتَةٌ
وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مَضْرُوبُ سَيْفِهِ
وَقَدْ كَانَ فُوتَ الْمَوْتَ سَهْلًا فَرَدَّهُ
وَنَفْسٌ تَعَاثُ الْعَارَ حَتَّى كَانَمَا
فَأَثَبَتْ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ
دَمًا ضَحَكَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالذُّكْرُ
تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ
مِنَ الضَّرْبِ وَاعْتَدَلَتْ عَلَيْهِ الْقَنَا السُّمُرُ
إِلَيْهِ الْحِفَازُ الْمُرُّ وَالْخَلْقُ الْوَعْرُ^(٦)
هُوَ الْكَفَرُ يَوْمَ الرُّوعِ إِنْ فَاتَهُ الْكُفْرُ^(٧)
وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكَ الْحَشْرُ^(٨)

(٥) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٣٠ .
(٦) الحفاظ : الذب عن الحمى والحارم .
الوعر : الصعب .
(٧) يوم الروع : يوم الحرب والفرع .
(٨) الأخمص : باطن القدم .

(١) الشبابة : الحد .
(٢) الديوان ١/٤٠٧ .
(٣) يكدى : لا يشر ، ويريد بمطرف الإخاء حديثه . تالد : قديم .
(٤) هبة الأيام ص ١٤١ .

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا دَجَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهَى مِنْ سُندُسٍ خُضَرَ^(١)
مَضَى طَاهِرَ الْأَثْوَابِ لَمْ تَبْقَ رَوْضَةٌ غَدَاةَ ثَوَى إِلَّا اشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرُ^(٢)
وَحَقًّا قَالَ أَبُو دُلْفٍ لَهُ : لَمْ يَمْتَ مِنْ رُثَى بِمِثْلِ هَذَا الشَّعْرِ^(٣) ، فَقَدْ جَسَمَ
فِيهِ بَطُولَةُ ابْنِ حَمِيدٍ تَجَسِيمًا رَائِعًا ، وَمَا زَالَ يَتَغَنَّى بِبَطُولَتِهِ وَاسْتَبْسَالِهِ فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ
حَتَّى أَبْدَلَهُ مِنْ كَسْوَةِ الدَّمِ الزَّكِيِّ كَسْوَةَ الْفَرْدُوسِ السَّنْدُسِيَّةِ . وَجَاءَهُ نَعْيُ خَالِدِ بْنِ
يَزِيدَ بْنِ مَزِيدِ الشَّيْبَانِيِّ وَهُوَ عَلَى بَرِيدِ الْمَوْصِلِ فَبَكَاهُ بِكَاءٍ حَارًّا ، وَنَرَاهُ يَتَفَجَّعُ تَفَجُّعًا
كُلَّهُ حَزَنٌ وَأَسَى عَلَى ابْنِهِ مُحَمَّدٍ وَأَبَى عَلَى وَعَلَى أَخٍ لَهُ حَضَرَ وَفَاتِهِ وَفِيهِ يَقُولُ وَاصْفَاءَ
لِحَظَةِ النَّزْعِ الْأَخِيرِ^(٤) :

لِلَّهِ مَقْلَتُهُ وَالْمَوْتُ يَكْسِرُهَا كَأَنَّ أَجْفَانَهُ سَكْرَى مِنَ الْوَسَنِ^(٥)
يَرُدُّ أَنْفَاسَهُ كَرَّهًا وَتَغْطِفُهَا يَدُ الْمُنِيَةِ عَطْفَ الرِّيحِ لِلْغُصْنِ
وَيَقَالُ إِنَّهُ مَاتَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ابْنَانِ صَغِيرَانِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، وَهَزَّهَ الْخَبَرُ ،
وَحَرَّكَ شَاعِرِيَّتَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَنْشَدَهُ مَرثِيَةً بَدِيعَةً يَقُولُ فِي تَضَاعِيفِهَا^(٦) :

نَجْمَانِ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يَطْلُعَا إِلَّا ارْتِدَادَ الطَّرْفِ حَتَّى يَأْفُلَا
وَكَانَ يَجِدُ الْعَتَابَ وَالْإِعْتَذَارَ ، وَمِنْ أَرْوَعِ اعْتِذَارَاتِهِ مَا قَدَّمَهُ لِابْنِ أَبِي دَوْدَ
حِينَ غَضِبَ عَلَيْهِ لَنِيْلِهِ مِنْ مُضَرٍّ فِي إِحْدَى قِصَائِدِهِ لِأَبْنِ سَعِيدٍ^(٧) الثَّغْرِيُّ الطَّائِي ،
فَقَدْ أَحْسَسَ أَنَّهُ أَذْنَبَ ذَنْبًا عَظِيمًا وَأَخَذَ يَسْتَغْفِرُهُ بِمِثْلِ قَوْلِهِ^(٨) :

أَتَانِي عَائِرُ الْأَنْبَاءِ تَسْرَى عَقَارِبُهُ بِدَاهِيَةٍ نَادٍ^(٩)
نَشَا خَبَرٍ كَأَنَّ الْقَلْبَ أَمْسَى يُجَرُّ بِهِ عَلَى شَوْكِ الْقِتَادِ^(١٠)
كَأَنَّ الشَّمْسَ جَلَّلَهَا كَسُوفٌ أَوْ اسْتَرَتْ بِرِجْلٍ مِنْ جَرَادٍ^(١١)

- (١) دَجَى : أَظْلَمَ .
(٢) ثَوَى : مَاتَ .
(٣) الْأَغَانِي ١٦ / ٣٩٠ وَالصُّوْلَى ص ١٢٥ .
(٤) الدِّيَوَان (طَبْعَةُ بَيْرُوت) ص ٣٥١ .
(٥) الْوَسْن : النَّعَاسُ .
(٦) الدِّيَوَان (طَبْعَةُ بَيْرُوت) ص ٣٤٠ .
(٧) هِبَةُ الْأَيَّامِ ص ٢٢٥ .
(٨) الدِّيَوَان (طَبْعُ دَارِ الْمَعَارِفِ) ١ / ٣٧٨ .
(٩) عَائِرُ : سَائِرُ وَذَائِعُ . نَادٍ : عَظِيمَةٌ .
(١٠) نَشَا : ذَائِعُ وَمُنْتَشِرٌ . الْقِتَادُ : شَجَرٌ لَهُ شَوْكٌ كَالْإِبْرِ .
(١١) رَجُلٌ هُنَا : طَائِفَةٌ .

بَأْنِي نِلْتُ مِنْ مُضَرٍّ وَخَبَيْتُ إِلَيْكَ شَكِيَّتِي خَبَبَ الْجَوَادُ (١)
لَقَدْ جَازَيْتُ بِالْإِحْسَانِ سُوءًا إِذْنِ وَصَبَغْتُ عُرْفَكَ بِالسَّوَادِ (٢)
وَمَا سَافَرْتُ فِي الْآفَاقِ إِلَّا وَمِنْ جَدِّوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي (٣)

ولم يقبل ابن أبي دؤاد استعطافه فاستشفع عنده بخالد بن يزيد بن يزيد الشيباني ودبج فيه قصيدة يستدر عطفه بها ، موازناً بين استشفاعه عنده بخالد واستشفاع يزيد بن المهلب قديماً بسليمان بن عبد الملك عند أخيه الوليد وعفوه عنه . وزراه يحاول أن يبرئ ساحته مما قُرف به وأنه كيدٌ حاسدٌ لعل له فضلاً إذ يذيع فضائله وما يلبث أن يقول (٤) :

لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ لِلْحَاسِدِ النَّعْمَى عَلَى الْمَحْسُودِ (٥)

ولأبي تمام أوصاف كثيرة في المطر والسحاب والشتاء وفي بعض الخماع التي كانت تُهْدَى إليه وبعض الخيل . وله غزل مفرد عن مقدمات مدائح ، ولكنه لا يبلغ روعة ما يجلبه منه في تلك المقدمات . وله زهديات قليلة وأهاج مختلفة ، وهو لا يجيد في الهجاء ، ويقول الصولي إنه كان لا يجيب حاجياً له حتى لا يستند ربه (٦) . أما الفخر فله فيه قصائد ينوّه فيها بقومه من طيئ تنوياً على شاكلة قوله يصور مكارمهم ومحامدهم (٧) :

أَنَا ابْنُ الَّذِينَ اسْتَرْضِعَ الْجُودَ فِيهِمْ وَسُمِّيَ فِيهِمْ وَهُوَ كَهْلٌ وَيَافِعُ
مَضُوا وَكَأَنَّ الْمَكْرَمَاتَ لَدِيهِمْ لَكثْرَةٍ مَا أَوْصُوا بِهِنَّ شَرَائِعَ
بِهَالِيلُ لَوْ عَايَنْتَ فَيَضَ أَكْفُهُمْ لَأَيَقَنْتَ أَنَّ الرِّزْقَ فِي الْأَرْضِ وَاسِعٌ (٨)

وتتوهج في مقدمات قصائده قطع كثيرة تصور طموحه واعتداده بنفسه اعتداداً لا حدَّ له ، اعتداد النفوس الكبيرة التي تسعى إلى الكمال واجدة لذتها في هذا السعي

للحاسد فضل على المحسود لأنه يظهر فضله وينشر محامده .

(١) خبت : من الحب وهو ضرب من عدو الفرس .

(٢) العرف : الجود .

(٣) (٦) الصولي ص ٢٤١ .

(٣) جدواك : عطاؤك .

(٧) الديوان (طبعة بيروت) ص ٤٢٧ .

(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ٤٠٢/١ .

(٨) بها ليل : سادة .

(٥) يريد أنه لولا أن الحسد مذموم لكان

مهما كلفها من جهد مُضْنٍ ومهما لقيت من خطوب ، وهو يعرض ذلك في ثنايا حديثه إلى من شغفن قلبه مصوراً بعد همته وجلده وقوة احتماله للمحن ، حتى لكأنه يبذل كل سابق ولاحق فيما حاول — ويحاول — من اكتساب المجد . وله في ذلك طرائف كثيرة ، كقوله لإحدى صواحيه ، وقد تعمقها الأدي لشبيه المبكر^(١) :

يوى من الدهر مثل الدهر مشتهرٌ عَزَمًا وَحَزَمًا وساعى منه كالحقْبِ
فأصغري أن شينياً لاحَ بي حَدَثاً وأكبري أننى في المهد لم أشبِ
ولا يورقك إيماض القتير بهِ فإن ذاك ابتسامُ الرأى والأدب^(٢)
لا تنكرى منه تخديداً تجللهُ فالسيف لا يزدرى أن كان ذا شطْبِ^(٣)

وعلى هذا النحو يملأ شعره نفس قارته فتوة وقوة ، لا بما يصوره من بطولة ليوث الغاب من العرب فحسب ، بل أيضاً بما يصوره من بطولة نفسه واقتحامه للصعاب وما ظفر به من مجد فنى ، وقد دأب على وصف أشعاره بالغرابة وباللآلى الفريدة ، يقول^(٤) :

مُفَصَّلَةٌ باللؤلؤ المنتقى لها من الشعر إلا أنه اللؤلؤ الرطبُ
وهى حقاً لآلى تومض بالفكر الدقيق وبألوان البديع الزاهية ، لآلى سوى منها عقود قصائده وقلائد شعره .

والجين مع تقدم السن . شطب السيف : طرائقه
التي تظهر فيه بسبب شحذه .

(٤) الديوان ١/٢٠٤ .

(١) الديوان ١/١١٦ .

(٢) يورقك : يسهك . إيماض : لمعان .

القتير : ابتداء الشيب وأوائله .

(٣) التخديد : الطرائق التي تبدو في الخلد

الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

شعراء الدعوة العباسية

رأينا في الجزء الثاني من هذه السلسلة كيف كانت أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين والأمويين تصطارع ويجاهد بعضها بعضاً، وكيف استقرت على أصول ثابتة في نظرية الخلافة ، فحزب الشيعة كان يرى أن تكون الخلافة في أبناء علي من بني هاشم ، لأنهم أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم وجمهورهم من حَفَدَتِهِ وقد أوصى لأبيهم — فيما يذكرون — بالخلافة ، وكان حزب الخوارج يرى أن تُردَّ الخلافة إلى الأمة لتولّي عليها الخليفة التقي الصالح من أعلامها ، وكان حزب الزبيريين يرى أن تُردَّ الخلافة إلى أبناء الصحابة الأولين من المهاجرين وأن تعود إلى الحجاز ، حتى يسندوها الحجازيون من أهل مكة والمدينة لا عرب القبائل اليمنية الشامية التي تؤازر الأمويين . بينما كان الأمويون يدعون لأنفسهم بأنهم الأكفاء لتلك الخلافة ، ووصلوها بنظام الحكم الأجنبي المتوارث عند القياصرة والأكاسرة . ومضت هذه الأحزاب الأربعة تختصم ويجاهد بعضها بعضاً ، وكان أقصرها عمراً حزب الزبيريين فإنه لم يكد يتجاوز بضع سنوات لا تزيد على ثمان ، أما حزب الشيعة فقد ظفر بحظ من الحكم في الكوفة لعهد المختار الثقفي الذي كان يدعو محمد بن الحنفية من أبناء علي والذي أسس نظرية الكيسانية إحدى نظريات المذهب الشيعي ، على أن هذه الحركة سرعان ما خمدت ، غير أن التشيع ظل ملتهباً سراً ، وتكوّن مذهب الزيدية ، وقُضِيَ على صاحبه ، ولكن جمرات اللهب ظلت متقدة . وامتنق الخوارج الحسام في غير ميدان ونازلوا الأمويين ودوّخوهم ، ولكنهم استطاعوا أن يقضوا عليهم أو كادوا . ووراء كل هذه الأحزاب كان هناك شعراء كثيرون ينافحون عن سياسة أحزابهم ويظاهرونها على أعدائها ويناضلون نضالاً عنيفاً ،

مما هيا لازدهار الشعر السياسى .

وإذا تحولنا إلى العصر العباسى وجدنا هذا الشعر يأخذ فى الضعف ، لسبب مهم هو ضعف الأحزاب التى يعبر عنها ، أما حزب الزبيريين فكان قد سقط نهائياً منذ سنة ٧٢ للهجرة ، ولم تقم له بعد ذلك قائمة ، وأما حزب الخوارج فإن معاركه مع الأمويين كانت قد طحنته طحناً ولم تُبق منه إلا بقايا ضعيفة ، كانت كلما تجمعت وأوقدت ثورة قضى عليها قائد عباسى قضاء مبرماً ، وبذلك سقط هذا الحزب هو الآخر لا من حيث جهاد الدولة وحررها فحسب ، بل أيضاً من حيث الشعر والشعراء . أما حزب الشيعة فقد ظل حياً فى كثير من النفوس ، وظلت ثوراتهم تتوالى من حين إلى حين وظل كثير من أئمتهم وأعلامهم يُقتلون ويسجنون إذ كانوا يزعمون أنهم أولياء الخلافة الأقربون وأصحابها الشرعيون ، وأن العباسيين اغتصبوها منهم اغتصاباً . وكان العباسيون كما أسلفنا فى غير هذا الموضع قد حولوا إلى أسرتهم دعوة الكيسانية وأصبحوا أوصياءها ، ومضوا ينظمون الدعوة ضد بنى أمية ، حتى قوّضوا حكمهم ، وأصبحوا ولاية الأمر وأصحاب السلطان ، وأخذوا يرصدون كل حركة للعلويين ، لا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة . حتى إذا كان المأمون ورأى أن يوصى بالعهد من بعده لعلوى هو على الرضا بن موسى الكاظم ثار عليه بيته ، واضطّر إلى الانصراف عن تلك الفكرة كما مر بنا .

وعلى هذا النحو ظل الشيعة فى العصر العباسى الأول يطالبون بأن ينزل العباسيون عن الحكم ويردوا الأمر إلى نصابه ، وتبعهم فى تقرير نظريتهم كثير من الشعراء ، غير أنهم كانوا يخافون بطش العباسيين ، فكانوا ينظمون ما ينظمون سراً وقلما أعلنوه ، بل لقد مضى فريق منهم بمدح الخلفاء تقيّةً وبيالغ فى مديحه ، حتى ليصبح كأنه من دعائهم . وكثر حينئذ من يدعون لهم كثرة مفرطة ، فقد كانت الدنيا بيدهم وكنوز الدولة فى حجورهم فسأل لها لعب الشعراء ومضوا يدافعون عن حق العباسيين فى الخلافة ويردّون على العلويين منكرين حقهم فيها ، مستلهمين رسالة المنصور إلى محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية والتى عرضنا لها فى الفصل الأول ، وما ذكره فيها من أن أبناء البنت لا يحوزون الميراث ، إنما يحوزه العم وأبناؤه كما قرر الإسلام . ومن الغريب أنه لم يرتفع فى هذه الأثناء صوت ثالث يقرّر بأن

الخلافة في منشئها كانت تقوم على استشارة الأمة في تولية الصالح من زعمائها، فهي ليست لُقمة تستأثر بها أسرة خاصة، بل هي نظام يقوم على الشورى، هدفه الأساسي مصلحة الجماعة، وهي شركة بين أفرادها جميعاً يتولاها أكفؤهم سواء أكان من بيت هاشمي أم لم يكن، وسواء أكان قرشياً أم كان غير قرشي. وكان المفروض أن يجهر بذلك الفقهاء والمتكلمون، وكأنما لم يتبينوا حينئذ الطريق الصحيح لحكم الأمة ومصلحتها العامة، فضوا يصانعون العباسيين مُدْعَين لهم خاضعين.

وإذا مضينا نتعقب من كانوا يمدحون الخلفاء العباسيين لهذا العصر وجدناهم أكثر من أن يُحصوا ويستقصوا، وإنما يهمننا منهم من كانوا يقفون مدافعين عن نظريتهم في الخلافة مناضلين عنهم خصومهم من الشيعة العلويين، ولا بد أن نلاحظ منذ أول الأمر أن أصحاب مذهب الكيسانية كانوا يوالون العباسيين، ولذلك لا نعجب إذا رأينا السيد الحميري يكثر من مديحه لهم، وقد مدح طويلاً أبا العباس السفاح والمنصور والمهدي^(١). ويلمع اسم أبي دلامة في بلاطهم جميعاً، وكانت فيه دعاية جعلتهم يتخذونه لهم نديماً، ومن أوائل من استظهروا في أشعارهم النضال عن سلطان العباسيين أبو نُخَيْلَة، وهو من مخضري الدولتين: الأموية العباسية في مديح السفاح إذ يقول^(٢):

حتى إذا ما الأوصياء عسكروا وقام من تَبَرَّ النبيَّ الجَوْهَرُ
أقبل بالناس الهوى المشهرُ وصاحَ في الليل نهاراً أنور
وواضح أنه يجعل العباسيين أوصياء على الخلافة، فليس العلويون أصحابها إنما أصحابها العباسيون الذين استخلصوا لها كما يستخلص الجوهر. وقد مدح المنصور كثيرون في مقدمتهم بشار وأبو دلامة نديمه والسيد الحميري، ونرى أبا نخيلة يمدحه طويلاً، وقد رُوِيَ له فيه قطعة من أرجوزة يغريه فيها بخلع ولي عهده عيسى بن موسى وعقْدُ العهد لابنه محمد المهدي، وفيها يقول^(٣):

(١) انظر ترجمته في الجزء السابع من الأغاني
طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٤٩/١٨ وما

بعدها.
(٣) أغاني ١٥٠/١٨.

ليس وليَّ عَهْدِنَا بِالْأَسْعَدِ عَيْسَى فَرَحْلِفْهَا إِلَى مُحَمَّدٍ^(١)
 من عند عيسى معهداً عن معهدٍ حتى تَوَدَّى من يَدٍ إِلَى يَدٍ
 فَنَادِ لِلْبَيْعَةِ جَمْعاً نَحْشُدِ فِي يَوْمِنَا الْحَاضِرِ هَذَا أَوْ غَدٍ
 وَيُعَدُّ الْمَهْدَى أَوَّلَ خَلِيفَةِ فَتَحِ أَبْوَابِهِ عَلَى مَصَارِيْعِهَا لِلشَّعْرَاءِ ، فَقَدْ مَضَى
 يَجْزَلُ لَهُمْ فِي الْعَطَاءِ وَمَضُوا يَجْزَلُونَ لَهُ فِي الثَّأْنِ ، وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ الْخَيْطِ ، إِنْ صَحَّ
 أَنَّهُ لَهُ^(٢) :

لَمَسْتُ بِكَفِي كَفَّهُ أَبْتَغِي الْغِنَى وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدَى
 فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذَوُو الْغِنَى أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَاتَّلَفْتُ مَا عِنْدِي
 وَمَنْ أَكْثَرُوا مِنْ مَدِيحِهِ مِرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ وَسَلَمَ الْخَاسِرِ وَأَبُو دَلَامَةَ وَبِشَارَ
 وَأَبُو الْعَتَاهِيَةِ وَالسَّيِّدَ الْحَمِيرِيَّ وَنُصَيْبَ الْأَصْغَرَ وَالْعُمَانِيَّ الرَّاجِزَ ، وَقَدْ رَوَى لَهُ
 ابْنُ الْمُعْتَزِ أَرْجُوزَةً يَسْتَحِثُّ فِيهَا عَلَى تَوَلِيَّتِهِ الْعَهْدَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ الرَّشِيدُ وَالْمَهَادِي^(٣) ،
 وَمَنْ مُدَّ أَحَدُ الْحُسَيْنِ بْنِ مُطَيْيَرٍ مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ ، وَكَانَ يَغْلُو فِي مَدِيحِهِ غُلُوءًا شَدِيدًا
 حَتَّى لِيَرْفَعَهُ عَلَى الْبَشَرِ دَرَجَاتٍ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ^(٤) :

لَوْ يَعْبُدُ النَّاسُ يَا مَهْدَى أَفْضَلَهُمْ مَا كَانَ فِي النَّاسِ إِلَّا أَنْتَ مَعْبُودٌ
 أَضَحْتُ بِمَيْنِكَ مِنْ جُودٍ مَصُورَةٍ لَا بَلْ يَمِينُكَ مِنْهَا صُورَ الْجُودِ
 لَوْ أَنَّ مِنْ نُورِهِ مِثْقَالَ خَرْدَلَةٍ فِي السُّودِ طَرًّا إِذْنًا لَا بَيَضَتِ السُّودُ
 وَنَرَى كَثِيرِينَ مِنَ الشَّعْرَاءِ لِعَهْدِهِ يَدَافِعُونَ عَنْ حَقِّهِ وَحَقِّ الْعَبَّاسِيِّينَ فِي الْخِلَافَةِ
 مَنكَرِينَ عَلَى الْعُلُوِّينَ حَقَّهُمْ فِيهَا ، فَهَمَّ وَرَثَتُهَا الشَّرْعِيُّونَ وَحَصُونُهَا الْحَقِيقِيُّونَ ،
 وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ الْمَوَلَى^(٥) :

وإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَهْطَهُ لِأَهْلِ الْمَعَالَى مِنْ لُؤَىِّ بْنِ غَالِبٍ
 أَوْلَتْكَ أَوْتَادُ الْبِلَادِ وَوَارِثُو النَّبِيِّ بِأَمْرِ الْحَقِّ غَيْرِ التَّكَاذِبِ

(١) زحلف : دحرج ودفع .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٣١/١٦ .

(٣) أغاني ٢٩٣/٣ .

(٤) أغاني (طبعة الساسي) ٩٤/١٨ .

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبعة دار

ومضى في القصيدة يذكر بلاء العباسيين في تقويض الحكم الأموي والأخذ للعلويين بثأرهم الذي كان مهدرًا وأعلن بلسان الخليفة أنه رحيم بهم شقيق عليهم لما يربطه بهم من وشائج القربى، وأن من رجع منهم عن غيه وتاب قبل منه توبته وأسدل عليه نعمه .

وكان الهادي منذ ولاية أبيه يقعد للشعراء ويمدحونه^(١) ، وفي مقدمتهم مروان ابن أبي حفصة وسلم الخاسر ومطيع بن إياس وأبو الخطاب البهْدَلِيّ . وخلفه سريعاً هرون الرشيد، وظل في الخلافة نحو اثنين وعشرين عاماً، ويقول الرواة إنه لم يجتمع بباب أحد ما اجتمع ببابه من الشعراء^(٢) ، ومن مدّاحه أبو الشَّيْص والعُماني وابن منذر وعمر بن سلمة ومروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع السُّلَمي والسيد الحميري ومنصور النَّمري وأبو الغول الطُّهَوِي ، وله يذكر عقده العهد لابنيه الأمين والمأمون^(٣) :

بنيتَ لعبد الله بعد محمدٍ ذُرّاً قُبّةَ الإسلام فاخضرَّ عودها
هما طُنْبَاهَا - بَارِكْ اللهُ فِيهِمَا - وَأَنْتَ - أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - عَمُودُهَا
ومن مُدّاحه أيضاً ربيعة الرُّقَيّ ونُصَيْبُ الأصغر، ونراه يردّد له أن خلافته ميراث ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤) ، كما نرى الشعراء يحيطونه بهالة من التقديس حتى ليقول النَّمري^(٥) :

إن المكارم والمعروف أوديةٌ أحلكَ اللهُ منها حيث تتسعُ
إذا رفعتَ امرءاً فالله يَرْفَعُهُ ومن وضعتَ من الأَقْوَامِ مَتَضَعُ
ويقال إنه كان لا يرى بأساً في أن يمدح بما تمدح به الأنبياء^(٦) ! . وكانت له انتصارات مدوية على الخوارج والروم ، فتغنى بها الشعراء طويلاً .

وولي بعده الأمين ، وكان فيه هو ومجون فلزمه أبو نواس ، ومن مدّاحه أبو الشَّيْص وعبد الله بن أيوب التيمي ، وكان يكثر في مديحه له من التنديد بأخيه

(٤) أغاني (طبعة الساسي) ٢٥/٢٠ وما

بعدها .

(١) أغاني ٣٢٦/١٣ .

(٢) انظر الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي)

٣٨٢/٤ .

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/١٤٧

(٦) أغاني ١٣/١٤٤ .

(٣) ابن المعتز ص ١٤٩ .

المأمون حين خلع طاعته على شاكلة قوله (١) :

خِلافةُ اللهِ قد توارثها آباؤه في سِوَالفِ الكُتُبِ
فهى له دونكم مورثةٌ عن خاتم الأنبياء في الحَقَبِ
وقوله (٢) :

مَنْ رَأَى النَّاسَ لَهُ الْفَضْ لَ عَلَيْهِمْ حَسَدُوهُ
مِثْلَ مَا قَدْ حَسَدَ الْقَا ثُمَّ بِالْمُلْكِ أَخُوهُ

وكان المأمون ممدّحاً مثل أبيه الرشيد ، ومن ممدّاحه — وهو لا يزال وليّ عهد — منصور النمرى وأشجع السّلمى وأبو محمد اليزيدى مؤدبه ، ومن تغذّوا بمدحيه في خلافته أبو تمام وإبراهيم بن المهدي عمه ودعبل وعبد الله بن أيوب التّيسمي ومحمد بن عبد الملك الزيات وابن البواب ومحمد بن وهيب ، ومدائحهم فيه مبثوثة في أخبارهم بكتاب الأغاني . ومرّ بنا في الفصل السالف تنويه أبي تمام بالمعتصم وانتصاراته المدوية ، ومن ممدّاحه ابن الزيات ومحمد بن وهيب والحسين بن الضحّاك ومخلد بن بكار الموصلي وخالد الكاتب . ومن نوهوا بالوائق أبو تمام وله فيه قصائد بدیعة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند نفر من مداح هؤلاء الخلفاء ، هم أبو دلامة ومروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر .

أبو دلامة (٣)

هو زَنْد بن الجَوْن ، كوفي أسود ، من موالى بنى أسد ، كان أبوه عبداً فأعتقه رجل منهم ، وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ولم يكن له في أيام الدولة الأولى شأن يذكر ، غير أن الدولة العباسية لم تكد تظله حتى أخذ نجمه

(١) طبعة دار الكتب (٢٣٥/١٠) وابن خلكان

وتاريخ بغداد ٤٨٨/٨ وشذرات الذهب

٢٤٩/١ ومرآة الجنان لليافعى ٣٤١/١ والمؤتلف

١٣١ ومعجم الأدباء ١٦٥/١١ وذيل زهر

الآداب للحصرى (طبعة القاهرة) ص ٨١ وما

بعدها . وقد طبع ديوانه بالجزائر .

(١) أغاني (مأسى) ١٢٠/١٨ .

(٢) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب)

١٦١/٢ .

(٣) انظر في ترجمة أبي دلامة وأشماره

وأخباره ابن المعتز ص ٥٤ وابن قتيبة في الشعر

والشعر (طبعة دار المعارف) ص ٧٥١ والأغاني

يَتَأَلَّقُ إِذْ قَرَّبَهُ مِنْهُ السَّفَاحُ ، وَكَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ جَعَلَتْهُ خَفِيفَ الظِّلِّ عَلَى قَلْبِهِ فَاتَّخَذَهُ هُوَ وَمَنْ وَليِهِ مِنَ الْخُلَفَاءِ نَدِيمًا لَمْ يُطْرَفْهُمْ بِنَوَادِرِهِ . وَيَقُولُ أَبُو الْفَرَجِ : « كَانَ فَاسِدُ الدِّينِ رَدِيءُ الْمَذْهَبِ مَرْتَكِبًا لِلْمَحَارِمِ مُضِيْعًا لِلْفُرُوضِ مَجَاهِرًا بِذَلِكَ ، وَكَانَ يُعَلِّمُ هَذَا مِنْهُ وَيُعَرِّفُ بِهِ فَيَسْتَجَانِي عَنْهُ لِلطَّفِّ مَحَلَّهُ » . وَلَعَلَّ أَبَا الْفَرَجِ بَنَى هَذَا الْحُكْمَ عَلَى مَا سَاقَهُ مِنْ أَخْبَارِهِ إِذْ ذَكَرَ أَنَّ الْمَنْصُورَ بَلَغَهُ أَنَّهُ مَعْتَكِفٌ عَلَى الْخَمْرِ وَلَا يَحْضُرُ صَلَاةَ وَلَا مَسْجِدًا ، فَأَمَرَهُ بِلِزُومِ الْجَمَاعَةِ فِي مَسْجِدِ قَصْرِهِ ، وَطَالَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فَاسْتَعْفَاهُ بِقَصِيدَةٍ يَقُولُ لَهُ فِيهَا :

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَزَّنِي بِمَسْجِدِهِ وَالْقَصْرَ مَالِي وَلِلْقَصْرِ !
وَمَا ضَرَّهُ وَاللَّهِ يَغْفِرُ ذَنْبُهُ لَوْ أَنَّ ذُنُوبَ الْعَالَمِينَ عَلَى ظَهْرِي
وَضَحِكُ الْمَنْصُورِ حِينَ قَرَأَ الْقَصِيدَةَ وَأَعْفَاهُ مِنَ الْحُضُورِ مَعَهُ . وَرَوَى أَبُو الْفَرَجِ فِي مَوْضِعٍ ثَانٍ أَنَّ الْمَنْصُورَ أَمَرَهُ بِالْقِيَامِ مَعَهُ فِي لَيَالِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَأَنَّهُ شَقِيَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَى رَيْطَةِ زَوْجَةِ ابْنِهِ الْمَهْدِيِّ شِعْرًا يُضْحِكُهَا بِهِ وَيَسْتَشْفَعُهَا عِنْدَ عَمِّهَا الْمَنْصُورِ . وَفِي خَبَرٍ ثَالِثٍ أَنَّ الْمَنْصُورَ سَجَنَهُ لِسُكْرِهِ . وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ لُحُوٌّ وَمِيلٌ لِلْمَجُونِ ، أَمَا أَنْ يَكُونَ فَاسِدَ الدِّينِ مَخْلًا بِالْفُرُوضِ لِلْخَبَرِينَ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَشْبَهُهُمَا فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مَبَالِغَةً فِي الْحُكْمِ إِذْ كَانَ يَذْهَبُ بِذَلِكَ إِلَى الدُّعَابَةِ شَأْنَهُ فِي دُعَابَاتِهِ الْأُخْرَى الَّتِي رَوَاهَا أَبُو الْفَرَجِ وَغَيْرُهُ .

وَيُرَوَّى أَنَّهُ انْقَطَعَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ إِلَى رَوْحِ بْنِ حَاتِمٍ بْنِ قَبِيصَةَ الْمُهَلَّبِيِّ ، أَمَا فِي عَامَةِ أَيَّامِهِ فَكَانَ مَلَاذِمًا لِلْخُلَفَاءِ إِذْ كَانُوا يَتَخَذُونَهُ نَدِيمًا لَمْ يَضْحَكْهُمْ بِنَوَادِرِهِ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنْصُورِ خَاصَّةً ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا جَعَلَهُ يُسَنِّي لَهُ الْجَوَائِزَ دَالِيَّةً الَّتِي مَدَحَهَا بِهَا حِينَ قَتَلَ أَبَا مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيَّ وَفِيهَا يَقُولُ :

أَبَا مُجْرِمٍ مَا غَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَةً عَلَى عَبْدِهِ حَتَّى يَغَيِّرَهَا الْعَبْدُ
أَفَى دَوْلَةِ الْمَهْدِيِّ حَاوَلْتَ غَدْرَةً أَلَا إِنَّ أَهْلَ الْغَدْرِ آبَاؤُكَ الْكُرْدُ
وَوَاضِحٌ أَنَّهُ يَلْقَبُ الْمَنْصُورَ فِي الْبَيْتِ الْأَخِيرِ بِالْمَهْدِيِّ ، مُسْتَعِيرًا ذَلِكَ مِنَ الشَّيْعَةِ وَمَا يَرُدُّ دُونَهُ فِي آثَارِهِمْ عَنْ صِفَاتِهِ وَأَنَّهُ الْمُنْقَذُ الَّذِي يَخْلُصُ النَّاسَ مِنْ بَلَايَاهِمِ

ويعمل الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً ويهدي الناس إلى الطريق السويّ المستقيم ،
وتذهب بعض الروايات السنية إلى أن الاسم الحقيقي للمهدي إنما هو محمد ، ولعل
المنصور لاحظ ذلك حين لقب ابنه محمداً بالمهدي ، وكأنه كان يريد أن يوحى
للناس بأنه المهدي المنتظر . على أن من الشعراء من مضى مثل أبي دلالة يلقبه هو
نفسه بهذا اللقب ، وكان ما يزال يرفع من شأنه هو وأسرته درجات فوق العالمين
على شاكلة قوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قومٍ لِقِيلَ اقْعُدُوا يا آلَ عَبَّاسٍ
ثم اَرْتَقُوا في شعاع الشمس وارتفعوا إلى السماء فأنتم سادة الناس
وكان يجيد الرثاء كما يجيد المديح وقد بكى السفاح طويلاً . ولما توفى المنصور
رثاه بقصيدة جيدة جمع فيها بين الحزن عليه والفرحة بتولية المهدي ، والطريف أنه
جمع المعنيين في كل بيت من أبياتها على نحو ما نرى في قوله :

عينان : واحدة تُرى مسرورةً بإمامها جَذَلَى وأخرى تَذْرِفُ
تبكي وتضحك مرة ويسوءها ما أبصرت ويسرّها ما تعرفُ

وله نوادر كثيرة تروى عنها كتب الأدب ، منها ما يتصل بالخلفاء ونسائهم ،
ومنها ما يتصل بزوجه وبأولاده ، وكان يعرف كيف يحيل بعض نوادره شعراً ،
إذ كان الشعر يتدفق على لسانه تدفقاً ، ويروى أنه بُشِّرَ بنت له ، فقال تَوّاً
مداعباً ومتفكهاً :

فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكفُلكِ لقمان الحكيمُ
ولكن قد تضمك أم سوء إلى لبائِها وأب لثيم

وله بجانب ذلك أشعار في وصف الشراب والرياض ، وانقطع بعد المنصور
إلى المهدي فكان يصله بالجوائز السنية ويستطيع مجالسته ونوادره إلى أن توفى سنة
١٦١ للهجرة .

مروان^(١) بن أبي حفصة

أصل جده من يهود خراسان ، وكان مولى لمروان بن الحكم وهبه له عثمان بن عفان ، ويقال إنه أبلى في الدفاع عنه حين حوَّصر في داره وقُتل ، فأعتقه مروان جزاء بلائه ، ولما ولي المدينة لمعاوية ولأه على خراج اليمامة ، واقرن هناك بعربية أنجب منها ابنه يحيى ، وكان شاعراً متوسطاً ، ويقال إنه تزوج بنت زياد بن هوزة وأنجب منها فيمن أنجب ابنه سليمان وكان هو الآخر يقرض الشعر ، ورزق سليمان بابنه مروان سنة ١٠٥ للهجرة . وقد نشأ في اليمامة حيث استقرت أسرته والشعر يجرى في أعرافه فلم يلبث أن شدا به ، غير أن اسمه لم يلمع إلا في العصر العباسي ، ونراه ينقطع لمعن بن زائدة الشيباني ، وكان جواداً مقداماً وبطلا مغواراً ، ولاء المنصور اليمن ثم سجستان . ويقال إن مروان أخذ منه مالا كثيراً ، وخاصة حين مدحه بقصيدته اللامية ، وفيها يقول عنه وعن عشيرته :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسودُّ لها في بطن خفان أشبِلُ^(٢)
 همُّ بمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزلُ
 بها ليل في الإسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أولُ
 همُّ القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
 وما يستطيع الفاعلون فعالهم وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا

وله بجانب هذه القصيدة فيه قصائد كثيرة ملأ بها حِجره من الأموال ، ومن طريق مديحه فيه قوله يصور سيادته وشرفه وكرمه وشجاعته :

وكذلك فهرس الأغاني ومراة الجنان لليافعي
 ٣٨٩/١ وحديث الأربعماء لطف حسين (طبعة
 الحلبي) ٢٨٦/٢ .
 (٢) خفان : مأسدة بالقرب من الكوفة .
 ومطراسم جد معن ، وهو مطر بن شريك
 الشيباني .

(١) انظر في ترجمة مروان وأشعاره وأخباره
 ابن المعتز ص ٤٢ وابن قتيبة ص ٧٣٩
 والأغاني (طبعة دار الكتب) ٧١/١٠ والموشح
 للمزباني ص ٢٥١ والنجوم الزاهرة (طبعة دار
 الكتب) ١٠٦/٢ وتاريخ بغداد ١٤٢/١٣
 وشذرات الذهب ٣٠١/١ وابن خلكان ١١٧/٢
 والوزراء والكتاب للجيشي ، انظر الفهرس ،

مَعْنُ بن زائدة الذى زيدت به شرفاً إلى شرف بنو شيبان
إن عُدَّ أَيَّامُ الفَعَالِ فإِنَّمَا يوماه يوم نَدَى ويوم طَعَانِ

وما زال يوالى مديحه له حتى توفى سنة ١٥٢ للهجرة ، فأبَّنه تأييناً حاراً ، ومن
رائع تأيينه له لاميته ، وفيها يقول معبراً عن حزنه العميق وأساه :

أقمنا بالهامة بعد مَعْنٍ مُقَاماً لا نُريد له زِيالاً
وقلنا : أين نرحل بعد مَعْنٍ وقد ذهب النوال فلا نوالاً

ويقول من أخرى :

قُلْ للمنية لا تُبْقِ على أحدٍ إذ مات مَعْنُ فما مَيِّتٌ بِمَفْقُودٍ
ولما ولى المهدي بعد أبيه المنصور وَقَدَّ عليه ، ولم يكد يلتقى بين يديه أولى
قصائده فيه حتى بهره بمدحجه ، ولم يكن مديحاً عادياً بالكرم والشجاعة والخلال
الكريمة التى يقدرها العرب دائماً ، بل كان أيضاً مديحاً سياسياً ، إذ عمد إلى الدفاع
عن حقوق العباسيين فى الخلافة والرد على العلويين وما يدعونه من هذه الحقوق ،
ولعل شاعراً لم يبلغ فى هذا الدفاع مبلغه ، إذ كان يعرف كيف ينقض على العلويين
بالحجة القاطعة على نحو ما نرى فى قوله :

هل تَطْمَسُونَ من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالةً عن ربكم جبريلُ بلَغها النبىُّ فقالها
شهدت من «الأنفال» آخرُ آيةٍ يترأثم فأردتمُ إبطالها

وهو يريد بآية الأنفال قوله تعالى : (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا
معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل
شئ عليم) يشير بذلك إلى حق العباسيين فى وراثة الخلافة وأنهم مقدمون فى هذا
الحق على أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء إذ العم مقدم على
الأسباط فى الوراثة ، على نحو ما هو معروف فى الشريعة الإسلامية . وبلغ من

فرط إعجاب المهدي بالقصيدة أن سأل كم عدد أبياتها ، فقال مروان : مائة ، فأمر له بمائة ألف درهم ، وكانت أول مائة ألف درهم أخذها شاعر في أيام بني العباس . ومضى مروان يردد في مديحه للمهدي هذا الدفاع السياسي عن حق العباسيين في وراثة الخلافة ، وهو يغدق عليه عطاياها الجزيلة ، ومن إحكامه لهذا الدفاع أبياته التالية التي يخاطب بها المهدي :

يا بن الذي ورث النبيَّ محمدًا دون الأقارب من ذوى الأرحامِ
الوَخِيُّ بين بني البنات وبينكم قطعَ الخصامِ فلاتَ حينَ خِصامِ
ما للنساءِ مع الرجالِ فريضةٌ نزلتُ بذلكِ سورةَ الأنعامِ
أَنْتَى يَكُونُ وليس ذاكِ بكائنٍ لبني البناتِ وراثَةُ الأعمامِ
وما زال يفد على المهدي حتى توفّي وخلفه ابنه الهادي فوفد عليه مع من وفدوا
يهتئون بالخلافة ويعزونه عن أبيه ودخل فأخذ بعِضادتي الباب ، ثم قال :

لقد أصبحتُ تختالُ في كلِّ بلدةٍ بقبر أمير المؤمنين المقابرُ
ولو لم تسكنْ بابنه في مكانه لما برحتُ تبكي عليه المنابرُ
ومضى يفد على هرون الرشيد ويجزل له في الصلوات السنية ، وفدّ على البرامكة - شأنه في ذلك شأن جميع شعراء الرشيد ، إذ كانوا يجمعون بين مديحه ومديحهم - وله في يحيى بن خالد البرمكي من قصيدة :

إذا بَلَغَتْنَا العِيسُ يحيى بن خالدٍ أخذنا بحبل اليُسْر وانقطع العُسْرُ
فإنْ نشكر النُّعمَى التي عَمَّنا بها فحقَّ علينا - ما بقينا - له الشكر
ومن رائع قوله في الفضل ابنه :

إذا أمُّ طفْلٍ رَاَعَهَا جوعُ طفْلِها غَدَتَهُ بذكر الفضل فاستعصم الطُّفْلُ
ليحيى بك الإسلام إنك عزّه وإنك من قومٍ صغيرهمُ كَهْلُ
وليس له وراء المدح والرثاء شعر مذكور . وقد اشتهر ببخله وشدة حرصه وكان يلم ببغداد ثم يعود سريعاً إلى اليمامة ، ولذلك لم يتضح عنده التأثير بالحضارة العباسية

وما تُرجم من ثقافات أجنبية، على أنه كان يحكم صنعته إحكاماً بعيداً، ويروى عنه أنه كان يحك القصيدة في سنة ، أما في الأشهر الأربعة الأولى فكان ينظمها ، وكان في الأربعة الأشهر الثانية يصقلها وينقحها ، أما في الأربعة الأشهر الأخيرة فكان يعرضها على الرواة والنقاد حتى إذا وثق من جودتها أنشدها بمدوحه ، وما زال في المحل المرموق من الشعر حتى توفي سنة ١٨٢ ويقال إنه مات مقتولاً بيد شيعي انتقاماً منه للعلويين .

سلم^(١) الخاسر

من موالى تميم عشيرة أبي بكر الصديق ، وُلد بالبصرة وبها نشأ ، واختلف الرواة في سبب تلقيه بالخاسر ، ف قيل إن أباه عمرو بن حماد خلّف له مالا كثيراً أنفق على الشعر وفي اللهو فلقّب بذلك ، وقيل بل لأنه اشترى بمصحف ورثه من أبيه طُنبورا ، وقيل أيضاً إنه إنما لُقّب بذلك لأنه باع مصحفاً واشترى بتمنه دفتر شعر . ويقول أبو الفرج : « هو راوية بشار بن بُرْد وتلميذه وعنه أخذ ومن بحره اغترف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر » وروى عنه أنه قال : « هل أنا إلا جزء من محاسن بشار ، وهل أنطق إلا بفضل منطقته . . إني لأروى له تسعة آلاف بيت ما يعرف أحد غيري منها شيئاً » ويقال إنه كان من أعرف الشعراء بأشعار الجاهلية . وزراه في مطالع حياته يمدح معن بن زائدة وعمر بن العلاء وإلى طبرستان ومدوح أستاذه بشار ، وله يقول :

كم كربةٍ قد مسني ضرُّها ناديتُ فيها عمر بن العلاء
ورثي معنا حين توفي رثاء حارّاً ، وبنفس اللوعة رثي أبا جعفر المنصور ،
وفيه يقول :

عجباً للذي نعي الناعيان كيف فاهت بموته الشفتان

الأدباء ١١/٢٣٦ والوزراء والكتاب الجهشيارى
انظر الفهرس .

(١) انظر في سلم وأخباره وأشعاره ابن المعتز
ص ٩٩ والأغاني (طبعة الساسي) ٢١/٧٣
وتاريخ بغداد ٩/١٣٦ وابن خلكان ومعجم

لَيْتَ كَفًّا حَدَّثَ عَلَيْهِ تُرَابًا لَمْ تَعُدْ فِي يَمِينِهَا بَيْنَانِ
وَتُفْتَحْ لَهُ أَبْوَابُ الْخِلَافَةِ مِنْذُ عَصْرِ الْمَهْدِيِّ ، إِذْ كَانَ يُعْطِيهِ هُوَ وَمِرْوَانَ بْنَ
أَبِي حَفْصَةَ عَطِيَّةً وَاحِدَةً . وَيَقُولُ ابْنُ الْمُعْتَزِ إِنَّهُ كَانَ يَذْهَبُ بِهِ فِي مَدِيحِهِ إِلَى أَنَّهُ
الْمَهْدِيُّ الَّذِي وَصَفَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ آثَارٍ ،
وَلَهُ يَقُولُ فِي بَعْضِ قِصَائِهِ :

وإلى أمير المؤمنين محمدٍ خير الأنام
فَضَلَ الْمُلُوكَ مُحَمَّدٌ فَضَلَ الْحَلَالَ عَلَى الْحَرَامِ
ويقول :

ومهديّ أُمْتَنَا وَالَّذِي حَمَاهَا وَأَدْرَكَ أَوْتَارَهَا
لَهُ شَيْمَةٌ عِنْدَ بَذْلِ الْعَطَا * لَا يَعْرِفُ النَّاسُ مَقْدَارَهَا
وَكَانَ يَقِفُ بِجَانِبِهِ فِي كُلِّ مَنَاسِبَةٍ ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّ نَرَاهُ يَنْبَرِي حِينَ اتَّخَذَ يَعْقُوبُ
ابْنَ دَاوُدَ وَزِيرًا لَهُ قَاتِلًا مِنْوَهَا بِهِ وَبُوزِيرَهُ :

قُلْ لِلْإِمَامِ الَّذِي جَاءَتْ خِلَافَتُهُ تُهْدَى إِلَيْهِ بِحَقٍّ غَيْرِ مُرَدُودٍ
نَعَمْ الْمَعِينُ عَلَى التَّقْوَى أُعِنْتَ بِهِ أَخُوكَ فِي اللَّهِ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
وَلَمَّا مَاتَتْ ابْنَتُهُ « الْبَانُوكَةُ » حَزَنَ عَلَيْهَا هُوَ وَأَمَهَا الْخِيزَرَانُ حَزْنًا شَدِيدًا ،
وَإِذَا بِشَاعِرِهِ يَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ مُعْزِيًا بِلْ نَادِبًا بِأَكْيَا بِمَثَلِ قَوْلِهِ :

أَوَدَى بِبَانُوكَةَ رَيْبُ الزَّمَانِ مُوْنِسَةُ الْمَهْدِيِّ وَالْخِيزَرَانِ
بَانُوكَ يَا بِنْتَ إِمَامِ الْهُدَى أَصْبَحَتْ مِنْ زِينَةِ أَهْلِ الْجَنَانِ
بَكَتْ لَكَ الْأَرْضُ وَسُكَّانُهَا فِي كُلِّ أَفْقٍ بَيْنَ إِنْسٍ وَجَانِ
وَيَقَالُ إِنَّهُ بَلَغَ الْمَهْدِيُّ أَنَّهُ مَدَحَ بَعْضَ الْعُلُوِّينَ فَتَوَعَّدَهُ وَهَمَّ بِهِ ، وَلَكِنَّهُ
اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْلِيَ مِنْهُ سَخِيمَتَهُ بِقَصِيدَةٍ بَالِغٍ فِيهَا فِي تَصْوِيرِ اعْتِزَالِهِ بِمَثَلِ قَوْلِهِ :

وَأَنْتَ كَالْدَهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ وَالْدَهْرُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا هَرْبُ

والحق أنه كان خالصاً للعباسيين ، وقد مضى بمدح الهادى بعد المهدي مُضْفِياً عليه نفس صفات القدسية والجلال من مثل قوله :

وجدناك في كتب الأولي ن محي النفوس وقتالها
لقد جعل الله في راحتك حياة النفوس وآجالها
وله يقول من أخرى :

لولا هُداكم وفضل أولكم لم تَدْرِ ما أصل دينها العربُ
ولم يكد الهادى يسمع منه هذا البيت حتى استخفه الطرب ، وأمر له بثلاثمائة ألف درهم . وولى بعده الرشيد فوالى فيه سلم مدائح ، ووالى عليه هرون عطاياه الجزيلة ، ومن قوله فيه حين جعل ولاية العهد في ابنه الأمين :

قد بايع الثقلان في مهدي الهدى لمحمد بن زُبَيْدَة ابنة جعفر
ويقال إن زبيدة وصلته من أجل هذه القصيدة بمائة ألف درهم . ولم يلبث الرشيد أن عقد العهد من بعد الأمين للمأمون فنوّه به كما نوّه بأخيه . وجذبه البرامكة إليهم ، فأشاد بهم طويلاً ، ومن رائع قصائده فيهم لاميته التي مدح بها يحيى ابن خالد وفيه يقول :

بَلَوْتُ النَّاسَ مِنْ عُجْمٍ وَعُرْبٍ فَمَا أَحَدٌ يَسِيرُ كَمَا تَسِيرُ
فَكُلُّ الْأَمْرِ مِنْ قَوْلٍ وَفَعْلٍ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِهِ صَغِيرُ
وَفِي كَفِّكَ مَدْرَجَةُ الْمَنَابِيَا وَمِنْ جَذْوَاهُمَا الْغَيْثُ الْمَطِيرُ
وأكثر من مديح الفضل بن يحيى ، حتى كاد ينقطع له ، ومن بارع مديحه فيه قوله مصوراً شجاعته وكرمه :

له يومان : يومٌ نَدَى وبَاسٌ كَانَ الدَّهْرُ بَيْنَهُمَا أَسِيرُ
وقوله :

أقام الندى والجود في كل منزلٍ أقام به الفضل بن يحيى بن خالدٍ

وكان يمدح أيضا الفضل بن الربيع وزير الرشيد . ويظهر أن الفضل البرمكي أكثر من برّه ونواله عليه حتى حسده الشعراء وفي مقدمتهم صديقه أبو العتاهية ، مما جعل كلا منهما يلتمز صاحبه بعض اللمز ، أما أبو العتاهية فوصفه بالحرص والشح في بيته الذي أنشدناه في الفصل السابق :

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذلّ الجِرْصُ أعناقَ الرجالِ
وأما سلم فاتهمه بأنه كاذب منافق في زهده وتقشفه ، وكان قد تحول إلى الزهد على نحو ما أسلفنا ، ومع ذلك كان لا يزال يمدح ويستجدي وفي ذلك يقول له سلم :

ما أقبحَ التَّزْهيدَ من واعظٍ . يُزْهَدُ النَّاسَ ولا يزهدُ
لو كان في تزيهده صادقا أضحى وأمسى بيته المسجد

وفي أخباره ما يدل على أنه كان يهاجى والبة بن الحباب ، غير أنه لم يكن يحسن الهجاء . ويظهر أنه كان يلم بشيء من اللهو والمجون في مطالع حياته ، غير أنه لم تتقدم به السنُّ حتى التزم جانب الوقار . وشعره يؤكد أن المديح لم يترك فيه بقية لفن آخر سواه . ولم يكن شحيحاً كما وصفه أبو العتاهية ، بل كان كريماً سمحاً إذ يقول ابن المعتز إنه كان ينفق ما يأخذه من الأموال على إخوانه وغيرهم من أهل الأدب . وفي أخباره ما يدل على أنه كان يتأنق تأنقاً شديداً في ملبسه ومظهره وأنه كان يحيا حياة مترفة ناعمة . وأشعاره ماثلة بالرشاقة والعدوبة والنعومة ، وله في الهادى مدحة اشتهرت في عصره وبعد عصره ، إذ بنى شطورها من تفعيلة واحدة على هذا النمط :

موسى المطرُ عدلُ السَّيرِ

وقد جعلها على قافية واحدة ، وهى تفيض بالخفة والرشاقة ، ومن حكمه البديعة :

لا تَسْأَلِ المرءَ عن خلائقِهِ في وَجْهِهِ شاهدٌ عن الخَبَرِ
وما زالت حياته تجرى رُخاء حتى توفى سنة ١٨٦ للهجرة .

شعراء الشيعة

كان استيلاء العباسيين على مقاليد الخلافة مفاجأة لكثير من العلويين وأنصارهم من فرق الشيعة ، وربما كانت الفرقة الوحيدة التي لم تجد في ذلك غضاضة هي فرقة الكيسانية من أصحاب أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، فإنه تنازل لهم ، كما أسلفنا ، عن الخلافة ، ولعل ذلك ما جعل شعراءها ، من أمثال السيد الحميري ، يقفون في صفوف العباسيين مادحين مثنين . أما شعراء الفرق الأخرى فقد عمتهم الفرحة حين انتصرت الثورة العباسية ، طائنين أن العباسيين سيسركون أبناء عمهم العلويين في الحكم معهم ، حتى إذا انبلجت الحقيقة نفضوا أيديهم منهم ، وخاصة شعراء الزيدية . أما شعراء الإمامية فقد وجدوا أمامهم فسحة كي ينافقوا العباسيين ، وكى يظهروا غير ما يبطنون ، لمبدأ التقية المشهور الذي كان يأخذ به الشيعة الإمامية جميعاً من اثني عشرية وإسماعيلية ، ومن ثم رأيناهم يمدحون خلفاء بني العباس ، يسترّون بذلك حقائقهم ، على نحو ما هو معروف عن منصور النعمري . وخير من يمثل شعراء الزيدية في أوائل هذا العصر سُديف وهرون بن سعد العجلي . أما سديف فاشتهر بتحريضه السفّاح لأول خلافته على الثأر من بني أمية بمثل قوله ^(١) :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهايل من بني العباس
لا تُقيلنَّ عبدَ شمسٍ عِثاراً واقطعنَّ كل رَقْلَةً وغَراسٍ ^(٢)

ومضى يستثيره على الفتك بهم حتى استشاط موجدة وحنقاً ، فدعاهم إلى مآذبة كبيرة ، حتى إذا قدموا وتهيئوا للطعام وقف سديف ينشده ^(٣) :

لا يَغُرَّنكَ ما ترى من رجالٍ إن تحت الضلوع داءٌ دَوِيّاً
فَضَعِ السيفَ وارْفَعْ السُّوطَ حتى لا ترى فوقَ ظهرها أَمْويّاً

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة تقوت اليد .
(٣) ابن المعتز ص ٤٠ والأغاني ٤/ ٣٤٨ .

(١) ابن المعتز ص ٣٩ والأغاني (طبع دار الكتب) ٤/ ٣٤٥ .

ووضع أبو العباس السفاح السيف فيهم حتى أتى عليهم ، ويقال : بل سُدِّحُوا بالأعمدة . وصنع صنيعه بجمعهم في الشام والحجاز والبصرة أعمامه : عبد الله وداود وسليمان . وتوفي السفاح وخلفه المنصور فاستقر في نفوس زعماء العلويين أن الخلافة قد أفلتت من أيديهم وأن العباسيين لن يدعوا لهم منها شيئاً . وما توافى سنة ١٤٥ للهجرة حتى يثور بالمدينة محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية . وهى — كما أسلفنا في الفصل الأول — أول ثورة للزيدية ، ونرى سديفاً يقف مع أخيه إبراهيم بن عبد الله حين ثار بالبصرة ، نازماً كثيراً من الأشعار ضد المنصور ، مما يؤكد أنه كان يعتنق مذهب الزيدية ، ومن قوله في بعض تلك الأشعار ، مخاطباً النفس الزكية (١) :

إنا لنأمل أن تتردُّ أَلْفَتُنَا بعد التباعد والشحناء والإخـ
وتنقضى دولة أحكامُ قادتها فينا كأحكام قوم عابدى وثنـ
فانهض ببيعتكم نهض بطاعتنا إن الخلافة فيكم يا بنى الحسنـ
وطبيعى أن يذيقه المنصور وبال تحريضه على الثورة ، إذ يقال إنه أمر بدفنه حياً . ومن شعراء الزيدية وهذه الثورة هرون بن سعد العجلى ، وقد ولّاه إبراهيم ابن عبد الله في أثنائها واسطاً ، وبمجرد قضاء المنصور عليها توفي وهو بهم بدخول البصرة (٢) ، وفي عيون الأخبار له قصيدة يرد فيها على غالبية الشيعة من الإمامية ردّاً عنيفاً ، ناقضاً ما زعمه رافضتهم من غلو في تصور جعفر الصادق إمامهم ، حتى يجعله بعضهم إلهاً وبعضهم رسولا ، مع ما ينحلونه من علم الغيب وأنه دَوَّنَ كل ما يحتاج إليه من هذا العلم في جلد يسمونه جَعْفَرًا ، يقول في تضاعيف قصيدته (٣) :

ألم تر أن الرافضين تفرّقوا فكلّهم في جعفرٍ قال مُنْكَرًا
فطائفة قالوا إلهٌ ومنهم طوائف سمّته النّبىّ المطهراً
فإن كان يرضى ما يقولون جَعْفَرُ فإني إلى ربّى أفارقُ جَعْفَرًا

يعدّها وص ٣٥٩ وما بعدها .
(٣) عيون الأخبار ٢/١٤٥ .

(١) مقاتل الطالبين (نشر عيسى الحلبي)
ص ٤٧٦ والعمدة لابن رشيّق ١/٤٥ .
(٢) انظر مقاتل الطالبين ص ٣٣١ وما

ومن عجب لم أقضه جلد جفهم بَرِثْتُ إلى الرحمن ممن تجفراً

وكانت البصرة بيئة هذه النحلة ، ولعل ذلك ما جعل بعض المعتزلة يعتنقها ، من مثل بشر بن المعتز ، وربما كان أكبر دليل على زيديته أننا نراه يهاجم غالبية الإمامية على نحو ما هاجمهم هرون بن سعد العجلي^(١) . ومن شعراء الزيدية غالب ابن عثمان الهمداني ، وله مرث في النفس الزكية وأخيه إبراهيم تقطر أسى وحزناً عميقاً^(٢) . وثار ، كما مر بنا في الفصل الأول ، لعهد الهادي الحسين بن علي الحسني في مكة ونازله جيش عباسي في « فح » قُتِل هو وكثيرون من أهله وتركوا في العراق للسابع والعقبان ، مما جعل الشعراء من الزيدية يندبونهم آحر نذب وأشجاء^(٣) . ويتحول نشاط هذه النحلة إلى خراسان والطالقان^(٤) ، ويتكاثر الثائرون والمقتولون من أئمتها في تلك البلاد النائية . ومن أهم ثورات الزيدية ثورة^(٥) ابن طباطبا بالكوفة لأول خلافة المأمون ، ويقضى عليها قضاء مبرماً وطبيعياً أن يكتر شعراء الزيدية من رثاء المقتولين في هذه الثورات والتفجع عليهم ، مما نقرؤه في كتاب مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني مفصلاً أوسع تفصيل .

ولم يكن الإمامية بفرقهم المختلفة يشهرون السيوف في وجوه بني العباس ، فقد جعلوا جميعاً التقية مبدأ أساسياً في نحلهم المختلفة ، واتخذوا الدعوة السرية وسيلتهم في جمع الناس من حوطم بالكوفة ، واجتمع حوطم فعلا خلق كثير يبطنون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يعلنون ، وكأنهم كانوا يؤمنون جميعاً بأن الثورة على العباسيين لم يحن موعدها . وقد تفرقوا شيعاً كثيرة ، ومر بنا في الفصل السابق أن لمعدان الأعمى قصيدة صنف فيها طوائف الإمامية الرافضة والغالية وطوائف الزيدية وعقائدهم جميعاً ، مقدماً عليها نحلة فرقته الشَّيْطَانِيَّة الغالية ، ونراه يابوم زيد بن علي زين العابدين لعدم أخذه بمبدأ التقية ، إذ سنَّ لأصحابه من بعده إعلان ثورتهم وامتشاقهم للحسام في وجه الحكام مما جعل الخلفاء العباسيين يوالون فيهم قتلهم

(٤) الملل والنحل للشهرستاني (طبع لندن)

ص ١١٧ .

(٥) انظر في هذه الثورة وأنها زيدية مقاتل

الطالبين ص ٥١٨ وما بعدها .

(١) الحيوان ٦/٢٨٤ .

(٢) مقاتل الطالبين ص ٣٠٤ ، ٣٨٤ وما

بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٤٥٨ وما بعدها .

وسفك دمائهم ، يقول في قصيدته^(١) :

سَنَ ظُلْمَ الْإِمَامِ فِي الْقَوْمِ زَيْدٌ إِنْ ظَلَمَ الْإِمَامُ ذُو عُقَالٍ^(٢)
والمهم أن مبدأ التقية أتاح لكثيرين من شعراء الإمامية أن لا يجاهروا الناس
فضلا عن الخلفاء بحقيقة نحلهم ، وقد مضى كثير منهم يعلنون موالاتهم لبني
العباس ، مادحين لهم ، بل إن منهم مَنْ سَخَّرَ شعره للدفاع عن حقهم في الخلافة
مبالغة في السر والتقية على نحو ما سترى عند منصور النمرى . وربما كان الشاعر
الإمامي الوحيد الذي جاهر بنحلته دعبلا ، إن صح أنه كان متشيعاً حقاً فضلا
عن إماميته . ومن شعرائهم القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف ، وقد مرّ بنا
في الفصل السابق أنه سَخَّرَ كثيراً من شعره في رثاء الحيوان والطير ، وقد عمل في
خلافة المأمون فكانت إليه جباية السواد ، ونرى الصولي يروى له في كتاب الأوراق
أشعاراً شيعية مختلفة في مديح بني هاشم وبيان فضائل علي بن أبي طالب وفي رثاء
الحسين وندبه ندبا حاراً ، ملوحاً بيده في وجه أبي بكر وعمر وفي وجوه خصوم
الإمامية ، مشيراً إلى مهدّيهم الذي سيأخذ بثأرهم ، يقول^(٣) :

إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَنَالَهُمْ مِنْ يَدٍ تَشْنِي جَوَى الصَّدْرِ
بِالْقَائِمِ الْمَهْدِيِّ إِنْ عَاجَلَا أَوْ آجَلَا إِنْ مُدَّ فِي عُمْرِي

ومثله محمد بن وهيب كان يفد على وزراء بني العباس وخلفائهم ، وهو غال
في تشيعه وإماميته ، ويروى الرواة ، أنه تردّد على مجالس تُذكرُ فيها فضائل
أبي بكر وعمر وعثمان ، ولا يُذكرُ فيها شيء من فضائل علي ، فتولّى حنقا ،
وهو يقول^(٤) :

أَغْدُو إِلَى عُصْبَةٍ صُمْتُ مَسَامِعَهُمْ عَنْ الْهَدْيِ بَيْنَ زَنْدِيقٍ وَمَأْفُونٍ
لَا يَذْكُرُونَ عَلِيًّا فِي مَشَاهِدِهِمْ وَلَا بَنِيهِ بَنِي الْبَيْضِ الْمِيَامِينِ
لَوْ يَسْتَطِيعُونَ مِنْ ذِكْرِي أَبَا حَسَنِ وَفَضْلِهِ قَطَّعُونِي بِالسَّكَاكِينِ

(٢) كتاب الأوراق للصولي (أخبار الشعراء)

ص ١٨٢ .

(٤) أغاني (طبعة السامي) ١٧/١٤٦ .

(١) مقال الطالبين ص ٤١٩ والبيان

والتبين ٣٥٧/٣ .

(٢) عقّال : من العقل وهو مغرم الجناية .

ولستُ أترك تفضيلي له أبداً حتى الممات على رَغْم الملائعِين
وكثُر في هذا العصر بين شعراء الشيعة الحديث عن علي بن أبي طالب
وفضائله ، ومرَّ بنا في الفصل الرابع أن لبشر بن المعتز مزدوجة صورٌ فيها منزلته
وكيف أنه يرتفع فوق خصومه من الخوارج درجات . وينبغي أن نشير هنا إلى
ما كان من محاولة المأمون عقد البيعة من بعده لعلي الرضا الإمام السابع عند الشيعة
الإثني عشرية ، وأن أسرته ثارت عليه في بغداد ، وأن علياً الرضا توفّي سريعا ،
فانصرف عن فكرته ، وقد ظل يوالى العلويين على الرغم من قيامهم ببعض ثورات
في خلافته ، إذ نراه - كما أسلفنا في غير هذا الموضع - يكتب إلى الآفاق في
سنة ١١٢ للهجرة بتفضيل علي بن أبي طالب على جميع الصحابة ، مما جعل شعراء
الشيعة يطمثون إليه ، ونفذ بعض الشعراء من غيرهم مثل أبي تمام إلى النظم في فضائل
علي لإرضاء للدولة . وأيضاً ينبغي أن نشير هنا إلى كثرة الانقسامات بين الشيعة
وما جرَّ إليه ذلك من أشعار انتصر فيها الشعراء لما اعتنقوه من بعض المذاهب الشيعية
وفي كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى منشورات مختلفة من تلك الأشعار . وجديرٌ بنا
أن نعرض لأبرز شعراء الشيعة في العصر ، وهم السيد الحميرى ومنصور النعمري
ودعبل وديك الجن .

السيد ^(١) الحميرى

هو إسماعيل بن محمد حفيد يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الذى ترجمنا
له في الجزء الثانى من هذه السلسلة ، وقد تشككنا هناك في نسبه من حمير واستظهرنا
أنه يرجع إلى أصول إيرانية لما عُرِف عنه من إتقانه الفارسية . على أننا نجد السيد

ص ٢٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٩ ، ٦٨ ،
٧٤ وفوات الوفيات في إسماعيل وفرق
الشيعة للتوبخى (طبعة ريتز) ص ٢٦ ،
ومعرفة أخبار الرجال للكشى ١٨٤ وترجمة
جده يزيد بن مفرغ في الجزء الثانى من هذا
الكتاب وحديث الأربعماء لطف حسين ٢/٣٠٥ .

(١) انظر في ترجمة السيد الحميرى وأشعاره
وأخباره ابن المعتز ص ٣٢ والأغانى (طبعة
دار الكتب) ٢٢٩/٧ وما بهما والبيان والتبيين
٣/٣٦٠ والحيوان ٥/٣١٧ والفرق بين الفرق
للبيدائى ص ٣٠ والملل والنحل للشهرستانى
(طبعة لندن) ص ١١١ وروضات الجنات

يفتخر بحميرته ، وكانت أمه من الأزد اليمينيين ، ومن ثم يقول :

إني امرؤ حميري غير مؤتشب
جدي رعين وأخوالي ذوو يزن^(١)

وقد ولد لأبويه في البصرة سنة ١٠٥ للهجرة ، وكانا من إباضية الخوارج ، فنشأ يسمع منهما سباً على بن أبي طالب ، بل تكفيره وتكفير بعض الصحابة ، وعبثاً كان يراجعهما . ولم يابث أن أوغل في التشيع لعل وآله ، ويظهر أنه وقع لبعض أصحاب مذهب الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنفية والمعتنقين لنظرية الغيبة والرجعة ، فإذا هو يصبح كيسانياً لحماً وروحاً ، ولا ندرى هل حدث له ذلك في البصرة أو حدث في الكوفة فقد أقام بها ردهاً من الزن . وأياً كان فقد اعتنق المذهب مبكراً وأصبح شيعة لأصحابه منذ أواخر عصر بني أمية ، حتى إذا أظله العصر العباسي تمشت في نفسه الفرحة لاتنصار الهاشمين وتقويض حكم الأمويين ، وأخذ يستبشر بقيام الدولة العباسية ، وكأنه رأى فيها انتصاراً لمذهبه الشيعي ، إذ كان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية قد أوصى من بعده ، كما مر بنا ، لمحمد بن علي العباسي ، وأوصى محمد للسفاح ومن ثم كانت إمامته وخلافته هو ومن تلاه من العباسيين صحيحة في نظر الكيسانية أو على الأقل جمهورهم الذي كان يتبع فرقة أبي هاشم . وطبيعي لذلك أن نجد السيد الحميري الكيساني يهال لاتنصار العباسيين حتى ليبادر أبا العباس السفاح حين خطب في الكوفة خطبته المشهورة التي أخذ على إثرها البيعة من الناس قائلاً :

دونكموها يا بني هاشم
فجددوا من عهدا الدارِسا

قد ساسها قبلكم ساسة
لم يتركوا رطباً ولا يابساً

ولست من أن تملكوها إلى
مهبط عيسى فيكم آيساً

وواضح أنه يهنته بالخلافة لاميراً الأمويين الذين ملأوا الأرض ظلماً وجوراً ، ويقول إنها لن تزال فيهم إلى هبوط عيسى بأخرة من الدنيا ، فهو لا يفكر في زوالها عنهم ، بل هو يراها لهم خالصة حتى تفي الأرض ومن عليها ، وتوفى السفاح

(١) المؤتشب : غير الصريح في نسبه .
ذو يزن أحد أمراء اليمن الأقدمين .
ودورعين : من ملوك اليمن ، وذو يزن : أبناء

وخلفه المنصور ، فأغدق عليه من صلاته السنّية وأغدق عليه السيد الحميري من مدحه بمثل قوله :

إن الإله الذى لا شئ يشبهه أعطاكم الملكَ للدنيا وللدّينِ
أعطاكم الله ملكاً لا زوال له حتى يقاد إليكم صاحبُ الصين
وصاحبُ الهند مأخوذاً برُمّته وصاحبُ التُّرك محبوباً على هُونِ

ومدح من بعده ابنه المهدي وظن طه حسين أن السيد الحميري كان في هذا المدح منافقاً ، فهو لا يستحلُّ أن يظهر غير ما يضمّر وأن يمدح بنى العباس بلسانه ويلعنهم في قلبه ، فيظفر بما لم ويتى شرهم ، كان يستحلُّ ذلك كما كانت تستحلُّه عامة الشيعة الذين كانوا يقولون بمذهب التّقية^(١) . ولا تقيّة ولا نفاق ، وإنما شاعر كيسانى يمدح أوصياء عقيدته الكيسانية الذين أدالوا من بنى أمية وسلطانهم الجائر ، وهو بعد ذلك مخلص في كيسانيته إخلاصاً بعيداً حتى ليؤمن بأن محمد ابن الحنفية حيٌّ وأنه راجع يوماً يقول :

حتى متى ؟ وإلى متى ؟ ومتى المدي ؟ يا بن الوصى وأنت حتى تُرزقُ
ويُروى أن شيطان الطاق محمد بن علي بن النعمان أحد متكلمي مذهب الشيعة الإمامية ناظره يوماً في عقيدته الكيسانية يريد أن يجذبه إلى عقيدته ، وغلبه في مناظرته ، غير أن السيد لم يلبث أن أنشأ قصيدة أدارها على أبيات كثيرٍ سلفه الكيسانى في العصر الأموى التى تجرى على هذا النمط :

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم أنبساطه والأوصياء
فسيبسط سببُ إيمانٍ وحلم وسببُ غيبتِه كربلاء
وسببُ لا يذوق الموت حتى يقود الخيلَ يقدّمها اللّواء

والسبب الأول الحسن والثاني الحسين المقتول بكر بلاء. والثالث إمامه محمد بن الحنفية ، وكثيرٌ يقول إنه لا يزال حيّاً لم يذوق الموت وأنه سيعود في جيش لتجيب

وكان السيد الحميرى فى القرن الثانى لا يزال يؤمن مثله برجعته . وزعم بعض الرواة أنه رجع بأخرة من حياته عن كيسانيته واعتنق مذهب الإمامية أصحاب جعفر الصادق ، وأجروا على لسانه :

تَجَعَفَرْتُ بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَأَيَقَنْتُ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
غير أن أبا الفرج ردَّ ذلك قائلاً هو ورواته إنه ظل على كيسانيته حتى الأنفاس
الأخيرة من حياته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه كان أكثر شعراء القرن الثانى تمجيداً
لعلى وبنيه ، فقد أنفق حياته فى نظم أخبارهم ومناقبتهم ، ويقول ابن المعتز إنه لم
يترك فضيلة معروفة لعلى بن أبى طالب إلا نقلها إلى الشعر ، وقد كرَّر طويلاً
ما تدَّعيه الشيعة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة من بعده عند
غدير خمٍّ بين مكة والمدينة ، وفيه يقول :

أَقْسَمُ بِاللَّهِ وَآلِهِ وَالْمَرْءُ عَمَّا قَالَ مَسْئُولُ
إِنْ عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى التَّقَى وَالْبِرُّ مَجْبُولُ
ولعل أطول قصائده الشيعة قصيدته التى تسمى المذهبة ، وقد عُنِيَ بها الشيعة
وشرحوها مراراً ، وهو يستهلها بذكر الأمويين ومسير عائشة رضى الله عنها إلى البصرة
مع طلحة والزبير ، يقول :

أَيْنَ التَّطَرُّفُ بِالْوَلَاءِ وَبِالْهَوَى
أَلَى أُمِيَّةٍ أَمْ إِلَى الشُّعْبِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى الْجَمَلِ الْخَدْبُ الشُّوْقَبُ (١)
تَهْوَى مِنَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ فَنَبَّهَتْ بَعْدَ الْهَدْوِ كَلَابَ أَهْلَ الْحَوَابِ
وهو يشير إلى أن كلاباً نبحت أم المؤمنين عند بئر الحوَابِ ، وكان يفرط فى
سبِّها وسب طلحة والزبير وأبى بكر الصديق وعمر وكثير من الصحابة لا يترعوى
ولا يزدجر ، وكان يستطيع أن يسجِّل لعلى ما شاء من فضائله ، دون أن يزوج
بنفسه فى هذه المضايق الوعرة غير مراعاة لرحلة الصحابة وأمّهات المؤمنين أى حرمة ،
وليش ما قال فى عائشة وصاحبها :

(١) الخدب ؛ البعير الضخم . الشوقب : الطويل .

جاءت مع الأشقيين في هودجٍ تُزجى إلى البصرة أجنادها
كانها في فعلها هرة تريد أن تأكل أولادها

ويروى أن المهدي جلس يوماً يعطى قريشاً صلاتها وهو ولي عهد ، فبدأ
ببني هاشم ثم سائر قريش ، ولم يلبث السيد أن وفد عليه بقصيدة يذم فيها عشرين
عمر وأبي بكر الصديق وينهاه أن يعطى أحداً منهما صلته ، ولبّاه المهدي. وقد
روى أبو الفرج قطعة منها ، وقال إنه حذف باقيها لقبح ما جاء فيها من السب
والشتم .

ولعل في ذلك ما يدل على أن السيد الحميري كان غالباً في تشيعه غلوّاً قبيحاً ،
ولو أنه لم يشب مديحه لعلى وبنيه بهذا السب المنكر لتداول شعره الرواة ، إذ كان
شاعراً بارعاً ، ومن مستحسن شعره فيهم قوله ناظماً ما روى من أن الحسن
والحسين، أتيا الرسول فوجداه ساجداً فركبا على ظهره ، فقال عمر : نعم المطي
مطيكما :

أتى حسناً والحسين الرسولُ وقد برزا ضحوةً يلعبانِ
فضمهما ثم فداهما وكانا لديه بذاك المكانِ
وراحا وتحتهما عاتقاه فنعم المطية والراكبانِ

وكان يكثر من رثاء الحسين رثاء يستترف الدمع ويذيب القلب حشرات ،
ويقال إنه استأذن يوماً على جعفر الصادق فأذن له وأقعد حرّمه خلف ستر ،
فدخل ، فأنشده قوله :

امرؤ على جدّ الحسّ يني فقل لأعظمه الزكية
آ أعظماً لا زلت من وطفاء ساكية روية^(١)
وإذا مررت بقبره فأطلن به وقف المطية
وابك المطهر للمطهر والمطهرة النقية

(١) الوظفاء : السحابة المحملة بالأمطار الغريزة .

كُبُكَاءِ مُعْوَلَةٍ أَنْتَ يَوْمًا لَوَاحِدَهَا الْمَنِيَّةُ

فسالت دموع جعفر على خديه مداراً وارزفع النشيج والصراخ في داره فأمره بالإمساك فأمسك .

وللسيد وراء تشيعه ومدائحه للعباسيين مدائح في بعض ولاية البصرة والأهواز ، وله أهاج في المرجثة وفي عبد الله بن سوار قاضي البصرة الذي ردَّ شهادته لقتله في الصحابة ، وقد شكاه للمنصور فانتصف له منه . ويقال إنه كان يعكف على الخمر ، وليس له فيها أشعار مذكورة . وفي الحق أنه عاش للتشيع بنفق فيه أيامه وقصيده ، وكان يعرف كيف يوازن بين جزائمه وعذوبته ، مع الرنق والحلاوة ، ولعل ذلك ما جعله يتحامى فيه الغريب واللفظ الآبد ، حتى يلدَّ الأسماع والأفئدة وحتى يسير على الشفاه والألسنة . وما زال هذا دأبه حتى توفي سنة ١٧٣ للهجرة .

منصور^(١) النَّمَرِي

هو منصور بن الزبرقان بن سلمة^(٢) من قبيلة النَّمَرِ بن قاسط من أهل الجزيرة وهو تلميذ العتابي المتكلم وراويته وعنه أخذ ومن بحره استقى وتشبه كما يقول أبو الفرج ، ويُقال إنه وصَّفه للفضل بن يحيى بن خالد البرمكي ونوّه به وقرَّظه ، فاستقدمه من الجزيرة ، فأنشده بعض مدائحه فيه ، وحطَّيَ عنده ، ولم يلبث أن وصله بالرشيد ، ووقع من نفسه خير موقع ، إذ مضى يمدحه على طريقة مروان بن أبي حفصة يَنْقِي الإمامة عن أبناء علي بن أبي طالب وبيان أنها حق خالص للعباسيين ، وأنهم لا يزالون يطوِّقون رقابهم بالمن ، وهم يجحدونها ، فيثورون ، وكثيراً ما يتلقون ثوراتهم بالعفو عنهم على نحو ما صنع الرشيد بيحيى بن عبد الله ، فإنه اكتفى بسجنه ، ولم يقتله ، وفي ذلك يقول :

بَنِي حَسَنٍ وَقُلُّ لَبْنِي حُسَيْنٍ عَلَيْكُمْ بِالسَّدَادِ مِنَ الْأُمُورِ

المرتضى (طبعة الحلبي) ٢/٢٧٤ وما بعدها
وزهر الآداب ٦٨/٣ .

(٢) في بعض المصادر منصور بن سلمة بن الزبرقان .

(١) انظر في أخبار النمرى وأشعاره ابن المعتز ص ٢٤٢ وابن قتيبة ٨٣٥ والأغانى (طبعة

دار الكتب) ١٣/١٤٠ وتاريخ بغداد ١٣/٦٥ والبداءة والنهاية لابن كثير ١٠/٢١٢ وأمالى

أَمِيطُوا عَنْكُمْ كَذِبَ الْأَمَانِي وَأَحْلَامًا يَعِدْنَ عِدَاتِ زُورٍ
 مَنْنْتَ عَلَى ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَحْيَى وَكَانَ مِنَ الْحَتُوفِ عَلَى شَفِيرٍ
 يَدُّ لَكَ فِي رِقَابِ بَنِي عَلِيٍّ وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَنْ الصَّغِيرِ
 وَإِنَّكَ حِينَ تُبْلِغُهُمْ أَذَاةً - وَإِنْ ظَلَمُوا - لَمَحْزُونُ الضَّمِيرِ
 فَإِنْ شَكُرُوا فَقَدْ أَنْعَمْتَ فِيهِمْ وَإِلَّا فَالْنَّدَامَةُ لِلْكَفُورِ
 وَإِنْ قَالُوا بَنُو بَنْتٍ فَحَقٌّ وَرُدُّوا مَا يَنَاسِبُ لِلذَّكَورِ
 وَمَا لِبَنِي بَنَاتٍ مِنْ تَرَاثٍ مَعَ الْأَعْمَامِ فِي وَرَقِ الزُّبُورِ

ويقال إنه استخفَّ الرشيد حين أنشده هذه القصيدة ، فإذا هو يأمر الفضل ابن الربيع أن يدخله بيت المال ويدعه يأخذ ما يشاء ، فأخذ سبعا وعشرين بَدْرَةً .
 ومن روائع قصائده فيه قصيدته العينية ، ويقول ابن المعتز إنه أقام القيامة بحديثه في مطلعها عن الشباب إذ يقول :

مَا تَنْقُضِي حَسْرَةً مِنِّي وَلَا جَزَعُ إِذَا ذَكَرْتُ شَبَابًا لَيْسَ يُرْتَجَعُ
 بَانَ الشَّبَابُ وَفَاتَتْنِي بِلَذَّتِهِ صُرُوفُ دَهْرٍ وَأَيَّامٍ لَهَا خَدَعُ
 مَا كُنْتُ أَوفَى شَبَابِي كُنْهَ غِرَّتِهِ حَتَّى انْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ
 إِنْ كُنْتُ لَمْ تَطْعَمِي تُكَلِّ الشَّبَابَ وَلَمْ تَشْجِيْ بِغَصْتِهِ فَالْعَذْرُ لَا يَقَعُ
 وَيُقَالُ إِنَّ الرَّشِيدَ حِينَ سَمِعَ مِنْ هَذَا الْمُطَّلَعِ قَالَ لَهُ : أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ ، لَا يَتَهَنَأُ
 أَحَدٌ بِعَيْشٍ حَتَّى يَخْطُرَ فِي رِذَاءِ الشَّبَابِ ، وَخَرَجَ إِلَى الْمَدِيحِ مَلُوحًا فِي وَجْهِ الْعُلُوِّينَ
 بِمَثَلِ قَوْلِهِ :

يَا ابْنَ الْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ وَيَا ابْنَ نِ الْأَوْصِيَاءِ أَقْرَ النَّاسِ أَوْ دَفَعُوا
 وَمَا لَآلِ عَلِيٍّ فِي إِمَارَتِكُمْ حَقٌّ وَمَا لَهُمْ فِي إِرْثِكُمْ طَمَعُ
 الْعَمِّ أَوَّلَى مِنْ ابْنِ الْعَمِّ فَاسْتَمِعُوا قَوْلَ النَّصِيحِ فَإِنَّ الْحَقَّ يُسْتَمْعُ

وهو يشير إلى أن العباس عمَّ الرسول صلى الله عليه وسلم يحجب علي بن أبي طالب ابن أخيه كما تقضى بذلك فريضة الإرث في الإسلام . وكان لا يزال يحيط

هرون بهالة من القدسية حتى ليرفعه على آل الرسول جميعاً ، وحتى ليجعل من يشتمل عليه سخطه لا ينتفع بدينه ولا بصلواته ، يقول في القصيدة السالفة :

أى امرئ بات من هرون فى سَخَطٍ فليس بالصلوات الخمس ينتفع
ويقول فى قصيدة ثانية :

يا خير ماضٍ وخير باقٍ بعد النبیین فى الأنام
ومن قصيدة له ثالثة :

آل الرسول خيارُ الناس كلهم وخير آل رسول الله هرون

ولم يكن منصور فى كل هذه الأشعار مخلصاً ، بل كان يظهر غير ما يضمّر ، إذ كان شيعياً إمامياً ، وكأنه كان يتخذ تلك الأشعار متجراً ، ليعيش آمناً ، ولينال ما يريد من طيبات الحياة ومتاعها معتمداً على ما يؤمن به الإمامية من التقية . وقد زعم المرتضى فى أماليه أنه « كان ينافق الرشيد ويذكر هرون فى شعره ويُريه أنه من وجوه شيعته وباطنه ومراده بذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام لقول النبي ، صلى الله عليه وآله ، له : أنت منى بمنزلة هرون من موسى » وفراه يكثر من مدح آل الرسول والتنديد بالأمويين والعباسيين ، ومن خير ما يصور ذلك لامبته وفيها يقول :

شاء من الناس راتعُ هاملٌ	يعللون النفوس بالباطل ^(١)
تقتلُ ذريةَ النبيّ ويرُ	جون جنانَ الخلود للقاتلِ
وبلك يا قاتلَ الحسين لقد	بوتَ بحملٍ يتوُّ بالحاملِ
ما الشكُّ عندى فى كفر قاتله	لكننى قد أشك فى الخاذلِ
وعاذلى أننى أحبُّ بنى	أحمد فالترُّبُ فى فم العاذلِ
قد دنتُ ما دينكم عليه فما	وصلتُ من دينكم إلى طائلِ
دينكمُ جفوةُ النبيّ وما الـ	جافى لآل النبيّ كالواصلِ

وقد مضى في القصيدة ينكر موقف أبي بكر وعمر من دعوى فاطمة إرثاً فلك،
زاعماً أنهما ظلماهما ، ومطالباً بمن يثار لها من ظلمتها ، يقول :

مظلومةٌ والنبيُّ والدها تدير أرجاء مُقْلَةٍ حافلٍ
ألا مساعيرُ يغضبون لها بسَلَّةِ البيضِ والقَنَا الذابل^(١)

وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين أستاذه العتابي ، فأسخط الرشيد عليه ،
غير أنه عاد فعفا عنه وأوسع له في مجالسه ، وانتهز العتابي منه يوماً فرصة ، فذكر
له حقيقة النمرى وأنه شيعي غال في تشيعه ، وأنشده اللامية الآتفة وأشعاراً أخرى
من مثل قوله :

آلُ الرسولِ ومن يحبُّهم يتطامنون مخافةَ القتلِ
أمنَ النصارى واليهودِ وهم من أمةِ التوحيدِ في أزل^(٢)

فاستشاط الرشيد غضباً ، وبعث إلى الرقة ، وكان مقيماً بها ، من يقتله ،
غير أن رسوله وجد جنازته تستقبله ، فانكفاً راجعاً إلى الرشيد ، فأعلمه خبره .

ومن ملحمهم وأشاد بهم يزيد بن مَزَيْد الشيباني ، وكان من مُدَّاح الفضل
ابن يحيى البرمكي كما مرَّ بنا ، وقد بكاه حين نكبه الرشيد هو وأباه وأخاه جعفرأ
لسنة ١٨٧ ، وفي ذلك ما يدل على أن وفاته كانت بعد نكبتهم . وواضح مما أنشدناه
من أشعاره أنه كان يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وانتقاء معانيه ، وكان
ما يزال يجهد فكره وخياله حتى يأتي بالطرائف النادرة من مثل قوله :

ولقد تبيت أناملِي يَجْنِين رُمانَ النُّحُورِ

ومن المحقق أنه لم يكن يتعلق بلهو ولا مجون ولا خمر شأن كثير من معاصريه ،
وأنه كان يكتفى من ملامى عصره بالسماع إلى الغناء واجداً فيه ما يبتغى من لذة ومتاع .

(٢) أزل : ضيق وشدة .

(١) مساعير : جمع مساعر ، وهو وقد الحرب
البيض : السيوف . الذابل : الرقيق الحاد .

دعبل^(١)

هو دعبل بن علي بن رزين ، وقيل دعبل لقبه ، واختلفوا في اسمه هل هو محمد أو الحسن أو عبد الرحمن ، وهو من خزاعة صليبية لاولاء^(٢) ، ومن بيت شعر ، فقد كان أبوه شاعراً متوسطاً ، وكذلك عمه عبد الله وأخواه علي ورزين وولده الحسين وعلي وابن عمه محمد بن عبد الله المشهور باسم أبي الشيص . وقد وُلد دعبل بالكوفة سنة ١٤٨ للهجرة ويظهر أنه اختلف مبكراً إلى حلقات الدرس . على أننا نجده في شبابه يصحب الشُّطَّارَ ويشترك معهم في مغامراتهم ، مما يؤكد أنه كان فيه نزعة متأصلة إلى الشر وارتكاب الجنايات ، وقد دفعته فيما بعد إلى أن يصبح أكبر هجاء في عصره ، وأن يعمَّ بهجائه الخلفاء وكل من قدَّموا له صنيعاً . ويظهر أن مواهبه الشعرية تفتحت مبكرة ، فضى يختلط بالشعراء ، وانعقدت بينه وبين مواطنه مسلم بن الوليد مودة كان لها أثر عميق في شعره إذ عني فيه على شاكلة مسلم بالبديع وبالجزالة ونصاعة القول ، ويرمز الرواة لذلك بأن مسلماً صنع قوله :

مستعبرٌ يبكي على دِمْنَةٍ ورأسه يضحك فيه المَشِيبُ

فما زال دعبل يدير البيت في نفسه ، محاولاً أن يبني على معناه قطعة في الغزل حتى صنع قطعته التي فتحت له باب الشهرة على مصاريعه ، إذ قال في بكاء الشباب ووقوعه في شباك الحوى :

أَيْنَ الشَّبَابُ ؟ وَأَيَّةَ سَلَكَا ؟ لا ، أَيْنَ يُطَلَّبُ ؟ ضَلَّ بَلْ هَلَكَا

الزاهرة ٣٢٢/٢ . وجمع شعره ونشره كل من محمد يوسف نجم ببسبروت وعبد الصاحب الدجيل في النجف بالعراق وعبد الكريم الأشتر في دمشق .

(٢) من زعموا أنه خزاعي ولاء عبد الله بن طاهر (انظر ترجمته في الأغاني) . وراجع ابن خلكان ولسان الميزان وابن كثير في البداية والنهاية ٣٤٨/١٠ .

(١) انظر في دعبل وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٤ وابن قتيبة ص ٨٢٥ والأغاني (طبعة الساسي) ٢٩/١٨ وتاريخ بغداد ٣٨٢/٨ والمؤشع ص ٢٩٩ وابن خلكان ١٧٨/١ ومعجم الأدباء ٩٩/١١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٢٧/٥ وشذرات الذهب ١١١/٢ ومرفعة أخبار الرجال للكمي ٣١٣ وأخبار الرجال للنجاشي ١١٦ ومرآة الجنان لليافعي ١٤٥/٢ ولسان الميزان ٣٠/٢ والنجوم

لا تعجبي يا سَلَمَ من رَجُل ضحك المشيبُ برأسه فبكي
يا ليت شعري كيف نَوَمكما يا صاحبي إذا دى سُفِكَا
لا تأخذنا بظلامتي أحداً قلبي وطرفي في دى اشتركا
وغنى بالآيات بعض المغنين بين يدى الرشيد ، فطرب ، وسأل عن ناظمها ،
ف قيل له دعبل ، فأمر بإحضاره وأرسل إليه بعشرة آلاف درهم وخلعة من الثياب ،
وسار دعبل إليه ، وأنشده بعض شعره فاستحسنه وأجرى عليه رزقاً سنياً ،
ولم يلبث أن ارتحل إلى خراسان وواليتها العباس بن جعفر الخزاعي (١٧٣ -
١٧٥ هـ) فأكرمه وولاه على سَمِنْجَان إحدى بلاد طَبَرِسْتَان. وعاد إلى بغداد
ونزل الكرخ حيث اللهو والقصف ، منشداً مثل قوله :

إنما العيشُ خلالُ خمسةُ حَبْداً تلك خلا لا حَبْداً
خدمةُ الضيف وكأْسُ لذَّةٍ ونديمٌ وفتاةٌ وغنا
وتؤثّرُ له في الخمر بعض الأشعار ، وله بجانبها غزليات قليلة ، وهو يُعْنَى
فيها ببعض فنون البديع على شاكلة قوله مطابقاً :

دموعُ عيني لها انبساطٌ ونومٌ عيني به انقباضُ
وليس في ديوانه مديح للرشيد ولا للبرامكة مما يدل على أنه ظل بعيداً عن القصر
وأهله ووزرائه ، وحقاً تُروى له بعض أبيات في البرامكة حين نكبهم الرشيد ،
ولكنها لا تدخل في باب الرثاء إنما تدخل في باب العظة والاعتبار . وقد ظل لا يلم
بالقصر في عصر الأمين ، ونراه يخرج إلى الحج في سنة ١٩٨ للهجرة ، ولا يعود
إلى بغداد ، بل يرتحل إلى مصر وواليتها المطلب بن عبد الله الخزاعي (١٩٨ -
٢٠٠ هـ) وفيه يقول :

زمني بِمُطَلِّبٍ سُقِيتَ زماناً ما كنت إلا روضةً وجناناً
كلُّ النَّدى إلا نذاك تكلفٌ لم أرض غيرك كائناً من كانا
أضلّحتني بالبئر بل أفسدتنى وتركتني أتسخط الإحسانا
ولم يكتف المطلب بما أغدق عليه من البئر والنوال ، فقد ولاه على أسوان ،

وسرعان ما شعر في هذا البلد البعيد عن بغداد بوحشة شديدة، وعبث حنينه إليها بقلبه ، فإذا هو ينظم أبياته المشهورة في الحنين إلى الوطن وقد أنشدناها في الفصل الرابع .

ولم تلبث الأمور أن فسدت بينه وبين المطلب ، فإذا هو يهجو هجاء مقذعاً ، كافرأ يده عنده ، وكان قد ولى الموصل قبل ولايته على مصر ، فقال في بعض هجائه له :

تعلق مصرُ بك المخزياتِ وتبصق في وجهك الموصِلُ
وأخذ يكثر من هجائه ، مولياً وجهه نحو بغداد ، وتبعه المطلب معزولاً عن مصر ، وتكَلَّفَ له فكفٌ لسانه عنه .

وأتاه نبأ عهد المأمون لعلی الرضا بالخلافة من بعده لسنة ٢٠١ وكان المأمون لا يزال بخراسان فارتحل إليهما ولم يكدهم يمثل بين أيديهما حتى أنشد ثانيته المشهورة .

مدارُسُ آياتٍ خلَّتْ من تلاوةٍ ومنزلٍ وخيٍ مقفَرُ العرصاتِ
وقد صور فيها ما نزل بالعلويين من كوارث في « كربلاء » و « فح » نائحاً على قتلاهم وخاصة الحسين نواحاً مؤثراً وبفيض في حرمانهم من الاستمتاع بحقهم في الخلافة آملاً في خروج مهديهم المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً ، وفيها يقول :

ملاَمَك في آلِ النبيِّ فلنهم	أَحِبَّائِي ما عاشوا وأهلُ ثقاتي
فياربُّ زدني من يقيني بصيرةً	وزدِ حُبَّهُم ياربُّ في حسناتي
ألم تر أُنًى من ثلاثين حِجَّةً	أروح وأغدو دائِمَ الحسرات
أرى فَيَثُومُ في غيرهم متقسِّماً	وأيدِيَهُم من فَيَثُوم صَفِرَاتٍ ^(١)
ولولا الذي أرجوه في اليوم أو غدٍ	تَقَطَّعَ قلبي لإثـرم حَسراتِ
خروجُ إمامٍ لا محالةً خارجٍ	يقوم على اسم الله والبركاتِ

عل شئون المال . صفرات : خالية .

(١) القى : الحراج وغنائم الحرب ، يريد أن العلويين سلبوا حقهم في سياسة الدولة والقيام

يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَيَجْزِي عَلَى النِّعْمَاءِ وَالنَّقَمَاتِ

وأعجب بالقصيدة المأمون وعلى الرضا ، فأعطاه أولهما عشرة آلاف درهم من دراهم كان قد ضربها باسم الرضا ، أما الرضا فخلع عليه حلّة من ثيابه ، ويقال إن أعل مدينة « قُسم » الشيعة اشتروا منه الحلقة بثلاثين ألف درهم ، كما اشتروا الدراهم المضروبة باسم الرضا ، كل درهم بعشرة . ويقول ابن المعتز إن أهل هذه المدينة قسّطوا له كل سنة خمسين ألف درهم . وتطورت الظروف سريعاً فتوفى على الرضا بطوس سنة ٢٠٣ وهو في طريقه مع المأمون إلى بغداد ، ودفن بها ، بجانب قبر هرون الرشيد ، ولم يكد النعي يبلغ دعبلا ، حتى قال :

قبران في طوس خير الناس كلّهم . وقبرٌ شرٌّ هذا من العِبرِ
ما ينفع الرُّجس من قُرب الزكيِّ ولا على الزكيِّ بقرب الرُّجس من ضرر
ولم يكن الرشيد رجساً كما يقول ، فقد كان طهراً ، إذ كان يحج سنة
ويغزو سنة على نحو ما هو معروف في تاريخه ، وقد أنزل بالروم هزائم ساحقة ،^١
وليس ذلك فحسب ، فإن له يداً على دعبل إذ استقدمه من موطنه وفرض له راتباً
سنياً كما مرّ بنا ، ولكن كأنما ينطوى دعبل على جحود غريب ، حتى ليطعن كل
من قدم له صنيعاً . وله شعر شيعي كثير ، وقد أكثر فيه من الحديث عن فضائل
على بن أبي طالب ، كما أكثر فيه من بكاء الحسين وراثته بمثل قوله :

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيهِ بِالرُّجَالِ عَلَى قَنَاةٍ يُرْفَعُ
وَالْمُسْلِمُونَ بِمَنْظَرِهِ وَبِمَسْمَعِهِ لَا جَاذِعٌ مِنْ ذَا وَلَا مَتَخَشِعُ

وهو يبدو في شعره الشيعي إمامياً وقد تشكك أبو العلاء في تشيعه ، فقال إنه لم يكن صادقاً فيه وإنه إنما كان يريد التكبس به^(١) ، ولعله محق في تشككه ، لأن مثل دعبل المنطوي على كره الناس لا يمكن أن يخلص لآل البيت ، إلا أن يكون وراء ذلك باعث يدفعه لأن يقول ما لا يعتقد ، وكأن أموال « قم » هي التي دفعته لما كان ينظم من أشعار شيعية ، كما دفعته إلى هجاء الرشيد وغيره من الخلفاء ،

(١) رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٣٤ .

ويقال إن المأمون كان إذا سمع هجاءه فيه أو في بعض وزرائه ضحك ، وكان ذلك يدفعه إلى التماذى حتى ليقول له مهدداً وكأنه يهدده بلسان أهل قم :

إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
وهو يشير إلى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وقاتل أخيه الأمين من موالى
قبيلته خزاعة . على أن هذا الولاء لطاهر لم ينفعه عنده ، فقد رماه بسهم لاذع من
سهام هجائه التي كان ما يننى يرسلها على جميع من حوله ، وكان طاهر أعور ،
ويلقب بذي اليمينين ، فقال :

وذى يمينين وعَيْنٍ واحدة نقصان عينٍ ويمين زائده
ولى وجهه نحو صديقه القديم مسلم بن الوليد ، وكان الحسن بن سهل ولاه
بريد جرجان ، فجفاه ولم يلقه ، وأثر ذلك في نفس دعبل ، غير أنه لم يعمد إلى
هجائه ، خوفاً من لسانه ، وقد مر بنا كيف كان مسلم يقذع في هجائه وكيف
كان يريشه سهاماً مصمية ، وكأنما خشى دعبل مرة هجائه إن هو عرض له
بالهجاء ، فعاتبه عتاباً رقيقاً بأبياته المعروفة :

أبا مَخْلَدٍ كُنَّا عَقِيدِي مَوْدَةٍ هوانا وقلباننا جميعاً معاً معا
عَشَشْتَ الْهَوَى حَتَّى تَدَاعَتْ أَصُولُهُ بِنَا وابتذلت الوصل حتى تقطعاً
فَلَا تَعْدُلْنِي لَيْسَ لِي فِيكَ مَطْمَعٌ تَخَرَّقَتْ حَتَّى لَمْ أَجِدْ لَكَ مَرْقَعاً
فَهَبَكَ يَمِينِي اسْتَأْكَلْتُ فَقَطَعْتُهَا وَجَشَّمْتُ قَلْبِي صَبْرَةً فَتَشَجَّعَا

ويقال إنه قصد عبد الله بن طاهر في ولايته نخراسان (٢١٤ - ٢٣٠ هـ)
فكان يصله في الشهر بمائة وخمسين ألف درهم ، ومع ذلك لم يسلم من لسانه .
ولعله لم يتعرض لخليفة بالهجاء كما تعرض للمعتصم ، فقد صَبَّ عليه شَوْاطِأً ملتهباً
من أهاجيه كقوله :

ملوك بني العباس في الكُتُبِ سَبْعَةٌ ولم تأتنا عن ثامنٍ لهم الكُتُبُ
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة كرامٌ إذا عُدُّوا وثامنهم كَلْبُ

وظل يرميه بسهام هجائه حتى توفي ، وخلفه ابنه الواثق ، فأسرع يطلق لسانه فيه ، جامعاً في هجائه بينه وبين أبيه بمثل قوله :

خليفة مات لم يحزن له أحدٌ وآخر قام لم يفرح به أحدٌ
وروى الرواة له في المتوكل بيتاً مقذعاً واحداً ، وفيه يهجوهُ باستيلاء مواليه
من الجند الأتراك على الحكم حتى أصبح كأنه لعبة في أيديهم ، بل أصبح لهم
عبداً ، يقول :

ولستُ بقاتلٍ قذعاً ولكن لأمرٍ ما تعبدك العبيدُ

ولم يقف عند هجاء الأفراد ، فقد استعاد هجاء العصبيات القديم ، وكانت
قصيدة الكميت الشيعي في هجاء أصوله القحطانيين تؤذيه فعمد إلى نقضها بقصيدة
نونية أودعها مثالب القبائل العدنانية . ولو أنه كان مخلصاً في تشيعه حقاً لأعلّى
صلة التشيع بينه وبين الكميت على العصبية القبلية ، وخاصة أن الكميت كان قد
مات منذ زمن بعيد . وأثار ذلك أبو سعد الخزومي فاندلعت بينهما معركة هجاء
عنيفة . والحق أن الهجاء كان طبعاً ركّب في نفسه حتى لراه يهجو بجانب كل من
أسدى إليه صنيعاً زوجته وأخاه رزينا وأهل مدينة «قم» بل الناس جميعاً ، يقول :

ما أكثر الناس ، لا ، بل ما أقلهمُ والله يعلم أني لم أقل فنسداً
إني لأفتحُ عيني حين أفتحها على كثيرٍ ولكن لا أرى أحداً

ومن هجاهم فأقذع في هجائه مالك بن طوق التغلبي ممدوح أبي تمام ، ويقال
إنه وجد عليه موجدة شديدة جعلته يرسل له من اغتاله في بعض قرى الأهواز .
واختلف الرواة في سنة وفاته ، فمنهم من جعلها في عهد المعتصم ومنهم من تأخر بها
إلى سنة ٢٤٦ للهجرة . وأكبر الظن أنه لم يتأخر إلى هذا التاريخ وأنه توفي لأوائل
عهد المتوكل عقب هدمه لقبور الحسين والعلويين سنة ٢٣٥ .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعريته ، فقد كان شديد العناية بصياغته
وكان لا يزال يغوص على المعاني الدقيقة ، ومن حين إلى حين يوشى شعره بزخرف
البديع ، وله أبيات كثيرة دارت على الألسنة من مثل قوله :

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَشْهَلُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْتِيهِمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِينِ
وهو أحد مَنْ بَرَعُوا لَعَصْرِهِ فِي عِلْمِ الشَّعْرِ وَنَقْدِهِ ، مِمَّا جَعَلَهُ يُؤَلِّفُ فِي أَنْخَبَارِ
الشَّعْرَاءِ كِتَاباً نَفِيساً طَالَمَا اسْتَقْبَلَتْهُ مِنْهُ الْقَدَمَاءُ فِي كِتَابَاتِهِمْ .

ديك (١) الجزن

هو عبد السلام بن رَغَبَان ، اشتهر بلقبه ديك الجزن ، وهو من سلالة شخص
يسمى تيمًا من أهل مُؤَنَّة بالشام أنعم الله عليه بالإسلام على يد مولاه حبيب بن
مسلمة الفيهري صاحب معاوية . ويقول الجهمشياري إن جَدَّ ديك الجزن حبيب
ابن عبد الله كان يتقلد ديوان الإعطاء لأبي جعفر المنصور . وولّد ديك الجزن
لأبيه بمحص سنة ١٦١ للهجرة ، ويقول أبو الفرج « إنه لم يَبْرَحْ نَوَاحِيَ الشَّامِ
وَلَا وَقَدَّ إِلَى الْعِرَاقِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مُتَجَمِّعًا بِشَعْرِهِ وَلَا مُتَصَدِّيًا لِأَحَدٍ ، وَكَانَ يَنْشِيعُ
نَشِيعًا حَسَنًا ، وَلَهُ مَرَاثُ كَثِيرَةٌ فِي الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ مِنْهَا قَصِيدَتُهُ :

يَا عَيْنُ لَا لِلْغَضَا وَلَا الْكُشْبِ بُكََا الرِّزَايَا سِوَى بُكََا الطَّرَبِ
وهي مشهورة عند الخاص والعام ويُنَاحَ بها ، وله عدة أشعار في هذا المعنى .
ويقول أبو الفرج أيضاً إنه كان يكثر المقام عند أحمد بن علي الهاشمي وأخيه
جعفر في سَلَمِيَّة (من أعمال حمص) وكان يمدحهما كثيراً ، وقد بَرَّحَ به
الحزن حين توفي أحمد وأبنته في قصيدة طويلة معزياً بها أخاه جعفرًا ، وقيل بل معزياً
له عن زوجته ، وهي تصور غلوه في التشيع إذ نراه يتمثله وكأنه إمام كبير من أئمة
الشيعة ، ومن ثمَّ يخلع عليه بعض صفاتهم القُدْسِيَّة في رأى شيعتهم من مثل قوله :

نَحْنُ نَعَزِيكَ وَمِنْكَ الْهُدَى مُسْتَخَرَجٌ وَالنُّورُ مُسْتَقْبَلُ
نَقُولُ بِالْعَقْلِ وَأَنْتَ الَّذِي نَأْوِي إِلَيْهِ وَبِهِ نَعْقِلُ

أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري بدار الثقافة بيروت ،
وانظر أيضاً ديوانه جمع الملوحي والدرويش
طبع حمص وما نقلاه في مقدسته عن كتابي
الكشكول للعامل وتزيين الأسواق للأطباكي .

(١) انظر في ترجمة ديك الجزن وأخبار
وأشعاره الأغاني (طبعة دار الكتب) ٥١/١٤
وفيافي الأعيان لابن خلكان والوزراء والكتاب
للجهمشياري ص ١٠٢ وراجع ديوانه نشر

وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ النَّشَأُ يَوْمًا إِذَا نَسَّالَ أَوْ نُسَّالُ^(١)
نَحْنُ فِدَاءُ لَكَ مِنْ أُمَّةٍ وَالْأَرْضُ وَالْآخِرُ وَالْأَوَّلُ

فهو يجعله مصدر المهدى والنور ومعقل العقل وعلام الغيوب ، وكأنه يرى فيه ما يراه الشيعة الغالون في أئمتهم . ولم يلبث جعفر أن توفي فبكاه بكاء حاراً . وكان يضم^١ إلى هذا التشيع شعوية شديدة على العرب وعكوفاً على اللذات وشكوكاً في الدين ، حتى ليبدو أحياناً شاككاً في البعث والنشور . ولم يبق من شعوبيته إلا آثار قليلة ، كقوله في شعر له يخاطب به بعض أجواد العرب :

إِنْ كَانَ عُرْفُكَ مَذْخُورًا لِذِي نَسَبٍ فَاضْمُمْ يَدِيكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِالْعَرَبِيِّ^(٢)
إِنِّي أَمْرٌ بِأَزَلٍ فِي ذِرْوَتَي شَرَفٍ لَقَيْصِرٍ وَلِكُسْرَى مَحْتَدَى وَأَبَى^(٣)

أما لهوه وعكوفه على الخمر فواضحان في أشعاره ، ويقال إنه كان له ابن عم فيه تقوى ، فكان لا يزال ينهاه ، وهو لا يرعوى ولا يزدجر ، ومن طريف نعتة للخمر وساقيتها قوله :

تَسْقِيكَ كَأْسَ مُدَامَةٍ مِنْ كَفِّهَا وَرَدِيَّةٍ وَمُدَامَةٍ مِنْ ثَغْرِهَا

وقد ضاع أكثر شعره ، ولم يبق منه إلا أطراف قليلة ، وإلا ما دار حول قصته مع زوجته « ورد » وكانت نصرانية من أهل بلدته ، فشغف بها حباً ، وأكثر فيها من غزله ، وبادلته حباً بحب ، وأسلمت واقرنت به ، وعاشا مدة هائنين ، وهو سادر في مجونه وغوايته . وكان ذلك — فيما يقال — يؤذى ابن عمه ، فرأى أن يعكر عليه صفو حياته ، وسوات له نفسه أن يرصد له في إحدى أوباته من سَلَمِيَّةَ مَنْ يرمى عنده زوجته بالسوء ، ولا ندري كيف صدق ذلك ، وقد مضى قاله السوء يزيدون في وهمه ، حتى سارع يضربها بسيفه ، فقصت نَحْبَهَا ، ثم عرف براءتها فعاش يبكيها ويندبها ، نَدَبَ قَلْبٍ مَزَقَهُ الْأَلَمُ وَالنَّدَمُ ، بمثل قوله :
رَوَيْتُ مِنْ دَمِهَا الثَّرَى وَلَطَامَا رَوَى الْهَوَى شَفَقَى مِنْ شَفَتَيْهَا

(١) البازل : الكامل في التجربة . المحتد : الأصل .

(١) النشأ : الخبر .
(٢) العرف : المعروف .

وقوله :

كُنْتُ زَيْنَ الْأَحْيَاءِ إِذْ كُنْتُ فِيهِمْ ثُمَّ قَدْ صِرْتُ زَيْنَ أَهْلِ الْقُبُورِ
وقوله :

قَمَرٌ أَنَا اسْتُخْرِجْتَهُ مِنْ دَجْنِهِ لِبَلِيَّتِي وَجَلَوْتُهُ مِنْ خِدْرِهِ
عَهْدِي بِهِ مَيْتًا كَأَحْسَنِ نَائِمٍ وَالْعُزْنُ يَسْفَحُ عِبْرَتِي فِي نَعْرِهِ
وكان يتعلّق غلاماً وينظم فيه بعض أشعاره ، فجمعت الكتب المتأخرة بين
الزوجة والغلام ، وجعلته مصدر شكّه واتهامه ، ثم توسعت في القصة ، فجعلته
يراهما فجأة في بعض الأيام متعانقين تحت إزار واحد ، فقتلها وأحرق جسديهما
وصنع من رماد كل منهما كوزاً يحتسى به الخمر ، وتزعم القصة أنه كان إذا أخذ
في الشرب تناول هذا تارة وذاك تارة ثانية ، مقبلاً لهما ، ثم أخذ يصب الخمر وهو
يصب دموعه منشدّاً مراثيه فيهما وقلبه يتقطع حزناً وكمداً .

وواضح مما أنشدناه له أنه كان يُعْنَى بشعره ويروى فيه ، ويقول أبو الفرج
إنه يذهب مذهب الشاميين في أشعاره ، وكأنه يريد أن يقرنه بأبي تمام والبحرّى
وَمَنْ كَانُوا يُعْنُونَ فِي شِعْرِهِم بِالْبَدِيع . وليس من شك في أن أروع أشعاره
ما نظمه في بكاء صاحبتة ، متفجعاً متحسراً نادماً كما لم يندم أحد ، وما زال
يردّد ذلك حتى توفى سنة ٢٣٥ للهجرة .

٣

شعراء البرامكة

مرّ بنا في الفصل الأول أن البرامكة ينحدرون من أسرة كانت تضطلع بسدانة
معبد النوبهار البوذى في بلخ ، وقد تألق اسم خالد بن برمك في قيادته لبعض الجيوش
الخراسانية التي قوّضت حكم بني أمية . ونرى السفاح يتخذّه وزيراً له وقيمه على
بعض الدواوين ، كما نرى المنصور وابنه المهدي يقربانه منهما ويولّيانه الولايات
والأعمال الجليلة . وما زال عندهما في حظوة حتى توفى سنة ١٦٦ للهجرة . وعرف

المنصور فضل ابنه يحيى ، فولاه ولايات مختلفة فى إيران وأذربيجان . ويظهر أن علاقة وثيقة مبكرة انعقدت بين زوجة يحيى والخيزران زوجة المهدي ، فإن زوجة يحيى حين ولدت ابنها الفضل فى ذى الحجة لسنة ١٤٧ وولدت الخيزران ابنها الرشيد فى شهر المحرم التالى أَرْضَعَتْ كُلَّ مِنْهُمَا ابن صاحبتهما ، فكانا أخوين فى الرضاع . ولا تكاد توافى السنة الثالثة من خلافة المهدي أى سنة ١٦١ حتى يتخذ يحيى مؤدِّباً لابنه الرشيد ، ويصبح منذ سنة ١٦٣ القيم على ديوان رسائله ، فكان يلزمه ويدبر شؤنه ، حتى إذا توفى المهدي وخلفه الهادى وفكر فى تنحية الرشيد عن ولاية العهد عرف كيف يصرفه عن عزمه ، فعظمت منزلته عند صاحبه ، وتطورت الأمور سريعاً ، فتوفى الهادى وخلفه الرشيد لسنة ١٧٠ فاتخذ يحيى وزيراً له ، وأطلق يده فى جميع شئون الدولة وسلَّمه خاتم الخلافة ، فأصبح كأنه الحاكم الحقيقى ، وقد أقام ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى بلاد الترك وأقام ابنه جعفرأ على المغرب كله من الأنبار إلى أقاصى إفريقيا .

وكان يحيى عاقلاً حسيفاً يحسن السياسة وتدير الحكم والنهوض بشئون الثقافة ، ففضى كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضوع يَصْنَعُ نظم الدولة السياسية والإدارية بالصيغة الساسانية كما مضى يُعْنَى بشئون الطب والترجمة ، فأنشأ المارستان واستدعى له غير طبيب من الهند وغيرهم ، وشجع على الترجمة لكنوز الثقافات الهندية واليونانية والفارسية ، وبعث نهضة فكرية واسعة . وفتح أبوابه للشعراء والمغنين وأسبغ عليهم هو وابناه الفضل وجعفر العطايا الجزيلة ، حتى لُتْرَوَى فى ذلك روايات تشبه الأقاصيص ، وهى تدل على أنهم كانوا بحوراً فياضة وغيوثاً منهلة . جود سيال توارثوه عن أبيهم خالد ممدوح بشار ، وهو جود جعل صلاتهم لا تنقطع عن الشعراء ، فإذا كثيرون منهم ينقطعون لهم ، وإذا هم يشركون الرشيد فى جميع شعرائه ، وقلما وجد شاعر لعصرهم فى بغداد إلا ودبج فيهم بعض مدائحه ، ومرت بنا أطراف من ذلك عند سلم الخاسر مروان بن أبى حفصة ومسلم بن الوليد ، ومن كان يختص بهم نُصِيبُ الأصغر ، وله فى يحيى كلمة طارت أبياتها فى الآفاق من مثل قوله (١) :

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافعُ وأرى البرامك لا تضرُّ ، وتنفعُ

(١) أغاني (سالى) ٣٤/٢٠ والجهمياري
ص ٢٠٣ .

وكان ابن مناذر كثير المديح ليحيى ، وله فيه قصيدة كانت فاكهة أهل
الأدب لجودة ألفاظها ومعانيها ، وفيها يقول مشيداً به وبابنيه الفضل وجعفر (١) :

أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ فيأطيب أخبارٍ ويأحسنَ منظرٍ
لهم رحلةٌ في كل عامٍ إلى العدا وأخرى إلى البيت العتيقِ المُستَرِ
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرفتُ ببحي وبالفصل بن يحيى وجعفرِ
فما خلقتُ إلا لجودِ أكفهم وأقدامهم إلا لأعوادٍ منبرِ
إذا رام يحيى الأمرَ ذلتُ صعباً وناهيك من داعٍ له ومدبرِ
ومن لهج بمديح يحيى وابنيه أبو قابوس الحيرى النصراني ، وفي يحيى يقول
مصوراً بيرةً وجوده ووفاءه بوعوده وعهوده (٢) :

رأيت يحيى أتمَّ الله نعمتهُ عليه يأتى الذى لم يأتَه أحدُ
ينسى الذى كان من معروفه أبداً إلى الرجال ولا ينسى الذى يعدُّ
وكان الأصمعى يألف جعفر بن يحيى ويخصُّ به ، وله فيه مدائح كثيرة
وتقريض وتفضيل ، ومن طريف ما له فيه (٣) :

إذا قيلَ : مَنْ للندى والعلا من الناس قيل الفتى جعفرُ
ومسا إن مدحتُ فتى قبله ولكن بنو برمكٍ جَوهرُ
وفيه تقول عنان جارية الناطقى (٤) :

بديتهُ وفكرتهُ سواء إذا التبست على الناس الأمورُ
وكان أخوه الفضل أكثر منه جوداً وأندى راحة ، فتكاثر الشعراء على بابه ،
وتكاثر مدائحهم فيه ، وصوّر ذلك بعض الشعراء فقال (٥) :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء

(٤) الجهشيارى ص ٢٠٤

(٥) الجهشيارى ص ١٩٥

(١) ابن المعتز ص ١٢٥ .

(٢) الجهشيارى ص ١٧٩ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٠٦ .

عَلَّمَ الْمُفَحِّمِينَ أَنْ يَنْظُمُوا الْأَثْمَ عَارَ مَنْأَ وَالْبَاخِلِينَ السَّخَاءَ
وَمِنْ أَكْثَرِ مَنْ مَدِيحَهُ نُصِيبُ الْأَصْغَرِ فِيهِ يَقُولُ وَاصْفَاءَ جُودِهِ الْغَدَقُ (١):

جَادَ الرَّبِيعُ الَّذِي كُنَّا نُوْمِلُهُ فَكَلَّنَا بِرَبِيعِ الْفَضْلِ مُرْتَبِعُ
وَفِيهِ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ (٢):

مَدَحَ الْفَضْلُ نَفْسَهُ بِالْفِعَالِ فَعَلَا عَنْ مَدِيحِنَا بِالْمَقَالِ
وَيَقُولُ إِسْحَقُ الْمُوصِلِيُّ مِنْ أُبَيَّاتٍ فِيهِ عَمَلٌ فِيهَا لَحْنًا وَغَنَاءَ بِهَا ، فَطَرِبَ طَرِبًا
شَدِيدًا (٣):

لَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْفَضْلِ مَعْرِفَةٌ فَضْلُ بْنُ يَحْيَى لِأَعْدَائِي عَلَى الزَّمَنِ
هُوَ الْفَتَى الْمَاجِدُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ وَالْمَشْتَرَى الْحَمْدَ بِالْغَالِي مِنَ الثَّمَنِ
وَكَانَ أَخُوهُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْفُو أَبَا نَوَاسٍ فَصَبَّ عَلَيْهِ شَوَاطِئُ مِنْ هِجَائِهِ ، أَمَا هُوَ
فَأَدْنَاهُ مِنْهُ وَعَظَمَ نَائِلُهُ إِلَيْهِ ، مِمَّا جَعَلَهُ يُلْهِجُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ يَقُولُ (٤):

أَوْحَدُهُ اللَّهُ فَمَا مِثْلُهُ لَطَالِبٍ ذَاكَ وَلَا نَاشِدٍ
لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ
وَمِنْ كَانَ يَنْقُطِعُ إِلَيْهِ أَبُو التَّضْوِيرِ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ الْمَغْنِينَ ، وَفِيهِ فِي آلِهِ يَقُولُ (٥):

إِذَا كُنْتَ مِنْ بَغْدَادٍ مَنْقُطِعَ النَّدَى وَجَدْتَ نَسِيمَ الْجُودِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ
وَمَا زَالَ الشُّعْرَاءُ يَتَنَاشَدُونَ مَدَائِحَ الْفَضْلِ وَأَخِيهِ وَأَبِيهِ مِنْذَ أَسْلَمَ الرَّشِيدُ يَحْيَى
مُقَالِيدَ الْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ ١٧٠ حَتَّى أَوَّلِ صَفَرِ سَنَةِ ١٨٧ إِذْ نَكَبَهُمُ الرَّشِيدُ نَكْبَتَهُ
الْمَشْهُورَةَ أَمْرًا بِقَتْلِ جَعْفَرٍ وَصَلَبَ أَجْزَاءَ جَسَدِهِ وَحَبَسَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ ، وَظَلَا فِي
الْحَبْسِ إِلَى أَنْ مَاتَا ، أَمَا يَحْيَى فَمَاتَ فِي سَنَةِ ١٩٠ وَمَاتَ الْفَضْلُ فِي سَنَةِ ١٩٢ .
وَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَبْكِيَهُمُ الشُّعْرَاءُ وَأَنْ يَذْرِفُوا عَلَيْهِمُ الدَّمْعَ مَدْرَارًا ، لَمَّا أَغْدَقُوا عَلَيْهِمُ
مِنَ النِّعَمِ وَالصَّلَاتِ السَّنِيَةِ ، وَمِنْ طَرَائِفِ مَرَاثِيهِمْ قَوْلُ مَنْصُورِ التَّمْرِيِّ (٦):

(١) أَغَانِي (سَاسِي) ٣١/٢٠ .
(٢) أَغَانِي (سَاسِي) ٧١/٢١ .
(٣) الْجَهْشَارِيُّ ص ١٩١ .
(٤) الْحَيَوَانُ لِلْجَاحِظِ ٦٣/٣ .
(٥) أَغَانِي (طَبِيعُ دَارِ الْكُتُبِ) ٢٨٦/١١ .
(٦) مَرْوَجُ الذَّهَبِ لِلْمَسْمُودِيِّ ٤٩٦/٣ .

أَيْدَى بَنَى بِرْمَكُ لَدِينَا تَبْكِي عَلَيْهِمْ بِكَلِّ وَاِدِ
كَانَتْ بِهِمْ بُرْهَةٌ عُرُوسَا فَأَضْحَتْ الْأَرْضُ فِي حِدَادِ

وكان الفضل بن عبد الصمد الرقاشي منقطعاً إليهم ، وطالما نوهوا باسمه وأجزلوا في عطائه ، فلما صُلب جسد جعفر على الجسر اجتاز به وهو على الجِدْع فوقف يبكي أحرَّ بكاء ، ثم أنشأ يقول (١) :

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا خَوْفُ وَاشٍ وَعَيْنٌ لِلْخَلِيفَةِ لَا تَنَامُ
لَطَفْنَا حَوْلَ جِذْعِكَ وَاسْتَلَمْنَا كَمَا لِلنَّاسِ بِالْحَجَرِ اسْتَلَامُ
وَمَا أَبْصَرْتُ قَبْلَكَ يَابْنَ يَحْيَى حُسَاماً حَتَفَهُ السَّيْفُ الْحَسَامُ
عَلَى اللَّذَاتِ وَالْدُنْيَا جَمِيعاً وَدَوْلَةَ آلِ بِرْمَكِ السَّلَامِ

وأخذ يتحسر عليهم ويتفجع في مراث كثيرة ، ونحن نقف قليلا عند شاعرين من أهم شعرائهما : أبان بن عبد الحميد اللاحقي وأشجع بن عمرو السُلَمِيّ .

أَبَانُ (٢) بن عبد الحميد (٣) اللاحقي

من موالى البصرة ، وبها منشؤه ومرباه ، وقد تفتحت شاعريته مبكرة وأخذ يتجه بها نحو الهجاء ، وسرعان ما اصطدم بالمعدّل بن غَيْلَان ، واستطار بينهما الشَّرُّ ، ونرى المعدّل في هجائه يتهمه بأنه مانوي (٤) زنديق ، وهى تهمة ظلت عالقة به ، مما يدلّ على أن لها أساساً في حياته ، وسرى الجاحظ لا ينفيها عنه ، بل يشبّتها متعجّباً ، ويظهر أنه كان يضم إلى هذه الزندقة شيئاً من العكوف على اللهو والجنون شأن أخذانه من الشعراء . ومن هجاءهم أيضاً في باكورة حياته بعض

(١) أغاني (ساسي) ٣٤/١٥ وانظر له
مرثية أخرى في غرر الخصائص الواضحة للوطواط
(طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) ص ٤٠٧ .
(٢) انظر في ترجمة أبان وأخباره وأشعاره
الأغاني (طبعة الساسي) ٧٣/٢٠ والأوراق
للصولي (قسم أخبار الشعراء) طبع مطبعة الصاوي
ص ١ - ٥٢ وابن المعتز ص ٢٠٢ وما بعدها

وص ٢٤١ والوزراء والكتاب للجهشياري
ص ٢١٨ والحيوان للجاحظ ٤٤٧/٤ وما بعدها
وتاريخ بغداد ٤٤٧/٧ والنجوم الزاهرة ١٦٧/٢
(٣) في الفهرست لابن النديم : حميد . انظر
ص ١٦٣ .
(٤) الصولي ص ٧ .

قضاة البصرة ، ومن طريف ما يُروى من هجائه أنه كان في جواره بالبصرة رجل من ثقيف يقال له محمد بن خالد كان شديد العداوة له ، فتزوج ثقيفة يقال لها عمارة بنت عبد الرحمن ، كانت موفورة الثراء ، فقال أبان يهجوها ويحذرها منه :

لما رأيتُ البزَّ والشارَةَ والفَرَشَ قد ضاقتُ به الحارَةَ
واللُّوزَ والسُّكَّرَ يُرْمَى بهِ من فوق ذى الدار وذى الدارِ
وأحضروا المُلْهين لم يتركوا طَبْلًا ولا صاحبَ زَمَارِهِ
قلت لما ذا ؟ قيل أعجوبةُ محمدٍ زُوجَ عَمَّارِهِ
لا عمرُ الله بها بيتَه ولا رَأَتْهُ مدرِكاً ثارَه
ماذا رَأَتْ فيه ؟ وما ذا رجَتْ ؟ وهى من النسوان مختارَه
أَسْوَدُ كَالسَّفُودِ يُنْسَى لَدَى النَّوْرِ بل مِخْرَاكُ قِيَّارِهِ
يُجْرَى على أولاده خمسةُ أرغفةٍ كالرَّيشِ طِيَّارِهِ
وأهله - فى الأرض من خوفه إن أفرطوا فى الأكل - سِيَّارِهِ

وما كادت عمارة تسمع هذا الهجاء حتى فَرَّتْ على وجهها ، وهو هجاء يدل على ما وراءه من ظرف . ولا يكاد يُظَلَّ الناس عصر الرشيد والبرامكة الأجواد حتى نراه يهاجر من موطنه إلى بغداد ، متجهاً تنوُّاً إلى الفضل^(١) بن يحيى ، ومدبجاً فيه قصيدة طويلة صور فيها نفسه مثالا للنديم وأوصافه التى كانت تُشْتَرَطُ لهذا العصر فى الندماء ، يقول :

أنا من بغية الأمير وكنزُ كاتبٍ حاسبٍ أديبٍ خطيبٍ
من كنوز الأمير ذو أرباحِ ناصحٍ راجعٍ على النصَّاحِ
شاعرٌ مفلقٌ أخفٌ من الريِّ شيةٌ مما تكون تحت الجناحِ
وظريفٌ الحديث من كلِّ فنٍّ وبصيرٌ بترهات الملاحِ
كم وكم قد خبأتُ عندى حديثاً هو عند الملوك كالتُّفَّاحِ

(١) فى بعض الروايات أنه اتجه إلى جعفر .

ومضى في القصيدة يصف أخذه من كل علم بطرف وبصره بالصيد وشثونه وأنه ليس قصيراً ولا مفرط الطول ، مع صباحة الوجه ولطافة المزاج . فوصله الفضل ونحف على نفسه ونفس أبيه يحيى وأخيه جعفر ، وقرب من قلوبهم جميعاً حتى صار صاحبهم وحظيهم . وقد نوّه بالفضل طويلاً حين قضى على ثورة يحيى ابن عبد الله العلوى بالديلم لسنة ١٧٥ للهجرة وجاء به إلى بغداد ، وكان قد طلب الصلح حقناً للدماء ، وفي ذلك يقول أبان مخاطباً الرشيد :

هنيئاً أمير المؤمنين لك الظفرُ فقد تمت النعمى وقد ساعد القدرُ
أتاك بيحيى الفضلُ سلماً يقوده مقيراً ولولا يُمنُ جدك ما أقرُّ
ويظهر أنه كان يتشيع للعلوين تشيعاً يسره ولا يظهره ، ففي أخباره أنه عتب على البرامكة أنهم لا يصلونه بالرشيد ، ذاكراً لهم أمنيته في أن يحظى من جوائزه السنية ما يحظى به مروان بن أبي حفصة ، فقالوا له إنه إنما يحظى بتلك الجوائز لدفاعه عن حق البيت العباسى في الخلافة ورده على العلوين ردّاً عنيفاً ، فاسلُك طريقه إن شئت ، فقال : لا أستحل ذلك . ثم حَلَبت في عينه صلات الرشيد ، فراجع نفسه ونظم فيه ملحّة طويلة يقول في تضاعيفها :

نشدتُ بحق الله مَنْ كان مسلماً أعظمُ بما قد قلته العُجمَ والعَرَبُ
أعظمُ رسول الله أقربُ زُلْفَةً لديه أم ابنُ العَمِّ في رتبة النَسَبِ
وأيهما أولى به ويعهده ومن ذا له حقُّ التراث بما وجب ؟
فإن كان عباسُ أحقُّ بثلثكم وكان على بعد ذاك على سَبَبِ
فأبناء عباس همُ يرثونه كما العَمُّ لابن العَمِّ في الإرث قد حَجَبِ

ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة بين يدي الرشيد حتى أمر له بعشرين ألف درهم واتصل مدّحه به . وبلغ من عظم قدره عند يحيى بن خالد أن قلّده ديوان الشعر فكان الشعراء يرفعون إليه أشعاره في البرامكة ، فيسقط منها ما يرى إسقاطه ويعرض ما يرى أنه خليق بالعرض ، مميزاً بينهم مقدراً لكل منهم المكافأة التى يستحقها جزاء إحسانه . وحدث أن تقدم إليه أبو نواس بقصيدة مع طائفة

من الشعراء، فأمر له بدرهم ناقص ، وفي رواية أنه أسقط قصيدته ، فاغتاظ غيظاً شديداً ، وهجاه وتبادلا الهجاء طويلاً . ويُقال إن الهجاء بينهما إنما اندلعت ناره لأن يحيى بن خالد كان قد تقدّم إلى أبي نواس بنظم كليله ودمنة فزيّن له أبان أن يستغنى يحيى من النهوض بهذا العمل المضنى ، ثم حبس نفسه في بيته لا يخرج منه حتى فرغ من نقلها إلى الشعر في أربعة أشهر بالغاً بها أربعة^(١) عشر ألف بيت . وحمل نقله إلى يحيى بن خالد ، فأعطاه عليه مائة ألف درهم ، وفي رواية أنه أعطاه عليه عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف . فحزن أبو نواس ووجد عليه وجداً شديداً ، وأخذ يقتصّ منه بهجاء مرير ، وردّ عليه أبان ، فاشتعلت بينهما معركة هجاء عنيفة ، كان أبو نواس دائماً هو الذي يكثّر فيها من الأسهم المسمومة .

وقد أتاه كثيراً من ثغرة زندقته ، وروى له الجاحظ في حيوانه هجائية من هذا اللون ، وهو يتهمه فيها بأنه مانوى وأنه يتشبه بمطيع بن إياس واللبة وحماذ عمجد وغيرهم من الحجان ، ولا ينفي الجاحظ تهمة الزندقة عن أبان غير أنه ينفي أن يوضع مع مطيع وأمثاله في كفة واحدة ، يقول : « ولقد كان أبان وهو سكران أصحّ عقلاً من هؤلاء وهم صحابة » . ويقول ابن المعتز موازناً بينه وبين أبي نواس : « كان في جميع أحواله أرفع طبقة من أبي نواس ، وقد هجاه أبو نواس بشعر كثير فماسار له فيه شيء على شهرة شعره ، ولم يقل في أبي نواس غير ثلاثة أبيات ، وقد سارت في الدنيا ، وهي هذه :

أبو نواس بن هاني وأمه جُلْبَان^(٢)
والناس أفطنُ شيء إلى حروف المعاني
إن زدت بيتاً على ذي ما عشتُ فاقطع لساني

وهي أبيات لا ذعة . ويروى الرواة أنه كان له جار يعاديه ، فاعتلّ علة طويلة ، وأرجف أبان بموته ، ثم صحّ من علته ، وخرج فجلس على بابه ، وإذا أبان ينشده أهجية ، فلم يلبث أن أُرْعِدَ منها واضطرب ، ودخل منزله فما خرج منه حتى

أم أبي نواس ، وكان أبانا يتخذ من ذلك مغزاً له .

(١) في ابن المعتز : أن أبانا إنما بلغ بها خمسة آلاف بيت .

(٢) الجلبان : شجرة الورد ، وهو اسم

مات . وكان يحسن الرثاء ، ومرضته التي رواها الصولي في سوار بن عبد الله قاضي البصرة من أجود المراثي ، وهي طويلة طولاً مسرفاً .

وأهم ما نهض به أبان في الشعر نظمته لكليلة ودمنة ، وقد نظم بجانبها — كما مر بنا في غير هذا الموضع — أرجوزة مزدوجة في الصوم والزكاة ومزدوجات أخرى في التاريخ الفارسي وقصيدة في نشأة الخلق وعلم المنطق . وبذلك مكّن لشيوخ الشعر التعليمي في العربية ، ونكتفي هنا بقطعة من هذا الشعر افتتح بها باب الأسد والثور في كليلة ودمنة ، وهي تمضي على هذه الشاكلة :

وإن من كان دَنِيَّ النفس	يَرْضَى من الأرفع بالأخس
كمثل الكلب الشقيّ البائس	يَفْرَحُ بالعظم العتيق اليابس
وإن أهل الفضل لا يرضيهمُ	شيء إذا ما كان لا يعنِيهمُ
كالأسد الذي يصيد الأرنباً	ثم يرى العَيْرَ المجدَّ هَرَباً ^(١)
فيرْسِلُ الأرنبَ من أظفاره	ويتبع العَيْرَ على أدباره

وتطرد أرجوزته في كليلة ودمنة وفي كثير من الموضوعات التعليمية التي عُنِيَ بالنظم فيها على هذا النمط المزدوج الذي اصطفى له لغة جزلة متينة طالما راعت معاصريه ومن تلاهم ، حتى ليقول ابن المعتز في التعريف به : « كان شاعراً أديباً ، عالماً ظريفاً ، منطيقاً ، مطبوعاً على الشعر مقتدراً عليه . . وهو الذي نقل كليلة ودمنة شعراً بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة . . ولم يقدر أحد من الناس أن يتعلق عليه بخطأ في نقله ، ولا أن يقول : ترك من لفظ الكتاب أو معناه » . وترجم الصولي لأخيه عبد الله وابنه حمدان وحفيده أبان . ونظن ظناً أنه ظل مشغولاً بعد البرامكة بشعره التعليمي ، حتى توفي سنة ٢٠٠ للهجرة ، فإنه لم يؤثّر له شعر في مديح الأمين ولا في مديح المأمون وقواده ووزرائه .

أشجع^(١) بن عمرو السُّلَمي

من بني الشريد السُّلَميَّين ، كان أبوه ينزل البصرة ، وتعلق بامرأة من أهل اليمامة ، فشخص معها إلى موطنها وتزوجها ، فولدت له بموطنها أشجع حيث قضى السنوات الأولى من حياته . ومات أبوه فقدمت به أمه إلى البصرة تطلب ميراث أبيه ، وكانت قد رُزقت منه أيضاً ولديها أحمد وحُرَيْثاً . وأكمل أشجع نشأته ومرباه بالبصرة ، وفتحت مواهبه الشعرية فابتهجت به قبيلته وأخواتها من القبائل القيسية ، وكان الشعر يومئذ في ربيعة واليمن ، ولم يكن لقيس شاعر معدود ، فلما نجم أشجع ولمع اسمه افتخرت به قيس ، وبادلها فخراً بفخر من مثل قوله :

إذا افتخرتُ قيسٌ بطبيبِ العناصرِ على الناس طاطا رَأَسَه كلُّ فاخِرٍ

ولم يلبث أن شد رحاله إلى بغداد لأواخر عهد المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) فدخل ابنه جعفرأ ، ويقال إن الذي وصله به عوف بن أحمد بن يزيد السُّلَمي ، وله فيه وفي أبيه أحمد وعمه محمد مدائح مختلفة . ولم يكذب يبرز عصر الرشيد حتى وصلته به زوجه زُبَيْدَة بنت جعفر بعد وفاة أبيها ممدوحه ، فأسنَى جوائزَه ، ويقال : بل الذي وصله به جعفر بن يحيى البرمكي . وتؤكد بعض الروايات أن أول اتصاله به إنما كان في الرِّقَّة حين انتقل إليها من بغداد سنة ١٨٠ لينظر منها سريعا إلى حرب الروم حين يدعو الداعي ، ومن أجل ذلك استوطنها مدة . ونظن أن اتصاله بالرشيد يسبق هذا التاريخ ، فقد روى صاحب الأغاني عنه أنه قال : « دخلتُ على محمد الأمين حين أجلس مجلس الأدب للتعليم وهو ابن أربع سنين ، وكان مجلس فيه ساعة ثم يقوم ، فأنشدت :

مَلِكُ أبوه وأمه من نَبْعَةٍ منها سراجُ الأمة الوَهَّاجُ^(٢)

ومروج الذهب للمسعودي ٢٩٦/٣ والوزراء
والكتاب للجيشياري ص ٢١٥ والمرزوق على
الحماسة ص ٨٥٦ .

(٢) النبعة : شجرة ضخمة تتخذ منها القسي
والسهام ، والاستمارة واضحة .

(١) انظر في أشجع وأشعاره وأخباره ابن المعتز
ص ٢٥١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٥٧
والأغاني (طبعة الساسي) ٣٠/١٧ والأوراق
للصولي (قسم أخبار الشعراء) ص ٧٤ وتاريخ
بغداد ٤٥/٧ والمرثي للمرزباني ص ٢٩٥

شربت بمكة في رُبَى بَطْنِهَا ماء النبوة ليس فيه مِزَاجٌ^(١)
 فأمرت له أمه زُبَيْدَة بمائة ألف درهم ، ويقال إنه لم يتولَّ الخلافة أحد أبوه
 وأمه من بني هاشم إلا على بن أبي طالب ومحمد الأمين . ومعروف أن الأمين
 ولد سنة ١٧٠ ومعنى ذلك أن دخول أشجع عليه ومدحه كانا في سنة ١٧٤ وفي
 ابن المعتز ما يدل على أن البيتين من قصيدة مدح بها الرشيد . وسنراه يكثر من
 مدحه في حربه لتقفور ، وقد مضى يوثق عهده للمأمون بولايته العهد بعد أخيه
 الأمين توثيقاً شديداً بقوله :

بيعةُ المأمونِ آخذةٌ بعنانِ الحقِّ في أْفَقِ
 لن يفكَّ المرو ربَّقَتْهَا أو يفكَّ الدين من عُنْقِهِ
 وله من وجه والده صورةٌ تَمَّت ومن خلقه

وكتب الرشيد لولديه كتاباً بهذا العهد ، وعلَّقه في سقف الكعبة سنة ١٨٢
 فأنبرى أشجع يصوب رأيه ويؤكِّده في قصيدة طرب لها الرشيد .

على أن صلته به إنما كانت في ثنایا صلة وثيقة بجعفر بن يحيى البرمكي وأبيه
 وأخيه ، حتى لكأنما اقتطعوه منه ، ويقال إن أنس بن أبي شيخ كاتب جعفر هو
 الذي وصله به ، ثم انعقدت صلته بأخيه الفضل وأبيه يحيى وكان أول ما أنشده :

ذهبت مكارمُ جعفرِ وفَعَالِهِ في الناس مثل مذاهبِ الشَّمْسِ
 ملكٌ تسوس له المعالي نَفْسُهُ والعقلُ خيرُ سياسةِ النَّفْسِ
 فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وكان جعفر حينئذ بمجلس في أحد قصورهم
 بحي الصالحية ، فقال له صف موضعنا ، فأنشد على البديهة :

قصورُ الصالحيةِ كالعَدَارَى لَيْسَنَ ثِيَابَهُنَّ لِيَوْمِ غُرَسِ
 مطلَّاتٌ على روضِ كسَنِهِ أَيْادِي المَاءِ وشيأَ نَسِجِ غُرَسِ
 إذا ما الطَّلُّ أَثَّرَ في ثَرَاهِ تَنَفَّسَ نَوْرُهُ من غيرِ نَفْسِ^(٢)

(٢) الطل : التنى والمطر الخفيف .

(١) بطحاء مكة : وادها بين الربى والجبال . وكانت تنزل في الجاهلية عشايرها الشريفة .

فَتَغْبِقُهُ السَّمَاءُ بِصَبْنِغٍ وَرَئِيسٍ وَتَضْبِجُهُ بِأَكْوَسِ عَيْنِ شَمْسٍ^(١)
وأعجب جعفر بحسن بديهته ، وأصبح شاعره وشاعر أسرته يمدحه ويمدح أباه
يحجي وأخاه الفضل ، ويغدقون جميعاً عليه العطايا الجزيلة ، ومن قوله في يحجي :

كفاني صروف الدهر يحيي بن خالدٍ فَأَصْبَحْتُ لَا أَرْتَاعُ لِلْحَدَثَانِ
كفاني - كفاه الله كلَّ مُلِمَّةٍ - طِلَابَ فُلَانٍ مَرَّةً وَفُلَانٍ
فَأَصْبَحْتُ فِي رَغْدٍ مِنَ الْعَيْشِ وَاسِعٍ أَقْلُبُ فِيهِ نَاضِرٌ وَلَسَانِي*

ونراه يرافق جعفرأ حين هاجت العصبية بين النزارية واليمنية في الشام لسنة ١٨٠
وقد ظفر بجماعة ممن سعوا بالفساد وشرّد آخرين وأصلح ذات البين بين الفئتين
المتناحرتين . وأكثر من مديحه حينئذ ، ويقال إنه كان يُجمرى عليه في كل يوم
جمعة مائة دينار وأشجع يجرى عليه أشعاره من مثل قوله :

أَصْلَحْتَ أَمْرَ الشَّامِ مُحْتَسِبًا وَرَتَقْتَ مَا فِيهَا مِنَ الْفَتَقِ
مَا كَانَ يُدْرِكُ بِالْقِتَالِ وَلَا بِالْمَالِ مَا أَدْرَكَتْ بِالرَّقَقِ

وعزم الرشيد في نفس السنة على تولية جعفر خراسان وسجستان وأخرج له الأمر
بذلك ، فابتهج وابتهج معه شاعره ، ولم يلبث أن دبّج فيه إحدى رواثه وفيها
يقول :

يُرِيدُ الْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وَلَيْسَ بِأَوْسَعَهُمْ فِي الْغِنَى وَلَكِنْ مَعْرُوفُهُ أَوْسَعُ
وَكَيْفَ يَنَالُونَ غَايَاتِهِ وَهُمْ يَجْمَعُونَ وَلَا يَجْمَعُ
بَدِيَّتُهُ مِثْلُ تَدْبِيرِهِ مَتَى رُمْتُهُ فَهُوَ مُسْتَجْمَعُ

ويدا للرشيد فرجع في أمره وعزيمته ، فأنشده شعراً طريفاً يسليه به ، زاعماً أن
الرشيد رأى حاجته إليه أمس من حاجة أهل خراسان . ويكثر من مديح جعفر

الصبوح وهو شرب الخمر في الصباح .

(١) تغبقه : من التيق وهو شرب الخمر في المساء ، والورس : زهر أصفر . تصبجه : من

ولا يلمُ به مرض هو أو أبوه إلا ويكثر من دعائه لهما بالشفاء وفي يحيى يقول وقد أخذته علة :

إذا ما الموتُ أخطأه فلنسنا نبألى الموتَ حيث غدا وراحا

ولما استأذن من الرشيد أن يجاور بمكة لسنة ١٨١ ظل يردد افتقاد بغاة الخير له وحزنهم لطول غيبته من مثل قوله :

قد غاب يحيى فما أرى أحداً يأنسُ إلا بذكره الحسنِ
أوحشتِ الأرض حين فارقها من الأيادى العظام والمِنَنِ
لولا رجاء الإياب لانصدعتْ قلوبنا بعده من الحَزَنِ

ويروى صاحب الأغاني أن جعفرا ولاء عملا ، فرجع إليه أهله شكايات كثيرة متظلمين منه ، فصرفه جعفر عنهم ، فلما رجع إليه من عمله مثَّل بين يديه وأنشده قصيدة طويلة يقول فيها :

لقد هزّت سنانَ القول منى رجالٌ وقيعةٍ لم يعرفونى
أطافوا بى لديك وغبتُ عنهم ولو أدنيتنى لتجنبُونى

فوصله جعفر وخلع عليه . وظل يتغنى بجعفر وبأبيه وأسرته حتى نكبهم الرشيد ، فتحسر عليهم طويلاً ومن قوله فيهم :

كأنما أيامهم كلها كانت لأهل الأرض أعيادا
وجعلته صلته بالبرامكة يمدح كتابهم وأصحابهم من مثل إسماعيل بن صبيح ،
ومن جيد قوله فيه :

له نظرٌ لا يغمض الأمرُ دونه تكاد ستورُ الغيب عنه تمرُّ

ولعله لم يكثر من مديح صاحب لهم كما أكثر من مديح محمد بن منصور ابن زياد . وقد مضى بعد نكبتهم يحاول القربى من الرشيد ، وأوصله له حاجبه ووزيره الفضل بن الربيع قائلا له : « هو أشعر شعراء أهل الزمان وقد اقتطعته

عنك البرامكة فأمر بإيصاله مع الشعراء « وقد تغنى بانتصاراته على نقفور وجنوده وفتحه لهرقلة غناء حاراً ، من مثل قوله :

برقتُ سِماؤك في العدوِّ وأمطرتُ هَاماً لها ظِلُّ السيفِ غَمَامُ^(١)
وعلا عدوك يا بن عمِّ محمد رَصَدان : ضوء الصبح والإِظلامُ
فإذا تنبّه رُجَّتُهُ وإذا غفا سَلَّتْ عليه سيوفُك الأحلام
ولما بلغ هذا البيت في القصيدة اهتز الرشيد ، وأمر بأن ينثر عليه الدر إعجاباً
واستحساناً ، وله يقول من قصيدة أخرى وقد جلس للشعراء عقب هذا الفتح في
يوم عيد :

لا زلتَ تنشر أعياداً وتطويها تَمْضِي بها لك أَيَّامٌ وتُمْضِيها
ولِيَهْنِكَ الفتح والأَيَّامُ مقبلة بالنصر والعزُّ معقوداً نواصيها
أَمَسَتْ هَرْقَلَةُ تهوى من جوانبها وناصرُ الله والإِسلام يرميها
وكان الرشيد يكثر من حجه إلى البيت الحرام ومن جهاده العنيف للروم ،
قاسماً سنه بين حج وغزو ، فصور ذلك أشجع تصويراً بديعاً في قصيدة استقبله
بها في يوم قدوم له من حج بإحدى السنوات ، وفيها يقول :

أَلِفَ الحَجِّ والجهادَ فَمَايَذُ فِكُّ من سَفَرَتَيْنِ في كل عامٍ
سَفَرٌ للجهاد نحو عدوِّ والمطايا لِسَفَرَةِ الإِحْرَامِ^(٢)
طَلَبَ اللهَ فهو يسعى إليه بالمطايا وبالجِياذ السَّوَامِ
فِيْدَاهُ يَدٌ بِمَكَّةَ تدعو هـ وأُخْرَى في دعوة الإِسلام

وله مدائح مختلفة في الفضل بن الربيع . وكان يحيد الرثاء كما كان يحيد المديح ،
إذ كان يعرف كيف يمس القلوب وكيف يستثير الحزن في الصدور ، على نحو ما
يلقانا في رثائه لحمد بن منصور بن زياد ، وفيه يقول :

رمزاً للجهاد ، والسوام : من سامت الريح :
إذا مرت واستمرت .

(١) الهام : الروم .
(٢) جعل المطايا أى الإبل رمزاً للحج والجِياذ

أَنْعَى فَتَى الْجُودِ إِلَى الْجُودِ مَا مِثْلُ مَنْ أَنْعَى بِمَوْجُودِ
 أَنْعَى فَتَى مَصَّ الثَّرَى بَعْدَهُ بَقِيَّةَ الْمَاءِ مِنَ الْعُودِ
 فَالْأَرْضُ يَبَسَتْ أَشْجَارُهَا بِمَوْتِهِ . وَمِنْ مَرَاتِيهِ الرَّائِعَةُ الَّتِي رَوَاهَا أَبُو تَمَامٍ فِي
 حِمَاسَتِهِ مَرِثَتِهِ فِيمَنْ يَسْمَى ابْنَ سَعِيدٍ وَفِيهَا يَقُولُ :

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقُ وَلَا مَغْرِبُ إِلَّا لَهُ فِيهِ مَادِحُ
 وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَا فَوَاضِلُ كَفِّهِ عَلَى النَّاسِ حَتَّى غَيَّبَتْهُ الصَّفَائِحُ ^(١)
 فَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ مَيِّتًا وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضِيْقُ الصَّحَاصِحُ ^(٢)
 سَابِكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغَضُّ فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تُجِنُّ الْجَوَانِحُ ^(٣)
 وَمَا أَنَا مِنْ رُزْءٍ وَإِنْ جَلَّ جَاذِعُ وَلَا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ
 كَانَ لَمْ يَمِتْ حَتَّى سَوَاكَ وَلَمْ تَقُمْ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ النُّوَاحِ
 لَئِنْ حَسُنْتَ فَيْكَ الْمَرَاثِي وَذَكَرُهَا لَقَدْ حَسُنْتَ مِنْ قَبْلِ فَيْكَ الْمَدَائِحُ
 وَغَزَلَهُ رَقِيقٌ وَلَهُ خَمْرِيَّاتٌ قَلِيلَةٌ . وَوَاضِحٌ مِمَّا أَنْشَدْنَاهُ لَهُ أَنَّهُ كَانَ غَزِيرَ الْمَعَانِي
 رَشِيقَ الْأَسْلُوبِ وَأَنْ قِصَائِدَهُ الْجِيَادُ تَعَدُّ مِنْ عَيُونِ الشَّعْرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَدَرَهُ النَّفِيسَةُ ،
 وَقَدْ عَاشَ حَتَّى شَهِدَ قَتْلَ الْأَمِينِ فِي سَنَةِ ١٩٨ إِذْ رَوَى لَهُ الصُّوْلَى قَصِيدَةً فِي مَدِيحِ
 طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ الَّذِي حَاصَرَهُ إِلَى أَنْ ظَفَّرَ بِهِ وَقَتْلَ صَبْرًا ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ
 مُخَاطِبًا لَهُ :

سَلَبْتَ رِدَاءَ الْمَلِكِ ظَالِمَ نَفْسِهِ . وَصَنْتَ الَّذِي وَلَّاكَ قَضَمَ الْجَبَابِرِ
 وَأَكْبَرَ الظَّنَّ أَنَّهُ تَوَفَّى بَعْدَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ .

(٢) الصَّحَاصِحُ : الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ الْمُسْتَوِيَّةُ .
 (٣) تُجِنُّ : تَضْمُرُ . الْجَوَانِحُ : الضُّلُوعُ .

(١) الصَّفَائِحُ : الْحِجَارَةُ الْعَرَاضُ فِي سَقْفِ
 الْقَبْرِ .

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا يكاد يوجد في هذا العصر وزير ولا وال ولا قائد إلا وقد مدحه الشعراء طلباً لجوائزه السنية ، ولن نستطيع أن نستقصى مدائحهم ، ولذلك سنكتفي بأكثرهم تداولاً على ألسنة الشعراء ، ولعل أنبه وزير لعصر المنصور أكثر الشعراء من مدحه خالد بن برمك . وكان يعقوب بن داود وزير المهدي ومنهجو بشار ممدحاً لكثير من الشعراء ، وقد وجدوا عليه وجداً شديداً حين حبسه المهدي ، وصوّروا ذلك في أشعارهم من مثل قول أبي حنشل التميمي^(١) :

يعقوبُ لا تَبْعُدْ ، وَجُنِبْتَ الرَّدَى فَلَنبَكِينُ زَمَانِكَ الرُّطْبَ الثَّرَى
وقول أبي الشَّيْصِ مخاطباً المهدي^(٢) :

أَبْلَغُ إِمَامِ الْهُدَى أَنْ لَسْتَ مُصْطَنَعًا لِلنَّائِبَاتِ كِيَعْقُوبَ بْنَ دَاوُدَ
لَوْ تَبْتَغِي مِثْلَهُ فِي النَّاسِ كُلَّهُمْ طَلِبْتَ مَا لَيْسَ فِي الدُّنْيَا بِمَوْجُودَ
واستوزر المهدي بعده الفيض بن أبي صالح ، وكان غيثاً مدراراً ، ومن كان ينقطع إليه أبو الأسد الحِمَّاني التميمي وفيه يقول^(٣) :

وَلَا تَمْنِ لَامَتِكَ - يَا فَيْضُ - فِي النَّدَى فَقُلْتُ لَهَا لَنْ يَقْدَحَ اللَّوْمُ فِي الْبَحْرِ
أَرَادَتْ لِيَتَنَهَى الْفَيْضُ عَنْ عَادَةِ النَّدَى وَمَنْ ذَا الَّذِي يَثْنِي السَّحَابَ عَنِ الْقَطْرِ
مَوَاقِعُ جُودِ الْفَيْضِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ مَوَاقِعُ مَاءِ الْمُنَى فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ
كَأَنَّ وَفُودَ الْفَيْضِ لَمَّا تَحْمَلُوا إِلَى الْفَيْضِ لَاقَوْا عِنْدَهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ

ومرّت بنا مدائح الشعراء في البرامكة ، وكان الفضل بن الربيع يحجب الرشيد في وزارتهم ، ثم خلفهم على وزارته ، ووزر من بعده للأمين ، وقد مدحه ونوه

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤/١٣٤.

(١) المرزوق على الحماصة ص ٩٤٦ .
(٢) الوزراء والكتاب الجهشباري ص ١٦٣ .

به كثيرون وفي مقدمتهم أبو نواس وأبو العتاهية ، وفيه يقول (١) :

إذا ما كنت متخذاً خليلاً فمثل الفضل فاتخذ الخليلاً
يرى الشكر القليل له عظيماً ويُعطى من مواهبه الجزيلاً
أراني حيناً يَمُتُ طرفي وجدتُ على مكارمه دليلاً

ولإسحق الموصلي أشعار فيه لحنها وغنى فيها ، ومن يُسلك في مدّاحه
أبو نخيلة ، وسلم الخاسر ، وأشجع السلمي ، ومنصور النمرى ، وفيه يقول (٢) :

هو الأوحدُ في الفضل فما يُعرفُ ثانيه

ونلتى بعده بالفضل والحسن ابني سهل وزيري المأمون ، وكانا جوادين
مدّحين ، وقد نوّه مسلم بن الوليد بالفضل طويلاً ، وفيه يقول مشيراً إلى تديره
الأمر للمأمون حتى أسقط الأمين (٣) :

أَقَمْتَ خلافةً وأزَلْتَ أخرى جليلٌ ما أَقَمْتَ وما أزلنا

وقد عاش الحسن بعد الفضل طويلاً ، فكثرت أمداح الشعراء فيه ، وفي
مقدمتهم أبو تمام وأبو العَمَيْثَل وأبو فرعون الساسي ومحمد بن عبد الملك الزيات
ومحمد بن وهيب ، وفيه يقول (٤) :

به تُجَنَّدَى النعمى وتُستدرك المنى وتُستكمل الحسنى وتُرعى الأواصرُ
ولما رأى الله الخلافة قد وهت دعائها والله بالأمر خابِرُ
بنى بك أركاناً عليها محيطَةٌ فأنت لها دون الحوادث ساترُ

ولعل وزيراً بعده لم يُمدَحْ كما مُدَح محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم
والوائق ، وللحسن بن وهب كاتبه فيه أشعار كثيرة ولعل شاعراً لم ينوّه به كما نوّه
أبو تمام .

وإذا تركنا الوزراء إلى الولاة وجدنا بينهم كثيرين من الأجواد المدّحين

(٣) ديوان مسلم ص ٣٠٧ .
(٤) أغاني (سامي) ١٧/ ١٤٤ .

(١) أغاني ٦٧/٤ .
(٢) أغاني ١٥٠/١٣ .

وفي طلبعتهم معن بن زائدة الشيباني والى اليمن للمنصور ثم سجستان ، وهو ممدوح مروان بن أبي حفصة كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، ومن مدَّاحه مطيع بن إياس والحسين بن مطير ، وله فيه حين توفى مريثة بديعة أنشدنا قطعة منها في غير هذا الموضع . وطبيعي أن يكثر في هذا العصر مديح ولاية البصرة والكوفة ، ويتردّد مديح الأولين في ديوان بشار حتى وفاته ، كما يتردّد الثانون في أشعار الكوفيين تردداً أوسع من أن يُحصَى ويستقصى . وكان في كل ولاية شعراء من أهلها لا يزالون يمدحون ولاتها ، وكان كثير من شعراء العراق يفدون عليهم لأخذ جوائزهم ، ويكنى لتصوير ذلك أن نرجع إلى مصر فسنرى بها شعراء من الطبقة الثانية لا يزالون يمدحون من يتولى عليها على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب الولاية والقضاة للكندي . وقد رحل إليها غير شاعر مقدّمًا مدائحه لولاتها الذين اشتهروا بمجودهم ، ظافراً منهم بالصلوات السنية ، ومن لولاتها الأجواد لعهد المنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة المهلبى ممدوح بشار وربيعة الرقّي ، وقد قدم عليه في ولايته ابن المولى ومدحه بقصائد كثيرة من مثل قوله :

يا واحدَ العربِ الذى أضحىَ وليس له نظيرُ
لو كان مثلكَ آخرُ ما كان فى الدنيا فقيرُ

ويقال إنه أعطاه في هذه القصيدة عشرين ألف دينار ^(١) ، غير ما أعطاه في قصائده الأخرى . وقد عرضنا في حديثنا عن أبى نواس لرحلته إلى الحصيب صاحب خراجها وما أعادق عليه من برّه ، كما عرضنا في حديثنا عن أبى تمام لرحلته إلى عياش بن لهيعة الحضرمي . وما كان من اتصاله بولاتها المختلفين ، وصورنا من بعض الوجوه مدائحه لبعض ولاية دمشق والموصل وديار ربيعة وأذربيجان والثغور . ومرّت بنا أيضاً مدائح دعبل للمطلب الخزاعى حين ولى مصر وكيف أشاد به أولاً ثم هجاه .

وليس من شك في أن طاهر بن الحسين وابنه عبد الله هما أهم ولاية تغنى بهما الشعراء ، إذ جذبا إلى ولايتهما في خراسان غير شاعر ، ومن مدّاح طاهر الرقاشى وأبو العميثل والشاعر الملقب بالصينى ، على نحو ما يصور لنا ذلك ابن المعتز ،

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٨٩/٣ وما بعدها .

ويقول في ترجمة عوف بن محلم الخزاعي : « كان معدوداً من الشعراء الظرفاء المحدثين وكان طاهر بن الحسين قد استخصه واختاره لمناذمته ، فكان لا يفارقه في سفر ولا حَضَر . . . وما سار له في الدنيا قوله له إذ وقف على الجسر في حرّاقة (١) يَسُحدر إلى دار الخليفة ، فقال رافعاً صوته :

عجبت لحرّاقة ابن الحُسَّه بين كيف تسير ولا تَغْرِقُ
وبحران : من تحتها واحدٌ وآخرٌ من فوقها مُطِيقُ
وأعجب من ذاك عيدانها وقد مسّها كيف لا تُورِقُ

وكان ابنه عبد الله على مثاله جوداً وشجاعة وسماحة ، ويقال إنه لما ولاه المأمون مصر لسنة ٢١١ أعطاه مالها لعام : خراجها وضياعتها ، فوهبه كله وفرّقه في الناس ، وقد لهج الشعراء فيها بمدحيه وفي مقدّماتهم مُعَلّي الطائي وله يقول (٢) :

لو أصبح النّيلُ يَجْرى ماؤه ذهباً لما أشرتَ إلى خَزَنِ بِمِثْقَالِ
تَفْكُ بِالْيَسْرِ كَفَّ العُسْرِ من زَمَنِ إذا استطال على قومٍ بإقْلالِ
وما بثثت رَعِيلَ الخَيْلِ في بلدٍ إلا عَصَفْنَ بأرزاقٍ وآجالِ

وقد لزمه في ولايته على خراسان كثير من الشعراء أمثال أبي العَمَيشل وعوف بن محلم الخزاعي شاعري أبيه ، وله يقول عوف من قصيدة طويلة (٣) :

يابنَ الذي دان له المشرقانُ وألبَسَ الأمنَ به المغربانُ
وهو ممدوح على بن جبلة وأبي تمام والعتّابي ، وله يقول (٤) :

وذلك يكفينيك في حاجتي ورويتي كافيةً عن سؤالِ
وكيف أخشى الفقر ما عشتَ لي وإنما كَفَّاكَ لي بيتُ مالِ
وعلى نحو ما مدح الشعراء الولاة ونوّهوا بهم طويلاً مدحوا القواد أمداحاً رائعة ، ومدائح بشار وأبي العتاهية في عمر بن العلاء الذي قضى على الحمرة بمرجان لعهد المهدي

(٣) ابن المعتز ص ١٨٨ .

(٤) أغاني ١١٧/١٣ .

(١) الحرّاقة : ضرب من السفن .

(٢) أغاني (دار الكتب) ١٠٢/١٢ .

مشهورة . ولعل قائداً لم يُمدَحْ في عصر الرشيد كما مُدح يزيد بن يزيد الشيباني
ممدوح مسلم بن الوليد ، وفيه يقول منصور النمرى ^(١) :

لا تقربنَّ يزيداً عند صَوْلِيهِ لَكِنْ إِذَا مَا اخْتَبَيْ لِلجودِ فاقترَبْ

ومن مداحه على بن الخليل وعبد الله بن أيوب التيمي . ومن كبار القواد لعهد
المأمون والمعتصم أبو دُلَاف العِجْلِي ، يقول أبو الفرج في ترجمته له : « محله في
الشجاعة وعلوِّ المحل عند الخلفاء وعظم الغناء في المشاهد وحسن الأدب وجودة الشعر
محل ليس لكبير آخر من نظرائه ^(٢) » وكانت غيوث كرمه لا تزال تنهلُ على
الشعراء ، مما جعل ألسنتهم تلهج بمدحِهِ ، ومن كان ينقطع إليه على بن جبلة
وأبو الأسد الحِمَّاني التيمي وبكر بن النطاح ، وفيه يقول مصوراً شجاعته ^(٣) :

قالوا وينظم فارسين بطعنة يومَ اللقاء ولا يراه جليلاً

لا تعجبوا لو أن طول قناته ميلٌ إِذْ نَظَمَ الفوارسَ ميلاً

وله يقول ^(٤) :

فَكَفُفْ قَوْسٌ وَالنَّدَى وَتَرٌّ لَهَا وَسَهْمُكَ فِيهِ الْيُسْرَ فَارْمَ بِهِ عُسْرِي

ويقول أيضاً فيه :

ولقد طلبنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم يُنسَبُ

وهو من مدّاح أبي تمام ومحمد بن وهيب وغيرهما . وقد جُلِّيَ في

حروب المأمون والمعتصم مع بابك والروم قواد كثيرون في مقدمتهم الأفشين وخالد

ابن يزيد بن يزيد وأبوسعيد محمد بن يوسف الثغري ولأبي تمام فيهم أمداح رائعة

صورتنا أطرافاً منها في ترجمته . ونحن نقف قليلاً عند أربعة من شعراء هؤلاء القواد

ومن سبقهم من الولاة والوزراء وهم : أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التيمي وعلى

ابن جبلة والخريص .

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٥٥ / ١٧ .

(٤) ابن المعتز ص ٢١٩ .

(١) أغاني ١٥٥ / ١٣ .

(٢) أغاني ٢٤٨ / ٨ .

أبو الشَّيْص (١)

غلبَ عليه لقبه أبو الشَّيْص واسمه محمد بن عبد الله بن رَزِين وهو ابن عم دِعْبَل ، ويقول أبو الفرج « كان متوسط المحل في شعراء عصره غير نابه الذكر لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبي نواس ، فحمل وانقطع إلى عقبة بن جعفر ابن الأشعث الخراعى أمير الرِّقَّة فدحه بأكثر شعره ، فقلما يروى له في غيره ، وكان عقبة جواداً فأغناه عن سواه » . ومن مختار شعره فيه قوله مستطرداً من وصف الإبل إلى مديحه :

إِنْ الْأَمَانَ مِنَ الزَّمَانِ وَرَيْبِهِ يَا عُقْبَ شَطًّا بَحْرُكَ الْفَيَاضِ
بَحْرٌ يَلُودُ الْمَعْتَفُونَ بِنَيْلِهِ فَعَمَّ الْجَدَاوِلُ مُتَرَعِ الْأَحْوَاضِ (٢)
ثَبَّتَ الْمَقَامَ إِذَا التَوَى بَعْدُوهُ لَمْ يَخْشَسْ مِنْ زَلَلٍ وَلَا إِدْحَاضِ (٣)
غَيْثٌ تَوَشَّحَتِ الرِّيَاضُ عِهَادُهُ لَيْثٌ يَطُوفُ بِغَابَةِ وَغِيَاضِ (٤)
وَمَشْمَرٌ لِلْمَوْتِ ذَيْلَ قَمِيصِهِ قَانِي الْقَنَاسَةِ إِلَى الرَّدَى خَوَاضِ

ويقول ابن المعتز إنه مدح الرشيد مدائح كثيرة ، ولما مات أكثر من رثائه ومدح الأمين وله في ذلك بدائع كثيرة من مثل قوله :

جَرَتْ جَوَارٍ بِالسَّعْدِ وَالنَّحْسِ فَنَحْنُ فِي وَحْشَةٍ وَفِي أُنْسِ
الْعَيْنُ تَبْكِي وَالسِّنُّ ضَاكِكَةٌ فَنَحْنُ فِي مَأْتَمٍ وَفِي عُرْسِ
يَضْحَكُنَا الْقَائِمُ الْأَمِينُ وَتُبْ كَيْنَا وَفَاةُ الْإِمَامِ بِالْأَمْسِ
بَدْرَانِ : بَدْرٌ أَضْحَى بِبَغْدَادِ فِي الْأُ خُلْدٍ وَبَدْرٌ بَطُوسٌ فِي الرَّمْسِ (٥)

(١) انظر في أبي الشَّيْص وأخباره وأشعاره

(٢) (٣) إدحاض : انزلاق .

(٤) (٤) العهد : أول مطر الربيع . غياض :

جمع غيضة وهي الشجر الملتف .

(٥) (٥) الخلد : قصر بناء المنصور ببغداد .

الرمس : القبر .

(١) انظر في أبي الشَّيْص وأخباره وأشعاره

ابن المعتز ص ٧٢ وابن قتيبة ص ٨٢٠ والأغاني

(طبعة دار الكتب) ٤٠٠/١٦ ونكت الهميان

للصفدي ص ٢٦٧ وتاريخ بغداد ٤٠١/٥

وقوات الزوفيات ٢٢٥/٢ .

(٢) فعم : ملوه .

وله فيه مرثية طويلة عجيبة يقول فيها مستغلا وفاته بطوس في المشرق :

عَرُبْتُ في المشرق الشمسُ فقلْ للعَيْنِ تَدْمَعُ
ما رأينا قطُّ شمساً غربتْ من حيث تَطْلُعُ

ومن رائع مرثيته قوله يبكي بعض الأبطال وقد سقط صريعاً في ميدان القتال مصوراً بأسه وشجاعته :

ختلته المنون بعد اختيالٍ بين صفين من قنأ ونِصالٍ
في رداءٍ من الصفيح صقيلاً وقميصٍ من الحديد مُذالٍ^(١)

وهو أحد من برعوا في الغزل ووصف الخمر ، وله فيهما أشعار كثيرة طارت في الدنيا وسارت بها الركبان من مثل قوله في الغزل :

مهاةٌ ترتعى الألبا بَ عن قوسٍ من السُّخْرِ
لها طَرْفٌ يشوب الخمرَ للندمان بالخمرِ
عفيفٌ اللَّحْظِ والإغضا في الصَّخْرِ وفي السُّكْرِ

وقوله في الخمر :

وعذراء لم تفترعها السُّقاةُ ولا استامها الشُّربُ في بَيْتِ حاني^(٢)
ولم تنزلِ الشمسُ مشغولةً بصنعتها في بطون الدنانِ
ترشُّحها لأثام الرجال إلى أن تصدَّى لها الساقيانِ
عجوزٌ غَذَا المِسْكُ أصداغها مضمخة الجلدِ بالزُّعْفَرانِ
يطوف علينا بها أخورٌ يداه من الكأس مخضوبتانِ

وله في المشيب وبكاء الشباب كثير من الأشعار الرائعة التي يُطَرْف فيها تارة بالصور والأخيلة البديعة ، وتارة بالمعاني التي تمس المشاعر والقلوب من مثل قوله :

(٢) استامها : ساوم على شرائها .

(١) مَذال : طويل الذيل .

أبدى الزمانُ به نُدوبَ عِضاضٍ ورى سوادَ قرونه ببياضٍ^(١)
وقوله :

خلع الصُّبا عن منكبيه مشيبُ وطوى الذوائبَ رأسه المخضوبُ
نَشَرَ البلى في عارضيه عَقَارِباً بِيضاً لهنَّ على القرون دَبِيب
وقوله يذكر الشباب :

فهل لك يا عيشُ من رجعةٍ بأيامك المونقاتِ الحِسانِ
وهيهات يا عيش من رجعةٍ بأغصانك المائلاتِ الدَّوانِ
لقد صدع الشيبُ ما بيننا وبينك صدعَ الرَّداءِ اليَمانِ
وعَمِيَ بأخرة من حياته ، فحزن حزناً عميقاً ، ومضى يرثى عينيه ويبكيهما
بأبيات مؤثرة ، تصور التبايع والتباغض شديداً من مثل قوله :

يا نفسُ بكِّي بأدمعٍ هُتَنِ وواكفِ كالجُمانِ في سَنَنِ^(٢)
على دليلي وقائدي ويدي ونور وجهي وسائسِ البدنِ
أبكي عليها بها مخافةً أَنْ تَقَرَّنِي والظلامَ في قرَنِ

ولعل في ذلك كله ما يصور براعته في الشعر وكيف كان يحسن نسيجه نافذاً
إلى كثير من دقائق المعاني ورائع الصور والأخيلة . ويقال إن بعض الغلمان قتله
وهو شمل بالخمرة سنة ١٩٦ للهجرة .

عبد الله^(٣) بن أيوب التيمي

كان يُكنى أبا محمد وهو من موالى بنى تَيْمٍ ومن أهل الكوفة ، وقد تركها إلى
بغداد طلباً لجوائز الخلفاء والوزراء والقواد ، وبها انعقدت صلة وثيقة بينه وبين

وأشعاره الأغاني (طبعة الساسي) ١١٥/١٨
وانظر ٣١/١٧ و ٤٥ و الحيوان ٥٠٥/٦
والنجوم الزاهرة ١٨٩/٢ .

(١) الندوب : الكلوم والجراح .
(٢) هتن : غزيرة . واكف : سائل لا ينقطع .
(٣) انظر في عبد الله بن أيوب وأخباره

إبراهيم الموصلي وابنه إسحق ، ثم اتصل بالرشيد والبرامكة ومدحهم جميعاً ونال جوائزهم ، ويقال إنه أخذ من يحيى البرمكى وبنه مائة ألف درهم ، وقد جلتى فى حادثة مشهورة ، ذلك أن الرشيد هزم نقفور صاحب بيزنطة هزيمة ساحقة جعلته يركع على قدميه ويؤدى له الجزية التى افترضها صاغراً . ورجع الرشيد إلى الرقة ، فلما سقط الثلج وأمن نقفور أن يُغزى نقض الصلح المعقود ، وحرار وزراء الرشيد كيف يخبرونه ، ثم رأوا أن يخبره بذلك بعض الشعراء ، وسرعان ما دبج التيمى قصيدة حماسية رائعة ضمّنها الخبر ، ودخل على الرشيد فأنشدها بين يديه قائلاً :

نَقَضَ الذى أعطاكه نَقُفُورُ فعليه دائرة البَوَارِ تَدُورُ
أَبَشِرْ أمير المؤمنين فَإِنَّهُ فَتَحْ أُنَاكَ به الإلهُ كَبِيرُ
نَقُفُورُ ! إِنَّكَ حينَ تَغْدُرُ أَنْ نَأَى عَنْكَ الإمامُ لَجَاهِلُ مَغْرُورُ
أَظَنَنْتَ حينَ غَدَرْتَ أَنَّكَ مَفْلُتُ هَبَلْتِكَ أُمُّكَ ما ظَنَنْتَ غُرُورُ
أَبْقَاكَ حَيْنُكَ فى زواجر بحره فَطَمَتْ عَلَيْكَ من الإمام بحور^(١)

واهتز الرشيد طرباً بشعره ونَشَرَ عليه الدُّرَّ . وزحف بجيوشه حتى أناخ على هرقله ، فافتتحها عنوة ، وذلَّ نقفور وذلَّت الروم .

ويقول صاحب الأغاني إن التيمى اتصل بيزيد بن يزيد ، فلم يزل منقطعا إليه حتى مات ، وليس بين أيدينا ما يصور مدائح له ، وقد بكى فيه بطولته وزياده عن حياض الدولة وفتكه بأعدائها فتكاً ذريعاً حين اختطفه الموت ، وفى ذلك يقول من مرثية رائعة تعد من أجود مرثى العصر :

أَحَقُّ أَنَّهُ أَوْدَى يَزِيدُ تَبَيَّنَ أَهْمَا الناعى المشيد^(٢)
أَتَدْرِى مَنْ نَعِيَتْ وَكَيْفَ فَاهَتْ به شِفَتَاكَ؟! كان بك الصَّعِيد^(٣)
أَحَامَى المجد والإسلام أَوْدَى فما للأَرْضِ وينحك لا تَمِيد^(٤)
تَأْمَلْ هل تَرَى الإسلامَ مَالَتْ دَعَائِمُهُ وهل شاب الوليدُ

(٢) الصميد هنا : القبر .

(٤) تميد : تتحرك وتهتز .

(١) الحين : الموت والهلاك .

(٢) أودى : مات .

وَهَلْ شِيَمَتْ سَيْفُ بَنِي نِزَارٍ وَهَلْ وُضِعَتْ عَنِ الْخَيْلِ اللَّبُودُ^(١)
وَهَلْ تَسْقَى الْبِلَادَ عِشَارُ مُزْنٍ وَهَلْ يَخْضَرُ عَوْدُ^(٢)
أَبْعَدَ يَزِيدٍ تَخْتَزِنُ الْبَوَاكِي دُمُوعًا أَوْ تُصَانُ لَهَا خُدُودُ
وَمَنْ عَجِبَ قَصْدُنَ لَهُ الْمَنَايَا عَلَى عَمْدٍ وَهَنٌ لَهُ جُنُودُ
لَقَدْ عَزَى رُبْعَةً أَنَّ يَوْمًا عَلَيْهَا مِثْلُ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ
وَيَقَالُ إِنْ الرَّشِيدَ كَانَ حِينَ يَسْمَعُ هَذِهِ الْمَرْثِيَةَ فِي قَائِدِهِ يَبْكِي بِدُمُوعِ غَزَارٍ
حَتَّى لَوْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَأْسٌ لَمَلَأَهُ بِدُمُوعِهِ .

ونرى التيمى بعد عصر الرشيد يصل حباله بالأمين ويلجج معه في نقضه لعهد أخيه المأمون ، وله في ذلك قصيدة يقال إن الأمين أعطاه عليها مائة ألف درهم . ولما تطورت الحوادث وانتصر المأمون على أخيه أخذ ينقض ما صاغه في الأمين بمثل قوله :

نُصِرَ الْمَأْمُونُ عَبْدَ اللَّهِ لَمَّا ظَلَمُوهُ
نَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانَا قَدِيمًا أَكَّدُوهُ
لَمْ يَعَامِلْهُ أَخُوهُ بِالَّذِي أَوْصَى أَبُوهُ

وعفا عنه المأمون ووصله ، واتصل بقواده ووزرائه من مثل طاهر بن الحسين والفضل بن سهل ، وفيه يقول^(٣) :

لَعَمْرُكَ مَا الْأَشْرَافُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَإِنْ عَظُمُوا إِلَّا لِفَضْلِ صَنَائِعِ
تَرَى عِظَمَاءَ النَّاسِ لِلْفَضْلِ خُشْعًا إِذَا مَا دَنَا وَالْفَضْلُ لِلَّهِ خَاشِعِ
وَهُوَ يُعَدُّ فِي الْخُلَعَاءِ الْمُجَّانَ ، غَيْرَ أَنْ أَشْعَارُهُ فِي الْخَمْرِ مَتَوَسِّطَةٌ ، وَيُظْهَرُ
أَنَّهُ كَفَّ عَنْهَا بِأَخْرَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ ، وَحَسَنَتْ سِيرَتُهُ ، وَحَسَّنَ إِيمَانُهُ ، يَشْهَدُ لَذَلِكَ
مِثْلُ قَوْلِهِ :

(١) شيمت السيوف : أغدت .

(٢) المزن : السحب . والعشار : جمع عشراء وأصلها الناقة على وشك أن تلد ، يريد المزن الحملة بالأ مطار ، الدرة : أصلها كثرة اللبن

ويريد المطر الغزير .
(٣) قارن الوزراء والكتاب الجهشيارى ص ٣٢٠ بالأغاني ١٨ / ١٩٩ حيث ذكر أبو الفرج أن البيتين في مديح الفضل بن الربيع .

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ فإن ذاك مُضِرٌّ منك بالدين
وارغبْ إلى الله بما في خزائنه فإنما هو بين الكاف والنون
وواضح أنه كان شديد أسر الشعر ، وأنه كان يعرف كيف يصطنى اللفظ ،
سواء أراد الأسلوب الجزل الرصين أو الأسلوب العذب الرقيق . وقد توفي سنة ٢٠٩ للهجرة .

على^(١) بن جبلة

اشتهر بلقبه العكوك ، ومعناه القصير السمين ، وهو من أبناء شيعة العباسيين
الخراسانيين ، وُلد سنة ١٦٠ للهجرة بحى الحربية في بغداد ، وكان ضريراً ،
وفي بعض الروايات أنه وُلد أكمه لا يبصر ، وفي روايات أخرى أنه فقد بصره في
صباه . وجعلته هذه العاهة يتجه إلى الدرس والتعلم ورواية الشعر وحفظه ، وسرعان
ما استبان فيه موهبته الشعرية ، فأخذ ينظم الشعر متكسباً به . ولم تطمح نفسه
إلى مديح الخلفاء ، وإن كان يقال إنه مدح المأمون ، ولكن على كل حال ليس
بين أيدينا شيء من هذا المديح . ونراه يمدح وزيره الحسن بن سهل بمثل قوله :

أعطيتنى يا ولى الحق مبتدئاً عطيةً كافأتْ مدحى ولم ترفى
ماشئتْ برِّفك حتى نلتُ ريقه كأنما كنتَ بالجدوى تبادرنى^(٢)

وأهم ممدوحيه حميد بن عبد الحميد الطوسي وأبو دلف العجلي ، وله في
أولهما قصيدتان يقال إنه أعطاه في كل منهما مائة ألف درهم ، وقد أنشده أولاها
في يوم عيد والثانية في يوم نيروز ، وفيها يقول :

حميدُ ياقاسم الدنيا بنائله وسيفه بين أهل النكث والدين

المهيان للصفدى ص ٢٠٩ و امرأة الجنان لليافعى
٥٣/٢ وشذرات الذهب ٣٠/٢ ووفيات الأعيان
لابن خلكان .
(٢) شام البرق : نظر إليه أين يتجه . والريق :
أول الغيث . الجدوى : العطاء .

(١) انظر في على بن جبلة وأخباره وأشعاره
ابن قتيبة ص ٨٤٠ وابن المعتز ص ١٧١ ،
٤٣٣ والأغانى (طبع الساسى) ١٠٠/١٨
وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دارالمعارف)
ص ١٠٦ وتاريخ بغداد ٣٥٩/١١ ونكت

أنت الزمان الذي يجرى تصرفه على الأنام بتشديد وتلين
لو لم تكن كانت الأيام قد فنيت بالمكرمات ومات المجد مذ حين
صورك الله من مجد ومن كرم وصور الناس من ماء ومن طين
وله فيه مدائح كثيرة ، ومن بديع مديحه فيه قوله وكان يلقب بأبي غانم كناية
عن بطولاته وانتصاراته المدوية في الحروب :

دِجْلَةٌ تَسْقِي وَأَبُو غَانِمٍ يُطْعَم مَنْ تَسْقِي مِنَ النَّاسِ
وَالنَّاسُ جِسْمٌ وَإِمَامُ الْهُدَى رَأْسٌ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّأْسِ
وقوله :

إِنَّمَا الدُّنْيَا حُمَيْدٌ وَأَيَادِيهِ الْجِسَامُ
فَإِذَا وَلَّى حُمَيْدٌ فَعَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ

وعثر القدر بمحمد بن حميد في حروبه مع بابك ، فخرَّ صريعاً في ساحة
البطولة والجهاد لأول سنة ٢١٤ للهجرة ووجدت عليه بغداد والعالم الإسلامي وجداً
شديداً ، ورثاه أبو تمام بمرثٍ رائعة عرضنا لها في حديثنا عنه ، ولعل بن جبلة مرثية
بديعة فيه ويقال بل هي في أبيه حميد ، ويقول أبو الفرج إن البحترى وأبا تمام
سلخا في مرثيتهما أكثر معانيها وفيها يقول :

أَلَلْدَهْرِ تَبْكِي أُمَ عَلَى الدَّهْرِ تَجْزَعُ وَمَا صَاحِبُ الْأَيَّامِ إِلَّا مَفْجَعُ
أُصِيبْنَا بِيَوْمٍ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ أَصَابَ عُرُوشَ الدَّهْرِ ظَلَّتْ تَضَعُضُ
وَكُنْتُ أَرَاهُ كَالرَّزَايَا رُزْتُهَا وَلَمْ أَدْرَ أَنَّ الْخَلْقَ تَبْكِيهِ أَجْمَعُ
نَعَاءُ حَمِيدًا لِلْسَّرَايَا إِذْ غَدَتْ تُذَادُ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَتَوَزَعُ^(١)
كَأَنَّ حَمِيدًا لَمْ يَقْدِرْ جَيْشُ عَسْكَرٍ إِلَى عَسْكَرِ أَشْيَاعِهِ لَا تَرَوُّعُ
وَلَمْ يَبْعَثِ الْخَيْلَ الْمَغِيرَةَ بِالْفُضْحَى مِرَاحًا وَلَمْ يَرْجِعْ بِهَا وَهَى ظُلْمُ^(٢)

(٢) ظلم : من الظلم وهو العرج .

(١) فعاء : اسم فعل أمر من نعى . توزع :

تكتف .

رواجع يحملنَ النَّهَابَ ولم تكن كُتَّابُه إلا على النهب ترجعُ
هوى جَبَل الدنيا المنيعَ وَغَيْثُهَا إل مَرِيحٍ وحامِها الكميُّ المشيعُ^(١)

واستنفذ أبو دلف بعطاياه السنية أكثر مدائحه حتى لم يكذب يبق فيه شيئاً
لغيره ، إلا ما كان من حميد الطوسي ، ومدائحه فيه أبدع وأروع ، وقد طار
منها كثير على كل لسان من مثل قوله فيه :

ملكٌ تَنَدَى أَناملُهُ كانبلاج التَّوْءِ عن مَطَرَةٍ^(٢)
مُسْتَهْلٌ عن مواهبِ كابتسام الروض عن زَهْرَةٍ
إِنَّمَا الدنيا أبو دُلْفٍ بين مَغْزَاهِ وَمُخْتَضِرِهِ^(٣)
فإذا وَلَّى أبو دلف وَلَّتِ الدنيا على أثره

وقوله وقد أسرف في المبالغة :

أنت الذي تُنْزَلُ الأَيَّامَ منزلها وتنقل الدَّهْرَ من حالٍ إلى حالٍ
وما مددتَ مَدَى طَرْفٍ إلى أَحَدٍ إلا قضيتَ بِأَرْزَاقٍ وَأَجَالٍ

ويقال إنه كان يثير المأمون بمثل هذا الشعر في أبي دلف وشعره الآخر في ابن
حميد ، فطلبه وهرب منه إلى الجزيرة ، وحُمِلَ إليه فأمر بإخراج لسانه من قفاه
ثم قتله . وقد رفض ابن المعتز وأبو الفرج هذه الرواية الكاذبة على المأمون المعروف
بانساع أفقه وسباحة نفسه وكرم سجاياه ، وقالوا إنه مات حتف أنفه . وقال بعض
من ترجموا له إنه مات سنة ٢١٣ وفي أخباره أنه رحل إلى عبد الله بن طاهر
في ولايته على خراسان ومدحه فأجزل صلته واستأذنه في الرجوع ، فسأله أن يقيم
واتصل برُّه به ، فلما طال مقامه اشتاق إلى أهله ، فدخل إليه وأنشده من قصيدة
مستأذنا في القفول إلى موطنه :

ملكٌ عَزَمَهُ الزَّما نُ وَأَفْعَالُهُ الدُّوْلُ

(١) المريع : الخصيب . الكمي : الشجاع .

(٢) التو : نجوم تظهر قبل المطر .

العصر العباسي الأول

لَيْتَهُ حِينَ جَادَ لِي بِالْغَنَى جَادَ بِالْقَفْلِ

وأذن له مغدقا عليه من نواله. وعبد الله بن طاهر إنما أقام في خراسان منذ سنة ٢١٤. وفي ذلك دليل على أن وفاة علي بن جبلة تأخرت على الأقل إلى هذه السنة ، وواضح أنه كان يحيد المديح إلى أبعد حد ، وكان يعرف كيف يتصرف بمعانيه ، مع الألفاظ الرشيقة العذبة ، ومن طريف معانيه قوله :

يَأْسُو الذِي يَجْرَحُ أَعْدَاؤُهُ وَمَا لَمَّا يَجْرَحُهُ آسِ
وقوله :

كَأَنَّهُم وَالرَّمَا حِ شَابِكَةٌ أُسْدٌ عَلَيْهَا أَظَلَّتِ الْأَجْمُ
وقوله في مديح أبي دلف :

لَهُ هِمَمٌ لَا مَنْتَهَى لِكِبَارِهَا وَهَمَّتْهُ الصَّغْرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور براعته في صنع الشعر وأنه كان يعتمد إلى لغة سهلة عذبة موفقة ، ودفعه مزاجه الفارسي الحاد إلى الإكثار من المبالغة في نعت ممدوحيه ، حتى ليفرط في ذلك إفراطاً شديداً .

الْخُرَيْمِيُّ

هو أبو يعقوب إسحق بن حسان بن قوهي الخُرَيْمِيُّ ، من صُغْد التُّرْك من مرو ، وهو جزري نزل بغداد ، وكان له ولاء في غطفان جعله يلزم عثمان بن خُرَيْمِ المُرِّي الغطفاني في ولايته على أرمينية ، وظلَّ وُفِيّاً لَهُ ، فَنُسِبَ إِلَيْهِ ، وفيه يقول :

جَزَى اللَّهُ عِثْمَانَ الْخُرَيْمِيَّ خَيْرَ مَا جَزَى صَاحِبًا جَزَلَ الْمَوَاهِبَ مُفْضِلاً

والحيوان للجاحظ وكذلك الطبرى ٤٥٨/٦
٥٢/٧ والكامل للمبرد (طبعة ليبسك)
ص ٧٠٣ ومعجم البلدان ٣٦٣/٥ وكتاب الورقة
لابن الجراح ص ١٠٢ .

(١) انظر في الخُرَيْمِي وأخباره وأشعاره ابن
المعز ص ٢٩٣ وابن قتيبة ص ٨٢٩ وتاريخ
بغداد ٣٢٦/٦ وزهر الآداب ٢٠١/٤ وفهارس
الوزراء والكتاب للجهشياري والبيان والتبيين

كفى جَفَوَةَ الإخوان طول حياته وأورث مما كان أعطى وخوَّلاً^(١)
وفى أخباره ما يدل على أنه كان يكثر من الاختلاف في بغداد إلى مجالس
الأدب ، ويظهر أيضاً أنه كان يختلف إلى مجالس المتكلمين إذ يكثر الجاحظ
في بيانه من النقل عنه . وقد تألق نجمه في عصر الرشيد والبرامكة ، وفيه يقول ابن
المعتمر : « كان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيُعْطَى الكثير » ، ومن شعره في
يحيى البرمكى :

يا راعى السلطان غير مفرطٍ في لبنٍ مختبِطٍ وطيب شِمام^(٢)
حتى تنخنخضاراً بجرائه ورست مراسيه بدار سلام^(٣)

وأكثر مدائحه في صاحبه عثمان المرى وفي محمد بن منصور بن زياد كاتب
البرامكة الملقب بفتى العسكر لقيامه على ديوان الجيش ، وفيه يقول :

زاد معروفك عندي عِظْماً أنه عندك مستورٌ حقيرٌ
تناساهُ كأن لم تأتِه وهو عند الناس مشهورٌ خطيرٌ

ويظهر أن صلة وثيقة انعقدت بينه وبين الحسن بن البَحْبَاح البَلْخِيّ كاتب
الفضل بن يحيى البرمكى ، إذ نراه يكتب له قصيدة بديعة حين ولى مصر للرشيد
سنة ١٩٣ يعبر فيها عن شدة شوقه إليه ، ومدى ما كان يتوثق بينهما من مودة
وصداقة ، وفيها يقول :

إلى صاحبٍ لا يُخلق النَّائى عهده لنا ولا يَشَقَى به من يُصَاقِبُهُ^(٤)
هو الشَّهْدُ سِلْماً والذُّعَافُ عداوةً وبحرٌ على الوُرَادِ تجرى غَوَارِبُهُ^(٥)
فيا حسن الحُسْنِ الذى عمَّ فضله وتمتَّ أياديه وجمتْ مناقبه^(٦)
إليك على بُعْدِ المزار وصعبه نوازعُ شوقٍ ما تُردُّ عَوَازِبُهُ^(٧)

استقروا ستقام .

(٤) يخلق : يبلى . يصاقبه : يجاوره .

(٥) غواربه : أعالي موجه .

(٦) جمت : كثرت .

(٧) عوازيه : جمع عازب وهو البعيد .

(١) خول : أنعم .

(٢) مختبِط : من اختبطه إذا سأله بدون

قراءة أو معرفة . شمام : دنو وقرب .

(٣) تنخنخض : من تنخنخض البعير إذا برك وجثم

على الأرض . الجران : عنقه . وضرب بجوانه :

فهل يرجعن عيشي وعيشك مرةً ببغداد دهرٌ منصفٌ لا نعاتبه
عسى ولعل الله يجمع بيننا كما لاعتمت صدغ الإناء مشاعبه
ومن مدحهم المأمون وأبو دلف قائده ، وكان أبو دلف شاعراً بليغاً محكم
القول ، ولعل ذلك ما جعله يصف شعره له في بعض مديحه بقوله :

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ إزاء القلوب كَرَكِبِ وقوف

وهو تصوير دقيق . ولاحظ بعض معاصريه أن مدائحه التي دبَّجها في ممدوحيه
أحسن من مراثيهم فيهم وأجود ، وسأله في ذلك ، فقال : كنا يومئذ نعمل على
الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبينهما بون بعيد ! ومن بديع رثائه قوله :

وأعددت ذُخْراً لكل مصيبةٍ وسَهْمُ المنايا بالذخائر مولعٌ
ولو شئت أن أبكى دماً لبكيتك عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وله في بغداد حين رماها طاهر بن الحسين بالمجانيق في فتنة الأمين ، فأحرق
كثيراً من قصورها ، وهدم بعض أحيائها ، مراثية طويلة امتدت إلى مائة وخمسة
وثلاثين بيتاً ، بكأها فيها ، وندبها نَدَباً حاراً ، موازناً ماضيها وحاضرها
ومصوراً ما كان فيها من مجون وإثم وما صارت إليه أحيائها من هذا الدمار الذي
صبه الله عليها جزاء طغيانها وفسوقها ، وفيها يقول :

يا بؤس بغدادَ دار مملكةٍ دارت على أهلها دوائرُها
أَمَلُها اللهُ ثم عاقبها لما أحاطت بها كباثرها
رَقَّ بها الدين واستُخِفَّ بذى الـ فَضْلِ وعزُّ النِّسَاكِ فاجرُها
وصار ربُّ الجيران فاسقهُم وابترَّ أمرُ الدروب شاطرُها

وهو في القصيدة ينتصر للمأمون . ونراه يتعرض بالهجاء إلى أبي دلف العجلى ،
ويظهر أنه لم يشبه بما كان يبتغيه منه ، فتحول يهجو به بمثل قوله :

إني وجدت أخى أبادلف عند الفَعال مولد الشَّرَفِ

ومن تولع بهجائهم على بن الهيثم أحد كتاب الدواوين ، وكان يتقعر في كلامه ، حتى ليؤذى من يجالسونه بكثرة ما يورد عليهم من غريب ، وله يقول :

لَا تَشَادِقْ إِذَا تَكَلَّمْتَ وَاعْلَمْ أَنَّ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَشْدَاقًا
وحدث في أثناء رفقته لعمان بن خريم في ولايته على أرمينية أن عقد له في بعض حروبه للترك على أشراف ممن معه ، فكرهوا ذلك ، وما زالوا به ، حتى عزله ، وأثاره هذا الحادث ، فنظم قصيدة فخر فيها بآبائه من الصُّغْد ، وفيها يقول :

أَبِالصُّغْدِ بَأْسٌ إِذْ تُعَيِّرُنِي جُمْلُ سَفَاهًا وَمِنْ أَخْلَاقِ جَارِقِي الْجَهْلُ
فَإِنْ تَفْخِرِي يَا جُمْلُ أَوْ تَجْمَلِي فَلَا فَخْرَ إِلَّا فَوْقَهُ الدِّينُ وَالْعَقْلُ
أَرَى النَّاسَ شَرْعًا فِي الْحَيَاةِ وَلَا يُبْرَى لِقَبْرِ عَلَى قَبْرِ عِلَاءٍ وَلَا فَضْلُ^(١)
وَمَا ضُرُّنِي أَنْ لَمْ تَلِدْنِي يُحَابِرُ وَلَمْ تَشْتَمَلْ جَرْمٌ عَلَى وَلَا عُكْلُ^(٢)

وقد سلكه بعض الباحثين من العرب والمستشرقين في أصحاب نظرية الشعوبية لخریان هذا الفخر على لسانه ، وهو لا يستمد فيه من شعوبية ، إنما يستمد من نظرية الإسلام التي تسوى بين الناس عرباً وموالى ، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . وفي أشعاره ما يدل على حسن تدبُّره وأنه لم يغمس فيما انغمس فيه بعض معاصريه من مجنون أو زندقة يقول داعياً إلى الزهد والتقوى والعمل الصالح :

تَزَوَّدْ مِنَ الدُّنْيَا مَتَاعًا لَغِيرِهَا فَقَدْ شَمَرْتَ حَذَاءً وَأَنْصَرَمَ الْحَبْلُ^(٣)
وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا هَامَةُ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ لِكُلِّ أَنْاسٍ مِنْ طَوَارِقِهَا الذُّكْلُ
وفي الأغاني بترجمة حماد الراوية خبر يدل على معاشرته للمجان ، ولعله مكذوب ، لتأخر عصره عن عصر حماد ، وقد رويت له أشعار قليلة في الغزل ، وقيل إن أول ما نظممه قوله :

بِقَلْبِي سِقَامٌ لَسْتُ أَحْسَنَ وَصَفِهِ عَلَى أَنَّهُ مَا كَانَ فَهُوَ شَدِيدُ
تَمَرُّ بِهِ الْأَيَّامُ تَسْحَبُ ذَيْلَهَا فَتَبْلِي بِهِ الْأَيَّامُ وَهُوَ جَدِيدُ

(٢) يحابر وجرم وعكل : قبائل عربية .
(٣) حذاء : سرية الإِدْبَار .

(١) شرعاً : متساوين لأفضل لأحدهم على الآخر .

ونرى القدماء يلقبونه تارة بالأعور وتارة بالأعمى ، ويظهر أنه فقد إحدى عينيه مبكراً ، ثم فقد الأخرى بعد ما أسنَّ ، وله أشعار كثيرة ، يبكى فيها عينه وبصره ، أنشدنا منها قطعة في الفصل الرابع ، ومن طريف ما نسوقه له هنا قوله :

إذا ما مات بَعْضُكَ فابْنُكَ بعضاً فإن البعض من بعض قريب
يُمْنِي الطبيبُ شفاء عَيْنِي وهل غيرُ الإله لها طبيب
وقوله :

كفى حزناً أن لا أزورَ أَحَبَّتِي من القرب إلا بالتكلف والجهد
وَأَنِّي إِذَا حُيِّيتُ نَاجِيتُ قَائِدِي لِيُعَدِّلَنِي قَبْلَ الإِجَابَةِ فِي الرَّدِّ
وفي أشعاره نزعة واضحة إلى التدقيق في المعاني ، وهو تدقيق أداه إلى الوقوف عند الطباع وتحليلها تسعفه في ذلك ملاحظات نافذة وقدرة على النظرة الكلية في الأشياء ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده قوله :

النَّاسُ أَخْلَاقُهُمْ شَتَّى وَإِنْ جُبِلُوا على تشابه أرواحٍ وأجسادٍ
للخير والشر أهلٌ وكُلُّوا بهما كلُّ له من دواعي نفسه هادٍ
وقوله :

ودون النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَنِيَّةٌ لها مَصْعَدٌ حَزَنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلٌ
وودَّ الْفَتَى فِي كُلِّ نَيْلٍ يُنِيلُهُ إِذَا مَا انْقَضَى لَوْ أَنَّ نَائِلَهُ جَزَلٌ

ونراه يصور الكرم تصويراً بديعاً ، إذ يجعله في بَشَرِ الْمُضْئِفِ وحسن استقباله لا في طعامه وكثرة ذبائحه ، يقول :

أَصَاحِبُكَ ضَيَّفَنِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِي وَيُخَصِّبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيبٌ
وَمَا الْخَصْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثَرَ الْقَرَى وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبٌ
وما يجري هذا المجرى من دقة التفكير وطرافته قوله السائر في الآفاق :

ولستُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى إِذَا كَانَتْ الْعِلْيَاءُ فِي جَانِبِ الْفَقْرِ

وواضح أن اللفظ البارع كان يسند دائماً معانيه وأشعاره ، فلا تجد فيه عوجاً ولا انحرافاً ، بل تجد دائماً المتانة والسهولة ، ويُروى أنه سُئل : ما بال شعرك لا يسمعه أحد إلا استحسنته وقبلته طبيعته ؟ قال : لأني أجاذب الكلام إلى أن يساهلني عفواً ، فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه . وقد توفي سنة ٢١٤ للهجرة .

٥

شعراء الهجاء

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن شعر الهجاء المنبعث عن العصبية القبلية خفت حدّته في هذا العصر ، حتى كاد يتلاشى ، إلا بقايا قليلة تمثلت في نقائض ابن قنبر ومسلم بن الوليد ، كما تمثلت في نقائض دعبيل وأبي سعد المخزومي ، ومرجع ذلك إلى تطور واسع في الحياة ، جعل الفخر الجنسي يحل محل الفخر القبلي ، مما دفع إلى ظهور الشعبية ، وحقاً بقيت أسراب من هذا الفخر عند القبائل ومواليها ، على نحو ما نجد عند بكر بن النطاح الحنفي في مثل قوله مفتخراً بقبيلته بكر ^(١) :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعْشُ بِحَسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلِ
وكان أبو نواس - كما مرّ بنا - يفتخر بمواليه القحطانيين افتخاراً حاداً ، ولكن الدولة كانت له ولبكر وأمثالهما بالمرصاد فقد حبس الرشيد أبا نواس بسبب إحيائه لهذه العصبية ، وطلب بكرأ وهرب منه . وعلى هذا النحو لم تعد تحتدم العصبية وبالتالي خبّست نار النقائض التي كانت مشتعلة في عصر بني أمية . وليس معنى ذلك أن الهجاء انطفأ لهيبه ، بل لقد تعالت نيرانه واضطربت اضطراباً ، إذ ظل الشعراء يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو وال أو قائد أو قصّر في عطائهم ، وقد يهجون بعض الخلفاء على نحو ما أسلفنا عند دعبيل . وهو جانب أوسع من أن يستقصى لكثرة ما قيل فيه من أشعار ، ولذلك سنكتفي هنا بالحديث عن تهاجي الشعراء بعضهم مع بعض ، وقد ذكرنا قبلاً تهاجي حماد عجرد وشار

(١) ابن المعتز ص ٢١٧ وما بعدها والأغاني (طبعة الساسي) ١٥٤/١٧ .

وكانت في حماد رعونة شديدة جعلته يتبادل الهجاء حتى مع أصدقائه مثل مطيع بن إياس ، وكان مبعث تهاجيهما تنافسهما على بعض القيان . ولعل شاعراً لم يُهَنِّج في هذا العصر كما هُجِيَ أبان بن عبد الحميد ، وقد عرضنا لتهاجيه مع أبي نواس ، ومن أكثر من تبادل الهجاء معه المعذل بن غيلان ، وفيه يقول (١) :

صَحَّفْتُ أُمَّكَ إِذْ سَمَّيْتُكَ بِالْمَهْدِ أَبَانَا
 قَدْ عَلِمْنَا مَا أَرَادَتْ لَمْ تُرِدْ إِلَّا أَتَانَا
 صَيَّرَتْ بَاءَ مَكَانِ الدَّاءِ وَاللَّهِ عَيَانَا
 قَطَعَ اللَّهُ وَشَيْكََا مِنْ مَسْمِيكَ اللِّسَانَا

وكان أبو نواس كثير التعابث فأكثر من هجاء زملائه ، وسلقوه بالسنة حداد ، وفي مقدمتهم الفضل بن عبد الصمد الرقاشي ، وكان كثيراً ما يهجوهُ بأنه ليس عربياً وأنه دعي في ولاته لبني سعد العشيرة القحطانيين ، مما جعله يرد عليه بمثل قوله (٢) .

وجدنا الفضل أبعد من رقاش من الأثنى ادَّعَتْ فِيهَا الْفِيُولُ
 وجدنا الفضل أكرم من رقاش لِأَنَّ الْفَضْلَ مَوْلَاهُ الرَّسُولُ
 يشير بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنا مولى من لا مولى له » .
 قد مرَّ بنا تهاجي أبي العتاهية ووالبة ، وكيف انتصر عليه أبو العتاهية انتصاراً حاسماً حتى فرَّ منه راجعاً إلى الكوفة وخمل ذكره . واصطدم أبو العتاهية بسلم الخاسر ، فتبادلا الهجاء على نحو ما صورنا ذلك في ترجمتنا لأولهما ، وكان سلم يرميه بأنه كاذب في زهده ويرميه أبو العتاهية بشُحِّ نفسه وما يحجره ذلك عليه من الذل . ومن اصطدم به مروان بن أبي حفصة وأبو الشمقمق وشاعر يسمى الجنيّ وله يقول (٣) :

غَدَا اللُّؤْمُ يَبْغِي مَطْرَحًا لِرِحَالِهِ فَتَنْقُبُ فِي بَرٍّ الْبِلَادُ فِي الْبَحْرِ

(٢) أغاني ١٠/٩٢ وما بعدها .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/٢٢٧ .

(٢) ديوان أبي نواس . وأغاني (ساجي) ١٥/٣٤ .

فلما أتى مروانَ خَيْمَ عنده وقال رَضِينَا بالمقام إلى الحَشْرِ
وليسَتْ لمروانٍ على العَرَسِ غَيْرَةٌ ولكنَّ مروانًا يغار على القِذْرِ
وكان دَعْبِل كثير الهجاء لكل من يظن أنه ارتفع على مرتبته من الشعراء حتى
أستأذه مسلم بن الوليد لم يسلم منه ، وربما كان أهمُّ شاعر حسده أبا تمام ، حتى
كان لا يكتفى بهجائه ، بل يدعى عليه أنه سرق قصائد برمتها من الشعراء السابقين
وفيه يقول^(١):

أدْعِبُ إن تطاولتِ الليالي عليك فإن شعري سَمٌّ ساعه
وما وفد المشيبُ عليك إلا بأخلاق الدناءة والوضاعة
ووجهك إن رضيت به نديماً فأنت نسيجُ وحدك في الرقاعة
ولو بُدِّلته وجهاً بوجه لما صليت يوماً في جماعه
وكانت صلاتُ أبي تمام في كل بيثة ينزل بها سبيّاً في كثرة مَنْ هجوه ، وقد
صورنا ذلك من بعض الوجوه في حديثنا عنه . ونحن نخص بالحديث هَجَاءَ ابن
كبيرين هما أبو عُيَيْنَةَ المهلبي وعبد الصمد بن المعدل .

أبو عيينة^(٢) المهلبي

هو أبو عيينة بن محمد بن أبي عُيَيْنَةَ ، من سلالة المهلب بن أبي صفرة ،
مولده ومنشؤه وحياته في البصرة ، إذ لم يفارقها إلا لماماً ، وكان أبوه يولّي الري لأبي
جعفر المنصور ، ثم قبض عليه وجسه وغرّمه . وكان لأبي عيينة أخوان شاعران
هما عبد الله وداود ، ومن الغريب أنهم جميعاً كانوا هجائين ، أما عبد الله فقصد
ابن طاهر ومدحه ، ثم هجاه هجاء مرّاً ، وأما داود فتعلق بهجاء آل سليمان بن
علي وإلى البصرة ، وقد تولاهما من أبنائه غير واحد ، وفيهم يقول :

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم واستوثقوا من رِتاج الباب في الدارِ

ص ٢٨٨ وابن قتيبة ص ٨٤٧ وما بعدها والأغاني
(طبعة الساسي) ١٨ / ١١ وما بعدها .

(١) أغاني (طبعة الساسي) ١٨ / ٣٤ .
(٢) انظر في أشعار أبي عيينة وأخباره ابن المعتز

لَا يَقْبِسُ الْجَارُ مِنْهُمْ فَضْلَ نَارِهِمْ وَلَا تَكْفُ يَدٌ عَنْ حُرْمَةِ الْجَارِ
 وَأَبُو عَيْنَةَ أَشْعَرُ الثَّلَاثَةِ ، وَيَقُولُ ابْنُ الْمُعْتَزِلَانِ « أَحَدُ الْمُطْبُوعِينَ الَّذِينَ لَمْ يُرَفَّ فِي
 الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ أَطْعَمَ مِنْهُمْ ، وَهُمْ بِشَّارٌ وَأَبُو الْعَتَاهِيَةِ وَالسَّيِّدُ الْحَمِيرِيُّ وَأَبُو عَيْنَةَ » .
 وَقَدْ اسْتَغْلَ مَوْهَبَتُهُ فِي فَنَيْنِ هُمَا الْمُهْجَاءُ وَالْغَزَلُ ، وَأَكْثَرُ هِجَائِهِ فِي ابْنِ عَمِّهِ خَالِدِ
 ابْنِ يَزِيدَ بْنِ حَاتِمَ بْنِ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُهَلَّبِ إِذْ صَحَبَهُ مَعَهُ فِي جَنْدِهِ حِينَ تَوَجَّهَ إِلَى
 جَرْجَانَ وَالْيَأْ عَلَيْهِمَا لِلْمُهْدِيِّ وَكَانَ خَالِدٌ قَدْ أَوْسَعَ لَهُ فِي الْأُمَانِيِّ وَأَنَّهُ سَيَغْدُقُ عَلَيْهِ
 وَيُولِيهِ بَعْضَ الْوَلَايَاتِ ، وَلَمَّا نَزَلَ جَرْجَانَ جَفَاهُ وَتَنَكَّرَ لَهُ ، فَبَسَطَ لِسَانَهُ فِيهِ وَذَكَرَهُ
 بِكُلِّ قَبِيحٍ عِنْدَ أَهْلِ عَمَلِهِ وَوَجْهِهِ رَعِيَّتِهِ . وَعَبَثًا حَاوَلَ أَبُو عَيْنَةَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهُ وَمِنْ
 الْجَنْدِيَّةِ ، فَشَكَاهُ إِلَى الْهَادِي وَكَانَ قَدْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ بَعْدَ أَبِيهِ ، فَأَمَرَ لَهُ بِصَلَّةٍ وَأَقْفَلَهُ
 مِنْ جَيْشِ خَالِدٍ ، فَعَادَ وَهُوَ يَهْتَفُ بِهِجَائِهِ ، وَأَكْثَرَ مِنْهُ كَثْرَةَ تَدَلٍّ عَلَى قُوَّةِ طَبْعِهِ
 وَخَصْبِهِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِيهِ :

لَقَدْ خَزَيْتَ قَحْطَانَ طُرًّا بِخَالِدٍ فَهَلْ لَكَ فِيهِ - يُخْزِيكَ اللَّهُ - يَا مُضَرَّ
 دَفِئَ بِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ بِلَادَةً لِكُلِّ قَبِيحٍ عَنْ ذِرَاعِيهِ قَدْ حَسَرَ
 لَهُ مِنْظَرٌ يُعْمَى الْعَيُونُ سَمَاجَةً وَإِنْ يُخْتَبَرُ يَوْمًا فَيَا سُوءَ مُخْتَبَرٍ
 أَبُوكَ لَنَا غَيْثٌ نَعِيشُ بِوَبْلِهِ وَأَنْتَ جَرَادٌ لَيْسَ يَبْقَى وَلَا يَذَرُ
 لَهُ أَثَرٌ فِي الْمَكْرَمَاتِ يَسْرُنَا وَأَنْتَ تَعْفَى دَائِمًا ذَلِكَ الْأَثَرُ
 تَسْبِيءٌ وَتَمْضَى فِي الْإِسَاءَةِ دَائِبًا فَلَا أَنْتَ تَسْتَحْيِي وَلَا أَنْتَ تَعْتَذِرُ
 وَيَقَالُ إِنْ الرَّشِيدَ أَنْشَدَ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ ، فَقَالَ : بَلِ الْخَزْيُ مَوْقَرٌّ عَلَى قَحْطَانَ .
 وَقَدْ عَرَفَ كَيْفَ يَخْزُهُ وَخَزَ الْإِبْرَ لَا بِمَا صَوَّرَ فِيهِ خَزْيُهُ الَّذِي عَمَّ بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَخْلَاقَهُ
 السَّيِّئَةَ وَغَبَاوَتَهُ ، بَلِ أَيْضًا بِمَوَازِنَتِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ جَامِعًا فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ بَيْنَ الْمَدِيحِ
 وَالْمُهْجَاءِ . وَهُوَ يَكْثُرُ فِي هِجَائِهِ مِنَ الْاسْتِخْفَافِ بِهِ وَالسَّخَرِيَّةِ سَخَرِيَّةً شَدِيدَةً ، مَعَ
 الْإِقْدَاعِ وَمَعَ الْغَمَزِ وَاللَّمَزِ ، وَمِنْ طَرِيفِ مَا لَهُ فِيهِ قَوْلُهُ :

خَالِدٌ لَوْلَا أَبُوهُ كَانَ وَالْكَلْبُ سِوَاءَ
 لَوْ كَمَا يَنْقُصُ يَزْدَا دُ إِذْنُ نَالَ السَّمَاءَ

وقوله :

وَإِذَا تَطَاوَلَتِ الرَّؤُوسُ سُ فَغَطَّ رَأْسُكَ ثُمَّ طَاطِطٌ

ويروى أنه ^(١) قصد ابن عمه ربيعة بن قبيصة بن روح بن حاتم المهلبى واستباحه فلم يجد عنده ما قدَّره فيه ، فولَّى عنه مغاضبا وعرف ذلك داود بن يزيد بن حاتم ابن قبيصة المهلبى ، فترضاه بصلة سنية جعلته يمدحه مدحا رائعا هاجيا فى تضاعيفه قبيصة هجاء كله سموم من مثل قوله :

دَاوُدُ مَحْمُودٌ وَأَنْتَ مُذَمَّمٌ عَجَبًا لَذَاكَ وَأَنْتَا مِنْ عَوْدٍ
وَلِرُبِّ عَوْدٍ قَدْ يُشْتَقُّ ، لِمَسْجِدٍ نَصَفٌ ، وَسَائِرُهُ لِحُشٍّ يَهُودٍ
فَالْحُشُّ أَنْتَ لَهُ وَذَاكَ لِمَسْجِدٍ كَمْ بَيْنَ مَوْضِعِ مَسْلَحٍ وَسُجُودٍ
دَاوُدُ يَفْتَحُ كُلَّ بَابٍ مُغْلَقٍ يَنْدَى يَدَيْهِ وَأَنْتَ قُفْلُ حَدِيدٍ

وكانما كان موكلا بهجاء أبناء أعمامه ، وأيضا بناتهم ، فقد روى صاحب الأغاني أن ابن عمه سعيد بن المهلب تزوج بنت سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، وكانت قد تزوجت قبله رجلين ماتا عنها ، فكتب أبو عيينة إليه ، يعنِّفه على اختياره لها وأنه إنما اختارها بسبب مالها ، يقول :

رَأَيْتَ أَثَاثَهَا فَطَمَعْتَ فِيهِ وَكَمْ نَصَبْتَ لَغَيْرِكَ مِنْ أَثَاثٍ
فَصَبِرٌ أَمْرَهَا بِيَدَيَّ أَبْيَهَا وَسَرَحٌ مِنْ حِبَالِكَ بِالثَّلَاثِ ^(٢)
وَالْإِلَّا فَالْسَّلَامُ عَلَيْكَ مِنِّي سَأَبْدُ مِنْ غَدٍ لَكَ بِالْمَرَاثِ

وكانت فاطمة بنت عمه عمر بن حفص المهلبى قد شغفته حباً ، وتصادف أن اقترنت بعيسى بن سليمان بن على العباسى ، فكاد يُجَنُّ جنونه ويطير صوابه ، وظل يدور حولها وينظم فيها أشعاره ، غير أنه كان يخشى زوجها وآله ، فعمد إلى التكنية عنها بمولاة لها تسمى دنيا ، وفى ذلك يقول :

وَكُتِمْتُ اسْمَهَا حِذَارًا مِنَ النَّاسِ سَ وَمِنْ شَرِّهِمْ وَفَى النَّاسِ شَرٌّ

أخيه أبى عيينة ، مما يدل على أنه صاحب الخبر .
(٢) سرح : طلق .

(١) نسب أبو الفرج الخبر إلى عبد الله ،
ولكن ابن المعتز نسب الشعر المصاحب له إلى

ويقولون بُحْ لَنَا بِاسْمِ دُنْيَا واسمُ دُنْيَا سِرٌّ عَلَى النَّاسِ ذُخْرٌ
وهو يكثرُ في أشعاره لها من تصوير ذكرياته معها ، وزياراته ، التي كانت
متصلة لها قبل زواجها وكيف كانت تبادله وُدًّا بود وحبًّا بحب ، وكيف كانا
يُجتمعان في قصرها الفخم وما حوله من رياض رائعة ، وكيف كانا يلعبان ويعيشان
منذ صغرهما ، يقول :

وَمَلَعْنَا فِي النِّهْرِ وَالْمَاءِ زَاخِرٌ قَرِينِينَ كَالْفَصْنَيْنِ فَرَعِينَ فِي أَصْلِ
وَمِنْ حَوْلِنَا الرِّيحَانُ غَضًّا وَفَوْقَنَا ظِلَالٌ مِنَ الْكَرْمِ الْمَعْرُشِ وَالنَّخْلِ
إِذَا شَدَّتْ مَالَتْ بِي إِلَيْهَا كَأَنِّي إِلَى غُصْنِ بَانٍ بَيْنَ دِعْصَيْنِ مِنْ رَمَلٍ^(١)
فِيَا طِيبَ طَعْمِ الْعَيْشِ إِذْ هِيَ جَارَةٌ وَإِذْ نَفْسُهَا نَفْسِي وَإِذْ أَهْلُهَا أَهْلِي
وَإِذْ هِيَ لَا تَعْتَلُّ عَنِّي بِرِقْبَةٍ وَلَا خَوْفَ عَيْنٍ مِنْ وَشَاقٍ وَلَا بَعْلٍ
فَقَدْ عَفَّتِ الْآثَارُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَقَدْ أَوْحَشْتُ مَنِي إِلَى دَارِهَا سُبُلِي
وكانت سيدة فاضلة ، فكانت لا ترد عليه رسائله وكانت تنتهر رسله ، بينما
هو يصطلي بنار الحب المحرقة ويتعذب كما لم يتعذب أحد ، ملوِّحاً لها بأنه سيموت
في سبيلها وأن أحداً لن يحزن عليه حزنها لجامعة القرابة والحب القديم ، يقول :

وَلَأَنْتِ إِنْ مِتُّ الْمَصَابَةُ بِي فَتَجَنَّبِي قَتْلِي بِلَا وَتَرٍ
فَلَنْ هَلَكْتُ لَتَلَطِّمِينَ جَزْعاً خَدَّيْكَ قَائِمَةً عَلَى قَبْرِى
وعلى هذا النحو ظل حبها قوياً حاراً في قلبه ، وظلت تردده عنها في عنف تارة
وفى رفق تارة ثانية ، وهو يذكرها عهودهما القديمة وكيف أنه يبني لها وفاء شديداً ،
بينما هي تدافعه وتقاومه قاطعة لكل عهد وسبب بينها وبينه ، وهو كل يوم يزداد
بها كلفاً وغراماً وحبًّا ما فوقه حب ، وفي ذلك يقول :

أَرَى عَهْدَهَا كَالْوَرْدِ لَيْسَ بِدَائِمٍ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَدُومُ لَهُ عَهْدُ
وَعَهْدِي لَهَا كَالْآسِ حُسْنًا وَبَهْجَةً لَهُ نُضْرَةٌ تَبْقَى إِذَا مَا انْقَضَى الْوَرْدُ

وما وَجَدَ العُذْرِيَّ إِذْ طَالَ وَجْدُهُ بعفراءَ حتى سَلَّ مهجته الوجدُ
 كوجدى غداة البين: عند التفاتها وقد شَفَّ عنها دون أترابها البُرْدُ
 فقلت لأصحابي هي الشمسُ ضوءها قريبٌ ولكنْ في تناولها بُعْدُ
 وفي أشعاره ما يدل على أنه فارق البصرة مع ابن عمه خالد بن يزيد طلباً للسَّلْوَى
 عنها ، ولكنه ظل هناك يذكرها ويذكر حبها متغنياً به وبها ، وعاد يدور حول
 بيتها لا يستطيع كظم حبه ، بل يعلنه إعلاناً ويكرر هذا الإعلان مازجاً له
 بكثير من التضرع والاستعطاف ، وصاحبته لا تُعْنَى به ولا تكثرث ، وهو يزداد بها
 شغفاً وهياماً ناظماً فيها أشعاره البديعة من مثل قوله :

ضَيَّعْتَ عهدَ فتى لعهدك حافظٍ . في حفظه عجبٌ وفي تضجيعك
 ونأيَمَ عنه فماله من حيلةٍ إلا الوقوفُ إلى أوان رجوعك
 متخشعاً يُذْرى عليكِ دموعُهُ أسفاً ويعجب من جمود دموعك
 إن تَفْتَنِيهِ وتذهبي بفؤاده فَبِحُسْنِ وجهك لا بِحُسْنِ صنيعك
 وأكبر الظن أنه ظل يذكرها ويتغنى بها حتى الأنفاس الأخيرة من حياته ،
 وقد جرَّته غيرته من زوجها إلى لَمْزِه ببعض هجائه . وكانت له نظرات وتأملات
 دقيقة في الحياة جعلت الحكمة تجرى أحياناً على لسانه ، ومن رائع ما يروى له
 في تصوير القدر والحظوظ :

مالا يكون فلا يكون بحيلةٍ أبداً وما هو كائنٌ فيكونُ
 سيكون ما هو كائنٌ في وقتهِ وأخو الجهالة مُتَعَبٌ معزونُ
 يسعى القوى فلا ينال بسعيهِ حظاً ويعظى عاجزٌ ومهينُ

وواضح من كل ما قدمنا أنه كان نبعاً غزيراً من ينابيع الشعر العباسي ،
 ويقول ابن المعتز إن « شعره أتى من الراحة ، ليس فيه عيب ولا بيت يسقط » .
 ويقول أبو الفرج : « كان أبو عيينة من أطيع الناس وأقربهم مأخذاً . . . وكان
 يقرب البعيد ويحذف الفضول ويُقلِّ التكلف » . وفي حديث ابن المعتز عنه
 ما يدل على أنه لحق خلافة المأمون ويظهر أنها لم تظله طويلاً .

عبد الصمد^(١) بن المعذل

من قبيلة عبد القيس ، ومولده ومنشؤه بالبصرة ، وهو من بيت شعر ، كان جده غيلان بن الحكم شاعراً ، ويروى أن محمد بن سليمان العباسي كان يستخدمه في ولايته البصرة على بعض أعشارها ، فظهرت منه خيانة فعزله وأخذ ما خانه فيه ، فقال حماد عَجْرَد يهجو بهذين البيتين اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع :

ظَهَرَ الْأَمِيرُ عَلَيْكَ يَا غَيْلَانُ إِذْ خُنْتَهُ إِنْ الْأَمِيرُ مُعَانُ
أَمَعَ الدِّمَامَةَ قَدْ جَمَعْتَ خِيَانَةً قَبَحَ الدِّمِيمِ الْفَاجِرُ الْخَوَّانُ

وكان ابنه المعذل شاعراً مجيداً ، وقد أسلفنا ما نشب بينه وبين أبان بن عبد الحميد من هجاء كانا يتعابثان به ، ومن طريف ما يُنسب إليه من شعر قوله :

وإني لصَبَّارٌ على ما ينوبني وحسبك أن الله أثنى على الصَّبْرِ

وأم عبد الصمد أم ولد يقال لها الزرقاء ، وكان له أخ يسمى أحمد كان شاعراً أيضاً ، يقول أبو الفرج : « كان عفيفاً ذا مروءة ودين وتقدم في المعتزلة » . وفي أشعار عبد الصمد ما يدل على أنه كان يختلف إلى حلقات الرواة واللغويين إذ يقول :

لَنْ تَلْبَسُوا مَنْطِقِي بِمَشْكَلَةٍ إِلَّا عَنْ الْأَصْمَعِيِّ أَوْ خَلْفِ^(٢)

يريد خلفاً الأحمر . وكان على عكس أخيه أحمد فيه لهُو ومجون وتعابث ، وكان هَجَاءً خبيث اللسان حتى ليصبح المهجاء عنده كأنه غريزة ، فإذا هو يتناول به أخاه ، وكان له جاه واسع في بلده وعند حكامه لا يقاربه عبد الصمد

الوفيات والأوراق للصولي (قسم أخبار الشعراء)
ص ٣٩ ، ٥٣ ، ١٣٦ والوساطة بين المتنبي وخصومه
(طبعة الحلبي) ص ١٢١ و ٢٩١ و ٣٠١ .
(٢) لبس الأمر : خلطه .

(١) انظر في عبد الصمد وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٣٦٨ والأغاني (طبعة دار الكتب)
٢٢٦/١٣ وما بعدها و ٣٦١/١٤ وما بعدها
وكتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٠ وقواف

فيه فكان يحسده ويهجوّه فيحلم عنه ، وحدث أن قدم على بعض الخلفاء فأكرمه وخلع عليه ووصله بمال كثير ، ورجع إلى البصرة ، فاستقبله جلّتها استقبالا حافلا ، أما عبد الصمد فاستقبله بقوله :

ولما أن أنته دُرِيَهَمَاتٌ من السلطان باع بهنّ ربّة
كسبت أبا الفضول لنا معاباً وعاراً قد شملت به وُسبة

وفكر أحمد في أن يجاور في الثغور ويجاهد في جيش إسحق بن إبراهيم المصعبي صاحب بغداد وحاكمها ولم يكده يلقاه حتى أنشده شعراً مدحه به ، فأمر له بخمسمائة دينار . وبدأ لأحمد أن يعود إلى البصرة ، فتلّقه عبد الصمد بقوله :

يُرى الغزاة بأن الله هِمَّتُهُ وإنما كان يغزو كَيْسَ إسحاق
فباع زهداً ثواباً لا نفاذه وابتاع عاجلَ رِفْدِ القوم بالباقي^(١)

وكان لا يخفّ على نفسه أحد أبناء أخيه ، ويقال إنه كان فيه تيه وعجب ، فتولاه كما تولّى أباه بأهاج كثيرة من مثل قوله :

يا أبغضَ الناسِ في عُسرٍ وميسرةٍ وأقذرَ الناسِ في دُنْيا وفي دين
لو شاءَ ربّي لأضحى واهباً لأنّخي بمرٍّ تُكَلِّك أجراً غيرَ مَمْنونٍ
إن القلوبَ لتطوَى منك يابن أخى إذا رأتك على مثل السكاكين

وطبيعي وهذا شأنه في أهله أن يعظم شره على من حوله من الشعراء ، وأن يقود معهم معارك هجاء كثيرة ، وهى معارك كثرت فيها السهام المسمومة ، على نحو ما نجد في أهاجي خمدان بن أبان له ، إذ قذف أمه الزرقاء طويلاً ، وكان كثيراً ما يأتي هو نفسه الشعراء من هذه الجهة لا يتورّع ، من مثل قوله في أبي رهم :

لو جاد بالمال أبو رهم كجوده بالأخت والأم
أضحى وما يُعرَفُ مثْلُ له وقيل أسخى العُرب والعُجم
واشتبك مع الجَمَّاز ابن أخت سلم الخاسر ، وكان لا يقلّ عنه خبثاً في

هجائه ولا شرّاً ، وكان مما صَبَّهَ الجَمَازَ على رأسه قوله :

ابنُ المَعْدِلِ مَنْ هُوَ ومن أبوه المَعْدِلُ
سَأَلْتُ وَهْبَانَ عَنْهُ فقال : بَيَضُ مُحَوَّلٍ (١)

وكان وهبان رجلاً يبيع الحمام ، فجمع طائفة من أصحابه وجيرانه وجعل يَغْشَى المجالس ويخلف أنه ما قال : عبد الصمد بيض محوّل ويسألهم أن يعتذروا إليه ، فلم يبق خاصٌّ ولا عام إلا رواها ، وردَّ عليه عبد الصمد قائلاً :

نَسَبُ الجَمَازِ مقصودٌ رُ إليه منتهاهُ
ليس يدري من أبو الجَمَّةِ از إلا مَنْ يَسْرَاهُ

غير أن شعره فيه لم يشع على الألسنة ، لأن فهمه يحتاج إلى شيء من الفطنة .
ووقع بينه وبين يزيد بن محمد المهلبى الشاعر تباعد ، فهجاه يزيد ونسبه إلى الشوم ،
فقال له الصاع صاعين ، ونراه يتعرض لأبى تمام حين اجتمع به فى مجلس مزرية
على تكسبه بشعره ، قائلاً له :

أنت بين اثنتين تَبَرُّزُ لِلنَّا س وكلتاها بوجهٍ مُذَالٍ (٢)
لست تنفك طالباً لوصالٍ من حبيبٍ أو طالباً لَنَوَالٍ
أى ماءٍ لحرٍّ وجهك يبقِ بين ذلِّ الهوى وذلِّ السُّؤالِ
وفكر أبو تمام فى إفحامه ، ثم أنشد :

أَفِىْ تَنْظُمٍ قولِ الزُّورِ والفَنَدِ وأنت أنزرت من لاشيء فى العَدَدِ (٣)
أَشْرَجْتَ قلبك من بُغْضِى على حُرْقِ كأنها حركاتُ الروح فى الجَسَدِ (٤)

وكان لا يزال يصبُّ سياط هجائه على جيرانه ومن يختلط بهم من القيان
اللائى يُعَرِّضْنَ عنه وأصحابهم من المقينين ، وله مراثية كلها هجوى فى أحد الطفيليين
وقد صور فيها نهمه وموته من هذا النهم ، استهلها بقوله :

(٣) الفند : الكذب .
(٤) أشرجت هنا : نسجت .

(١) محوّل : حضنه غير أبويه .
(٢) مذال : مهان .

أَحْزَانُ نَفْسِي عَلَيْهِ غَيْرُ مُنْصَرِمَةٍ وَأَدْمَعِي مِنْ جَفَوْنِي الدَّهْرَ مُنْسَجِمَهُ
وله أشعار مختلفة في الغلمان وقصيدة بدبعة يصور فيها عشق جارية مغنية
لشاب كان كاتباً عند مولاها ابن الجوهري وكان شيخاً هِمّاً قبيح الوجه ، وكيف
أنها هربت إليه في جُنْحِ اللَّيْلِ ، وفيها يقول :

خَرَجْتُ وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ لَمْ يَهْلُهَا آيَةٌ سَلَكَتْ
وَعَيُونُ النَّاسِ قَدْ هَجَعَتْ وَدُجَى الظُّلُمَاءِ قَدْ حَلَكَتْ
لَمْ تَخَفْ وَجِداً بِعَاشِقِهَا حُرْمَةَ الشَّهْرِ الَّذِي انْتَهَكْتَ
وَرَأَتْ لِمَا شَفَتْ كَمِداً أَنَّهَا فِي دِينِهَا نَسَكَتْ

وكان يحسن تصوير ما يصفه ، وهو إحسان جعله يبرع في تصوير الطبيعة ،
ويظهر أنه كان يشغف بمناظرها شغفاً شديداً على نحو ما نرى في تصويره لبستانه ،
وكان بستاناً غاصاً بالأشجار والرياحين وفيه يقول :

إِذَا لَمْ يَزُرْ فِي نَدْمَانِيَّةٍ خَلَوْتُ فَنَادَمْتُ بُسْتَانِيَّةَ
فَنَادَمْتُهُ خَضِرًا مُوْنِقًا يُهَيِّجُ لِي ذَكَرَ أَشْجَانِيَّةَ
يَقْرُبُ لِي فَرَحَةَ الْمُسْتَلِدِّ وَيُبْعِدُ هَمِّي وَأَخْزَانِيَّةَ
أَرَى فِيهِ مِثْلَ مَدَارِي الطُّبَّاءِ تَظَلُّ لِأَطْلَانِهَا حَانِيَّةَ^(١)
وَنَوْرَ أَقَاحِ شَتِيتِ النَّبَاتِ كَمَا ابْتَسَمَتْ عَجَبًا غَانِيَّةَ
وَنَرَجِسُهُ مِثْلُ عَيْنِ الْفَتَاةِ إِلَى وَجَدَ عَاشِقِهَا رَانِيَّةَ

وقد مرت بنا في حديثنا عن ازدهار الشعر قطعة طويلة من قصيدته الرائعة في
تصوير حُمَى أصابته تصويراً يدل على دقته في الوصف وإحاطته بتفاصيل ما يصفه .
وبما لا شك فيه أنه كان شاعراً بارعاً خصب القريحة ، وأنه كان يحرص على الألفاظ
المألوفة ، ولكن مع المتانة والرصانة ، وكانت وفاته سنة ٢٤٠ للهجرة .

(١) المدارى : القرون . الأطلان : جمع طلاء

وهو ولد الظبية ساعة يولد . والاستمارة واضحة .

افصل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

كثر الغزل في هذا العصر كثرة مفرطة ، حتى ليتمكن أن يقال إن جميع الشعراء عُنُوا بالنظم فيه ، وهي عناية أعدته لكي يزدهر ازدهاراً واسعاً ، إذ تداوله أفذاذ الشعراء ، وصاغوه بعقلياتهم الحصبة الحديثة وما أوتوه من قدرة على التوليد في المعاني القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة . وقد مضوا يتسعون بكل صورة القديمة حتى النسيب ووصف الأطلال والديار الدارسة ، فقد استبقوا هذا الوصف ، وحاولوا أن يبتثوا فيه طوابع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضري المرهف ، على نحو ما مرّ بنا في الفصل الرابع .

وقد مضى الغزل يجري في نفس التيارين اللذين اندفع فيهما منذ عصر بني أمية ، ونقصد تيارى الغزل الصريح والغزل العفيف ، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفاً ، بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان وروميات وخراسانيات وغير خراسانيات وروميات ، إماء وقيان من كل جنس ، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ويُسَعْنَ فيها كثيراً من صور التحلل الخلقي ، مستبدات بمكان الحرائر القديم من الشعراء . ونفس الشعراء كانت كثرتهم من الموالى الذين نبذوا التقاليد الخلقية الإسلامية والعربية ، إما بعامل الزندقة والشعوبية ، وإما بعامل الترف وما ينتشر معه من فساد الأخلاق . وشتان بين الغزل الصريح في هذا العصر عند مطيع ابن إياس وأبي نواس وأضرابهما وبينه في العصر الأموي عند عمر بن أبي ربيعة والأحوص وأمألهما ، إذ كانوا يحتفظون بغير قليل من الوقار والحشمة ، أما مطيع وأبو نواس ويشار ونظراؤهم العباسيون فقد خرجوا عن كل حشمة ووقار خرجوا يشبه أن يكون ثورة ، بل هو ثورة حقيقية ، فهم يتحدثون في غزلهم عن غرائزهم

النوعية في غير تعفف ولا حياء ولا كرامة ، وقد استحدث كثير من منهم — باستثناء بشار — ضرباً جديداً من هذا الغزل الصريح ، وهو الغزل بالغللمان ، وهو يصور ما انتهت إليه حياتهم من الفساد ، لكثرة الرقيق ، وقد أطلقوا لأنفسهم فيه العنان لا يرفعون ولا يستحون .

وكان يجري بجانب هذا التيار تيار الغزل العفيف ، ولكن مجراه أخذ يضيق ضيقاً شديداً بالقياس إلى عصر بني أمية إذ كان يتسع حتى يشمل بوادي الحجاز وحتى تجرى أسراب منه في مكة عند أمثال عبد الرحمن الجُشَمي الملقب بالقَسَّ لنسكه وفي المدينة عند أمثال عروة بن أذينة . ومن أعلامه في البوادي قيس بن ذريح وجميل بن معمر العُدَري ، حيث نجد الحب النقي الطاهر الذي يملك على الشاعر كل عواطفه وأهوائه ، حتى ليصبح ضرباً من الشيام القوى الحاد الذي يدفع الشاعر إلى التغنى بمحبوبته في شعر عذب لا يחדش حياء ، شعر يموج بالحرمان وحرارة العشق وشدة الظمأ الذي لا ينتهي . وطبيعي أن يضعف هذا التيار في العصر العباسي الأول الذي قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر ، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجوارى ثم بعنَّ وضرب بينهم وبينهن حجاب صفيق ، فعاشوا يتعذبون بالحب ، وعاش الحب في قلوبهم قوياً حاداً ، ومن خير من يصور ذلك على بن أديم الكوفي الذي أحب جارية تسمى « منهلة » منذ صغرها ، حتى إذا أدركت باعها أهلها لبعض الهاشميين ، فطار لبه ، وبكاها بكاء حاراً بمثل قوله (١) :

صاحوا الرحيلُ وحنَّي صَحْبِي قالوا الرواح فطِيرُوا لُبِّي
لا صَبَرَ لِي عند الفِرَاقِ على فَقَدَ الحبيبِ ولوعِ الحبِّ
ويقول أبو الفرج : « له حديث طويل معها في كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما ، فيه ذكر قصصهما وقتاً وقتاً وما قال فيها من الأشعار ، وأمرها متعالماً عند العامة » وفيها يقول (٢) :

يا نُضِبَ عَيْنِي لا أرى حيث التفتُ سواكِ شَيْئاً

إِنِّي لَمَيِّتٌ إِن صَدَدْتُ وَإِن وَصَلْتُ رَجَعْتُ حَيًّا

وعلى شاكلته محمد بن أمية ، وكان يهوى جارية تسمى خِدَاعَ رآها تغنى ببعض دور النخاسة ، فشغف بها شغفاً شديداً واتصلت زيارته لها ، وبادلتها حباً بحب ، ولقيته ، ولكنها ظلت تدافعه عن نفسها ، وكثيراً ما كانت تعده الزيارة ولا تزوره . وهو يقول لها دائماً إِنِّي أَحْبَبْتُكَ ، من مثل قوله ^(١) :

رُبَّ وَعْدٍ مِنْكَ لَا أَنْسَاهُ لِي أَوْجِبَ الشُّكْرَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ

أَقْطَعُ الدَّهْرَ بظَنِّ حَسَنِ وَأَجَلِّي عَمْرَةً مَا تَنْجَلِي

كلما أَمَلْتُ يَوْمًا صَالِحًا عَرَضَ الْمَكْرَهُ لِي فِي أَمَلِي

وَأَرَى الْآيَامَ لَا تُذْنِبِي الَّذِي أَرْتَجِي مِنْكَ وَتُذْنِبِي أَجَلِي

وبينا هو يمني نفسه باقتطاف ثمرة الحب اشتراها بعض ولد المهدي ، فحُجِبَتْ عنه وانقطع ما بينهما إلا مكاتبة ومراسلة . واستقر حبها في قلبه وملك عليه كل شيء من أمره ، ففضى يتغنى بها طويلاً ، وكان خُلاًّئاً يُلومونه ويقولون له : إِنها تبخل عليك بودّها ، فدَعَّهَا إِلَى غَيْرِهَا ، فِينشدهم مثل قوله ^(٢) :

أَنَّ حُجِبَتْ عَنِّي أَجُودُ لغيرها بُوْدِي وَهَلْ يُغْنِي الْمَحَبُّ سِوَى الْبُخْلِ

أَسْرُ بِأَنْ قَالُوا تَضِنُّ بُوْدَهَا عَلَيْكَ وَمَنْ ذَا سُرَّ بِالْبُخْلِ مِنْ قَبْلِي

ويونٌ بعيد بين حرارة هذا الغزل العفيف والغزل المماثل له في عصر بني أمية الذي نقرؤه عند قيس بن ذريح وأضرابه ، فإن غزلهم يصور حباً جامعاً ، وكأن في صدورهم شواظ نار ، فهم يَأْلُمُونَ كما لم يَأْلَمْ أَحَدٌ ، أَلماً تعجز النفوس العادية عن احتماله ، أَلماً يعصف بهم كالسيل المندفع الذي لا يترك لهم رويّة ولا أناة ، إنما يترك لهم الحزن الممض والدموع الغزار . ومن أجل ذلك نقول : إن الغزل العذري في العصر العباسي الأول قد أخذ يضيق مجراه ، لأنه لا يبلغ من التأثير في النفس والقلب ما يبلغه الغزل العنيف الأموي ، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن ، فإذا هو يجري فيه التكلف ولا يكاد يؤثر في العاطفة والشعور إلا قليلاً .

على أنه من الخطأ أن نضع حداً فاصلاً في هذا العصر بين الغزل العفيف والغزل

الصريح فإنه تلقانا عند المصرحين الذين لا يحتشمون ولا يتوقَّرون ، والذين يعبرون عن الحب الجسدى حب الغرائز الذى لا يخلو من الفسوق والإثم أسراب مختلفة من الحب المبرِّح تجعلهم يقتربون أحيانا من أصحاب الحب العفيف ، واقرأ فى بشار مثلاً فستجد عنده كثيراً من الغزل الآثم ، وستجد بجانبه غزلاً ، فيه أوعية ، وفيه ألم وسهاد ، وفيه صبوة يسودها غير قليل من الاحتشام ، على نحو ما يلقانا فى أشعاره لصاحبه عبَّدة ، ومثله أبو نواس فى أشعاره لحنان جارية الثقفين ، وقد ظلت تحلق بعيداً عنه وراء السحب ، والحب يفضيه ويبرِّح به ، ونضرب مثلاً من شعر هؤلاء الخليعين الماجنين يصور كيف كان الحب أحياناً يستأثر بكل ما فى قلوبهم من هوى وعاطفة ، وكيف كانوا يتعمقون فى دقائقه تعمقاً يفضى إلى كثير من السعة والجمال ، وهو هذه القطعة التى أنشدتها صاحب الأغاني لآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز ، وكان خليعاً ماجناً فى أول أمره ، وفيها يقول لصاحبه له (١) :

أَحْبَبُكَ حُبَيْنِ : لى واحدٌ وَآخِرُ أَذْكَ أَهْلٍ لَدَاكَ
فَأَمَّا الَّذِى هُوَ حُبُّ الطَّبَاعِ فَشَيْءٌ خُصِمْتُ بِهِ عَنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِى هُوَ حُبُّ الْجَمَالِ فَلَسْتُ أَرَى ذَاكَ حَتَّى أَرَاكَ
وَلَسْتُ أَمِّنُ بِهَذَا عَلَيْكَ لَكَ الْمَنُّ فِي ذَا وَهَذَا وَذَاكَ

وقد أدخلت رابعة العدوية تعديلاً قليلاً على هذه القطعة ، فأصبحت أمناً للشعر الصوفى كله على نحو ما سنرى فى حديثنا عن شعراء الزهد . وفى الأغاني حشد هائل من أشعار عباسية تتخلص من المادة وأدرانها وتصور جحيم الحب ونعيمه ، كانت تجرى على ألسنة المحبان وأشباههم .

ومررنا فى الفصل الرابع أن شعراء هذا العصر استخرجوا كثيراً من دقائق المعانى فى غزلهم ، فقد كان عقلهم خصباً يقتدر على تشعيب المعانى وتحليلها واستنباط كثير من دقائقها . وكثير من غزلهم لا يصور ذلك فحسب ، بل يصور أيضاً حسهم المترف الدقيق وشعورهم الرقيق المرهف ، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه فى حديثنا عن أعلامهم فى الفصل الخامس . وظاهرة ثالثة هى كثرة العبارات اللينة

فى غزلهم ، وهى شىء طبيعى مردّة إلى حياتهم المتحضرة وأنهم كانوا يتجهون بأكثر غزلهم إلى الجوارى المغنيات ، ولم يكن متبدّيات إنما كن متحضرات ، فكانوا يختارون لمن اللفظ السهل البسيط الذى يلمس القلوب لمساً بدون أى حجاب . وظاهرة رابعة هى شيوع الأوزان المجزوءة والقصيرة فى هذا الغزل ، وقد أوضحنا فى كتاباتنا عن عصر بنى أمية نشوء هذه الظاهرة فى شعر الغزل الأموى بسبب معانقته لنظرية الغناء التى استحدثها الموالى الأجانب ، وكيف أن هذه النظرية دفعت الشعراء دفعاً إلى الملاءمة الدقيقة بين غزلهم وأصوات الغناء ، ووضعهم بحيث يؤدّى ما يريدونه من مدّ أصواتهم بالألحان والهمس بها ، وهى غاية أحدثت فى الأوزان القديمة كثيراً من التجزئة وكثيراً من صور الزحافات ، وما زالت هذه الصور تتسع حتى استكشف الوليد بن يزيد وزن المبحث .

وقد بسطنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » كيف أن هذه الظاهرة نمت فى غزل العباسيين بنمو الغناء ، وكيف دفعت إلى ظهور أوزان جديدة ، هى أوزان المقتضب والمضارع والمتدارك . وفى الفصل الرابع من هذا الكتاب تصوير موجز لذلك . وينبغى أن ننبّه هنا إلى أن الغزل هو الذى دفع الشعراء دفعاً إلى التحوير فى الأوزان القديمة تحويراً نفذوا منه إلى كثير من صور التجديد فيها وفى القوافى .

وظاهرة خامسة تقرّن بالجوارى اللائى كان ينظم فيهن الشعراء ، وذلك أن كثيراً منهن كن مثقفات يحسنّ صوغ الشعر ونظمه ، فكان الشعراء يراسلونهن ، وكانوا أحياناً يفضون إليهن ويتطارحن معهن شعر الغزل . ومن أشهرهن فى هذا الباب عريب جارية المأمون ومتم جارية على بن هشام ودنانير جارية البرامكة وقد عقد ابن المعتز فى آخر كتابه « طبقات الشعراء » فصولاً لطائفة منهن ، على رأسهن عنان جارية الناطفى ، ويقول ابن الجراح : « كانت تجلس للشعراء ويستمعون إليها ، فيلقى عليها كل رجل منهم الأبيات الغريبة والمعانى النادرة فتجيبه بديها ^(١) » ويروى بعض محاوراتها مع أبى نواس ، من ذلك أنه دخل عليها فوجد الناطفى مولاه قد ضربها وهى تبكى فقال :

بكتُ عنانُ فجرى دَمْعُها كالدرِّ قد تُوبع في خيطه
فقلت ، والعبرة في حَلَّتْها :

فليت من يضر بها ظالماً تجفُّ يمناه على سَوَّطه
ويروى ابن الجراح أن شخصاً وجد بيتاً في كتاب ، أعجبه ، فطلب من يجزه
وعزَّ عليه الطلب ، فلجأ إليها ، وأنشدها البيت :

وما زال يشكو الحبَّ حتى سمعته تنفَّس من أحشائه أو تكلِّما
فما لبث أن قالت :

ويبكي فأبكي رحمةً لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
وقد أشاع هؤلاء الجوارى الشواعر كثيراً من الظرف والركة في الغزل العباسي ،
إذ كن يعجبن باللمحة الدالة والخطاطرة الدقيقة . وغيرهن من الجوارى كن يشاركنهم
في تذوق الشعر ، وكن يكتبن ما يستحسن منه على عصائبهن ومراوحهن كما مرَّ بنا
في الفصل الثاني . وكل ذلك عمل على ازدهار الغزل في هذا العصر ازدهاراً واسعاً ،
ونحن نقف عند شاعرين من شعرائه ؛ أحدهما من أصحاب الغزل العفيف ، وثانيهما
من أصحاب الغزل الصريح ، ولكن دون نبو على الذوق ودون ما يؤذى النفوس
المهذبة ، وهما العباس بن الأحنف وربيعة الرقي .

العباس بن الأحنف (١)

عربي من بني حنيفة ، كان آباؤه ينزلون في خراسان ، واتصلوا بالعباسيين ولمع
منهم عمه حاجب إذ انتظم بين رجال الدولة ، ومنشأ العباس ومرباه ببغداد ، ويظهر
أنه نشأ في نعمة وثراء ، جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذي كان يجذب إليه عامة
الشعراء طلباً للنوال والعطاء . وقد أخذ يعيش حياة مرفهة ، يختلط فيها بالشعراء من

١٢٧/١٢ وشذرات الذهب ٢٣٤/١ ووفيات
الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدياء ٤٠/١٢
وقد نشرت ديوانه وحققته عائكة الخرزجي وطبعته
بمطبعة دار الكتب المصرية .

(١) انظر في العباس وأخباره وأشعاره ابن المعتز
ص ٢٥٤ وابن قتيبة ص ٨٠٣ والأغاني (طبعة
دار الكتب) ٣٥٢/٨ و ٣٤٣/١٦ - ٣٤٥
(طبعة السامى) ١٣٥/١٥ وتاريخ بغداد

أمثال أبي نواس وغير أبي نواس ، ولكن دون أن يتردَّى في خلاعتهم ومجونهم . وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دون تعمق ودون لثم ، وفي ذلك يقول ابن المعتز : « كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه ، وكان جواداً لا يُلْبِقُ درهما ولا يحبس ما يملك » . وفي أشعاره وصف للكرة والصوبلحان يدل على أنه كان يمارس هذه الرياضة . ويقولون إنه كان فيه ظرف . وكأنه كان مثال العربي البغدادي المذهب في عصره الذي أخذ بأسباب الترف والنعم أخذاً كان له أثره في ذوقه المصنعي المذهب وشعوره الرقيق المرهف . وقد مضى ينفق حياته في التغنى بعواطفه وجبه ، وفي ذلك يقول أبو الفرج : « كان العباس شاعراً غزلاً ظريفاً مطبوعاً . . وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولعانيه عدوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني ، وقدَّمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضة على نظرائه وأطنب في وصفه . وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه ، وقال : كان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخُلَعَاء ، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً ، وكان ظاهر النعمة ملوكي المذهب شديد الترف ، وذلك بَيِّنٌ في شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلواً مقبولا غَزَرَ لَّا غَزِيرَ الفكر واسع الكلام كثير التصرف في الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحاً » . وقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه ، حتى أصبح من ندمائه ، وحتى صحبه في غزواته بأرمينية وأذربيجان ، ذلك أنه كان إذا غاضب إحدى جواريه أو أدلت عليه أمره بصُنع أبيات يغنى فيها إبراهيم الموصلي ، فتعود صاحبته إليه ، ويتصل بينهما ما انقطع ، من ذلك أنه غاضب ماردة أم المعتصم ، وتوقع أن تبدأه بالترضى ، فلم تفعل حتى أقفلته وأرقته ، وصار بأمر عيش ، وعرف ذلك جعفر البرمكي ، وقيل الفضل بن الربيع ، فأعلم العباس القصة وطلب إليه أن يقول في ذلك شيئاً ، فلم يلبث أن قال :

العاشقان كلاهما متجنبٌ وكلاهما مُتَعَتَّبٌ متغضبٌ

صدَّتْ مغاضبةٌ وصدَّ مغاضباً وكلاهما مما يعالجُ مُتَعَبٌ

راجعْ أَحَبَّتْكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ إِنَّ الْمُتَيْمِّمَ قَلَمًا يَتَجَنَّبُ
إِنَّ التَّجَنُّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمَا دَبَّ السُّلُوكُ فَعَزَّ الْمَطْلَبُ

وَأَلْقَاهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ الْمُوصِلِي فَغَنَّى بِهَا الرِّشِيدَ ، فَلَمَّا سَمِعَهَا بَادِرٌ إِلَى مَارِدَةِ
فَقَرَضَهَا . وَيُقَالُ إِنَّهَا أَمَرَتْ لِلْعَبَّاسِ وَإِبْرَاهِيمَ بِعَشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مُنَاصِفَةً وَأَمَرَ لَهَا
الرِّشِيدَ بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا .

وَانْعَقَدَتِ الصَّلَاةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ زِيَادِ الْمَلَقِ بِقِيِّ الْعَسْكَرِ ،
وَتَصَادَفَ أَنْ رَأَى عِنْدَهُ جَارِيَةً جَمِيلَةً تُسَمَّى فَوْزَ ، فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ ، وَأَخَذَ يَكْثُرُ
مِنْ زِيَارَاتِهِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَرِيدُهَا ، وَعَرَفَتْ حُبَّهُ ، فَكَانَتْ تَصَدَّقُ عَنْهُ ، وَهُوَ يَزْدَادُ حُبًّا
وَشَكْوَى مِنْ أَنَّهَا لَا تَقْبَلُ عَلَيْهِ ، وَأَكْثَرَ مِنْ تَصْوِيرِ إِعْرَاضِهَا عَنْهُ بِمَثَلِ قَوْلِهِ :

قَالَتْ ظُلُومٌ سَمِيَّةٌ الظُّلْمَ مَالِي رَأَيْتَكَ نَاحِلَ الْجِسْمِ
يَا مَنْ رَمَى قَلْبِي فَأَقْصَدَهُ أَنْتَ الْعَلِيمُ بِمَوْضِعِ السَّهْمِ^(١)

وَأَخَذَ يَكْثُرُ مِنْ شَكْوَاهِ وَتَضَرُّعِهِ مَصُورًا سَهَادَهُ وَمَا دَلَعَتْهُ مِنْ نِيرَانِ الْعَشْقِ فِي
قَلْبِهِ ، وَغَدَا مُسْتَهَامًا بِهَا يَجْبِهَا كُلُّ الْحُبِّ وَيُفْتَشِّنُ بِهَا كُلَّ الْفَتَنِ ، حَتَّى لَكَأَنَّهَا
غَدَتْ لَيْلِي وَغَدَا الْجَنُونُ ، فَهُوَ دَائِمًا يَصِفُ صَبَابَتَهُ بِهَا وَوَجْدَهُ وَجَدًا لَمْ يَجِدْهُ أَحَدٌ ،
وَجَدًا يَتَمَقَّقُهُ حَتَّى لِيَصْطَلِيَ بِنَارِهِ الْمَحْرَقَةُ ، وَقَدْ مَضَى بِصُورِ ذَلِكَ لَا فِي قَصِيدَةٍ أَوْ
قَصَائِدٍ مَعْدُودَةٍ وَإِنَّمَا فِي دِيْوَانِ رَائِعٍ ، تَجَدُّ فِيهِ النُّفُوسُ غَدَاءَ رُوحِيًّا مُمْتَعًا ، لِأَنَّهُ يَرْتَفِعُ
عَنِ الْحَسِّ وَالْمَادَّةِ ارْتِفَاعَ الشَّعْرِ الْعَذْرَى الْأُمُومَى ، بِمَا يَصِفُ مِنْ حُبٍّ لَا يَخْمَدُ
أَوَارِهِ ، مِنْ مَثَلِ قَوْلِهِ :

الْحُبُّ أَوَّلُ مَا يَكُونُ لِحَاجَةٍ تَأْتِي بِهِ وَتَسْوِقُهُ الْأَقْدَارُ
حَتَّى إِذَا سَلَكَ الْفَتَى لُجَجَ الْهَوَى جَاءَتْ أُمُورٌ لَا تُطَاقُ كِبَارُ
نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرْ عَيْنًا لَغَيْرِكَ دَمْعَهَا مَدَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنُهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلْبُكَاءِ تُعَارُ

(١) أَقْصَدَهُ : أَصَابَهُ .

وقوله :

أُخْرِمُ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَشَقُوا
صَرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ تَضْيِئُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ

وكانت تكثر بينه وبينها المراسلات ، وربما زارته زورة قصيرة ومضت ،
مخلقة وراءها حسرته وآلامه وعذابه ، وربما اضطرت إلى أن تهجره طويلاً أو قصيراً
أو أن تزور عنه في بعض زياراته لها ، فكان يجزع أشد الجزع ويبكى أحر البكاء
بمثل قوله :

أَبْكَى الَّذِينَ أَذَاقُونِي مَوْدَتَهُمْ حَتَّى إِذَا أَبْقَطُونِي لِلْهُوَى رَقَدُوا
جَارُوا عَلَيَّ وَلَمْ يَوْفُوا بَعْدَهُمْ قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُهُمْ يَوْفُونَ إِنْ عَهَدُوا
لَا أُخْرِجَنَّ مِنَ الدُّنْيَا وَجْهَكُمْ بَيْنَ الْجَوَانِحِ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ

وقوله :

لَمَّا رَأَيْتَ اللَّيْلَ سَدَّ طَرِيقَهُ عَنِّي وَعَذَّبَنِي الظَّلَامُ الرَّائِدُ
وَالنَّجْمُ فِي كِبَدِ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ أَعْمَى تَحِيرَ مَا لَدَيْهِ قَائِدُ
نَادَيْتُ مَنْ طَرَدَ الرِّقَادَ بِصَدِّهِ مِمَّا أَعَالَجَ وَهُوَ خِلَوُ هَاجِدِ
أَلْقَيْتَ بَيْنَ جَفَوْنَ عَيْنِي حَرَقَةً فَلَيْ مَتَى أَنَا سَاهِرٌ يَا رَاقِدِ
وفي قصيدة هذه المقطوعة يقول :

وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَارِقٌ لِلْوَلَدِ الصَّغِيرِ الْوَالِدُ

وخرجت من ملك محمد بن منصور إلى ملك بعض أمراء البيت العباسي وحجَّ
بها ، فضى يبكيها بدموع غزار مصوراً حبه لها وهيامه في أشعار كثيرة من مثل
قوله من رسالة شعرية أرسل بها إليها :

أَزَيْنَ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ أَجِيبِي دَعَاءَ مَشُوقٍ بِالْعِرَاقِ غَرِيبِ
كَتَبْتُ كِتَابِي مَا أَقِيمُ حُرُوفَهُ لَشِدَّةَ إِعْوَالِي وَطُولِ نَحْيِي

أَخْطُ وَأَمْحُو مَا أَخْطُ بِعَبْرَةٍ تَسْحُ عَلَى الْقِرْطَاسِ سَحَّ ذُنُوبٍ^(١)
 أَيَا فَوْزُ لَوْ أَبْصَرْتَنِي مَا عَرَفْتَنِي لَطُولُ نَحْوِي بَعْدَكُمْ وَشَحْوِي
 وَأَنْتِ مِنَ الدُّنْيَا نَصِيبِي فَإِنْ أَمَتِ فَلَيْتَكَ مِنْ حُورِ الْجَنَانِ نَصِيبِي
 أَرَى الْبَيْنَ يَشْكُوهُ الْمَحْبُونُ كُلَّهُمْ فَيَارِبُّ قَرَّبْ دَارَ كُلِّ حَبِيبٍ
 وَعَادَتِ ، وَعَادَ لَهُ عَذَابُهُ بِهَا كَمَا لَمْ يَتَعَذَّبْ أَحَدٌ ، وَقَدْ ظَلَّ يَهْتَفُ بِاسْمِهَا وَحِبِّهَا
 حَتَّى وَافَتْهُ مَنِيَّتُهُ سَنَةَ مِائَةِ وَاثْنَتَيْنِ وَتَسْعِينَ . وَيَقَالُ إِنَّهُ خَرَجَ مَعَ غَلَامٍ لَهُ إِلَى بَعْضِ
 الرِّيَاضِ ، وَقَدْ اعْتَرَاهُ ضَعْفٌ شَدِيدٌ ، فَاسْتَلْقَى تَحْتَ شَجَرَةٍ وَرَفَعَ طَرْفَهُ ، وَهُوَ
 لَا يَكَادُ يَرْفَعُهُ ضَعْفًا ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

يَاسْقِمَ الْجِسْمَ مِنْ مِخْنَةٍ مُفْرَدًا يَبْكِي عَلَى شَجْنَةٍ
 كُلَّمَا جَدَّ الْبَكَاءُ بِهِ دَبَّتِ الْأَسْقَامُ فِي بَدَنِهِ
 ثُمَّ أَغْمَى عَلَيْهِ ، وَأَقْبَلَ طَائِرٌ فَوَقَّعَ عَلَى الشَّجَرَةِ ، وَجَعَلَ يَغْرُدُ ، فَسَمِعَ
 تَغْرِيدَهُ ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ :

وَلَقَدْ زَادَ الْفَوَادَ شَجَى طَائِرٌ يَبْكِي عَلَى فَنَنِهِ
 شَفَّهَ مَا شَفَّقَنِي فَبَكِي كُلُّنَا يَبْكِي عَلَى سَكْنِهِ

ثُمَّ تَنَفَّسَ تَنَفُّسًا مَدِيدًا فَاضْتَبَتْ فِيهِ نَفْسَهُ .
 وَوَاضِحٌ مِنْ كُلِّ مَا قَدِمْنَا أَنْ غَزَلَ الْعَبَّاسُ عَذْرَى طَاهِرَتِي وَأَنَّهُ يَمْتَنَزُ بِجَزَالَةِ
 اللَّفْظِ مَعَ عَذُوبَتِهِ كَمَا يَمْتَنَزُ بِغَزَارَةِ الْمَعَانِي وَالْحَوَاطِرِ حَتَّى لِكَأَنَّمَا يَسْتَمِدُّ مِنْ مَعِينٍ فِي
 نَفْسِهِ لَا يَنْضَبُ . وَكَانَ يَعْمَدُ أَحْيَانًا إِلَى شَيْءٍ مِنْ صُورِ الْبَدِيعِ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَأْتِي
 عَفْوًا ، وَلَا تُؤَثِّرُ أَى تَأْثِيرٍ فِي قُوَّةِ الْعَاطِفَةِ وَانْطِلَاقِهَا كَالسَّيْلِ الْمُنْتَدِفِعِ .

رَبِيعَةُ الرَّقِّيِّ^(٢)

هُوَ رَبِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ ، مِنْ أَهْلِ الرَّقَّةِ ، بِهَا مَوْلَدُهُ وَمَنْشُؤُهُ ، وَكَانَ
 ضَرِيرًا ، وَتَفَتَحَتْ شَاعِرِيَّتُهُ مَبَكْرَةً ، فَأَخَذَ شَعْرَهُ يَشِيعُ ، حَتَّى رَقِيَ إِلَى سَمْعِ الْمَهْدَى ،

١٦/ ٢٥٤ ومعجم الأدباء ١٠/ ١٣٤ ونكت
 الحميان ص ١٥١ .

(١) الذنوب : الدلو المملوءة .

(٢) انظر في ربِيعَة وأخباره وأشعاره ابن المعتز

ص ١٥٧ والأغاني (طبعة دار الكتب)

فأشخصه إليه ، فلدحه بعدة قصائد ، وأثابه عليها عطاء جزيلا . غير أنه حزن إلى موطنه ، فعاد إليه ، وكان لا يبرحه إلا قليلا ، مما كان سبباً في إخمال ذكره ، لبعده عن بلاط الخلفاء ومخالطة الشعراء في بغداد . ولم تَرَوْ له كتب الأدب شيئاً من مديحه في المهدي إنما روت له مقطوعة من قصيدة بديعة قالها في العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس صَفِيَّ الرشيد ، وفيها يقول :

لو قيل للعباس يا بن محمدٍ قل : لا ، وأنت مخلدٌ ، ما قالها
ما إن أعدُّ من المكارم خَصْلَةً إلا وجدتك عمها أو خالها
وإذا الملوك تسامروا في بلدة كانوا كواكبها وكنْتَ هلاكها
وجزاء جزاء بخساً إذ بعث إليه بدينارين ، فجنَّ غيظاً ، وهجاه هجاء مريراً .
وعلم الرشيد القصة فغضب على العباس ، وأمر لربيعة بثلاثين ألف درهم وخلعة .
ومن صلبى هجاءه لنقص عطائه معن بن زائدة ، ومنهم يزيد بن أسيد السلمي ،
وكان قد ردّه ردّاً غير جميل ، بينما أوسع له في العطاء يزيد بن حاتم المهلبى ،
ففى يقول أبياته السائرة :

لشتان ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم -
يزيد سليم سالم المال والفتى أخو الأزد للأموال غير مسلم -
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم -
فلا يحسب التثام أنى هجوته ولكننى فضلت أهل المكارم -

وقد تعلق بغير جارية ، مما جعله ينظم غزلا كثيراً ، ويقول ابن المعتز : أما شعره في الغزل فإنه أشعر أهل زمانه جميعاً ، وما أجد أطبع ولا أصحَّ غزلاً منه ، ويقول أيضاً : « كان ربيعة أشعر غزلاً من أبي نواس لأن في غزل أبي نواس برّداً كثيراً وغزل هذا سليم سهل عذب » . وغزله يُسَلِّك في الغزل الصريح إذ كان فيه لهُو حتى لُقِّبَ بالغاوى ، ومن كان يهواهن جارية يقال لها « عَشْمَة » كانت أمةً لرجل من أهل قرقيسياء ، وقعت في قلبه ، فظل يتغنى بها على شاكلة قوله :

أَعَثَّمَةُ أَطْلَقِي الْعَلَقَ الرَّهِينَا بعيشك وارْحَمِي الصَّبَّ الْحَزِينَا^(١)
تعلق زائراً لك فارحِمِيهِ فقد أورشيت زائرِكِ الْجُنُونَا
ولما أن رآك الناس قالوا تعالى الله ربُّ العالمينا
فقد أعطاك ربُّك فاشْكُريه جمالاً فوق وَصَفِ الواصفينا
إذا أقبلتِ رُغمتِ الناسُ حُسْنَا وإن أدبرتِ قِيدتِ العُيُونَا
وله فيها أشعار كثيرة ، ويظهر أنها أول جارية شُغِف بها ، وقد شُغِف من
بعدها بجارية من جوارى الكَرَّخ ببغداد تسمى « رُخاص » كما شُغِف بأخرى
تسمى داحا ، وفيها يقول :

صَاحِ إني غيرُ صَاحِي أبداً من حُبِّ داحِ
أنا والله قَتِيلٌ لك من غير جراحِ
لا بسيفٍ قَتَلْتَنِي لا ، ولا سُمِّ الرُّمَاحِ
أنتِ للناس قَتُولٌ بالهوى لا بالسَّلاحِ
وبشكلٍ وبِذَلٍ وبِحُسْنٍ ومُزَاحِ
وبعينين صَيُودِي نِ وثَغْرِ كالأفاحي
ليتني كنتُ حَمَاماً لك مقصوص الجناحِ
وله في جارية تسمى « سعاد » أشعار كثيرة أيضاً يصور فيها حبه وهيامه
وما كانت تراسله به من رسائل ، وفي إحدى قصائده فيها يقول :

الحبُّ داءٌ عِيَاءٌ لا دواءَ لَهُ إلا نَسِيمٌ حَبِيبٌ طَيِّبُ النَّسَمِ
أوقبله من فَمٍ نِيلَتِ مُخَالَسَةً وما حرامٌ فَمٌ أَلصقته بِفَمِ
ويظهر أن غزله كان يذيع في عصره وينتشر على كل لسان ، حتى يقال إن
جوارى المهدي من اللائي دفعنه ليحضره من الرقة حتى يستمع منه إلى شعره .
ويتصل بهذا الانتشار ما يُروى من أن صانعي البُسْط كانوا يكتبون أشعاره

عليها ، فقد حدث بعض العباسيين أنه رأى في دَوْرٍ بساط قديم من بسط دار الخلافة هذه الأبيات :

وتزعم أنى قد تبدلتُ خُلَّةٌ سواها وهذا الباطل المتقولُ
لحا الله من باع الصديقَ بغيره فقالت نعم حاشاك إن كنت تفعلُ
مستصبرمُ إنساناً إذا ما صرمتني يحبك فانظر بعده من تبدلُ
شعر ربيعة كله على هذا النحو المصقول ، الذى يروع بسلاسته وجمال
ديباجته ونصاعة ألفاظه ، مع الطبع المتدفق والمعانى اللطيفة . ويقال إنه توفي سنة ١٩٨ للهجرة .

٢

شعراء المحجون والزندقة

كثر شعراء المحجون وما يرتبط به من وصف الخمر فى هذا العصر كثرة مفرطة ، وقد عملت على ذلك أسباب مختلفة ، فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس ، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد ، وساعد على اضطراب النفوس وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية وشيوع المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية ، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيماً . وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التى كأنما كانت أسواقاً للعبث . وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور ، حتى ليمتد إلى الغزل بالغلمان غزلاً يصور - عند أبى نواس وأضرابه - انحطاطاً خلقياً شنيعاً . وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء ، مما أدّى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لتسلطنهن على الحياة المنزلية ، إذ أخذن مكان المرأة العربية الحرة ، وكن مختلفات الأجناس ، وكثيرات منهن كُنَّ قد نُشِئْنَ على اللهو والمحجون والابتذال والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصنة .

وطبيعى لذلك كله أن تنتشر موجة حادة من المحجون ، ومن غير شك تعد الدولة

مسئولة منذ المهدي عن انتشار هذه الموجة، ومعروف أنه اتخذ ديواناً للزنادقة وكان حريصاً به أن يتخذ ديواناً آخر للمجون، ولكنه لم يصنع . وأخذت الموجة تبلغ حدتها العنيفة منذ عصر الرشيد ولكنه لم يحرك ساكناً لاهول ولا من تلاه من الخلفاء ، بل لقد أسهم فيها ابنه الأمين إسهاماً واسعاً ، حتى غدا القصر كأنه حانة ، إن صح ما يرويه الرواة . ونفس الفقهاء والمتكلمين مسئولون إلى أبعد حد عن شيوع هذا الفسق والفساد وقد مضوا يُشغَلون عن المجتمع بمباحثهم الخاصة مهملين ما يدعو إليه الدين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومضى الشعراء من حولهم في الكوفة والبصرة وبغداد يمعنون في المجون والفجور ، وحقاً صرخ شيوخ البصرة من أمثال واصل ومالك بن دينار في وجه بشار وغزله المادى الصريح الذى يفسد به نساء البصرة وشبانها ، وارتفع صياحهم إلى سمع المهدي ، فنهاه عن هذا الغزل ، وانتهى على كره ومضض ، غير أن شيوخ الكوفة وبغداد لم يرتفع لهما صوت . ونفس شيوخ البصرة بعد عصر بشار لزموا الصمت الطويل ، مع اشتداد الفسق والغزل المفحش بالإماء والغلمان ، فقد كان لا يعرف الغزل الأخير ، وكان لا يبلغ من الإفحاش في غزل الإماء ما بلغه الجيل التالى له .

والذى لا شك فيه أن الكوفة سبقت البصرة وبغداد جميعاً لهذا العصر في الفسق والمجون ، إذ غرقت فيهما إلى أذنيها ، وكان مما أعدّ لذلك دار نِخاسة كبيرة قامت بها منذ أواخر عصر بنى أمية ، وهى دار ابن رامين ، وكان قد جلب إليها كثيرات من قيان الحجاز وإماءه المغنيات أمثال سَعْدَة ورُبَيْسَة وسَلَامَة الزرقاء ، وتولع بهن كثير من شباب الكوفة وغيرهم أمثال إسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث وشُرَاعَة بن الزَّئْد بُؤْذ ، ونظموا فيهن كثيراً من الأشعار المادية التى لا تخلو أحياناً من الفحش^(١) . ولم تلبث أن ظهرت جماعة كبيرة من الحبان الخلاء أمثال والبة ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد .

وكان والبة شيطاناً مَرِيداً، فهو يسرف في المجون والخلاعة والغزل الشاذ بالغلمان وكان ينتسب في قبيلة أسد^(٢) ، وهى والعرب جميعاً بُرَاءُ منه ومن فحشه

في والبة ابن المعتز ص ٨٧ وتاريخ بغداد
٥١٨/١٣ .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٦٤/١١ وما بعدها ٥٦/١٥ وما بعدها .

(٢) أغاني (طبعة السامى) ١٤٢/١٦ وانظر

وشذوذه ، وقد أعفاهم منه أبو العتاهية ، إذ نسبته في الروم^(١) ، وهو الذي أدب أبا نواس وأفسده فيما يقول الرواة ، ويقول أبو الفرج إنه كان خبيث الدين . وقد ذهب شعره إلا أطرافاً رواها أبو الفرج وابن المعتز ، وهى تصور كيف كان يجاهر بالفسق والمعصية . ومن خلفوا أبا ناس وجماعته على هذه المجاهرة بكر بن خازمة مولى بنى أسد ، وكان ورّاقاً ضيق العيش مقتصرّاً على التكسب من الوراقة وصرف أكثر ما يكسبه إلى النبيذ ، وكان معاقراً للشراب في منازل الخمارين وحاناتهم وتعشق غلاماً نصرانياً يقال له عيسى بن البراء العبادى الصيرفى ، وله فيه قصيدة مزدوجة ذكر فيها النصارى وشرائعهم وأعيادهم وأديرتهم ، وفيه يقول^(٢) :

زُنارُهُ في خَصْرِهِ معقودٌ كأنه من كَيْدِ مقدودٍ

ولم يلبث كثير من شعراء البصرة أن أمعنوا وراء شعراء الكوفة في هذا الفساد الخلقي ، يقودهم الخاركيّ ، وفيه يقول أبو نواس : « ما مجنتُ ولا خلعتُ العذارحتى عاشرت الخاركي فجاهر بذلك ولم يحترشم فامثلنا نحن ما أتى به وسلكتنا مسلكه ، ونحن ومن يذهب مذهبتنا عيالٌ عليه »^(٣) . وكان طبيعياً أن ينقل شعراء البصرة والكوفة هذا الفساد والتحلل الخلقي إلى بغداد منذ أخذوا يفدون عليها ويقيمون بها في عهد المهدي ومن تلاه من الخلفاء ، يتقدمهم أبو نواس . ومن تجّانها المشهورين الرّقاشي ، يقول أبو الفرج : « كان ماجناً متهاوناً بمروءته ودينه ، وقصيدته التي يوصى فيها بالخلاعة والحجون مشهورة سائرة في الناس ، مبتذلة في أيدى الخاصة والعامة وهى التي أولها :

أوصى الرّقاشيُّ إلى إخوانه وصيّةَ المحمودِ في تُدْمَانِهِ »^(٤)

ويقول ابن المعتز إنها كانت في الغلمان وشرب الخمر والقمار والحِرَاش بين الديكة والكلاب^(٥) . وقد اتسعوا في الحديث عن الخمر ورائحتها ونفّحتها ودنانها وسقاتها وحاناتها وأديرتها ، وتعرضوا طويلاً للرهبان والراهبات وزنايرهم . ونرى أبا الفرج حينما يتحدث عن كثير من هؤلاء الخلعاء الماجنين ينصُّ على

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٦/٢٤٦ .

(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .

(١) أغاني ١٦/١٤٣ وما بعدها .

(٢) أغاني (طبعة السامى) ٢٠/٨٧ .

(٣) ابن المعتز ص ٣٠٦ .

خَبَثَ دِينُهُمْ أَوْ عَلَى زَنْدَقَتِهِمْ وَمَرْقُوسٌ مِنَ الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتُهُ الْغَرَاءُ عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي حَدِيثِهِ عَنْ حَمَادِ الرَّائِيَةِ وَحَمَادِ عَجْرَدٍ وَمَطِيعِ بْنِ إِيَّاسَ ، وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مَذْهَبِ مَزْدَكِ الَّذِي يَدْعُو إِلَى اللَّذَاتِ وَاقْتِرَافِ الْكِبَائِرِ . وَكَانَ مِنَ الزَّانِدَةِ نَفَرٍ أَشْرَبُوا حُبَّ مَذْهَبِ مَانِي وَمَا فِيهِ مِنَ الزَّهْدِ وَالْانْتِصَافِ عَنْ مُسَمَّعِ الْحَيَاةِ وَخَيْرٍ مِنْ يُمَثِّلُهُمْ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ الْأَزْدِيُّ .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن كثيرين ممن تورطوا حينئذ في الخمر والمجون لأوائل حياتهم ، عادوا فتابوا إلى ربهم وأنابوا ، ومن خير من يمثل هذا الفريق آدم ابن عبد العزيز حفيد عمر بن عبد العزيز ، يقول أبو الفرج : « كان في أول أمره خليعاً ماجناً منهمكاً في الشراب ، ثم نسك بعد ما عمر ومات على طريقة محمودة » ويروى أن المهدي شك في أنه زنديق ، فأمر بضربه ثلاثمائة سوط على أن يقر بالزندقة ، فقال : والله ما أشركت بالله طرفة عين ، فقال له المهدي : فأين قولك :

اسْتَقْنِي وَأَسْقِ خَلِيلِي فِي مَدَى اللَّيْلِ الطَّوِيلِ
 قَهْوَةً فِي ظِلِّ كَرَمٍ سُبِّتَ مِنْ نَهْرِ بَيْلٍ^(١)
 فِي لِسَانِ الْمَرْءِ مِنْهَا مِثْلُ طَعْمِ الزَّنَجَبِيلِ
 قُلْ لِمَنْ يَلْحَاكَ فِيهَا مِنْ فُقَيْهِ أَوْ نَبِيلٍ^(٢)
 أَنْتَ دَعَّاهَا وَارْجُ أُخْرَى مِنْ رَحِيقِ السَّلْسَبِيلِ^(٣)
 تَعْطَشُ الْيَوْمَ وَتُسْقَى فِي غَدٍ نَعْتِ الطَّلُولِ

فقال للمهدي : كنت فتى من فتیان قريش ، أشرب النبيذ ، وأقول ما قلتُ على سبيل المجون ، والله ما كفرت بالله قط ، ولا شككت فيه . فخلّني سبيله ورقاً له^(٤) . وأمثال آدم كانوا كثيرين . ونحن نقف عند ثلاثة من أبرز شعراء الزندقة والمجون وهم حماد عَجْرَدٍ ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس .

(٣) يشير إلى رحيق الفردوس .
 (٤) أغاني ٢٨٥/١٥ وما بعدها .

(١) بيل : من نهيرات سواد العراق . سبي
 الخمر : حملها من بلد إلى بلد .
 (٢) يلحاك : يلومك ويشتمك .

حماد (١) عجرد

من الموالى، أصله ومنشؤه بالكوفة، كان أبوه نَبَّالاً يَسْبِرِي النَّبْلَ، ويظهر أنه وجهه إلى الدرس والتعلم مبكراً، ويقال إنه لُقِبَ بعَجْرَدٍ لأن أعرابياً مرَّ به في يوم شديد البرد وهو عَجْرِيان يلعب مع الصبيان، فقال له: تعجرت يا غلام أى تعرَّيت فسمى عَجْرَدًا. وظل عاكفا على التعلم والتأدب، حتى أتقن العربية وانتظم في سلك المعلمين المؤدبين، غير أنه مضى يفرغ للهو والمجون مع صاحبيه: حماد الراوية وحماد بن الزبرقان، يقول ابن المعتز: «كان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون: حماد عجرد وحماد بن الزبرقان وحماد الراوية يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون أجمل عشرة، وكانوا كأنهم نفس واحدة، وكانوا جميعاً يُرْمَوْنَ بالزندقة». فهو لم يكن ماجناً فحسب، بل أشربت روحه الزندقة كما أشربت المجون، وقد مر بنا في الفصل الرابع ما قاله أبو نواس من أنه كان يظن أن حمادا رُمي بالزندقة لعكوفه على المجون، حتى إذا حَبِسَ في سجن الزنادقة وجدهم يقرءون في صلاتهم شعراً مزاجاً له، فعرف أنه كان إماماً من أئمتهم. وعلى نحو ما كان يتواصل مع حماد الراوية وحماد بن الزبرقان كان يتواصل مع مجان موطنه المترندقة من أمثال مطيع بن إياس وبجي ابن زياد. وهو يُسَلِّمُكَ في مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، ويظهر أن مجونه قديم إذ يقال إنه كان من ندماء الوليد بن يزيد وأنه ظل إلى أن قتل سنة ١٢٦ للهجرة فعاد إلى موطنه، وأخذ يعيش معيشة مجون وفجر وفسق لا يرعوى ولا يزدجر، بل يصرح بذلك تصريحاً عارياً مكشوفاً، كما يصرح بزندقته مجاهراً، حتى ليقول فيه مساور الوراق:

لو أن ماني وديصمانا وعُصبتهم جاءوا إليك لما قلناك زنديقُ

١٤٨/٨ والحيان للحافظ ٤٤٧/٤ وفي مواضع أخرى (انظر الفهرس) وأمالى المرتضى (طبعة الحلبي) ١٢٨/١ - ١٣٤. ولسان الميزان ٣٤٩/٢

(١) انظر في حماد وأخباره وأشعاره الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢١/١٤ وابن المعتز ص ٦٧ - ٧٢ وابن قتيبة ص ٧٥٤ ومعجم الأدباء ٢٤٩/١٠ وابن خلكان وتاريخ بغداد

أنت العبادة والتوحيد مذ خلقا وذا التزندق نيرنج مغاريق
فهو يفوق — في رأيه — ماني وديسان وأضرابهما من رموس الزنادقة . ويعاينه
صديقه حماد بن الزبرقان شاهدا عليه بزندقته ومجونه قائلا :

نعم الفتى لو كان يعرف قدره ويقيم وقت صلته حماد
هذكت مشافره الدنان فانفه مثل القدوم يستنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد
وكأنما كان عريه في صباه ولقبه عجرد الذي لزمه إرهاسا لما أخذ فيه بعد من
الإباحة وطلب اللذات . وكان يطلبها في الحانات وفي الأديرة وفي البساتين ،
متغزلا في الإماء والغلمان غزلا مكشوفاً كان يتبادل مع مطيع بن إياس وغيره ممن
كانوا يمعنون معه في المحون هازئين بالإسلام ودعوته التي تحرم الإباحة واقتراف
المنكرات ، حتى لينحازوا إلى الزندقة التي تفتح لهم الأبواب إلى الفسوق والفجر
الفاجر .

ويرتفع ما كان فيه من فسق ومجون إلى سمع المنصور ، فيستخدمه أداة للنيل
من محمد بن أخيه السفاح ، حتى يسقط في أعين الرعية ويرتفع عندها ابنه المهدي ،
ذلك أنه كان قد اتصل به من قبل وأدبه ، وترك فيه أثرا سيئا ، إذ جعله يميل
إلى اللهو وشيء من المحون . ورأى المنصور أن يهتك ستر ابن أخيه فولاه البصرة
بعد ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وأصبحه حمادا ، فأكمل إغواءه له ، وكشف
للناس مجونه ، وله فيه مدائح مختلفة من مثل قوله :

أرجوك بعد أبي العباس إذ بانا يا أكرم الناس أعراقا وأغصانا
لو مَجَّ عودٌ على قومٍ عصارته لمَجِّ عودك فينا المِسْكَ والبانا

وحدث أن خطب محمد حين ولي البصرة ابنة عم أبيه زينب بنت سليمان العباسي
وكان يهواها ، فلم يزوجوها له لنقص كانوا يرونه في عقله ، ورأى أن يؤذيهم فطلب
إلى حماد أن ينظم فيها غزلا على لسانه ، فنظم وأكثر مما أحفظ عليه أخاها محمد
ابن سليمان وأهلها ، ولم يلبث محمد أن توفي لأوائل سنة مائة وخمسين للهجرة ،

فبكاه حماد بكاء حاراً بمثل قوله :

صرتُ للدهر خاشعاً مستكيناً بعد ما كنت قد قهرتُ الدهورا
ليتني متُّ حين موتك ، لا بل ليتني كنت قبلك المقبورا
ولم يجرَّ عليه نزوله البصرة غضب محمد بن سليمان فحسب ، بل لقد جرَّ عليه
أيضاً معركة هجاء حامية الوطيس نشبت بينه وبين بشار شاعر البصرة ، ذلك أنه
أفسد عليه بعض من كانوا يثيرونه ، فهجاه والتحم بينهما الهجاء ، وشُغِفَ
بعض معاصريهما بالتحريش بينهما ، فكان ينقل إلى كل منهما ما يقوله في
صاحبه ، فيثور ويحاول أن يقذفه بحجر مُدْمٍ ، وتكاثر الأبحار . وكان بشار
— مع زندقته — يكثر من هجائه بالزندقة ، وردَّ عليه بنفس السهام وبسهام أخرى
لم تكن أقل إيذاءً ، إذ كان يهجو بهما وقبح خلقته ودنسه وقذارته مهوناً منه
أشد التهوين ومستخفّاً به أشد الاستخفاف ، وقد أنشدنا في الفصل الرابع أطرافاً
من هذا الهجاء المُصنّى ، وأكثرها جميعاً من هجو الأمهات والزوجات . ومن
المحقق أن حماداً كان يستعلي عليه في تلك المعركة ، إذ كان يُشيع في هجائه له
سخرية مرة من مثل قوله :

إن تاه بشارٌ عليكم فقد أمكنتُ بشاراً من التيه

وذاك إذ سمَّيته باسمه ولم يكن حرّاً يسميه

لم أهجُ بشاراً ولكنني هجوتُ نفسي بهجائيهِ

ونراه في بعض عبثه وطوه مع مطيع بن إياس يلزمه بعض اللمز ، ولكنهما
لا يندفعان في الهجاء ، فقد كانا صديقين متوادَّين . واتصلت صداقته مع يحيى
ابن زياد ، وكان مثله خليعاً ماجناً متهماً بالزندقة ، ويقال إنه تاب وأناب بأخرة
وهجا حماداً وأشباهه وإنه كان إذا ذُكر عنده ثلثه وحكى تهتكه ومجونه ، فكتب
إليه حماد من قصيدة :

إن كان نُسُكك لا يت مُ بغير شَتْمِي وانتقاصي

فعليك فاشتُمُ آمناً كلَّ الأمان من القِصاصِ

فلطالما زكيتني وأنا المقيم على المعاصي
أيام أنت إذا ذكرت مناضل عني مناصي^(١)
وأنا وأنت على ارتكاب الموبقات من الجراح
وله معاتبات بديعة كثيرة لأصدقائه يتحدث فيها عن واجب الصديق للصديق
حديثاً كله برّاً وعطف ، على شاكلة قوله :

لقد حُزّت من قلبي مكانا منعا أرى لك فيه أن أريق لك الدما
سأشرب كأسيك اللتين سقيتني وإن كانتا والله صاباً وعلقماً
وأدخل كفى إثر كفك في الذي عراك ولو أدخلتها ثقب أرقما^(٢)

وبلغه توعّد محمد بن سليمان العباسي بعد وفاة محمد بن السفاح لما كان يردّه
من الغزل بلسان ابن عمه في أخته على نحو ما أسلفنا فمدحه أمداحاً مختلفة غير أن
محمد بن سليمان ظل حنقاً عليه وجداً في طلبه ، ففضى إلى قبر أبيه سليمان بن علي
فاستجار به ، وبلغ ذلك محمداً فقال : والله لأبُلِّنَ قبر أبي من دمه ، فهرب
حماد إلى بغداد فعاذ بجعفر بن المنصور ، فأجاره ، ويقال إنه طلب إليه هجاء
محمد بن سليمان وكان والياً على البصرة فلبّاه وهجاء هجاء مقذعاً بمثل قوله :

له حَزْمٌ بُرْغُوثٌ وعقل مكاتبٍ وعُلْمَةٌ سِنُورٌ بليلٍ تُؤَوِّلُ^(٣)

وبلغ هجاؤه ابن سليمان فأهدر دمه ، ويقال بل قتله لزندقته ، وقال : والله
لا يفلتني أبداً ، وعرف أنه استتر منه بالأهواز ، فأرسل إليه بعض مواليه وأمره
أن يفتك به ، فلم يزل يطلبه حتى وقف عليه فقتله غيلة سنة ١٦١ للهجرة .

مطبع^(٤) بن إياس

كان أبوه إياس بن مسلم شاعراً ، وكان من أهل فلسطين الذين أمدّ بهم

٢٧٤/١٣ وتاريخ بغداد ٢٢٦/١٣ وعيون

الاخبار ١٨٢/٢ وأمال المرتضى (طبعة الحلبي)

١٤٢/١ والديارات للشابشي ص ١٥٩ وما

بعدها ولسان الميزان لابن حجر ٥١/٦ .

(١) مناصي : مدافع .

(٢) الأرقم : الثعبان .

(٣) تؤول : تمول .

(٤) انظر في مطبع وأخباره وأشعاره ابن المعتز

ص ٩٤ والأغاني (طبعة دار الكتب)

عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف في حروبه ضد الثوار ، وقد أقام بالكوفة وتزوج بها فولد له مطيع ، وبها كان منشؤه ومرباه . وقد نسب أبو الفرج إلى كنانة ، ثم عاد فتشكك في هذا النسب محسناً أنه من صنع الرواة . وكل شيء فيه يؤكد أنه لم يكن عريباً إنما كان من الموالي ، فقد كان متحلل الأخلاق مجاهراً بالفسق والعصيان والزندقة والإلحاد ، ومضى في مطالع شبابه يمدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ويظفر بجواثره السنية ، ووصله بأخيه الوليد ، فسلكه في ندمائته .

وعاد مع حماد عجرد بعد وفاة الوليد بن يزيد إلى الكوفة ، وغرقا في اللهو والمجون والفسق والعصيان مع يحيى بن زياد وغيره من الخلعاء والحجان . واتصل بعبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ونادمه ، ورافقه في ثورته على الأمويين حتى إذا قُتل عاد إلى الكوفة يحسنى كنوس الخمر حتى الثمالة .

ولست هناك سوءة من سوءات العصر إلا وتُضاف إليه . وكان فيه ظرف ودعابة ، مما جعله محبوباً إلى رفاقه ، وله معهم نوادر كثيرة ، من ذلك أن صديقه يحيى بن زياد قال له يوماً : انطلق بنا إلى فلانة المغنية صديقتي فإن بيني وبينها مغاضبة ، لعلك تصلح بيننا فدخلنا إليها ، وأقبل يحيى يعاتبها ومطيع ساكت ، حتى إذا أكثر يحيى قال لمطيع : ما يسكتك ؟ فتوجه إليها مطيع قائلاً :

أنت معتلة عليه ومازا ل مُهينا لنفسه في رضاك

فأعجب يحيى ما سمع ، وهش له مطيع ، ثم قال :

فدعيه وواصل ابنَ إياسِ جُعِلَتْ نفسى الغداة فِداك

وأغربت الجارية في الضحك . وفي كتاب الأغاني أشعار له كثيرة كان يدعو بها رفاقه إلى اللهو والقصف في داره وفي البساتين والأديار . وغزله في الغلمان قليل ، ولكن لا شك في أنه من أوائل من أشاعوا هذا الغزل المزرى ، وله غزل كثير في القيان الكوفيات وخاصة في جوهر ، وفيها يقول :

أنتِ يا جوهرُ عندى جَوهره في قياس الدررِ المشتهره

أو كشمسٍ أشرقَتْ في بيتها قَدَفَتْ في كل قلبٍ شَرَرَه

وفى أخباره أنه صحب سلم بن قتيبة حين ولى مدينة الرى للمنصور سنة ١٤٥
وهناك عشق امرأة من بنات الدهاقين كان نازلاً بجوار دارها، ولم يلبث المنصور
أن استدعى سلماً فى نفس السنة ، فاضطراً مطيع إلى الرحيل معه ، وألم فى طريقه
بمدينة حلوان وجلس يستريح بجوار نخلتين وتذكر معشوقته، فحنقته العبرات وقال
أبياته المشهورة التى أنشدناها فى الفصل الرابع والتى يخاطب فيها نخلة حلوان خطاباً
مؤثراً شاكياً لهما فراقه الأحباء والخلان .

ومن الأجواد الذين فرع إليهم فى تلك الفترة يستميجهم بمدايحهم معن بن
زائدة الشيبانى ، ويروى أنه لما أنشده مدحته التى يقول فيها مصوراً كرمه وبأسه
وحلمه وحصافته :

ففى نزاره وكهلها وأخو الـ جود حوى غايته من كسب
ترى له الحلم والنهى خلقا فى صولة مثل جاحم اللهب

قال له معن مداعبا : إن شئت مدحناك كما مدحتنا ، وإن شئت أثبتناك ،
فاستحي مطيع من إثبات الثواب على المديح ، وهو محتاج إلى الثواب ، فأنشأ يقول
بديهة :

ثناء من أمير خير كسب لصاحب فاقة وأخى ثراء
ولكن الزمان برى عظامى وما مثل الدراهم من دواء

فقال معن : لقد لطفت حتى تخلصت ، وصدقت لعمري ما مثل الدراهم من
دواء ، وأمر له بثلاثين ألف درهم وخلعة سنية.

وجذبه بغداد على نحو ما جذبت غيره من الشعراء ، فولى وجهه نحوها ،
وربما كان من أسباب ذلك خروج رفيقه حماد عجرد ويحيى بن زياد إلى محمد
ابن العباس السفاح بالبصرة . ويظهر أن الدواء الذى وصفه له معن بن زائدة عز
عليه فى أول مقامه ببغداد ، مما جعله يقول :

زاد هذا الزمان عسراً وشرّاً عندنا إذ أحلنا بغدادا
بلدة تَطْرُ التراب على النا س كما تَطْرُ السماء الرذاذا

ولم يلبث ظرفه أن فتح له أبواب القصر العباسي ، فتحها له جعفر بن المنصور . وكان فيه خبث ، فانتَهز فرصة إعلان المنصور بيعته لابنه المهدي بولاية العهد من بعده ، وتقدم عقب فراغ الخطباء والشعراء من إشاداتهم بالمهدي ، فروى حديثاً مصنوعاً لتوّه زاعماً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « المهدي منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا ، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً » . وسُرَّ من صنيعة المنصور ، وحفظ ذلك له المهدي . ويقال إنه ارتفع إلى المنصور أنه ماجن زنديق فهمَّ بأنزال عقاب صارم به غير أن ابنه المهدي تشفع فيه فعفا عنه ، وبذل له المهدي مائتي دينار ، وأوصى به وإلى البصرة فولاه أعمال الصدقات . وربما كانت هذه الولاية غير صحيحة ، ولكن من المؤكد أن المهدي ظل راضياً عنه ، ولعل هذا الرضا هو الذي جعله يفلت من عقابه حين شدَّد في تعقب الزنادقة سنة ١٦٦ للهجرة وأطاح برعوس كثيرين منهم . وما يؤكد زندقته ما يقال من أن الرشيد أتي ببنت له في الزنادقة ، فأقرت بزندقته وتوبتها قائلة : هذا دين علمنيه أبي وتبت منه . فقبل الرشيد توبتها وردّها إلى أهلها .

ومضى مطيع يعيش لعهد المهدي منهمكاً في المحون والخلاعة والشراب والانطراح في مواضع اللذات ، ونظم في تلك الحياة الفاجرة كثيراً من الأشعار يصف فيها الخمر أو يتغزل ببعض القيان . وله بجانب ذلك معاتبات لرفاقه تفيض حناناً وعظفاً وبرّاً ، وخاصة مع صديقه يحيى بن زياد ، ويقول ابن المعتز : « كان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ، ويرى كل واحد منهما بصاحبه الدنيا مودة ومحبة » . وحدث أن تهاجرا ولم يُطلق مطيع الصبر على هجره فكتب إليه يعاتبه ويستعطفه مصوراً ما كان منعقداً بينهما من ود متصل بمثل قوله :

كنت ويحيى كَيْدَيَّ واحدٍ	نَرَمِي جميعاً وَتَرَيْنَا معاً
إن عَضْنِي الدهرُ فقد عَضَّهُ	يوجعنا ما بَعَضْنَا أوجعاً
أو نام نَامَتْ أَعْيُنُ أَرَبُعُ	منا وإن أَشْهَرُ فلن يَهْجَعَا
حتى إذا ما الشَّيْبُ في مَفْرِقِي	لاح وفي عارضه أسرعاً
سَعَى وُشَاةٌ فمشوا بيننا	فكاد حَبْلُ الوُدِّ أن يَقْطَعَا

حتى إذا استمكن من عَشْرَةٍ أَوْقَدَ نيرانَ القَلْبِ مُسرِعاً
فلم أَلَمْ يحْيِ على فعلِهِ ولم أَقلْ مَلٌّ ولا ضيْعاً
وهو عتاب يدل على حس مرهف دقيق . وسرعان ما عاد بينهما الصفاء ومضيا
يعبان من دنان اللهو والمجون حتى كفَّ يحيى بأخرة فيما يقال . ولم يلبث أن توفي
فبكاه مطيع بكاء حاراً ، ومن قوله يرثيه ويتفجع عليه :

يا أهلى ابكُوا لقلْبِي القَرِحِ وللدُموعِ السواكِبِ السُّفْحِ (١)
راحوا ببِحي ولو تطاوعنى أَلْأَقْدَارُ لم يبتكر ولم يَرِحْ (٢)
ياخير مَنْ يحسن البكاء له الـ يوم ومن كان أَمْسٍ للمِدْحِ
قد ظفِرَ الحُزْنُ بالسُرور وقد أُدِيلَ مكرهنا من الفرح (٣)

وواضح أن مطيعاً كان يتقن جميع الفنون الشعرية وأنه يمتاز في أشعاره بالسلاسة
والعذوبة . ولعل ذلك ما جعله يميل في كثير من نظمه إلى وزن المجث والأوزان
المجزوءة . وكأنما كان يريد أن يوفر لأشعاره كل ما يمكن من خفة ورقة ورشاقة ،
حتى تجرى على أفواه الناس ، وحتى تَلَدَّ آذانهم ، ويقول صاحب الأغاني
إن حكما الوادى المغنى تغنى في قطعة له ، فلم يبق سَقَاء ولا طَحَّان ولا مكار
إلا غنى فيها . وقد ظل مطيع سادراً في غيه ومجونه حتى توفي سنة ١٦٩ وقيل بل
في سنة ١٧٠ للهجرة لأول خلافة الرشيد .

صالح (٤) بن عبد القدوس

بصرى من موالى الأزد ، وأكبر الظن أنه فارسي الأصل ، وكان في صدر

بغداد ٣٠٣/٩ ومعجم الأدباء لياقوت ٦/١٢
وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣٧١/٦ وفوات
الوفيات ١٩١/١ ونكت الهميان للصفدي
ص ١٧١، ١٧٢ ولسان الميزان لابن حجر ٣/١٧٢
وفهارس كتابي البيان والتبيين والحيوان للمجاهد ،
وسرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربي)
ص ٢٢٧ .

(١) السواكِبِ السفح : المنهرة .
(٢) يبتكر : من البكور . ويرح : من الرواح
وهو وقت المشي .
(٣) أدِيل : أصبحت له دولة وصوله .
(٤) انظر في صالح وأخياره وأشعاره أمالي
المرتضى (طبعة الحلبي) ١/١٤٤ وما بعدها
وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٠ ورسالة
الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٤٢ وتاريخ

نشأته يختلف إلى حلقات الوعاظ والمتكلمين ولم يلبث عقله أن تشوش بما كان يسمع في تلك الحلقات من مناقشات أصحاب الملل والنحل، فإذا هو يعتنق الثنوية المانوية مذهب آبائه ونحلتهم ، وما كانت تقول به من أن العالم نشأ عن أصليين هما النور والظلمة ، ولكل منهما إلهه الخاص ، وأن مصدر بلاء العالم امتزاج هذين العنصرين ، ومن أجل ذلك دعت إلى الزهد في الحياة ونعيمها الزائل . ونراه في عصر بني أمية يكثر من الاجتماع بواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، مشاركاً فيما كان يدور في مجلسه من مخاصمات كلامية ودينية^(١) ، ونظن ظناً أنه لم يظهر حقيقة عقيدته حينئذ ، وإلا لهُتِفَ به واصل ، كما هُتِفَ بيشار طالباً من أصحابه قتله^(٢) ، وفي بعض شعره أنه كان يستر نحلته خشية الجبس والعقاب والتنكيل به ، يقول :

رُبَّ سِرٍّ كَتَمْتُهُ فَكَأَنِّي أَخْرَسُ أَوْ ثَنَى لِسَانِي خَبَلُ
ولو آتَى أْبَدَيْتَ لِلنَّاسِ عِلْمِي لَمْ يَكُنْ لِي فِي غَيْرِ حَبْسِي أَكْلُ

وتوفى واصل سنة ١٣١ للهجرة ، ولم تلبث الثورة العباسية أن اندلعت تسندها حراب الفرس والخراسانيين وسرعان ما انتصرت فأحسَّ صالح كأن الحياة واثته ، وأخذ يعلن عقيدته ويجاهر بها حيناً ، وحيناً يسترها حين يخاف بعض الحكام ، حتى ليصلي صلاة المسلمين حين تحين الصلاة ، ويعجب من صلاته بعض من يعرف مذهبه ، ويسأله في ذلك متعجباً ، فيقول : « سنة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد » . ونمضي في العصر العباسي ويكثر الزنادقة والمتزندقون ، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع ، ويعلن صالح زندقته ولا يوارئها ، أو بعبارة أدق يعلن مانويته وثنويته ، حتى ليؤلف — كما يقول ابن النديم — كتباً في نصرة عقيدته^(٣) . وتبلغ به الجرأة أن يحاضر ويجادل فيها بمسجد البصرة ، ويتعرض له غير متكلم من المعتزلة وغيرهم وخاصة أبا هذيل العلاف ، ويروى أنه ناظره في الامتزاج الذي يدعيه المانوية بين النور والظلمة في الجوهر والطبع والفعل والمكان والأبدان والأرواح ، وأنه أفحمه وقطعه ، فقال :

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٤٦/٣ . (٢) الفهرست ص ٤٧٣ .
(٣) انظر البيان والتبيين ١٦/١ .

أبا الهذيل هداك الله يا رجلُ فأنت حقاً لعمرى مُعْضِلٌ جَدِلُ

ونأظره أبو الهذيل مرة أخرى في أصل عقيدته وما يؤمن به من إلهي النور والظلمة ، وبدا منه كأنه يهجر ضلاله وغيه ، فسأله أبو الهذيل : على أى شيء تعزم يا صالح ؟ فقال : أستخير الله وأقول بالاثنين . وكأن المسألة تحوَّلت عنده من الأخذ بالمنطق إلى باب الهوى وتقليد الآباء ، ويظهر أن ذلك أفضى عنده إلى شكوك واسعة لا في الديانات فحسب ، بل في حقيقة كل شيء ، ولعله اطلع على مباحث السوفسطائيين اليونانيين وما آمنوا به من أن الأشياء لا حقيقة لها في نفسها ، ويدل على ذلك ما يقال من أنه ألف كتاباً سماه كتاب الشكوك ، ويُرَوَّى إنه مات له ولد ، فلقبه أبو الهذيل العلاف ومعه النظام ، فوجده جَزَعاً على ابنه ، فقال له : لا أعرف بلزعك وجهاً إذا كان الناس عندك كالزروع ! فقال صالح : يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان ؛ فقال له النظام : فشكَّ أنت في موت ابنك واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشكَّ أيضاً في أنه قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه ، فحصر صالح . وفي أشعاره ما يدل على أنه عمي في آخر عمره ، إذ يقول :

عزائك أيها العينُ السَّكوبُ ودَمْعُكِ إنها نُوبٌ تنوبُ

على الدنيا السلامُ فما لشيخٍ ضرير العين في الدنيا نصيبُ

إذا ما مات بَعْضُكَ فابكِ بَعْضاً فإن البعض من بعض قريبُ

وتدخل سنة ١٦٦ للهجرة ويشدد المهدي في تعقب الزنادقة وينصب لهم ديواناً لحاكمتهم ومن تثبت عليه الزندقة يُصلب لتوه ، حينئذ يفرُّ صالح من البصرة إلى دمشق ويظل مستتراً بها مدة ، ثم يقبض عليه ويلقي به في غياهب السجون ببغداد انتظاراً لحاكمته ، ويصور مشاعره وهو في السجن تصويراً دقيقاً بمثل قوله :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموق

طوى دوننا الأخبارِ سجنٌ ممنعٌ له حارسٌ تهذا العيون ولا يَهْدَا

قُبِرْنَا وَلَمْ نُدْفَنْ فَنَحْنُ بِمَعَزِلٍ مِنْ النَّاسِ لَا نُخْشَى فَنُغْشَى وَلَا نَعْشَى
 أَلَا أَحَدٌ يَأْوِي لِأَهْلِ مَحَلَّةٍ مُقِيمِينَ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ فَارَقُوا الدُّنْيَا
 كَانَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا غَيْرَ دَارِهِمْ وَلَمْ يَعْرِفُوا غَيْرَ التَّضَاقِقِ وَالْبَلَاوِي
 ويختلف الرواة في زمن هذه الحاكمة والخليفة الذي تولاهما ، فمن قائل إنه
 المهدي ومن قائل إنه هرون الرشيد ، وقد ضعف ابن المعتز القول الأول ، وقال
 الصحيح أن الذي حاكمه وناظره في زندقته الرشيد ، وكان قد أُتْهِمَ إِلَيْهِ آيَات
 يهجو بها الرسول — كبرت كلمة تخرج من فمه — لزواجه من زينب بنت جحش
 بعد فراق مولاه زيد لها^(١) ، وهي طعن صريح في الرسول الكريم والذكر الحكيم ،
 ولا بد أنه أنهى إليه كل شيء عن زندقته وإثنييته ومانويته ، فأمر بالقبض عليه ،
 وَزُجَّ بِهِ فِي السَّجْنِ ، ثُمَّ عَقِدَ لَهُ يَوْمَ لِحَاكِمَتِهِ ، وَتَوَلَّى الرَّشِيدُ الْحَاكِمَةَ بِنَفْسِهِ ، غَيْرَ
 أَنَّهُ حَاوَلَ التَّبَرُّؤَ مِنْ كُلِّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ ظَلَّ يَسْتَعْطِفُ الرَّشِيدَ طَوِيلًا
 حَتَّى رَقَّ لَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ اسْتَنْشَدَهُ سِينِيَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

لَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ
 وَالشَّيْخُ لَا يَتْرَكَ أَخْلَاقَهُ حَتَّى يُوَارَى فِي ثَوْبِ رَمْسِهِ^(٢)
 إِذَا ارْعَوَى عَادَ إِلَى جَهْلِهِ كَذَى الضَّنَا عَادَ إِلَى نُكْسِهِ^(٣)
 وَإِنْ مِنْ أَدَبْتِهِ فِي الصُّبَا كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرَسِهِ
 حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاضِرًا مِنْ بَعْدِ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

فتلا عليه الرشيد البيت الثاني ، وقال له : نحن نتمثل وصيتك وما شهدت به
 على نفسك من أنك لا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبدًا ، وأمر فضربت عنقه
 وصلب على الجسر ببغداد عقابًا له وتنكيلا .

وكثير من أشعاره يدور على التنفير من الدنيا ومتاعها الزائل وذكر الموت والفناء ،
 والحث على مكارم الأخلاق وطاعة الله ، ولعله يريد إله النور والخير ، وقد جعل

(٣) الضنا هنا : المرض ، والنكس : الانكاس
 أي رجوع الناقة إلى مرضه .

(١) ابن المعتز ص ٩٠ .
 (٢) الرمس : القبر .

شيوع ذلك في أشعاره ابن المعتز يشك فيما نسب إليه من الزندقة مستشهداً بقوله :

وليس بعجز المرء إخطاؤه الغنى ولا باحتيال أدرك المال كاسبه
ولكنه قبض الإله وبسطه فلا ذا يجاريه ولا ذا يغالبه

يقول ابن المعتز : « فيا عجباً كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ؟ وكيف يكون قائله زنديقاً ؟. وكأنما أحس أنه يصدر في البيت الثاني عما جاء في الذكر الحكيم مراراً من أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أى يضيقه ويجعله بقدر قليل . ونراه يتمثل في شعره أحياناً بعض الأحاديث كقوله :

ولله في عرض السموات جنة ولكنها محفوفة بالمكاره

والشطر الأول واضح الصلة بقوله تبارك وتعالى : (جنة عرضها السموات والأرض) أما الشطر الثاني فواضح الصلة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات ». واستمداد ابن عبد القدوس أحياناً من الحديث النبوي أو من القرآن أو من بعض وعاظ المسلمين مثل الحسن البصري لا يخرج من دائرة الزنادقة المانويين ، فقد كان يصنع صنيعه أبو العتاهية كما مر بنا في ترجمته ، وزندقته عند ابن المعتز لا يشوبها ريب . أما دعوة ابن عبد القدوس إلى الزهد في الدنيا الفانية فهي دعوة كان يلتقى فيها المانوية بزهد الإسلام على نحو ما صورنا ذلك في حديثنا عنهم وعن أبي العتاهية في غير هذا الموضع ، مما جعل بعض القدماء يتشككون في زندقته أبي العتاهية على نحو ما يتشكك ابن المعتز الآن في زندقته ابن عبد القدوس . وما لا شك فيه أنه كان زنديقاً مانوياً كبيراً ، بل لقد كان رأس المانوية والمجادل عن عقيدتهم في البصرة حقناً متطاولاً .

ويكاد يذهب شعر ابن عبد القدوس كله في تقرير محاسن الأخلاق والشيم ، ناظراً فيها نظرة تجريدية ، وهى نظرة دفعته إلى تعقب حكمة العرب والعجم ، حتى قالوا إن في ديوانه ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم^(١) ، وكأنه رصد نفسه لنظم الشعر في الفضائل وتجارب الأفراد والأمم ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده

قصيدته الزينية التي تغزل في مطلعها فيمن تسمى زينب ، ثم استرسل يسوق الحكم من مثل قوله :

احذر مصاحبة اللئيم فإنه يُعدي كما يعدى الصحيح الأجرُ
يلقاك يحلف أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرُ
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلبُ
واختَرُ قريتك واصطفيه ثفاخراً إن القرين إلى المقارن يُنسبُ
واحفظ لسانك واحترس من لفظه فالمرء يسلم باللسان ويعطبُ
والسرُّ فاكتمه ولا تنطق به إن الزجاجة كسرُها لا يُشعبُ (١)

ومن نمط هذه القصيدة الحكيمة قصيدة له قافية استوعب فيها كثيراً من النصائح الخلقية التهذيبية ، وفيها يقول :

المُرء يجمع والزمان يفرق ويظل يرقع والخطوب تمزق
ولأن يعادي عاقلاً خير له من أن يكون له صديق أحق
فاربأ بنفسك أن تصادق أحماً إن الصديق على الصديق مصدق
وزن الكلام إذا نطقت فإنما يُبدي عقول ذوى العقول المنطق

وعلى هذه الشاكلة تجرى أشعاره في صورة تقريرية خالية من العاطفة وقلما شُفعت بخيال أو تصوير ، ولعل ذلك ما جعل شعره يسقط من أيدي الأجيال التالية ، إلا قليلا ، وتنبه لذلك الجاحظ ، فقال لو أن حكمه كانت مفرقة في قصائد مختلفة لسارت في الآفاق « ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسير ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع (٢) » . على أن كتب الأدب ظلت تحتفظ ببعض أبياته الحكيمة وظلت تلور فيها من مثل قوله في العزاء :

إن يكن ما به أصبت جليلا فلفقد العزاء فيه أجل

وقوله :

إذا لم تستطع شيئاً فدَعُهُ وجاوزهُ إلى ما تستطيعُ

وقوله :

وتروض عِرْسَكَ بعد ما هَرَمْتَ ومن العناء رياضةُ الهَرَمِ^(١)
وواضح فيها أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى باللفظ الجزل الرصين والبناء
القوى المحكم ، كما كان يعنى بالتدليل والتعليل ودقة القياس .

٣

شعراء الزهد

هذه الصفحة التي صورناها من شعر المحبون والزندقة كانت تقابلها صفحة
رائعة من شعر الزهد ، فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنسك وأهل الحديث
والفقه والورع ، ومن حولهم العامة ، وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده ، مؤمنة
بأن القيامة موعدها وموقفها مع ذى الجلال وأن العمر وإن طال قصير وأن الدنيا
ينبغي أن تكون دار زادٍ لدار المعاد . وما نبى الوعاظ والنسك من المحدثين يزجرونهم
عن التعلق بمتاعها الزائل واضعين نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة الموبقة وأن
العاقل من عرف أن الناس سَتَفَرٌ وعما قليل راحلون فإما عذاب مستديم وإما نعيم
مقيم ، فأسرع يغتنم بقية أجله بخير عمله مقدما كل ما يستطيع من الباقيات
الصالحات .

ويبدو أن كثيرين من القصاص والوعاظ كانوا ما يزالون ينشدون في وعظهم
وقصصهم أبياتاً وأشعاراً كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم ، ومنها
ما ينشئون إنشاءً ، فمن ذلك ما يروى عن صالح المري القاص العابد من أنه كان
كثيراً ما ينشد في قصصه ومواعظه :

(١) العرس : الزوجة .

فبات يروى أصول الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل^(١)

وكان مالك بن دينار يحدث الناسك لا يزال يتحدث في مجالسه عن الموت ، حتى لتكاد تخنقه العبرات ، وله أشعار مختلفة يتحدث فيها عن القبور وأهلها وأنه أجل محدود ونفس معدود ، وعمّا قليل يصبح الإنسان تراباً في تراب ، كمن سبقوه ، فأولى له أن يتعظ ويعتبر ، يقول^(٢) :

أتيت القبور فناديتها ن أين المعظم والمحترم
وأين المدلّ بسلطانه وأين المزكى إذا ما افتخر
تفانوا جميعاً فما مخبر وماتوا جميعاً ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا أمالك فيما ترى معتبر

ومن كان يكثر من إنشاد الشعر في مواعظه سفيان بن عيينة وسفيان الثوري . وكان الوعاظ بذلك قدموا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كي يصوغوا على نمطها مواعظ تذكي الزهد والعمل الصالح في نفوس الناس ، وقد أقبل كثيرون ينظمون دقائق الزهد ، حتى بين الحجان حين كانوا يثيرون إلى أنفسهم على نحو ما مر بنا عند أبي نواس ، وكما يلقانا عند محمد بن يسير ، وكان ماجناً هجاء خبيثاً ، فقد ألم يوماً بمجلس أبي محمد الزاهد صاحب الفضيل بن عياض ، فأنشد^(٣) :

ويْل لمن لم يرحم الله ومن تكون النار مشواه
واغفلت في كل يوم مضى يُذكرني الموت وأنساه
من طال في الدنيا به عمره وعاش فالمت قصاره
كأنه قد قيل في مجلس قد كنت آتية وأغشاه
محمد صار إلى ربه يرحمنا الله وإياه

وكان من الشعراء الخلقاء الحجان من يقلع إقلاعا عن غيه ، فيكثر من أشعار

(١) البيان والتبيين ١١٩/١ والفسيل :

(٢) عيون الأخبار ٢/٣٠٢ .

(٣) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٩/١٤ .

صغار النخل .

الزهد مكفراً بها عما قدمت يداه من مجون وخلاعة ، ومن خير من يمثل ذلك محمد ابن حازم ، وكان ينغمس في اللهو والمجون ، حتى إذا بلغ الخمسين من سنه آلى على نفسه أن لا يشرب كأساً ولا يسير في طريق غواية ، وأخذ يكثّر من شعر الزهد حاضاً على القناعة وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الفاني بمثل قوله^(١) :

ومننظرٍ للموت في كل ساعةٍ يشيد ويبني دائماً ويحصنُ
له حين تبلوه حقيقةً موقنٍ وأفعاله أفعالٌ من ليس يوقن
وقوله الذي مرّ بنا في الفصل الرابع :

اضرعْ إلى الله لا تضرعْ إلى الناسِ واقنعْ بيسايسٍ فإن العزَّ في الياسِ
واستغنِ عن كل ذي قُربى وذى رحمٍ إن الغنى من استغنى عن الناسِ
وكثيرون كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة حقيقية ، فهم لا يقفون على أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والأمراء والقواد ، بل يكتفون من العيش بالكفاف ، وإن عُرِضت عليهم وظيفة أبوها حرصاً على دينهم ورفضاً لدنياهم ، ومن اشتهروا في هذا الباب الخليل بن أحمد واضع النحو والعروض ، وله في الزهد والعظة أبيات كثيرة من مثل قوله^(٢) :

عش ما بدالك ، قصرك الموت لا مهربٌ منه ولا قوتُ
بيننا غنى بيتٍ وبهجتُهُ زال الغنى وتقوَّض البيتُ
واشتهر بأنه كان يأبى أن يصحب الخلفاء والحكام وذوى الجاه لما في أيديهم من الدنيا ، ويروى أن سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب ، وكان والياً على السند ، وجهً إليه يستزيه فكتب إليه^(٣) :

أبلغ سليمان أنى عنه في دعةٍ وفي غنى غير أنى لست ذا مالٍ
سَخَى بنفسى أنى لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حالٍ

(٢) البيان والبيان ١٨٣/٣ .

(٣) إنباء الرواة ١/٣٤٤ .

(١) انظر في هذين البيتين وتالييهما المقد

الفريد ٢٠٧/٣ .

الرِّزْقُ عَنْ قَدَرٍ ، لا الضَّعْفُ يَنْقُصُهُ ولا يَزِيدُكَ فِيهِ حَوْلٌ مُحْتَالِ
والْفَقْرُ فِي النَّفْسِ لا فِي الْمَالِ تَعْرِفُهُ ومِثْلُ ذَاكَ الْغِنَى فِي النَّفْسِ لا الْمَالِ

وفي كل مكان يلقانا كثيرون يفرغون للنسك والتبذل والعبادة ، مما دفع لظهور مقدمات التصوف في هذا العصر أو بعبارة أخرى إلى ظهور الحب الإلهي الذي يتجرد عن كل مادة وحسّ والذي يستغرق فيه المتصوفة مشغوفين بالحقيقة الإلهية ، وما ترسله على الكون من أضواء الحق والخير والجمال المطلق ، ومن أروع ما يصور ذلك أبيات رابعة العدوية المشهورة^(١) :

أَحْبَبُ حُبِّينَ : حُبُّ الْهَوَى وَحُبُّ لَأَنَّكَ أَهْلٌ لَذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِي الْحُجْبَ حَتَّى أَرَاكَ
فَلا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ
وهي تميز بين حبين : حب الله شكراً لإنعامه المتواصل على الإنسان في دنياه ، وحبه لجمالته وجلاله القدسي الذي رفعت الحجب والأستار بينها وبينه ، وهو الحب الصوفي المحرد الذي يفنى فيه المتصوفة فناء يحقق لهم السعادة . ومن المحقق أن التصوف لا يزدهر في هذا العصر ، إنما يزدهر الزهد ، ومن أجل ذلك نقف عند ثلاثة من كبار الزهاد ، لتوضح لنا المعاني التي كانوا يرددونها في أشعارهم ، وهم عبد الله بن المبارك ومحمد بن كناسة ومحمود الوراق .

عبد الله^(٢) بن المبارك

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمي ولائاً ، التركي

والتهذيب لابن حجر ٣٨٤/٥ والنجوم الزاهرة
١٠٣/٢ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٤
وحلية الأولياء لأبي نعيم ٢٧٩/٨ ومختصر جامع
بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبعة الموسوعات)
ص ٨٥ .

(١) قوت القلوب للمكي ٨٤/٣ وإحياء علوم
الدين للقرطبي ٢٦٧/٤ .
(٢) انظر في ترجمة ابن المبارك وأشعاره
الأنساب للسماعني ١٧٩ وتاريخ بغداد
برقم ٥٣٠٦ وصفة الصفوة ١٠٩/٤ وتذكرة
الحفاظ للذهبي (طبع حيدرآباد) ٣٥٤/١

المروزي أبًا ، الحواري أمًا ، ولد سنة ثمانى عشرة ومائة للهجرة ، ورحل فى طلب الحديث والعلم سنة إحدى وأربعين ومائة ، فلقى المحدثين ، وروى عن جماعة كثيرة وروى عنه خلائق لا تحصى ، وهو يُعَدُّ من كبار الحفاظ فى عصره وأحد من كانت تُشَدُّ إليه الرحال للنهل من معين علمه وفضله ، وكان يجمع بين حفظ الحديث والفقہ على مذهب أبى حنيفة والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة . واشتهر شهرة مدوية بنسكه وزهده ، حتى قال سفیان الثوري : « أو جهدت جهدى أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر » . وكان يخرج مع الجيوش الغازية للروم يجاهد فى سبيل الله من جهة ، ومن جهة ثانية يعظ الجنود ويحمسهم للقتال ويلقى على الناس الحديث فى الثغور من مثل طرسوس . وهو بذلك يصحح فكرة شاعت عن زهاد المسلمين وعبادهم هى أنهم كانوا سلبيين لا يشاركون فى الواجبات الوطنية وهى لإحدى الأفكار التى أشاعها المستشرقون ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة على شاكلة زهد الديانة المسيحية وما ارتبط بها من رهبانية ، وهو ظن واهم فإن زهاد المسلمين — وخاصة الأولين — لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها ، ليكسبوا قوتهم ، ويعيشوا من كسبهم ، لا مما يلقى إليهم من فئات الموائد ، ولذلك كنا نجدهم يتجرون ويحترفون حرفا كثيرة على نحو ما سئرى عند محمود الوراق فإنه كان يحترف النخاسة وبيع الجوارى والإماء ، وكان عبد الله بن المبارك يتجر ليكسب معاشه . وكانوا يلبون دائما نداء الوطن ويتقدمون الضفوف المجاهدة طلبًا للاستشهاد فى سبيل الله . وكانوا يعدون هذا الجهاد أروع وأعظم عند الله من نسك النساك ، ويقدم لنا ابن المبارك نفسه وثيقة طريقة توضح ذلك أتم توضيح ، فقد روى الرواة أنه أُملى وهو بطرسوس رسالة شعرية وجه بها إلى الفضيل ابن عياض الناسك المشهور فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وكان مجاورا بمكة :

يا عابدَ الحَرَمَيْنِ لو أبصرتنا لعلمتَ أنك فى العبادة تلعبُ
مَنْ كان يَخْضِبُ جِيدَه بدموعِه فنحورُنا بدمائنا تتخضَّبُ
أو كان يُتَعَبُ خَيْلُه فى باطلٍ فخيولُنا يوم الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ
رِيحُ العَبِيرِ لَكم ونحن عَبِيرُنا وَهَجُ السَّنابكِ والغبارُ الأَطْيَبُ

ولقد أتانا من مقال نبينا قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يُكذَّبُ
لا تستوى أغبارُ خَيْلِ الله في أنفِ امرئٍ ودخانِ نارٍ تَلْهَبُ^(١)
هذا كتابُ الله ينطقُ بيننا ليس الشهيد بميتٍ لا يُكذَّبُ

وواضح أن ابن المبارك يرفع الجهاد فوق العبادة درجات، حتى ليدعوها بالقياس إليه ضرباً من اللعب . وهو يصور الهوة التي تفصل بينهما ، فالتاسك يقدم لربه دموعه والجهاد يقدم دماؤه ، متخذاً الخيل العاديات لافي لهو وإنما في التضحية والاستشهاد طلباً لرضوان الله، متطليبا بطيب أكثر شذى وعطراً من الطيب الحقيقي، طيب غبار الحرب وسنابك الخيل وهي تقدح الأرض قدحاً . ويقول إن الإسلام أعلى الجهاد على النسك والعبادة مشيراً إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً » كما يشير إلى ما جاء في الذكر الحكيم من أن شهيد الجهاد لا يموت ، بل يظل حياً عند ربه حياة خالدة : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وفي موضع آخر من التنزيل : (ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياء ولكن لا تشعرون) . وهي ميزة خص بها الله سبحانه المستشهدين في سبيله دون سائر المؤمنين من نساك وغير نساك ، إذ جعلهم يحيون في قبورهم حياة برزخية خاصة لا يعلم حقيقتها سواه .

ولا ابن المبارك موقف ثان يصور كيف كان الزهاد من العلماء والمحدثين يتعففون في مثل هذا العصر عن الوظائف ومناصب الدولة خوفاً على أنفسهم من أن تغرم الدنيا فينحرفوا عن الجادة ، فقد ذكروا أن أحد أصحابه وهو إسماعيل بن عُلَيَّة وكي الصدقات بالبصرة ، فكتب إليه يذكر ذلك ويقول له : أحب أن تبعث إلي إخواننا من القراء لنشغلهم ، فأجابه : القراء ضربان : قوم طلبوا هذا الأمر (أي قراءة القرآن) لله فأولئك لا حاجة لهم في لقائك ، وقوم طلبوه للدنيا فأولئك أضُرُّ على الناس من الشرط ، وألحق بجوابه هذه الأبيات :

(١) الأغبار : جمع غبرة ، وهي النار .

يا جاعلَ الدينِ له بَازِيًا يصطادُ أموالَ المساكينِ
 احتلتَ للدنيا ولذاتها بحيلةٍ تذهبُ بالدينِ
 وصرتَ مجنوناً بها بعدما كنتَ دواءً للمجانينِ
 أين رواياتُك فيما مضى عن ابنِ عَوْنٍ وابنِ سِيرينِ
 أين رواياتُك في سَرْدِها في تركِ أبوابِ السَّلاطينِ
 إن قلتَ أَكْرِهْتُ فذا باطلٌ زلَّ حِمَارُ العلمِ في الطُّينِ
 وكان كثيراً ما يستشهد بقول المسيح عليه السلام : « كما ترك لكم الملوك الحكمة
 فاتركوا لهم الدنيا » ونظم ذلك شعراً قائلاً :

أرى أناساً بآدنى الدينِ قد قنعوا ولا أراهم رضوا بالعيش بالدُّونِ
 فاشتغِنَ بالدينِ عن دنيا الملوك كما اسه تغنى الملوك بدنياهم عن الدينِ
 وهو كثير التنفير من الدنيا ومتاعها الذى يزول وتبقى تبعاته ، بل إنه ليحمل
 بين طيَّانه من السموم ما يجعل العاقل يرى فيه حَيَسَةً لَيْسَ مُسْهًا قَاتِلًا سَمَّهًا :
 حلاوةُ دنياك مسمومةٌ فما تَأْكُلُ الشَّهْدَ إِلَّا بِسَمِّ
 وهى خَدَّاعَةٌ غرور ، لا يكاد يطمئن شخص فيها إلى سرور حتى يهجم
 عليه حزن مفجع أو مصيبة موجعة ، فن جرَّعته يوماً حلاوتها جرَّعته أياماً مرارتها :

دنيا تداولها العبادُ ذميمةً شَيَّبَتْ بِأَكْرَهَةٍ من نقيعِ الحَنْظَلِ
 وبناتُ دهرٍ لا تزالُ مُلَمَّةً فيها فجائعٌ مثل وَقْعِ الجَنْدَلِ
 وإنه لواجب على كل إنسان أن يعصى هوى نفسه ، فانها إمارة بالسوء ، وإن
 هو أطاعها حملته مالا يطيق من الذنوب والآثام ، عاصفة منه بسلطان العقل موردة
 له موارد الهلاك :

رَأَيْتُ الذَّنُوبَ تَمِيتُ القُلُوبَ وَيَخْتَرِمُ العَقْلَ إِدْمَانُهَا
 يَبِيعُ الْفَتَى نَفْسَهُ فِي رَدَاهُ وَأَسْلَمَ للنفسِ عَصِيَانُهَا

وعلى هذا النحو كان ابن المبارك يكثر من النظم في الدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام والشهوات كما كان يكثر من الدعوة إلى الزهد وذم الدنيا فإنها لا تمس أحداً بفرح حتى تملأه بترج ، والحازم من تزود من يومه لغده ومن حياته لآخرته . وقد لبي نداء ربه سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة .

محمد^(١) بن كناسة

كناسة لقب أبيه واسمه عبد الله بن عبد الأعلى من بني أسد ، وقد ولد ونشأ بالكوفة في بيت صلاح وتقوى ، إذ كان خاله إبراهيم بن أدهم أحد من تُذكر أسماءهم في نشأة التصوف . ونراه يختلف إلى حلقات المحدثين اختلافاً أتاح له أن يُحتمل الحديث عنه ، وأن يُعَدَّ في رجاله . ويظهر أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، غير أنه كان - كما يقول أبو الفرج - امرءاً صالحاً فلم يتصدَّ لأحد بمدح ولا هجاء ، بل قصر شعره على الزهد وما يتصل به من رياضة النفس على ترك الهوى والاتعاظ بالدنيا وفناء لذاتها وبقاء تبعاتها ، فنعمة دائماً زائلة ونقمة نازلة ، ومهما طال عمر الإنسان فيها فالى يلقى وفناء وإلى كوارث وفواجع ، فكلنا يجرى إلى غاية ينتهى عندها أجله ، ومن عجب أن تتعلق قلوبنا بها ، ونحن كل يوم نقطع مسافة إلى تلك الغاية المحتمة ، بل إن منا من يضل طريق الرشاد فيتبع نفسه وهوها ، وكان حريّاً به أن يقهرها ويدفع عن نفسه بادرة سطوتها حتى يصون دينه ، يقول :

ومن عجب الدنيا تُبْقِيكَ لِلْبَلَى وَأَنْتَ فِيهَا لِلْبَقَاءِ مَرِيدُ
وَأَيُّ بَنَى الْأَيَّامِ إِلَّا وَعِنْدَهُ مِنَ الدَّهْرِ ذَنْبٌ طَارِفٌ وَتَلِيدُ
وَمَنْ يَأْمَنُ الْأَيَّامَ أَمَا اتَّسَاعُهَا فَخَطَرٌ وَأَمَا فَجَعُهَا فَعَتِيدُ^(٢)
إِذَا اعْتَادَتِ النَّفْسُ الرِّضَاعَ مِنَ الْهَوَى فَإِنْ فِطَامَ النَّفْسَ عَنْهُ شَدِيدُ

الزاهرة ١٨٥/٢ .
(٢) اتساعها : نعيمها . خطرنا : متقطع .
عتيد : مهيب حاضر .

(١) انظر في ابن كناسة وأخباره وأشعاره
الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣٣٧/١٣ ،
والفهرست لابن النديم ص ١٠٥ ، والنجوم

وهو يكرر الحديث عن فطام النفس من الشهوات واللذائذ وأنه ثقیل وأن السعيد من عصى هواه في طاعة ربه ، فاجتنب المحارم والمآثم ، ولاحظ أن من الناس من يلوك الأحاديث في عواقب اتباع الهوى ، وكأنه يقول بفمه ما ليس له ظل في قلبه ، أو كأنه يَعْظُ ولا يتعظ ، وفي ذلك يقول :

ما مَنْ رَوَى أدباً ولم يعمل به ويكف عن زَيغ الهوى بأديبٍ
حتى يكون بما تعلَّم عاملاً من صالحٍ فيكون غير معيبٍ
ولقلاً تُغْنِي إصابةٌ قائلٍ أفعاله أفعالٌ غير مصيبٍ
فالكلمة إن لم تصدر من القلب لم يكن لها تأثير في القلوب ، وعظة الواعظ إن لم تشفع بعمله كان هو أول من لا ينتفع بها ، وكانت كالسراج يضيء الدار ويحرق نفسه .
وكان أصدقاؤه من طلاب الدنيا لا يزالون يتلومونه على قعوده عن أبواب الحكام والأمراء ، بينما هو يحسن نظم الشعر ، ونظراؤه يكسبون به الألوف المؤلفة ، وهو يعيش في كفاف وبلّغ وصباغة ، فكان يردّهم ردّاً منكراً ، إذ أعرّض عن الدنيا مصمماً ، غير راغب في متاعها ، فحسبه متاع الآخرة الذي ينتظره والذي يحفظ على نفسه من أجله ماء وجهه ويصون كرامته ، فلا يبتذلها لمخلوق ، فضلاً عن أن يملحه ويداهنه ويطلب منه ما ينبغي أن لا يتجاوز في طلبه ربه . إنه إن فعل طعن وجهه وحياه طعنة نجلاء ، بل طعن زهده وتقواه ، إذ يصبح من طلاب الدنيا لا من طلاب الآخرة ومن يؤثرون نعيم العاجلة على نعيم الباقية ، يقول مجيباً بعض لائمه :

تؤنّبني - أن صُنْتُ عِرْضِي - عصابةً لها بين أطناب اللثام بصيصٌ^(١)
يقولون لو غمضت لآزددت رفعةً فقلت لهم إني إذن لحريصٌ^(٢)
أتكلّم وجهي - لا أبأ لأبيكم - مطامعُ عنها للكرام مَحِيصٌ^(٣)
معاشي دُوَيْنَ القوت ، والعِرْضُ وافرٌ وبَطْنِي عن جَدْوَى اللثام خَمِيصٌ^(٤)

(٣) تكلم : تجرح .

(٤) الجدوى : العطية . خميص : ضامر .

(١) الأطناب : حبال الخيام والاستمارة

واضحة . بصيص : بريق .

(٢) غمضت : تساهلت . حريص : جشع

سَأَلَنِي الْمَنَابِيَا لَمْ أَخَالِطُ. ذَنِيَّةٌ وَلَمْ تَسْرِ بِى فِي الْمَخْزِيَّاتِ قَلُوصٌ^(١)

وكانت له جارية شاعرة مغنية تسمى دنابير وكان ذوو المروءة من أهل الأدب يقصدونها للمحادثة والمساجلة في الشعر ، وكان يقدرها لظرفها وسعة ثقافتها وقدرتها على المشاركة في كل الأحاديث ، واختطفها منه الموت ، فحزن حزناً عميقاً ، صوره في قوله يرثيها ، وقد استسلم لأمر ربه :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ يَا لَيْتَ مَا كَانَ مِنْكَ لَمْ يَكُنْ
إِنْ يَكُنِ الْقَوْلُ قَلًّا فَيْكَ فَمَا أَفْحَمَنِي غَيْرُ شِدَّةِ الْحَزَنِ

وله مراثية طريفة في خاله إبراهيم بن أدهم ، وهى ترسم صورة العابد الناسك في العصر العباسي الأول وكيف كان يعيش على الكفاف قانعاً به ، مزدرياً الدنيا ومتاعها ، مقبلاً على عبادة ربه ، قامعا لدواعي الهوى في نفسه ، متحلياً بالفضائل الرفيعة ، لا يعرف الغضب ولا الطيش ، إنما يعرف الحلم والمثل الخلقية العليا ، يعيش صامتاً مفكراً في ملكوت ربه الأعلى ، حتى إذا نطق استولى على القلوب والأفئدة ببيانه الرائع . وهو دائماً مستكين خاضع لربه متواضع أروع ما يكون التواضع الذى لا يخدش مروءة ولا كرامة ، حتى إذا رعدت الكتيبة بصواعق الموت تقدم الصفوف يناضل مناضلة الليث الكواسر . وفي ذلك كله يقول مخاطباً بعض من لا يزالون يستزيدون من الغنى والثراء :

رَأَيْتُكَ مَا يَكْفِيكَ مَا دُونَهُ الْغِنَى وَقَدْ كَانَ يَكْفِي دُونَ ذَلِكَ ابْنُ أَذْهَمَا
وَكَانَ يَرَى الدُّنْيَا صَغِيرًا عَظِيمُهَا وَكَانَ لِحَقِّ اللَّهِ فِيهَا مَعْظَمًا
أَمَاتَ الْهَوَى حَتَّى تَجَنَّبَهُ الْهَوَى كَمَا اجْتَنَبَ الْجَانِي الدَّمَ الطَّالِبَ الدَّمَ
وَاللَّحْمَ سُلْطَانًا عَلَى الْجَهْلِ عِنْدَهُ فَمَا يَسْتَطِيعُ الْجَهْلُ أَنْ يَتَرَمَّرَ مَا^(٢)
وَأَكْثَرُ مَا تَلْقَاهُ فِي الْقَوْمِ صَامِتًا وَإِنْ قَالَ بَدًّا الْقَائِلِينَ وَأَحْكَمَا
يُرَى مُسْتَكِينًا خَاضِعًا مُتَوَاضِعًا وَلَيْشَأْ إِذَا لَاقَى الْكِتَابَةَ ضَيْعَمًا

(٢) يترمرم : لا يتحرك للكلام .

(١) القلوص من النوق : الشابة .

على الجَدَثِ الغربى من آل وائلٍ سلامٌ وبرٌ ، ما أبرَّ وأكرمًا^(١)
ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف كان ابن كناسة يُصنِّق قلبه وعقله
للزهد وكيف كان يمزجه بنفسه ، وكيف كان يعيش له وبه مؤمنًا بأنه الغاية العليا
التي ينبغي أن يطمح إليها الإنسان ويقصر عليها حياته ، حتى يفوز برضوان ربه ،
وقد لبى نداءه لسنة سبع ومائتين للهجرة .

محمود^(٢) الوراق

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة توضح حياة محمود ، ويقال إنه كان نخاساً
بغداد يبيع الرقيق ، ويبدو أنه كان في فاتحة حياته يأخذ بحظ من اللهو ، ثم كفَّ
نفسه وردعها ، وأخلص وجهه لربه . وفي أخباره ما يدل على حسن عشرته لجواربه
وأنهن كن لا يؤثرن عليه أحداً ، وكانت جاريته سكن من بينهن من أحسن قريناتها
وجهًا ، وكانت تتقن الغناء وتنظم الشعر البارع ، فلكت عليه لبَّه وقلبه ، وحدث
أن رقت حاله واختلت حياته ، فرأى أن يبيعها حتى يوفر لها خفض العيش عند
غيره ، وتنافس الناس في اقتنائها ، وعرض فيها أحد الطاهرين مائة ألف درهم ،
فقال محمود إلى بيعها ، ولما عرض عليها ذلك بكت وذرفت الدموع ، وقالت له إني
أختار عيشة الفقر معك ، فرق لها وحررها وأصدتها داره ، وكانت كل ما يملك .
ومن طريف ما يروى من أخبار جواربه اللاتي كن ينعمن بعطفه أن المتوكل عرض
له في إحداهن عشرة آلاف دينار ، فأبى ، فلما توفى اشتراها في ميراثه بخمسة
آلاف دينار . وذكر لها المتوكل ما كان من أمر محمود معه ، فقالت : يا أمير
المؤمنين إذا كانت الخلفاء تتربص ببلذاتها المواريث فسنشترى بأرخص مما اشتريت .
ولعل العصر العباسي الأول لم يعرف شاعراً أكثر من الحديث عن الزهد واعظاً
مذكراً كما أكثر محمود ، وهو يتخذ لذلك مواقف متعددة ، منها موقف وجوب
الطاعة لله ولأوامره ونواهيه ، فالمسلم الصحيح ينبغي أن لا يقترف إثماً ولا يرتكب
معصية ، وإلا أوقفته ذنوبه ولم يجد من يخلصه من عذاب الله ووعيده ، وحري

بعدها والعقد الفريد ٢٢٨/١ ، ٢٨٥/٢ ،
١٧٩/٣ ، ٢٠٩ ، ٢٠٦ ، ٢١٥ وما بعده ،
٤٠٤/٦ وفوات الوفيات ٢٨٥/٢ وعيون
الأخبار ٥٣/٣ .

(١) الجَدَث : القبر .
(٢) انظر في محمود وأخباره وأشعاره تاريخ
بغداد ٨٧/١٣ وطبقات الشعراء لابن المعتز
ص ٤٢٢ ، ٣٦٧ والبيان والتبيين ١٩٧/٣ وما

بمن ألهته الدنيا ، وتراكت عليه الذنوب ، أن لا يؤمل في جنة ولا ثواب ، فقد استحق العقاب ، يقول :

يا غافلا تنرو بعينى راقداً ومشاهدًا للأمر غيرَ مشاهدٍ
تصلُ الذنوب إلى الذنوب وترتجى دَرَكَ الجنانِ بها وفوزَ العابدِ
ونسيتَ أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنوبٍ واحدٍ
لا بد للمسلم إذن أن يبادر إلى العمل الصالح وأن يجانى الذنوب والآثام حتى يكون
حقاً مطيعاً لربه ، وهى طاعة لا تتم معرفة الله وشكر نعمه بدونها ، بل لا تتم محبته
محبة صحيحة إلا إذا ألح الإنسان فى التماسها وابتغى إليها كل وسائل العبادة متحامياً
المعاصى وكل ما يجر إلى العصيان ، منقطعاً إلى الله مبتتلاً له ، يقول :

تعصى الإله وأنت تظهر حُبَّه هذا محالٌ فى القياس بديعُ
لو كنت تضمح حبه لأطعته إن المحبُّ لمن أحبُّ مطيع
فى كل يومٍ يَبْتَلِيكَ بنعمةٍ منه وأنت لشكرٍ ذاك مُضِيع
وموقف ثان هو موقف الرضا بقضاء الله ، وهو موقف يملأ نفس الزاهد طمأنينة
وراحة ، بل تفاؤلاً وأمناً ، فلا يخشى شيئاً ، إذ لا يتمنى غير ما يحدث ، وكل
ما ينزل به يتقبله بنفس راضية ، يقول :

قَدَّرَ اللهُ كائنٌ حين يُقْضَى وُروْدُهُ
قد مضى فيك علمه وانتهى ما يريد

وموقف ثالث هو التوكل الحقيقى على الله والثقة به ، والاعتماد عليه دون سواه من
الناس ، فهو الكافل والضامن ، وهو الذى يقدِّر ما يصيب الإنسان ، ولن يستطيع
الوصول إليه قبل موعده المقدور وأو طلبه بقوة السماء والأرض ، وقد كفّل له رزقه
وضمن له حياته ، فنعم الضامن الكفيل ، يقول :

أَتطلب رزق الله من عند غيره وتصبحُ من خوف العواقب آمناً
وترضى بعرفٍ^(١) وإن كان مُشركاً ضَمِيناً ولا ترضى بربِّك ضامناً

(١) العراف : المنجم والناظر فى القدر .

ويقول :

أما عجبٌ أن يكفل الناسُ بعضهم ببعضٍ فيرضى بالكفيل المطالبُ
وقد كفل الله الوفيُّ بعهده فلم يُرَضَّ والإنسان فيه عجائبُ
عليمٌ بأن الله موفٍ بوعده وفي قلبه شكٌ على القلب دائبُ
وهذا الموقف أدَّاه إلى موقف رابع هو القناعة ، أو عبارة أخرى أن يقنع الإنسان
بما عند الله وما ادَّخره له في يومه وغده ، وأن يُقْلَع عن الطمع وإلا أصبح ما يكفيه
لا يكفيه وإن أقبلت عليه الدنيا بخذا فيرها ، بل إن شدة الطمع تؤدي بصاحبها إلى أن
يصبح أشد ضنكا من الفقير المحتاج ، والغنى الحقيقي هو غنى النفس القانع لا غنى
الثراء الجشع ، وفي ذلك يقول :

من كان ذا مالٍ كثيرٍ ولم يَقْنَع فذاك الموسِرُ المُعْسِرُ
وكلُّ من كان قنوعاً وإن كان مُقِلًّا فهو المُكثِرُ
الفقرُ في النفس وفيها الغنى وفي غنى النفس الغنى الأكبر
ويكثر محمود من تقريع غنى المال فقير النفس ، مصوراً جشعه في جمع
الدراهم والدينار والباحة في طلبها ، واسترقاقها له ، بل عبادته لها وهيامه بها الذي
لا يقف عند حد ، إذ فَتَسَتْته عن نفسه وعن دينه وعن ربه . وكان يعجب عجباً
شديداً كيف يجمع عبدة المال بينه وبين عبادة ربهم وهو قد استأثر بقاوبهم
وعواطفهم وأهوائهم وملك عليهم كل شيء من أمرهم ، يقول :

أظهروا للناس ديناً وعلى الدينار داروا
وله صاموا وصلُّوا وله حَجُّوا وزاروا
لو بدا فوق الثريَّاء ولهم ريشٌ لطاروا

ودائماً يقول ألا تَبْأَ للغنى الذي يملك الإنسان ويستعبده ، ومرحى بالفقر وعيشة
الكفاف التي يعيشها الزهاد ، غير ملتزمين شيئاً فوق ما يسد رمقهم ويدفع الحاجة
عنهم ، ويكفي فقر الزهاد سمو أنك لا تجد فقيراً يعصى الله ليفتقر ، بينما يفتح الثراء على

أصحابه أبواب الحرص والطمع ، بل إنهم يخوضون إليه أحياناً أبواب المعاصي
ومن ورائها أبواب سقر ، وفي ذلك يقول هذه الأبيات التي أنشدناها في الفصل الرابع :

يا عائبَ الفقر ألا تزدجرُ عَيْبُ الْغِنَى أَكْثَرُ لو تَغْتَبِرُ
من شرف الفقر ومن فضله على الْغِنَى إن صَحَّ مِنْكَ النَّظَرُ
أَنْتَكَ تَعْصِي كِي تَنَالَ الْغِنَى وليس تَعْصِي الله كِي تفتقر

وموقف خامس هو الصبر عند فواجع الزمان فإن من حسنت عقيدته استقبل
الكارثة كما يستقبل النعمة ولم تذهب نفسه حشرات إزاء صروف الدهر ، بل تدرع
بالصبر الجميل درع العباد الناسكين الذين خبروا الحياة وعرفوا أنها همٌّ تِلْهُوهمُ
وأن كل شيء فيها إلى فناء ، يقول :

يَمَثُلُ ذُو اللَّبِّ فِي نَفْسِهِ مَصَائِبُهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَا
فإن نَزَلَتْ بَغْتَةً لَمْ تَرُعْهُ لَمَّا كَانَ فِي نَفْسِهِ مَثَلَا
رَأَى الْهَمُّ يَفْضِي إِلَى آخِرٍ فَصِيرٌ آخِرُهُ أَوَّلَا
وَذُو الْجَهْلِ يَأْمَنُ أَيَّامَهُ وَيَنْسَى مِصَارِعَ مَنْ قَدْ خَلَا
فإن بَدَّهَتْهُ صُرُوفُ الزَّمَانِ بَبِيعُصْ مَصَائِبِهِ أَعْوَلَا
ولو قَدَّمَ الْحَزْمَ فِي أَمْرِهِ لَعَلَّمَهُ الصَّبْرُ عِنْدَ الْبَلَا (١)

وموقف سادس هو اتخاذ من الشيب نذيراً للموت ، وأنه إذا دبَّ السواد
خلال البياض كان حرياً بالإنسان أن يقلع عن غيِّه ويتزود لآخرته ، فقد دقت
أجراس الموت وملأت الفضاء من حوله ، وجدير به أن يبكي ويتفجع على نفسه ،
فالحياة توشك أن تنقضي ويوشك ظلُّها أن ينحسر عنه إلى غير مآب ، كما انحسر
عن الأفراد والأمم ، يقول :

بَكَيْتَ لِقُرْبِ الْأَجَلِ وَبُعْدِ فَوَاتِ الْأَمَلِ

ووافدٍ شَيْبٍ طَرَا بِعَقْبٍ شَبَابٍ رَحَلْ
 شَبَابٌ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ وَشَيْبٌ كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ
 طَوَاكُ بَشِيرٌ الْبَقَاءُ وَحَلْ بَشِيرُ الْأَجَلْ
 طَوَى صَاحِبٌ صَاحِبًا كَذَاكَ اخْتِلَافُ الدُّوْنِ

وموقف سابع هو العفو عن الظالم ، فهو لا يلقى الإساءة بالإساءة إذ يجد في ذلك وقوداً لتهييجها ، وإنما يلقاها بالعفو والرفق والبر والرحمة مطفئاً نار الجهل بالحلم وموجدة الغضب بالصفح . وهي خصلة من خصال الإسلام الرفيعة حث عليها الذكر الحكيم بمثل قوله : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقوله : (وأن تعفوا أقرب للتقوى) . وإنما أراد الإسلام بذلك أن يزرع البرِّ والمحبة في قلوب المسلمين بعفوبعضهم عن بعض ، مع وعده لهم على هذا الصنيع بالأجر والثوبة الحسنة . وعن كل ذلك صدر محمود في تصوير عفوهِ عن بعض ظالميه قائلاً :

إِنِّي وَهَيْتُ لظَالِمِي ظُلْمِي وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِلْمٍ
 وَرَأَيْتُهُ أَسْدَى إِلَيَّ يَدًا لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِي
 رَجَعْتُ لِإِسَاءَتِهِ عَلَيْهِ وَإِذَا سَأَانِي إِلَى مَضَاعِفِ الْغُنَمِ
 وَغَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدٍ وَغَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِثْمِ
 وَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا الْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
 مَا زَالِ يَظْلِمُنِي وَأَرْحَمُهُ حَتَّى رَثَيْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

وهذه المواقف الزهدية المختلفة لمحمود توضح غزارة فكره وأنه كان يستمد من معين عقلى وروحي لا ينضب ، فهو تارة يرغب في محاسن الأخلاق والشيم وتارة يعظ ويذكر ناصباً الموت أمام أعين الناس حاثاً لهم على الإعراض عن الدنيا ومتاعها الفانى والتوكل على الله والرضا بقضائه واتخاذ العدة للقائه ، وقد توفى في حدود المائتين والثلاثين أو بعدها بقليل .

شعراء الاعتزال

تحدثنا في الفصل الثالث عن كثرة الفرق الكلامية في هذا العصر ، وقلنا إن فرقة المعتزلة كانت أهم هذه الفرق ، حتى ليتمكن أن نسمى هذا العصر عصر الاعتزال ، وقد ملثوا مساجد البصرة بمجادلهم العنيف مع أهل النحل والملل المختلفة ، واستمالوا كثرة الشباب إلى عقيدتهم بما أوتوا من قوة اللسان والفصاحة وما سلحوا به عقولهم من المنطق والفلسفة ، بل لقد استمالوا الخلفاء منذ عصر المأمون ، فإذا هو يعلن رأيهم في أن القرآن مخلوق عقيدة رسمية للدولة . وكانوا — كما أسلفنا — يعلنون النظر العقلي إعلاء كبيراً ، حتى ليحيط بشر بن المعتمر العقل — كما مرّ بنا في الفصل الرابع — بهالة قدسية ، وهو إعلاء جعلهم يقولون بأن إرادة الإنسان حرة يفعل ما يشاء بمحض اختياره ، حتى يوجبوا عليه التكليف وثمرته من الثواب والعقاب حسب عمله ، وأدّاهم ذلك إلى البحث في العلاقة لا بين الله والإنسان فحسب ، بل أيضاً بين الله والطبيعة ، ففيها علل ثانوية فعالة تقابل حرية الإرادة عند الإنسان ، وإذا كان الله يتصف بالعدل لإزاء الإنسان وثوابه وعقابه فإنه يتصف بالحكمة لإزاء الطبيعة وكل ما خلقه فيها وبشئ حتى من عناصر الشر . وبلغ من تمجيدهم العقل أن قالوا إن الإنسان يستطيع به حتى لو لم تصله الشرائع أن يعرف أن للعالم إلهاً واحداً خالقاً حكماً ، يعرف ذلك عن طريق مصنوعاته ، وأفضى بهم ذلك إلى مباحث واسعة في الطبيعة . وقد نزهوا الله عن التشبيه والزمان والمكان والحركة ، وقالوا إن صفاته عين ذاته . وأفاضوا في هذه المباحث وما يماثلها إفاضة بحيث أصبح لكثير منهم مذاهب اعتزالية متميزة على نحو ما صورنا ذلك في الفصل الثالث من بعض الوجوه

ولا يكاد يلم القارئ بآرائهم ومذاهبهم في كتاب مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني حتى يهوله ما امتازت به عقولهم من خصب وامتياز ، فقد استطاعوا أن ينفذوا من خلال كل ما قرءوا من ثقافات وفلسفة مترجمة إلى فلسفة إسلامية حقيقية ، بحيث لا نغلو إذا قلنا إنهم فلاسفة العرب الأولون ، إذ لم يقفوا بمباحثهم عند العقيدة

الإيمانية ، بل بسطوها حتى وسعت كل ما خاض فيه اليونان وغير اليونان من مسائل الإلهيات والطبيعات مما يتصل بمبادئ الموجودات والجسمانيات والروحانيات التي وراء الطبيعة والعناصر المكونة للمحسوسات وكل ما تنبعث عنه الحركات في الكون والنفس الإنسانية . وبذلك تحوّل الاعتزال في هذا العصر إلى ما يشبه كنزاً فلسفياً سائلاً ما يزال يرفد الفكر العربي بدرره وجواهره ، وتحوّل شباب الشعراء وغيرهم يستمدون منه عتاداً لعقولهم ومادة خصبة لخواطهم ، مما جعل أبا نواس وغيره يلوكون بعض مصطلحاتهم .

وكان من المعتزلة أنفسهم شعراء كثيرون شاركوا في مجال الشعر ، ومشاركتهم فيه تأخذ وجهتين : وجهة عامة فهم ينظمون فيما ينظم فيه غيرهم من موضوعات الشعر وأغراضه ، وجهة خاصة فهم ينظمون في الاحتجاج لآرائهم الكلامية وفيما يتصل بها من بعض المباحث في الطبيعة ، وكثيراً ما يردّون على خصومهم من أصحاب النحل المختلفة . وأقدم شاعر منهم يلقانا في فاتحة هذا العصر صفوان الأنصاري تلميذ واصل بن عطاء ونراه يتصدّى لبشار حين عرف فيه أستاذه إلحاده ونادى في الناس أن يقتلوه ، لقوله بالرجعة ولتفضيله النار على الطين وبالتالي إبليس على آدم معتدراً له عن عصيانه لربه حين طلب إليه السجود له ، فأبى وآب بالكفر والعصيان والخذلان . ولصفوان في تصديده لبشار موقفان : موقف يمدح فيه واصلًا ويتحدث عن أتباعه وذبيّهم عن الدين وحرماته وما أوتوا من الفصاحة واللدن في الخصومة ، وكيف يضربون في أقطار الأرض داعين للإسلام ولعقيدتهم ، مستطرداً إلى وصف سيئاتهم ونسكهم وتقشفهم ، وفيهم وفي أستاذهم يقول :

تلقَّبَ بالغَزَّالِ واحدُ عَصْرِهِ فَمَنْ لِلتَّيَامَى وَالْقَبِيلِ المَكَاثِرِ (١)
وَمَنْ لِحَرُورِيٍّ وَآخَرَ رَافِضِيٍّ وَآخَرَ مُرْجِيٍّ وَآخَرَ جَائِرِ
وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْكَارٍ مُنْكَرٍ وَنَحْصِينَ دِينَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ كَافِرٍ
لَهُ خَلْفَ شَعْبِ الصِّينِ فِي كُلِّ تُغْرَةٍ إِلَى سُوسِهَا الْأَقْصَى وَخَلْفَ الْبَرَابِرِ

ليصرف صدقته إليهن . وانظر في الأبيات البيان والتبيين ٢٥ / ١ وما بعدها .

(١) لقب واصل بالغزال لأنه كان يكثر الجلوس في سوق الغزالين ، وعطّل المبرد لذلك بأنه كان يريد الوقوف على المتعفات من النساء

رجالٌ دعاةٌ لا يَقُلُّ عَزِيمَهُمْ نَهْكُمْ جَبَّارٍ ولا كَيْدُ ماكِرٍ
وأوتادُ أرضِ الله في كلِّ بلدةٍ وموضعٌ فُتِّيَّاها وعلمُ التشاجرِ

وموقف ثانٍ سبق أن عرضنا له في ترجمتنا لبشار ، ينقض فيه تفضيله النار على الأرض ونفوذه من ذلك إلى تصويب رأى إبليس في رفضه أمر ربه له بالسجود لآدم ، كما ينقض مزاعمه في الرجعة والتناسخ وتكفيره لجميع الأمة ، وخير ما يصور ذلك داليتة التي أنشدتها الجاحظ ، وهو فيها يسهب في بيان فضائل الأرض ، بادئاً بأنها تحمل فيما تحمل النار ، على نحو ما هو معروف في الحجارة والزند ، ثم يفيض في بيان طرائفها المبتوثة في البحار من لآلىء وغير لآلىء ، ومن عنبر وغير عنبر ، مع ما تحمل من السمك السابح ، إلى طرائف لا تكاد تحصى في الجبال والحرار وظاهر الأرضين من الأحجار الكريمة والذهب والفضة والمعادن النفيسة ، بالإضافة إلى الأماكن المقدسة ، مما يدل دلالة ناصعة على عظمة الخالق ، ومن قوله في ذلك (١) :

زعمتَ بأن النارَ أكرمُ عنُصراً
وتُخلَقُ في أرحامها وأرومها
وفي القعرِ من لُجِّ البحارِ منافعُ
وفي قُلَلِ الأَجْبالِ خلفَ مقطَمٍ
وفي الحرَّةِ الرِّجْلَاءُ تُلقَى معادنُ
من الذهبِ الإبريزِ والفضة التي
وكلِّ فلزٍّ من نحاسٍ وآنكٍ
وكلِّ يواقيتِ الأنامِ وحليها

وفي الأرضِ تحيًّا بالحجارة والزند
أعاجيبُ لا تُخصى بخطُّ ولا عَقْدٍ (٢)
من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورْد (٣)
زبرجدُ أملاكِ الوري ساعة الحَشْد (٤)
لهنَّ مغاراتٌ تبجسُ بالنَّقْد (٥)
تروق وتُصبى ذا القناعة والزهد
ومن زنبقٍ حَيٍّ ونوشاذِرٍ يُسدِّي (٦)
من الأرضِ والأحجارِ فاخرة المجد

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٧ .

(٢) العقد : الحساب ، ويريد العد .

(٣) الورد : الأحمر .

(٤) المقطم : جبل مصر الممتد من القاهرة إلى أسوان على الشاطئ الشرقي للنيل .

(٥) الحرة : أرض بركانية سوداء الحجارة .

الرجاء : الوعة الحشنة . تبجس : تتفجر .

(٦) آنك : رصاص . النوشاذر بالذال والذال : حبر أبيض صاف كالبلور .

وفيهما مقامُ الخِلِّ والرُّكنُ والصِّفَا ومُسْتَلَمُ الحُجَّاجِ من جَنَّةِ الخُلْدِ
ويأخذ صفوان بعد ذلك في بيان حقيقة بشار ويظهر أنه كان حينئذ يردُّ
آراء فرقة الكاملية إحدى فرق الشيعة الغالية ، وقد أكفر صاحبهم أبو كامل جميع
الصحابة لتركهم بيعة على وطعن في على لقبوله التحكيم ولأنه قعد في عهد الخلفاء
الثلاثة الأول عن المطالبة بحقه ، وكان يرى أن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى
شخص . ويظهر أيضاً أنه كان يردد بعض ما قاله ديصان وماني عن النور والظلمة
وأنه كان لا يزال يلوك أسماء غالية الشيعة من مثل ليلي الناعظية وأبي منصور العجلي
وابن عمه المغيرة بن سعيد وغيرهم ، ويسجِّل ذلك كله صفوان عليه ، يقول :

أَتَجْعَلُ عَمْرًا وَالتُّطَاسِيَّ وَاصِلًا كَأَتْبَاعِ دَيْصَانَ وَهُمْ قُمُشُّ الْمَدِّ (١)
فِيَا ابْنَ حَلِيفِ الطَّيْنِ وَاللُّومَ وَالْعَمَى وَأَبْعَدَ خَلْقِي اللَّهَ مِنْ طُرُقِ الرُّشْدِ (٢)
أَتَهْجُو أَبَا بَكْرٍ وَتَخْلَعُ بَعْدَهُ عَلِيًّا وَتَغْزُو كُلَّ ذَاكَ إِلَى بُرْدِ (٣)
كَأَنَّكَ غَضْبَانٌ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَطَالِبُ دَحْلٍ لَا يَبِيتُ عَلَى حَقْدِ
أَتَجْعَلُ لَيْلَى النَّاعِظِيَّةَ نَحْلَةً وَكُلَّ عَرِيقٍ فِي التَّنَاسُخِ وَالرَّدِّ

وقد خلاص بشار بعد ذلك للمذاهب الخوسية وعبادة إلهي النور والظلمة . ولم
يصلنا لصفوان ردود على الملحدة وأصحاب النحل والأهواء المختلفة . راء هذا الرد على
بشار ، وأغلب الظن أنه كان يرد عليهم كثيراً وأن القدماء لم يثبتوا ردوده . وسرى
بشر بن المعتمر يسير على هديه في هذا الاتجاه . ومثله العطوى الذي نلقاه بأخرة
من هذا العصر ، وقد أنشد له القائل قصيدة يرد فيها على هشام بن الحكم الرافضي
أحد متكلمي الشيعة الغالين وما كان يزعمه من التشبيه على الله وأنه في صورة إنسان
وله نفس الخواص الخمس ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، واه يقول العطوى
في بعض رَدِّهِ (٤) :

جَلَّ رَبُّ الْأَعْرَاضِ وَالْأَجْسَامِ عَنْ صِفَاتِ الْأَعْرَاضِ وَالْأَجْسَامِ

(٢) دحل : ثار . لا يبيت على حقد : يريد

أنه يسارع إلى الأخذ بثأره .

(٤) أمالي القائل ٢/ ٢٣٦ .

العصر العباسي الأول

(١) قمش : آراذل .

(٢) يشير إلى حرفة أبيه برد وأنه كان طياناً

يضرب اللبن .

جَلَّ رَبِّي عَنْ كُلِّ مَا اكْتَنَفْتَهُ لَحَظَاتُ الْأَبْصَارِ وَالْأَوْهَامِ
 بَرِيَّ اللَّهُ مِنْ هَشَامٍ وَمِمَّنْ قَالَ فِي اللَّهِ مِثْلَ قَوْلِ هَشَامٍ
 قُلْتُ لِمَنْ قَالَ قَوْلَهُ وَرَأَاهُ خَيْرَ مُسْتَرْشِدٍ وَخَيْرِ إِمَامٍ
 لَمْ أَنْكَرْتَ قَوْلَ مَنْ عَبْدَ الشَّيْءِ سَ وَصَلَّى لِلْأَنْجُمِ الْأَعْلَامِ
 مَا الدَّلِيلُ الْمُبِينُ عَنْ حَدَثِ الْعَالَمِ لَمْ أَفْصَحْ بِهِ لَدَى الْأَقْوَامِ
 لَا دَلِيلٌ فَلَا تَرْمُهُ وَقَدْ قُدَّ مَتَّ كِبَعْضُ الْأَنَامِ رَبُّ الْأَنَامِ
 لَمْ تُرِدْ غَيْرَ قِدْمَةِ الْخَلْقِ فَاقْصِدْ قَصْدَهُ دَعُ مَنَاقِضَاتِ الْكَلَامِ

وواضح أن العطوى يرى في التشبيه على الذات الإلهية تعطيلاً للألوهية ، فالله بنص القرآن ليس كمثل شيء وهو منزّه عن كل تجسيد وتجسيم ، ولو أشبهته المخلوقات لأصبح العالم قديماً مثله ، ولكان هناك قديمان : الله والعالم ، ومن أجل ذلك حارب المعتزلة القائلين بهذا القول من فلاسفة اليونان ومن بعض المتكلمين أمثال هشام حرباً عنيفة فالله وحده هو القديم ، أما العالم فحادث ، خلقه الله وأحدثه ، والدلالة على حدوثه وخلقته قائمة في بنيته وتركيبه .

وكان العطوى ينظم في أغراض الشعر المختلفة صابغاً كثيراً من معانيه بأصباغ المعتزلة ، ونقص القدرة على توليد الأفكار واستنباط خبيئاتها ، وفي ذلك يقول بعض القدماء « كان له فن من الشعر لم يُسبَقْ لِيْهِ » ، ذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام ففارق جميع نظرائه وخفَّ شعره على كل لسان ورؤى واستعمله الكتاب واحتدوا معانيه وجعلوه إماماً . وقد أنشد له أبو الفرج في أغانيه طائفة من الأشعار في أغراض مختلفة ، وهي تصور كيف كان يطلب الإطراف في المعنى والخيال من مثل قوله يرثي أحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة في عصره ومقدّمهم عند المعتصم والوائق (١) :

أَحْنَطُهُ يَا نَصْرُ بِالْكَافُورِ وَزَفَقَتُهُ لِلْمَنْزِلِ الْمَهْجُورِ (٢)

(١) الأغاني ٥٨/٢٠ .

(٢) أحبطته : من الحنوط وهو كل طيب يخلط للميت .

هلا ببعض خصاله حنطته فيضوع أفق منازل وقبور^(١)
وقوله في رثائه أيضاً^(٢):

وليس نسيم المسك رياً حنوطه ولكنه ذاك الثناء المخلف^(٣)
وكان منهوما بالنبيذ والشراب ، وله في وصف الصبوح وذكر الندامى والمجالس
أشعار كثيرة تقع فيها على المعاني النادرة من مثل قوله: ^(٤)

فكم قالوا تمنّ فقلت كاش يطوف بها قضيب من كشيبي
ونذمان تساقطني حديثاً كلحظ الحب أو غص الرقيب
وعلى هذا النحو كان العطوى يتأق لمعانيه محاولاً أن يصل إلى كثير من دقائق
الأخيلة والأفكار حتى يبهر معاصريه . ولعل من الخير أن نعرض بشيء من
التفصيل لثلاثة من شعراء المعتزلة دوت أسماؤهم في هذا العصر وهم العتّابي
وبشر بن المعتز والنظام .

العتّابي^(٥)

هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبي ، يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم أحد
أصحاب المعلقات السبع ، ولد ونشأ في قنّسرين بالشام ، ثم سكن الرقة بالموصل ،
وتحول عنها إلى بغداد ، واختلف إلى حلقات المتكلمين ، ولم يلبث أن شغف
بالمعتزلة والاعتزال ، كما شغف بالآداب الفارسية شغفاً أداه إلى تعلم الفهلوية من
جهة ، كما أداه إلى الرحلة مراراً إلى خزائن الكتب بمر وخراسان ، ليتزود منها
بكنوز الأدب الفارسي ، ومرّ بنا في الفصل الرابع لإكبابه على هذه الكتب ونسخه

والفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ومعجم الأدباء
٢٦/١٧ ومروج الذهب للمسعودي ٣/٣٢٧
وما بعدها والوزراء والكتاب للجيشياري ص
٢٣٣ ، ٢٦٢ وتاريخ بغداد لطيفور ص ٨٧
وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/٤٨٨
والفرج بعد الشدة للتونخي ١١٩/٢ والنجوم
الزاهرة لابن تقي بردي ١٨٦/٢ .

(١) يضوع : يفوح .
(٢) أغاني (طبع الساسي) ٥٩/٢٠ .
(٣) ربا : شئ ورائحة .
(٤) أغاني ٥٩/٢٠ .
(٥) انظر في العتّابي وأخباره وأشعاره ابن المعتز
ص ٢٦١ والشعر والشعراء ص ٨٣٩ والبيان والتبيين
٥٦/٤ ، ٥٣/٣ ، ٢٢٠ ، ١٢٠ ، ٥/١١
والحيوان ٦٢/٣ ، ٤٨٣ والأغاني ١٣/١٠٩

لكثير من صحفها ومعانيها ، مما جعل بعض معاصريه يعجب من كثرة نسخه لها ، وقد ابتدره قائلاً : هل المعاني والبلاغة إلا في كتب العجم ؟ اللغة لنا والمعاني لهم . وكان طبعياً أن يؤديه اعتزاله إلى قراءة كتب الفلاسفة ، بل يظهر أنه تعمق في قراءتها ، وهو تعمق دفعه إلى أن يؤلف في علم المنطق كتاباً اشتهر في عصره ، وله بجانب مصنفات لغوية وأدبية مختلفة منها كتاب الألفاظ وكتاب فنون الحكم ، وفيه يقول المسعودي : « كان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان والمكاتبه وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القريحة على ما لم يكن لكثير من الناس في عصره مثله » وكان إلى ذلك يتزهّد في متاع الدنيا ويلبس الصوف أسوة بالناسكين . وسمع يحيى ابن خالد البرمكي وزير الرشيد بفضل فوصله به وبمجالسه ، وأخذ يرضى عليه هو وابناه الفضل وجعفر من نوالهم ، وهو يرضى عليهم من مدائحه ، ولم يلبثوا أن قدموه إلى الرشيد ، فمدحه ونال جوائزه السنية ، مع انقطاعه لهم . ويروى الرواة أن الرشيد سمع باعتزاله ، ولم يكن يعجب بالاعتزال ولا بالمعتزلة ، فطلبه ، وخشى البرامكة مغبة طلبه ، فسروه عنه مدة ، وقيل إنه هرب إلى اليمن ، وما زال يحيى بن خالد - وقيل ابنه جعفر - يستعطف الرشيد عليه ، حتى استلّ ما في نفسه وأمنه . ويروى أنه غضب عليه حين ثار الوليد بن طريف الخارجي الشيباني ، لاشتراك بعض أفراد قبيلته معه ، غير أنه مثل بين يديه يتنصّل من الحرم الذي جناه بعض قومه ، وكان يزيد بن مزيد الشيباني قضى على الوليد فلوح بأن يزيد غسل عن ربيعة كلها ذنبها ، فرضى عنه ووصله .

وما زال العتابي منقطعاً إلى البرامكة حتى إذا فتك بهم الرشيد ظل يمدحه واصلاً أسبابه بطاهر بن الحسين وابنه عبد الله وعلى بن هشام أحد القواد الأجواد في العصر . ويظهر أنه كان يكثر من التردد على الرقة ورأس عين في ديار الجزيرة شمالي العراق . ولما تحول المأمون من مرو إلى بغداد وعقد المجالس لجلّة العلماء يتناظرون ويتحاورون بين يديه أشخص العتابي إليه ، ووالى بره ونواله عليه .

وقد أشاد القدماء بشعر العتابي وبراعته في الحوار في كل ما كتب من رسائل ، وفي ذلك يقول ابن المعتز : « كان العتابي مجيداً مقتدرّاً على الشعر عذب الكلام

وكتابتها جيد الرسائل حاذقا، وقلما يجتمع هذا لأحد ، وما سمعت كلاما قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابي . . فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام » ويقول أبو الفرج عنه : « شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون الشعر ومقدم من شعراء الدولة العباسية » . ويقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابي ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحدوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من الشعراء المولدين كنعو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما ، وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع » . ويقول في موضع آخر من بيانه : « العتابي يذهب شعره في البديع » .

والجاحظ لا يقصد بالبديع المحسنات المعروفة من الجناس والطباق والتصاوير فحسب ، بل يقصد أيضاً المعاني الطريفة النادرة التي أتاحت للعتابي ثقافته الواسعة اجتلابها وعرضها في معارض تمتع النفس وترضى العقل والقلب . وأول ما نقف عنده مديحه ، وقد طارت له فيه قصيدة في الرشيد نظمها حين سخط عليه لثورة الوليد بن طريف التي أشرنا إليها فيما أسلفنا ، وهو يستهلها بذكر الأطلال والنسيب على هذه الشاكلة :

ماذا شجاك بحوارين من طللٍ ودمنة كشفت عنها الأعاصير^(١)
شجاك حتى ضميرُ القلبِ مشتركُ والعينُ إنسانها بالماءِ مغمور^(٢)
في ناظرى انقباضُ عن جفونهما وفي الجفون عن الآماق تقصير
لبستَ أرديةَ الثَّوارِ من طللٍ وزلتَ أخضرَ تعلوك الأَزهير^(٣)

وواضح ما في هذا المطلع من دقة في التفكير ، فهو يصور شجوا نفسه وحزنها حين ألم بالطلل ، ويطيل في هذا التصوير ، محاولا النفوذ إلى خيال بديع على نحو ما يتضح في البيت الثالث ، وهو لا يعنى بدقة الفكر والخيال وحدهما بل يعنى أيضاً بدقة الحس على نحو ما نرى في دعائه الرقيق للطلل بأن يظل مكسواً

(١) حوارين : من قرى حلب . والدمنة :
(٢) مشترك : مهموم .
(٣) أردية : ثياب .

بالخضرة والأزهار والرياحين ويتحول إلى المديح بمثل قوله في الرشيد :

مستنبط عزمات القلب من فكرٍ ما بينهن وبين الله معمر
فَتَ المدائح إلا أن أنفسنا مستنطقات عما تحوى الضمائر
ماذا عسى مَدَحُ يثني عليك وقد ناداك في الوحي تقديس وتطهير
وهو دائماً في مديحه له يمزج بين تصوير حزمه وبصره بالرأى الصائب وحنكته
وبين حياطته للدين والرعية وأخذها بالعدل والشفقة والرحمة ، على شاكلة قوله :

إمام له كَفُ يَضُمُ بَنَائِهَا عَصَا الدين ممنوعاً من البري عودها
وعَيْنُ محيط بالبرية طَرَفُهَا سواء عليه قُرْبُهَا وَبَعِيدُهَا
وَأَصْمَعُ يَقْظَانُ يبيت مناجياً له في الحثا مستودعات يكيدها
سميعٌ إذا ناداه في قعر كُرْبَةٍ منادٍ كَفْتَهُ دعوة لا يعيدها
ونحس في هذه الأبيات مدى ما كان يأخذ نفسه به من الأناة والجهد العنيف
في تصوير معانيه وصياغتها وكان يعرف كيف يعرض المعنى في معارض مختلفة ،
يرفده في ذلك عقله الاعتزالي الخصب الذي لا يزال يثير في نفسه الخواطر التي
تبهز السامعين من مثل قوله في الرشيد ، معيدا للمعاني السابقة في هيات جديدة :

رعى أمة الإسلام فهو إمامها وأدّى إليها الحق فهو أمينها
ويستنتج العقماء حتى كأنما تغلغل في حيث استقر جَنِينُهَا^(١)
وما كلٌ موصوفٍ له الحق يهتدى ولا كلٌ من أمّ الصوى يستبينها^(٢)
مقيمٌ بمُسْتَنَنٍ العُلا حيث تلتقي طوارفُ أبكارِ الخطوب وعُونُهَا^(٣)
وهو يلاحظ ما يقيم عليه الرشيد حكمه من قواعد الدين الخفيف وما سنه
في حكم الرعية من العدالة وطرق الرشاد ويصور فطنته وحنكته في حلّ المشاكل

(١) أصم : يقظ القلب فطن حاذق .
يكيدها : يدبرها .
(٢) العقماء : المشكلة العسرة . يستنتج : يستولد .

(٣) أم : قصد . الصوى : الأعلام .
(٤) المستن : مكان الاستئناس وهو سرعة
الدور . الطوارف : الحديثات . العون : جمع
عوان ضد البكر .

العسرة العقيمة حتى لكأنما يستولدها ما اكنن^١ في أعماقها وأرحامها من حلول خفية ، كما يصور حزمه ونفوذه من الخطوب نفوذ السهم الصائب . وواضح ما يُعْنَى به العتَابِي من دقة في معانيه وطرافة ، ويُرْوَى أنه دخل سراً مع المتظلمين إلى الرشيد في بعض سخطاته عليه ، فأنشده :

أَخِضْنِي الْمَقَامَ الْعَمَرَ إِنْ كَانَ غَرَّنِي سَنَا خُلْبٍ أَوْ زَلَّتِ الْقَدَمَانِ^(١)
أَتَرَكْنِي جَذَبَ الْمَيْشَةَ مُقْتَرًا وَكَفَّاكَ مِنْ مَاءِ النَّدَى تَكْفَانِ^(٢)
وَتَجْعَلْنِي سَهْمَ الْمَطَامِعِ بَعْدَمَا بَلَلْتِ يَمِينِي بِالنَّدَى وَلِسَانِي
فَأعجب الرشيد قوله ، وأجازه جائزة سنية . وكان جعفر البرمكي أو أبوه يحيى شفع له عند الرشيد في مودة له أخرى عليه ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، فقال بمدحه :

مَا زَلْتُ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مَطْرَحًا قَدْ ضَاقَ عَنِّي فَسِيحُ الْأَرْضِ مِنْ حَبْلِي^(٣)
وَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَى بِلَطْفِكَ لِي حَتَّى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيَّ أَجَلِي

وهذا البحث عن المعاني النادرة أشاع في شعر العتابي ظاهرة لم تكن مألوفة هي قِصَرُ المدائح وغير المدائح مما يلم به من أغراض الشعر حتى لتصبح بيتين أو ثلاثة في كثير من الأحيان ، وكأنما يتشبه في ذلك بالأمثال الفارسية القصيرة التي كان يعكف عليها والتي يمثلها خير تمثيل كتاب الأدب الصغير لابن المقفع ، وما يصور ذلك عنده أجمل تصوير ما يُرْوَى من أنه دخل على عبد الله بن طاهر يوماً فأنشده مادحاً :

حُسْنُ ظَنِّي وَحُسْنُ مَا عَوَّدَ اللَّـهُ سِوَايَ مِنْكَ الْغَدَاةَ أَتَى بِي
أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَحْسَنَ مِنْ حُسْنِ نِيَّاقَيْنِ حَدَا إِلَيْكَ رِكَابِي
ثم دخل عليه من الغد ، فأنشده البيتين التاليين اللذين أنشدناهما في الفصل السادس :

تَكْفَانُ : تَهْلَانُ وَتَسِيلَانُ .

(٣) غَمَرَاتُ : شَدَائِدُ .

(١) الْمَقَامُ الْعَمَرُ : الْمَقَامُ الشَّدِيدُ . سَنَا خُلْبٍ :

ضَوْءُ الْبَرْقِ الَّذِي لَا يَعْقِبُهُ مَطَرٌ .

(٢) مُقْتَرًا : ضَيْقُ الرِّزْقِ . النَّدَى : الْجُودُ .

وذلك يكفينيك في حاجتي ورؤيتي كافية عن سؤال
وكيف أخشى الفقر ما عشت لي وإنما كفأك لي بيت مال
ثم دخل في اليوم الثالث ، فأنشده :

بَهَجَاتُ الشَّيَابِ يُخْلِقُهَا اللَّهُ رُ وَثوبُ الثَّنَاءِ غَضُّ جَدِيدُ
فَاكْسُنِي مَا يَبِيدُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ فَيَكْسُوكَ اللَّهُ مَا لَا يَبِيدُ
وواضح أنه حول قصيدة المديح إلى بيتين قصيرين ، يحملان معنى طريفاً ،
وهو معنى لا يصل إليه إلا بعد التدبر وبعد طول الروية وبعد النظر وطول التفكير ،
بل بعد التوقف وطول التنقيب . وعلى نحو ما يلقانا ذلك في مديحه يلقانا في عتابه
من مثل قوله :

رَحَلَ الرَّجَاءُ إِلَيْكَ مُغْتَرِباً حُشِدَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ
رَدَّتْ إِلَيْكَ نَدَامَتِي أَمْلِي وَثَنَى إِلَيْكَ عِنَانَهُ شُكْرِي
وَجَعَلْتُ عَتَبَكَ عَتَبَ مَوْعِظَةٍ وَرَجَاءَ عَفْوِكَ مُنْتَهَى عُدْرِي

وله غزليات تُطَبِّعُ بِنَفْسِ الطَّوَابِعِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ ، فهو ما يزال يحاول فيها
استنباط المعاني والصور الدقيقة على شاكلة قوله :

رُسُلُ الضَّمِيرِ إِلَيْكَ تَتَرَى بِالشَّوْقِ ظَالِمَةً وَحَسْرَى^(١)
مَا جَفَّ لِلْعَيْنَيْنِ بَعْدَكَ يَا قَرِيرَ الْعَيْنِ مَجْرَى
إِنْ الصَّبَابَةُ لَمْ تَدْعُ مِنِي سِوَى عَظَمٍ مُبَرَّى^(٢)
وَمَدَامِعِ عَمْبَرِي عَلَى كَبَدٍ عَلَيْكَ الدَّهْرُ حَرَّى^(٣)

وَأَدَّاهُ طَوْلُ نَظَرِهِ وَفَحْصُهُ لِّلْمَعَانِي إِلَى أَنْ يَجْرِدَهَا وَيَجْسِمُهَا أَحْيَاناً ، وَأَحْيَاناً
أُخْرَى يَتَعَمَّقُ فِيهَا وَيَتَغَلَّغِلُ إِلَى لَبِهَا ، مُسْتَخْرِجاً بَعْضَ الصُّوَرِ أَوْ بَعْضَ الْحُكْمِ ،
من مثل قوله مجسداً لشكره :

(١) ظالمة : من الظلوع وهو العرج من كثرة السير . حسرى : متعبة .
(٢) مبرى : مهزول .
(٣) حرى : محترقة .

فلو كان للشكر شخصٌ يَبِينُ إذا ما تأمله الناظرُ
لَمَلَّئْتُهُ لك حتى تراه لتعلم أنى امرؤٌ شاكِرُ

وقوله في ملامة الأصدقاء وتلقيها بالقبول الحسن :

لَوْ يُعَيْدُكَ مِنْ سُوءِ تُقَارِفُهُ أَبْقَى لِمَرْضُكَ مِنْ قَوْلٍ يُدَاجِيكَ^(١)
وَقَدْ رَمَى بِكَ فِي نَيْهَاءِ مَهْلَكَةٍ مِنْ بَاتِ يَكْتُمُكَ الْعَيْبُ الَّذِي فِيكَ^(٢)

وله أشعار يتناول فيها الأخلاق والطباع ، محللا لها تحليلا بديعاً ، من ذلك تصويره لمن اتبع هداه ، فعدل عن محجة الخلق الحميد إلى مسارب الخلق النميم ، وإنه ليعد ذلك كفراناً لنعمة الله الذي وهب الإنسان من العقل ما يميز به الخبيث من الطيب ، والضار من النافع ، فإذا هو يستجيب لهواه ودواعي نفسه ، ولو أنه فطمها وكبح جماحها لاستتم شكره لأنعم ربه ، ولكن أنى له وفطام النفس عسير ، يقول :

وَكَمْ نِعْمَةٍ آتَاكَهَا اللَّهُ جَزَلَةٍ مَبْرَأَةٍ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ يَذِيْمُهَا^(٣)
فَسَلَّطْتَ أَخْلَاقاً عَلَيْهَا ذَمِيمَةً تَعَاوَزْنَهَا حَتَّى تَفَرِّى أَدِيمُهَا^(٤)
وَكُنْتُ امْرَأَةً لَوْ شِئْتُ أَنْ تَبْلُغَ الْمَدَى بَلَغْتَ بِأَدْنَى نِعْمَةٍ تَسْتَدِيمُهَا
وَلَكِنْ فِطَامُ النَّفْسِ أَعْسَرُ مَحْمِلاً مِنْ الصَّخْرَةِ الصَّامَةِ حِينَ تَرُومُهَا

وعلى هذا النحو كان العتابى لا يزال يلذ عقول سامعيه وقلوبهم بما يورد عليهم من نوادر الأخيلة وطرائف المعاني محتالاً لذلك متلفعاً له بكل ما ادخره عقله واقتناه من بيئة المعتزلة وكنوزها الفكرية الغنية ، وقد ظل الناس يفتنون بشعره ، وهو يعرض عليهم مبتكراته في معانيه حتى انتقل إلى جوار ربه في سنة ثمان ومائتين .

(٣) يذيمها : يميها .

(٤) تفرى : تقطع .

(١) تقارفه : ترتكبه . يداجيك : يتناقك .

(٢) نيهاء : فلاة مفضلة .

بشر^(١) بن المعتز

شيخ معتزلة بغداد ورئيسهم ، يقال إنه كوفي الأصل وأهله تحول منها أولاً إلى البصرة موطن المعتزلة ، ثم استوطن بغداد ، وقد اتخذ النخاسة حرفة له ، مثله في ذلك مثل محمود الوراق ، وكان أيضاً مثله زهداً ونسكاً وعبادة . ولا نعرف بالضبط متى نزل بغداد ، غير أننا نجد اسمه يلمع فيها منذ عصر الرشيد والبرامكة وقد توثقت الصلة بينه وبين الأخيرين وخاصة منهم الفضل بن يحيى البرمكي ، وربما كان السبب الحقيقي في توثق هذه الصلة ما عرف عن بشر من نزعة شيعية ، وكان البرامكة يتشيعون سرّاً ، ففسحوا له في مجالسهم ، ونصّ كثير من على هذه النزعة ، يقول النوبختي إنه كان يوافق الشيعة في الحكم على عليّ بأنه كان مصيباً في حربه لطلحة والزبير ومعاوية وأن جميع من قاتله كان على خطأ ، وأيضاً كان مصيباً في قبوله التحكيم . ويقول ابن أبي الحديد : « كان بشر بن المعتز من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل علي عليه السلام (أى على أبي بكر وعمر) ويقول كان أشجعهم وأسخاهم ، ومنه سرى القول بالتفضيل إلى أصحابنا (من المعتزلة) البغداديين قاطبة وفي كثير من البصريين » . وقد روى له ابن المرتضى أبياتاً من أرجوزة يقول في بعض شطورها « نبرأ من عمرو ومن معاوية » خصمى على في صفيّين ، فتشيعه لا مرية فيه ولا شك يعتريه .

وقد عرضنا في الفصل الرابع للنحلة الاعتزالية التي تكونت حول آرائه ، والتي سميت البشرية نسبة إليه وذكرنا أن من أهم الأصول التي كان يعتنقها نظرية التولد ، وكان يذهب فيها إلى أن كل ما يتولد من أفعالنا فينا أوفى غيرنا فهو فعلنا . وذكرنا أيضاً أنه كان ينكر فكرة وجوب الأصلح على الله ، إذ لا نهاية لطبقات الأصلح عند الذات العلية ، ومن أجل ذلك يكون الذي يجب عليه

ص ٣٥ ، ٣٧ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبعة الحلبي) ٣١٦/٣ والملل والنحل للشهرستاني ص ٤٤ والمواقف للإيجي (طبع بولاق) ص ٦٢٢ والفرق بين الفرق ١٤١ وضحي الإسلام ١٤١/٣ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٣١ .

(١) انظر في بشر وأخباره وأشعاره الحيوان ٢٣٩/٤ و٦٢/٦ ، ٩٠ ، ٢٨٤ وما بعدها و٤٠٥ ، ٤٥٥ والبيان والتبيين ١٣٥/١ وما بعدها وأمالى المرتضى ١٨٦/١ ولسان الميزان ٣٣/٢ وفهرس الانتصار لابن الخياط المعتزلة والأنساب للسمعاني في البشرى وفرق الشيعة للنوبختي

حقاً هو تمكين العبد بما أودع فيه من القدرة والاستطاعة . وكان ينصر القياس العقلى نصرة شديدة ، كما كان يحل العقل لإجلالاً بعيداً حتى ليرفعه إلى مرتبة مقدسة ، وقد مرّت بنا في الفصل الرابع أبياته التي يشيد فيها به إشادة بالغة ، لما أودع الله فيه من المعرفة الفطورية التي تجعل الإنسان يميز الشر من الخير ، ويدرك الحسن فيعتنقه والقيبح فيتجنبه ، ويقول لولاه لذهب الإدراك والتمييز ، بل لفقد الإنسان جوهر إنسانيته . وله مصنفات مختلفة تتصل باعتزاله سجلها ابن النديم في فهرسته .

وكان حسن الجدال قوى الحجة ، وهو يُعَدّ في الذروة من فصحاء المتكلمين وبلغائهم ، وقد جعله الجاحظ أكثر المعتزلة رواية للشعر ، وروى عنه في بيانه صحيفة طويلة في البلاغة ، تجعله واضع أصولها الأولى في صورتها الدقيقة ، وقد حللناها في كتابنا « البلاغة ^(١) : تطور وتاريخ » . وهى تشهد له ببصره النافذ في معرفة طبقات الكلام والملازمة بينها وبين طبقات السامعين .

ولم يكن يروى الشعر فحسب ، بل كان أيضاً بارعاً في نظمه ، غير أنه لم ينظمه في الأغراض الغنائية التي تعود الشعراء أن ينظموا فيها ، بل نظمها في الاتجاه التعليمي الذي كان أبان بن عبد الحميد قد برع فيه ، غير أنه لم يتجه به وجهة من القصص والتاريخ والفقه والمنطق ، وإنما اتجه به إلى الرد على أهل المقالات والنحل من خصوم المعتزلة ، كما اتجه به إلى ذكر عجائب الله في صنوف خلقه ، مما يمكن أن يدخل في التاريخ الطبيعي ، ويذكر الجاحظ أنه لم ير أحداً أقوى منه على الخمس والمزدوج وأنه يفوق أبانا . وليس بين أيدينا شيء من خمساته ، أما مزدوجاته فيذكر ابن المرتضى أن له مزدوجة ردّها فيها على جميع المخالفين للمعتزلة بلغت أربعين ألف بيت ، وقد اقتبس منها قطعة أعلن فيها براءته من معاوية كما أسلفنا وكذلك ابن العاص . وأكبر الظن أن القطعة التي أنشدها له صاحب الانتصار في التبرؤ من الجهمية وصاحبهم جهم مقبسة هي الأخرى من تلك الأرجوزة وفيها يقول :

ننفيهم عنا ولسنا منهم ولا هم منا ولا نرضاهم

(١) انظر كتاب البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٤١ وما بعدها .

لِإِمَامِهِمْ جَهَنَّمُ وَمَا لَجَهَنَّمُ وَصَحْبِ عَمْرٍو ذِي التَّقَى وَالْعِلْمِ
وَمَعْرُوفٍ أَنَّ جِهَمًا كَانَ يُؤْمِنُ بِالْجِبْرِ وَيُنْفِي اسْتَطَاعَةَ الْإِنْسَانِ وَحَرِيَّةَ إِرَادَتِهِ
مِمَّا كَانَ يَعْتَقُهُ الْمَعْتَزِلَةُ وَأَسَانِدَتُهُمْ أَمْثَالُ عَمْرٍو بْنِ عُبَيْدٍ وَوَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ ،
وَرَوَى الْجَاهِظُ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ حَيَوَانِهِ مَقْطُوعَةً مِنْ إِحْدَى أَرَاكِيزِهِ ، وَرَبَّمَا
كَانَتْ هِيَ الْآخَرَى مِنَ الْأَرْجُوزَةِ السَّالِفَةِ ، وَكَذَلِكَ مَا رَوَى فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ
مِنْ تَفْضِيلِهِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَى الْخَوَارِجِ ، إِذْ يَقُولُ :

مَا كَانَ فِي أَسْلَافِهِمْ أَبُو الْحَسَنِ وَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَلَا أَهْلُ السُّنَنِ
غُرٌّ مَصَابِيحُ الدُّجَى مَنَاجِبُ أَوْلَئِكَ الْأَعْلَامِ لَا الْأَعَارِبُ
كَمِثْلُ خُرْقُوصٍ وَمِنْ حَرَقُوصٍ فَقَعَةٌ قَاعٍ حَوْلَهَا قَصِيصٌ ^(١)
لَيْسَ مِنَ الْحَنْظَلِ يُشْتَارُ الْعَسَلُ وَلَا مِنَ الْبَحُورِ يُضْطَادُ الْوَرَلُ ^(٢)
هِيَهَاتَ مَا سَافَلَةُ كَعَالِيَّةٍ مَا مَعْدُنُ الْحِكْمَةِ أَهْلُ الْبَادِيَةِ

وَرَوَى لَهُ الْجَاهِظُ فِي الْحَيَوَانِ قَصِيدَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ قَدِمَ لَهَا بِقَوْلِهِ : « أَوَّلُ
مَا نَبْدَأُ قَبْلَ ذِكْرِ الْحَشَرَاتِ وَأَصْنَافِ الْحَيَوَانِ وَالْوَحْشِ بِشَرِّ بَشَرٍ مِنَ الْمَعْتَمِرِ
فَإِنَّ لَهُ فِي هَذَا الْبَابِ قَصِيدَتَيْنِ قَدْ جُمِعَ فِيهِمَا كَثِيرٌ أَمِنْ هَذِهِ الْغَرَائِبِ وَالْفَرَائِدِ ، وَنَبَّهَ بِهَذَا
عَلَى وَجْهِهِ كَثِيرَةٌ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَجَبِيَّةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْبَلِيغَةِ . . وَإِذَا قَسَمْنَا مَا عِنْدَنَا
فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ عَلَى بَيوتِ هَذَيْنِ الشَّعْرَيْنِ وَقَعَ ذِكْرُهُمَا مَصْنُوعًا فَيَصِيرُ حِينَئِذٍ
آتَقَى فِي الْأَسْمَاعِ وَأَشَدَّ فِي الْحَفْظِ » . وَبَشَرٌ يَسْتَهْلِكُ الْقَصِيدَةَ الْأُولَى بِحَدِيثِهِ عَنْ
طَبَاعِ الْإِنْسَانِ وَمَا رَكِبَ فِيهِ مِنَ الطَّمَعِ الَّذِي يَدْفَعُ النَّاسَ إِلَى أَنْ يَتَوَاتَبُوا بَعْضُهُمْ
عَلَى بَعْضٍ تَوَاتَبَ الذُّثَابُ ، وَيَفِيضُ فِي وَصْفِ الْحَيَوَانِ وَالْحَشَرَاتِ وَبَعْضُ الطَّيْرِ
وَيُبَيِّنُ طَبَاعَهَا وَعَجَائِبَ خَلْقِهَا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ تَحَوَّلَ إِلَى إِبَاضِيَّةِ
الْخَوَارِجِ وَرَافِضَةِ الشَّيْعَةِ مِمَّنْ يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِ الْخَفَرِ ، وَهُوَ كِتَابُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ عِنْدَ
أَتَمَّتِهِمْ فِيهِ كُلُّ أَصْنَافِ الْعِلْمِ وَكُلُّ مَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَلَكَ مَعَ الرَّافِضَةِ

مثلا للرجل الذليل لأن الإبل تدوسه بأرجلها.
(٢) يشتار : يستخرج . الورل : دابة
صحراوية كالغضب .

(١) حرقوص : من زعماء الخوارج لمعهدي .
القصيص : شجرة تنبت في أصله الكفاة وهي الفقع .
والقاع : الأرض المستوية ، ويضرب الفقع

والإباضية الحشوية ، وهو اسم كان يطلقه المعتزلة على خصومهم من المجسمة والمشبهة ومن كانوا لا يؤولون آيات التشبيه في القرآن وإن قالوا إن الله لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، وفي ذلك يقول :

لستُ إباضياً غيبياً ولا كرافضياً غره الجفّر
كما يغرّ الآل في سبَسب سَفَرًا فأودى عنده السّفَرُ^(١)
لسنا من الحشو الجفاة الأولى عابوا الذي عابوا ولم يدروا
لا تنجع الحكمة فيهم كما ينبؤ عن الجرّولة القطر^(٢)
أولئك الداء العُضال الذي أعيأ لديه الصّاب والمقرّ^(٣)

وفي هجومه على الشيعة القائلين بكتاب الجفر ما يدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن يعتنق مذهب الإمامية كما أشرنا إلى ذلك في الفصل السادس ، وقد استظهرنا هناك أنه ربما كان زيدى الهوى . وهو في القصيدة الثانية يتحدث أيضاً عن غرائب الخلق في أوابد الوحش والحشرات والطيور السابح في الهواء ، مستنبطاً كثيراً من العظاات ، ومنوها بالعقل وساطع نوره الذى نكتشف به مثل هذه العجائب والعبر ونفصل بين الخير والشر والنافع والضار ، ويعرض في أثناء ذلك لأهل المقالات والنحل من غير المعتزلة ، فيقول :

قد غمر التقليد أحلامهم فناصبوا القياس ذا السّبر
فهو يأخذ عليهم أنهم يلغون عقولهم وأنهم لا يحكمون المنطق والقياس العقلى
السديد الذى به تقاس الأشياء ويُسبّر ويُعرّف غورها ومقدار ما فيها من
الخطأ والصواب . وعلى هذا النحو ظل بشر مشغولاً في شعره التعليمى بالرد على
خصوم المعتزلة وبيان عجائب الخلق الربانى حتى وافاه القدر في سنة عشر
وماثنين .

(١) الآل : السراب . السبَسب : القلاة .
السفر : جماعة المسافرين .
(٢) الجرّولة : الصخرة الملساء . ينبؤ : يزل .
(٣) الصاب والمقر : نباتان شديدا الحرارة . ويسقط .

النظام^(١)

هو إبراهيم بن سيار بن هانيء ، وُلد ونشأ بالبصرة ، وكان يحترف نظم الخرز في سوقها لأول حياته فلُقِّبَ بالنظام ، والمظنون أن ولادته كانت حول سنة ١٦٠ للهجرة فقد رُوي أنه تتلمذ للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة وربما كانت ولادته تسبق التاريخ الذي ظنناه ، إذ نجده يناظر ويحاور أهل الكلام في مجالس البرامكة ، ومعروف أنهم نكبوا سنة ١٨٧ فلا بد أن يكون قد نضج ولمع اسمه قبل هذا التاريخ مما يؤكد أن ولادته ربما سبقت سنة ١٦٠ . وهو ابن أخت أبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة بالبصرة ورئيسهم بعد عمرو بن عبيد ، ولعل ذلك ما جعله يشغف بالاعتزال منذ نشأته ويظهر أن خاله عني به وبثبتيه عناية كبيرة ، وهي عناية صادفت فيه عقلا خصباً وذكاء نادراً . وقد مضى يستوعب كل ما يمكن من كتب الاعتزال والفلسفة والتفسير والحديث والفقه والكيمياء والفلك وعلوم اللغة وكتب الأشعار والأدب وكتب الملل والنحل الإسلامية وكان خاله بارعا في المناظرة وقطع الحصوم بالحجج الساطعة ، فتلقن ذلك عنه ، بل لعله بذه فيه ، وقد مرَّ بنا في ترجمتنا لصالح بن عبد القدوس كيف تعرَّض له وهو حدث ، فإذا هو يلقمه بمحاورته له حجراً ، فلا يستطيع أن ينبس ببنت شفة ، وكان كثيراً ما يظفر بخاله . وقد وقف نفسه على مناظرة الدهريين وأصحاب الملل والنحل المختلفة في عصره ، وطارت شهرته في هذا الباب ، لإفحامه دائماً لم وعلوه عليهم بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة ، حتى ليقول الجاحظ في حيوانه : « لولا مكان المتكلمين لهلك العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة لهلك العوام من جميع النحل » ، فإن لم أقل وأولا أصحاب إبراهيم

والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٣٤ والملل والنحل الشهرستاني ص ٣٧ والفرق بين الفرق ١١٣ والمواقف ٦٢١ وانظر مروج الذهب للسعودي ٢٨٧/٣ وشرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربي) ص ٢٢٦ . وضحي الإسلام ١٠٦/٣ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بورص ٥٩ .

(١) انظر في النظام وأخباره وأشعاره فهارس البيان والتبيين والحيوان للجاحظ وأمال المرتضى ١٨٧/١ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٩٧/٦ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٢٧ وابن المنذر ص ٢٧١ وفهارس الانتصار لابن الخياط ومقالات الإسلاميين للأشعري ولسان الميزان ٦٧/١ وروضات الجنات للخوافساري ص ٤٢

وإبراهيم (النظام) هلك العوام من المعتزلة فأني أقول إنه قد أنهج لهم سبلا وفق لهم أمورا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة^(١) . وقد كان كثير التردد على بغداد منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٠ اختارها دار مقام له ، وعقد لنفسه بمسجدها الكبير حلقة للمحاضرة قرر فيها مذهبه الاعتزالي انذى نُسب إليه ، فتبعه - كما يقول ابن تغري بردي - خلق كثير ، مما جعل اسمه يشيع في العامة ويدور على كل لسان . ومرت بنا في الفصل الثالث كلمة موجزة عن نظريته الاعتزالية ، وهي نظرية كانت تقوم على أصول المعتزلة الخمسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع وقد مزج في قوة بين كلام الفلاسفة وأفكار المعتزلة ومال في آرائه إلى كلام الطبيعيين من الفلاسفة خاصة وانفرد من نظرائه بكثير من الآراء كقوله بأن الله لا يقدر على فعل الشر وإنه إنما يفعل الأصالح لعباده ، وقوله بنى الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ ، وقوله إن الله خلق الكائنات دفعة واحدة معادن ونباتاً وحيواناً وإنساناً ، غير أن الله أكنن بعضها في بعض ، فأدم لا يتقدم خلقه على خلق أولاده ، وهو ما ما يعرف عنده بنظرية الكمون ، ومن ذلك قوله إن الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت . وكان يُعَلَى سلطان العقل إعلاء شديداً ، ولعل ذلك هو الذي أدّاه إلى إنكار حجبة الإجماع والقياس وكأنه خشي في الأخير إلى نقص الأصل الذي يقاس عليه ، ونرى تلميذه الجاحظ المفتون به يعيبه هو نفسه بأنه كان قليل الثبوت من صحة المقدمات في أقيسته ، وهو دائم الإشادة بفطنته وغوصه على الدقائق ولطف مداخله إلى أعماق الحقائق .

وله شعر كثير يدور في كتب التراجم ، وهو مطبوع بطوايع المتكلمين والمعتزلة منهم خاصة ، إذ نراه يمزجه باصطلاحاتهم نافذاً إلى أغوار المعاني ، متصرفاً فيها تصرف الحاذق الفطن ، وملائماً بينها إلى أبعد حدود الملاءمة يعينه في ذلك حسّ دقيق مرهف وشعور رقيق حاد من مثل قوله :

وشادنٍ ينطقُ بالظُرفِ يَقْصُرُ عنه منتهى الوصفِ

رَقَّ فُلُو بُزَّتْ سَرَابِيلُهُ عُلِّقَهُ الْجَوُّ مِنَ اللَّطْفِ^(١)

يجرحه اللَّحْظُ بَتَكَرَّارِهِ وَيَشْتَكِي الْإِمَاءَ بِالطَّرْفِ

وكلمة اللطف في الأبيات لا تفهم بدقة إلا إذا عرفنا أن النظام كان يرى أن روح الإنسان جسم لطيف وما الجسد إلا آلتها وما الإنسان إلا الجسم اللطيف الذي يحتويه . وفي البيت الأخير مبالغة واضحة يستم بها مبالغة البيت الذي يسبقه وقد عاد إلى توضيح هذه المبالغة ودعم صورتها ، فقال :

تَوَهَّمَهُ طَرْفِي فَآلَمَ خَدَّهُ فَكَانَ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظَرِي أَثْرُ

وَصَافِحِهِ قَلْبِي فَآلَمَ كَفَّهُ فَمِنْ صَفْحِ قَلْبِي فِي أَنَامِلِهِ عَقْرُ^(٢)

وَمَرَّ بِقَلْبِي خَاطِرًا فَجَرَحَتْهُ وَلَمْ أَرَ خَلْقًا قَطُّ يَجْرَحُهُ الْفَكْرُ

يَمُرُّ فَمِنْ لَيْنٍ وَحُسْنٍ تَعَطُّفٍ يُقَالُ بِهِ سُكْرٌ وَلَيْسَ بِهِ سُكْرُ

وهو وهم بعيد لا يقع في عقل شخص إلا أن يكون من المعتزلة الذين يبعدون في تصور الأشياء ، بل إلا أن يكون من عقل النظام الذي كان يؤمن بأن الأعراض كامنة في الجوهر وأن حركات الإنسان كامنة في نفسه وأن حركات النفس أجسام مستترة ، وبذلك نفذ إلى هذا التجسيم الغريب في الأبيات . ويستلهم رأيه في أن النور سمائي علوي ، يعلو فوق الأشياء ولا يعلو شيء عليه ، فيقول :

أَفْرِغَ مِنْ نَوْرٍ سَمَائِيٍّ مَصُورٌ فِي جِسْمٍ إِنْسَانِيٍّ

وَأَفْتَقِرَ الْحُسْنَ إِلَى حُسْنِهِ فَجَلَّ عَنْ تَحْدِيدِ كَيْفِيٍّ

أَبْدَعَهُ الْخَالِقُ وَاخْتَارَهُ مِنْ مَازَجِ الْأَنْوَارِ عُلُويٍّ

فَكُلُّ مَنْ أَغْرَقَ فِي وَصْفِهِ أَصْبَحَ مَنْسُوبًا إِلَى الْعِلَى

وتختلط في الأبيات فكرته عن النور بفكرته عن الأجسام وأنها أعراض متجمعة . ويتضح فيها لحن المعتزلة أو لحنه هو إذ يتحدث عن الكيف وتحديد

أو عبارة أخرى عن العرض ، وهو عنده جسم . وبذلك كان يعرف كيف يتحول بالغزل إلى ضروب من الوهم المسرف في الخيال ، وكذلك كان يصنع بكل ما يمسه عقله ووجدانه من أغراض الشعر كقوله يصف احتساءه للخمر من بعض الدنان :

ما زلت آخذ روح الزُّقِّ في لُطْفٍ وأَسْتَبِيحُ دَمًا من غير مجروح
حتى انشئتُ ولي روحان في جسدي والزُّقُّ مُطْرَحُ جسمٍ بلا روح
وهو هنا أيضًا ينظم بعقله الاعتزالي وما كان يذهب إليه من أن الروح جسم لطيف مشابه للبدن بأجزائه تشابك المائبة للورد ، وهي صاحبة القوة والاستطاعة والحياة والمشية . وله في تلميذه الجاحظ عمرو بن بحر الذي كان يبادله إعجابا بإعجاب وودًا بود :

حيي لعمرو جوهرٌ ثابتٌ وحبُّه لي عَرَضٌ زائلٌ
به جهاتي الستُ مشغولةٌ وهو إلى غيري بها مائلٌ

وواضح تشبُّه بلغة المتكلمين وآرائهم في الجواهر والعرض والجهات الست . ولم يكن هناك غرض ينظم فيه إلا ويدخل فيه لغة الاعتزال وما يدفع إليه من التجريد البعيد الذي يرفع الإنسان من عالم الحس إلى عالم الوهم والخيال كقوله بمدح الأمين :

ألا ياخيرَ مَنْ رَأَتْ العيون نظيرُك لا يُحَسُّ ولا يكونُ
وفضلكَ لا يُحَدُّ ولا يجارى ولا تحوى حيازته الظنونُ
خُلِقْتَ بلا مشاكلةٍ لشيءٍ فأنتَ الفوقُ والثقلان دون
كأنَّ الملكَ لم يك قبلُ شيئاً إلى أن قام بالملك الأمين

وهي مبالغة مسرفة ، وكأن النظام كان أحد من ثبتوا مثل هذه المبالغة في المديح ، وهي مبالغة نفذت إليه من إغراقه في الوهم واستيحائه لغة المتكلمين . وقد

اختلف القدماء في السنة التي توفي فيها ، فقليل سنة إحدى وعشرين ومائتين وقيل بل سنة إحدى وثلاثين ، وأكبر الظن أن حياته لم تمتد إلى السنة الأخيرة .

٥

شعراء النزعات الشعبية

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العباسي كان يصدر في جمهوره عن روح الشعب ، فقد كانت كثرة الشعراء من الطبقة العامة ، وكانوا يحملون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرها وإذا كان بدا في مديحهم للخلفاء والوزراء أنهم ينفصلون عنها فإنه انفصال في الظاهر ، إذ كانوا ما يزالون يضعون نصب أعينهم مثالية الحاكم التي تتطلبها الأمة والتي رسمها لها الدين الحنيف . وكانوا في جوانب من هذا المديح ونقصه مديح القواد المظفرين يعبرون عن الحماسة المشتعلة في صدور الشباب للقضاء على أعدائهم من البيزنطيين وغير البيزنطيين . فحتى المديح لم يبعد عن روح الشعب ، وكان الهجاء يصدر في وضوح عن هذه الروح ، إذ مثل الشعراء فيه الحصال السيئة التي ينبغي أن يتطهر منها المجتمع ، سواء في الأفراد العاديين أو في الحكام ، ولعل ذلك هو الذي كان يشيعه على جميع الألسنة .

وخذ الصورتين الأساسيتين للمجتمع صورة الترف وما يطوى فيه من مجون وصورة الشظف وعيشة الكفاف وما يطوى فيهما من زهد فستجدهما مجسمتين أقوى ما يكون من تجسيم ، فحياة الخانات والقيان والأدبرة وكل ما في المجتمع من لهو ومواسم للهو ، ونقصه الأعياد الإسلامية والمسيحية والمجوسية ، كل ذلك مصور في شعر الشعراء ، وبالمثل حياة الزهد والتقوى والعمل الصالح وكانت أكثر شيوعاً من حياة اللهو والمجون ، مما جعل أشعار الزهد تجرى على كل لسان ، وفي الأغاني خبر يصور ذلك أدق تصوير ، إذ يروى أن الملاحين في دجلة كانوا يتغنون في نزهة للرشد بقطعة زاهدة لأبي العتاهية تمثلنا ببعض أبياتها في غير هذا الموضع وفيها يقول (١) :

(١) أغاني ١٠٣/٤ وما بعدها .

سَيَصِيرُ الْمَرْءُ يَوْمًا جَسَدًا مَا فِيهِ رُوحٌ
 كُلُّنَا فِي غَفْلَةٍ وَالْمَوْتُ يَغْدُو وَيَرُوحُ
 لَتَمُوتَنَّ وَإِنْ عُمٌّ رَتَّ مَا عُمَّرَ نُوحُ

ومرت بنا في ترجمة أبي العتاهية قطعة يشكو فيها لبعض الخلفاء من ارتفاع الأسعار ، وهو يعبر فيها عما كانت تعيش فيه طبقات الشعب الدنيا من ضنك وبؤس ، وكانت الأموال حينئذ موزعة توزيعاً غير عادل ، فالخلفاء والوزراء وحواشيهم يعيشون في الحلية والزينة وكل ما يمكن من أسباب الترف ووسائل النعيم ، ويمدّون مَنْ حَوْلَهُمْ ومن يحفون بهم من المغنين والشعراء والعلماء والأتباع بكثير من هذه الوسائل والأسباب ، ويُنْثَرى بعض التجار ثراء فاحشاً . وتجمُّ في البؤس والمسغبة كثرة الشعب التي كانت لاتجد بداً تمتد إليها وتخمد نار الفقر والضمنك المشتعلة بين طبقاتها ولا من يبرد جوانحها ، ويطعم الجائع فيها ويكسو العارى ويسقي الظمآن . وتلقانا أحاسيس هذه الطبقات التعسة مصورة عند شعراء الكدية الذين كانوا يشبهون طوائف الأدبائية التي كانت تنبثُ عندنا لأواخر القرن الماضي في المواسم والموالد والاحتفالات العامة ، ومن خير من يمثلهم أبو فرعون الساسي ، وقد أنشدنا له قطعة يصور فيها بؤسه وبؤس أولاده في الفصل الرابع وكيف يعيشون عراة جائعين ، ولا من مشفق ولا رحيم ، وله يصور بؤسه وفقره (١) :

ليس إغلاقي لبابي أَنَّ لِي فِيهِ مَا أَخْشَى عَلَيْهِ السَّرَقَا
 إِنَّمَا أَغْلَقَهُ كَيْ لَا يَرَى سَوْءَ حَالِي مَنْ يَجُوبُ الطَّرْقَا
 مَنْزِلُ أَوْطَنِ الْفَقْرِ فَلَوْ دَخَلَ السَّارِقُ فِيهِ سُرِقَا

ومن الشعراء الذين عاشوا في ضنك وحرمان أبو المخفَّف وكان في أيام المأمون ، وكان يدور في بغداد يسأل الناس رغيماً أو كسرة خبز ، وله أشعار مختلفة في وصف الرغيف وكيف كان كلَّ همة من الحياة وهم أمثاله من البؤساء الذين يعيشون على الكِسْرِ اليابسة يتبلَّغون بها ، وهو لذلك يجعله موضع شعره من مثل قوله (٢) :

دَغْ عَنْكَ رَسَمَ الدِّيَارِ ودَغْ صِفَاتِ القِفَارِ
 وعدُّ عَنْ ذَكَرِ قَوْمٍ قد أَكثَرُوا فِي العُقَارِ^(١)
 ودَعِ صِفَاتِ الزَّانِيَةِ رَ فِي خُصُورِ العِذَارِي^(٢)
 وَصِفْ رَغِيفاً سَرِيّاً حَكَّتْهُ شَمْسُ النَّهَارِ
 أَوْ صُورَةَ البَدْرِ لَمَّا اشْ تَتَمُّ فِي الاسْتِدَارِ
 فَلَيْسَ تَحْسَنُ إِلَّا فِي وَصْفِهِ أَشْعَارِي
 وَذَلِكَ أَنِّي قَدِمْماً خَلَعْتُ فِيهِ عِذَارِي

فهو إنما يتدلّاه في الرغيف ويمتلئ به قلبه المحروم حبا وصباة . وكان وراءه
 كثيرون متعفّفون لا يمدّون أيديهم للسؤال ، وربما فقدوا حتى الرغيف ولم يجدوه .
 ولعل شاعراً لم يصف مشاعر هذه الطبقات البائسة على نحو ما وصفها أبو الشمقمق
 ولذلك كان ينبغي أن نقف عنده قليلا .

أبو الشمقمق^(٣)

هو مروان بن محمد بصرى المنشأ والمربى ، خراساني الأصل ، من موالى
 الأمويين ، ومعنى الشمقمق الطويل ، ويقال إنه كان قبيح المنظر وأضاف إلى
 قبح شكله نخب لسانه ، فتحاماه الناس وازوروا عنه ، فلم يفتحوا له أبوابهم
 إلا قليلا ، وسرعان ما كان الباب الذي يفتح في وجهه يُغلق من دونه ،
 فعاش فقيراً محروماً إلا من بعض ما كان يسقط إليه من قائد أو أمير أو من
 بعض زملائه الشعراء ، في الحين الطويل بعد الحين . وقدم بغداد في أيام الرشيد
 والبرامكة غير أن أبوابهما لم تفتح له ، ولعل ذلك ما جعله يهجو الفضل بن يحيى

(١) العقار : الخمر .

(٢) الزانيرة : جمع زنار وهو خيط كانت
 تلفه الجوارز على أوساطهن .

(٣) انظر في كتاب أبي الشمقمق وأخباره
 وأشعاره ابن المعتز ص ١٢٦ وتاريخ بغداد
 ١٤٦/١٣ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٣٩٦

وابن خلكان في ترجمة مزيد بن يزيد
 وكتاب الورقة ص ٦٣ والعقد الفريد ٣/٣٥ ،
 ٢١٥/٦ والحيوان للجاحظ (انظر الفهرست)
 وكتاب البغال للجاحظ والأغاني في ترجمة بشار
 بالجزء الثالث والوزراء والكتاب للجيشياري
 ص ٢٨٩ والكامل للبدر ص ٤٣١ ، ٤٥٩ .

البرمكى كما هجا منصور بن زياد كاتب الرشيد . ومن فتحوا له أبوابهم حينئذ يزيد بن مزيد الشيباني قائد الرشيد المشهور ممدوح مسام بن الوليد ، ومالك بن على الخزاعي أحد رجال الدولة البارزين ومحمد بن منصور بن زياد الملقب بقتي العسكر ، ولعلمهم خشوا معرفة لسانه . ونراه يولى وجهه نحو بعض بلدان فارس يمدح عملها ، ويقصد أبا دهمان حين ولاه يحيى بن خالد البرمكى سابور ، فيحسن إنيه ويمدحه ببعض شعره ، ويقصد جميل بن محفوظ والى أركان ، فيلقاه لقاء سيئاً ، ويتولا بهجاء مريز ، ويقصد الأهواز حيث كان يتولى عمر ابن مساور الكاتب بعض أعمالها ، ويُعرض عنه ، فيصب عليه شواظاً من هجائه ويعود إلى بغداد كسيراً ، فلا يجد من يقبل عليه حتى من الشعراء رفاقه ، ويسلقهم بلسانه ، فيعطونه النزر القليل الذى لا يكاد يسد رمقه . ويحس أنه يعيش مضيقاً ، ويزيده ضيقاً أنه لم يكن فيه ما يتنافس الناس بسببه فى اصطحابه ومناذمته إذ كانت العيون تقتحمه كما أسلفنا ، وكانت فيه خشونة وجفوة ، مع نزق وطول لسان وتعجل فى اللوم والهجاء ، فساءت حاله واشتد ضيقاً وبرماً بالناس ، وعاش يتجرع الفاقة والبؤس حتى قالوا إنه كان يلزم بيته فى أطمار بالية وثياب خاقمة متوارياً عن الناس إلا من أنس إليه .

وأشعاره تسودها روح شعبية قوية حتى فى المديح ، فإننا نجد لا يعنى فيه بالجزالة والرصانة التى كانت تشيع حينئذ فى شعر المديح ، وأيضاً فإنه لا يعنى بمعانيه وأخيلته ، وكأنه ينظمه عفواً للحاطر ، غير متأن ولا متكلف . وإذا كان مديحه يسقط عن مديح نظرائه فإن أهاجيه لا تقل عن أهاجيهم إقذاً ، بل لعل شاعراً معاصراً لم يبلغ من إقذاعه ما بلغه ، إذ ملأ أهاجيه بالفحش والألفاظ البذيئة ، حتى لئزى شاعراً مثل بشار المعروف بخبث لسانه يخشاه خشية شديدة ، حتى ليرتب له فى كل سنة مائتى درهم رجاء أن يكف عنه لسانه ، وأتاه فى بعض السنين ، فحاول أن يرده ، فما هو إلا أن تتم بشطور مقذعة حتى فزع بشار ودفع إليه المائتى درهم وقال له : لا يسمعن هذا منك الصبيان ، وأتاه مرة أخرى ، فلم يسرع له بالضريبة ، وما إن قال :

سبع جَوَازٍ وتينيه فتحوا باب المدينه

إِنْ بشار بن بُرْدٍ تَنَبَّسَ أَعْمَى فِي سَفِينِهِ

حتى رى له بشار بالدرهم . وذكر بشار للصبيان يدل على شعبية أبي الشمقم وأنه كان يشق شعره من ألفاظ العامة ، ولذلك كان سرعان ما يدور على ألسنة الغلمان . ومن طريف هجائه قوله في بخيل :

كَفَّاهُ قُفْلٌ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ قَدْ يَشِسُ الْحَدَّادُ مِنْ فَتْحِهِ
وقوله في بعض الثقلاء :

أَسْمِجُ النَّاسِ جَمِيعًا كُلَّهُمْ كَذَّبَابٍ سَاقِطٍ فِي مَرَقَةٍ

ولعل أشعاراً له لم تمس قلوب الشعب كما مستها أشعاره التي صور فيها فقره وبؤسه ، ويروى أن بعض إخوانه دخل عليه يوماً فرأى سوء حاله ، فأراد أن يخفف عنه ما هو فيه ، فقال له أبشِرْ أبا الشمقم فإنه روى في بعض الحديث أن العاربن في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة ، فقال ساخراً : إن كان والله ما تقول حقاً لأكونن بزّاراً يوم القيامة ، ثم أنشأ يقول :

أَنَا فِي حَالٍ تَعَالَى إِلَا رَبِّي أَيْ حَالٍ

لَيْسَ لِي شَيْءٌ إِذَا قِي لِمَنْ ذَا ؟ قُلْتُ : ذَا لِي

وَلَقَدْ أَهْزَلْتُ حَتَّى مَحَتِ الشَّمْسُ خَيَالِي

وَلَقَدْ أَفْلَسْتُ حَتَّى حَلَّ أَكْلِي لَعِيَالِي

وله أشعار كثيرة يصور فيها فقره وإقلاله وأنه لا يقتنى حتى ما يكسوبه السرير الذي ينام عليه وأنه لا يملك من المتاع شيئاً إلا حصيرة وبعض السمار والأطمار الخلقة ، يقول :

لَوْ قَدْ رَأَيْتَ سَرِيرِي كُنْتَ تَرْحَمُنِي اللَّهُ يَعْلَمُ مَا لِي فِيهِ تَلْبِيسٌ^(١)

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا لِي فِيهِ شَابِكَةٌ إِلَّا الْحَصِيرَةُ وَالْأَطْمَارُ وَالْدَيْسُ^(٢)

(١) الشابكة : ما يضم بعضه إلى بعض .
الديس : هو المعروف في مصر باسم السمار .

(٢) يريد بالتلبيس ما يكتى به السرير من الحشية والملاءة .

ويقف مراراً ليصور سوء حظه وأنه أينما اتجه لم يكسب شيئاً ، بل يقعد به العُدم الذى تعودّه ويقعد به سوء البخت الذى يلازمه فى حِلِّه وترحاله ، حتى ليَجفّ البحر الذى يخوضه ، وحتى ليستحيل الدر فى يده حصى وزجاجاً والماء العذب ملحاً لا يسوغ شربه ، وفى ذلك يقول :

لو ركبت البحارَ صارتُ فجاجاً لا نرى فى متونها أمواجاً
ولو آنى وضعتُ ياقوتةَ حمّ راء فى راحتي لصارتُ زُجاجاً
ولو آنى وردتُ عذباً قرأتاً عاد لا شك فيه ملحاً أجاجاً
وبصور لنا مسغبة عياله ، وهو فى الواقع إنما يصور مسغبة الطبقة العامة فى بغداد التى كانت تكدح لئلاّ الطبقة المترفّة بطونها ، بينما تعيش هى فى الضنك والشقاء ، متمنية أن تجد الخبز والإدام ، بل قد تعدم الإدام والخبز جميعاً ، ومن طريف تصويره لذلك قوله :

ما جمع الناسُ لدنياهمُ	أنفعَ فى البيت من الخُبزِ
والخُبزُ باللّحمِ إذا نلته	فأنّنت فى أمنٍ من التّرزِ ^(١)
وقد دنا الفِطْرُ وصبياننا	ليسوا بذى تمرٍ ولا أرزِ
كانت لهم عنزٌ فأودى بها	وأجذبوا من لبن العنزِ ^(٢)
فلو رأوا خُبزاً على شَاهِق	لأسرعوا للخبزِ بِالْجَمَزِ ^(٣)
ولو أطاقوا القَفَزَ ما فاتهم	وكيف للجائع بالقَفَزِ

ويكثر من حديثه عن البراغيث ولذعها لجسده ، كما يكثر من حديثه عن خلو داره من الطعام ، حتى لتعبث بها الجرذان وابن عرس ، بل إنها لتدرج من حوله وتعبث ببعض جسده ، وتيأس منه ومن طعامه ، فتفر على وجهها تبحث عن غذائها ، ولا يبقى معه فى البيت سوى السنور أو الهرّ ، وإنه ليكي

(٣) الجمز : القفز .

(١) التّرز : الهلاك .

(٢) أودى بها : هلك .

حاله ، إذ لا يجد الفأر الذى تعود أن يصيده ، فيفارقه إلى غير مآب ، ومن بعض قوله فى ذلك :

ولقد قلتُ حين أجحرنى البرُّ دُ كما تُجحرُ الكلابُ ثُعَالَةً^(١)
 فى بُيُوتٍ من النضارة قَفَرٍ ليس فيه إلا النوى والنُخَاله^(٢)
 فارقته الجرذان من قِلَّةِ الخِي ر وطار الذبابُ نحو زُبَاله^(٣)
 هارباتٍ منه إلى كل خصبٍ حين لم يرتجى منه بُلاله^(٤)
 وأقام السُّنُورُ فيه بِشَرًّا يسأل الله ذا العلا والجلاله
 أن يرى فأرةً فلم ير شيئاً ناكساً رأسه لطول الملاله
 قلت صَبْرًا يا نازُ رأس السَّنا نير وعَلَّلته بحُسن مقاله^(٥)
 قال : لا صَبْرٌ لى وكيف مقامى فى قفارٍ كمثل بيدٍ تَبَاله^(٦)
 ثم ولَّى كأنه شَيْخٌ سوء أخرجوه من مَحْبِسٍ بكفاله

وعلى هذا النحو كان أبو الشمقمق يخلط تصوير تعاسته وتعاسة أمثاله من أفراد الشعب بالفكاهة ، وكان ما يبنى يصور أحاسيس الفقر وضيق ذات اليد ، وكان الناس يقبلون على شعره إقبالا شديدا ، حتى ليروى الجاحظ فى الجزء الأول من حيوانه أن منهم من كان ينفق على كتابته نفقة واسعة ، متخذاً له الجلود الكوفية الثمينة . وفى طبقات الشعراء لابن المعتز أن أبا الشمقمق توفى فى حدود الثمانين ومائة ، ولعل الخبر الذى ساقه عنه والذى يدل على أنه لَحِقَ عصر المأمون منحول عليه .

(١) أجحره : أدخله فى الجحر . ثُعالة : الثعلب .
 (٢) بُيوت : تصغير بيت . النضارة : النعيم .
 (٣) زباله : موضع فى صحراء الكوفة .
 (٤) بلالة العيش : ما يسد الرمق .
 (٥) ناز : اسم السنور بالفارسية .
 (٦) بيد : جمع يبداء وهى الفلاة . وتباله : بلدة فى الطريق من الطائف إلى اليمن .

الفصل الثامن

تطور النثر وفنونه

١

تطور النثر

كان العصر العباسي الأول عصرًا خطيرًا حقًا في تطور النثر العربي ، إذ تحولت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية ، بحيث تدخل جميع ذلك في تركيبه واثلف مع نسيجه ، وتولد منه جديد تلوّ جديد .

وتم هذا التحول - كما مرّ بنا في الفصل الثالث - عن طريقين : طريق النقل والترجمة ، وهو طريق عنيّ به الخلفاء العباسيون - ووزرائهم وبخاصة البرامكة - إلى أبعد حد ممكن ، كما عني به أفراد مختلفون مثل ابن المقفع ، آل نوبخت . وطريق ثانٍ لعله كان أوسع مجرى ، هو تعرب شعوب الشرق الأوسط وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة . ولم ينتقلوا بمعارفهم فقط ، بل انتقلوا أيضًا بعاداتهم وتقاليدهم وطرائقهم في المعيشة مما هيأ لتفاعل واسع بين العرب والشعوب المستعربة ، بل مما هيأ لظهور المدنية العربية في تلك الأقاليم التي دانت بالإسلام ، وهي مدنية قوامها مزيج من التعاليم الإسلامية الروحية والخلقية ومن الأدب العربي بشعره ونثره ومن صور الحياة العقلية والمادية في المحيط العربي الجديد .

وعلى سُنَنٍ من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور تطوراً واسعاً ، إذ حمل خلاصة هذه المدنية ومثلّت أوانيه بشرابها الجديد ، الذي اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعه الكثيرة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع . وقد أظهر النثر العربي مرونة واسعة إذ استطاع أن يحتوى كل هذه الينابيع وأن يتسع لها صدره ، بل لقد غدا كجرى نهر كبير ترفده جداول من ثقافات متنوعة تنوعاً لا يكاد يُحدّ أو يحصى ،

وكل جدول يذوب في النهر بمجرد دخوله فيه ، إذ يتحول عربياً ، ويتحول معه كل ما يحمل من سيول المعارف ، حتى الفلسفة والعلوم فإنهما لم يستعصيا على هذا التحول ، إذ سرعان ما صُبَّأ في قوالب عربية ملائمة .

وكان ذلك إيداناً بتعدد شُعَب النثر العربي وفروعه ، فقد أصبح فيه النثر العلمي والنثر الفلسفي ، وأصبح فيه أيضاً النثر التاريخي ، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة ، وحتى النثر الأدبي الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجمته عن هذه اللغة لقصص كليله ودمته الهندي الأصل ونقله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونُظُمهم في السياسة والحكم ، مما كان له أعمق الأثر في الرسائل الديوانية وفي نشوء الرسائل الأدبية التي تعسَّى بالكتابة في موضوع محدود ، مما نسميه اليوم باسم المقالات ، إذ يعالج الكاتب موضوعاً في طائفة من الصحف .

ولم يقف النثر العربي عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التي جاءت من لدن الأجانب ، فقد انبرت العبقرية العربية في هذا العصر تضع العلوم اللغوية والشرعية ، وهو وضع كان واسع الأثر في تمهيد اللغة وتيسيرها وجعلها لغة علمية محدّدة الألفاظ والاصطلاحات التي ترسم المعاني رسماً دقيقاً . وقد مضت هذه اللغة تركض ركضاً لا في مجال العلوم الإسلامية والعربية الخالصة فحسب ، بل أيضاً في مجال العلوم الطبيعية والكونية ، فإذا لنا علماء كيمائيون ورياضيون مختلفون ، لهم مصنفاتهم ومباحثهم المبتكرة .

وعلى نحو ما أثمرت العقلية العربية في المجال العلمي أثمرت في المجال الفلسفي وخاصة في بيئات المتكلمين ، إذ مدّوا مباحثهم في العقائد الإيمانية إلى كل شعب الفلسفة ، واستطاعوا — وخاصة المعتزلة منهم — بأنظارهم العقلية أن يدّخوا في جميع هذه الشعب بآراء جديدة طريقة على نحو ما يفصل ذلك الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » حين يعرض لمذاهب المعتزلة المختلفة وما يقولونه في الأجسام والأعراض والجواهر والحركة والسكون والكمون والتولد والطفرة والوجود والعدم والروح والنفس والعقل وإدراك الحواس والكم والكيف والألوان والخير والشر . وكل ذلك كان له آثار بعيدة في النثر العربي ، لا من حيث الألفاظ

والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضاً من حيث ذخائر الفكر الفلسفى اليونانى والعربى التى التقت فى أوعيته وأوانيه والتى جعلته يعرف صوراً من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد له بها ، كما جعلته يعرف القياس المنطقى الصحيح وطرق الاستدلال والتعليل ودقائق المعانى وفرق ما بين السبب والمسبب وما بين الجنس والنوع والفصل والخاصة وما بين الحجة والشبهة والممكن والحال والمعقول والموهوم والبرهان الجلى والبرهان الخفى ، مما جعل الفكر العربى يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلاً بما لا يُحصى ولا يُستقصى من الخواطر والمعانى .

ومن المؤكد أن التعبير عن كثير من هذه المعانى والخواطر لم يكن مألوفاً للعربية ، غير أنه قيس لها من نابى المتكلمين والكتّاب والمترجمين من مدّ طاقتها وجعلها تسيع تلك الخواطر والمعانى دون دخول أى ضيغ عليها من شأنه أن يمحوطاوبعها أو يمحور على خصائصها ومقوماتها ، بل لقد أخذت تنق فى أثناء هذا التحول العقلى والحضارى وما صحبه من تراكيب وصيغ مستحدثة لا عهد لها بها سواء فى المجال العلمى والفلسفى أو فى المجال الأدبى الخالص .

ولم تقف المسألة عند احتفاظها بالقوالب العربية وأوضاعها اللغوية وتيسير هذه القوالب والأوضاع وتذليلها للمعانى العلمية والفلسفية العميقة وأدائها بخفيات حدودها ورسمها رسماً محدداً دقيقاً ، بل امتدت إلى استحداث أسلوب مولد جديد ، أسلوب يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ بالوضوح والتجافى عن الألفاظ الغامضة والمعانى المبهمة ، بل إنه ليحرص على الأداء البليغ ، بحيث يروق المتكلم والكاتب والمترجم والسامع بعدوبة منطقته ، بل بحيث يسلّد الأذان حين تستمع إليه كما يلد العقول والقلوب .

وهو أسلوب قام على هجر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية الجافية التى تنسب على ذوق أهل الحاضرة كما قام على الارتفاع عن الألفاظ العامة المبتذلة ، مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورصانته والملاءمة الدقيقة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الصوتى . وبذلك لم يقف عند الأداء الفصيح فحسب ، إذ اتخذ لنفسه أصولاً بيانية تُشيع فيه الرونق والجمال ، مما جعل جهابذته يتساءلون طويلاً عن البلاغة ، وهو سؤال يلقانا فى جميع البيئات وتلقانا معه أجوبة كثيرة .

والطريف أنهم لم يكتفوا في ذلك بما قد يكشفونه ببصائرهم الحاذقة ، إذ مضوا يطلبون ما عند الأمم الأجنبية من وصايا في البيان والبلاغة سواء الفرس أو اليونان أو الرومان^(١) ، وحتى الهنود ، إذ نجد معمراً صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة يتعرض لبهلة الطبيب الهندي في عصر البرامكة يسأله عن رأى أمته في البلاغة ، فيعطيه في ذلك صحيفة مكتوبة بالسنسكريتية ، ويقول له إننى لا أحسن ترجمتها لك ، لأننى لم أعالج صناعة البلاغة فأتق من نفسى بالقيام بأداء معانيها وخصائصها على الوجه الصحيح ، ويسلّمنى معمر بالصحيفة الترجمة الذين يحسنون النقل من السنسكريتية إلى العربية فينقلونها له ، وقد احتفظ بها الجاحظ في البيان^(٢) والتبيين ، وهى تطلب إلى الخطيب أن يلائم بين كلامه ومستمعيه وأن يحرص على الوضوح ويتجافى عن الألفاظ الوعرة والأخرى الغامضة وأن لا ينتقح ألفاظه كل التنقيح إلا لمن حاز قسطاً من الحكمة والفلسفة ممن خبروا الكلام والمعاني ، وأن يحرص على استخدام الألفاظ المحددة البينة التى تنفى بمعانيها وتؤديها أداء سليماً دون زيادة أو نقص .

ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين بعامة عنوا في هذا العصر عناية واسعة بمعرفة الأصول التى تقوم عليها براعة القول ، إذ كانت صناعتهم تقوم على إحسان فن الكلام ، أو بعبارة أخرى فن المناظرة فى المسائل الدينية والعقيدية وما يتصل بها من بعض المعانى الفلسفية . ونستطيع أن نجد مقدماتهم فى العصر الأموى وفى مساجد البصرة والكوفة حيث كان يجتمع ممثلو الأحزاب السياسية فيتجادلون فى مسائلهم وما يتفرع عنها من المسائل الدينية ويحاول هذا أو ذلك إقناع خصمه أو قهره والغلبة عليه بالحجة القاطعة والبيان الخلاب . وما نصل إلى العصر العباسى ، بل إلى أواخر العصر الأموى ، حتى نجدهم يقيمون المناظرات ، ويجتمع الناس من حولهم ليروا من يظفر بخصمه ويتقطعه عن الكلام قَطْعاً .

وطبيعى أن يدفع ذلك المتكلمين ومن حولهم إلى التساؤل عن البراعة فى القول والأسس التى تقوم عليها وأن ينثر المتكلمون الحاذقون فى ذلك بعض ملاحظات عن البيان والبلاغة ، ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا سائلاً يتعرض لمعتزلى كبير فى

(١) البيان والتبيين ٨٨/١ .

(٢) البيان والتبيين ٩٢/١ .

أوائل هذا العصر ، هو عمرو بن عبَّيد ، فيسأله عن البلاغة وقُطبها الذى تدور عليه ، ويحييه بأنها « تخير اللفظ فى حسن الإفهام وتزيين المعانى بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان^(١) » . ويدور السؤال طوال العصر وتعدد إجابات المعتزلة عليه من مثل قول العتّابى لسائل سأله عن البليغ والبلاغة ، فقال له^(٢) :

« كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسَة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق . فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هَناه ، وبها هذا ، وبها هيه ، واسمع منى ، واسمع إلى ، وأفهم عنى ، أو لست تفهم ؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عى وفساد »

وواضح أن العتّابى يجعل البلاغة فى التدفق البيانى دون إعادة وتكرار ودون حَصَر وعى ، ودون استعانة بمحشو يؤذى الذوق الحضرى المذهب . وتلك هى البلاغة العادية ، أما البلاغة الرفيعة فهى التى ترفع الحجاب عن غوامض المعانى ، وهى التى تبلغ من الحذق ما تعرض به الباطل فى صورة الحق معتمدة على خلاصة اللسان وتزيين المعانى فى القلوب ، والاحتياط على ذلك والتلطف له حتى يبرى كأنه الحق الذى لاحق وراءه . وهو يستوحى ذلك من قدرة المتكلمين حوله فى مناظرة خصومهم وإفحامهم بالحجج الصحيحة تارة ، وتارة بالحجج غير الصحيحة التى يستطيع البليغ التام الذى يتقن أبنية الأدلة والكلام أن يموهها على السامع حتى يظن أنها صحيحة صحة تامة . ولا نبالغ إذا قلنا إن صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى احتفظ بها الجاحظ فى بيانه^(٣) هى أروع ما أُنثر عن المعتزلة فى هذا العصر بصدد الأصول البلاغية العامة ، وهو يستهلها بأن الأديب سواء كان خطيباً أو كاتباً أو شاعراً ينبغى أن يلاحظ نفسه فلا يقدم على الكلام إلا إذا كان مستعداً متهيئاً تمام التهيؤ ، فارغ البال ناشطاً له تمام النشاط . وينصحه

(٣) البيان والتبيين ١/١٣٥ والصناعتين
(طبعة الحلبي) ص ١٣٤ .

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ .
(٢) البيان والتبيين ١/١١٣ .

باختيار ألفاظه وتفصيلها على المعاني بحيث تكون بقدرها لا فاضلة عنها ولا مقصرة، كما ينصحه بأن تخلو ألفاظه من كل غريب وكل تعقيد، وأن تؤدي دلالتها أداء واضحاً مهما كانت دقيقة عسيرة وأن تتلاءم معها بحيث تؤديها أداء تاماً يحيط بدقائقها إن كانت من الدلالات الغامضة، وفي الوقت نفسه تُلقَى عليها كل ما يمكن من أضواء تكشفها من جميع أطرافها، مع تذليلها وتيسيرها وعرضها في لغة متوسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة الأعراب الخشنة المملوءة بالغريب. وينصح من لا تواتبهم طبائعهم بالرصف الحسن للألفاظ ووضعها في مواضعها الصحيحة دون نبو أو شذوذ أن يكفوا أنفسهم عن صناعة البيان والكلام البليغ، وأولى منهم بهذا الكف والمهجران لتلك الصناعة من تقعد بهم طبائعهم مهما أجهلوا أنفسهم عن الإتيان بشيء من الكلام له روعة أو ما يشبه الروعة. ولا يكفي للبليغ أن يلائم بين كلامه ومعانيه أو بعبارة أخرى بين كلامه والموضوع الذي يتحدث عنه، بل لا بد له من ضميمته ثانية هي إحسانه الملازمة بين كلامه والمستمعين وأحوالهم النفسية والعقلية، بحيث يجدون في كلامه اللذة والمتاع، ومن هنا يطلب إلى المتكلم إذا خاطب أوساط الناس أن لا يرتفع عن مداركهم بما يورد عليهم من اصطلاحات المتكلمين، حتى لا تنقطع الصلة بينه وبينهم، أما إذا خاطب المتكلمين فلا بأس من إيراد هذه المصطلحات التي يفهمونها فهماً حسناً، والتي قد يجدون فيها شيئاً من المتاع.

وملاحظات كثيرة أخرى كان يلاحظها المتكلمون معترلة وغير معترلة في شئون البيان والبلاغة، وهي متناثرة في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، ولا بد أن ملاحظات أخرى سقطت منه ولم يسجلها. ولم يكن المتكلمون وحدهم الذين يتعمقون في معرفة أصول البيان والبلاغة، فقد كان يَشْرِكُهُمْ في ذلك كتّاب الدواوين والمترجمون، ومن خير مَنْ يمثُلُهُمْ في مطالع العصر ابن المقفع، ويروى أنه سئل عن البلاغة وتفسيرها، فقال^(١):

«البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً

وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السامعين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطب والإطالة في غير إملال . وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته . فقل له : فإن ملّ السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك ؟ قال : إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شيء لا تناله ، وقد كان يقال : رضا الناس شيء لا ينال .

وابن المقفع يذكر كل فنون الكلام ويطلب فيها الإيجاز والتكرير الدقيق ، ويلتفت إلى خطب المحافل والصلح ويطلب فيها الإطناب في غير خطب ولا إملال . ويضع قاعدة مهمة أن يكون في صدر الكلام ما يدل على غرضه ، وهو ما سماه البلاغيون ، فيما بعد ، باسم براءة الاستهلال ، كما يضع للشعر قاعدة ثانية هي أن يتلأم صدر البيت مع قافيته حتى لكأنه يستدعيها استدعاء وهو ما سماه البلاغيون باسم ردّ الأعجاز على الصدور . ويلاحظ ملاحظة تامة أن لكل من الإيجاز والإطناب في الكلام مقامه ، وأنه ينبغي دائماً أن يستوفى الكلام حقوقه من النصاعة والبلاغة والبيان .

وقد تحولت الدواوين الكثيرة المعقدة التي عرضنا لها في الفصل الأول إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة ، إذ كان لا بد للشبان الذين يعملون فيها من إتقانهم لصياغة الكلام بحيث لا يدخله ضعف ولا ابتذال وبحيث لا يعلو على أفهام العامة الذين كانوا يوجهون إليهم منشورات دار الخلافة . وكان هؤلاء الشبان يقيمون أولاً بأبواب الدواوين متعرضين لامتحان قاس ، فمن أظفر كفاءته فيما طُلب إليه من بعض الرسائل رفع أمره إلى رؤساء الديوان ، فوظفوه ، وإن لم يُحسن ما طلب إليه ردّوه . وجعلهم ذلك يتساءلون عن البلاغة ومتى يُصبح الكلام بليغاً وما العيوب التي تعوق بلاغته ، ودارت هذه الأسئلة بين رؤساء الدواوين وبلغائها ، المفوّهين ، وكانوا يمثلون الذوق الحضاري المترف في أدق صوره فدققوا في كلامهم

إلى أبعد حد ممكن ، وعبروا فيه عن دقة مزاج ورهافة حس بالغة ، حتى ليقول الجاحظ : « أما أنا فلم أَرَقَطْ أمثل في طريقة البلاغة من الكتاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً^(١) » .

وكل ذلك معناه أن النثر تهيأت له أسباب كثيرة في هذا العصر لكي ينمو ويزدهر ، فقد أخذ يمتدُّ ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى في المجال الأدبي ، إذ أخذت تستغذوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية كما أخذت تغذوه الثقافات الأجنبية وكل ما اتصل بها من الفكر اليوناني ، ومضى يتفارع مع ذلك كله محتفظاً بمقوماته وطوابعه العربية الأصيلة ، بحيث لم يحدث أيُّ ازدواج في اللغة يعرضها للضياع ، بل لقد أينعت الفروع الجديدة في شجرتها الكبيرة ، وأخذت تتكوّن فيها أزهار ذاكية الشدّى وثمار حلوة يانعة بفضل كبار الكتاب والمترجمين والتكلمين الذين احتفظوا لها بأصولها وأوضاعها وأغونها ونمّوها حتى في مجال الأساليب الخالصة ، إذ عرفوا كيف يستخلصون رحيقها البلاغي الذي يغذّي العقول ويسّنى القلوب والأفئدة .

٢

الخطب والوعظ والقصص

نشطت الخطابة السياسية في مطالع هذا العصر ، إذ اتخذتها الثورة العباسية أدواتها في بيان حق العباسيين في الحكم ، وكانوا يحسّون منذ أول الأمر بأن أبناء عمهم العلويين يضطغنون عليهم استئثارهم بالخلافة من دونهم ، ففضوا يؤكدون في خطاباتهم أنهم أصحاب هذا الحق ، فهم الذين أدالوا للشعب من بني أمية وهم الذين قوّضوا حكمهم وحطّموه حطّماً ، وقد انهالوا عليهم بالتجريح والطعن العنيف ، على نحو ما يتضح في خطبة^(٢) أبي العباس السفاح حين بوبع بالخلافة في الكوفة ، وفيها نراه يتحدث عن رَحِمِهِم وقرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم تالياً من القرآن الحكيم بعض الآيات الخاصة بأهل بيت النبوة من مثل (إنما يريد

(٢) انظر الخطبة في الطبري ٨١/٦ وما بعدها .

(١) البيان والتبيين ١/١٣٧ .

اللهُ لِيذهب عنكم الرَّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) وما يلبث أن يعرض
للسبئية من الشيعة الغالية قائلاً: « وزعمت السبئية الضُّلَّالُ أن غيرنا أحقُّ بالرياسة
والخلافة منا ، فشامت وجوههم ، بِجَمٍّ وَلَمْ آيها الناس ، وبنا هَدَى اللهُ الناس
بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم . . وجمع الفرقة حتى
عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبرٍّ » . ويتحدث عن الأمويين وظلمهم
للعزية وكيف تداركها الله بهم وردَّ عليها حقوقها المسلوبة . وخطب عمه داود بن
على بنفس اللحن ، ويشيد الجاحظ ببيانه وفصاحته قائلاً إنه « كان أنطق الناس
وأجودهم ارتجالاً واقتضاباً للقول . وله كلام كثير معروف محفوظ » . ويروى من
ذلك خطبته في أهل مكة حين وليها لابن أخيه ، وهي تَمْضِي على هذا النمط :
« شكرا شكرا . أما والله ما خرجنا لنَحْتَفِرَ فيكم نهراً ولا لبنى قصرًا ، أَظُنُّ
عدوَّ الله أن لن نظفر به إذ أرْحَى له في ذِمَّامه ، حتى عثر في فَضْلِ خِطَامِهِ .
فالآن عاد الأمر في نِصَابِهِ ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن أخذ القوسَ
باريها ، وعادت النَّبْلُ إلى النَّزْعَةِ (٢) ، ورجع الحق إلى مستقره في أهل بيت
نبيكم : أهل بيت الرأفة والرحمة » .

وعموت السفاح سريعاً ، ويخلفه أبو جعفر المنصور ، ولم يكن في العباسيين
أبينُ منه ولا أخطب ، وفي عهده تندلع ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي
الملقب بالنفس الزكية بالمدينة ، لسنة ١٤٥ للهجرة ، ويتكاتبان كما مر بنا في الفصل
الأول ، وكل منهما يؤكد حقه في الخلافة وإرثها عن الرسول الكريم . ويشهر كل
منهما السلاح في وجه صاحبه ، كما يشهران الخطب ويرسلان سهام القول ،
وكان محمد بن عبد الله لا يقل عنه لساناً وفصاحة ، ومن قوله في بعض خطبه (٣):
« إن أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار
المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرَّموا حلالك وعملوا بغير كتابك وغيرُوا
عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفتَ وأخافوا من آمنت ، فأَحْصِهِم
عدداً ، واقتلهم بَدَدًا (٤) ، ولا تُبْقِ على الأرض منهم أحداً » .
ولم يلبث المنصور أن قضى على هذه الثورة قضاء مبرماً ، ولم يعد العلويون

(٣) ذيل الأمانى للقالي ص ١٢١ .

(٤) بدداً : متفرقين .

العصر العباسي الأول

(١) البيان والتبيين ١/٣٣١ وما بعدها .

(٢) النزعة : الرماة .

— كما أسلفنا في غير هذا الموضع — يحاولون الثورة جهاراً على أبناء عمهم ، بل عمدوا إلى السرية خوفاً من بطشهم وما عودوه الناس من إقناعهم بالسيف دون اللسان . وتضاءلت حينئذ — كما قدمنا — حركات الخوارج ، فلم يكن هناك إلا السيف أو الإذعان . وبذلك كُثِّمَت الأفواه ، وضعفت الخطابة السياسية في هذا العصر ضعفاً شديداً ، لأنها إنما تزدهر حين تُكفَّلُ للناس حرياتهم السياسية على نحو ما كان الشأن في عصر بني أمية ، أما في هذا العصر فقد أخذ العباسيون الناس بالشدّة فضعفت الأحزاب السياسية وفنيت أو ذابت حريتهم في سلطانهم الباطش بكل مَنْ حدثته نفسه بخروجٍ عليهم بل بخلاف أو ما يشبه الخلاف ، وحقاً عادت الخطابة السياسية إلى الظهور في فتنة الأمين وحروبه مع أخيه المأمون ، ولكن لم تعد لها قوتها القديمة في العصر الأموي وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه .

وعلى نحو ما ضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة الحفلية التي كنا نعهد لها في عصر بني أمية لسبب طبيعي ، وهو أن وفود العرب لم تعد تَفِدُ على قصور الخلفاء ، وبالتالي لم يعد خطباؤها يفدون عليهم ، فقد أُسْدِلَت الحجب بين الخليفة والرعية ، ولم يعد يَسْلُقَى وفودها ولا خطباءها المفوّهين . واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات كأن يموت للخليفة ابن أو بنت فيقف بعض الخطباء لتعزيته ، وكأن يموت خليفة ويتولى خليفة جديد فيجمع بعض الخطباء بين التعزية والتهنئة ، من مثل قول ابن عتبة للمهدى يهنئه بالخلافة ويعزيه في أبيه المنصور ^(١) :

« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمر المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عجب أفضل من وراثته مقام أمير المؤمنين ، فاقبَلْ يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسبْ عنده أعظم الرزية » .

وكان يُعَقَّدُ لبيعة الخليفة حفل عام يحضره القواد وكبار رجال الدولة ، وعادة يقف بعض الكتاب النابهين خطيباً بين يدي الخليفة الجديد منوهاً بجلال الخلافة وإرث الخليفة لها وما له على القواد ورجال الدولة والناس من الطاعة علويين

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٩٢ .

وغير علويين ، على نحو ما يلقانا عند يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب في خطبته بين يدي الرشيد حين جلس بين القواد والأمراء والوزراء لأخذ البيعة له ، وهو يستهلها على هذا النمط بعد حمد الله والصلاة على رسوله^(١) :

« إن الله بمنه ولطفه منّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ومعدن الرسالة ، وإياكم أهل الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التي لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضي مدى الأبد . وأياديه التامة أن جمع ألفتكم وأعلى أمركم ، وشدّ عضدكم وأوهن عدوكم وأظهر كلمة الحق وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزكم الله وكان الله قوياً عزيزاً ، فكنتم أنصار دين الله المرتضى والذّابّين بسيفه المنتضى عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من أيدي الظلمة أئمة الجور والناقضين عهد الله والسافكين الدّم الحرام والآكلين الفيتىء^(٢) والمستأثرين به » .

وعلى هذا النحو أصبحت الخطابة الحفلية شيئاً نادراً يقال في الحين الطويل بعد الحين ، وبذلك تضاءلت كما تضاءلت الخطابة السياسية ولم يعد لها شأن يذكر .

وقد ظل للخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ازدهارها في هذا العصر ، وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بني أمية كانوا يشاركون فيها أيضاً لهذا العهد ، إذ نجد للمهدي خطبة بارعة مأثورة^(٣) ، كما نجد للرشيد خطبة أخرى رائعة ، وفيها يقول^(٤) :

« عباد الله إنكم لم تُخْلَقُوا عبثاً وإن تُشْرِكُوا سُدّى ، حَصَّنُوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له » . إنكم سَفَرٌ^(٥) مجتازون وأنتم عن قريب تستقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإنباتة

(٤) المقد الفريد ١٠٢/٤ .
(٥) السفر : الجماعة المسافرين .

(١) تاريخ الطبري ٤٤٢/٦ .
(٢) الفتي : غنائم الحرب .
(٣) المقد الفريد ١٠١/٤ .

فإن الله ، تعالى ذكره ، أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهدايه للمنيبين .
على أننا نجد الرشيد يستنُّ سُنَّةً كانت سبباً في أن تضعف هذه الخطابة
على السنة الخلفاء ، إذ طلب إلى الأصمعي أن يعدَّ لابنه الأمين خطبة يخطب
بها يوم الجمعة^(١) ، كما طلب إلى إسماعيل اليزيدي وابن أخيه أحمد أن يعدَّ خطبة
مماثلة يخطب بها المأمون^(٢) ، وبذلك سنَّ للخلفاء أن يخطبوا بكلام غيرهم ،
وكان المأمون معروفاً بالفصاحة والجهارة وحلاوة اللفظ وجودة اللهجة والطلاوة^(٣) ،
وقد روى له ابن قتيبة ثلاث خطب^(٤) : أولاهما في يوم الجمعة وثانيتهما في يوم
الأضحى وثالثتها في عيد الفطر وفيها يقول :

« اتَّقُوا الله عبادَ الله وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم ولم يحتضر
الشك فيه أحداً منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده عَشْرَةٌ
ولا تُحْطَرُّ قبله توبة ، واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه ، ولا شيء بعده إلا
فوقه .. ولا يعين على القبر وظلمته وضيقه وحشته وهول مَطْلَعه ومسألة ملائكته
إلا العمل الصالح الذي أمر الله به فن زَلَّتْ عند الموت قدمه فقد ظَهَرَتْ ندامته
وفاتته استقالته ودعا من الرَّجْعَةِ إلى ما لا يجاب إليه وبذل من الفِدْيَةِ ما لا
يُقبَلُ منه » .

ومعروف أن الولاة كانوا يجمعون بين الولاية والصلاة ، ويظهر أنهم أخذوا
مع مر الزمن يخطبون بكلام غيرهم ، وقد يندبون من يقوم مقامهم في الصلاة
والخطابة ، ويذكر الجاحظ عن محمد بن سليمان العباسي وإلى البصرة والكوفة لعهد
المنصور والمهدي أنه كانت له خطبة يوم الجمعة لا يغيرها ، وهي خطبة قصيرة^(٥) .

ولكن إذا كانت الخطابة الدينية أخذت تضعف على لسان الولاة والخلفاء
فإنها أينعت في بيئة الوعاظ والنساک ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة
والكوفة ، وكانوا أخلاطاً من الزهاد والفقهاء والحدّثين والمتكلمين ، وكان بعضهم
يلمّ بمجالس الخلفاء لوعظهم ، وأحياناً كانوا يستقدمونهم ، فيعظونهم حتى يبكوهم ،

(٤) عيون الأخبار ٢٥٣/٢ وما بعدها .

(٥) انظرها في البيان والتبيين ١٢٩/٢ .

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي ٢٠/٢ .

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ٨٢/١٨ .

(٣) البيان والتبيين ٩١/١ ، ١١٥ .

بما يوقعون في نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم ، وهم في تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصي والسيئات . ومن كبارهم الذين عُرِفوا بمقاماتهم المحمودة بين أيدي الخلفاء ثلاثة هم عمرو بن عبيد المعتزلي الزاهد المشهور واعظ المنصور وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي وابن السماك واعظ الرشيد ، ويُروى عن أولهم أنه دخل على المنصور يوما فقال له : عِظْنِي ، فقال ^(١) :

« إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاستر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده . فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع ^(٢) : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : إن هذا صَحَبِكَ عشرين سنة لم يرك عليه أن ينصحك يوما واحداً ، وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ ! قد قلت لك : خاتمي في يدك فتعال وأصحبك ^(٣) ، فاكفني . قال عمرو : ادعنا بعد لك تسخُ أنفسنا بعونك . يبابك ألف مظلمة ارددُ منها شيئاً نعلم أنك صادق . »

وكان صالح بن عبد الجليل ناسكاً مفاوهاً ، وكان يلمُ بمجالس المهدي ويعظه ، ويطلق في وعظه له حتى يبكيه وحتى يذرف الدمع مدراراً ، ويُروى أنه دخل عليه يوما فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال له تكلم ، ومن بعض كلامه حينئذ ^(٤) :

« كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل ، وأشد منه عذاباً مَنْ أقبل إليه العلم وأدبر عنه ، ومن أهدى الله إليه علماً فلم يعمل به ، فقد رغب عن هدية الله وقصّر بها ، فاقبَلْ ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل لا قبول سُمُعة ورياء فإنه لا يَعدُلك منا إعلامٌ لما تجهل أو مواطأةٌ على ما تعلم أو تذكيرٌ من غفلة ، فقد وطن الله عز وجل نبيّه عليه السلام على نزولها تعزية عمّات وتحصيناً من التماهى ودلالة على المسخرج فقال : (وإما يستزغَنَّك من الشيطان نزغٌ

(٣) يريد أصحابه من المعتزلة الناسكين .

(٤) عيون الأخبار ٢/ ٣٣٣ .

(١) عيون الأخبار ٢/ ٣٣٧ .

(٢) حاجب المنصور .

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ) فَأُطْلِعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِكَ بِمَا يُنَوِّرُهُ مِنْ إِثَارِ الْحَقِّ وَمُنَابَذَةِ الْأَهْوَاءِ ،
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » .

وكان ابن السماك محدثاً وواعظاً مؤثراً ، رَوَى عَنْهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ ،
وَلَهُ كَلَامٌ وَمَوَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ تَدُورُ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ وَالْأَدَبِ ، وَمِمَّا يُؤَثِّرُ
عَنْهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : عِظْنِي ، فَقَالَ ^(١) :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : اتَّقِ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ وَقَفْتَ غَدًا
بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ رَبِّكَ ثُمَّ مَصْرُوفٌ إِلَى إِحْدَى مَنزَلَتَيْنِ لَا ثَالِثَةَ لهُمَا جَنَّةٌ أَوْ نَارٌ . فَبِكَيْ
هَرُونَ حَتَّى اخْضَلَّتْ لَحِيَّتُهُ ^(٢) » .

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون دائماً من الذكر الحكيم وأحاديث الرسول
الكريم وأقوال أصحابه ومن سبقوهم إلى الوعظ في العصر الأموي من مثل الحسن
البصري ، ودائماً تبهرنا مواعظهم لما أشاعوا فيها من إيمان شديد بالدين وثقة
وطيدة بأن ما عند الله خير وأبقى مما في أيدي الناس من متاع الحياة الزائلة .

وكثير من الوعاظ كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الديني وتفسير بعض
آي القرآن ، وهو مزج قديم منذ الصدر الأول للإسلام . وكثر هؤلاء القصاص
الوعاظ في عصر بني أمية مما جعل الجاحظ يعقد لهم فصلاً ^(٣) طريفاً في كتابه
البيان والتبيين ، وفيه يقول عن قصص العصر العباسي الأول :

« وَمِنَ الْقُصَصِ مُوسَى بْنُ سَيَّارِ الْأُسْوَارِيِّ وَكَانَ مِنْ أَعَاجِيبِ الدُّنْيَا ،
كَانَتْ فَصَاحَتُهُ بِالْفَارْسِيَّةِ فِي وَزْنِ فَصَاحَتِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَكَانَ يَجْلِسُ فِي مَجْلِسِهِ
الْمَشْهُورِ بِهِ ، فَتَقْعُدُ الْعَرَبُ عَنْ يَمِينِهِ وَالْفَرُّسُ عَنْ يَسَارِهِ ، فَيَقْرَأُ الْآيَةَ مِنْ كِتَابِ
اللَّهِ وَيُفَسِّرُهَا لِلْعَرَبِ بِالْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ يَحُولُ وَجْهَهُ إِلَى الْفَرَسِ فَيُفَسِّرُهَا لَهُمُ بِالْفَارْسِيَّةِ ،
فَلَا يُدْرَى بِأَيِّ لِسَانٍ هُوَ أَبِين . وَاللَّغَتَانِ إِذَا التَقَتَا فِي اللِّسَانِ الْوَاحِدِ أَدْخَلَتْ
كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا الضَّمِيمَ عَلَى صَاحِبَتِهَا إِلَّا مَا ذَكَرْنَا مِنْ لِسَانِ مُوسَى بْنِ سَيَّارِ
الْأُسْوَارِيِّ . وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَقْرَأُ فِي مُحَرَّابٍ مِنْ
مُوسَى بْنِ سَيَّارٍ ثُمَّ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ ثُمَّ أَسْعَدَ ثُمَّ يُونُسَ النَّحْوِيَّ ثُمَّ الْمُعَلِّثِي . ثُمَّ

(١) تاريخ الطبري ٥٣٨/٦ .

(٢) اخضلت : بللتها الدموع .

(٣) انظر البيان والتبيين ١/٣٦٧ وما بعدها .

قصّ في مسجده أبو علي الأسواري وهو عمرو بن فائد ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة ، فاختتم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسيرة ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسّر آية واحدة في عدة أسابيع . . وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق في ذلك من الأحاديث كثيراً ، وكان يقصّ في فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك . . ثم قصّ بعده القاسم بن يحيى ، وهو أبو العباس الضرير ، لم يُدرك في القصص مثله . وكان يقصّ معهما وبعدهما مالك بن عبد الحميد المكفوف . . فأما صالح المري فكان يُكسّي أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس . وسمعه سفيان بن حبيب (أحد كبار المحدثين) فقال ليس هذا قاصّاً ، هذا نذير . »

ووقف الجاحظ في بيانه مراراً عند صالح المري حاكياً بعض كلامه ، أو بعض ما كان يردّه من شعر في قصصه ، من ذلك قوله عنه : « كان صالح المري القاص العابد البليغ كثيراً ما يُنشد في قصصه وفي مواعظه هذا البيت الذي أنشدناه في غير هذا الموضع :

فَبَاتَ يُرَوِّى أَصُولَ الْفَسِيلِ فَعَاشَ الْفَسِيلُ وَمَاتَ الرَّجُلُ ^(١)
ومن ذلك ما يُذكر من أنه مات ابنٌ لعبيد الله بن الحسن قاضي البصرة . فعزّاه صالح المري ، فقال : « إن كانت مصيبتك في ابنك أحدثت لك عظة في نفسك ، فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن لم تكن أحدثت لك عظة في نفسك فصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك في ابنك ^(٢) . » وعزّى رجلاً في أخيه فقال : « إن تكن مصيبتك في أخيك أحدثت لك خَشْيَةً فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جَزَعًا فبئس المصيبة مصيبتك ^(٣) . » ويذكر الجاحظ أنه كان كثيراً ما يردد في مجلسه : « أعوذ بك من الخسْفِ والمَسْخِ والرَّجْفَةِ والزَّلْزَلَةِ والصَّاعِقَةِ والريحِ المهلكة ، وأعوذ بك من جهة البلاء ومن شامة الأعداء . » وكان يقول : أعوذ بك من التَّعَبِ والتَّعْذُرِ والخِيبَةِ وسوء المنقاب . اللهم من أرادني بخير فيستسرّ لي خيره ، ومن أرادني بشر فاكفني شرّه . اللهم إني

(٣) البيان والتبيين ١٧١/٣ .

(١) البيان والتبيين ١١٩/١ .

(٢) البيان والتبيين ٨٢/٢ .

أسألك خِصْبَ الرَّحْلِ^(١) ، وصَلَحَ الْأَهْلِ^(٢) . وروى الجاحظ من بعض وعظه في كتابه الحيوان قوله : « تَغْدُو الطير خِمَاصًا وتروح شِبَاعًا ، واثقة بأن لها في كل غدوة رزقًا لا يفوتها . والذي نفسى بيده أن لو غدوتم على أسواقكم على مثل إخلاصها لرُحْتُم وبطونكم أَبْطُنُ من بطون الحوامل^(٣) » .

وواضح مما روينا من كلام صالح المرثى وغيره من القصص والوعاظ أنهم ارتقوا بصناعة النثر في المعاني التي كانوا يرددونها رقيقاً بعيداً ، إذ شعبوا وفرعوا في تلك المعاني طويلاً ، واستنبطوا فيها كثيراً من الدقائق التي تمسُّ القلوب والعقول . وأضافوا إلى ذلك عناية واسعة بأساليبهم ، وهى عناية تقوم على الدقة في اختيار اللفظ والإحساس المرهف بجمال السبك والصياغة . وأدأهم ذلك في بعض الأحيان إلى استخدام السجع ، بل كان منهم من أكثر من استخدامه مثل الفضل ابن عيسى الرقاشى وفيه يقول الجاحظ كان سجّاعاً في قصصه^(٤) ، وكان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصّاً مجيداً^(٥) ، ويروى من وعظه : « سَلِ الْأَرْضَ فَقُلْ مِنْ شَقِّ أَنْهَارِكَ وَغَرَسِ أَشْجَارِكَ ، فَإِنْ لَمْ تُجِيبْكَ حَوَاراً ، أَجَابَتْكَ اعْتِبَاراً^(٦) » ويقول الجاحظ : « كَانَ يَتْلُو الْآيَةَ الَّتِي فِيهَا ذَكَرَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَالْمَوْتَ وَالْحَشَرَ^(٧) » ثم يفيض في الوعظ . وكان ابنه عبد الصمد قاصّاً مثله ، وكان أغزر منه وأبين وأعجب وأخطب^(٨) ، وقيل له : « لِمَ تَوَثِّرُ السَّجْعَ عَلَى الْمَشُورِ وَتَلْزِمُ نَفْسَكَ الْقَوَافِي (أى روى الأسجاع) وإقامة الوزن ؟ قال : إِنْ كَلَامِي أَوْ كُنْتُ لَا أَمَلُ فِيهِ إِلَّا سَمَاعَ الْمَشَاهِدِ لِقَلِّ خِلَافِي عَلَيْكَ ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ الْغَائِبَ وَالْحَاضِرَ وَالرَّاهِنَ وَالْغَابِرَ ، فَالْحِفْظَ إِلَيْهِ أَسْرَعُ ، وَالْأَذَانَ لِسَمَاعِهِ أَنْشَطُ ، وَهُوَ أَحَقُّ بِالتَّقْيِيدِ وَبِقِلَّةِ التَّفْسَلِ^(٩) » .

(٦) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .

(٧) البيان والتبيين ١/٢٩١ .

(٨) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .

(٩) البيان والتبيين ١/٢٨٧ .

(١) الرجل هنا : المسكن والبيت .

(٢) البيان والتبيين ٣/٢٨٨ .

(٣) الحيوان ٦٢/٧ .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

(٥) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .

المناظرات

قلما عُنِيَ مؤرخو الأدب العباسي بالحديث عن المناظرات التي احتدمت بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل لهذا العصر مع أنها كانت من أهم الفنون النثرية وكانت تشغل الناس على اختلاف طبقاتهم ، لسبب بسيط وهو أنها كثيراً ما كانت تنعقد في المساجد ، وقد مرَّ بنا أن مجالس البرامكة والمأمون كانت تكتظ بهذه المناظرات ، وأنه كان وراء مجالسهما مجالس صغرى كثيرة ، يجتمع فيها المتناظرون من الشيعة والزنادقة والمتكلمين ، ويتحاورون في المسائل العقيدية وغير العقيدية ، وقد يخوضون في بعض المسائل الفلسفية ، على نحو ما كانت تخوض مجالس البرامكة ، وبالمثل كان يتناظر الفقهاء ، ومناظرة الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني مشهورة .

والمعتزلةُ أهمُّ طوائف المتناظرين حينئذ ، فقد وقفوا أنفسهم على جدال طوائف المتكلمين من مخالفيهم في أصولهم الخمسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع وجدال من كانوا يعتنقون التشيع الغالى مثل شيطان الطاق وهشام بن الحكم وجادلوا جدالاً عنيفاً أرباب الملل السماوية والنحل غير السماوية . من الدهرية والمناوية ، ومن أشهرهم في الجدل والمناظرة أبو الهذيل العلاف المتوفى في حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة ، وفيه يقول ابن خلكان : « كان حسن الجدل قوى الحججة كثير الاستعمال للأدلة والإلزامات » . وروى الخطيب^(١) البغدادى والمرئضى^(٢) في أماليه وبعض المراجع القديمة طائفة من مناظراته . من ذلك مناظرته في حديثه ليهودى ورَد البصرة ، وتعرض لتكلميها يقول لهم ألا تقرُّون بنبوة موسى عليه السلام ؟ حتى إذا اعترفوا بها قال : نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نجتمع على ما تدَّعونه . فتقدم إليه ، وقال له : أسألك أم تسألنى ؟ فقال له اليهودى : بل أسألك فقال : ذاك إليك ، فقال اليهودى : أتعترف بأن موسى نبي صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك ، فقال له أبو الهذيل : إن كان موسى الذى تسألنى عنه هو الذى بشرَّ بنبيى

(١) تاريخ بغداد ٣/٣٦٦ وما بعدها .

(٢) أمال المرئضى ١/١٧٨ وما بعدها .

عليه السلام وشهد بنبوته وصدقته فهو نبي صادق ، وإن كان غير من وصفتُ
فذلك شيطان لا أعترف بنبوته . فورد على اليهودى ما لم يكن فى حسابانه . ولم
يلبث أن سأل أبا الهذيل : أتقول إن التوراة حق ؟ فقال : هذه المسألة تجرى
مجرى الأولى ، إن كانت هذه التوراة التى تسألنى عنها هى التى تتضمن البشارة
بنبي عليه السلام فذلك حق ، وإن لم تكن كذلك فليست بحق ولا أقرُّ بها .
فهت اليهودى وأفحم ولم يدر ما يقول . وناظر يوماً مجوسياً فسأله ما تقول فى
النار ؟ قال : بنت الله ، قال فالبقر ؟ قال : ملائكة الله قصصاً أجنحتها
وحطتها إلى الأرض يُحرثُ عليها ، قال فالماء ؟ قال : نور الله ، قال أبو الهذيل
فما الجوع والعطش ؟ قال : فقمر الشيطان وفاقته ، قال أبو الهذيل : فمن يحمل
الأرض ؟ قال : بهمن الملك . حينئذ قال أبو الهذيل : فما فى الدنيا شر من
المجوس أخذوا ملائكة الله فذبجوها ، ثم غسلوها بنور الله ثم شَوَّوها ببنت الله ،
ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته ، ثم سلخوها على رأس بهمن الملك أعز ملائكة
الله . فانقطع المجوسى وخجل مما لزمه . وقال له المعدل بن غيلان يوماً إن فى
نفسى شيئاً من القول بالاستطاعة وأن الإنسان حرٌّ حرية مطلقة فى أعماله فبيِّنْ
لى ما يذهب الريب عني ، فقال له : خبرتنى عن قول الله تعالى : (وسيحلفون
بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) هل يخلو
من أن يكون أكذبهم لأنهم مستطيعون الخروج وهم تاركون له ، فلاستطاعة
الخروج فيهم وليسوا يخرجون قال (إنهم لكاذبون) أى هم يستطيعون الخروج
وهم يكذبون فيقولون : لسنا نستطيع ، ولو استطعنا لخرجنا ، فأكذبهم الله على
هذا الوجه . أو يكون على وجه آخر يقول : (إنهم لكاذبون) أى إن أعطيتهم
الاستطاعة لم يخرجوا ، فتكون معهم الاستطاعة على الخروج ولا يخرجون .
وعلى كل حال قد كانت الاستطاعة على الخروج ثابتة لهم . ولا يعقل
للآية معنى ثالث غير الوجهين اللذين وصفنا . وبذلك أقام الحجة القاطعة
على الاستطاعة من لفظ القرآن الكريم ، حتى ينقض ما يستشهد به أصحاب
الخبز وتعطيل إرادة الإنسان وحرية من بعض آية التى لا تعطيهم الدلالة البينة
الملزمة . وكان يتعمق ببعض مناظراته فى مسائل فلسفية كقوله إن حركات أهل

الجنة والنار لا تبقى بل تنقلب إلى سكون دائم ، تجتمع فيه اللذات لأهل الجنة ويجتمع العذاب لأهل النار ، إلى غير ذلك من الآراء المبسوطة في الملل والنحل للشهرستاني وفي مقالات الإسلاميين للأشعري .

وكان ابن أخته النظام لا يقل عنه قوة في الجدل والإقناع وإفحام الخصوم ، ومراً بنا في غير هذا الموضع كيف أفحم أبا شَمِيرَ الجَبَرِيَّ المَرَجِيَّ وقطعه بالبراهين الساطعة ، حتى زحف إليه وأمسك بيديه ليسكت . ويقول ابن النديم إنه ما زال يناظر الحسين النجار في الجهر وحرية الإرادة ، حتى انصرف محموراً مغموماً وكان ذلك سبب علته التي مات فيها^(١) . وهو يُعَدُّ أكبر من جادلوا الدهرية والمناوية وغيرهما من أصحاب النحل غير الإسلامية لعصره ، حتى ليقول الجاحظ على نحو ما مر بنا في ترجمتنا له بين الشعراء : « لولا مكان المتكلمين هلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل وأولا أصحاب إبراهيم (النظام) وإبراهيم هلكت العوام من المعتزلة ، فإني أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلًا وَفَسَّقَ لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة^(٢) » . وحكى الجاحظ كثيراً من جداله وروده على الدهرية والمناوية والديّصانية ، وفي الجزء الخامس من كتاب الحيوان مادة من ذلك كثيرة، نراه فيها يرد على من يقولون بأن أصل العالم ضياء وظلام وأن الحرارة والبرودة واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هي نتائج على قدر امتزاجها ، ويلاحظ أنهم يقفون عند حاسّة اللمس فقط دون غيرها من الحواس . ويبحث مباحث واسعة في النار وأنها حر وضياء وأن الضياء ليس بلون لأنه إذا سقط على الألوان المختلفة كان عمله فيها واحداً . ويفيض في ردود كثيرة على المجوس ، واحتفظ أبو الحسين الحياط هو الآخر بكثير من هذه الردود ، من ذلك قول المناوية بالنور والظلمة وأن النور هو مصدر كل خير والظلمة مصدر كل شر ، فالصدق خير لأنه من النور والكذب شر لأنه من الظلمة ، مما جعله يقول لهم : « حدثونا عن إنسان قال قولاً كذب فيه مَن الكاذب ؟ قالوا الظلمة ، قال : فإن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب ، وقال : قد كذبت وقد أسأت ، من القائل : قد كذبت ؟ فاختلفوا عند ذلك ولم يدروا ما يقولون ، فقال لهم إبراهيم : إن زعمتم أن النور هو

القائل : قد كذبت وأسأت فقد كذب لأنه لم يكن الكذب منه ولا قاله والكذب شر ، فقد كان من النور شر وهو هدم قولكم ، وإن قلتم إن الظلمة قالت : قد كذبت وأسأت فقد صدقت ، والصدق خير ، فقد كان من الظلمة صدق وكذب ، وهما عندكم مختلفان ، فقد كان من الشيء الواحد شيان مختلفان : خير وشر على حكمكم ، وهذا هدم قولكم بقديم الاثنين^(١) « أى الخير والشر وإلهيهما اللذين يؤمنون بهما . وعلى نحو ما كان يناظر المنانية ويقطعهم كان يناظر الدهرية القائليل بالدهر وخلوده وأن حركات الأفلاك لا تنهاى ، ويفهمهم بمنطقه وقوة نسجه للأدلة ، من ذلك أنه تعرض لهم يوما يجادلهم فيما يزعمون من عدم التنهاى فى حركات الأفلاك ، وكان مما قاله لهم : « ليس تخلو الكواكب من أن تكون متساوية الحركة ، لا فضل لبعضها على بعض فى السير والقطع أو بعضها أسرع قطعاً وسيراً من بعض ، فإن كانت متساوية القطع فقطع بعضها أقل من قطع جميعها ، وإذا أضيف قطع بعضها إلى قطع البعض الآخر كان قطع الجميع أكثر من قطع الواحد ، وإن كان بعضها أسرع من بعض قطعاً ، فقد دخلته القلة والكثرة وما دخلته القلة والكثرة متناه^(٢) » وهو تناه يدل على حدوث الحركة . وكان يكثر من مناظرة خاله أبى الهذيل ويعاود عليه بقوة حججه ، مما جعله يراوغه كثيراً ويعتل عليه ، حتى قال له بعض مستمعيهما : « إنك إذا راوغت واعتلت وأنت تكلم النظام فأحسن حالاتك أن يشك الناس فيك وفيه ، فقال : خمسون شكاً خير من يقين واحد^(٣) » . ومر بنا فى غير هذا الموضع بعض آرائه الفلسفية وفى الحق أنه هو وخاله وغيرهما من المعتزلة غمسوا آراءهم وتفكيرهم فى الفلسفة غمساً . ونراه يحول كل شيء إلى المناظرة ، فهو يناظر فى الآراء العقيدية وفى الآراء الفاسفية مما ذكرناه فى ترجمته السابقة كما يناظر فى المسائل الطبيعية وفى الحيوان . ومناظرته لمعبد فى مساوىء الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره مشهورة وقد شغلت نحو مجلد ونصف من كتاب الحيوان للجاحظ ، إذ استقصيا جميع الجوانب المتصلة بذلك استقصاء يدل على مدى الرقى الفكرى الذى رقيه العقل العربى فى العصر

(٢) انظر كتاب الانتصار ص ٣٥ .

(٣) حيوان ٦٠/٣ .

(١) كتاب الانتصار لأبى الحسين الخياط

(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٠ .

العباسي . وهي وما يماثلها لم تكن تُراد لنفسها وإنما كانت تراد للبرهنة على عجائب تدبير الله جل جلاله في خلقه وما أودعه فيه من ذخائر الحكمة ، كما كانت تُراد للفرق بين مذاهب الدهرية ومذاهب الموحدين لا في بحث عجائب الكون في الحيوان فقط بل في بحث كل صور الوجود أيضا وما يتصل بذلك من الآراء الفلسفية العميقة ، ومن أجل ذلك آثر المعتزلة هذا الجدال العقلي على النسك والعبادة وجعلوه فوق الحج والجهاد^(١) .

وفي الحق أنهم بسطوا بهذا الجدال وما اتصل به من مناظرة العقل العربي إلى أبعد غاية ، فقد أمدّوه بسيل من دقائق المعاني وخفيات البراهين ، وجعلوه عقلا جدلا ما يزال ينتقب عن خبيثات الأفكار ، وما يزال يجلب من أعماق الأعماق دُرَرها الباهرة . وقد تجاوزوا على الأشياء المشهورة يصححونها ويسدّدونها ، وتجاوز معهم كثير من معاصريهم الذين مضوا يتقنون على شاكلتهم الحوار في كل شيء . ومن طريف ما يصور ذلك أن نجد الجاحظ يذكر أن شخصا يسمى جعفر بن سعيد كان يفضل الديك على الطاووس ، كأنه يريد أن يعكس ما شاع عند الناس من جمال الطاووس ، ويسوق الجاحظ ما كان يقوله في ذلك على هذا النمط^(٢) :

« كان جعفر بن سعيد يزعم أن الديك أحمد من الطاووس وأنه مع جماله وانتصابه واعتداله وتقلّعه^(٣) إذا مشى سليم من مقابح الطاووس ومن موقه^(٤) وقبح صورته ! ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قبح رجله ونذالة مَرَاتته . وزعم أنه لو ملك طاوسا لألبس رجله خُفّا . وكان يقول : وإنما يُفخّر له بالتلاوين وبذلك التعاريج والتهاويل التي لألوان ريشه ، وربما رأيت الديك النبّطى وفيه شبيه بذلك إلا أن الديك أجمل لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف وأسلم من العيوب من الطاووس . وكان يقول : ولو كان الطاووس أحسن من الديك النبّطى في تلاوين ريشه فقط لكان فضل الديك عليه بفضل القدّ والخِرط وبفضل حسن الانتصاب وجودة الإشراف أكثر من مقدار فضل حسن ألوانه على ألوان الديك ولكان السليم من العيوب في العين أجمل لا اعتراض تلك الخصال القبيحة على حُسْن الطاووس

(٣) التقلع : التحدر في المشي .

(٤) الموق : الحق .

(١) حيوان ١/٢١٦ .

(٢) حيوان ٢/٢٤٣ .

في عين الناظر إليه . وأول منازل الحمد السلامة من الذم . . والعامة لا تبصر الجمال ،
ولفرسٌ رائع كريم أحسن من كل طاووس في الأرض ، وكذلك الرجل والمرأة . وإنما
ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط ، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصُّبه كحسن
البازي وانتصابه ، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح وإلى الشيات والهَيْئَة والرأس
والوجه الذي فيه . وكان جعفر يقول : لما لم يكن في الطاووس إلا حسنه في ألوانه
ولم يكن فيه من المحاسن ما يزاحم ذلك ويجاذبه وينازعه وَيَشْغُلُ عنه ذكر وتبين
وظهر . وخصال الديك كثيرة وهى متكافئة في الجمال . » .

وواضح أن هذه قدرة بارعة في الجدل وفي تأليف الحجج والأدلة ، وهى تدل
على ما أصاب العقل العربى حينئذ من رقى جعله يستقصى ما يتحدث عنه أحسن
استقصاء وأدقه ، استقصاء يحرص فيه المتكلم على التدقيق والتعمق كأشد ما يكون
التعمق والتدقيق وكان يصحب ذلك بكثير من الظرف ومن السفسطة التى تدل على
ترف العقل وارتفاعه عن الآراء الشائعة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه ما حكاها
الجاحظ في فاتحة كتابه البخلاء عن مذهب مَنْ يسمّى باسم الجَهْلِيَّاهِ « في
تحسين الكذب في مواضع وفي تقبيح الصدق في مواضع وفي إلحاق الكذب بمرتبة
الصدق وفي حَطِّ الصدق إلى موضع الكذب وأن الناس يظلمون الكذب بتناسى
مناقبه وتذكر مثالبه ويحاربون الصدق بتذكر منافعهم وبتناسى مضاره وأنهم لو وازنوا
بين مرافقهما وعدّوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق ولما رأوها بهذه
العيون » . ويتلو الجاحظ هذا المذهب بمذهب من يسمّى باسم صَحْصَح « في
تفضيل النسيان على كثير من الذكر وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة
وأن عيش البهائم أحسن موقعا في النفوس من عيش العقلاء وأنك لو أسمنت بهيمة
ورجلا ذا مروءة أو امرأة ذات عقل وهمة وأخرى ذات غباء وغفلة لكان الشحم إلى
البهيمة أسرع وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، ولأن العقل مقرون بالخطر والاهتمام
ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن ، فلذلك البهيمة تَقَنُّو شحما في الأيام اليسيرة ،
ولا تجد ذلك لذى الهمة البعيدة ، ومتوقع البلاء في البلاء وإن سلم منه ، والغافل
في الرجاء إلى أن يدركه البلاء » .

وقد يقال إن هذا التقبيح للأشياء المستحسنة والتحسين للأشياء المستقبحة عُرف

في الأدب الفهلوى القديم ، وأن العباسيين تأثروا في هذا الاتجاه بما كان منه في هذا الأدب ، ونحن لا ننفي ذلك ، وإنما نلاحظ أنه حتى إن صح فإن العباسيين توسعوا في هذا الاتجاه بتأثير مناظرات المتكلمين وما داخلها من سفسطة أحيانا ، بحيث أصبح هذا التحسين والتقبيح نمطا من أنماط التفكير العباسي ، وبحيث عمَّ في كل شيء ، مما هيا فيما بعد هذا العصر لظهور كتب المحاسن والمساوى . ونضيف أن المتكلمين تأثروا أيضا في مناظراتهم بما كان في التراث الفلسفي اليوناني من جدال وحوار ، وبخاصة في المسائل الفلسفية الخالصة ، ومعروف أن أفلاطون كان يدير كثيراً من رسائله على الحوار والجدل بين نَفَرٍ من الفلاسفة ، على نحو ما هو معروف في رسالته أو كتابه الذي سماه المأدبة وفيه جلب سقراط وبعض المتفلسفة ليتحاووا في عاطفة الحب ، ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن يحيى البرمكي دعا من كانوا يتناظرون بمجالسه في المسائل الفلسفية والكلامية إلى الحديث عن العشق ، وكان حديثاً طويلاً تبادل هؤلاء المتناظرون آراءهم فيه ، وأكبر الظن أنهم سمعوا بمأدبة أفلاطون إن لم يكن بعضهم قد اطلع عليها مترجمةً ، ولم يُسَمَّلْ لنا جميع هذا الحديث الطريف ، إنما نُقل بعض ما تحدّث به مَنْ شاركوا في هذه المحاور البديعة ، نَقَلَهُ المسعودي في كتابه مروج الذهب على هذه الشاكلة ^(١) :

« قال علي بن ميثم (المتكلم الشيعي) : العشق ثمر المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ورقة الطبيعة وصفاء الجوهر ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك الحضرمي وهو خارجي المذهب : العشق نفت السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين وامتزاج الشكليين ، وله نفوذ في القلب كنفوذ صَيِّبِ المزن في خَلَلِ الرَّمْلِ تنقاد له العقول وتستكين له الآراء .

وقال أبو الهذيل العلاف المعتزلي : العشق يختم على النواظر ويطلع على الأفئدة مرتقي في الأجساد ومسرعة في الأكباد ، وصاحبه منصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع إليه النواذب . وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقيّة من حياض الشكل ، غير أنه من أريحية تكون في الطبع وطلاوة

توجد في الشائل وصاحبه جواد لا يَصْغُو (يميل) إلى داعية المنع ولا يسنح به (يصرفه) نازع العذل.

وقال إبراهيم النظام بن يسار المعتزلى : العشق أرق من الشراب ، وأدب من الشباب ، وهو من طينة عطرة عُجنت في إناء من الحلى ، حلو المجتنى ما اقتصد ، فإذا أفرط عاد صلاً قاتلاً ، وفساداً معضلاً ، لا يُطْمَعُ في إصلاحه . له سحابة غزيرة على القلوب ، فتعُشِبْ شغفاً وتُشْمِرْ كلفاً . وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفس طويل الفكر إذا جَسَنَ الليل أرق وإذا أَوْضَحَ النهار قاتى ، صَوْمُهُ البَلَوَى ، وإفطارُهُ الشكوى .

ثم قال الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم ، حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب ، وفيما مرّ دليل عليه .

وكنا نتمنى لو أن المسعودى أورد كل ما قاله هؤلاء المتحاورون إذن لورثنا عن العباسيين مآدبة في العشق تقابل مآدبة أفلاطون . والذي لا شك فيه — كما أسلفنا — أن هذه المآدبة كانت تحت أعين معاصريهم كما كانت تحت بصر من جاءوا بعدهم مثل المسعودى ، وأن الشعراء استمدوا منها كثيراً من معانيهم في العشق والغزل . ومضى المسعودى يذكر بعض ما أثّر عن الفلاسفة والأطباء في العشق ، مما يقطع بأن العباسيين إن لم يعرفوا مآدبة أفلاطون فقد سقطت إليهم آراء يونانية مختلفة في الحب والهوى .

وواضح ما في هذا الحوار عن العشق من دقة في المعانى ومن حسن سبك وأداء ، حتى ليُعْنَى بعض المتحاورين بأن يكون كلامه مسجوعاً ، مما يدل دلالة بينة على أن المتناظرين كانوا لا يزالون يتعهدون كلامهم ويصوغونه صياغة باهرة ، وبذلك أعدوا لتطور النثر تطوراً واسعاً في مضامينه الجديدة التى لم يكن للعربية بها عهد وفي أساليبه وبما شفعوها به من حسن السبك وجمال الصياغة والأداء .

وليس ذلك فحسب كل ما قدمه فن المناظرة للنثر في هذا العصر ، فقد جعل المتكلمون والمتناظرون وفي مقدمتهم المعتزلة يبحثون في بلاغة القول ويكثرون من ملاحظاتهم في هذا الاتجاه على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع ، مما أعدّ لوضع أصول البلاغة العربية .

الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات

تحدثنا في الفصل الأول عن تعقد الدواوين في هذا العصر وتنوعها ، فدواوين للخراج ودواوين للنفقات ودواوين للجيش ودواوين للحروب ودواوين للرسائل ودواوين للخاتم ودواوين لشرق الدولة ودواوين لغربيها ، ولكل ولاية ديوان ، وفوق هذه الدواوين ما يسمى ديوان الزمام الذى ينظر في ضبط كل ديوان على حدة . وبجانب هذه الدواوين العامة في بغداد دواوين في الولايات للخراج والرسائل ودواوين أخرى لأولياء العهد وللأمراء وللو وزراء وكبار القواد ، ومن لم يتخذ من هؤلاء ديوانا كبيرا كان له كاتب يكتب عنه وينظر في تدبير أمواله ونفقاته وضياعه ، وحتى نساء الخلفاء كن يتخذن الكتاب ، وكذلك كان يتخذهم بعض القضاة والعلماء للكتابة عنهم .

وبذلك نشطت الكتابة في هذا العصر نشاطاً واسعاً ، فقد توفر عليها مئات من أصحاب الأقلام يحذوهم في ذلك ما كانت تدره عليهم من أرزاق واسعة . وكان من يظهر منهم مهارة في دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رئاسة الديوان الذى يعمل فيه . وقد تقبل عليه الدنيا فيصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين ، وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها وشئونها ، فإن لم يصبح وزيراً أصبح والياً لإقليم من الأقاليم مثل الحسن بن البجراح البلخى الذى كتب للمهدى والهادى والبرامكة وقد ولى مصر في عصر الهادى والأمين ، ومثل الحسن بن رجاء كاتب المأمون الذى ولى فارس ومثل عمر بن مهران كاتب الخيزران أم الرشيد وقد ولاه مصر في بعض السنين . وكثير من الولاة والقواد كانوا يحسنون الكتابة إلى أبعد غاية مثل جعفر بن محمد بن الأشعث والى خراسان للرشيد ومثل طاهر بن الحسين قائد المأمون واليه على خراسان وابنه عبدالله بن طاهر والى مصر والشام والجزيرة ثم والى خراسان ومثل أبى دلف العجلي قائد المأمون المشهور .

وعلى هذا النحو كانت الكتابة في هذا العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب ، وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يلقى الإكبار

والإعجاب في كل مكان ، وقد أخذ يسيل لها لعاب كل من أحسَّ في نفسه قدرة عليها ، حتى يحطّي بما يكفل له العيش فضلاً عما قد يصيب من رَغَدٍ ونعيم ، ومن أجل ذلك كثر الوافدون على أبواب الدواوين وخاصة من الناشئة ذوى المطامح البعيدة ، وكانوا يعرضون أنفسهم ، فيُمتَحَنُونَ امتحاناً عسيراً ، تُبَحِّثُ فيه مهارتهم الأدبية والعقلية ، ومن جاز الامتحان أمرهم رؤساء الدواوين بملازمتهم ، ثم ضمهم إلى دواوينهم وترقوا بهم من حال إلى حال ، على قدر مهاراتهم حتى بلغوا بهم المنزلة التي يستحقونها ، وربما ألحقهم ببعض الولاة والقواد أو جعلوا لهم التصرف في بعض الأعمال أو في بعض دواوين الخراج .

ولم يكن نجاح الكاتب الناشئ هينا ، فقد كان لا بدُّ له من إحسان صناعة الكتابة ، وهو إحسان جعله يتوفر على مادتها اللغوية والأسلوبية ، حتى يتقنها الإتيان المنشود من حيث الوضوح والجمال الفني ، أما الوضوح فلأنه كان يكتب غالباً إلى الرعية ولا بد للرعية أن تفهم عنه ، وأما من حيث الجمال الفني فلأنه كان يكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد ، ولا بد أن يروعهم ببيانهم وبلاغته ، وقد توقَّفَ الجاحظ مراراً في كتاباته يُشيد ببراعتهم في القول وعذوبة آدائهم وطلاوة صياغاتهم من مثل قوله : «إنهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلَّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعاني^(١) » .

وكان لا بد لهم بجانب هذه القدرة البلاغية من أن يتقنوا طائفة من المعارف وفي مقدمتها علوم اللسان العربي وعلم الفقه ، وكان العلم الأخير ضرورياً لهم ، لأنهم كانوا يكتبون في شئون الخراج وفيما يجب على أهل الذمة أن يؤديوه من أموال ، وكذلك كان علم الحساب من الضرورة لهم بمكان . وكانوا يلمون بكل علم مثل الكيمياء والطب والنجوم ، وأكبوا على الفلسفة والمنطق ليدعموا عقولهم . ولم يكن ذلك كل ثقافة الكاتب ، فقد مضى يقرأ كل ما تُرجم من الحكمة اليونانية ومأثور

ما تبادله الإسكندر المقدوني وأرسطو من رسائل وما نُقل عن الفلاسفة اليونانيين من أقوال وكذلك ما نقل عن الهنود من حكم وقصص يتصل بتدبير الملك وخاصة كتاب كليلة ودمنة . ومرت بنا مدى إعجاب يحيى البرمكي بهذا الكتاب مما جعله يطلب إلى أبان بن عبد الحميد أن ينقله شعراً حتى يسهل حفظه ، وكان قد نقله ابن المقفع قبل ذلك نثراً ، ومرت بنا في غير هذا الموضع أنه نقل كثيراً من سير ملوك الفرس وأنظمتهم في الملك وتدبيرهم في السياسة والحكم وأن مما نقله « خلدای نامه » في سير ملوكهم و« آيين نامه » في أنظمتهم و« التاج » في سيرة كسرى أنوشروان و« الأدب الكبير » و« اليتيمة » و« الصحابة » . وأكب الكاتب العباسي على هذه الكتب وغيرها مما عرضنا له في الفصل الثالث كأمثال بزرجمهر وكتاب « جاويدان خرد » في الآداب والأخلاق و« عهد أردشير بن بابك إلى ابنه سابور » .

ولعلنا لا نبالغ إذ قلنا إن المادة الفارسية السياسية والأخلاقية المترجمة كانت من أهم المؤثرات في رقي الكتابة الديوانية وتطورها ، وحقاً أن هذا التأثير بدأ منذ عبد الحميد الكاتب ولكنه لم يبلغ أشده إلا في هذا العصر إذ اتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما أُثر عن ملوك الفرس ووزرائهم من عهود ووصايا ورسائل إلى العمال والولاة ، مما سالت مادته الغزيرة في كتابات الكاتب العباسي ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه الوزراء والكتاب بتمهيد واسع عرّض فيه لتدوين الفرس للدواوين ونظمها المختلفة ، متحدثاً في ثنايا ذلك عن كتب الأكاسرة إلى عمّالهم ومقتبساً فصولاً عن سابور إلى ابنه ومن كلام أردشير وكلام أبرويز إلى وزرائه ووصيته لابنه شيرويه ووصية أردشير لوزرائه واستشارة سابور لوزيرين نابهين . وعرّض الجهشيارى لبعض رسائل أرسطو للإسكندر ، ولبعض وصايا الهند وحكمهم . وفي ذلك كله الدلالة الواضحة على مدى ما كان يأخذ به الكاتب العباسي نفسه من ثقافة سياسية ، وخاصة ما كتبه الفرس في وصاياهم وعهودهم . وكان لابد له من إلمام واسع بأخبار العرب وأشعارهم وكل ما يتصل بهم وبخلفائهم ، وكان أحياناً يحسن نظم الشعر وورصفه ، ويستشهد به في رسائله وكلامه ، وكذلك كان يحفظ القرآن الكريم ويقتبس منه أحياناً ، وأحياناً يحاول مجارة

أساليبه وما يجرى فيها من حسن التأليف والثمام الكلم وجودة المقاطع وحلاوة البيان وعذوبته . وحتى الخطّ كان لا بد للكاتب العباسى من إجادته .

ومنّ ينظر نظرة عامة فى موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريح أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة ، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها فى المطر والخصب والجذب، وعهود الخلفاء لأبنائهم ، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام فى تدبير السياسة والحكم . وأيضاً فإنها أخذت تتناول بعض الأغراض التى كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر مما سنعرض له فى الرسائل الإخوانية التى تصور عواطف الأفراد ، وقد تفننوا حينئذ طويلاً فى التحميدات التى تُصدّر بها الرسائل ، وتُنسب إلى الرشيد أنه أول من أمر أن تبتدىء مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم^(١) . وفى رواية ثانية أن يحيى البرمكى وزيره أول من زاد فى الرسائل : « وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » وأنه أنشأ فى ذلك كتاباً ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام^(٢) .

ونحن نقف سد طائفة من الكتاب النابيين مرتبين لهم على عهود الخلفاء وأول كاتب لمع اسمه فى مطالع العصر عُمار بن حمزة كاتب السفاح والمنصور وقد ولاه الأخير فى سنة ١٥٦ على كور دجلة والأهواز وفارس ثم ولاه المهدي خراج البصرة ، وعاش حتى سنة ١٩٩ للهجرة^(٣) ، وكان المهدي يجلّه ، وكان جواداً غير أنه كان فيه تيه شديد حتى ضُرب المثل بتيهه ، فقيل أتتبه من عمار ، وتروى له فى التيه والكرم حكايات كثيرة . وهو أحد الكتاب البالغاء وقد اشتهر بتدبيجه لأول رسالة من رسائل الحميس ، وهى رسالة كانت تُكْتَسَبُ فى عهد كل خليفة عباسى ، وكان موضوعها تأييد الدعوة العباسية وتأييد الخليفة الحاضر وتعداد مناقبه وبيان مآثره وأنه أحق أهل بيته بالخلافة . واشتهر أيضاً برسالة

الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ومعجم الأدباء ١٥٤٢/٢٤٢
والجهشيارى ص ٩١ ، ١٣٣ وفى مواضع أخرى
متفرقة ، راجع الفهرس .

(١) النجوم الزاهرة ١٠٣/٢ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٧٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ١٦٤/٢ وانظر فى ترجمته

لُقِّبَتْ باسم الماهانية وفيها يقول ابن النديم : « الكتب المجمع على جودتها عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الحميس لأحمد بن يوسف » . ويظهر أنها كُتبت لعامل كى يستشير عيسى بن ماهان فى كل ما يأخذ من الأمر ويدع ، وفيها يقول له على لسان الخليفة^(١) :

« أمير المؤمنين لا ينكر قرب الطاعة من المعصية قُرْبَ بعض الأمور من بعض ، لسرعة تقلب القلوب واختلاف الحالات عند مَيْلِ الهوى ولا يُنْكِرُ جَرَى المقادير بَغْيَ ذلك عن العباد واستثثار الله بعلم ما لم يأتهم إلا بغتة . بل قد علم أمير المؤمنين أن أقواما فى قلوبهم ضغائن ، دونها الغدر ، يُظْهِرُ أسرارهم ويخرج أضغانهم ، ثم يبلغ بغضبه منهم ما لم يكن فى ذلك عنده عزيزاً ، ولم يكن بهم امتناع . غير أنه قد أنكر أن تعجل إلى ابن ما هان — وإن كان محلاً بارزاً — بأمرٍ دون مؤامرتة (مشاورته) ويكره لك العجلة فإنها موكلٌ بها الندم وإنه كان يقال : أصاب متأمل أو كاد . وقالت العرب : فلما تَرَيْنَ أمراً رَشِداً فْتَبَيَّنْ ثم ارْعَوْ أو أقْدِمْ وأَحْكَمْ . ولحقُّ ما أمر الله عزَّ وجلَّ به من التَّسْبِيحِ وما حذَّر أن يصاب قوم بجهالة وما خوَّفَ على ذلك من الندامة ، فليس يبرح المرء بخير ما فرغ لقول الله عز وجلَّ واتعظ واستيقظ » .

وواضح حرص عمارة على التمثل بكلام العرب واستعارة ألفاظ القرآن ومعانيه ، فقد حلَّ فى آخر كلامه قوله جلَّ شأنه : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فْتَبَيَّنُوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) . ومن كُتَّاب المنصور مَسْعُودَة بن سعد بن صُول أحد ملوك جرجان فيما يقال ، وكان يكتب أولاً لخالد بن برمك وزير المنصور ثم لواليه على فارس . ولما اتخذ المنصور أبا أيوب المورياني وزيراً وقلَّده الدواوين أقام مسعدة على ديوان الرسائل ، ويَرْوَى ياقوت فى ترجمته لابنه عمرو أن المنصور قال يوماً لكتَّابه : اكتبوا لى تعظيم الإسلام ، فبَدَرَ مسعدة فكتب^(٢) :

(١) انظر الرسالة بأكملها فى جمهرة رسائل العرب (٢) معجم الأدباء لياقوت ١٦ / ١٢٨ .
لأحمد زكى صفوت ١٢٧ / ٣ .

« الحمد لله الذى عظمَّ الإسلام واختاره وأوضحه وأناره وأعزَّه وأناناه (أعلاه) وشرَّفه ، وأكملَه ، وتمَّمه ، وفضَّلَه ، وأعزَّه ، ورفعَه ، وجعله دينه الذى أحبه واجتنباه (اختاره) واستخلصه وارْتضاه ، واختاره واصطفاه ، وجعله الدين الذى تعتدُّ به ملائكته وأرسل بالدعاء إليه أنبياءه وهدى له من أراد إكرامه وإسعاده من خلقه فقال جلَّ من قائل : (إن الدين عند الله الإسلام) وقال جلَّ وعلا : (ومن يَبْتَغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه) وقال : (ملَّةَ أبيكم إبراهيم هو سَمَّاكم المسلمين من قبل) . فبهذا الإسلام والدخول فيه والعلم به وأداء شرائعه والقيام بمفروضاته وصلت ملائكته ورسله إلى رضوان الله ورحمته ، وجواره فى جَنَّتِه ، وبه تحرَّروا من غضبه وعقوبته ، وأمنوا نكال عذابه وسطوته .»

فقال المنصور : حَسْبُكَ يا مسعدة ، اجْعَلْ هذا صدرَ الكتاب إلى أهل الجزيرة بالإعذار والإنذار . وفى جوانب من التحميد أسجاع مما يدل على القصد إلى العناية الفنية وأن الكاتب يريد أن يأسر الأسماع بجمال الجرس والأداء . ومن كُتَّاب المنصور أيضا يوسف^(١) بن صُبَيْح ، وكان يكتب ، فى ديوان الكوفة لبنى أمية ، ثم كتب لعبد الله بن على عم المنصور فى مطلع الدولة العباسية ، حتى إذا أخفقت ثورته على ابن أخيه واستتر بالبصرة عند إخوته بلخا يوسف إلى أصحابه من الكتاب فى ديوان المنصور ، فألحقوه به . ويظهر أنه ظل يعمل فى ديوان الخلافة ، حتى إذا كان البرامكة قريبه ، فكان يختلف بين دواوينهم ودواوين الرشيد ، ومن مآثور ما يُروى له رسالة قصيرة كتبها عن عبد الله بن على إلى ابن أخيه السفاح يعزیه عن ابن له على هذا النمط^(٢) :

« أما بعد فإن أحق الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جلَّ وعزَّ مَنْ كان إماما خلق الله وخليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتعزَّ أمير المؤمنين بفهمك ، وارجعْ فى وَعْدِ الله جلَّ وعزَّ من الصابرين إلى علمك .»

ومن الكُتَّاب لعصر المنصور جبل بن يزيد كاتب عمارة بن حمزة وفيه يقول صاحب الفهرست : « كان مترجماً وكان من معدودى البلغاء والبرعاء^(٣) » وقد

(٢) جمهرة رسائل العرب ٩/٣ .

(٣) الفهرست ص ١٧١ .

(١) انظر فى ترجمته الأوراق للصولى (أخبار)

الشعراء) ص ١٤٦ والجهمياري ١٣١ ، ١٧٥ .

احتفظ له ابن طيفور في كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة بديعة من رسائله ، منها رسالة كتب بها إلى المهدي يعزيه عن أبيه ويهنئه بالخلافة ، ويظهر أنه كتبها عن عمارة بن حمزة وفيها يقول^(١) :

« أعظم بالمصيبة مصيبة نزلت ، وأعظم بالنعمة نعمة حدثت ، وإن أحق من انتصح لله في قضائه واعترف بوجود حُسْنِ بلائه من علم أن الفجائع أمرٌ جرت به سُنَنُ الله بين عباده تذكيراً وتحذيراً . . ولولا ذلك لم يكن لمعز أن يروم تعزية أمير المؤمنين . . فعظم الله على الحادث النازل أجره ، وأحسن على الخلافة عَوْنَه ، ثم لا وكله الله في شيء من الأمور إلى نفسه ، وألهمه العمل بما يرضيه ويبلغ به تأدية حقه ، فيما استرعاه واستحفظه وجعله أهله وأحقّ به » .

ومن الكتاب أيضاً لعصر المنصور غَسَّان بن عبد الحميد كاتب^(٢) عمه سليمان بن علي واليه على البصرة لسنة ١٣٣ للهجرة ، وفي الفهرست أنه كتب لابنه جعفر بن سليمان على المدينة سنة ١٤٦ للهجرة ويقول : « كان بليغا حلوا الكلام لطيف المعاني^(٣) » واحتفظ له أيضاً ابن طيفور بطائفة جيدة من رسائله ، وأكثرها يدور في التعزية ، ويظهر أنه كان يتقنها إتقاناً بعيداً على نحو ما نرى في هذه القطعة من رسالة يعزى بها المهدي عن أبيه^(٤) :

« أما بعد فإن الله تبارك وتعالى جعل المقادير علماً ثابتاً عنده وكتاباً سابقاً منه ، فجرت عليه ومضت به الأمور في قدرته ، والعباد في قبضته . وليس عبداً من عبده إلا وقد كان عمره في الدنيا موظوفاً قبل خلقه ، وكان ما يصيبه منها مكتوباً عليه قبل أن ينزل به ، ثم جعل أهل عبادته أهل حظوظ متكاملة في السعادة وأهل فضائل متظاهرة في الكرامة ، فاصطفى منهم أنبياءه ، وانتجب منهم خلفاءه ، وألزمهم على ذلك الموت الذي لا بد منه وجعله الحياة لهم فيما عنده ، فكانت وفاة من توفى منهم له سعادةً فيما يصيرهم إليه وحياة مَنْ أحيى منهم له كرامة فيما يصطنعهم له ، فيمضي الأول منهم سعيداً ويبقى الباقي منهم مصطنعاً فلا تنقطع الدنيا بماضيهم إلا إلى خبر منها ولا يبقى باقيهم إلا ليزداد خيراً فيها .

(١) جبهة رسائل العرب ١٤٨/٣ .

(٢) الفهرست ص ١٨٣ .

(٣) جبهة رسائل العرب ١٤٩/٣ .

(٤) الجهشيارى ص ١١٠ .

والماضى مفقود مستخلف منه ، والباقي محمود مرضى به ، وأمر الرعية قائم معدول فيه .

وننتقل إلى عصر المهدي فنلتقى بأبي عبيد الله معاوية^(١) بن عبيد الله بن يسار وكان المنصور ضمه إليه حين أنفذه إلى الري ليكتب له ويصدر عن رأيه ومشورته ، فلما ولي الخلافة استوزره وفوض إليه الدواوين ، حتى إذا كانت سنة ١٦٣ صرفه عن وزارته واقتصر به على ديوان الرسائل وما زال يليه حتى سنة ١٦٧ . ثم صرفه الميبدى عنه أيضاً ، ولم يلبث أن توفي سنة ١٧٠ للهجرة . وكان غزير العلم جذاب الحديث بارعاً في القول ، ومن طريف ما رواه له الجاحظ قوله : « التماس السلامة بالسكوت أولى من التماس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف أشد من قمع بَطَر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة أصعب من الصبر على ألم الحاجة ، وذلل الفقر قاهرٌ لعز الصبر ، كما أن عز الغنى مانع من الإنصاف إلا لمن كان في غريزته فضل كرم وفي أعراقه مناسبة لعلو الهمة^(٢) » . وكان أهل الخراج يعدّون بصنوف من العذاب : من السباع والزناير والسنابير ، فكتب إلى جميع العمال برفع العذاب عنهم . وقد اشتهر ببراعته في التحميدات التي كانت تصدّر بها الرسائل والكتب من مثل قوله^(٣) :

« الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمة قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم واستيجابهم إياها منه ، فاصطفاه لنفسه وشرعه لهم ديناً يدينون به ، ثم جعل تجديد وحيه ومتابعة رسله رحمة تلافاهم بها بعد تقديمها وميّنة ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها ، تطولا على العباد بالنعماء ، وإعذاراً إليهم بالحجج وتقديمه بالوعد وإنذاراً إليهم عواقب سخطه في المعاد . والحمد لله الذى ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقه على فترة من الرسل وطموسٍ من معالم الحق ودروسٍ من سبُل الهدى ، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره أن يجتبي فيه لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهرين بحقه القاهرين لمن ابتغى

ص ١٣٤ .

(٢) الجهشيارى ص ١٥٦ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٦٥ .

(١) الجهشيارى ص ١٢٦ وفى ثنايا حديثه عن أيام المهدي ووزرائه وكتابه ، وانظر فيه كتب التاريخ مثل الطبرى وابن الأثير والفرغى

سبيلا غير سبيله ، فعظّم حرّمته ووسّع حوزته وصدع بأمره وجاهد عن حقه في حَوَومات الضلالة وظلمات الكفر بالحق المبين والسراج المنير ، ثم جعله مصدقا لمن سبقه من الرسل ومجددا لما بُعثوا له وهدي ورحمة »

ومن البلاء المحيدين الذين كتبوا له في دواوينه إسماعيل بن صبيح ومطرف^(١) ابن أبي مطرف العبّدي الذي كان يتقلد ديوان الخراج ، ويظهر أن أبا عبيد الله كان يستعين به من حين إلى حين في كتابة بعض الرسائل الديوانية ، فما أثر له رسالة إلى بعض العمال كلها إغذار وإنذار على هذه الشاكلة^(٢) :

« أما بعد فإن الله حبّب إلى كل مسلم شُعبه من دينه ، فمنهم من حبّب إليه الصلاة فهو قانت آتاء الليل ساجداً وقائماً ، يَحْذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه ، ومنهم من حبّب إليه الزكاة فهو يتفق ماله بالليل والنهار سِرّاً وعلانية ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ، ومنهم من حبّب إليه الجهاد فهو بين المسلمين وبين عدوهم يذب عن حريمهم ويقا تل مِين دونهم وفاءً بعهده الله وتسليماً لبيعة الله ، فأما الراسخون في العلم ممن قد عرف سيرتك ، وما أبدى لهم الله من سريرتك ... فهم يعرضونك على الله في أدبار السجود وعند إدبار النجوم ويسألونه بآلائه مخلصين وبأسائه مُلْحِفين أن يصيبك بعذاب من عنده أو بأيديهم ، لما استحلّت جنودك من سفك الدماء ، وأباحت رسلك من حرّم النساء ، وظلمك اليتامى وافترائك على ذوى القربى وتعريضك لإياهم في فتوحك للعقاب والهلكة والخلاف والمعصية ، فويل لك ولكتائبك مما كتبتْ أيديكم وويل لكم مما تكسبون ، وقد وردتْ كتبك - بحمد الله - من أمير المؤمنين - على حلم لا يوهنه الغضب وعلى عمل لا يغيره الكذب وعلى إيمان لا يستخفه الذين لا يوقنون » .

وواضح كثرة اقتباساته من ألفاظ الذكر الحكيم ، من مثل قوله تعالى : (أَمِّنْ هو قانت آتاء الليل ساجداً وقائماً) وقوله : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سِرّاً وعلانية) وقوله : (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة

(١) انظر في أخباره ترجمة ابنه عمر بن مطرف في معجم الأدباء ٧٢/١٦ والجهمياري

ص ١٦٦ .
(٢) جمهرة رسائل العرب ٢١٣/٣ .

الله وتثبيتاً من أنفسهم . .) وقوله : (ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) (ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) وقوله : (ونحن نربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) وقوله جل ذكره : (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) . وقد توفي مطرّف سنة ١٦٤ للهجرة وكان له ابن كاتب يسمى عمر^(١) تقلد ديوان المشرق للمهدى والهادى وقلّده الرشيد ديوان الأزمّة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا بالبلاغة في عصر المهدي ، وربما لحقته هذه الشهرة في عصر المنصور محمد^(٢) بن حجر كاتب ولاية أرمينية والشام ، واتخذته العباس بن محمد أخو المنصور كاتباً له ، ولعله تعرف عليه في أثناء نهوضه بقيادة الجيوش في غزو الروم ، وقد كتب عنه رسالة إلى المهدي حين جعل ابنه الرشيد ولي عهده بعد أخيه الهادي سنة ١٦٣ وفيها يوثّق البيعة لولي العهد الجديد على هذا النمط^(٣) :

« قد أتتنا بيعة هرون على حين ظمأ إليها وتطلّع نحوها ، فتبادرتها أكفئنا ، وأسرع إليها شاهدنا وغائبنا وبايعنا بيعة رضوان من الله بصحة من نيّاتنا وسلامة من صلورنا ، مستبشرين ببيعتنا راغبين فيما صَفَقَتْ^(٤) عليه أيماننا ، عارفين بأنها مُقَفَّتْ سَحْ نعمة ومقدمة فضيلة ودرجة في الخير رفيعة مقدمين للسروور بها نُصَحَ الجُيُوب^(٥) باذلين للرجاء فيها ثمار القلوب » .

ونمضى إلى عصر الرشيد ، ويلقانا يحيى^(٦) البرمكي ، أحد من جمع جمعاً رائعاً بين ثقافة العرب وثقافة الفرس ، وكان قلده المهدي الكتابة لابنه ، منذ جعله ولياً عهده ، والقيام على نفقاته وتدبير أمر الجيوش التي كان يقودها الرشيد ضد الروم . وحسُنَ أثره عنده إلى أقصى غاية حتى إذا ولي الخلافة قلده أمور الرعية وسلمه خاتم الخلافة يأمر وينهى كما يشاء ويستعمل على الولايات والأعمال

(١) انظر ترجمته في ياقوت ٧١/١٦ والفهرست ص ١٨٤ .

(٢) انظر ترجمته في الفهرست ص ١٧٢ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ١٦٩/٣ .

(٤) صفق يده بالبيعة : ضرب يداً بيد دلالة على التزامها .

(٥) ناصح الحبيب : ناصح القلب والصدر .

(٦) انظر في ترجمة يحيى كتب التاريخ في

خلافة الرشيد من مثل الطبري وابن الأثير واليعقوبي

وراجع الفخري والجهشياري ص ١٥٠ ، ١٦٨ ،

وفي أيام الرشيد ، وراجع في بلاغته وبلاغة أبنائه

المعد الفريد ٥٨/٥ .

ويعزل كما يريد ، ولم يلبث الرشيد أن ولي ابنه جعفرًا على المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية وولّى ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك ، وسبق أن تحدثنا عن ذلك كله في الفصل الأول من فصول هذا الجزء ، ومضى ما نهض به البرامكة في الشؤون الإدارية والثقافية إلى أن نكبهم الرشيد في سنة ١٨٧ للهجرة إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وأخيه الفضل حتى ماتا في الحبس .

وكان يحيى سيّوسًا حصيفًا دقيق الحس مهذب الذوق رقيق الشعور ، وحول مجلسه كما أسلفنا إلى ندوة علمية أدبية كبرى يتحاور فيها كبار العلماء من كل صنف ، وكان آية في البلاغة والإيجاز ، وتوقف الجهشيارى مرارا لبروى بعض المأثور من كلامه من مثل قوله : « البلاغة أنْ تكلم كل قوم بما يفهمون » وقوله لجعفر ابنه : « يا بني انتق من كل علم شيئًا فإنه من جهل شيئًا عاداه وأنا أكره أن تكون عدوًا لشيء من الأدب » وقوله : « الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون » وقوله : « العَجَبُ للسلطان كيف يحسن ، ولو أساء كل الإساءة لوجد من يزكّيه ويشهد بأنه محسن » وقوله : « لست ترى أحدًا تكبر في إمارة إلا وقد دل على أن الذي نال فوق قدره ، ولست ترى أحدًا تواضع في إمارة إلا وهو في نفسه أكبر مما نال في سلطانه » . وكتب إلى الرشيد لما نكبه وسجنه رسالة بليغة ، وفيها يقول^(١) :

« من شخص أسلمته ذنوبه وأوثقت عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدّثان^(٢) ، فحلّ في الضيق بعد السعة وعالج البؤس بعد الدّعة ، وافتّرش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود^(٣) ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، قد عاين الموت ، وشارف الفسوت ، جزعا لموجدتك يا أمير المؤمنين وأسفا على ما فات من قربك » .

(٢) الحدّثان : نوازل الدهر ونوائبه .

(٣) الهجود : النوم .

(١) العقد الفريد ٦٨/٥ وغرر الخصاص

الواضحة للطواط (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤هـ)

ص ٤٠٦ وجمهرة رسائل العرب ٢٢١/٣ .

وفى هذه العبارات المحبوبة المسجوعة ما يدل على عناية يحيى بتعبيره وحوّكه الفنى ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن البرامكة كانوا من أهم العوامل فى شيوع السجع فى الكتابة الديوانية ، وحقاً أنه لا يطرد دائماً فى كتاباتهم ، ولكن نحسّ ميلهم الواضح له هم وبعض كتبهم ومن كانوا يكتبون إليهم .

وكان جعفر^(١) لا يقل عن أبيه بياناً وفصاحة وبلاغة ، إن لم يتقدم فى ذلك خطوات ، وكان مثقفاً بمعارف عصره ثقافة واسعة وضمّه أبوه إلى أبى يوسف القاضى فعلمه وفقّهه حتى صار نادرة زمنه . وحظى عند الرشيد حظوة كبيرة لم ينلها أحد قبله ، حتى قتله سنة ١٨٧ لما ثبت عنده من إطلاقه يحيى بن عبد الله العلوى من سجنه ، على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول . وكانت تُضربُ ببلاغته الأمثال ووصفه ثمامة بن أشرس فقال : « قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة^(٢) » . ومن رسالة له فى العفو إلى أحد عماله^(٣) :

« عندنا الاغتفار لما اقترفت ، وتصديق كل ما قلت ، واحتججت بذكره ، واعتذرت بوصفه ، والإسقاط لما جحدته ، والإكذاب للجور الذى اقترفته ، والرجوع عما أنكرته ، والزيادة فيما اخترته ، استدعاء لك وإن انصرفت ، وحيطة لما قدمت وإن ذُمت ، وإيثاراً للإغضاء والاحتمال فإنهما أبلغ فى الإصلاح ، وأنجع فى الاستنجاح ، وأسرع فى التعليم ، وأكبر فى التقويم ، إن احتيج إليه فى مثلك ممن تؤمن عليه قريبته ، وترده إلى الاستقامة تجربته »

والرسالة مبنية على السجع ، وكان جعفر يؤثره فى كتاباته ، مبالغة منه فى التأنق والتنميق ، وهو تنميق كان يطلبه فى كل ما يتصل به حتى فى ثيابه^(٤) . وكثير هم الكتاب البلغاء الذين كتبوا فى دواوين الرشيد والبرامكة وفى مقدمتهم

(١) انظر فى جعفر كتب التاريخ فى خلافة

الرشيد والجهشياري (انظر الفهرس) .

(٢) البيان والبيان ١٠٦/١ . وانظر وصف

سهل بن هارون لبلاغته فى زهر الآداب ٦٩/٢

والعقد الفريد ٥٨/٥ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٩٠ .

(٤) الجهشياري ص ٢١٥ .

إسماعيل^(١) بن صبيح وكان يكتب في أول حياته لأبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله ابن يسار وزير المهدي ورئيس دواوينه ، ولما ألحق المهدي يحيى البرمكي بابنه الرشيد اتخذه كاتبه ، حتى إذا ولي الهادي توسط له عند وزيره إبراهيم الحراني فقلده ديوان زمام الشام وما يليها ، ولما صارت الأمور بيد يحيى في عصر الرشيد قلده ديوان الخراج ، ولم يلبث أن قلده ديوان الرسائل، وظلّ على هذا الديوان مدة في عصر الأمين . ومما يؤثر له رسالة عن الرشيد إلى جميع العمال بما عقد بين ولديه الأمين والمأمون من العهد بعده وتعليق هذا العهد في بيت الله الحرام ، وفيها يقول^(٢) :

« قد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابني أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أمّلت الأمة ومدّت إليه أعناقها . وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما لعماد دينهم ، وقوام أمورهم ، وجمع ألفتهم ، وصلاح دهمائهم ، ودفع المخذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم ، حتى ألقوا إليهما أزمّتهم وأعطوهم بيعتهم وصّفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلظة عليهم . أراد الله فلم يكن له مرّد ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته ، ولا على صرّف له عن محبته ومشيتته ، وما سبق في علمه منه . وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما في ذلك وعلى الأمة كافة ، لا عاقب لأمر الله ولا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه » .

ومن الكتّاب البلغاء الذين اتصل عملهم في الدواوين من عهد المنصور حتى هذا العهد يوسف بن صبيح ، وقد عرضنا له آنفاً ، وفي الجهشيارى أن يحيى البرمكي أمره بالكتابة إلى الآفاق بتولية الرشيد^(٣) ، وفي الأوراق للصولي رسالة له عن الفضل بن يحيى في حاجة لشخص إلى أحد العمال ، وهي تجري على هذه الشاكلة^(٤) .

(٢) الطبري ٤٨١/٦ وما بعدها .

(٣) الجهشيارى ص ١٧٥ .

(٤) الأوراق للصولي (قسم الشعراء) ص ١٥٨ .

(١) انظر في اسماعيل الجهشيارى ص ١٥٠ ،

١٦٨ ، ٢٥٧ ، ٢٧٧ ، ٣٠١ وفي مواضع متفرقة .

« فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكى لك بأمره ، لأن الصنعة حرمة المصطنع وسيلة إلى مصطنعه سيما عند من يحسن الصنعة ويستتمها ، مستتبنا للشكر عليها والثناء الجميل بها ، بسط الله بالخير يديك ، ووصل به أسبابك وأعانك عليه وجعلك من أهله . »

ومن الكتاب المفوهين حينئذ محمد بن الليث ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كتب ليحيى بن خالد . . ويعرف بالفقيه وكان بليغا مترسلاً كاتباً فقيها متكلماً بارعاً^(١) . ومن أروع ما أُنثر عنه رسالته^(٢) التى كتبها للرشد إلى قسطنطين السادس إمبراطور بيزنطة ، وهى تمتد إلى نحو سبعين صحيفة ، وفيها يدعو الرشد إلى الإسلام ، وقد أفاض ابن الليث فى وصف رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وما طوى فيها من الهدى للبشر وإنقاذهم من ظلمة الضلال ، كما أفاض فى وحدانية الله ورسالات الأنبياء وهيمنة الإسلام وسلطانه على تلك الرسالات والرسالة أشبه بدفاع قوى عن الإسلام وشريعته ، وكأن ابن الليث استمد فيها كثيراً مما كان يجادل به المتكلمون النصارى وأصحاب الملل والنحل من حوله . وهو تارة يجادل بالمنطق وتارة يجادل بآيات الرسالة الباهرة ، ناقضاً ما يردده الرهبان من أن عيسى ابن الله وما يكررونه من نظرية الأب والابن والروح القدس ، مناقشا فى ثنايا ذلك آيات من الإنجيل ومن العهد القديم ، وملوحاً بما سينزله الرشد فى ديارهم من خراب ودمار ، وأن الروم لو تابعوه لعم مساكينهم وذُرّاعهم وفقراءهم وضعفاءهم من العدل ما يجعلهم يعيشون فى أمن وسلام ، ولذاقوا لذة الخفض ودعة الحال ورفاهية العيش والرخاء ، ولاستقاموا على الشريعة الصحيحة والتوحيد القويم . ويروى الرواة أن جعفر بن يحيى كتب إلى محمد بن الليث يستوصفه الخط ، فكتب إليه رسالة بديعة فى الخط والقلم على هذا النمط^(٣) :

« أما بعد فليكن قلمك بحريّاً ، لا متيناً ولا رقيقاً ما بين الرقة والغلظ ، ضيق الثقب ، وابره برّياً مستويا كمنقار الحمامة ، واعطِفْ بطنه ورققْ شفّته ، وليكن مدادك فارسياً خفيفاً إذا وزنته ، وانقعه ليلة ، ثم صفّه فى

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) انظر فى هذه الرسالة جمهرة رسائل العرب

. ٢٥٢/٢

(٣) العقد الفريد ٤/ ١٩٥ .

الدَّوَاةُ ، وليكن قرطاسك رقيقاً مستوى النَّسْجِ ، تخرج السَّحَاةُ ^(١) مستوية من أحد الطرفين إلى آخره ، فليست تستقيم السطور إلا فيما كان كذلك ، وليكن أكثر تمطيطك في طرف القرطاس الذي في يسارك ، وأقله في الوسط ، ولا تَمُطَّ في الطرف الآخر ، ولا تمط كلمة ثلاثة أحرف ولا أربعة ، ولا تترك الأخرى بغير مَطَّ ، فإنك إذا قرنت القليل كان قبيحاً ، وإذا جمعت الكثير كان سَمِجَماً . ثم ابتدء الألف برأس القلم كله واخْطُطْهُ بعرضه واختمه بأسفله . واكتب الياء والتاء والسين والشين والمطَّة العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ورأس كل مُرْسَلٍ برأس القلم . واكتب الجيم والحاء والحاء والدال والذال والراء والمطة السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسن السفلى من القلم . وامْطُطْ بعرض القلم ، والمط نصف الخط ، ولا يقوى عليه إلا العاقل ، ولا أحسب العاقل يقوى عليه أيضاً إلا بالنظر إلى اليد في استعمالها الحركة ، والسلام .

وإنما نقلنا هذه الرسالة بطولها ، لندل على مدى احتفال الكتاب باختيار الأقلام وبجودة الخط ، حتى تجرى الأقلام في القراطيس جريان نماء ، وحتى يروع الخط برونقه وبهائه ، وحتى الحروف ومطاتها العليا والسفلى ، كل ذلك يُكْتَبَ بقسطاس . ولا بد من أن تكون السطور معتدلة متناسقة ، وقطع القراطيس مقطوعة بانتظام ، حسنة النسج والهندام ، ولا بد للكاتب من أن يراعى مواضع سِنِّ القلم من كتابة الحروف ، ولا بد من أن يراعى التوازن في مدات هذه الحروف ومطاتها . وبأيدي محمد بن الليث وغيره من الكتاب في العصر العباسي تطوَّر الخط العربي وارتقت صناعته رقياً بعيداً ، وهو رقى كان يرافق احتفالهم بألفاظهم وأساليبهم ومعانيهم حتى تصبح الكتابة كأنها وَشْيٌ خالص ، وَشْيٌ في العين ، وَشْيٌ في السمع ، وَشْيٌ في العقل والذهن .

وكان يكتب لجعفر بن يحيى البرمكي أنس بن أبي شيبخ ، وقد سلكه ابن النديم في البلغاء العشرة الأوَّل في العصر ، وفيه يقول الجاحظ : « كان زكياً فهِمَّ نَقْيَ الألفاظ جيد المعاني حسن البلاغة ^(٢) » وعدّه الرشيد شريك جعفر

(١) السحاة : القطعة من القرطاس .

(٢) الجهشباري ص ٢٣٩ .

في إثمه ، فلما قتله أذاقه نفس المصير وصلَّبه . ويُؤثر من تحميداته قوله ^(١) :

« الحمد لله الذى بالقلوب معرفته ، وبالعقول حُجَّتَه ، الذى بعث محمداً صلى الله عليه أميناً فوفَّى له ، ومبدئاً فأدَّى عنه ، فحسبَ به المنكر ، وتألف به المدبر ، وثبت به المستبصر ، إلى أن توفَّاه على منهاج طاعته ، وشريعة دينه ثم أورثكم عهده ، وخصَّكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى » .

والسجع واضح في هذا التحميد ، ولعل في ذلك ما يؤكد من بعض الوجوه ما قلنا من أن البرامكة أشاعوا في كتاب دواوينهم ذوق التسجيع ، وإن لم يطرد في جميع رسائلهم وآثارهم ، لكنه على كل حال أخذ يشيع في كتاباتهم ، وقد عمل في دواوينهم ودواوين الرشيد كثير من الكتَّاب الذين لمعت أسماءهم فيما بعد مثل الفضل بن سهل وأخيه الحسن ومثل سهل بن هرون وعمرو بن مسعدة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا في عهد الرشيد قمامة بن أبي يزيد ، وكان يكتب أولاً لصالح ^(٢) بن علي ، ثم أصبح كاتباً للقاسم ^(٣) بن الرشيد ، ثم اختص بعبد الملك بن صالح والى الرشيد على الجزيرة والشام ومصر . وسعى على عبد الملك إلى الرشيد وثبت كذبه فقتله صبرا سنة ١٧٨ للهجرة . وكان لسنأ فصيحاً بليغاً ، وما أثر له قوله من رسالة وجهها - فيما يبدو - عن عبد الملك بن صالح إلى الرشيد ^(٤) :

« كل ما قبَلنا وما يتناهى إلينا من ثغور أمير المؤمنين وأطرافه وبلاده أقصاها وأدناها في صلاح ذلك كله واستقامته وهدوئه على أفضل ما عود الله أمير المؤمنين فيه العلو والعافية ، وأنا أحتذى فيه من أمير المؤمنين أمرين : إما مقدمة عرفني فيها رأيها فأنا ألزمها ولا أعدل عنها ، وإما أثر قد نهجه أمير المؤمنين فأنا أركبه وأتبعه ولا أفارقه . فعلى هذا - بحول الله - قوتي ومعتمدى ، قد كفى الله به في الهداية ، وأعطى فيه الخير والمن والسعادة ، فله الحمد والشكر » .

ومن عُرِفوا لعصر الرشيد بالكتابة البليغة جعفر بن محمد بن الأشعث ، وكان

(٣) الجهشيارى ص ٢٦٥ .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٣٨ .

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٩١ .

(٢) الجهشيارى ص ٢٦٢ وانظر الفهرست

ص ١٧٣ .

الرشيد جعل ابنه الأمين في حِجْرِهِ ثم جعله في حجر الفضل^(١) بن يحيى البرمكي ، وولاه على خراسان ثم صرفه عنها سنة ١٧٣ للهجرة^(٢) ، وأعله لذلك كله كان يضطغن على يحيى البرمكي ويُرْوَى أن يحيى حاول أن يسند إليه بعض الأعمال فكتب إليه يستعفيه برسالة يقول فيها^(٣) :

« شكري لك على ما أسألك الخروج منه شكر من نال الدخول فيه ، فأما عذري في تطويل الكتاب إليك فلم يذهب . على أن وجوه الحوائج قد يكثر الكلام فيها وتشتد قراءتها ، وإن من الحق على الراغب الاكتفاء ببعض ما بلغ ، وإن نفسي جاشت بعظيم حاجتها » .

ومن الكتاب لعصر الرشيد أيضا عمر بن مهران كاتب^(٤) الخيزران أم الرشيد ، وقد ولاه الرشيد على خراج مصر سنة ١٧٦ للهجرة وكان بعض أهلها قد اعتادوا المَطْل بالخراج وكسره ، فأحضر عمر أشدهم مدافعة وإلطاطا^(٥) فاستمهله مدة ، فأمهله ، ثم طالبه ثانية ، فأقسم عمر أن لا يؤديه إلا ببغداد . وسرعان ما قدم له الخراج فلم يقبله منه ، وحمله إلى بغداد فأدّى الخراج بها ، وخاف الماطلون ، فأدّوا خراجهم ، وكتب عمر مع الرجل إلى الرشيد^(٦) :

« إني دعوت بفلان وطالبته بما عليه من الخراج فلوانى واستنظرنى^(٧) ، فأنظرته ثم دعوته فدافع ومال إلى الإلطاط ، فأليت أن لا يؤديه إلا في بيت المال بمدينة السلام ، وجملة ما عليه كذا وكذا ، وقد أنفذته مع فلان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إليّ بوصوله فعل إن شاء الله » .

ونخرج إلى عصر الأمين ، ويتولى وزارته ورياسة دواوينه للفضل بن الربيع ، ويظل إسماعيل بن صبيح على ديوان الرسائل ، ويروى الطبرى أنه لما عزم الأمين على خلع المأمون أشار عليه إسماعيل أن يكتب إليه بحاجته له للاستعانة برأيه ويسأله القدوم عليه ، فقال الفضل للأمين : القول ما قال يا أمير المؤمنين ، قال

(١) الجهشيارى ص ١٩٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧٢/٢ .

(٣) كتاب الصنائع لابن هلال (طبعة

الخطي) ص ٣٣٨ وانظر الجهشيارى ص ١٧٩ .

(٤) الجهشيارى ص ٢١٨ وانظر النجوم

الزاهرة ٧٨/٢ وما بعدها .

(٥) إلطاطاً : جعوداً وباطلة .

(٦) طبرى ٤٥٩/٦ .

(٧) لوانى : مطلقى . استنظرنى : استمهلى

وأجاني .

الأمين فليكتب بما رأى ، فكتب إليه الرسالة التالية^(١) :

« من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هرون أمير المؤمنين ،
أما بعد فإن أمير المؤمنين روى^(٢) في أمرك والموضع الذي أنت فيه من تَغْرُك
وما يؤمل في قربك من المعاونة والمكانفة^(٣) على ما حمّله الله وقلّده من أمور
عباده وبلاده ، وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية وأمر به
من إقرارك على ما تصيّر إليك منها . ورجّأ أمير المؤمنين أن لا يدخل عليه
وكتّف^(٤) في دينه ، ولا نكث في يمينه إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على
المسلمين نفعه ، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله . وعلم أمير المؤمنين أن
مكانك بالقرب منه أسد للثغور ، وأصلح للجنود ، وأكد للنفسىء ، وأردّ على
العامّة ، من مقامك ببلاد خراسان ، منقطعاً عن أهل بيتك ، متغيباً عن أمير
المؤمنين وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك . فاقدم على أمير المؤمنين
على بركة الله وعونه ، بأبسط أمل ، وأفسح رجاء ، وأحمد عاقبة ، وأنفذ
بصيرة ، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره ، واحتمل عنه النصب
فيما فيه صلاح أهل بيته وذمته ، والسلام .

والرسالة تحمل خصائص إسماعيل وما كان يعنى به في كتابته من إجادة
القول وإتقانه ، وهى إجادة تُردّ إلى دقته في اختيار الألفاظ والصياغات بحيث
تصبح مظهراً للجمال الفنى الأدبى ، وبحيث يجد فيها السامع من لذة الكلام
ما يمتعه ويروعه .

ومن الكتابات البليغة الذين عملوا في دواوين الأمين موسى^(٥) بن عيسى بن
يزدانيروذ ، وقد احتفظ ابن طيفور برسالة له إلى الأمين يتحدث فيها عن موسم
الحج وسلامته ودعته ، وهى تجرى على هذا النمط^(٦) .

« أما بعد فإن الله بحمده ومسّته هو وليّ أمير المؤمنين ووليّ النعمة عليه فيما
حمّله واستحفظه ، وجعله القائم به والمحافظ عليه ، من ولاية دينه ورعاية أهله ،

(٤) وكف : عيب وفساد .

(٥) الجهمشيارى ص ٢٨٩ .

(٦) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٥٠ .

(١) الطبرى ١١/٧ .

(٢) روى : فكر .

(٣) المكانفة : المساعدة .

والمرجو لإتمام ذلك بمنه ورحمته . وإني كتبت إلى أمير المؤمنين يوم التفرغ الأول ، وقد قضى الله مناسكتنا ، وتمم حججنا ، وأرانا في موافقنا وإفاضتنا ومن حضر الحج معنا من رعية أمير المؤمنين أفضل ما لم يزل يُبلى^(١) الله أمير المؤمنين ويعوده ويُبلى الرعية في خلافته من السلامة والعافية والتوفيق والكفاية ، والله المحمود . ولم أر موسماً كان أعم عافية وسلامة ، وأحسن هدًياً ودعة ، وأكثر داعياً لأمر المؤمنين وولىَّ عهده بطول البقاء من موسم الناس في عامهم هذا بنعمة الله وفضله . أحببتُ الكتاب إلى أمير المؤمنين لمعرفة بعنايته وتطلعه إلى عمله ، ليسرَّ به ، ويحمد الله عليه ويشكره ، فإنه يحب الشاكرين .

وسرعان ما يخلف المأمون الأمين ، وفي عصره تبلغ الكتابة الديوانية الذروة المنشودة ، فقد تكاثرت الكتاب البارعون وتكاثرت آثارهم ، واتضح فيها نزعة قوية إلى العناية بالجمال الفني والتدقيق في المعاني أشد التدقيق . وأول من نلقاه من هؤلاء الكتاب البارعين الفضل بن سهل وأخوه الحسن وزير المأمون ، وكان سهل مجوسياً وأسلم على يد يحيى البرمكي وأصبح من أتباعه ، فأحضر له ابنه الفضل والحسن ، فأعجب بهما يحيى وطلب إلى الفضل أن ينقل له كتاباً من الفارسية إلى العربية فأعجب بنقله وجودة عبارته ووصله بابنه جعفر ووصل الحسن بابنه الفضل^(٢) ، ولم يلبث جعفر أن ضمَّ الفضل إلى المأمون ، فأسلم على يديه وغلب عليه بحصافة رأيه وسعة عقله وبلاغته ، حتى إذا أنفذه أبوه إلى مرو أصبح أمر المأمون كله بيده . ولما احتدم النزاع بينه وبين الأمين وخلعه من ولاية العهد قام على تدبير أموره خير قيام ، من تنظيم للجيش بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، ومن حسن سياسة ودقة تصريح لشئون المأمون في ولايته حتى تم له القضاء على أخيه وصارت له الخلافة . وقد عقد له المأمون في سنة ١٩٦ والنزاع بينه وبين أخيه على أشده على الشرق طولا وعرضاً ولقبه ذا الرياستين : رياسة السيف ورياسة القلم والتدبير ، ويظهر أنه كانت فيه ميول شيعة فقد

وفي مواضع متفرقة والفخرى ص ١٦٥ وزهر الآداب ١٤/٢ .

(١) بيل هنا : ينعم ويحسن .
(٢) انظر في ترجمة الفضل بن سهل كتب التاريخ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٢٩

دفع المأمون في سنة ٢٠١ إلى البيعة بولاية العهد من بعده لعلوى كان يعظمه المأمون ويبعله ويتخذة رفيقا ، هو على الرضا ، وكتب بذلك إلى الآفاق . فغضب آله العباسيون ببغداد ، وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة ، فعزم المأمون على المبادرة إلى بغداد ، وفي طريقه إليها قُتل الفضل بسـرّـخـس ، وفنك المأمون بقتلته ، ولم يلبث على الرضا أن توفى بطوس ، وعادت ولاية العهد إلى العباسيين . وتروى للفضل كلمات كثيرة مأثورة ، وما روى له من رسائله الرسالة التالية وقد وجه بها مع جائزة منحها لبعض خاصته ، وفيها يقول^(١) :

« قد وجهت إليك بجائزة لا أعظمها تكثراً ، ولا أقللها نجبراً ، ولا أقطع لك بعدها رجاء ، ولا أستشيك عليها ثناء » .

أما الحسن^(٢) أخوه فقد ولاه المأمون دواوين الخراج في سنة ١٩٦ للهجرة ، وفي سنة ١٩٩ جعله نائبه في بغداد ، فقدم إليها وفرق عُملَّه على البلاد ، ولما مات أخوه الفضل اتخذه وزيراً له بعده ، حتى إذا تزوج ابنته بوران سنة ٢٠٧ طلب منه أن يعتزل الوزارة ، فأعفاه . وظل وافر الحرمة حتى توفي بسـرّـخـس سنة ٢٣٦ للهجرة . وكان لا يقل عن أخيه لسنّاً وبلاغة ، وله رسالة بديعة كتب بها إلى محمد بن سماعه قاضي بغداد في اختيار شخص يتولّى بعض أموره وقد وصف له فيها الحصال التي ينبغي أن يشتمل عليها ، وهي تجرى في هذه الصورة^(٣) :

« أما بعد فإني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لحصال الخير ذي عفة ونزاهة طُعمَة^(٤) ، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظنين في رأيه ، ولا بمطعون في حسبه ، إن أوّمن على الأسرار قام بها ، وإن قلّد مهمّاً من الأمور أجزأ^(٥) فيه ، له سين مع أدب ولسان ، تُقنّعه الرزانة ، ويسكّنه الحلم ، قد فُرّ^(٦) عن ذكاء وفطنة ، وعَضَّ على قارحة^(٧) من الكمال ، تكفيه

(٣) الأمانى للقال ٢٥٣/١ .

(٤) طعمة : مكسب .

(٥) أجزأ : أغنى وكفى .

(٦) فر : اختبر وجرب .

(٧) قارحة هنا : تجربة ناضجة .

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

٣٤٢/١٢ .

(٢) انظر في الحسن كتب التاريخ والفخرى في

الآداب السلطانية ص ١٦٧ والجهشياري

ص ٢٣٠ وفي مواضع متفرقة وزهر الآداب ٢٥/٤ .

اللحظة ، وتُرشد السكنة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها وقام في أمورهم فحُمِدَ فيها . له أناةُ الوزراء ، وصولةُ الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيبَ يومه بحرمان غده ، يكاد يسرقُ قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعا^(١) بما استنهض ، مستقلا^(٢) بما حمل . وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياحه ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتيك .

وتلك الخصال في الواقع كانت حينئذ الخصال المنشودة فيمن يتولون أعمال الدواوين ، وخدمة الوزراء والخلفاء ، وهى ترينا ما كان يُطلَبُ في الكاتب من ثقافة واسعة ومن حصافة وتهذيب في الذوق وحلم وأناة وذكاء وقدرة على تصريف الأمور وإحسان للجواب وللباقة في الخطاب وبلاغة في الكلام بحيث يجذب القلوب والأسماع إليه ، بل بحيث يسرق أفئدة الرجال ويستولى على عقولهم استيلاء .

ومن الكتاب الذين طارت شهرتهم في دواوين المأمون أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة ، وستحدث عنهما في الفصل التالى ، وكان وراءهما كثيرون لم يبلغوا مبلغهما في الشهرة ، منهم محمد بن يزّداد « وكان بليغا مرسلا شاعرا » وله رسائل مجموعة^(٣) ، ومنهم محمد^(٤) بن سعيد ، ومنهم على بن عبيدة الريحاني الكاتب وكان أديبا فصيحاً بليغا صنّف الكتب في الحكم والأمثال واختصّ بالمأمون^(٥) .

وفي مقدمة القواد والولاة الذين اشتهروا بالكتابة البليغة في عصر المأمون طاهر^(٦) بن الحسين ، وهو الذى قاد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين وحاصره ببغداد حتى ظفر به وقتله في سنة ١٩٨ للهجرة . وولاه المأمون خراسان والمشرق سنة ٢٠٥ ولم يلبث أن توفي سنة ٢٠٧ ، وله وصية طويلة كتب بها إلى ابنه عبد الله حين ولّاه المأمون الرقة سنة ٢٠٦ وهى أشبه بدستور للحكم القويم والحاكم الرشيد ، وقد وزعها بين ما يجب على الحاكم في دينه وخلقه وما يجب عليه في

(٥) النجوم الزاهرة ٢٣١/٢ وانظر

الفهرست ص ١٧٣ وزهر الآداب ١٢٢/٢ .

(٦) انظر في طاهر كتب التاريخ ووفيات

الأميين لابن خلكان ٢٩٥/١ .

(١) مضطلعا : ناهضاً .

(٢) مستقلا : محتلا في قوة .

(٣) الفهرست ص ١٧٩ .

(٤) الفهرست ص ١٨٢ .

سيرته مع حاشيته وخاصته ومع الجند والرعية ، استهلها بحديثه عما ينبغي على ابنه من تقوى الله وطاعته والأخذ بسنة رسوله واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، ثم نصحه بالاقتصاد في أموره وعدم الريبة في عمله مع المسألة عن شئونهم ، وأمره بالحياطة للرعية وإقامة حدود الله ، والنظر في استصلاح العامة وعمارة ديارهم وبلادهم وانتظام معاشهم ، كما أمره بتفقد الجند ورواتبهم والعناية بهم وبالقضاء الذى به يستقيم العدل والأمن ، والعناية بالخراج وعدم الشطط في تقديره ، والعناية بأمور الفقراء والمساكين بتعاهد ذوى البؤس منهم واتخاذ دور يأوى إليها فقراؤهم وأطباء يعالجون أسقامهم ، مع العمل بشريعة الله ، ومع تصفح الأعمال والعمّال وما ينبغي أن يكونوا عليه من العون في سياسة أمير المؤمنين ، ومن قوله في تضاعيفها^(١) :

« اعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا ، وإنما سُمي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيّمهم تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفق في قِوام أمرهم وصلاتهم وتقويم أودهم ، فاستعمل عليهم في كُور عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالرياسة والعفاف ووسّع عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسند إليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسُنَ الأحداث في عملك واحترزت النصيحة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الخصب في كُورك ، فكثرت خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك وكنتم محمود السياسة مرضى العدل . . واستعمل الحزم في كل ما أردت ، وباشر بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لعدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فشغللك ذلك حتى تُعرض عنه ،

فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبَدَنك وأحكمت أمور سلطانتك »
 وشاعت هذه الوصية في الناس ، فكتبوها وتدارسوها ، وسمع بها المأمون ،
 فطلبها ، ولما قرأها قال ما أبقي طاهر شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى
 والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة
 إلا وقد أحكمه وأوصى به . وأمر أن تكتب منها نسخٌ وترسل إلى جميع العمال
 في نواحي الأعمال .

وكان ابنه عبد الله^(١) بارع الآداب حسن الشعر ، وقد عُني بتأديبه في
 صغره ، واختلافه إلى حلقات المحدثين والفقهاء ، وكانت فيه نزعة قوية إلى
 الفنون ، فلم يكتف بالشعر ، بل حذق بجانبه الموسيقى ، وروى أبو الفرج أصواتاً
 تؤثر له . وقلده المأمون الأعمال الجليلة ، فجلّى فيها ، وكان أول ما قلّده
 الجزيرة والرقّة ، فقمع المفسدين فيهما ، ثم ولاه مصر سنة إحدى عشرة ومائتين
 فلمّا ما كان بها من شعث ومهتداه ورتب شئونها ، حتى إذا انتظمت أمورها
 غادرها سنة اثنتي عشرة ومائتين مستخلفاً عليها عيسى بن يزيد الجلودى . وتوفى
 أخوه طلحة والى خراسان فولاه المأمون عليها سنة ٢١٣ وظالت له ولايتها حتى
 توفى سنة ٢٣٠ . وكان بجرا فياضاً ، كما كان كاتباً بارعاً ، وله أمان طريف^(٢)
 كتبه في ولايته على الجزيرة لنصر بن شيبث حين ضيَّق عليه وعاذ بالأمان
 وطلبه ، ويقال إنه لم يطلبه إلا بعد أن كتب إليه وقد اعتصم منه بأحد الحصون^(٣)
 « اعتصامك بالقلال^(٤) ، قيّد عزمك عن القتال ، والتجأوك إلى الحصون ،
 ليس ينجيك من المّستون ، ولست بمفلت من أمير المؤمنين فيما فارس مطاعن
 أو راجل مستأمن » . فلما قرأ هذه الرسالة حصّره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث
 أن طلب الأمان وخرج من حصنه إلى عبد الله بن طاهر مستأمنًا صاغراً ، فوجّه
 به إلى بغداد .

ونعنى إلى عصر المعتصم والواثق ، وفيه يتألق في الكتابة البليغة اسم ابن

(٢) تاريخ الطبرى ١٧٣/٧ .

(٣) زهر الآداب ١٢٦/٤ .

(٤) القلال : أعالي الجبل .

(١) انظر في ترجمة عبد الله كتب التاريخ

والنجوم الزاهرة ١٩١/٢ وما بعدها ووفيات

الأعيان ٣٢٧/٣ .

الزيات وزيرهما ، وسنخصه بمحدث مفصل في الفصل التالي ، ومن اشتهر ببلاغته حينئذ إبراهيم بن العباس الصولي ، وقد عمل في دواوين المأمون ووزيره الحسن بن سهل ، وتولى الأهواز حيناً من الزمن وعزله عنها ابن الزيات ، فوجه إليه باستعطافات طريفة ، ونحن نؤخر الحديث عنه إلى العصر العباسي الثاني ، إذ تولى ديوان الرسائل فيه للمتوكل وكتب عنه كثيراً ، مما يجعله أحق بوضعه فيه . وقد تولى ابن الزيات وزارة المعتصم وعلى ديوان الرسائل عبد الله بن الحسن الأصبهاني ويروى صاحب^(١) الأغاني أنه كتب عن المعتصم إلى قائده وواله على أرمينية خالد ابن يزيد بن يزيد :

« إن المعتصم أمير المؤمنين ينفخ منك في غير فسخم ، ويخاطب امرءاً غير ذي فهم » .

فقال محمد بن عبد الملك الزيات : هذا كلام ساقط سخيف جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزق كأنه حمدّاد . وأبطل الكتاب . ثم كتب محمد بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر :

« وأنت تجرى أمرك على الأربع فالأربع ، والأرجح فالأرجح ، لا تسعى بنقصان ، ولا تميل برجحان » فقال عبد الله الأصبهاني : الحمد لله ! قد أظهر من سخافة اللفظ ما دل على رجوعه إلى صناعته من التجارة^(٢) ، بذكره ربح السلع ورجحان الميزان ونقصان الكيل والخسران من رأس المال . فضحك المعتصم وقال : ما أسرع ما انتصف الأصبهاني من محمد ، وحققها عليه ابن الزيات حتى نكبه » .

واستخدم ابن الزيات بعده على ديوان الرسائل الحسن^(٣) بن وهب ، وهو من بيت قديم في الكتابة إذ خدم أجداده في دواوين الأمويين ، جداً بعد جد ، حتى إذا آلت الخلافة إلى العباسيين توالى أجداده يعملون في دواوينهم . وقد كتب جده سعيد وأبوه وهب للبرامكة ، وعمل وهب في دواوين الفضل بن سهل

(٣) انظر في أخبار الحسن بن وهب وترجمته
الفهرست ص ١٧٧ وترجمته أخيه سليمان في ابن
خلكان والأغاني ٦٧/٢٠ .

(١) انظر الأغاني ٤٩/٢٠ .
(٢) يشير إلى حرفة أبيه إذ كان تاجراً
بالكرخ .

وأخيه الحسن وتوفى قبل دخول المأمون بغداد ، وعمل ابنه سليمان في دواوين المأمون . ولا نشك في أن الحسن أخاه هو الآخر اشتغل في تلك الدواوين ، وعرف ابن الزيات حذقه في الكتابة فأسند إليه ديوان الرسائل ، ونهض به خير نهوض ، ويقول ابن النديم : « كان شاعراً مترسلاً فصيحاً وأحد ظرفاء الكتاب ، وله ديوان كتاب رسائله » . وقد عاش شطراً في العصر العباسي الثاني ، ولكنه أبعد عن الديوان منذ نكبة ابن الزيات لأول عصر المتوكل ، ولذلك لم نؤخره إلى هذا العصر ، فنشاطه الكتابي إنما كان في وزارة ابن الزيات وعصر المعتصم والوائق . ومع ذلك ليس بين أيدينا رسائل ديوانية له ، سوى ما تبادلته مع ابن الزيات في المودة والتزاور والشكر ، وهما تارة يتكاتبان شعراً وتارة يتكاتبان نثراً ، وله بجانب ذلك بعض رسائل في التعزية ، ونحن نسوق له رسالة في الشكر لندل بها على مقدار بلاغته وحسن بيانه ، وهي تجري على هذا النمط ^(١) :

« من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أفدته إياها ، فإن شكرى لك على مهجة أحيتها وحشاشة ^(٢) أبقيتها ، ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد يُنْتَهَى إليه ، وسدّى يوقف عنده ، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرف ، خلا هذه النعمة التي قد فاقت الوصف ، وطالت الشكر وتجاوزت كل قدر ، وأنت من وراء كل غاية . رددت عنا كيد العدو ، وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنسف كريم ، فكيف يشكر الشاكر وأنّى يبلغ جهد المجتهد » .

ولم نتحدث حتى الآن عن التوقيعات ، وهي عبارات موجزة بليغة ، تعود ملك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكاواهم ، وحكاياهم خلفاء بني العباس ووزرائهم في هذا الصنيع ، وكانت تشيع في الناس ويكتبها الكتاب ويتحفظونها ، وقد سموها الشكاوى والظلمات بالقصص لما تحكى من قصة الشاكي وظلامته ، وسموها بالرقاع تشبيها لها برقاع الثياب . ودارت في الكتب الأدبية توقيعات كثيرة أثرت لكل خليفة عباسي وكل وزير خطير ، من ذلك توقيع السفاح في كتاب جماعة من

(٢) الحشاشة : بقية الروح .

(١) المقد الفريد ٢٣٣/٤ .

بطانته يشكون احتباس أرزاقهم : « من صبر في الشدة شارك في النعمة ^(١) ،
وتوقيع المنصور على شكوى لأهل الكوفة من عاملهم « كما تكونون يؤمر عليكم ^(٢) »
وتوقيع المهدي لشاعر : « أسرفت في مديحك فقصرنا في حبيائك ^(٣) » وتوقيع
الرشيد على رسالة لوالى خراسان : « داو جرحك لا يتسع ^(٤) » وتوقيع المأمون على
قصة متظلم : « ليس بين الحق والباطل قرابة ^(٥) » .

ولعل وزيراً لم يبرع في التوقيعات براعة جعفر بن يحيى البرمكي « وكان إذا
وقّع نُسِختْ توقيعاته وتدورست بلاغاته » وحكى على بن عيسى بن يزدانيروذ
أنه جلس للمظالم فوقّع في ألف قصة ونيف ، ثم أُخرجت فعمُضت على العمال
والقضاة والكتّاب وكتّاب الدواوين فما وُجد فيها شيء مكرر ولا شيء يخالف
الحق ^(٦) وقال ابن خلدون : « كان جعفر بن يحيى يوقّع في القصص بين يدي
الرشيد ويرى بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها
للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها
بدينار ^(٧) » وما رواه له الجهشيارى من توقيعاته ^(٨) توقيع على رقعة لمحجوس متظلم
من حبسه : « العدوان أَوْبَقَه ، والتوبة تُطْلِقَه » وتوقيع على كتاب لعلى بن عيسى
ابن ماهان يعتذر فيه عن أشياء بلغته عنه : « حَسْبُ إلينا الوفاء الذى أبغضته ،
وبُغْضُ الغدر الذى أحببته ، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها وقد رأيت
عُذراتها ووقعاتها عياناً وإخباراً » . واشتهر الفضل بن سهل ذو الرياستين بتوقيعاته
البليغة المحكمة ، فمن ذلك توقيع على قصة مظلوم « كفى بالله للمظلوم ناصراً ^(٩) »
وتوقيع على كتاب لتميم بن خزيمة بن خازم : « الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها
والصنائع باستدامتها ، وإلى الغاية جرتُ الجواد ، فهناك كشفت الخبرة قناعَ
الشك فحُمد السابق وذُمَّ الساقط ^(١٠) » . وكثيراً ما كانوا يوقعون بآية من
الذكر الحكيم أو بيت من الشعر أو بمثل من الأمثال .

(٦) الجهشيارى ص ٢٠٤ .
(٧) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ .
(٨) الجهشيارى ص ٢٠٥ .
(٩) الجهشيارى ص ٢٠٥ .
(١٠) الجهشيارى ص ٣٠٧ .

(١) المقد الفريد ٢١١/٤ .
(٢) المقد الفريد ٢١٢/٤ .
(٣) المقد الفريد ٢١٣/٤ .
(٤) المقد الفريد ٢١٣/٤ .
(٥) المقد الفريد ٢١٥/٤ .

الرسائل الإخوانية والأدبية

نمت الرسائل الإخوانية في هذا العصر نمواً واسعاً ، ونقصد الرسائل التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف ، ومن تهنئة واستمناح وثناء أو تعزية ، وكانت هذه العواطف تؤدّى في العصر الأموي بالشعر ، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر ، أما في هذا العصر فقد زاحم فيها النثر الشعر بمنكب ضخّم ، وأتاح له ذلك أمران : أولاً ظهور طبقة ممتازة من الكتّاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة ، وخاصة من كان منهم يكتب في الدواوين ، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة وكانوا يُعَسِّنُونَ بتحبير كلامهم وتجويده وحشد كل ما يمكن فيه من عناية فنية ، على نحو ما مر بنا آنفاً . والأمر الثاني مرونة النثر ويُسرّ تعابيره وقدرته على تصوير المعاني بجميع تفاريعها قدرة لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية . وقد طوّع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه ومرئوها على أن تحمل كثيراً من المعاني الجديدة غير المألوفة .

وبذلك كله ثبت النثر للشعر في التعبير عن العواطف التي طالما عبّر عنها ، بل لقد أظهر في ذلك طواعية لعلها لم تكن تتاح حتى لكبار الشعراء ، ومن أجل ذلك رأينا منهم كثيرين يتخذون النثر أداة للتعبير عن مشاعرهم على نحو ما سنرى عند العتّابي وأبي العتاهية ، وكأنهم وجدوا فيه يسراً في التعبير وفسحة لعرض بعض المعاني التي يلمون بها بجميع دقائقها مما لا يستطيع الشعر أدائه .

وتدور في كتب الأدب رسائل إخوانية كثيرة مما دبّجه كتّاب الدواوين والشعراء وغيرهم من الأدباء ، فقد تعاور عليها كثيرون ، وكل منهم يتأق فيما يكتب منها ويحاول الإطراف بمعانيه وصياغاته وما يبت فيها من مهارته الفنية . ومن كان يُعَسِّنُ بها عناية واسعة في أوائل هذا العصر ابن المقفع وسنفر له بعض الصحف في الفصل التالي ، ومنهم محمد بن زياد الحارثي ، وهو أخو يحيى بن

زياد الحارثي رفيق مطيع بن إياس وجليله ، وفيه يقول ابن النديم « شاعر مرسل بليلغ (١) » وله في الشكر (٢) :

« قد يجب على من يتقلب في ظل كرامتك ، ويأوى إلى كنف نعمتك ، أن يقول بما هو أولى ويخبر عما هو به مرتهن من شكر بلائك (٣) ، وحتى نعمتك ، فنحن الذين سبقت نعمتك عليهم ، وعظمت متتك لديهم ، فيما أبلت وأوليت من جميل رأيك ، وحسن أثرك ، بعطفك وتحننك ، واستخلاصك إياه مقةً وأنسا ... في أباد من أباديك عظمت فلا تُجحد ، ونعم من نعمك شهرة فلا تنكر ، ولا يُحصي عددها وإن اجتهدنا في حفظها ، ولا نبليغ في شكرها ، وإن دأبنا في بلوغ تأديته ، فقد اعتقدتها منة علينا ، وبدأ عندنا ، فنحن لك صنيعة ما بقينا وبقي الحسلف منا » .

وكانت ترجمة ابن المقفع للأدب الكبير وما جاء في كتاباته من حديث عن الإخاء والمودة مادة غزيرة للكتاب كي يستمدوا منها كل ما يريدون من تصوير الأخوة الحققة والصداقة الصادقة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه رسالة للجليل بن يزيد إلى بعض إخوانه وهي تجرى على هذا النمط (٤) :

« اعلم أني إليك مشوق وأن صلة الإخوان كرم ، وخير الصلات ما لم يكن لها وجه إلا الرجاء والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ، فإن الذي يكتب لإخوانه على حال الرغبة . . . إن أحب مال به إلى الصحة ، وإن شاء وضعه للرغبة ، والرغبة أملكهما به . والذي يكتب لإخوانه على حال الضرورة فقد يستقطع الصلة عند الحدث مخافة الملامة من الناس على القطيعة الشنعاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذي لا مودة له قد يصل ذلك في تلك القطيعة بأهل البلاء . والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهد على أن ذلك ليس إلا صحة الإخاء والشوق إلى المحادثة بالكتاب حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ولا توضع منك الرغبة في الإطماع . إياك أن تعتل بالأشغال أن كنت في خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصلة الإخوان أعظم الخاصة بك خاصة ،

(٣) البلاء هنا : الإحسان .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/ ١٣٦ .

(١) الفهرست ص ١٧١ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٧٩ .

ولإنما أمرنا في كل هذا كأمرك في الذي تستغنى به من خاصتك تلك التي لنا ، فإن لنا مالك ، وهذه التي لنا لك ، أليس ما سرنا سرّك ، والله يوفقنا وإياك .

وواضح أنه يتسع في تصوير صحة الإخاء ، وهو يجعل المتودّد دين الملحقين في الأخوة أصنافا ، فمنهم من يطلبها للرغبة ، وإخاؤه لذلك مشوب ، ومنهم من يطلبها للضرورة وإخاؤه بذلك موقوت ، بحيث إذا ألمّ بصاحبه مكروه قطعه القطيعة الشنيعة . ويقول إن إخاءه ليس من هذين الضربين المقوقتين ، بل هو إخاء سليم صحيح ، ويدعوه أن لا يعزل بشغل عنه بخاصة نفسه وانصرافه إلى بعض شئونه فالإخاء الصادق أخصّ ما ينبغي له أن يشغل صاحبه ويصرفه عن كل شيء سواه .

وما أكثروا فيه التعازي ، وعادة يتحدثون فيها عن ثواب المنكوب ببعض أهله على حسن صبره وما ينبغي عليه من التسليم لأمر الله والرضا بقضائه ، وقد يعرضون لدم الدنيا وأنها دائماً تكدر الصفاء وتنقص السرور ، ويُرَوّى أن المهدي جزع جزعا شديدا حين ماتت ابنته البانوقة ، فأكثر الناس من تعازيه ، وكان ممن عزاه لإبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي بهذه الرسالة الموجزة^(١) :

« أما بعد فإن أحقّ مَنْ عرف حق الله عليه فيما أخذ منه من عظم حق الله عليه فيما أبقي له . واعلم أن الماضي قبّلك هو الباقي لك ، وأن الباقي بعدك هو المأجور فيك ، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يُعافون منه . »

وكثيراً ما تعاتبوا عتاباً رقيقاً ، وقد يَعتنّفون في عتابهم ، ولكن عنف المتحضر المهذب الذي قد يمسّ ولكنه لا يَخْشِدش ، ومن رسائلهم الطريفة في العتاب التي تدل بوضوح على دقة الحس ورهافة الشعور رسالة يوسف بن صبيح إلى محمد بن زياد الحارثي ، وفيها يقول^(٢) :

« حفظك الله وحاطك ، رأيتك - أكرمك الله - في خسرّجتك هذه رغبت عن مواصلتنا بكتبك ، وإبلاغنا خبرك ، وقطعتنا قطع ذي السلوة أو أخي المسلة^(٣) ،

حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقا، وإلى البعد منا تَوَّاقا ، فوقع بُعْدُكَ بحيث تحبّ من جهتين : إحداها حلاوة الولاية ، والأخرى لذة الراحة منا ، فإن يكن ذلك كما رجّسناه قاطعناك مجملين ، أو لبسناك على يقين . . وما أدرى ما أقول في اختيارك ترك الكتب المحدثّة عن العتّب بالأسرار المفهومة ، حتى كأنها محادثة الحضور ، على تنائي الدور ، والقلوب بها مشاهدة ، وإن كانت الأبدان متباعدة ، ولئن كذب فيك الرجاء ، لقديما عزّ الوفاء ، وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا تقيم بعده على قطيعة ولا جفاء ، ولا تتوهمن أني أردت ، لإعناتك بإعتابي ، ولأن أزرى عليك بكتابي ، فإن وصلت فشكور ، وإن قطعت فمعدور ، والسلام »

وتأنقُ يوسف وتنميقة ودقته في التعبير واضح في تلك الرسالة ، وقد تفنّن الكتاب طويلا حينئذ في صور الاعتذار ، ومن رسالة لمحمد بن الليث في اعتذاره لشخص ظنّ به بعض الظنون الخاطئة دون تبين ولا روية^(١) :

« كيف يسعك أن تأخذني بظن لو كنت فيه على حقيقة علم لما وسعك أخذى ولا عقابي عليه ، ولو كانت العقوبة على الذنب الكامن في سُوءِداء القلب واسعة لك في حكم الربّ لكان فيما حجبت الغيوب عن العمل ما ينتقل في القلوب التي لا تثبت على حال ، إلا ريثما يتبعها انتقال ما يدعوك إلى أن تمسك عني ، وتقف ، حتى تعرف أيمضى رأى أم ينصرف » .

وهو يشير إلى معنى نفسي دقيق ، وهو أن الخواطر التي تلم بالإنسان لا تثبت على حال ، ومن أجل ذلك كان الإنسان ينتقل بين لحظات وخواطر متناقضة ، ولا يصح أخذ الإنسان بخاطر إلا إذا ثبت فيه وعاش طويلا ، فقد يمر به خاطر سريع ويمضى دون أوبة ولا رجعة . ولعل رسالة استعطاف لم تشتهر في هذا العصر كما اشتهرت رسالة إبراهيم^(٢) بن سيّابة الشاعر التي استعطف بها يحيى بن خالد البرمكي ، وكان قد أنكر منه شيئا ، فكتب إليه يرضاه على هذه الشاكلة^(٣) .

١/ ٤٠٥ والوزراء والكتاب للجيشياري ص

٢٠٣ .

(٣) البيان والتبيين ٣/ ٢١٥ .

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/ ١٨٥ .

(٢) انظر ترجمته في الأغاني (طبع

دار الكتب) ١٢/ ٨٨ وانظر البيان والتبيين

« للأصيد^(١) الجواد ، الوارى الزناد^(٢) ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ،
 الأشم^(٣) البازل ، اللباب الحلاحيل^(٤) ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير
 فإني أحمد الله ذا العزة القدير ، إليك وإلى الصغير والكبير ، بالرحمة العامة ،
 والبركة التامة . أما بعد فاغنم واسلم ، واعلم إن كنت تعلم ، أنه من يرحم
 يرحم ، ومن يحرم يحرم ، ومن يحسن يغم ، ومن يصنع المعروف لا يعدم^(٥) ،
 وقد سبق إلى ، تغضبك على ، واطراحك لى ، وغفلتك عنى ، بما لا أقوم ،
 له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد ، فلست بحى صحيح ، ولا بميت مستريح ،
 فسررت بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ، ولذلك قلت :

أسرعتُ بى حثاً إليك خطائى فأنأختُ بمُذنبٍ ذى رجاء^(٦)
 راغبٍ راهبٍ إليك يُرجى منك عفواً عنه وفضلَ عطاء
 ولعمري ما منَ أصرٍّ ومن تا بَ مُقِرّاً بذنبه يسوء

فإن - رأيت - أراك الله ما تحب ، وأبقاك فى خير - أن لا تزهد فيما ترى
 من تضرعى ، وتخشعى ، وتذلى ، وتضعفى ، فإن ذلك ليس منى بنحيزة^(٧) ،
 ولا طبيعة ، ولا على وجه تصيد تصنع ، وتخدع^(٨) ، ولكنه تذلل ، وتخضع ،
 وتضرع من غير ضارع^(٩) ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن
 التضرع له عز ورفعة وشرف »

وما إن تلاها يحيى حتى عفا عن جرمه ، ورضى عنه ووصله . ويقول الجاحظ
 إن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون هذه الرسالة ، إعجاباً ببلاغتها ، وهى بلاغة
 تُردُّ إلى ما أجرى فيها ابن سيابة من هذا السجع الرشيق الذى يدل بوضوح على
 أن العبارات كانت طيبة على لسانه ، بحيث يتصرف فيها كما يريد دون أن

(١) الأصيد : السيد الرافع رأسه أنفة وشما .
 (٢) وارى الزناد : أصله مخرج النار منه ، وهو
 كناية عن مضاء العزيمة .
 (٣) الأشم : الملوأ أنفة .
 (٤) الحلاحيل : السيد الشجاع ذو المروءة .
 (٥) لا يعدم : يريد لا يعدم مكافأته .
 (٦) حثا : مسرعة . خطائى : جمع خطوة
 أنأخت : بركت وأقامت .
 (٧) نحيزة : طبيعة .
 (٨) تخدع : خداع .
 (٩) ضارع : ذليل .

يستعصى عليه منها شيء ، حتى مع ما اختاره لها من ممرّات السجع ودروبه الضيقة .

ومن الشعراء الذين جمعوا بين براعتهم في الشعر والكتابة الإخوانية العتّابي ، وقد ترجمنا له بين شعراء العصر النابيين وكانت قدرته في الكتابة لا تقل عن قدرته في الشعر ، وكان يعمد فيهما جميعاً إلى الإيجاز وأن يروع السامع بمعانيه كما يروعه بأساليبه ، وما يصوّر ذلك في كتابته ما كتب به إلى صديق انتجعه في أيام شحيحة مجدية ، على هذه الشاكلة ^(١) .

« أما بعد أطل الله بقاءك وجعله يمتدُّ بك إلى رضوانه والجنة ، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وكنا نغفينا من النجعة ^(٢) استئاماً لزهرتها ، وشفقة على خضرتها ، وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنةٌ كانت عندى قطعة من سِنِي يوسف ، اشتدَّ علينا كملسها ^(٣) ، وغابت قِطْعَتُها ^(٤) ، وكذبنا غيومها ، وأخلفتنا بروقها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فانتجعتك ^(٥) ، وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك ، مع علمى بأنك موضع الرائد ^(٦) ، وأنتك تُغْطِي عين الحاسد . والله يعلم أنى ما أعدك إلا في حومة ^(٧) الأهل . واعلم أن الكريم إذا استحيى من إعطاء التليل ولم يمكنه الكثير لم يُعرَف جوده ولم تظهر همته ، وأنا أقول في ذلك :

إذا تكرّهتَ من بذل القليل ولم تقدّر على سعةٍ لم يظهر الجودُ
بُثَّ النّوالَ ولا تمنعك قِلَّتُهُ فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

ويقال لاه بلخ من تأثيره في صديقه حين قرأ هذه الرسالة الرقيقة أن شاطره ماله حتى أعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه . وعلى نحو ما كان يقصد في أشعاره إلى المعاني الدقيقة الطريفة يصوغها في مقطوعات قلما تجاوزت بيتين

(٥) انتجعتك : طلبت نائلك ومعرفك .

(٦) الرائد : الذى يتقدم القوم في طلب المشب .

(٧) حومة : موضع .

(١) الأماي ١٣٧/٢ .

(٢) النجعة : الاستعناج ، وأصلها طلب الكاذب .

(٣) كملها : سوماها وقطعها .

(٤) كناية عن الجذب ، فالقطة لا تجذ ما تأكل .

كان يصنع برسائله ، فهو يصوغها غالباً في عبارات قليلة قد لا تتجاوز سطرين أو ثلاثة ، ولكنها مع قلتها حمل من المعاني والصور النادرة ما يجعلها آية من آيات البلاغة العباسية ، فمن ذلك ما كتب به إلى بعض أصحاب السلطان^(١) .

« أما بعد فإن سحائب وعدك قد أبرقت ، فليكن وبْلِئُها^(٢) سالماً من علل المَظَل ، والسلام » .

وهي صورة طريفة عرف كيف يستمها وكيف يرسمها في عبارات موجزة رسماً يبهـر قارئها ويجعله يكرر النظر فيها . ومن ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يسأله مواصلة مودته بعد جفوة حادثة^(٣) :

« لو اعتصم شوقي إليك بمثل سلوك عني لم أبذل وجه الرغبة إليك ، ولم أتجشّم مرارة تماديك ، ولكن استخفّتنا صَبَابَتُنَا ، فاحتملنا قسوتك ، لعظيم قدر مودتِكَ ، وأنت أحق من اقتصّ لصللتنا من جفائه ، واشوقنا من إبطائه » .

واتسع استخدام الكتاب للنثر في كل فنون الشعر ، حتى فن الهجاء ، بل إن بعض الشعراء كانوا يستخدمونه ويؤثرونه أحياناً على الشعر كما رأينا عند العتّابي وابن سيّابة ، وكانوا يسلكون فيما يكتبون أحياناً بعض أبيات الشعر من نظمهم أو نظم سواهم ، وقد ينثرون معناها قبلها ، على نحو ما مرّ بنا آنفاً في رسالة العتّابي . ومن خير ما يصور ذلك رسالة لأبي العتاهية في هجاء الفضل بن معن بن زائدة ، وكان قد استرفده وطلب نواله ببعض شعره ، فردّه ردّاً غير جميل ، مما أغضبه وجعله يكتب إليه بهذه الرسالة^(٤) :

« أما بعد فإني توسلت إليك في طلب نائلك^(٥) بأسباب الأمل وذرائع الحمد فراراً من الفقر ورجاءً للغنى ، فازددتُ بهما بُعداً مما فيه تقربتُ ، وقرباً مما فيه تبعدتُ . وقد قسمت اللائمة^(٦) بيني وبينك ، لأنّي أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعي ، أمّرتُ باليأس من أهل البخل فسألتهم ، ونهيت عن منّع أهل الرغبة ، فنعتهم ، وفي ذلك أقول :

(٤) المقد الفريد ٢٣٦/٤ .

(٥) النائل : الرّفد والعتاء .

(٦) اللائمة : اللوم .

(١) المقد الفريد ٢٥٠/١ .

(٢) الويل : المطر الغزير .

(٣) زهر الآداب ١٢٢/٤ .

فررتُ من الفقر الذى هو مُدركى إلى بُخلٍ محظورِ النَّوالِ مُنوعِ
 فأعقبني الجِرْمَانُ غِبًّا مطامعى كذلك من تلقاه غير قنوعِ
 وغيرُ بديعٍ مُنْعُ ذى البخل ماله كما بذلُ أهلِ الفضل غيرُ بديعِ
 إذا أنت كَشَفْتَ الرجالَ وجدتهم لأعراضهم من حافظٍ ومذيعِ

ومن يقرن هذه الأبيات الأربعة إلى ما قبلها من النثر يجده أشد لذعا ، وأكثر مرونة على أداء الهجاء الذى كان يريده أبو العتاهية ، ومرَّ بنا أن الشعر كان يسيل على لسانه سيلانا لم يعرف لشاعر فى عصره وأنه لم يكن يجد فيه مشقة ولا جهدا ، ومع ذلك فهو لا ينهض عنده بالمعاني العاطفية التى يستطيع النثر أدائها فى يسر وسهولة ، مما يدل دلالة واضحة ، على أنه رقى فى هذا العصر رقيا واسعا ، حتى فى المجال العاطفى الخالص الذى طالما مرنت اللغة على أدائه شعرا ، وهو رقى تتراوح فيه اللذة العقلية بما استنبط الكتاب من دقائق المعانى ، واللذة الشعورية بما استنبطوا من دقائق الأحاسيس والصور وما بثوا فى ألفاظهم من حسن الاختيار للصيغ ومن جمال التقابل بين العبارات والجمل ، حتى ليحاول بعض الكتاب أن يسجع فى كلامه ، حتى يصوغه صياغة موسيقية تامة .

وما أكثر الكتاب من الكتابة فيه الدعوة إلى الزيارة لقضاء بعض الوقت فى اللهو أو فى الشراب أو فى سماع المغنين والقيان أو فى المسامرة المستحبة ، وما يصور ذلك من بعض الوجوه دعوة الحسن بن سهل لبعض أصدقائه كي يصطبج^(١) معه فى يوم دَجَنٍ غامت فيه السماء ولم تمطر^(٢) :

« أما ترى تكافؤَ الطمع واليأس فى يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قولٌ كثيرٌ :

وإنى وتَهَيَّأى بعِزَّةً بعدما تَخَلَّيْتُ مما بيننا وتَخَلَّتْ
 لكالمُرتجى ظلَّ الغمامة كلما تبوَّأَ منها للمَقِيلِ اضمحلَّت^(٣)

(٣) المَقِيل : النوم وقت القيلولة بعد ارتفاع الضحى .

(١) يصطبج : من الصبوح وهو الشرب فى الصباح .

(٢) زهر الآداب ١٤٦/٢ .

وما أصبحت أمنتى إلا في لقائك، فليت حجاب النأي هُتِك بيني وبينك، ورقعتي هذه وقد دارت زُجاجات أوقعت بعقلي ولم تحيِّفه، وبعثت نشاط حركتي للكتاب، فأريك في إمطاري سروراً بشارً خبرك، إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم موفيقاً إن شاء الله .

وعلى نحو ما أكثروا في طلب الزيارة من الكتب والرسائل أكثروا منها أيضاً مع الهدايا التي كانوا يرسلون بها إلى أصدقائهم أو إلى بعض الوزراء وأصحاب السلطان، وكانوا يختارون لها عادة مناسبة مثل عيد من الأعياد أو ختان بعض الأولاد، من ذلك ما يروى من أن يحيى البرمكي عزم على ختان أحد أولاده، فأهدى إليه وجوه الدولة كل منهم بحسب حاله وقدرته، وتظرف بعض من كانوا من أسبابه، للدلالة على قصور همته، فلأ وعاء من أدمٍ مِلْحاً مطيباً ووعاء ثانياً سَعْداً^(١) معطراً وكتب معهما هذه الرقعة^(٢):

« أو تمت الإرادة ، لأسعفت العادة ، ولو ساعدت القدرة ، على بلوغ النعمة ، لتقدمت السابقين إلى خدمتك ، وأتعبت المجتهدين في كرامتك ، لكن قعدت بي القدرة ، عن مساواة أهل النعمة ، وقصرت بي الجِدَّةُ^(٣) عن مباهاة أهل المَكْنَةِ^(٤) ، وخشيت أن تُطَوَّى صحيفة البِرِّ ، وليس لي فيها ذكر ، فأنفذت المُفْتَسِّحَ بِسُوءِ بركته وهو المِلْحُ ، والمُخْتَتَمَ بطبيعته ونظامته وهو السُّعْدُ ، باسطاً يد المَعْدرة ، صابراً على ألم التقصير ، متجعراً غُصَصَ الاقتصار على اليسير ، والقائمُ بعذري في ذلك : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ) . والمُهْندي ضارع في الامتنان عليه بقبول معذرتي ، والإحسان إليه بالإعراض عن جرائته . »

وعرضت الهدية على يحيى ، فلما قرأ الرقعة أمر أن يُفَرَّغَ الإناءان ويملا أحدهما دنانير والآخر دراهم ، إعجاباً بتلطف صاحبهما وبلاغته وحسن بيانه . وكانت أكثر هداياهم طيباً وعطراً وتحفاً ثمينة ، وربما أهدوا السيوف والخيل ، ويروى أن عبد الله بن طاهر أهدى المأمون فرساً وكتب إليه^(٥):

(١) السعد : نبت طيب الرائحة .
(٢) غرر الخصائص الواضحة للوطواط
(٣) الجدة : الغنى .
(٤) المكنة : الاستطاعة والقدرة .
(٥) زهر الآداب ١٧/٢ . ص ٤٤٨ .

« قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرس ، يلحق الأرانب في الصَّعداء^(١) ، ويجاور الطُّبَّاء في الاستواء ، ويسبق في الحُدُور^(٢) جَرَى الماء ، فهو كما قال تأبَّط شَرًّا :

ويسبقُ وفدَ الرِّيحِ من حيثَ يَنْتَحِي بِمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المتداركِ^(٣) »

وأكثرُوا من التهاني مع كل مناسبة ، فهم يهتنون الخلفاء حين جلوسهم على أريكة الخلافة ، وهم يهتنون الوزراء حين استيلائهم على مقاليد الحكم ، وهم يهتنون بالزواج وعقد القران ، وهم يهتنون بإنجاب الأولاد ، وهم يهتنون بحكم الولايات ، وهم يهتنون بنعمة الحج وقضاء مناسكه ، وهم يهتنون بالظفر على الأعداء ، وإبراهيم بن المهدي من رسالة هنا فيها المعتصم بخروجه عن أرض الروم بعد فتحه لعمورية^(٤) :

« الحمد لله الذي تَمَّ لأمر المؤمنين غزوته ، فأذلَّ بها رقاب المشركين وشَقَّى بها صدور قوم مؤمنين ، ثم سهل الله له الأوبَّةَ سالماً غانماً . . . وليَهْنِئْهُ ما كتب الله له مما أحصاه فلا ينساه ، لَسِيقْهُ به موقفاً يرضاه ، فإنه عزَّ وجلَّ يقول : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فَيَسْتَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ حَقَّقًا في التَّوْرَةِ والإنجيل والقرآن ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) . فطوى الله لأمر المؤمنين نازح البُعْدِ بَرًّا وبَحْرًا ، ووقاه وَصَبَ السفر سهلاً ووعراً ، وحاطه بحراسته كالثا ، ودافع عنه بحفظه راعياً ، حتى يودَّ به إلى المحل من داره ، والوطن من قراره ، وجزاه عن الإسلام خاصة ورعيته كافة . »

وعلى هذا النحو لم يترك الكتاب فنا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطبين تارة أخرى ، محاولين بكل ما استطاعوا أن يُظهرُوا القارئ على براعتهم وتفننهم في الأداء ، وقد مضوا مثل الشعراء يعرضون لوصف

بمنخرق: يتمتع . شدة : حدوه ، المتدارك : المتتابع .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٨ / ٤ .

(١) الصَّعداء : الصعود الشاق .

(٢) الحُدُور : الجرى السريع .

(٣) وفد الرِّيح : جماعته ، يتنحى : يقصد .

الطبيعة أحياناً ، ولجلبل بن يزيد رسالة جيدة في وصف الأمطار عقب سنة
مجدبة أهلكت الحرث والضرع حتى استيأس الناس ، وهي تمضي على هذه
الشاكلة (١) :

« عادت لنا من لله عائدة رحمة بيوتى (٢) مطر أنزله الله بأحسن ما رأينا
من المطر ، وإبلا جوداً (٣) ، لا يفتقر غزيره ، ولا يرعوى جوده إلا إلى ديمة (٤)
عن ديمة ، يترأخى إليها يسيراً ريثما تعود ، فأقامت علينا سماؤه مستهله (٥)
بذلك إلى غروب الشمس ، ثم انقطع مطرها بسكون من الريح وفتور من القر (٦)
وفضل من الله عظيم ينشر به رحمته ، ويبسط به رزقه ، فأسبغ النعمة ، وأوسع
البركة ، وأوثق (٧) بحمد الله معارف الخصب . والله محمود على آلائه (٨) ،
مشكور على بلائه (٩) ، وما أنزل من سقياه ورحمته بعد الذى أقبلت به السنة
البرية (١٠) ، والقحط وعدم الأمطار ، وشدة ما بلغ الناس من القنوط (١١) وسوء
الظنون . »

ومررنا في حديثنا عن الشعر أن الشعراء كانوا أحياناً يصفون روعة شعرهم
وقدزتهم على استنباط الدرر والآلى الشعرية ، ومعروف أن من أكثرهم ترديداً
لهذا الوصف أبا تمام ، ونرى صديقه الحسن بن وهب يكتب إليه رسالة بديعة
يجعل موضوعها وصف شعره الرائع الذى كان يخصه أحياناً ببعض منظوماته
مشيداً ببلاغته ، على نحو ما أشاد ببلاغة ابن الزيات في وصفه لقلمه المشهور ،
وكان الحسن بن وهب رأى أن يجاريه في هذا المضمار نراً لا شعراً ، فكتب إليه
هذه الرسالة (١٢) :

« أنت - حفظك الله - تحتذى من البيان في النظام ، مثل ما يقصد
بحر من الدرر في الأفهام ، والفضل لك - أعزك الله - إذ كنت تأتى به في
غاية الاقتدار ، على غاية الاختصار ، في منظوم الأشعار ، فتسحل متعقده ،

(٧) أوثق هنا : أنبت وأعشب .

(٨) الآلاء : النعم .

(٩) البلاء هنا : الإحسان .

(١٠) البرية : المخدبة .

(١١) القنوط : اليأس .

(١٢) زهر الآداب ٢/٤٨٨ .

(١) جبهة رسائل العرب ١٣٧/٣ .

(٢) ول المطر : الذى يسقط دفعة بعد دفعة .

(٣) الجود : المطر الغزير .

(٤) الديمة : المطر المنهمر بدون برق ولا رعد .

(٥) مستهلة : منصبة .

(٦) القر : البرد .

وتربط متشرده ، وتنظم أشطاره ، وتجلو أنواره ، وتفصله في حدوده ، وتخرجه في قيوده . ثم لا تأتي به مهما اقتبسته مُشْتَرَكًا فيلبس ، ولا متعقدا فيطول ، ولا متكلفا فيحول ، فهو كالمعجزة تُضْرَبُ بها الأمثال ، ويُشْرَحُ فيها المقال ، فلا أعدمنا الله هداياك واردة وفرائدك وافدة .

وهذه الرسائل الإخوانية التي كانوا يصورون بها عواطفهم ومشاعرهم من ثناء أو هجاء أو استمناح أو استعطاف أو عتاب أو عزاء أو تهنئة أو تهاد دفعهم تفننهم في بعضها إلى أن يتحولوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة ، وهي التي تناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها وأخلاقها وتوضح لها طريقها إلى الخير ، حتى لا تسقط في مهاوى الشر . ومن خير ما يصور ذلك رسالة يحيى بن زياد التي ردَّ بها على رسالة لابن المقفع طلب إليه فيها أن تنعقد بينهما أسباب الأخوة والوداد ، وهو يستهلها على هذه الشاكلة^(١) :

« أما بعد فإننا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله في تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذي البُعْدَةِ ومشاركته بين ذوى الأرحام في القُرْبَةِ لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نسبته ، فنسبنا الإخاء فوجدناه في نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء ، فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا إلى البرِّ ، فوجدناه محتويا على الكرم والنَّجْدَةِ والصدق والحياء والنَّجَابَةِ والزَّكَاةِ^(٢) وسائر ما لا يأتي عليه العدد من الحماد . ثم انحدرنا فيما أضعدها فيه من هذا النسب ، فعُدْنَا إلى الإخاء ، فوجدناه لا يقوم به إلا مَنْ هذه الخصال كلها أخلاقه . ولما استوجب الإخاء مسالك الحمدة كلها رأينا أن نتخير له المواضع في صواب التروى وإحكام التقدير ، وعلمنا أن الاحتباس به أحسن من الندم بعد بذله ، واستوجب — إذ كان جماع الحماد — أن نتخير له محامله التي يُحْمَلُ عليها ، وكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء على صنفين ، فصنفٌ عذرونا بالتحبس للخير إذ كان التخير من شأنهم ، وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء ، وسرعة في الانتهاء ، فقدَّموا اللأئمة ، واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التَّروِيَةِ ، واستَحْلَوْا عاجل المحبة ،

(٢) الزكاة : صدق الحس .

(١) جمهرة رسائل العرب ٦٧/٣ .

ولموا عن آجل الثقة ، فكانوا بذلك أهل لائمة ، ولم يجد المعذرون^(١) إلا الصبر على تلك والاستعمال للرأى والاستعداد بالعذر عند الحاجة .

وواضح أن يحيى بن زياد لا يتحدث هنا عن إخائه لابن المقفع ووداده له ، إنما يحدث حديثاً عاماً عن الإخاء ، فهو ينظر فيه نظرة عامة ، أو قل ينظر إليه من حيث هو نظرة كلية يرتفع فيها إلى الحديث عن حقيقة المجردة وما ينبغى أن يكتفى له من الوفاء . ويراها يقوم على البر ، ويتغلغل في بحث جوهره ، فيراه يحتوى مجموعة من الخصال النبيلة لا يتم كيانه بدونها وفي مقدمتها الكرم الذى يجعل الأخ يبذل لأخيه ماله ، والنجدة التى تجعل الأخ يبذل لأخيه دمه ، والصدق الذى يدل على صدق القلب وإخلاص السريرة ، والحياء الذى يكف صاحبها عن التناول وسوء الأدب وسورة الغضب ، والنجاسة التى تحوط صاحبها بحسن الرأى وتبين حقيقة الأمر ، والزكاة أو صدق الحس الذى يكتفى لصاحبه صواب القول والرأى . ويقول يحيى بن زياد لما كان يتطلب الإخاء التحلى بجميع الخصال الحميدة كان على كل شخص أن يتأنى في اختيار أخيه وأن يتحسس حتى لا يتورط في الأخ السوء ، وهو ما يأخذ نفسه به . ومن حوله من الناس صنفان : صنف يعذرونه لأنهم ممن يرون رأيه في تخير الإخوان ، وصنف لا يعذرونه لأنهم يتسرعون إلى بذل إخوانهم إلى من يستحقه ومن لا يستحقه ، ولذلك سرعان ما ينتقض إخوانهم وتذوى صداقتهم إذ لا يصيبون بها مواضعها الصحيحة من الإخوان الجديرين بالأخوة .

ومن الرسائل التى نَحَتَ هذا النحو من التجريد والنظر من أعلى إلى الموضوع الذى نتحدث فيه رسالة غَسَّان بن عبد الحميد في العتاب ، وهو يفتتحها على هذه الصورة^(٢) :

« أما بعد فإن الله جعل العباد أطواراً في أخلاقهم ، كما جعلهم أطواراً في صورهم وجعل بينهم أموراً يتألفون عليها ويعملون أحلامهم فيها : من حُرِّمَ يتجاملون بها ، وحقوق يتنازعونها ، ومودة يتعاطونها ، وأخوة يتداولونها تُرعى

(١) المعذر : من له عذر .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ١١٣ .

بوفاء ، وتؤدّي بأمانة ، وتضيّع بتقصير ، وتُنشَقَصُ بخيانة ، ليس مَنْ أُدِّيَتْ لِهْ بِمَا يَحْفَظُ مِنْهَا بِأَسْعَدَ مِنَ الْمُؤَدِّيِّ لَهَا فِيمَا يَأْخُذُ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ لِنَفْسِهِ ، وَلَيْسَ مِنْ ضَيَّعَتْ مِنْهُ بِأَشَقَى مِنْ ضَيَّعَهَا فِيمَا يُدْخِلُ مِنَ التَّقْصِيرِ عَلَيْهِ ، فَإِنْ مِنْ أَخْطَأَهُ الْوَفَاءُ مِنْ أَخِيهِ فَإِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ تَقْصِيرُ غَيْرِهِ ، وَمَنْ ضَيَّعَ الْوَفَاءَ لِإِخْوَانِهِ فَقَدْ أَدْخَلَ النَّقْصَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ ، وَالْمَرْءُ يَجِدُ مِنْ أَخِيهِ إِذَا خَانَهُ بَدَلًا ، وَلَا يَجِدُ عَنْ نَفْسِهِ إِذَا قَصَّرَتْ بِهِ مَتَحَوَّلًا ، وَلَيْسَ نَقْصٌ يَسْتَبْدِلُ بِهِ كِنَقْصٍ لَا يَسْتَطِيعُ مُزَابَلَتَهُ .

وغسان يتحدث عما بين الناس من حُرْمٍ وحقوق ومودة وأخوة ، ويرى أنه لا بد للأخوة من الوفاء الذي يحفظ على الإخوان عهودهم ، ولا بد لها من الأمانة التي تمنع الخيانة بين الإخوان وتحول بينهم وبين القطيعة المردولة ، ولا بد لها من النهوض بجميع متطلباتها من الصيانة والثقة وتوطين النفس على أن لا يقوم هجران بين الأخ وأخيه . ويأخذ غسان في تصوير معنى دقيق غاية الدقة ، وهو أن مَنْ يُوْدِي حقوق الأخوة إلى أخيه لعله أكثر منه سعادة بما يؤدي إليه منها ، وكذلك من يضيع حقوقها لعله أشقى من أخيه الذي يغمه تضييع هذه الحقوق ، لأنه إنما يدخله الغم بتقصير غيره ، أما صاحبه المضيّع لتلك الحقوق فإنه يُدْخِلُ لغم والشقاء والنقص على نفسه بنفسه ، والأول يجد من أخيه إذا خانه عوضًا في أخ آخر صادق ، أما الثاني فإنه لا يخسر شخصًا ولا أحمًا ، إنما يخسر نفسه التي ين جنبيه بما أدخل عليها من كَرْبِ الخيانة ، وليست خسارة يمكن تلافيتها ، لخسارة لا يمكن مزابلتها ، ولا يجد صاحبها عنها حِوَلًا ولا منصرفًا . ويمضي غسان يفصل القول في خيانة الأخ لأخيه وتضييعه لنعمة الوفاء التي أنعم الله بها على عباده ، وما يلبث أن يقول :

« ليس من كانت منه فجعية لأهل الإخاء والحُرْمَةِ الَّذِينَ ارْتَادُوا ارْتِيَادًا واختاروا واختاروا فوق رأيه عليهم ، ووقع رأيهم عليه ، وارتضوه لأنفسهم ، وارتضاهم لنفسه ، واقتصروا عليه بمودتهم ، واقتصر عليهم بمودته ، فحملوه أخوتهم ، وحملهم أخوته ، واسترعوه الوفاء لهم ، حتى ثبَّتَ الله بينهم وبينه ما كان داعيًا لكل رأى جميل ، نافيا لكل صنيع معيب ، وأمرٍ مريب ، فأى

نَقْصٍ أَكْثَرُ وَأَيَّ دَنَاءَةٍ أَبِينِ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَمْرُوهُ بِمَنْزِلَةِ ثِقَةٍ قَدْ حَفِظَتْ مِنْهُ حُرْمَةٌ، وَاعْتَقَدَتْ بِهَا عَلَيْهِ أَمَانَةٌ، فَوَجِبَتْ مِنْهُ مَصَافَاةٌ، وَانْتِظَارُ مَنْزِلَةِ صَلَةٍ، ثُمَّ يَنْكَشِفُ عَنْ خِيَانَةِ وَغْدَرٍ وَقَطِيعَةٍ وَفَجِيعَةٍ؟

وَعَسَانِ يَصُورُ هُنَا مَذْمَةُ قَطِيعَةِ الْإِخْوَانِ، وَيَجْعَلُهَا فَجِيعَةً فَيَمْنِ أَوْثَمَنُ فَخَانَ وَعَاهِدُ فَعْدَرَ، وَأَيُّ غَدْرٍ؟ إِنَّهُ غَدَرَ بِالْحُرْمَةِ الَّتِي قَامَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِ، حُرْمَةِ الْوُدَادِ الصَّادِقِ الَّذِي لَمْ يَحْدُثْ فَجَاءَةٌ، إِنَّمَا حَدَثَ عَنْ طَوْلِ اخْتِيَارٍ وَتَفَقُّدٍ وَتَوَقُّفٍ وَتَثَبُّتٍ، فَإِذَا مَنْ وَثِقَتْ فِيهِ وَمَلَكَتْهُ زِمَامُ نَفْسِكَ قَدْ نَكَثَ كُلَّ عَهْدِهِ، بَلْ قَدْ طَعَنَ الْأَخُوَّةَ الْمَفْقُودَةَ الطَّعْنَةَ الَّتِي لَيْسَ مِنْهَا بَرٌّ وَلَا إِقَالَةٌ. وَأَطَالَ غَسَانُ فِي تَصْوِيرِ وَاقِعَةٍ وَاشْ بِه لِصَدِيقِهِ وَمَا يَرَاهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى صَدِيقِهِ مِنْ حَقُوقِ الْأَخُوَّةِ وَأَنْ لَا يَأْخُذَ بِالظَّنَّةِ وَأَقْوَالِ الْوَشَاةِ الْكَاذِبِينَ. وَالرَّسَالَةُ أَشْبَهَ بِبَحْثٍ وَاسِعٍ فِي وَاجِبَاتِ الْإِخْوَانِ وَحَقُوقِهِمْ.

وعلى هذا النحو أخذ بعض الكتاب ينمّون الرسائل الإخوانية حتى غدّدت رسائل أدبية بديعة، وكان ابن المقفع - كما أسلفنا - قد ترجم عن الفارسية كثيراً من الرسائل الأدبية التي تتصل بالأخلاق وسلوك الناس مع أولى الأمر في الحياة العامة كما تتصل بالسياسة وتبدير الحكم، وأيضاً فإنه ترجم قصص كليلية ودمنة، وكل ذلك أخذ بعض الكتاب يحاكونه، من ذلك ما يذكره ابن النديم عن العتّابي من أن له رسالة في فنون الحكم ورسالة أخرى في الآداب^(١)، ويذكر عن محمد بن الليث الكاتب أنه كتب ليجي البرمكي كتاباً في الأدب^(٢)، وأن لسعيد بن هرون أحد خزنة دار الحكمة للمأمون رسالة في الحكمة ومنافعها^(٣)، وأن للعتيبي المتوفى سنة ٢٢٨ للهجرة كتاباً في الأخلاق^(٤)، ومرو بن أبي علي ابن عبيدة الريماني الكاتب في دواوين المأمون صنف كتباً مختلفة في الحكم والأمثال. وكل هذه الرسائل كان يرادُ بها أن ترشد الناس في حياتهم إلى الخير بما تقدّم لهم من الأمثال وتفصّل من الحكم. وأخذ بعض الكتاب يُعَنِّوْنَ بِالْكِتَابَةِ فِي السِّيَاسَةِ، على هدى ترجمات ابن المقفع فيها، على نحو ما يذكر ابن النديم عن أبي دلف^(٥) العجلي وسهل^(٦) بن هرون، واشتهر سهل بأنه استوحى كليلية

(٤) الفهرست ص ١٧٦.

(٥) الفهرست ص ١٦٩.

(٦) الفهرست ص ١٧٤.

(١) الفهرست ص ١٧٥.

(٢) الفهرست ص ١٧٥.

(٣) الفهرست ص ١٧٤.

ودمنة في كتابة قصص على شاكلتها ، وسنفرد له حديثاً مستقلاً في الفصل
التالى . ويقول ابن النديم عن على بن داود كاتب زبيدة زوج الرشيد إنه « كان
أحد البلغاء ، وكان يَسْلُكُ في تصنيفاته طريقة سهل بن هر ون ، وله من الكتب
كتاب الجرهمية وكتاب الحرة والأمة وكتاب الظُّرَاف^(١) » . وفي اسم الكتاب الأخير
ما يشير إلى أن الكتّاب عرفوا في هذا العصر الرسائل الأدبية التى يقصد بها إلى
التفكهة والترويح عن النفس .

الفصل التاسع

أعلام الكتاب

١

ابن^(١) المقفع

فارسي الأصل، اسمه رُوزْبِيَه بن دَاذُويَه، كان أبوه من قرية إيرانية تسمى جور، نزل البصرة، وظل على دينه مجوسيا مانويا، غير أنه استعرب سريعا، لاختلاطه بمواليه آل الأهمم التميميين، وهم يشتهرون باللسن والفصاحة والخطابة، ولم يلبث أن عمل في دواوين الخراج للحجاج، وظهرت عليه خيانة في أموال الدولة، فضربه الحجاج ضرباً مبرحاً تفقّعت يبيست منه يده، فسمي من حينئذ المقفّع، ولم يسلم، بل مات على دينه، وعليه نشأ ابنه، ويظهر أنه عني عناية شديدة بتأديبه، حتى أتقن اللغتين الفارسية والعربية، وقد مضى يتكسّب بصناعة أبيه، فاشتغل، في دواوين العراق آخر زمن بني أمية، إذ كتب لعمر بن هبيرة وإلى العراق لهشام بن عبد الملك، وكتب لابنه يزيد في ولايته العراق لمروان بن محمد، ولابنه الثاني داود في ولايته على كيرمان بليزان وأفاد منهما أموالا كثيرة. ولما قامت الدولة العباسية كتب لسليمان بن علي عم المنصور وواليه على البصرة، ولأخيه عيسى بن علي وإلى الأهواز وعلى يديه أعلن إسلامه وتكنى بأبي محمد، ويقال إنه حين حاول اعتناق الإسلام طلب إليه عيسى أن

(١) انظر في ترجمة ابن المقفع وأخباره الفهرست ص ١٧٢ والجهشيارى ص ١٠٣، و١٠٩ وفي مواضع متفرقة وأمالى المرتضى ١/ ١٣٤ وثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢ و ٤٧ والبيان والتبيين ١/ ١١٥ وفي مواضع متعددة (انظر الفهرست) والحيوان ١/ ٧٦، و٣٣٠/ ٦ وروج الذهب للمسعودي ٤/ ٢٤٢ وأعجاز القرآن لباقلائي ص ١٨ وزهر الآداب

١٨١/ ١ والأغاني (طبعة السامي) ١٨/ ٢٠٠ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق) ص ٤٠٨ وعزارة الأدب للبغدادى ٣/ ٩٥٠ وتحقيق ما للهند من مقولة (طبعة ليزج) ص ٧٦ ومقدمة كلية ودمنة لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف) وضحي الإسلام لأحمد أمين ١/ ١٩٥ ومن حديث الشعروالنثر لطف حسين (طبع دارالمعارف) ص ٤٦.

يؤجل ذلك إلى الغد حتى يكون إعلان إسلامه في حفل عظيم ، وحدث أن حضر طعام العشاء ، فلاحظ عيسى أنه يأكل ويمزق ، أو بعبارة أخرى يدعو بأدعية الجحوس ، فسأله عيسى : أتصنع ذلك وأنت على نية الإسلام ، فأجاب : كرهت أن أبيت على غير دين . وظل بعد إعلانه الإسلام يعمل في دواوينه .

واتفق أن يخرج عبد الله بن علي عم المنصور وواليه على الشام ، إذ أعلن ثورته عليه ، غير أن جيوش المنصور هزمت ، ففرَّ إلى أخويه سليمان وعيسى ، فطلبه المنصور منهما ، فأبيا أن يسلماه إليه إلا إذا كتب له أماناً ، فقبل ما عرضاه ، وكلفهما كتابته ، فأمر ابن المقفع أن يكتبه ، فكتبه ، وتشدَّد فيه تشدداً أغضب المنصور وأحفظه وملاه موحدة ، إذ طلب إليه أن يكتب في أسفل الأمان هذا التوقيع ^(١) :

« وإن أنا نلتُ عبد الله بن علي أو أحداً من أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلتُ إلى أحدهم ضرراً سيراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل ، فأنا نقيُّ من محمد بن علي ابن عبد الله ، ومولود لغير رِشدة ، وقد حلَّ لجميع أمة محمد خلتني وحدَّ والبراءة مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي وإعانة من ناوأني من جميع الخلق ، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين . وهو متبرئ من التحول والقوة ، ومدَّع إن كان ، أنه كافر بجميع الأديان ، ولقي ربه على غير دين ولا شريعة ، محرَّم المأكَل والمشرب والمناكح والمركب والرقِّ والملئك والملبس على الوجوه والأسباب كلها . وكتبت بخطِّي ، ولا نية لي سواه ، ولا يقبل الله مني إلا إياه ، والوفاء به » .

واحتدم المنصور غيظاً حين قرأ هذا الأمان وسأل عن كاتبه ، فقيل له ابن المقفع كاتب عيسى بن علي عمك ، فقال : أما أحد يكفينيه ؟ وأوعز إلى سفيان بن معاوية المهلبى عامله على البصرة حينئذ أن يقتله ، وتصادف أن كان يضطغن عليه ، فانتهاز فرصة قدومه إليه ذات مرة ، وأمر بـتَشْوِور ، فـقُـلَّ وقوداً

حتى إذا حميت ناره أخذ يقطعه جزءاً جزءاً ويرى بكل جزء في التنور حتى أتى عليه . ويقال إن المنصور إنما أمر بقتله لما ثبت عنده من زندقته وكيدته للإسلام ، ويبدو أن التعليل الأول لمقتله هو الصحيح ، لما صعب في صيغة الأمان على المنصور تصعباً امتنهن فيه كرامته ووطنها بالأقدام ، إذ طلب إليه أن يكتب بخط يده أنه إن غدر بعمه أو بأحد ممن معه فנסأوه طواق وعبيده أحرار ودوابه محرمة عليه والمسلمون في حل من بيعته بل عليهم أن يحاربوه حتى يعطى عن يد وهو صاغر ، وأيضاً فإنه إن فعل يكون كافراً خارجاً من جميع الأديان . فكان طبيعياً أن يثور المنصور لكرامته وأن يوعز إلى سفيان بقتله ، ويقول الجاحظ إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن علي بالمنصور ، ففُظن له وقُتل ، وأغلب الظن أنه لا يريد بإغرائه لعبد الله بن علي سوى صيغة هذا الأمان المشؤم ، واخت الرواة في السنة التي قُتل فيها ، فقليل سنة ١٤٢ وقيل سنة ١٤٣ وقيل سنة ١٤٥ للهجرة .

وليس معنى استظهارنا أن يكون الأمان السالف هو السبب الحقيقي في قتل ابن المقفع أننا ننفي عنه الزندقة ، فقد شهد بها كثيرون من معاصريه ومن جاءوا بعده ، وكان المهدي يقول : « ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع »^(١) ويقول المسعودي : « أمعن المهدي في قتل الملحدين . . لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومريون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره ووجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية »^(٢) ويقال إنه مرَّ بيت نار للمجوس بعد إلامه ، فلما رآه أحسَّ بحنين شديد إلى دينه المانوي القديم ، وأنشد بيتي الأخص :
يا بَيْتَ عاتكة الذي أتعزلُ حذرَ العدا وبك ساءُ
إني لأمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود لأميلُ

وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أنه ظل على اعتقاده المانوي القديم فهو يظهر الإسلام ويضمّر مانويته ، وقد مضى ينقل ديانات قومه المجوسية ومذاهب الملحدين

(٣) أمالي المرتضى ١/١٣٥ .

(١) أمالي المرتضى ١/١٣٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/٢٤٢ .

مثل ابن ديصان ومربيون ، مما جعل العرب يتنبهون إلى غايته من هذا النّقل وما كان يتصل به من ترجمة الحكم الفارسية ، فقالوا إنه إنما كان يريد على الأقل ببعض ترجماته وتصنيفاته معارضة الذكر الحكيم ، وعرض لذلك الباقلاني فقال : « وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة ، وهي كتابان : أحدهما يتضمن حكماً منقولة.. والآخري شيء من الديانات^(١) » وقد ألف القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة كتاباً في نقض زندقته سماه « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله » . وذكر في أوائله أن ابن المقفع وضع كتاباً عاب فيه المرسلين وافتري الكذب على رب العالمين^(٢) ، ولذلك تصدى له يهدم مزاعمه هدماً . وشك أحمد أمين في هذا الكتاب الذي نسب إليه ابن طباطبا إلى ابن المقفع ، ولا ينبغي هذا الشك عنه زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن تلاهم ممن قرؤوا كتاباته ، وكثير منها سقط من يد الزمن .

وكان - مع زندقته - نبيل الخلق وقورا يترفع عن الدنيا ولا يجعل للهوى سلطاناً على عقله ، وكان يأخذ نفسه بكل ما يمكن من خصال المروءة والشعور بالكرامة ، ويقول الجهمشياري إنه « كان سرياً سخياً يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه . . وكان يُجئرى على جماعات من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة إلى الألفين في كل شهر » . وتروى عنه حكايات مأثورة تدل على كرمه الفياض ، كما تروى عنه أخبار تدل على دقة حسه ، من ذلك أن عيسى بن علي دعاه يوماً للغداء فاعتذر بأنه مزكوم ، والزكاة قبيحة الجوار ، مانعة من عشرة الأحرار^(٣) . وكان يلفت معاصريه بأدبه الجم ، فسأله سائل : من أدبك ؟ فقال : نفسي ! إذا رأيت من غيري حسناً أثبته ، وإن رأيت قبيحاً أثبته » . وكان يقدر الأخوة والصداقة حق قدرهما ، وقد بنى عليهما كثيراً من حكمه ونصائحه في الأدبين : الصغير والكبير . وكان ذكياً ذكاء مفرطاً حتى قال ابن سلام : « سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد

(١) إعجاز القرآن (طبع مطبعة الإسلام)

جويني) ص ٨ .

(٢) أمالي المرتضى ١/ ١٣٦ .

ص ١٨ .

(٣) كتاب الرد على الزنديق اللعين (نشر

الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع»^(١) . وكان يرى أن الذكاء لا يعمر القلوب ولا يثمر الثمرة المرجوة بدون العلم ، وإلا كان كالأرض الطيبة الخراب . ولعله لذلك دأب على التشقّف بكل ما استطاع من الآداب الفارسية وما تُرجم إلى لغته من الهندية وكذلك ما ترجم إليها من اليونانية زمن كسرى أنوشروان .

وبذلك كان ابن المقفع يجمع بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وقد نقل إلى العربية عن لغته خير ما عرف من الثقافات الأخيرة ، وكان للثقافة الفارسية الحظ الأكبر ، فقد نقل عنها كما مرّ بنا في غير هذا الموضع كتاباً في تعاليم مزدك وكتاب «خدای نامه» وهو في سير الملوك الإيرانيين ، وعليه اعتمد الفردوسي في نظم «الشاهنامه» وكذلك نقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان . ونقل عنها في أنظمة الملك وتدير السياسة والحكم كتاب «آیین نامه» ورسالة «تنسر» وفي عيون الأخبار منهما ومن كتاب التاج نقول مختلفة . وكان في الفهلوية أدب أخلاقي كثير نما في بلاط الساسانيين ، وكان يُراد به إلى تنقيف الفرس بما يوضح لهم سبل الحياة العامة عن طريق الأمثال وما تُشَفِّعُ به من الحكيم ، ونقل من ذلك ابن المقفع مادة غزيرة في الأدب الصغير والأدب الكبير واليئيمة ورسالة الصحابة . وعمد إلى خير أثر في لغته للهنود وهو كتاب كليلة ودمنة فنقله إلى العربية ، كما نقل عن لغته بعض ما تُرجم إليها عن اليونانية من كتب أرسطو في المقولات والقياس المنطقي .

وما نقله عن أرسطو من لغته مفقود ، ولم يصلنا ما نقله عن الفهلوية من الكتب الخمسة الأولى إلا ما اقتبسه ابن قتيبة مما يتصل ببعض وصايا الفرس السياسية وأنظمتهم في الملك والقضاء وفنون الحرب . ونحن نقف قليلاً عند الأدبين الصغير والكبير واليئيمة ورسالة الصحابة .

والأدب الصغير رسالة قصيرة^(٢) في نحو ثلاثين صحيفة تتضمن طائفة من

محمد كرد علي (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ وما بعدها .

(١) مراتب النحويين لأبي الطيب اللؤلؤ

(طبعة مكتبة نهضة مصر) ص ٢٨ .

(٢) انظر الأدب الصغير في رسائل البلغاء

الوصايا الخلقية والاجتماعية التي ترشد الناس إلى صلاح معاشهم في أنفسهم وفي علاقاتهم بعناصر المجتمع من أهل السلطان ومن الأصدقاء ومن غيرهم ، وزراه يقول في أوائلها : « قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصِقَالُها وتَجْلِيَةُ أَبْصَارِها ، وإِحْيَاءٌ للتفكير ، وإِقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » ومن قوله في تضاعيفها :

« على العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي والزَّلَل في العلم والإغفال في الأمور . إن من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً ، فإذا الصغير كبير ، وإنما هي ثُلَمٌ ^(١) يَشْلُمُها العجز والتضييع ، فإذا لم تُسَدَّ أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق . كلامُ اللبيب وإن كان نَزَرًا أدب عظيم ، ومقارفة ^(٢) المأثم وإن كان محتقراً مصيبة جليلة . لا يَمْنَعُكَ صِغَرُ شأن امرئ من اجتناب ما رأيت من رأيه صواباً ، واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريماً ، فإن اللؤلؤة الفاخرة لا تُهان لهُوانِ غائصها الذي استخرجها . أعدلُ السَّيْرِ أن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يؤتَى إليك . حقٌ على العاقل أن يتخذ مِرْآتينِ فينظر من إحداهما في مساوئ نفسه فيتصاغر بها ، ويصلح ما استطاع منها ، وينظر من الأخرى في محاسن الناس فيحكيهم بها ويأخذ ما استطاع منها . عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هَوًى ، والهوى آفة العفاف . من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه فإنه من خفى عَيْبُهُ عليه خفيت عليه محاسن غيره ، ومن خفى عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف ، ولن ينال محاسن غيره التي لا يبصرها أبداً . لا يَمَّ حسن الكلام إلا بحسن العمل كالمریض الذي قد علم دواء نفسه ، فإذا هو لم يتداو به لم يُغْنِهِ علمه . والرجل ذو المروءة قد يُكْرَم على غير مال كالأسد الذي يهاب وإن كان عَقِيرًا ^(٣) ، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكلب الذي يهون على الناس وإن طُوقَ وَخُلِخِلَ ^(٤) . »

وأكثرُ وصايا الأدب الصغير على هذا النحو من القِصَرِ وقِلْمِ الطَّرْدِ فيها

(١) ثلم : جمع ثلثة وهي الخلل .

(٢) مقارفة : ارتكاب .

(٣) عقيراً : جريحاً .

(٤) خلخل : وضع في رجله خلخال .

السياق . أما الأدب^(١) الكبير فرسالة* أكثر طولا إذ تمتد إلى نحو مائة صحيفة ، موزعة بين موضوعين كبيرين ، هما السلطان وما يتصل به من السياسة والحكم ، والصدقة وما يتصل بها من صفات الصديق الصالح : ونراه يصرح في تقديمه لهذه الرسالة بما صرّح به في أوائل الأدب الصغير من أنه يفيد في وصاياها من أقوال الأسلاف القدماء ، إذ يقول : « منتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم وغاية إحسان محسنا أن يقتدى بسيرتهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم ، فيكون كأنه إياهم يحاور ومنهم يستمع ... ولم نجدهم غادروا شيئا يجد واصف بليغ في صفة له مقالا لم يسبقوه إليه » . ويشير مع ذلك إلى أنه بقيت في وجوه الأدب وضروب الأخلاق أشياء من لطائف الأمور تشتقها الفطن السليمة من حكم الأولين وأقوالهم ، وأنه سيضمن كتابه أو رسالته منها أطرافا . ومعنى ذلك أن وصايا الرسالة إما تنقل عن القدماء ممّا قرأه في الأدب الساساني السياسي والأخلاقي ، وإما استنباطات وصل إليها على هديهم ، وهو يستهل رسالته بالحديث عن أصول الأدب ويريد به التهذيب الخلقى والاجتماعى والسياسى ، ثم يورد بعض الوصايا من يتقصد شيئا من أمور السلطان وينصحه فيما يتولاه أن يرضى ربه ومن فوقه من أصحاب السلطان ومن تحته من صالحى الرعية ، ويقول له : لا تلتمس رضا الناس جميعا ، لأن ذلك شيء لا يدرك ، إذ بينهم من رضا الجور ومن رضا الضلالة ، فيكفيك رضا الأخيار منهم والعقلاء ، ومن طريف ما يوصيه به قوله :

« لا تتركن مباشرة جسيم أمرك ، فيعود شأنك صغيرا ، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعا ، واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم . . وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما ، وأنه ليس إلى أدائها سبيل مع حاجة جسديك إلى نصيبه من الدعة فأحسن قسمتهما^(٢) بين دعتك وعملك ، واعلم أنك ما شغلت من رأيك في غير المهم أزرى بالمهم . . وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة . واعلم أن من

(٢) قسمتهما : أى قسمة الليل والنهار .
العصر العباسى الاول

(١) انظر في رسائل البلغاء ص ٣٩ وما بعدها .

الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح^(١) والتعطيب في غير مَنْ أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يهيم بعقوبته ، وشدة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك . ثم يبلغ به الرضا إذا رضى أن يتبرع بالأمر ذى الخطر^(٢) لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن يريد إعطاءه ويكرم من لا حق له ولا مودة فاحذر هذا الباب الحذر كله .

ويسترسل ابن المقفع في مثل هذه الوصايا للوالى ، ويتحدث عن صحبة السلطان وواجباتها وآدابها وكذلك صحبة الولاة والحكّام ، ثم ينتقل إلى الصديق والصدّاقة ، ويصور الخلال التى ينبغى أن يتصف بها فى رأيه الصديق الحق حتى ليرى من واجب الصديق على الصديق أن يبذل له ماله ودمه وأن يلقاه بالتواضع والحياء وأن يمدّ له يَدَ العَوْنِ فى الشدة . ويستطرد إلى الحديث عن جار السوء وعشير السوء وجليس السوء ، كما يستطرد إلى الحديث عن العدو وما ينبغى من استعمال الدهاء معه والعمل على القضاء عليه أو اجتنابه والبعد عنه ، ويُفيض فى الأخلاق الحميدة والأخلاق السيئة التى تنفّر الناس من صاحبها فضلا عن الصديق ، وما يسوقه فى الطرفين قوله :

« انظُرْ مَنْ صاحبتَ من الناس من ذى فَضْلٍ عليك بسلطان أو منزلة ومَنْ دون ذلك من الخُلصاء والأكفاء والإخوان فَوَطَّنْ نفسك فى صحبته على أن تقبل منه العَفْوَ ، وتسخو نفسك عما اعتاص عليك مما قبلكه غير معاتب ولا مستبطن ولا مستزید ، فإن المعاتبة مقطعة للود ، وإن الاستزادة من الجشع ، وإن الرضا بالعفو والمسامحة فى الخلق مقرب لك كلَّ ما تنوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة . . ولا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأى ، ولا تجترئن على تقيعه وتبكيته بظفرك إذا استبان وحجّتك إذا وضحت . وتعلّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضى حديثه ، وقلة التلفت إلى الجواب ، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم ، والوعى لما يقول . . واعلم أن المستشار ليس بكفيل وأن الرأى ليس بمضمون ، بل

الرأى كله غرر^(١) ، لأن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة ، ولأنه ليس شيء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز ، بل ربما أعينى الخزمة^(٢) ما أمكن العجزة ، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل ، فلا تجعل ذلك عليه لوما وعدّلاً بأن تقول: أنت فعلت هذا بي ، وأنت أمرتني ، ولولا أنت لم أفعل ، ولا جرم لا أطيعك في شيء بعدها ، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة . وإن كنت أنت المشير ، فعمل برأيك أو تركه فبدا صوابك فلا تمنّ ولا تكثرن ذكره إن كان فيه نجاح ، ولا تلمّسه عليه إن كان استبان في تركه ضرراً بأن تقول : ألم أقل ، ألم أفعل ، فإن هذا مجانب لأدب الحكماء .. واعلم أن من تنكّب الأمور ما يسمى حذراً ، ومنه ما يسمى خوراً فإن استطعت أن يكون تجنبك من الأمر قبل مواقفتك إياه فافعل ، فإن ذلك هو الحذر ، ولا تنغمس فيه ثم تهيبه ، فإن ذلك هو الخور ، وإن الحكيم لا يخوض نهراً ، حتى يعلم مقدار قعره .

وردّد محمد كرد على في نشرته للأدب الكبير بكتابه رسائل البلغاء بين هذا العنوان وعنوان ثان هو الدرة اليتيمة ، وهما كتابان لا كتاب واحد ، كما يشهد بذلك كلام الباقلاني عن اليتيمة الذي سبق أن نقلناه عنه ، وفيه أنها قسمان قسم في الحكم المنقولة ، وقسم في شيء من الديانات ، وليس في الأدب الكبير حديث عن الديانات ، إنما هو حديث كما رأينا عن السلطان والصدقة . وما يقطع بأن الدرة اليتيمة ليست هي الأدب الكبير أن ابن طيفور احتفظ في كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بقطعة طويلة لا توجد في الأدب الكبير ، ونرى ابن المقفع يذكر فيها أن الناس قد سألوه أسئلة ، وأنه سيجيبهم عما سألو ، واحتفظت القطعة بالسؤال الأول ، وهو يدور على الزمان ، وقد أجابهم بأن الزمان الناس ، وهم رجلان ، وال مولى عليه . وقسم الأزمنة على أساس الوالى والرعية أربعة أقسام : قسم هو خير الأزمنة لصلاح الحاكم والمحكومين ، وقسم ثان يليه وفيه يصلح الحاكم ويفسد المحكومون ، وقسم ثالث يصلح فيه المحكومون ويفسد الحاكم ،

وقسم رابع هو شر الأزمنة لفساد الحاكم والمحكومين جميعاً ، وفي الأول يقول (١) :

« خيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعى والرعية ، فكان الإمام مؤدياً إلى الرعية حقهم : في الرد عنهم والغيط على عدوهم ، والجهاد من وراء بيئتهم (٢) والاختيار لحكّامهم ، وتولية صلحائهم ، والتوسعة عليهم في معاشهم ، وإفاضة الأمن فيهم ، والمتابعة في الحق لهم ، والعدل في القسمة بينهم ، والتقويم لأودهم (٣) والأخذ لهم بحقوق الله عز وجل عليهم . وكانت الرعية مؤدية إلى الإمام حقه في المودة والمناصحة والمخالطة وترك المنازعة في أمره ، والصبر عند مكروه طاعته ، والمعونة على أنفسهم ، والشدة على من أخلّ بحقه وخالف أمره ، غير مؤثرين في ذلك آباءهم ولا أبناءهم ، ولا لابسين (٤) عليه أحداً . فإذا اجتمع ذلك في الإمام والرعية تمّ صلاح الزمان ، وبنعمة الله تمّ الصالحات »

ويظهر أن الأسئلة الأولى في الرسالة كانت تخوض في السياسة ، وتلنها أسئلة كانت تخوض في شئون الديانات ، ولعل ذلك هو الذى جعل الدرة اليتيمة تسقط من يد الزمن ، وكأن الناس تحاموا تداولها . أما رسالة الصحابة (٥) فهي في صحابة السلطان وبطانته ومن يستعين بهم في حكمه من جنده وما ينبغي له في سياسته إزاء رعيته ، كتب بها إلى المنصور ، وكأنه يضع له دستوراً للحكم ، وقد استهلّها بمدحه وبيان فضله على خلفاء بنى أمية وما تحلّى به من تشجيع ذوى النصح والرأى على الإدلاء بنصائحهم وآرائهم فيما يعود على الأمة بالنفع والخير . ثم أخذ في تصوير الدستور الذى يريد من المنصور اتباعه في حكمه ، واصفاً حسن سياسته ، إذ اقتلع الولاة والأعوان المفسدين ، واجتمعت حوله قابو الرعية لما اشتمل عليه من حسن العفو واللين . ولم يلبث أن تحدث عن الجند ، ومعلوم أن الجند حينئذ كانوا خراسانيين في جمهورهم ، ومن ثمّ أخذ يشيد بجند خراسان وأنه لم يدرك مثلهم في الإسلام لما امتازوا به من الطاعة والفضل والعفاف والكف عن الفساد والإعطاء عن يد الولاة والحكام ، ومن أجل ذلك كانت تجب العناية

(٤) لابسين هنا : مقدسين ، وأصل لبس

القوم التمل بهم زمناً .

(٥) انظر في هذه الرسالة رسائل البلغاء ص

١١٧ رجهرة رسائل العرب ٢٥/٣ .

(١) جبهة رسائل العرب ٤٩/٣ .

(٢) البضة : حوزة كل شيء وساحة ، القوم

والمراد بلدهم .

(٣) الأود : الاعوجاج .

بهم بوضع قانون لهم ، يوضح في دقة واجباتهم وما ينبغي أن يفعلوه وما ينبغي أن يذروه ويتجنبوه ، وأن مثلهم مثل الخليفة ينبغي أن يطيعوا الدين وأوامره ونواهيه ، كما يطيعون الخليفة في الأحداث المتجددة من إعلان حرب أو مهادنة أو تنظيم أمور حادثة . وما يُنظرُ فيه لصالح الجند أن لا يؤلَّى أحد منهم على شيء من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، إذ يخرجهم عن وظيفتهم الحربية ، ويشغلهم بأمور المال والاراهم والدنانير . ولفت المنصور إلى أن من عاينهم من هم خير من قادتهم . ولذلك ينبغي أن يعيد النظر فيمن جعلهم منهم قادة ، فإرد بعضهم عن القيادة ويوليها الكفاء المجهول من الجند . وطلب إليه أن يُعنى بتعليمهم القرآن والتفقه في السنة وأن يتحلوا بالأخلاق الفاضلة من الأمانة والعفاف والتواضع والبعد عن الهوى وأن يجتنبوا الترف في المطعم والملبس ، كما طلب إليه تعيين مواقيت محددة لأرزاقهم ورواتبهم وأن يتفصَّى أحوالهم بثقات لا يكتُمون عنه منها شيئاً . وانتقل ابن المقفع من الجند إلى أهل العراق عامة وأهل البصرة والكوفة خاصة ، لأنهم شيعة العباسيين . وتحدث عن تفوق أهل العراق على غيرهم في الفقه والعفاف والعقول والفصاحة ، وهم لذلك خير من يستعين بهم المنصور في دولته ، وكان الأمويون قد حرّموا من تدبير الحكم مع أنهم أهلهم ومستحقوه . وأوصاه - كما أوصاه في الجند - أن يتبع خيارهم من المجاهيل عنده ، فيسند إليهم شئون الدولة ، ويرد عنها من وقع فيهم الخطأ ومن اختبروا دون تثبيت وفحص كاف . وسرعان ما يعرض لفوضى القضاء الناشئة عن كثرة الاختلافات بين الفقهاء ، حتى ليُحكَم في القضية الواحدة بحكمين مختلفين أو أحكام مختلفة لا في البلاد المتباعدة بل في البلد الواحد ، واقترح لدَرء هذه الفوضى أن يضع المنصور قانوناً يلتزمه القضاء على اختلاف منازعهم الفقهية ، سواء أكانوا ممن يقدّمون الرأي ويعتدّون به أو كانوا ممن يقدمون السنة ويعتدّون بها ، ويسخر من الأخيرين ، إذ تبادوا في الأخذ عن التابعين وخلفاء بني أمية مسمّين ذلك سُنّةً ، مما دفع إلى هذا الاضطراب الواسع في الأقضية ، يقول :

« وما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين (البصرة والكوفة) وغيرها من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها

أمرًا عظيمًا في الدماء والفروج والأموال ، فَيُسْتَحَلُّ الدَّمُ والفَرْجُ بالحِيرة ، وهما يحرمَان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة ، فَيُسْتَحَلُّ في ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى . غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحُرْمَتهم ، يقضى به قضاة جائر أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس ممن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لجَّ بهم العجب مما في أيديهم والاستخفاف بمن سواهم ، فأقحمهم ذلك في الأمور التي يتبيخ^(١) بها من سمعها من ذوى الألباب . أما من يدعى لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنة ، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذى يزعم أنه سنة ، وإذا سُئِلَ عن ذلك لم يستطع أن يقول : هُرِيق^(٢) فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده ، وإذا قيل له : أى دم سفك على هذه السنة التي تزعمون ؟ قالوا : فعل ذلك عبد الملك ابن مروان أو أمير من بعض أوائك الأمراء . وربما يأخذ بالرأى ، فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولاً ، لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه ، وهو مقررٌ بأنه رأى منه ، لا يحتاج بكتاب ولا سنة . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه القضية والسنن المختلفة فترفع إليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتاج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأيه الذى يُلهمه الله ، ويعزم عليه عزمًا ، وينتهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابًا جامعًا لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكمًا واحدًا صوابًا ، ورجونا أن يكون اجتماع السنن قرينةً لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آخر الدهر ، إن شاء الله .

ومضى ابن المقفع يذكر أن اختلاف الأحكام إذا كان يرجع إلى سنن مأثورة غير مجمع عليها فينبغى الأخذ بما هو أشبه بالعدل ، وإذا كان يرجع إلى استخدام الرأى والقياس ، فإن القياس قد يخطئ ، وليس المدار على القياس في حد ذاته ،

(١) يتبيخ : يهيج .

(٢) هريق : لغة في أريق .

وإنما المدار على ما يقود إليه فإن قاد إلى حسن أخذ به وإن قاد إلى قبيح ترك ، إذ المراد ليس عين القياس ، وإنما المراد إحقاق الحق لأهله . ولعل هذه الدعوة إلى إصلاح التشريع وجمع السنن والأحكام والأقضية ووضع قانون عام للقضاء هي التي دفعت المنصور ليطلب إلى مالك أن يؤلف في الفقه كتابه « الموطأ » وقد قال له : إني أريد أن ترسل لي به لأكتب منه نسخاً يرجع إليها الناس في الأمصار ، غير أن مالكاً لم يرتض الفكرة ، لأن المسلمين في كل بلد رويوا من السنة النبوية ما دانوا به ، غير أنه ألف « الموطأ » وذاعت أحكامه الفقهية في الحجاز ، وفي كثير من الأمصار وخاصة في مصر والمغرب والأندلس . ويدعو ابن المقفع بعد ذلك المنصور إلى العطف على أهل الشام مع ما يكتونه للدولة من عداوة ، لسلبها السلطان منهم ، وأن يصطنع خيارهم ، فيتبعهم في محبة الدولة غيرهم ، وتأخذ دائرة هذه المحبة في الاتساع . ويطلب إليه أن يرد عليهم فيسيئهم ، حتى يذعنوا للدولة عن رضا ، وحتى تهدأ نفوسهم فلا تكون منهم وثبات ولا ثورات . ويتحول ابن المقفع إلى بطانة الخليفة ورجال دولته ويطلب إليه أن يعيد النظر فيهم ، فإن بينهم كثيرين ليسوا بذوى بلاء ولا فيهم غناء ، بل بينهم من اشتهروا بالفجور والأعمال القبيحة ، مع أن منهم من يصرف أمور الدولة ومن يعمل في دواوينها . وحرى بالخليفة أن يجعل أساس اختياره لحاشيته الأمانة ، والعدالة وجودة الرأي وأن لا يقرب منه إلا من صنع مكرمة عظيمة أو أبلى بلاء حسناً ، أو عُرِف بأصالة رأيه وحصافته أو كان عالماً ينتفع الناس بعلمه ، وعليه أن يجعل لكل منهم اختصاصاً في عمله لا يتعداه . ونصحه بأن يستخدم أهل بيته ويُسند إليهم جسام الأمور والأعمال . ثم وقف عند الخراج أو بعبارة أخرى الضرائب المفروضة على الأراضى والضيايع في الدولة ، ولفت المنصور إلى ما فيها من فوضى ، إذ ليست هناك قواعد مقررة ، وكل عامل يفرض الضريبة حسب مشيئته ، ودعاه إلى وضع وظائف ثابتة على كل أرض وكل ضيعة ، وبذلك يقف ظلم العمال ويأمن الزراع على عمارة ضيايعهم وأراضيتهم ، كما دعاه إلى تخير عمال الخراج وتفقدهم واستبدال من تظهر عليه خيانة . وتحدث عن أهل الجزيرة العربية من الحجاز واليمن ومن وراءهم من البدو ، وطلب إلى

المنصور أن تسخو نفسه عن أموالهم من الصدقات وغيرها مما يُجسبى منهم، وكأنه نظر في ذلك إلى فقر بلادهم وجدبها وأنهم كانوا مادة الإسلام والفتوح . ودعاه إلى أن يولى عليهم الحيار من أهل بيته . وطلب إليه أخيراً أن يعين في الأمصار طائفة من الفقهاء والمحدثين النابضين تكون مهمتهم تأديب العامة وتبصيرها الخطأ ومنعها من البدع والفتن ، وبذلك رشح ابن المقفع لقيام وظيفة المحتسب في الدولة العباسية ، وكان يُعهدُ إليه بمراقبة الأسواق والحكم فيما ينشأ فيها من منازعات وجنايات وما يكون من خطأ في البيع والشراء أو نقص في المكايل والموازين .

وقد يكون ابن المقفع تأثر في هذه الرسالة ببعض أنظمة الحكم الساسانية وبما سمعه عن قانون جوستينيان الروماني ولكن من المحقق أنه صدّر فيها عن فطنة وقوة ملاحظة لأحوال الدولة الإسلامية في عصره وما حذقه من شئون السيادة التي استوحاها مما قرأه عند الأوائل . ودائماً لا نستطيع أن نُخلّيه في كتاباته من التأثير بالثقافات الأجنبية إذ كان أكبر من اطلعوا عليها في عصره ، وكان ذهنه من الحصب ، بحيث يستنبط كثيراً من الآراء والأفكار وخاصة ما يتصل بالإصلاح الاجتماعي والسياسي . ولعل هذا الإصلاح الذي كان ينشده للدولة العباسية هو الذي دفعه إلى ترجمة القصص الخيالي الهندي ، أو بعبارة أخرى ترجمة كليلة ودمنة ، ويقال إنها نُقلت في عهد كسرى أنو شروان من الهندية إلى الفهلوية ، وقد عثر الباحثون على بعض أصولها الهندية ، من مثل « بَشَج تانثرا » ومثل « هتو بادشا » ووجدوا منها بعض أصول في « المهابهارتا » مما يؤكد أنها هندية الأصول ، بل يثبتها إثباتاً قاطعاً^(١) . ورجَّح كثير من الباحثين أن ابن المقفع زاد في الكتاب بعض الفصول والقصص ، ولكن ربما زاد ذلك بعض من جاء بعده ، إذ تُرجم الكتاب مراراً ، شعراً ونثراً ، وأكبر الظن أن ابن المقفع لم يزد إلا الفصل الذي وضعه بين يدي القصص وسماه « عرض الكتاب » وذكر البيروني قديماً أنه زاد أيضاً باب برزويه « قاصدا تشكيك ضعفي العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنائية ، وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل^(٢) »

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٨٦ .

(١) مقلسة كلية ودمنة (طبع دارالمعارف)

ص ٣٥ وما بعدها .

غير أن أبحاث المحدثين أثبتت أن هذا الفصل كان موجوداً في الأصل الفارسي ، مما يجعلنا نظن أن أصحاب الدعوة المانوية من الفرس استغلوا الكتاب قبل نقله إلى العربية في الدعوة لمذهبهم المانوي .

ومثّلُ ابن المقفع في ترجمة هذا الكتاب مشكّلهُ في ترجمة الحكم والآداب الفارسية السياسية والاجتماعية والحلقية يصبُّ في دقة المعنى الذي يترجمه في القوالب العربية التي تلائمه وتلائم الذوق العربي ، بحيث خُيِّل إلى كثير من القراء أن كل تلك الترجمات من تأليفه وتصنيفه ، إذ لم يجدوا أى فارق في الصياغة بين ما يترجمه وينشئه . وحقّاً حمل عليه الجاحظ في ترجمته لمنطق أرسطو ، إذ لاحظ في ألفاظه قصوراً أحياناً عن أداء المعاني المنطقية^(١) ، وهو قصور منشؤه صعوبة أداء هذه المعاني لأول مرة في العربية ، ومهما يكن فله فضل الرائد . وهو إن فاته التوفيق في نقل المنطق الأرسططاليسى فإنه لم يفته في بقية ترجماته ، وأمامنا كليله ودمنة التي لا تُعَدُّ آية من آيات بلاغته فحسب ، بل تعد آية من آيات البلاغة العباسية على الإطلاق . وفي رأينا أن غَضَّ الجاحظ من ترجمته لمنطق أرسطو هو الذي دفع طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر » إلى التشكك في قدرته على أداء المعاني الدقيقة العميقة حتى ليقول عنه : « له عبارات من أجود ما تقرأ في العربية وبزوع خاص في الأدب الكبير وفي كليله ودمنة ، ولكنه عند ما يتناول المعاني الضيقة التي تحتاج إلى الدقة في التعبير يضعف ، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة »^(٢) ويبلغ من إزرائته عليه أن يقول إنه « كان مستشرقاً كغيره من المستشرقين يحسن اللغة العربية فهماً ، وربما أعياء الأداء فيها » ويستشهد لذلك بأمثلة من رسالة الصحابة والأدب الكبير ، كل ما يلاحظُ عليها اضطرابٌ في بعض الضمائر ، وكأنه نسي أن الرسالتين تداولتهما أيدي النساخ بعد ابن المقفع وأنه ربما دخلها هذا الارتباك من أيديهم . والحق أنه أسرف في إزرائته عليه وفي عده مستشرقاً كالمستشرقين الغربيين في عصرنا ، فهؤلاء لا ينشأون في بيئات عربية كميّنة البصرة التي نشأ فيها ابن المقفع ، وهم لا ينقلون إلى العربية آثار قومهم الأدبية على نحو ما كان ينقل ابن المقفع عن

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ٤٨ وما بعدها

(١) الحيوان ١/٧٦ .

الفارسية ، ثم هم لم يوظّفوا في الدواوين العربية ولم يعملوا فيها كتباً يكتبون الرسائل السياسية الرسمية ، على نحو ما وُظّف ابن المقفع . ولم يكن كاتباً فحسب بل كان أيضاً يحسن صوغ الشعر العربي ، وقد أجمع معاصروه على أنه كان آية في البلاغة ، وجعلوه على رأس البلغاء العشرة الذين سبّوهم في هذا العصر^(١) ، وبلغ من إعجابهم به أنهم كانوا يكثرون من أسئلته عن البلاغة ، على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، ونفسُ الجاحظ يقول في بعض رسائله إن الكتاب الناشئين كانوا يتدارسون آثاره ليحذقوا البيان وليلقحوا عقولهم وألستهم بخير لقاح^(٢) .

ولم يكن ابن المقفع بليغا فحسب ، بل كان أكبر بلغاء عصره ، إذ استطاع أن يملأ أواني العربية بمادة أجنبية غزيرة ، دون أن يُحدّث فيها انحرافاً من شأنه أن يجرّ ضرباً من الازدواج اللغوي ، إذ من المعروف أن لكل لغة صياغتها وأنماطها الخاصة في التعبير ، ولها أيضاً صورّها وأخيلتها التي قد تستعصى على الأداء في لغة أخرى . وشيء من ذلك لا يصادفنا عند ابن المقفع ، فقد استطاع أن يحتفظ للعربية في ترجماته بمقوماتها الأصلية ، كما استطاع الملاءمة بين الأخيلة والصور الفارسية وذوق اللغة العربية ، بحيث لا نحسّ عنده نُبُوّاً ولا انحرافاً ، مما يشهد له بقدرته البيانية وأنه استطاع أن يحوز لنفسه السايقة العربية التامة بكل شاراتها وسماتها اللغوية .

والحق أنه كان آية في البلاغة وجزالة القول ورسانته مع سهولته ، وقد نصح مرة لبعض الأدباء ، فقال له : « إياك والتتبع لوحشٍ الكلام طمعاً في زَيْلِ البلاغة فإن ذلك هو العيبُ الأكبر » . ولعل خير ما يصف بلاغته إجابته لسائل سأله عن البلاغة فقال : « دى التى إذا سمعها الجاحل ظنّ أنه يحسن مثلها » .

والمسألة لا تقف عند وصفه بالبلاغة ، فهي أوسع من ذلك وأبعد مدى ، إذ كان من أوائل من ثبّتوا الأسلوب الكتابي العباسي المولّد ، وهو أسلوب يقوم على الوضوح وأن تشفّ الألفاظ عن معانيها وأن تخلو من كل غريب وحشٍ ومبتذل

عامى . ولم يتقصر ابن المقفع هذا الأسلوب على ما ينشئه من رسائل ديوانية أو إخوانية ، بل عممه في ترجماته ، وبذلك وطّده أقوى توطيداً ومكّن له أوسع تمكين ، إذ جعله أسلوب النثر العام في العصر مهما اختلفت فنونه . وكانت غزارة معانيه سبباً في أن يتميز هذا الأسلوب عنده بالإيجاز والاقتصاد الشديد ، فالألفاظ بقدر المعاني لا تنقص ولا تزيد ، والمعاني تؤدّى أداءً فصيحاً رصيناً ، دون قصد إلى الجمال التعبيري من سجع أو ترادف صوقي . ويظهر أنه على الرغم من زندقته كان يبهره جمال القرآن وصياغاته فاستعار من ألفاظه وأساليبه كثيراً في جوانب كتاباته حتى في القصص الحيوانى قصص كليلة ودمنة ، وطبيعى أن تبلغ هذه الاستعارة عنده الغاية في تحميداته التى كان يفتح بها الرسائل السياسية الرسمية والتي كان يعظم فيها الدين الحنيف على نحو ما نرى في هذا التحميد^(١) :

« الحمد لله ذى العظمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ، الذى لا يعجزه شيء »
ولا يمتنع منه ، ولا يُدْفَعُ قضاؤه ولا أمره : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كنْ فيكون) . والحمد لله الذى خلق الخلق بعلمه ، ودبّر الأمور بحكمه ، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرة منه عليها وملئكة^(٢) منه لها (لا معقب لحكمه) ولا شريك له فى شيء من الأمور (يخلق ما يشاء ويختار) وما كان للناس الخيرة فى شيء من أمورهم (سبحانه الله وتعالى عما يشركون) . والحمد لله الذى جعل صفوة ما اختار من الأمور دينه الذى ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عباده ، فقام به ملائكته المقربون ، يعظمون جلاله ويقدمون أسمائه ويذكرون آلاءه لا يستحسرون^(٣) عن عبادته ولا يستكبرون (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه فى أرضه يطيعون أمره ويذبّون عن محارمه ، ويصدّقون بوعده ، ويوفون بعهده ويأخذون بحقه ويجاهدون علوه . وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاجه^(٤) حُجَّتْهم وإعزازهم دينهم وإظهاره حقهم وتمكينه لهم ، وكان لعدوه وعدوهم عند ما أوعدهم من خزيه وإحلاله بأسه ، وانتقامه منهم وغضبه عليهم . مضى على ذلك أمره ونفذ فيه قضاؤه

(١) جمهرة رسائل العرب ٥٣/٣ .

(٣) يستحسرون بالشيء : يما به .

(٤) إفلاجه : نصره .

(٢) ملكة : ملك .

فيا مضى ، وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقى (لِيَسْمَ نوره ولو كره الكافرون)
 (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) . والحمد لله الذى لا يقضى فى الأمور
 ولا يدبرها غيره ، ابتدأها بعلمه وأمضاها بقدرته ، وهو وليُّها ومتنهاها ، وولى الخيرة
 فيها والإمضاء لما أحب أن يمضى منها (يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة
 سبحانه الله وتعالى عما يشركون) . والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم ، ذى
 المُنَّ والطَّوْلِ ^(١) والقدره والحول ^(٢) ، الذى لا ممسك لما فتح لأولياته من رحمته ،
 ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نعمته ، ولا راداً لأمره فى ذلك وقضائه ، يفعل ما يشاء ،
 ويُحكم ما يريد . والحمد لله الميثب بحمده ومِنِّه ابتداءه ، والمنعم بشكره وعليه
 جزاؤه ، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤه .

والآيات المقتبسة من الذكر الحكيم كثيرة فى هذا التحميد ، وقد وضعناها بين
 أقواس لتتضح مواضعها ، ووراءها ألفاظ كثيرة مستمدة من القرآن الكريم . وبدأ
 عنده هنا شيء من السجع الذى يأتى عفواً سمحاً ، وكأنما ابتغى هنا التعميق بأكثر
 مما كان يبتغيه فى ترجماته . ونحن نسوق طائفة من رسائله الإخوانية ليتضح لنا
 ما كان يبذل فيها من جهد فنى ، وأول ما نذكر منها تهنئة بمولودة لأحد أصدقائه
 على هذا النمط ^(٣) :

« بارك الله لكم فى الابنة المستفادة ، وجعلها زِينَةً ، وأجرى لكم بها خيراً ،
 فلا تكرهها ، فإنهن الأمهات والأخوات والعَمَمَات والخالات ، ومنهن (الباقيات
 الصالحات) ورب غلامٍ ساء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرحت أهلها
 بعد مساءتهم »

واقتبس هنا من القرآن كلمة (الباقيات الصالحات) وعنى بالإيجاز والاقتصاد
 الشديد ، ومما كتبت به فى التعزية عن ولد ^(٤) :

« إنما يستوجب على الله وعده من صبر الله بحقه ، فلا تجمعن إلى ما فُجعت
 به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ،
 وأنكى الممرزتين ^(٥) لك ، أخلف الله عليك بخير ، وذخر لك جزيل الثواب . »

(٤) جمهرة رسائل العرب ٥٨/٣ .

(٥) المرزتين : المصيبتين .

(١) الطول : الإتمام .

(٢) الحول : القوة .

(٣) جمهرة رسائل العرب ٥٧/٣ .

والدقة المنطقية واضحة في هذه الرسالة مع ما يجرى فيها من طرافة التفكير ، فقد جعل الجزع على الولد فجيعته لا تقل عن فجيعته فقدته ، بل جعلها أعظم وأنكى ، إذ تحرم صاحبها الثواب . وتلطّف فدعا لصاحبه أن يعوضه الله من ولده ويخلف عليه بخير منه ؛ ومن رسائله الإخوانية البديعة ما كتب به إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة^(١) :

« أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عملٌ لا لهم ، والمعروف إذا وُضع عند من لا يشكره فهو زرعٌ لا بد لزراعته من حصاده أو لِعَتَقِيهِ من بعده . وكتبت إليك ، ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجة ، أولُ ما فيها معروف ، تستوجب به الشكر علينا ، وتدّخرُ به الأيادي قبَلنا » .

ودقة التفكير واضحة في الرسالة ، فقد جعل قضاء أخ لأخيه حاجة ليس مِمّا يؤديه إليه ، وإنما يؤديه إلى نفسه ، لقيامه بحقوق أخيه ونهوضه بواجبه نحوه . ويتحدّث عن بذل المعروف ، ويتبادر إليه جحود بعض الناس ، فيقول إن المعروف غَرَسٌ لا بد من حصاده حتى عند من يمحذون ولا يشكرون . ومرت بنا في الفصل السالف رسائل إخوانية تحوّل بها بعض الكتّاب إلى ما يشبه رسائل أدبية تصف الأخوة والصداقة من حيث هما مفصّلة صفاتهما وشرائطهما ، ولا ين المققع قطعة أدبية بديعة في وصف أحد إخوانه ، وفي رأينا أنه لم يصف فيها أحداً بعينه ، إنما وصف المثل الأعلى للأخ الكامل ، أو بعبارة أدق للرجل الفاضل ، وهي تمضي على هذه الشاكلة^(٢) :

« إني مخبرك عن صاحب لي كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظمته عندي صغرُ الدنيا في عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتبهى ما لا يجد ، ولا يكتسّر إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان فرجه ، فلا يدعو إليه ربيّة ، ولا يستخفّ له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يَأْشَرُ^(٣) عند نعمة ، ولا يستكين عند

العرب ٥٦/٣ .
(٣) يَأْشَرُ : يبطر .

(١) جمهرة رسائل العرب ٦٠/٣ .
(٢) انظر هذا الوصف في آخر الأدب الكبير ، وفي زهر الآداب ١٧٩/١ وفي جمهرة رسائل

مصيبة . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى ^(١) فيما علم . وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة بمنفعة . وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بَدَّ القائلين . وكان يَرى ضعيفاً مُستضعفاً ، فإذا جَدَّ الجِدُّ فهو اللَّيْسُ عادياً . وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في مراء ، ولا يُدلى بحجة ، حتى يَرى قاضياً فَهِيماً وشهوداً عدولاً . وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العُدْر في مثله ، حتى يعلم ما اعتذاره . وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البُرء ، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة . وكان لا يتبرم ، ولا يتسخط ، ولا يتشكى ، ولا يتشهى . وكان لا ينقم على الولي ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ، ولن تُطيق ، ولكنَّ أَخَذَ القليل خَيْرٌ من تَرَكَ الجميع .

وواضح أن هذا الوصف للرجل الكامل وخصاله يُعَدُّ دَرَّةً ثمينة من درر البلاغة العباسية ، ومن الخطأ البين أن يقال عن صاحبه وصاحب النصوص التي أسلفناها إنه كان كأحد المستشرقين يتعثر في أساليبه وتضطرب لغته ، ويعيبه أحياناً الأداء السليم ويستعصى عليه استعصاء ، فقد كانت اللغة العربية تستقيم له ، وكان أعجوبة زمانه في البيان والبلاغة مع الجزالة والنصاعة حيناً ، وحيناً آخر مع العذوبة والرشاقة .

٢

سهل بن ^(٢) هرون

هو سهل بن هرون بن راهبوني كما جاء في البيان والتبيين ، وفي كتاب البخلاء

والتنبيه والإشراف للمعتمد (طبع ليدن)
ص ٧٦ وعيون الأخبار ٢٥/٣ ، ١٣٨ ،
١١٢/٤ وشرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرؤن
(طبعة دوزي) ص ٢٤٣ والعقد الفريد ٥٨/٥
وفي مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وفوات
الوفيات ١٨١/١ وشرح العيون في شرح رسالة =

(١) يمارى : يجادل .
(٢) انظر في ترجمة سهل وأخباره البيان
والتبيين ٥٢/١ ، ٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٣٨ ،
٢٩/٣ ، ٣٤٦ والحيوان ٢/٣٧٤ ، ٦٦/٣
و ٤٦٦ ، ٦٠٣/٥ ، ٢٠٢/٧ والفهرست
ص ١٧٤ وزهر الآداب ٢/٢٥٧ - ٢٥٩

« راهبون » وفي الفهرست « رامنوي » وفي حياة الحيوان للدميري « راهويه » . وهو فارسي الأصل ، وعلى نحو ما اختلف الرواة في اسم جده اختلفوا في مسقط رأسه ، فقيل إنه من أهل دَسْتَمِيْسَان ، وهي كورة بين البصرة واسط والأهواز ، وقيل إنه من أهل مَيْسَان قرية بتلك الكورة ، وقيل إنه من أهل نيسابور . ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، وأغلب الظن أنه وُلِدَ حوالي منتصف القرن الثاني الهجري ، وقد ترك مسقط رأسه مبكراً إلى البصرة ، وأقبل على التزود من ينابيع الثقافة التي كانت منبعثةً بها ، وخاصة علم الكلام وما نُقِلَ عن الأجانب من مختلف الترجمات فارسية ويونانية وهندية ، وأخذ هو نفسه يشارك في ترجمة بعض الرسائل عن لغته الأصلية . وتجذبه بغداد إليها آملاً أن ينال بها شيئاً من المجد والشهرة ، وسرعان ما يقربه يحيى البرمكي وزير الرشيد منه ، فيُلَحِّقه بالدواوين ، حتى إذا أسس الرشيد دار الحكمة عُيِّنَ بها للإشراف على بعض الكتب وبعض ما كان يُتَرْجَمُ فيها من الآداب الأجنبية ، إذ كان أحد النقلة النابهين من لسانه الفارسي إلى العربية . وفي أثناء صلته بالبرامكة وبعد نكبتهم سنة ١٨٧ للهجرة انعقدت صداقة وثيقة بينه وبين الفضل بن سهل مدبر شئون المأمون ومستشاره وكاتبه ، فقدَّمه إلى المأمون ، فأعجب ببلاغته وصحة منطقته وذكائه ، حتى إذا تحوَّلت الخلافة إليه وأخذ يعنى بشئون دار الحكمة عنايته الواسعة المعروفة ، إذ حولها إلى ما يشبه أكاديمية ضخمة ، جعله قيماً على خزائن كتب الفلسفة التي جلبت من قبرص ، ليشرف على نقلها إلى العربية . وكان يلزم المأمون في مجالسه وندواته التي كان يعقدها لكبار العلماء والمتكلمين ، وما زال خازناً بدار الحكمة حتى توفي سنة ٢١٥ للهجرة .

واشتهر سهل في زمانه بالحكمة والبلاغة حتى سباه معاصروه بِزُرْجَمهر الإسلام ، إشارة إلى أنه يحل في العربية محل بزرجمهر في الفارسية وما أثر عنه من حكم وأمثال كثيرة ، ووصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلاً في نفسه عتيق الوجه ^(١) ، حسن الشارة ، بعيداً من الفدامة ^(٢) ، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة

(١) عتيق الوجه : جميل .

(٢) الفدامة : العي .

== ابن زيدون لابن نباتة (نشر دار الفكر العربي)

ص ٢٤٢ وحياة الحيوان للدميري ١/٥١٣

وحولية الجامعة التونسية العدد الأول سنة ١٩٦٤ .

وبرقة الذهن قبل المخاطبة وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنبل قبل
التكشف ^(١) ، ووصفه الحسن بن سهل وزير المأمون فقال : « وازن
العلم ، واسع الحلم ، إن حدث لم يكذب ، وإن موزح لم يغضب ،
كالغيث أين وقع ، وكالشمس حيث أولت ، أحييت ، وكالأرض ما حملتها
حملت ، وكالماء طهوراً للتمسه وناقع لغُلَّة مَنْ حَرَّ ^(٢) إليه ، وكالهواء الذى
تُقَطِّفُ منه الحياة بالتنسم ، وكالنار التى يعيش بها المَقْرور ، وكالسما التى
قد حسنت بأصناف النور » . ويقول ابن النديم إنه كان « شعوبى المذهب ،
شديد العصبية على العرب ، وله فى ذلك كتب كثيرة ورسائل فى البخل » وكأنه
أراد بتلك الرسائل أن ينقضى فضيلة الكرم العربية . وكان البخل سجية وطبعاً
ركَّب فيه ، ورُوِّيت عنه فى ذلك نوادر كثيرة ، منها أن شخصاً لقيه ، فقال له :
هَبْ لى ما لا ضرره عليك ، فقال : وما هو يا أحمى ، قال : درهم ، فقال سهل :
لقد هَوَّنت الدرهم ، وهو طائع الله فى أرضه لا يَعْصَى ، وهو عشر العشرة ،
والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى إلى أين
انتهى الدرهم الذى هَوَّنته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم . فانصرف
الرجل ، ولولا انصرافه لم يسكت سهل . ومن حكاياته العجيبة فى البخل ما حكاها
دَعْبَل ، قال : « كنا عنده يوماً ، فأطلنا القعود ولم نَبْرَح ، حتى كاد يموت
جوعاً ، فلما اضطررناه قال : يا غلام ويلك غَدْنَا ، فأثاء بصَحْفَةٍ فيها مَرَقٌ ،
تحتة ديك هرم لا تحزُّ فيه السكين ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطَّلَع فى الصحفة
وقلَّب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلَّب جميع ما فى القصعة ، حتى
فقد الرأس من الديك . فبقي مطرقاً ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، فقال : أين
الرأس ؟ فقال : رميتُ به ، قال سهل : ولم رَمِيتُ به ؟ قال : لم أظنك تأكله ،
قال : ولأى شىء ظننت أنى لا آكله ؟ فوالله إني لأمقت من يرمى برجليه ، فكيف
من يرمى برأسه ، ثم قال له : لولم أكره ما صنعته إلا لللطيرة (التشاؤم) والقال
لكرهته ، الرأس رئيس وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما
أُرِيد ، وفيه فَرْقُه الذى يتبرَّك به ، وعينه التى يُضْرَبُ بها المثل ، يقال شراب

كعين الديك في الصفاء ، ودماعه عجيب لوجع الكلئية ، ولم أر عظماً قط أمش تحت الأسنان من عظم رأسه ، فهلا إذ ظننت أني لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نُبُلك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق ؟ انظر أين هو ؟ قال : والله ما أدرى أين رميتُ به ، فإن سهل : لكني أدرى أنك رميتَ به في بطنك ، واللهُ حسيبك . ولعل في هذه النادرة وسابقتها ما يدل على ظرفه ، وهو ظرف كان يشوبه بالفكاهة الحلوة أحياناً ، وأحياناً بالسخرية المرة ، من ذلك أنهم قَصَّوا عنه أنه حدث بعض الأمراء ، فقال له كذبت ، فأجابه على البديهة : إن وجه الكذاب لا يقابلك ، يعني أن الأمير هو الكذاب ، لأن وجه الإنسان لا يقابله . وطلب إليه أبو الهذيل العَلَّاف المتكلم المشهور أن يكتب له رسالة إلى الحسن بن سهل يوصيه فيها به ، فلبى طلبه ، ولما تقدم بها إلى الحسن وفضَّها وقرأ ما فيها أغرب في الضحك ، إذ وجد سهلاً ينهائهم عن أن يمدَّ لأبي الهذيل العَوْنَ بأبيات تتحيّفه وتقبض يد قارئها عن مساعدته ، استهلَّها بقوله :

إن الضميرَ - إذا سألتك حاجةً لأبي الهذيل - خلافُ ما أبدى
فامنحه روحَ اليأس ثم امددْ له حبلَ الرجاء بِمُخْلِيفِ الوعدِ
حتى إذا طالتْ شقاوةُ جدِّه وعنائه فاجبَهْهُ بالردِّ

وقال الحسن : هذه صفته لا صفتنا ، وأمر لأبي الهذيل بمال ، فعاد إليه ، وعاتبه ، فقال سهل : تُرَى أين عَزَبَ عنك الفهم ، أما سمعتَ قولي : « إن الضمير خلاف ما أبدى ، فلو لم يكن ضميري الخير ما قلت هذا . وهي مغالطة واضحة ، غير أنها تدل على قدرته العقلية في الإتيان بالحجة الصحيحة تارة ، والحجة المدخولة تارة ثانية .

وكان سهل يحسن القول نثراً وشعراً ، وفيه يقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسِّير الحسان المدوّنة والأخبار المولّدة سهل بن هرون بن راهبوني الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفراء في معارضة كتاب كليله ودمنة ، وكتاب الإخوان وكتاب المسائل

وكتاب الخزومي والهلالية وغير ذلك من الكتب» . وذكر ابن النديم من كتبه أيضاً « كتاب النَّمِرِ والثعلب ، وكتاب الوامق والعذراء ، وكتاب ندود وودود ولدود وكتاب الضربين وكتاب الغزالين وكتاب أدب أسل بن أسل وكتاب إلى عيسى ابن أبان في القضاء وكتاب تدبير الملك والسياسة » . وذكر ابن نباتة كتاباً له في سيرة المأمون .

ويظهر أنه عُنِيَ في كثير من كتبه بالقصص على ألسنة الحيوان ، مشاكلة لكتاب كليله ودمنة ، وكان من أهم ما وضعه في ذلك كتاباه : « ثعلة وعفراء » و « النمر والثعلب » وقد أشاد المسعودي بأولهما وقال إنه يزيد على كليله ودمنة بحسن نظمه . وقد اتخذ من الحيوان وسيلة للعظة والتربية الاجتماعية والسياسية بما يفصل من الكلام وضرب الحكم والأمثال بالضبط كما صنع واضع كليله ودمنة ، ولم يبق لنا من كتاب ثعلة وعفراء سوى هذه النصيحة :

« اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظهرٌ على وهن العقيدة وتقصير الروية ، ومضر بالتدبير ومخلٌ بالاختيار ، وليس في نفع تُحَمَّدُ به عوضٌ من فساد المروءة ولزوم النقيصة » .

ويقول الحصري بعد ذكره لهذه النصيحة : إن هذا الكتاب مملوء حكماً وعلماً . وعثر السيد عبد القادر المهيري حديثاً على كتاب النمر والثعلب ، ونشر مقتطفات منه مع مقدمة في العدد الأول من حولية الجامعة التونسية ، والكتاب ، أو بعبارة أدق القصة تدور على ثلاث شخصيات هي الثعلب الحكيم والذئب الجحود والنمر الطاغى ، وتتسلسل القصة تسلسلاً دقيقاً ، فالثعلب كان يعيش مع زوجه في واد غبر عليه زمان فيه وهو حسن الحال رخيّ البال ، ومرّ به ثعلب آخر ، فأنكر موضع جحره من الوادى ونصحه أن يتحول عنه ، مخافة أن يهجم عليه السيل ، واستشار زوجه ، فأبت عليه التحول ، ولم يلبث أن جاء طوفان من السيل حمله وحده إلى جزيرة لم يسمع بها حسيماً ، ولم ير أنيساً ، فبات ليلته طاوياً حتى أصبح ، وبينما يتلفت من حوله إذا ذئبٌ يمرّ به ، فتعارفا ، وسرعان ما عرف منه أن الجزيرة تمتلئ بالطباء وبقر الوحش غير أنه لا يستطيع أن يصيدها ولا أن

يقربها ولا أن يتجاوز موضعه ، لخضوع الجزيرة وكل ما بها من وحش للملك طاغ باغ هو النمر الذى تجبر وتكبر . وقال له : إننى لا أكلمك الآن إلا فرعاً مرتعاً خشية أن يرانا ، فلنصرف ، ولنلتق غمداً فى مكان خفى ، فالتقيا ، وأشار عليه الثعلب أن يقدم على النمر فيتلطف له ويطلب منه ولاية فى الجزيرة يقوم على حكمها ويشاطره خيراتها ، ويتخذ منه وزيراً يعينه على إدارتها . ويبدى الذئب خوفه من لقاء الملك الباطش ، وما يزال يشجعه حتى يلقاه . ويُعجبه حديثه وما عرض عليه ، فيعيثنه والياً على مناهل الظباء . ونحن نسوق هذه القطعة من القصة لندل على أسلوب سهل وطريقته فى هذا القصص الحيوانى الخيالى ، وهى تحكى ما حدث بعد لقاء الثعلب للذئب فجأة واتفاقهما على اللقاء ، وما كان بينهما من حوار فى هذا اللقاء ، وما أثمر الحوار للذئب من الولاية وللثعلب من الوزارة : « انصرف الثعلب حزينا مغتماً لما حزره من عداوة النمر وعدم القوت ، ثم فكر فقال : إنما يُعرَفُ فضل عقل المرء فى شدائد الأمور ونوازل الخطوب ، فأما عند الرخاء فما أقرب الجاهل من العالم والأحمق من العاقل ، وذلك أن مساعدة الدنيا للجاهل سائرة لنقصه عن زيادة العاقل وحاجبة عن التمييز بينه وبين اللبيب وليس لمثلى قوة على صيد الظباء وبقر الوحش ، وإنما يصيد كل امرئ [على] قدره ، وليس ههنا إلا طلب الحيلة . فلما أصبح الصبح قصد المكان الذى وعد الذئب فيه والتقيا هنالك عن رِقْبَةٍ (تحفظ) من النمر ، فقال له الثعلب يا أبا الفراء كنت مهموماً بنفسى ، فزادنى اهتماماً ما أبشئت من حديثك وألقيت إلى من سوء حالك ، وههنا تدبيرٌ إن أعنتى عليه بهمة صادقة ، فلعله أن يعود إلى صلاح ، فقال الذئب : وما هو ؟ قال الثعلب : ائت النمر ، فسَلِّه أن يوليكَ ولاية تردُّ عليك نفعا وتردَّ لك ذكراً وتكسبك حمداً ، قال الذئب : فأين ما أخبرتك عن بخله وشراسة خلقه ، وإنه لكما قال القائل : سواء هو والعدم ، قال الثعلب : فأعلمه أنك لا تفيد شيئاً إلا بعثت إليه بشره فإن لك فيما يبقى منتفعاً وصالحاً ، فإن أجابك فلن تعدم منى معونة حسنة وقياماً بالذى يجب ، وكن كما قال الشاعر :

وليس الرزقُ عن طلبِ حَشيٍّ ولكن ألقِ دُلوكَ فى الدَّلاءِ

تَجشُّكَ بملئها طوراً وطوراً نَجىءُ بِحِمْنَةٍ وقليل ماء^(١)

قال الذئب : يا أبا الصَّبَاح إنه كان يقال : اتقوا مقارفة^(٢) الحريص الغادر ، فإنه إن رآكَ في القوَّة رأى منك أخبث حالانك . وإن رآكَ في الفضول^(٣) لم يدعك وفضولك ، قال الثعلب : يا أبا الفراء : إنه ليس الرأى . . من عاش غير خامل الذكر والمنزلة إذا أفصل على نفسه وأصحابه فهو وإن قلَّ عمره طويل العمر ، ومن كان عيشه في ضيق وقلَّ خيره على نفسه وعلى الناس فهو وإن طال عمره قصير العمر . قال الذئب : إنه كان يقال : أمور ثلاثة لا يجترئ عليها إلا أهوج ولا يسلم منها إلا قليل : صحبة السلطان واثمان النساء على الأسرار وشرب السمِّ على التجربة . قال الثعلب : قد يُسَلِّغُ الحَضْمُ بالقَضْمِ^(٤) ، ويركب الصعْبَ من لا ذكول له . وليس يواظب على باب السلطان أحد ، فيُسلِّقَ عن نفسه الأنفة ويتحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس إلا خلص إلى حاجته من السلطان . قال الذئب : إنه كان يقال : لا تغتبط بسلطان من غير عدل ، ولا بغنى من غير فضل ، ولا ببلاغة من غير صدق ، ولا بجود من غير إصابة ، ولا بحسن عمل من غير خشية . قال الثعلب : إنه ينبغي للعاقل أن يدارى الزمان مداراة الرجل السابح في الماء الجارى ، وقال الممثل : أرَضَى من المركب بالعلق . قال الذئب : السبب الذى يدرك به العاجز حاجته هو السبب الذى يحول بين الحازم وطلبته . قال الثعلب : المال زيادة في القوت والرأى ، وليس الإخوان والأهل والأعوان إلا مع المال ، ولا يُظْهَر المروءة إلا المال ، لأن من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به العُدم فقصر عنه . قال الذئب : إنَّ للسلطان سكرات ، فنها الرضا عن بعض من يستوجب السخط ، والسخط عنم يستوجب الرضا ، ولذلك قيل : قد خاطر من لَجَجَّجَ في البحر ، وأشدُّ منه مخاطرة مَنْ صاحب السلطان . قال الثعلب : من لم يركب الأهوال على صعوبتها لم ينل الرغائب ، ومن ترك الأمر الذى لعله أن يبلغ فيه حاجته مخافة ما لعله يُوقَّاه فليس ينال

(٤) مثل معناه أن الغاية البعيدة قد تدرك

بالرفق . وأصل الحضم الأكل بجميع الفم ،
والقضم : الأكل بأطراف الأسنان .

(١) الحماة : الطين الأسود .

(٢) مقارفة : مخالطة .

(٣) الفضول : جمع فضل وهو النعمة .

جسماً ، وقد كان يقال : أعمال ثلاثة لا أحد يستطيعها إلا بمعونة ارتفاع همة وعظم خطر : صحبة الملوك وتجارة البحر ومناجزة العدو . فأعجب الذئب كلامه ، فأقن النمر ، فشكر له ، وأقام بين يديه ، وكان لا يعرفه بمثل هذه الذلة . فافتتح الكلام ، فقال : أيها الملك إني لما أنا عليه من المناصحة والموالاتة تأملت باب الملك فوجدته خالياً من صالحى الأعوان وثقات الخدم ، ولما رأيت الملك كثير الكُلف عظيم المؤن رجب الفناء جزل العطاء ، وليس له من عبيده من يعينه على مثوته ويكفيه المهم من عمله نذبتُ نفسى للذى رأيتنى أقوى عليه من حسن السياسة وضبط الناحية التى أتولاها وردت المنفعة على الملك منها . فأعجب النمر كلامه وطمع فيما وعده ، فقال له : صدقت وبرتت ، وأنا مستكفيك ومقلدك ، فأنظر كيف يكون ضبطك وكفايتك وغناؤك ووافائك بما شرطت على نفسك . اكتب له يا غلام عهدك على مناهل الظباء ، واجمع له أعمال ما هنالك ، فخرج الذئب إلى عمله ، واستخلف الثعلب وأحلّه محل الوزير الكاتب .

ومضى الذئب إلى ولايته مستصحباً وزيره ، حتى إذا دانت له رعيته واستتب أمره وتمكن سلطانه أمسك بما كان يرسله للنمر من الخيرات والطيبات ، وراسله النمر وذكره بعهوده ووعوده ، ولكنه ظل سادراً فى غيبه ، فكتب إليه يحذره وينذره بالعقاب والنكال ، وكان الذئب قد صمم على التمرد ونقض الطاعة ، فردّ على النمر بهذه الرسالة العنيفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم ، أما بعد فإن كتاب الملك - أمتع الله به - وصل إلى بما حذّر فيه وأنذر ، وقدّم وأخّر ، وفهمته ، وقد كان الملك - حفظه الله - أسند إلى أمر هذا الثغر المخوف على حين انتشار من العدو به ، وانقطاع من سبيله ، واختلاف من الكلمة بين أهله وتفرق من الأهواء فيه ، فرأيت^(١) صدع الآفة ، وجمعت شمل الطاعة وكشفت دجينة^(٢) الفتنة وأسغت الريق بعد الشجا^(٣) ، وقمعت أولى العداوة والبغضاء ، وأقمت حقماً كان معلمه^(٤) متروكاً ، ودمغت ضلالة كان طريقها

(٣) الشجا : النصبة وما يعترض فى الحلق .

(٤) معلمه : مفرد معاملة .

(١) رأيت : أصلحت .

(٢) الدجينة : الظلمة .

مسلوكاً ، ألتمس بذلك جزيل الثواب وكريم المآب ورضا الملك والزلفة عنده ، فعاد ما عملته هباء ، ولم أجد منه شيئاً مشكوراً ، وما يُقَعِّعُ لئلي بالشنان^(١) وإني لألثوى بعيد المستمّر^(٢) فإن يستم الملك صنيعته ويرب^(٣) نعمته فأنا بين العصا ولحائها^(٤) ، وإلا فسيجدني جذل حكاك^(٥) إذا نكأت^(٦) قرحة أدميتها ، أحمر^(٧) ، ضراباً بالسيف ، والسلام .

فلما قرأ النمر الرسالة عرف أنه عزم على الانتقاض عليه فجمع وزراءه ، وكانوا ثلاثة ، فاستشارهم في أمره ، فأشار الأول بالكتابة إليه في إيجاز لتبسين دخيلة أمره وحقيقة موقفه إن سلماً فسلم وإن حرباً فحرب ، وأشار الثاني بالصفح عن زلته ، فإن الحرب سجال ، وهي حتى على الظافر خسارة في الأموال والرجال ، وأشار الثالث بمجاربته قبل استفحال أمره وحتى لا يظن غيره من الولاة أن بالنمر ضعفاً ، فيحاكوه ويسقطوا عن ظهورهم فرائض السلطان وخراجه ، وأخذ النمر بقول الوزير الأول ، فكتب إلى الذئب رسالة ، نسختها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم ، أما بعد فإني رأيتك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فإذا نظرت في كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت فإن كنت سلماً فأقبل وإلا فتأذن بحرب ، والسلام . »

ولجّ الذئب في عصيانه ، ونشبت بينه وبين النمر معارك حامية الوطيس ، انتهت بمقتله والقبض على الثعلب وزيره ومدبر أموره ، وكاد أن يقتل لولا ما لاحظ النمر من ذكائه ودقة تفكيره ، مما جعله يعيده أن يبقى على حياته إن هو أحسن الإجابة على ما يلقي عليه من أسئلة . وتتوالى الأسئلة في الإنسان والعقل وحظ العقلاء منه وتفاضلهم فيه وفي مكانة العقل من العلم وأثره في سلوك الإنسان وشيمه الخلقية وما يصيبه من خير أو شر . وتلقانا في هذه الإجابات طرافة تفكير سهيل

(٤) لحاء العصا : قشرها . والكتابة واضحة .

(٥) الجذل : أصل الشجرة . حكاك من الحك

وهو الدلك . وجذل حكاك : مثل يضرب إن يستشئ برأيه .

(٦) نكأت القرحة : قشرها قبل أن تبرا .

(٧) كنى بالحمرة عن البأس الشديد .

(١) الشنان : جمع شن وهو الجلد اليابس . وقعق : ضرب . وكانوا إذا ضربوا عليه نفرات الإبل ، ويضرب ذلك مثلاً لمن لا يرهبه وعيد ولا إنذار ولا تخويف .

(٢) ألوى : عسر ، يلتوى على خصه . بعيد المستمّر : قوى في الخصومة .

(٣) يرب : ينمي ويزيد .

ودقته وتعمقه ، ومن خير ما يصور ذلك حديثه عن تفاضل العقول والعقلاء ونزولهم في درجات متفاوتة تفاوتاً بعيداً ، ومع ذلك يطاق عليهم جميعاً اسم واحد ، يقول مورداً السؤال والإجابة ، ومتنهياً إلى أن العقل الكامل من صفات الله وحده .

«أخبرني عن العقل أهو شيء إذا نال الإنسان أدناه فقد بلغ أقصاه أم الناس في نسيله مستوون أم متفاضلون ؟ قال : بل متفاضلون » قال : فكيف دُعي ذو الحظ اليسير منه باسم ذي الحظ الكبير ، ف قيل لهما عاقلان وهما في العقل متباينان ؟ فهل يقع اللقب الواحد على ذوى الدرجات الشتى ؟ قال : نعم ، وليس ذلك بخطأ من القائل ، لأن هذه الدرجات الشتى من جنس واحد ، واللغة تضيق عن هذا وما أشبهه أن يدعى كل ذي درجة من درجات الجنس الواحد بلقب غير لقب الآخر ، ولو كُلفت اللغة ذلك لطلال الكلام . . . لتوزع المعنى المستوجب للاسم ولكنها شملتها كلها باللقب الواحد ودعت المختلفين فيه باسم واحد . قال : فكيف يعرف الناقص من الزائد وقد جمعهما اسم واحد؟ . قال : بالتمييز وكشف المعرفة ، ومثل ذلك في اللغة ما يدعى به أهل صناعة من الاسم الواحد وهم في تلك الصناعة متباينون في التفاوت ، إذ يقال : بُنَاة وبجَّارون وتجار وخياطون ، ولكل منهم على صاحبه فضل أو عليه له فضل . فالتناس كلهم مستوون فيما يلحقهم من النقص في العقل ، وهم فيما أتوا منه متفاضلون ، أحدهم فيه أكثر حظاً منه . قال : كيف مُدَّت هذه الغاية ومُنِع ذوو العقل بلوغها؟ قال : لأن الغاية كمال ، والكمال صفة لا تصح إلا للخالق ، ولا يستوى الخالق والمخلوق في صفته ، تعالى الله عن ذلك » .

وواضح ما أودعه سهل هذه القصة الحيوانية من تصوير لحكم الملوك المتجبرين والولاة المتمردين وحيل الوزراء الدهاة ، مستخلصاً في ثنايا ذلك كثيراً من العظات ونائراً كثيراً من الحكم والأمثال . وهو يبتغى بذلك نفس الغاية التي ابتغاها واضع كليله ودمته من نصيح الملوك والحكام عن طريق ما يجري على ألسنة الحيوان من مقت الظلم والبغى وسوء السيرة ومحبة العدل والإنصاف . وهو يتعمق أكثر مما تعمق صانع كليله ودمته ، إذ يعرض للعلم والجهل والعقل وإرشاده الإنسان إلى الخير وصرفه عن طريق الشر . والقصة مشوقة لا بما فيها من حوار فحسب ، بل بطرافة الحوار

وما يجرى فيه من حيل وأفكار دقيقة نادرة . وفي أسماء كتب سهل التي ذكرناها آنفاً ما يدل على أنه أجرى بعض قصصه على السنة الإنسان مباشرة على نحو ما يدل على ذلك اسم كتابه « المخزومى والمهذلية » واسم كتابه الثانى : « الوامق والعذراء » .

واحتفظ الجاحظ فى أول كتابه البخل برسالة طويلة له يحتج فيها للبخل وينصره على الكرم، ومرّ بنا ما يقال من أنه كتبها شعويةً على العرب ، إذ حاول فيها أن يهدم فضيلة الكرم العربية هدماً . ويذكر الرواة أنه قدمها إلى الحسن ابن سهل يرجو مكافأته عليها ، فكتب له على ظهرها : « وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك » . ونراه فى فاتحتها يتوجّه بالحديث فيها إلى بنى عمه ، وظن القدماء أنه يريد بنى عمه الحقيقيين من آل راهبون، وأغلب الظن أنه يقصد العرب . وقد مضى يذكر أنه إنما يقصد هدايتهم وأنه إن أخطأه سبيل لإرشادهم فلن يخطئه سبيل حسن النية ، ثم أخذ يورد دفاعه عن البخل ومحاسنه، مستعيناً بقدرته على الجدل وصنع الحجج المنطقية وبما حفظ من بعض أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وهم إنما كانوا يريدون الاقتصاد وعدم الشطط فى الإسراف ، أما البخل فلا يرضاه التابعون ولا الصحابة فضلاً عن الرسول الكريم الذى حَضَّ على البذل والإيثار والسخاء بكل ما فى اليد، كما حَضَّ القرآن الكريم لا على الصدقات فحسب ، بلى على الاتساع بالإطعام وتقديم الماعون، وصوّر المثل الأعلى فى ذلك فقال جَلَّ شأنه : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) . وكل ذلك كان يعرفه سهل معرفة دقيقة ، غير أنه كان يريد الدفاع عن البخل ، فاختر من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ما قد يشهد له ، وهو إنما يشهد على زهادتهم فى الدنيا وصغر متاعها فى أعينهم حتى بَعُدَ إقبالها عليهم ، وفرَّق بين الزهد والبخل والحرص والشح ، ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة ، لنطلع من جهة على قدرته فى الجدل والحجاج ، ومن جهة ثانية على قدرته البيانية ، يقول :

« وعبتمونى حين ختمت على سدِّ^(١) عظيم وفيه شىء ثمين من فاكهة نفيسة

ومن رُطَبَة^(١) غريبة على عبد نهم^(٢) وصبي جَشَع وأمة لكُعاء^(٣) وزوجة خرقاء^(٤) . وليس من أصل الأدب ولا في ترتيب الحكم ولا في عادات القادة ولا في تدبير السادة أن يستوى في نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللباب من كل شكل التابع والمتبوع والسيد والمسود كما لا تستوى مواضعهم في المجالس ومواقع أسمائهم في العنوانات وما يُستقبلون به من التحيات . . . وعبتموني بِخَصَف^(٥) النعال وبتصدير^(٦) القميص ، وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبني وأوطأ^(٧) وأقوى وأنفسي للكبر وأشبه بالنسك ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ، وَيَرْقَعُ ثوبه ، ويقول : « لو أتيت بذراعٍ لأكلت ، ولو دُعيت إلى كُراع^(٨) لأجبت » ولقد لَفَقْتُ^(٩) سَعْدَى بنت عوف إِزَارَ طَلْحَة^(١٠) وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض ، وكان في ثوب عمر رِقَاع أَدَمٍ وقال : من لم يَسْتَحْيِ من الحلال خَفَّتْ مؤنثه وقلَّ كِبَره ، وقالت الحكماء : لا جديد لمن لم يلبس الخلق^(١١) . . فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر ، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكَسْبَيْنِ ، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين . . . وعبتموني حين قلت : لا يَغْتَرَّنَ أحدكم بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عَظْمه ووهن قوته وأن يرى أَكْرَوْمته^(١٢) فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السَّرَف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعله أن يكون معمرًا وهو لا يدري ، وممدوداً له في السن وهو لا يشعر ، وإعله أن يُرْزَق الولد على اليأس أو يحدث عليه بعض مخبآت الدهور ، مما لا يَسْخَطُرُ على البال ولا تدركه العقول فيسترده ممن لا يرده ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه أضعف ما كان عن

(١) الرطبة : التمر المربط .

(٢) نهم : شره .

(٣) لكعاء : لثيمة .

(٤) خرقاء : حمقاء .

(٥) خصف النعال : ترقيعها وإصلاحها .

(٦) تصدير القميص : ترقيع صدره .

(٧) أوطأ : ألين .

(٨) الكراع : مستدق الساق .

(٩) لفقت : ضمت جانباً منه إلى آخر

وخاطبتها .

(١٠) هو طلحة بن عبيد الله كان غيثاً مدراً

في الكرم فلقب بالفياض .

(١١) الخلق : البالي .

(١٢) الأكرومة : فعل الكرم .

الطلب ، وأقبح ما يكون به الكسب ، فعبتموني بذلك وقد قال عمرو بن العاص :
 اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ عَمَلًا مِنْ يَعْيشُ أَبَدًا ، واعْمَلْ لِآخِرَتِكَ عَمَلًا مِنْ يَمُوتُ غَدًا . . . وعبتموني
 حين زعمت أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يُقَاد العلم ، وبه تقوم النفوس
 قبل أن تعرف فضل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالتفضيل من الفرع ، وأنى
 قلت : إن كنا نستبين الأمور بالنفوس فإننا بالكفاية نستبين وبالْحَلَاة ^(١) نَعْمَى ^(٢) .
 وقلتم : كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدم الأدباء : العلماء أفضل
 أم الأغنياء ؟ قال : بل العلماء ، قيل : فما بال العلماء يأتون باب الأغنياء أكثر
 مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى وبجلل الأغنياء بفضل
 العلم . فقلت : حالهما هي الفاصلة بينهما ، وكيف يستوى شيء تُرى حاجة
 الجميع إليه وشيء يَغْنَى بعضهم فيه عن بعض . . . وعبتموني حين قلت إن
 فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار ، إن احتيج إليها
 استُعملت ، وإن استُغنى عنها كانت عُدَّة . . . وقال بعض الحكماء : عليك
 بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عزٌّ في قلبك وذلٌّ في قلب عدوك لكان
 الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً . ولسنا نَدْعُ سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب
 الحكماء لأصحاب الأهواء . .

وبمثل هذه الحجج دافع سهل عن البخل ، وهي حجج يستمد فيها من المأثور
 عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وعن حكماء الأمم القديمة وخاصة
 حكماء أمته الفارسية ، مما يدل على اتساع ثقافته . وليس هذا ما يلفتنا وحده في
 تلك الحجج فإنه يلفتنا فيها أيضاً قدرته المنطقية التي تتضح في إيراد الأقسام المتقابلة
 إيراداً مستقصياً ، كما تتضح في استخدام الأقيسة وتصحيح الأدلة استخداماً
 دقيقاً ، وفي تضاعيف ذلك تتضح غزارة فكره وكأنه يستمد من معين لا ينضب ،
 كما يتضح إلحاحه على المعاني حتى وكأنه يريد أن يحصرها ويحيط بكل دقائقها ،
 وتأمل في رده على من يَسْتَحِثُّ الهَرَمَ على إنفاق ماله على الناس وفي الملدات ،
 وفي الوجوه التي وضعها تحت عينه مخوفاً له ومحدراً من تضييع ماله ، فستره يجمع
 هذه الوجوه في استقصاء وتفصيل دقيق ، فهو قد يعمر ، وقد يرزق الولد ، وقد

(١) الحلة : الحاجة والفقر .

(٢) نسي : نضل .

تنزل به بعض الكوارث ، وحيثذ إما أن يحاول استرداد ماله من بعض من أعطاه لهم . ويردّ خائباً محسوراً . وإما أن يشكو إلى بعض الناس قاتته ولكن لن يرحموه ، وفي الحالين يكون قد ضعف عن الكسب وطلب الرزق وبذلك ضيق سَهْلُ الأبواب على من يتسع في العطاء والإنفاق حين تتقدم به السن ، بل لقد أغلقها إغلاقاً إلا باباً واحداً فتحه على مصاريعه هو باب الشح . وتؤدي غزارة معانيه وأفكاره وحججه وأدلته إلى أن يثير موضوعاً طريفاً ، هو الموازنة بين العلم والمال وأيهما أفضل من صاحبه ، ويورد من الأدلة ما يجعل المال يُفَضَّلُ العلم ، ويقتبس من الفقهاء حديثهم عن الأصول والفروع ، فيجعل المال الأصل والعلم الفرع ، ولا يستوى فرع وأصل . وسهلٌ في ذلك كله يرينا تطور العقل في العصر العباسي ومدى ما أصابه من رقي ومن نمو ومن ثراء ومن قدرة على الحجاج وبسط الأدلة ، حتى ليتحول الكاتب بإزاء بعض الموضوعات إلى ما يشبه مناظراً جدلاً ، لا يزال يورد من الحجج والأدلة المنطقية ما يحاول به أن يفهم خصمه ويقهره . ويظهر أن هذه الطريقة استقرت في نفس سهل بتأثير المناظرين من المتكلمين في عصره وكثرة مناظراتهم في كل شيء ، في العقيدة وغير العقيدة ، وكان يرى الناس من حوله يُعْجَبُونَ بالظافر المنتصر على خصمه ، وخاصة حين يدافع عن رأى ضعيف ، فينصره نصراً مؤزراً ، على نحو ما نصر البخل على الكرم ، ومن أجل ذلك نفتح الباب للظن بأنه ربّما لم ينصره شعوبية على العرب ، وإنما نصره إظهاراً لقوة جدله ومقدرته في صوغ الأدلة وتأليف الحجج والبراهين ، أو على الأقل كان بيان قدرته على الدفاع عن البخل الأثيم أقوى في نفسه من الطعن على فضيلة الكرم العربية . وما يوضح هذا الجانب عنده أن نراه يفضل الزجاج على الذهب في رسالة طويلة وكان سبب كتابته لها أن رأى النظام يذم الزجاج ، كما رأى شداداً الحارثي يطنب في وصف الذهب ، فكتب هذه الرسالة معارضة لهما ونصرة للزجاج الضعيف ، وقد سقطت من يد الزمن إلا قطعة منها رواها صاحب سُرْحِ العيون ، وهي تمضي على هذا النمط :

« الزجاج مجلّو نوري ، والذهب متاع سائر ، والشراب في الزجاج أحسن منه في كل معدن ، ولا يُفْقَدُ معه وجه النديم ، ولا يُشْقِلُ اليد ، ولا يرتفع في

السَّوْمُ^(١) واسم الذهب يُسَطَّيَّرُ منه، ومن لؤمه سرعته إلى اللثام، وهو فائن فانك^(٢) لمن صانه، وهو أيضاً من مصايد إبليس، ولذلك قالوا : أهلك الرجال الأحمران^(٣). والزجاج لا يحمل الوَضْرَ^(٤)، ولا يداخله الغَمَرُ^(٥) ومتى غُسِلَ بالماء وحده عاد جديداً، وهو أشبه شيء بالماء، وصفته عجيبة، وصناعته أعجب

ولسهل بجانب رسائله الأدبية الطويلة رسائل إخوانية يتضح فيها جمال التعبير ودقة التفكير على نحو ما نرى في الرسالة التالية^(٦)، وقد كتب بها إلى صديق تامل للشفاء من مرض :

« بلغني خبرُ الفَتْرَةِ^(٧) في إلامها وانحسارها، والشَّكَاةِ في حلولها وارتحالها، فكاد يَشْغَلُ القَلْقُ بأوله، عن السكون لآخره، وتَذْهَلُ الحيرةُ في ابتدائه، عن المسرة في انتهائه. وكان تعيرى في الحالين بقدرهما ارتياعاً للأولى وارتياحاً للآخرى. وواضح ما في هذه الرسالة الموجزة من الغوص على المعاني، فهو يقابل بين خبر المرض وخبر الشفاء، وكيف شغلته حركة القلق مع الخبر الأول عن السكون وراحته مع الخبر الثاني، وكيف أذهلته الحيرة وكربها أولاً عن المسرة ومتعتها ثانياً. ويقول إن ما دخله من تغير في الحالين يقاس بارتياعه مع بدء العلة وارتياحه مع انحسارها. وهو في جميع جوانب كتاباته شديد الغوص والتدقيق في معانيه، وجاء السجع على لسانه في أكثر هذه الرسالة، وهو إنما يجيء عنده أحياناً عفواً. وليس معنى ذلك أنه لم يكن يُعْنَى بتوفير الجمال لأساليبه فهو من هذه الناحية يتقدم ابن المقفع خطوات، إذ يعني ببسط عباراته، حتى يجرى فيها ضرباً من التقطيعات والتوقيعات الصوتية ومن أجل ذلك يكثر عنده الترادف، حتى يصل إلى ما يريد من ازدواج وإيقاعات متقابلة، ودائماً حين نقرؤه يلذ عقولنا بغزارة معانيه ودقتها كما يلذ أسماعتنا بجرس كلامه وحسن أدائه وما يكفل له من تلوينات صوتية بديعة.

-
- (١) السوم : المساومة في البيع .
 (٢) فانك : غالب .
 (٣) الأحمران : الذهب وطيب الزعفران .
 (٤) الوضر : الوسخ .
 (٥) الغمر : الدم .
 (٦) انظرها في سرج الميون ص ٢٤٥ .
 (٧) الفترة : الوعكة والضعف .

أحمد^(١) بن يوسف

هو أحمد بن يوسف بن صبيح الكاتب الكوفي مولى بنى عجل ، وقد أُلْمِنَا بأبيه في الفصل الماضي وقلنا إنه كان يكتب في دواوين الكوفة لولاء بَنِي أُمِيَّة ، ثم لما تحولت مقاليد الخلافة إلى العباسيين كتب لعبد الله بن علي ثم التحق بدواوين المنصور ، وظل يكتب في دواوين المهدي والهادي ، ولع نجمه في عصر الرشيد والبرامكة ، فكان يخلف يحيى البرمكي على الدواوين في قصره وقصر الرشيد . ولا نعرف بالضبط متى ولد له ابنه أحمد ، ويغلب أن يكون ميلاده حول منتصف القرن الثاني للهجرة ، ويظهر أنه عُنِيَ بتأديبه عناية واسعة ، كى يَصْلُح للعمل في الدواوين على شاكلته ، فأخذه بثقافة عربية دقيقة حتى غدا شاعراً يحسن نظم الشعر وصَوْغُه ، كما أخذه بثقافة إسلامية واسعة ، حتى يعرف الحدود وأحكام أهل الذمة وأصول الدين وفروعه ، وأخذه أيضاً بثقافة رياضية واسعة تعينه في الخراج وشئونه . ولا بد أن يكون قد أخذه بثقافات العجم مما يتصل بآداب السياسة وبكتب الفلسفة والحكمة ، ولا بد أن يكون أيضاً قد أخذه بآداب اللياقة حتى يُحَسِّن مَخَاطَبَةَ الخلفاء والوزراء ، وحتى الخطّ نراه يوجهه إلى إتقانه مما جعله يشتهر مع فصاحته وبلاغته بحسن خطه ، ويُرَوَّى أن قائلاً قال له يوماً : ما أدري ممّ أعجب ، مما وليه الله من حسن خَلْقِكَ أو مما وليته من تحسين أخلاقك .

وعلى هذا النحو أُعِدَّ أحمد بن يوسف ليكون مثالا للكاتب الحاذق النابه ، وأغلب الظن أن أباه ألحقه بالدواوين معه ، وأنه كتب بين يديه في دواوين الرشيد ، وأعجبت الفضل بن سهل مدبر شئون المأمون نجابته ، فالتقطه وحثه على التحول معه ومع المأمون إلى مرو حين اتخذها قاعدة لولايته على شرق الدولة كى يكتب في

٥٦/٢٠ وزهر الآداب ١٣٠/٢ والفخرى
ص ١٦٩ ومعجم الأدباء لياقوت ١٦١/٥
وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٠٩
وانظر الجهشيارى ص ٣٠٤ والعقد الفريد
١٤٥/٢ .

(١) انظر في ترجمة أحمد بن يوسف وأخباره
كتاب الأوراق للصول (قسم الشعراء) ص
١٤٣ ، ٢٠٦ وكتاب بغداد لطيفور في مواضع
متفرقة (انظر الفهرس) وتاريخ بغداد للخطيب
للبندادى ٢١٦/٥ والأغانى (طبعة الساسى)

دواوينه ، وأذعن لرغبته ، وظل يعمل في الدواوين هناك ، حتى بعث طاهر بن الحسين في سنة ١٩٨ إلى المأمون برأس أخيه الأمين ؛ فلما رآها نأثر ، وقال للفضل ابن سهل : ينبغي أن تأمر الكتاب بكتابة رسالة عن طاهر يخبرني فيها بهذا الخبر ، مع الاحتيا ل للاعتذار منه ، لتُقرأ على الناس ، فكتب الكتاب عدة كتب لم يرضها الفضل واستطاعها . ولم يلبث أحمد بن يوسف أن كتب رسالة محكمة موجزة في شبر من قرصاس كما يقول بعض الرواة ، فلما عرضها على الفضل رجع نظره فيها مستحسناً متعجباً من بلاغته ودقة بيانه ، ثم قال له : ما أنصفناك وأمر بصلات وفُرش وكُسي وآلات . وقال له : إذا كان الغد فاقعد في الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب بذلك إلى الآفاق .

ويدور العام ، فيجعل المأمون الحسن بن سهل نائبه على بغداد ، فيصطحبه معه ، وكأنَّ أخاه الفضل آثره به ، ليُعينه في عمله ، ويكتب له في دواوينه . ويُقدِّم المأمون إلى بغداد بعد خمس سنوات ، فيصبح كاتبه على ديوان الرسائل كما يصبح أثيراً عنده قريباً من نفسه ، لظرفه ورقته . وكان فيه ميل شديد إلى الترف فعاش عيشة يحفها النعيم في الفُرش وأواني الطعام وألوانه . وشارك في متاع عصره من الشراب والسماح للقبان ، ولكن دون إغراق ومع الاحتفاظ بمروءته وكرامته . ولما توفي أحمد بن أبي خالد وزير المأمون سنة ٢١١ شاور الحسن بن سهل فيمن يخلّفه على الوزارة فأشار عليه بابن يوسف ، فاستوزره ورفع منزلته ، فكان يعرض القصص أو رقايع الشكوى عليه ، ويوقع عليها بما يلائمها من العبارات ، غير أنه لم يلبث أن واغاه القدر سنة ٢١٣ للهجرة ، ويقال إنه أشرف ، وهو على وشك الاحتضار على بستان داره وكانت مطلة على دجلة ، فظل يتأمله ويتأمل دجلة ، ثم تنفس . وقال :

ما أطيب العيش لولا موت صاحبه ففيه ما شئت من عيب لعائيه

وسرعان ما التقمه الموت . ولأخيه القاسم الشاعر رثاء له يتمجج فيه تجمعاً ، وكانت له جارية يقال لها نسيم كانت تحظى بحبه ويشغف بها شغفاً شديداً ، فقالت ترثيه :

ولو أن مَيِّتًا هابه الموتُ قبله لما جاءه المِقْدَارُ وهو هَيَّوبٌ
ولو أن حَيًّا قبله جازه الرَّدَى إذَنْ لم يكن للأَرْضِ فيه نَصيبٌ

وهو يُعَدُّ في الذروة من كُتَّاب الدواوين في العصر العباسي الأول، لبلاغته
ودقة تفكيره وحسن تأتبه في الرسائل الديوانية السياسية والرسائل الإخوانية الشخصية ،
وأولُ ما نقف عنده رسالته التي أشرنا إليها آنفًا ، والتي كتبها للناس على لسان
طاهر بن الحسين ، وهي تجرى على هذه الصورة ^(١) :

« أما بعد، فإن المخلوع وإن كان قَسِيمَ أمير المؤمنين في النسب واللحممة
(القربة) فقد فرَّق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه في الولاية والحُرمة ، لمفارقتة
عصمة الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ، يقول الله عزَّ وجلَّ فيما
اقتصَّ علينا من نَبَأِ نوح وابنه : (يا نوحُ إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير
صالح) ولا صلة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله .
وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وقد قتل الله المخلوعَ وردَّاه ^(٢) رداء نكثِهِ ، وأحصد ^(٣)
لأمير المؤمنين أمره ، وأنجز له ما كان ينتظر من وعده ، فالأرضُ بأكنافها ^(٤)
أوطأ مهاد لطاعته ، وأتبعُ شَيْءَ لمشيئته . . . والحمد لله الآخذُ لأمير المؤمنين
بحقِّه ، والكائد له من خان عهده ونكث عقده ، حتى ردَّ به الألفة بعد فرقتها ،
وجمع به الأمة بعد شتاتها ، وأحيى به أعلام الدين بعد دروسها ^(٥) ، والسلام
على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . »

ودقة التعبير واضحة في الرسالة ، وكذلك المهارة في تصوير عصيان الأمين
والربط بينه وبين عصيان ابن نوح وما وصفه به القرآن من دفعه عن بنوة أبيه
وقربائه . وبذلك لم تعد للأمين ولاية ولا حرمة ، فقد خرج من أهله ، وهو إنما
تولى الخلافة ميراثًا منهم ، وقد نكث عهده في الوفاء لأخيه بولاية العهد من بعده ،
هذا العهد الذي كتبه بيده وعلَّقه أبوه هرون على الكعبة ، حتى لا يستطيع الخروج
منه ، وقد نال جزاء خيانتته ، وعادت الأمور إلى نصابها ، فاجتمعت كلمة الأمة

(٣) أحصد : قوى وأحكم .

(٤) أكنافها : نواحيها .

(٥) دروسها : أمحلتها .

(١) زهر الآداب ١٣٠/٢ ومعجم الأدباء .

١٦٧/٥ والجيشياري ص ٣٠٤ .

(٢) وردَّاه : ألبسه .

بعد فرقتها ورُدَّ صولجان الحكم إلى صاحبه تحوطه عناية الله ورعايته . وكان توفيق أحمد بن يوسف في هذه الرسالة دافعاً لأن يطلب منه المأمون والفضل بن سهل أن يكتب رسالة الحميس ، وهي الرسالة التي كان يوجهها خلفاء العصر العباسي الأول بمجرد توليهم الخلافة إلى أهل خراسان مادةً جيوشهم وغيرهم يسطون فيها حقهم في الخلافة واستحقاق الخليفة القائم لها لما امتاز به من مناقب حميدة وما ينبغي على أهل خراسان من الولاء له . وأحكمت ابن يوسف الرسالة إحكاماً دقيقاً ، وطال فيها نفسه حتى بلغت نحو خمس عشرة صحيفة ، وأُعجب بها معاصروه إعجاباً شديداً مما جعل ابن النديم يقول : « الكتب المجمع على جودتها : عهد أردشير ، كليله ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الحميس لأحمد بن يوسف » وقد استهلها بتحميد طويل طريف على هذا النمط ^(١) :

« من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق والناصرين للدين ، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم فإن أمير المؤمنين محمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على محمد وعبد رسوله ، أما بعد فالحمد لله القادر ، القاهر ، الباعث ، الوارث ، ذي العز والسلطان ، والنور والبرهان ، فاطر ^(٢) السموات والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالمن والظول ^(٣) على أهلها ، قبل استحقاقهم لثوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته . الذي جعل ما أودع عباده من نعمته ، دليلاً هادياً لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب ^(٤) ، التي يفهمون بها فصل الخطاب ، حتى أقيموا على موارد الاختبار ، وتعقبوا مصادر الاعتبار ، وحكموا على ما بطن بما ظهر ، وعلى ما غاب بما حضر ، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومتقن صنعته ، وحاجة متزاييل ^(٥) خسلقه ومتواصله إلى القوم ^(٦) بما يسلّمه ويصلحه ، على أن له بارئاً ^(٧) هو أنشأه ، وابتدأه ، ويسر بعضه لبعض ، فكان أقرب وجودهم ما يباشرون من أنفسهم في تصرف أحوالهم ، وفنون انتقالهم ، وما يظهرون ^(٨) عليه من العجز عن التأتى ^(٩) لما تكاملت

(١) القوم : القيام .

(٢) فاطر : خالق .

(٣) الطول : الإنعام .

(٤) الألباب : العقول .

(٥) متزاييل : الترقى .

(٦) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٧ .

(٧) بارئاً : خالقاً .

(٨) يظهر : يظهر .

(٩) التأتى : متفرق .

به قواهم ، وتمت به أدواتهم ، مع أثر تدبير الله عز وجل وتقديره فيهم ، حي صاروا إلى الخلقة المحكمة ، والصورة المعجبة ، ليس لهم في شيء منها تلطف يتيمّمونه ، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذكره : (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعد لك في أي صورة ما شاء ركبك) . ثم ما يتفكّرون فيه من خلق السموات ، وما يجري فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخرات ، على مسير من تصارييف الأزمنة التي بها صلاح الحُرث والنَّسْل وإحياء الأرض وليقاح النبات والأشجار ، وتعاور^(١) الليل والنهار ، ومرّ الأيام والشهور والسنين التي تُحصى بها الأوقات . ثم ما يوجد من دلائل التركيب في طبقات السقف^(٢) المرفوع ، والمهاد^(٣) الموضوع ، باتساق أجزائه والثماها ، وخرق الأنهار وإرساء الجبال . ومن البيان الشاهد على ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق حدوثه بعد أن لم يكن ، مرقياً في السماء ، وثباته إلى أجله في البقاء ، ثم تحاره^(٤) منقضيّاً إلى غاية الفناء . ولو لم يكن له مَفْتَتَح عدد ، ولا منقطع أمد ، ما ازداد بنشوء ولا تحييفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان . ثم ما يوجد عليه منفعة من ثبات بعضه لبعض وقوام كل شيء منه بما يسر له في بدء استمداده ، إلى منتهى نفاذه ، كما احتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : (أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقال عز وجل : (كل من آمن عليها فإن ويبقى وجهه ربك ذو الجلال والإكرام) . وكل ما تقدّم من الإخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي بسّى ، وأطباق الأرض التي دحا^(٥) ، وآثار صنّعه فيما برأ ، وذراً^(٦) ، ثابت في فطر العقول حتى يستنجر أول الزبغ ما يدخلون على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد ، والأنداد ، جبل عما يشركون . ولولا توحيده بالتدبير ، عن كل معين وظهير ، لكان الشركاء جُدراء أن تختلف بهم إراداتهم في الخلق ، ولأمكن التخلف فيه من إثبات وإزالة فيخلو من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فاعجز والنقص فيما ذراه وبرّاه ، جبل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك ، وتعالى

(٤) عاره : رجوعه .

(٥) دحا : بسط .

(٦) برأ وذراً : خلق .

(١) تعاور : تداول .

(٢) السقف المرفوع : السماء .

(٣) المهاد الموضوع : الأرض .

علوًّا كبيراً ، كما قال سبحانه : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً
لذهب كلُّ إله بما خلق ولعلَّ بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون) .

وواضح أن أحمد بن يوسف تحوّل بهذا التحميد إلى ما يشبه مقالة من
مقالات المتكلمين ، فهو يورد فيه الحجج على وجود الله الذى أنشأ العالم وخلق
الإنسان فى صورة مقدرة محكمة ، وقد أعطاه من العقل ما يجعله إذا فكر فى خلق
السموات والأرض يؤمن بأن للعالم إلهاً ، لما يجرى فى أفلاكه من نظام دقيق لا بد له
من منظم ، أحكم تصاريح الأوقات التى يتم بها صلاح كل حى فى الأرض
من إنسان وحيوان ونبات كما أحكم صنعة الكون فى عالم السماء وعلم الأرض بما
مهد فيه من سهول وخطّ من أنهار وأرض من جبال . ويتعمق فى الدلالة على
وجود الخالق البارئ وإنشائه للخلق أنهم يحدثون بعد أن كانوا معدومين وأنهم لا
يزالون يترقّون فى النمو حتى تمتد لهم يد القضاء ، فلا بد من محدث لهم ، وفرق واضح
بينه وبين الحادث ، فالحدث له أول وله آخر ، أو كما يقول : « مفتتح عدد ،
ومنقطع أمد » أما المحدث فلا أول له فى الزمن ولا آخر . وهو مصدر الوجود
وقوامه ، وهو مدبّره ومصرفه . ويقول إن كل ما ذكره من دلالات على وجود الله
ثابت فى فطر العقول السليمة ، وثابت معه أنه واحد أحد لا شريك له ، إلا عند
من زاغت عقولهم ممن يجعلون له الأضداد والأنداد كجوس الفرس الذين آمنوا بأن
للعالم إلهين : إلهاً للخير وإلهاً للشر ، وكفّيرهم ممن جعلوا له نديين أو أكثر ،
ولو صح ذلك لتفاوتت إرادة الآلهة فى الخلق واختلفوا فيه بين الإثبات والإزالة ،
وبذلك يخلو الخلق من أحد وجهيه ، ويتم العجز والنقص على الله فيما برأه عليه
من الحدوث ثم العدم أو من الإثبات ثم الإزالة . وعلى هذا النحو يتطور التحميد
عند أحمد بن يوسف فى رسالة الخميس إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً فى الدلالة
على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم . ونلاحظ أيضاً فى هذا
التحميد أن أحمد بن يوسف يحاول أن ينمق فيه ما وسعه التأميق وجوّه ذلك إلى
الاتساع باستخدام السجع فيه ، وهو لا يطّرد فى كل صياغات التحميد ولا فى
بقية الرسالة ، ولكنه يكثر ، ونحسّ كأن ابن يوسف يقصد إليه قصداً ، وخاصة
حين نراه يسجع بين كلمة وكلمة . ويمضى فيتحدث عن نعمة الله على خلقه

بإرسال أنبيائه وتعاقبهم بالنور الساطع والبرهان القاطع مبشرين ومنذرين حتى ختمهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ويصور جهاده في سبيل دعوته ورسالته حتى أعزَّ الله كلمته واستقام دينه ودخل الناس فيه أفواجاً . ويتحدث عن حق العباسيين في الخلافة ، إذ ورثوها بحكم قرابتهم للرسول صلوات الله عليه ، وكانوا أحق بميراثها من جميع آله ، وبذلك يخوض في تأييد الدعوة العباسية . ويتنقل من ذلك إلى تأييد الدعوة للمأمون بادئاً بتقرير موقفه من الأمين ومسترسلاً فيما ينبغي على شيعته الخراسانيين من مواصلتهم نصرته . ويفيض في وعظهم وما ينبغي عليهم من مجاهدة أعدائهم وأهوائهم ومن الشكر للمأمون الذي يحوطهم برعايته لما فيه خيرهم ورشدهم والذي يتوى جزاءهم بالحسن وحملهم على الطريقة المثلى .

وطلب إليه الحسن بن سهل حين ولاه المأمون وزارته بعد قتل أخيه الفضل سنة ٢٠٢ للهجرة أن يكتب رسالة يشكر المأمون فيها على صنعه جبراً لمصابه ، فكتب رسالة ضافية^(١) ، استهلها بتحميد الله وذكر آلائه واصطفائه محمداً لرسالته بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وتقفيته على آثار الأئمة الراشدين بالمأمون أمير المؤمنين . وأخذ يطنب في الثناء على عدله وما منح الرعية من عطفه ، وأشاد باختياره علياً الرضا لولاية عهده ومؤازرة الفضل بن سهل له في رعاية رعيته والقيام بدعوته وقمع أعدائه ، حتى حمَّ أجله شهيداً فقيداً من إمامه ومن الخاصة والعامه . ويتجه إلى شيعته وشيعة الحسن بن سهل بتصوير حرمة الفضل عند المأمون بعد موته وإكثاره من الترحم عليه . ويشكره بلسان الحسن بن سهل على ما منحه من الوزارة وسنى الرتبة . ويعود إلى بيان ما خصَّ به الفضل في حياته من المنزلة الرفيعة ومن رياسة الحرب ورياسة التدبير وتقليده سيفه وخاتمه وما خصَّه في وفاته من إكرام ومن حزن ممض وعبرات سائلة ومن حفظ لأصحابه وإقرار خاصته وقواده وعماله وكتابه على مراتبهم وما أولى الحسن أخاه من وزارته وعطفه . ويفيض في التنويه بالمأمون وقضائه على خصومه شرقاً وغرباً ورحمته بفقراء المسلمين وضعفائهم وما اقترن له من الملك والدين والقدرة والعفو ، ويشكره عن الإسلام ونصرته له وعن المساجد وتأسيسها على التقوى وتلاوة القرآن وعن الرسول صلى الله

(١) انظرها في جبهة رسائل العرب ٤١١/٢ .

عليه وسلم وحفظه لعِترته وآله وعن القواد والأجناد وما رفع من منازلهم ووفر من رواتبهم ، وعن الأخلاق وما وطد من شيمها الرفيعة وعن المسلمين وما رعى من شئونهم وهزم من أعدائهم ، ويختم الرسالة بالدعاء له دعاء كثيراً : أن يرأب الصدع وترتق الفتوق به وينكّل في أعدائه .

ولأحمد بن يوسف رسالة في تهنئة عبد الله بن طاهر بقضائه على ثورة عبيد الله ابن السريّ بمصر وأخرى في تعنيت بعض العمال على ظلم أنزله ببعض الناس ، ولكنهما لا تبلغان من التعميق ما بلغته الرسائل السابقة . ومن طريف رسائله الديوانية ما كتب به عن المأمون إلى عمال النواحي في الاستكثار من القناديل بالمساجد في شهر رمضان ، وقد جاء فيها^(١) :

« فإن في ذلك عمارة للمساجد ، وإضاءة للمتجهدين^(٢) ، وأنساً للسَّابِلة^(٣) ، ونفياً لمكامن الرّيب ، وتزبيهاً لبيوت الله عزّ وجلّ عن وحشة الظلم » .

وكان يكتب أحياناً إلى المأمون في بعض الشئون ، فيتلطف غاية التلطف ، وما يروى له من ذلك أن طُلاب الصَّلَات كثروا بباب المأمون ، وتأخرت صلاتهم ، فلما طال ذلك غلبهم كتب إليه^(٤) :

« إن داعي نَدَاكَ ، ومنادى جَدِّوَكَ^(٥) ، جمعاً ببابك الوفود ، يرجون نائلك^(٦) المعهود ، فمنهم من يَمُتُ بِحَرْمَةٍ ، ومنهم من يُدْئِي بِسَالِفِ خِدْمَةٍ ، وقد أجحف بهم المَقَام ، وطالت عليهم الأَيَّام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشَهُمْ بِسَيِّبِهِ^(٧) ، ويحقق حسن ظنهم بِطَوْلِهِ^(٨) ، فعل إن شاء الله »

فوقع المأمون في كتابه : الخير متبع ، وأبواب الملوك مفان^(٩) لطالبي الحاجات ومواطن لهم . وأمره أن يكتب أسماء مَنْ بِالْبَاب ومراتبهم ليصير لكل شخص منهم قدر استحقاقه .

(١) الصناعتين للعسكري ص ٢٣ وزهر

الأدب ١٣٢/٢ .

(٢) المتجهدين : من التهجّد وهو الصلاة في جوف الليل .

(٣) السَّابِلة : السائرة في السبل ولا مأوى لهم .

(٤) زهر الأدب ١٣١/٢ ومعجم الأدباء

١٦٩/٥ .

(٥) المعنوي : العطية والتوال .

(٦) النائل : التوال والعطاء .

(٧) السيب : العطاء .

(٨) الطول : الانعام .

(٩) مفان : منازل ومواطن .

وكان كثيراً ما يُهْدَى إلى المأمون هدايا في أيام النيروز^(١) ، ويرفّقها برسالة رقيقة ، تحمل سطرًا أو سطرين من النثر وبعض أبيات من الشعر ، فن ذلك أن أهداه مرة — فيما يقول الرواة — سَفَظَ ذهب فيه قطعة عودٍ هندي في طوله وعرضه ، وكتب معه^(٢) :

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بإتحاف الناس السادة ، وقد قلت :
على المرء حقٌّ وهو لاشك فاعلُهُ وإن عَظُم المولى وجلّت فَوَاضِلُهُ^(٣)
ألم ترنا نُهْدَى إلى الله ماله وإن كان عنه ذاغِنَى فهو قابله
ولو كان يُهْدَى للجليل بقدره لقَصَّر عنه البَحْرُ يومًا وساحله
ولكننا نُهْدَى إلى من نُجِلُّهُ وإن لم يكن في وُسْعنا ما يشاكلُهُ »
وروت كتبُ الأدب كثيرًا من الرسائل الإخوانية لأحمد بن يوسف ، وهو فيها يتروّى ويتأنق في اختيار لفظه ، مع حسن البيان ورصانة القول ، من ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له^(٤) :

« بارك الله في موارذك الذي أتاك وهنأك نعمته بعطيته ، وسلاك^(٥) كرامته بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارًّا تَقِيًّا ، ميمونًا مباركًا زَكِيًّا ، ممدودًا له في البقاء مبلغًا غاية الأمل مشدودًا به عَضْدُك ، مكثّرًا به ولدك ، مُدَامًا به سرورك ، مدفوعًا به الآفات عنك ، مشفوعًا بأكثر العدد ، من طيّب الولد .
وهو دائمًا في التهنة بالمواليد يتحدث عن أنها نعمة من الله وهبة ، ويدعو للأب أن تقر عينه بابنه ، وأن يبارك الله له فيه ، ويجعله بارًّا بأبويه ، تقيًّا زَكِيًّا ميمونًا سعيدًا ، وأن يشدّ به أزر الوالد ويكثر من أحفاده : أولاد هذا الولد الصالح .
وله من تهنة لأحد إخوانه بإبلاله من مرضه^(٦) :

« قد أذهب الله وَصَبَ العلة ونَصَبَها^(٧) ، ووفّر أجرها وثوابها ،

(١) النيروز : من أعياد الفرس وهو أول يوم عندهم في السنة .
(٢) صبح الأعشى ٢/٢٠٤ .
(٣) الفواضل : النعم .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٣٨ .
(٥) ملك : متعك .
(٦) العقد الفريد ٤/٢٣٩ .
(٧) النصب : التعب الشديد ، والوصب : الوجع .

وجعل فيها إرغام العدو بُعْثُهَا^(١) ، أضعاف ما كان عنده من السرور بِقُبْحِ
أُولَاهَا .

وتأنقه في العبارة واضح لا بما يُجْرَى فيها من سجع فحسب ، بل بما يوفر
أيضاً في أوائلها من ترادف النصب مع الوصب والثواب مع الأجر ، ليستم
الجمال الصوقي . ومن رسائله في الشكر^(٢) :

« من اتسع في الأفضال^(٣) ، اتسعت به الأقوال من شاكر مُثْنٍ ، ومادحٍ
مُطَرٍّ ، ولسنا نصفك بما يَعْنِي لَنَا ، وَيَذِلُّ عَلَى أَلْسِنَتِنَا ، مما يَتَقَرَّبُ به
ذو الرغبة ، وَيَضْرَعُ به ذو الرَّهْبَةِ ، لاستئزال مرغوب ، أو استئجاز مطلوب ،
واكئنا نطقي عن سِرِّكَ بإفصاح ، ونُثْنِي عنها بإيضاح ، فَتَنَكُفُّ شَغَبَ
الكائد ، وَتُطِيلُ نفس الحاسد » .

وسجعه المطرد في هذه الرسالة ليس معناه أنه كان يسجع دائماً ، فهو يسجع
حيناً ، وحيناً لا يسجع ، ولكنه يُعْنِي كما قلنا بالترادف بين الألفاظ والعبارات ،
على نحو ما نرى في هذه الرسالة إذ تلا كلمة « شاكر مُثْنٍ » بكلمة « مادحٍ مطرٍ »
وهي بنفس معناها ، ليحكم لتعبيره التلاؤم الصوقي والتعادل الموسيقي ، وهو ما كان
يسميه القدماء بالازدواج ، ودائماً تتردد أساليبه بينه وبين السجع على شاكلة قوله
في المديح^(٤) :

« لقد أحلك الله من الشرف أعلى ذِرْوَتِهِ ، وبلَّغَكَ من الفضل أبعد غايته ،
فالآمال إليك مصروفة ، والأعناق إليك معطوفة . عندك تنتهي الهمم السامية ،
وعليك تقف الظنون الحسنة ، وبك تُشْفَى^(٥) الخناصر ، وتُسْتَفْتَحُ أغلاق
المطالب ، ولا يستريث^(٦) النُّجُجُحَ مَنْ رَجَاكَ ، ولا تعرفه النوائبُ في ذَرَاكَ^(٧) .
وعلى نحو ما كان يتفنن في المدح والثناء كان يتفنن في الذم والمجاء ، وكان
أحياناً يَسَخِرُ فيه وخز الإبر وأحياناً يطعن طعنات مدمية ، من ذلك ما كتب به
إلى آل سعيد بن سلم^(٨) :

(٥) تشفى الخناصر : كناية عن أن الآمال

تعقد به .

(٦) يستريث : يستبطل .

(٧) الذرا : الكنف والظل .

(٨) زهر الآداب ١٣٢/٢ .

(١) عقبها : عاقبها .

(٢) الأوراق للصول (قسم الشعراء)

ص ٢٣٣ .

(٣) الأنضال : النعم والأيدى .

(٤) الأصول ص ٢٣٢ .

« لولا أن الله عزَّ وجلَّ ختم نبوته بمحمد صلى الله عليه وسلم وكُتِبَتْهُ بالقرآن لبعث لكم نبيًّا نِقْمَةً ، وأنزل فيكم قرآن غَدْر ، وما عَسَيْتُ أن أقول في قوم : محاسنهم مساوى السُّفلة ، ومساوئهم فضائح الأئمة ، وألستهم معقولة بالعبي ، وأيديهم معقودة بالبخل ، وأعراضهم أغراض للذم ، وهم كما قال الشاعر :

لا يكثرون وإن طالت حياتُهُمْ ولا تبید مخازيهم وإن بادوا »
وله معاتبات واعتذارات كثيرة ، وكان يعرف في الأولى كيف يتحدث عن رعاية حق الصديق ، كما كان يعرف في الثانية كيف يتسع بالحجة والفكرة للبيعة ، حتى يستل من صاحبه عفوه ورضاه ، من ذلك ما كتب به إلى أحد أصدقائه (١) :
« أتيتك وافداً بذنوبى على عَقْوِكَ ، واثقاً لعقوبى ببرِّكَ ، لا مستظهِراً عليك بشفيحٍ قدَّمته ، خلا تطوُّك (٢) بالعفو عن الإخوان ، وتفضلك عليهم بالإحسان ، فإن تعاقب فقد حكمت بالمعدلة (٣) بعقوبتك على نفسى ، وإن تجاف عن ذلك فإن الله يعلم أن قلبى لم يُصِرَّ لك على قطيعة ، وكلُّ ذنب كان أصله الاستبطاء لدالة الحرمة ، والاستعطاف بماتة (٤) الخدمة ، فهو مما يُعَدُّ في الحسنات ، لا السيئات . »

وتدور في كتب الأدب له توقعات طريفة كان يوقع بها على رقايع الشكوى . وكتب بعض العمال ورسائل الاستمache وبَدَّل المعروف ، فن ذلك ما حكى الرواة من أن رجلاً غصب آخر ضيعةً في أثناء غيابه واستغلَّها سنوات معدودة ، فلما قدم طالبه بضييعته ، فاشتكاها قائلاً : الضيعةُ لى وفى يدى ، واطَّاع ابن يوسف على الشكوى ، فوقع عليها بقوله (٥) :

« الحق لا تَحْلُقُ جِدَّتَه ، وإن تطاوت بالباطل مُدَّتَه ، فإن أنطقت حُبَّتَكَ بإفصاح ، وأزلت مشكلها بإيضاح - غير . « لى وفى يدى » فكثيراً ما أراها ذريعة الغاصب ، وحجة المغالب - وقُرِّحَقك عليك ، وسبقَ بلا كَدِّ إليك ، وإن ركنت من البيان إليها ، ووقفت عن الاحتجاج عليها كانت حجته بالبيينة

(١) مائة : صلة .

(١) جمهرة رسائل العرب ٤٥٢/٣ .

(٥) جمهرة رسائل العرب ٤٥٨/٤ .

(٢) تطوُّك : تفضلك .

(٣) بالمعدلة : بالعدل .

أعلى ، وكان بما يدَّعيه أولى ، إن شاء الله .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور بلاغة أحمد بن يوسف وكيف أنها كانت تعتمد على غزارة في الفكر وبراعة في الأداء وهي براعة يتقدم بها مَنْ سبقوه من كتَّاب الدواوين في القرن الثاني الهجري تقدماً واسعاً وخاصة في الرسائل السياسية ، إذ تأتق في ألفاظها وعباراتها تأتقاً جعله يتخللها بالسجع ، فإن لم يواته تخللها بالازدواج والترادف الصوتي ، وبذلك أسبغ عليها ضرورياً من الجمال الموسيقي لم تكن مألوقة قبله إلا في بعض الرسائل الإخوانية وبعض التوقيعات ، على نحو ما مرَّ بنا في الفصل السابق عند ابن سيَّابة وجعفر بن يحيى البرمكي . ولا ننسى سهال بن هرون ، فقد كان يُعنى مثله بالازدواج والترادف والموسيقى غير أن ابن يوسف هو الذي أعدَّ هذا الأسلوب وما طوى فيه من سجع ليُشيع في الكتابات الديوانية.

٤

عمرو^(١) بن مسعدة

كان جده الأعلى صول أحد ملوك جرجان ، وكان من الترك الذين اعتنقوا المسيحية وتشبهوا بالفرس ، وقد اعتنق الإسلام في زمن بني أمية ، ودخل ابنه سعيد في الدعوة العباسية ، فلما نجحت صارت له منزلة في الدولة إذ كان من دُعائها النابهن ، ولم يلبث خالد البرمكي أن استخلص ابنه مسعدة للكتابة بين يديه في وزارته للسفاح والمنصور ، وظل يعمل في دواوين الأخير حتى قلده وزيره أبو أيوب المورياني رئاسة ديوان الرسائل ، ويولِّدُ له ابنه عمرو ، فيُعنى بتأديبه حتى يصُلح للكتابة في دواوين الدولة . ويظهر أنه مضى يتشقق ثقافة عربية وإسلامية واسعة ، حتى غدا لَسِيناً فصيحاً ، بل لقد غدا شاعراً ينظم الشعر ، كما غدا يحسن شئون الفقه مما يتصل بالخراج ، ووقف على العلوم الرياضية ، وما يتصل بها من الحساب مما كان يشقُّفه الكتاب ، كما وقف على آداب الفرس وكتاباتهم في السياسة والأخلاق وتدبير الحكم ، وربما وقف أيضاً على شيء من

خلكان ٤٩٢/١ وتاريخ بغداد للخطيب
البغدادى ٢٠٣/١٢ وزهر الآداب ٢٤٩/٣

(١) انظر في ترجمة عمرو بن مسعدة معجم
الأدباء ١٢٧/١٦ ووفيات الأعيان لابن

الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية . وكل تلك كانت أدوات ترشح الشخص لكي يعمل في الدواوين لعصره ، ويتقن العمل فيها ، ويظفر بما يريد من الإعجاب والترقى في المراتب السنية .

وما نصل إلى زمن الرشيد والبرامكة حتى نجد جعفر بن يحيى البرمكي يستخلص عمراً لنفسه ، ويتخذة كاتباً للتوقيع بين يديه ، إذ حدث عن نفسه قائلاً : « كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى فرفع إليه غلمانة ورقة يستزيدونه في روايتهم ، فرمى بها إلىّ ، وقال : أجِبْ عنها ، فكتبت : قليل دائم خير من كثير منقطع . فضرب بيده على ظهرى وقال : أى وزير فى جليلك ! » . وأفاده عمله مع جعفر فى التوقيعات إفادة واسعة ، إذ كان جعفر يُعَنِّى - كما قدمنا - بتنميق عباراته والاقتصاد فيها أشد ما يكون الاقتصاد ، فطُبع بطوابعه البلاغية على نحو ما سنرى عما قليل .

ونراه بعد ذلك متصلاً بالفضل بن سهل القائم على تدبير شئون المأمون حين كان يحكم من مرو الولايات الشرقية ، وقد اتخذه كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع وزيراً له وأسلم إليه مقاليد الحكم ، فما زال بالأمين حتى قضى عليه كما قدمنا ، وبابح الناس المأمون بالخلافة ، وظلاًّ جميعاً بمرو حتى سنة ٢٠٢ للهجرة ، فبارحها قاصدين إلى بغداد ، وقُتِلَ الفضل فى الطريق ، كما أسلفنا . وإنما ذكرنا ذلك لما نظنه من أن عمرو بن مسعدة إذا كان عمل فى دواوين الفضل فلا بد أن يكون عمل بها فى مرو ، مثله مثل أحمد بن يوسف ، وكأن الفضل أعجب به ، فأدناه منه واصطحبه معه هناك . وعاد إلى بغداد ، فعمل فى دواوين أخيه الحسن وزير المأمون أو بعبارة أدق عمل فى دواوين الخلافة ، ووقع من نفس المأمون موقِعاً حَسَنًا فعهِدَ إليه أحياناً تفتيش الولايات ، وما زال يعجب به وببلاغته ، حتى إذا رَفَعَ أحمد بن يوسف إلى مرتبة الوزارة أقامه على ديوان الرسائل ، وكان يأنس له ويستطيب حديثه ، فلما أخذ فى غزو الروم كان يستصحبه فى غزواته . ولعظم منزلته عنده ظن بعض الشعراء أنه استوزره ، وذكر ذلك فى بعض مديحه له ، إذ يقول :

لقد أسعد الله الوزير ابن مسعدة وبث له فى الناس سُكراً ومُحمَدة

وكان جواداً ممدّحاً ، كما كان فاضلاً نبيلاً حميد العشرة محبباً إلى معاصريه ، وما تُؤاڤ سنة ٢١٧ للهجرة حتى يُلبسَ نداء ربه بأذنه في غزوة مع المأمون . ويرَوى أنه لما مات رُفعت إلى المأمون رقعة فيها أنه خلّف ثمانين ألف ألف درهم ، فوقع في ظهرها :

« هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيما خلّف وأحسن لهم النظر فيما ترك » .

وكان عمرو بن مسعدة يروع معاصريه ببلاغته ، وهى تُعمدُ امتداداً لبلاغة جعفر بن يحيى البرمكى ، تتصف بصفتين أساسيتين بارزتين هما الإيجاز الدقيق والوضوح البالغ ، وهما نفس الصفتين اللتين امتازت بهما بلاغة ابن مسعدة ، أما الإيجاز فقد بلغ منه أنه كان يُضربُ به المثل فيه ، كما كان يُضربُ بجعفر بن يحيى من قبله ، وكان يقول للكتاب : إذا استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا . وكأنما استقر ذلك في نفس عمرو فإذا هو يُحيل كتبه في مختلف الأغراض إلى ما يشبه التوقيعات اختصاراً واقتصاداً في القول . وأما الوضوح فقد كان جعفر شديد الكلف به ، وكثيراً ما كان يوصى به الكتاب من حوله ، ومرّ بنا في الفصل الماضى وَصَفُ ثُمَامَةَ بن أَشْرَسَ المعتزل لبلاغته ومدى ما كان يجرى فيها من بيان ووضوح وإيجاز شديد ، ويرَوى أن الفضل ابن سهل وصف بلاغة ابن مسعدة فقال : « هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثل كتبه فإذا رامها تعذرت عليه ^(١) » . وهذا كما قيل لجعفر بن يحيى : ما حدّ البلاغة ؟ فقال : التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها ، فإذا رامها استصعبت عليه .

وليس هذا كل ما أخذه عمرو عن جعفر ، فقد كان جعفر يتأنق في اختيار لفظه ، حتى لينمقه أحياناً بالسجع الرشيق ، فحاكاه عمرو في تنميقة وتأنقه وإشاعة السجع أحياناً في كلامه ، وخاصة إذا كان موجزاً وطال نظره فيه ، إذ كان لا يزال يبحث عن اللفظة الملائمة التى تروق في السمع ، كما يبحث عن المعنى الدقيق ، فالكتابة عنده وخاصة إذا اتجه بها إلى الحسن بن سهل أو إلى المأمون أو كلّماه بالكتابة عنهما لم تعد شيئاً يجرى عفواً الخاطر ، بل أصبحت بحثاً بأدق

ما تدل عليه كلمة بحث ، بحثاً في استقطار المعاني ، بحيث لا يفوت المعنى على إيجازه الدلالة الواضحة البينة عن طائفة واسعة من الأفكار ، وبحيث لا يفوت الألفاظ حمل المعنى وأدائه أداء يخلب الأبواب . ولعل من الخير أن نسوق طائفة من رسائله نستشف منها خصائصه البلاغية ، فمن ذلك ما كتب به إلى الحسن ابن سهل يستم صنائعه عنده (١) :

« أما بعد فإنك ممن إذا غرس سقى ، وإذا أسس بنى ، ليستم تشييد أسسه ، ويحتج ثمار غرسه ، وبنائك عندي قد شارب الدروس (٢) ، وغرسك مشف (٣) على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست ، وسقى ما غرسست ، إن شاء الله .

وواضح تأنقه في الكتاب وتنميته ، حتى ليبينه على السجع ، وواضح أيضاً تدقيقه في اختيار الألفاظ ، وأنه لا يعتمد إلى الإطناب ، إنما يعتمد إلى الاقتصاد ، مؤدياً بصورتين كل ما في نفسه ، فصنائع الحسن عنده تشبه بناء ، وضع أساسه ، ولا بد من متابعة الإنفاق عليه حتى يرتفع في الجو وتقوم أركانه ، أو هي تشبه غرساً ، لا بد له من تعهد بالماء والتربية حتى يشتد ويؤتي ثماره . ويقول إن الأساس قد أشرف على الامحاء والغرس قد أشرف على الذبول فلا تضن بالنفقة والتعهد عليهما حتى لا يضيع ما أنفقت وتعهدت أولاً . أرايت كيف أننا حين نعد إلى فهم كلام ابن مسعدة نُضْطَرُّ إلى شيء من البسْط والإطناب ، وكأننا بإزاء صياغة تشبه صياغة الشعر الغنائي المركزة التي يُشْقِلُها ما تحمل من معانٍ كثيرة في عبارات مسرفة في الإيجاز . ومع ذلك فالألفاظ واضحة غاية الوضوح ، ولكنها مع وضوحها تحمل معاني غزيرة ، مع قلة عدد الحروف والكلمات ومع سهولة الألفاظ وخفتها في النطق . وقال أحمد (٤) بن يوسف : « دخلت على المأمون وفي يده كتاب ، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة ، ويصعد فيه بصره ويصوبه ، فالتفت إلى وقد لحظني في أثناء قراءته للكتاب ، وقال : يا أحمد أراك متفكراً فيما تراه مني ! قلت : نعم ، وقى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاده من المخاوف ، قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكني أقرأ كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله في البلاغة ،

(٤) انظر وفيات الأعيان ٩٤/١ وقارن

بزهرة الآداب ٢٤٩/٣ والعقد الفريد ٢/٢٧٢ .

(١) معجم الأدباء ١٦/١٣٠ .

(٢) الدروس : الإجماع .

(٣) مشف : مشرف .

فلما سمعته يقول : البلاغة التباعد من الإطالة والتقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى . وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا ، ورى به إلى وقرائته ، فلماذا فيه : « كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جُند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كُفأة تراخت أعطياتهم ، واختللت لذلك أحوالهم ، والثالث^(١) معه أمورهم » .

فلما قرأته قال : إن استحسانى إياه بعنى أن أمرت للجند قبلكه بعطائهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حلّ محله في صناعته . وفي رواية أخرى أنه قال لابن يوسف : لله درّ عمرو ما أبلغه ! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبار ، وإعفائه سلطانه من الإكثار .

ولا ريب في أن عمراً تعب طويلاً في كتابة هذا الكتاب الموجز ، حتى يقع على العبارات القليلة التي تؤدي إلى المأمون امتعاض القواد والجند من تأخر رواتبهم ، وقد أخذ يمتال لإنباته بهذا الخبر بحيث لا يضيق بهم وبحيث لا يظن أنهم عملوا إلى شغب أو ما يشبه الشغب ، فذكر أولاً أنهم مثلثون له متقادون ، وأنهم مستمسكون بغير طاعته استمساكاً يستغرق قلوبهم كأحسن ما يكون استمساك جيش بطاعة خليفته ، ثم أتبع ذلك بتأخر أرزاقهم ورواتبهم حتى أجهدهم ما تحملوه من هذا التأخر وحتى اضطربت أمورهم ، ومثلهم - مع طاعتهم وانقيادهم - حرى أن يسدّ اختلالهم وأن يرعى لهم وفاؤهم ، فتعجّل رواتبهم وأرزاقهم . وكان للكتاب أثر بالغ في نفس المأمون إذ أمر أن تُصرف للجند والقادة في الحال أعطياتهم ، لا لشهر ولا لشهرين بل لسبعة أشهر متتابعة . ويقال إنه أمر بأن يعطى لعمرو أيضاً راتبه لثمانية أشهر جزاءً وفاقاً لحسن عرضه للمسألة ودقة تطفه في إيرادها وتصويرها .

ويروى صاحب^(٢) زهر الآداب أنه قدم على المأمون رجل من أهل الشام على عِدّة سلفت له منه بتوليته بلده ، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون بما وعده به ، فقصد عمرو بن مسعدة ، وعرض عليه المسألة ، وسأله

إيصال رقعة إلى المأمون بها ، فقال له : اكتب بما شئت ، فإني موصله . فتوصل إليه أن يتولى هو كتابة الرقعة عنه ، حتى يكون له فضلاً ، فكتب عمرو : « إن رأى أمير المؤمنين أن يَفُكَّ أسْرَ عِدته من رِبْقَةٍ ^(١) المَطْل بقضاء حاجة عبده ، والإذن له بالانصراف إلى بلده ، فعل موفّقاً » .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرًا ، فأطلعه عليها وجعل يعجب من حسن لفظها وإيجاز المراد فيها ، فقال له عمرو : فما نتيجتها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتابة له في هذا الوقت بما سأل ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة تفي دناءة المَطْل .

وأكبر الظن أن المأمون لم يستحسن كلام الرقعة لدقة إيجازها وتعبيرها السريع عن مقصودها فحسب ، بل استحسناها أيضاً للصورة المبتوثة فيها ، وكان ابن مسعدة كثيراً ما يُعْنَى بالتصوير في كتابته على نحو ما مرّ بنا في رسالته للحسن ابن سهل . وبذلك تحوّل فن الرسائل عنده إلى عبارة موجزة كعبارات التوقيعات وإلى صور نادرة تستهوى القلوب بطرافتها ودقتها في التعبير عن المعنى الذي يريد تجسيمه . وكان يضيف إلى ذلك رقعة في الشعور ، هي رقعة الكاتب المتحضر الذي أرهف ذوقه ، والذي عودته آداب اللياقة الاحتياط فيما يورده على سمع الخليفة والوزير ، بحيث ينال إعجابه واستحسانه . ويروى صاحب المثل السائر ^(٢) أن رجلاً من بني ضَبَّة ضَرَعَ إليه أن يشفع له عند المأمون في الزيادة لمنزلته وراتبه المقدّر له ، فكتب إلى المأمون مستشفعاً له :

« أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين — لتطوّل ^(٣) على — في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدّى طاعته ، والسلام » .

وأعجب المأمون بدقة عرضه لشفاعته وإخراجه لها في معرض التعريض ، تلطفاً ، وإشارةً من طرف خفي إلى حرمة منه ، وما يختصه بالعطف والخطوة عنده . وبذلك كانت أوكد وسيلة وأوثق ذريعة لإجابة طلبه وشفاعته ، مما جعل

(٣) تطوّل : تفطّنك .

(١) رِبْقَة : عروة .

(٢) المثل السائر ص ٣٩١ .

المأمون يوقع على الكتاب بقوله : « قد عرفنا توطئتك له ، وتعريضك لنفسك ، وأجبتك إليهما ، ووافقناك عليهما » .

وكان إيجازه المفرط مع دقته في أداء المعاني يروع المأمون روعة شديدة ، ويروى أنه أحب يوماً أن يرى مدى مقدرة في هذا الإيجاز ، فأمره أن يكتب إلى بعض العمال في العناية بشخص والاهتمام بأمره ، وأن يوجز كتابه ما أمكنه ، بحيث لا يتجاوز ما يكتبه سطرًا واحدًا ، فكتب (١) :

« كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه ، معننى بمن كتب له ، وإن يضيع بين الثقاية والعناية حامله ، والسلام » .

ولا ريب في أن هذا الكتاب القصير - بل المفرط في القصر - يصور مدى ما كان يبذل ابن مسعدة من جهد عنيف في جمع المعاني الكثيرة وتركيزها في معنى يؤديها أجمل ما يكون الأداء ، سواء بما يختار من لفظ أنيق أو صورة بدیعة ، وكأنه لا يصوغ كلاماً ، وإنما يقطر من الكلام شدًى فائحاً شديد التأثير في قارئه وسامعه .

وعلى هذا النحو تحولت الكتب عند ابن مسعدة إلى كلمات قصار ، ككلمات التوقيعات ، بل لعلها أشد قصراً ، وأقوى منها حدة . وما نشك في أنه تأثر في هذا الاتجاه بالحكم الكثيرة التي تُرجمت في عصره ، على نحو ما نرى في الأدب الصغير والكبير لابن المقفع ، وكأنه أراد أن يجعل كتبه أو على الأقل طائفة منها حكماً وأمثالاً تدور على ألسنة الكتّاب والأدباء . وروى له ابن خلكان رسالة طويلة مسجوعة كتب بها إلى بعض الرؤساء ، وقد أهتم وأحزنه زواج أمه ، لينفّس عنه ، وما إن قرأها حتى سحره بيانه واعتذاره عن أمه وذهب عنه الهم والحزن . وشك ابن خلكان في الرسالة وقال إنها تنسب إلى ابن العميد ، وهو محق في شكه ، لسبب بسيط ، هو طولها الذي لا نألفه عند ابن مسعدة ، فقد كان يتبض يده عنه ولا يبسطها إلا على حروف معدودة محكمة .

ابن الزيات^(١)

هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، اشتهر بابن الزيات ، لأن جده أباناً كان يجلب الزيت من موطنه إلى بغداد متجراً فيه ، وأصله من مقاطعة جيل جنوبي بغداد ومن قرية تسمى الدسكرة . وقد دفع ابنه عبد الملك إلى احتراف التجارة ، وجدّ فيها حتى صار من تجار الكرخ^(٢) المياسير ، وولّد له محمد سنة ١٧٣ ونشأ يحب الأدب ، فأقبل ينهل منه ، كما ينهل من علوم اللغة ومن ينابيع الآداب الأجنبية الشائعة في عصره ، حتى شدا الشعر ونبع فيه كما نبغ في النثر . وحاول أبوه أن يصرفه عن هذا الاتجاه إلى التجارة المربحة فكان يصدّه ، ويلزم الأدب وطلبه ، ويلزم الدواوين محاولاً أن يلفت من فيها إلى مهارته الأدبية ، وقال له أبوه يوماً : « والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضرّك ، لأنك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفٍ » ، ولك ولأبيك فيه مالٌ وجاه ، وتطلب الآجل الذي لا تدرى كيف تكون فيه ، فقال : والله لتعلمنّ أينما ينتفع بما هو فيه : أنا أم أنت ، ثم شخص إلى الحسن بن سهل ، فامتدحه بقصيدة ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، فعاد بها إلى أبيه فقال له أبوه : لا ألومك بعدها على ما أنت فيه . ويقال إنه لما مدح ابن سهل ووصله بالدرهم المذكورة مشتلّ بين يديه ، وأنشده :
لم أمتدحك رجاء المال أطلبه لكن لتدبسنّي التّحجيل والغرّا^(٣)
وليس ذلك إلا أننى رجل لا أطلب الورّد حتى أعرف الصّدرا^(٤)
يشير بذلك إلى مأربه من مديحه ، وأنه لم يمدحه طلباً للمال ، وإنما ممدحه طلباً لتعيينه كاتباً بالدواوين ، وعيّنه الحسن بن سهل ، فحقّق له أملاً طالما كان يروده .

٧٠/٢ .

(٢) الكرخ : محلة الأسواق والتجار ببغداد .

(٣) التحجيل : بياض في قوائم الفرس .

الفرس : جمع غرة ، بياض في وجهه . والاستعارة واضحة .

(٤) الورّد : ورود الماء . الصدر : الصدور

والرجوع عنه .

(١) انظر في ترجمة ابن الزيات الأغاني

(طبعة الساسي) ٤٦/٢٠ والفهرست ص ١٧٧

وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٤٢/٢

والفخرى ص ١٧٥ والمسعودى ٣٩/٤ والطبرى

٣٤٣/٧ وغرر الخصاص الواضحة للوطواط

ص ١٤٢ ، ١٠٤١ ووفيات الأعيان لابن خلكان

ومضى ابن الزيات يختلف إلى الدواوين وهو يتابع مدارسته لعلوم اللغة والنحو ، ويظهر أنه تزود منها زاداً وافراً ، فقد ذكر الرواة أن أبا عثمان المازني حين قدم بغداد كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في مسائل علم النحو ، فإذا اختلفوا في مسألة يقع فيها الشك قال لهم : ابعثوا إلى هذا الفتي الكاتب - يعنى ابن الزيات - واسألوه واعرفوا جوابه ، وكانوا يفعلون ، ويعرضون ما يجيب به على المازني ، فيرى أنه الصواب الذى يرتضيه ، ويشرحه لهم ويقفهم عليه .

وعلى نحو ما كان عالماً باللغة والنحو كان شاعراً بارعاً ، ومرت بنا في حديثنا عن الشعر مرثية لزوجته ، وهى من روائع المراثى ، وله وراءها مراث أخرى فيها وأشعار كثيرة ، كوّنت له ديواناً نُشر في القاهرة ، ومن يرجع إليه يجد شاعريته فياضة ، كما يجد الشعر مدللاً له في المواقف المختلفة التى قد يصعب فيها على غيره ولا يسلس قياده . ويقال إنه لما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة حين عقد المأمون لعلی الرضا البيعة بولاية العهد ، وتطورت الظروف على نحو ما قدمنا ولم يتم أمره استتر خوفاً من المأمون وانتقامه ، وظل مستخفياً سنوات لا يُعرفُ موضعه ، حتى إذا ظهر وعفا عنه المأمون طالبه التجار بأموالهم التى كان قد اقترضها منهم فكان يقول : إنما أخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من فيئتهم والأمر الآن إلى غيرى ، وكان قد اقترض من عبد الملك بن أبان عشرة آلاف درهم ، وكان إذا طالبه بماله لقيه بنفس الجواب ، فنظم ابنه محمد قصيدة يصور فيها ثورته على المأمون مقارناً بينها وبين ثورة الأمين وما ناله من القتل جزاء غدره ونكته ، حتى يوغر صدر المأمون عليه ، ويطير به طيرة بطيئاً سقوطها . ومضى بالقصيدة إلى ابن المهدي ، فأنشدها له ، وقال : والله لئن لم تعطى المال الذى اقترضته من أبى لأوصلن هذه القصيدة إلى المأمون ، ففزع إبراهيم وجزع ، وقال له متوسلاً : خذ منى الآن بعض المال ، واجعل الباقي أقساطاً ، ولا تظهر القصيدة ، ووفى كل منهما لصاحبه .

وما زال ابن الزيات يعمل في الدواوين حتى وكى مقاليد الخلافة المعتصم ، فقرّبه منه ولم يلبث أن استوزره ، ويقال إنه طلب حينئذ أن لا يلبس القباء^(١) على

(١) القباء : ثوب فارسي قصير .

عادة الوزراء وأن يلبس الدُّرَّاعَة^(١) ويتقلَّد عليها سيفاً بجمائل ، فأجيب إلى طلبه ، ويحسُّ بإقبال الدنيا عليه ، فيفتح أبوابه للشعراء ، ويُجْزَل لهم في العطاء ، ومن أهمُّ مُدَّاحه كما مرَّ بنا أبو تمام ، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض أبيات من قصيدته التي وصف فيها قلمه وبلاغته . وكانت قد انعقدت أيام عمله في الدواوين صلة وثيقة بينه وبين الحسن بن وهب ، فلما ولي الوزارة قلَّده ديوان الرسائل ، وربما كان الجاحظ أهمُّ أديب توثقت به صلته في وزارته .

وتوفى المعتصم ووكَّيَ ابنه الواثق ، فظل وزيراً له ، ولعل من الغريب أن نجده في وزارته لهما جميعاً يعادى أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي المشهور ، وكان المعتصم جعله قاضي القضاة واتخذَه كما اتخذَه ابنه الواثق ناصحاً ومشيراً ، ودبَّ التنافس بينه وبين ابن الزيات ، حتى انقلب إلى عداوة وتهاجٍ بالشعر ، وكان ابن أبي دؤاد يحرِّض الشعراء على هجائه ويصلهم ، ويقال إن بعض الشعراء هجاءه بقصيدة عدة أبياتها سبعون بيتاً ، فبلغ خبرها ابن أبي دؤاد ، فقال :

أَحْسَنُ مِنْ سَبْعِينَ بَيْتاً سُدِّيَ جَمْعُكَ إِيَاهُنْ فِي بَيْتٍ
مَا أَحْجَجَ النَّاسَ إِلَى مَطَرَةٍ تَذْهَبُ عَنْهُمْ وَضَرَّ الزَّيْتِ
وكان ابن الزيات لبراعته في الشعر يكيل له الصاع صاعين ، فاضطربت العداوة بينهما اضطراباً . وكانت في ابن الزيات قسوة شديدة قلما تُؤْلَفُ في أمثاله من الأدباء الذين رزقوا دقة في الحس ، ورهافة في الشعور ، ويؤثر عنه أنه كان يقول : « الرحمة خَوَرٌ في الطبيعة وضعف في المُنَّة »^(٢) ، ما رحمت شيئاً قط . وبلغ من قسوته أن اتخذَ تَسَنُّوراً من حديد ، وجعل فيه مسامير ، ليعذَّب به المطالبين بالأموال من أرباب الدواوين . وكان في وزارته للواثق ، يتجهَّم للمتوكل ، وحاول أن يصرف الخلافة عنه إلى ابن الواثق ، وطمح إلى إنفاذ ذلك بعد وفاته ، بينما تحمس ابن أبي دؤاد للمتوكل ، فلما ولي الخلافة استوزر ابن الزيات أربعين يوماً ليطمئن ، وظل ابن أبي دؤاد يغريه به لينكبه ، حتى أصاح له وقبض عليه وطالبه بالأموال ، ولم يلبث أن أدخله التَّنُّور الذي صنعه ، وقيده فيه بخمسة عشر رطلاً من حديد ، وظل به أربعين يوماً يعذَّب عذاباً شديداً ،

حتى مات ، وكان موته في آخر ربيع لسنة ٢٣٣ للهجرة .

ولم تدُرْ لابن الزيات رسائل كثيرة في كتب الأدب ، مع كثرة ما يدور فيها من رسائل موجهة إليه ، ويظهر أنه وكتل في وزارته للحسن بن وهب كتابة الرسائل الديوانية والرد عليها ، ومن القليل الذي احتفظت به تلك الكتب العهد اللواتق على مكة ، وقد كتبه بحضرة المعتصم على هذه الصورة^(١) :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين قد قلّلك مكة وزمزم ، تراث أبيك^(٢) الأقدم ، وجدك^(٣) الأكرم ، وركضة جبريل ، وسقيا إسماعيل وحفّر عبد المطلب ، وسقاية العباس ، فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على أهل بيته . »

وابن الزيات يشير في هذا العهد المقتضب إلى قصة هاجر زوج إبراهيم عليه السلام حين ولدت ابنها إسماعيل منه ، وغارت زوجه الثانية سارة ، واضطرته أن يشترطها منزلاً بعيداً عنها ، فأنزلها بوادي مكة الجذب ، وذكر ذلك القرآن الكريم في قوله جلّ شأنه على لسان إبراهيم : (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم) . وأعيها أن يجدا ماء يستقيان منه ، وبينما هاجر قد أخذها اليأس من وجوده إذا جبريل يهبط راکضاً على موضع ، لا تلبث بئر أن تنفجر منه ، هي بئر زمزم ، فتستقي منه هاجر وإسماعيل . وتمر الأيام فتطمّر البئر وتمحى معالمها وتظل مطمورة ، حتى يُلْقَى في روع عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفرها ، وما إن ضرب بمعوله فيها حتى فاض الماء ، واتخذها لسقاية الحجيج ، وورث ابنه أبو طالب شرف هذه السقاية بعده وورثها عنه العباس أخوه جد العباسيين . وإلى كل هذه القصة يشير ابن الزيات في عهد اللواتق ، وكأننا نلتقي عنده بأسلوب ابن مسعدة المبني على الإيجاز والاقتصاد في القول من جهة ، وعلى التأنيق في التعبير من جهة ثانية ، تأنيقاً يجره إلى السجع

ويظهر أن ابن الزيات لم يكن يعمد إلى السجع دائماً ، وكأنما كان يرى فيه مبالغة في التكلف ، فقد احتفظ له ابن عبد ربه برسالة إلى أحد العمال تخلو من السجع ، وهي تجري على هذا النمط^(٤) :

(٢) يريد بجده الأكرم : إبراهيم الخليل .

(٤) العقد الفريد ٤ / ٢٤١ .

(١) زهر الآداب ٤ / ١٦٠ .

(٢) يريد بأبيه الأقدم : إسماعيل عليه السلام .

« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لائمة^(١) : إما تقصير في عملك دعاك للإخلال بالحزم والتفريط في الواجب ، وإما مظاهره^(٢) لأهل الفساد ومداهنة لأهل الرِّيب ، وأية هاتين كانت منك مُحَلَّةٌ التَّكْرَرُ بك وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلغاك به أمير المؤمنين من الأناة والنَّظِيرَة^(٣) والأخذ بالحجة والتقدم في الإعذار والإنذار ، وعلى حسب ما أُقِلَّتْ^(٤) من عظيم العِشْرَة يجب اجتهداك في تلافى التقصير والإضاعة ، والسلام . »

والقصد إلى الإيجاز واضح في الرسالة ولكنه إيجاز من درجة ثانية غير درجة الإيجاز عند ابن مسعدة ، فالإيجاز ابن الزيات لا يتحول إلى ما يشبه التوقعات والحكم والأمثال ، إنما هو ضرب من الاقتصاد في التعبير ، مع الاتساع في المعنى وبسط أطرافه قليلا ، ليحيط بكل ما يدور في نفس الكاتب ، ومع الوفاء برصانة اللفظ وجزائته ومتانته ، ومع الدقة في انتخابه واختياره ، دون تكلف لجمال صوتي يجرُّ إلى السجع أو إلى الازدواج الذي كان يستخدمه أحمد بن يوسف وسهل بن هرون وأصراهما من الكتَّاب ، وما يصور ذلك عنده ما احتفظ به ابن عبد ربه من بعض فصوله مثل قوله^(٥) :

« إن الله أوجب لخلفائه على عبادته حق الطاعة والنصيحة ، ولعبيده على خلفائه بَسْطَ العدل والرأفة وإحياء السنن الصالحة . فإذا أدَّى كلُّ إلى كلِّ حقّه كان ذلك سبباً لتمام المعونة واتصال الزيادة واتساق الكلمة ودوام الألفة . »

فالفكرة تؤدّي في عبارة موجزة تُلَمِّحُ بأطراف المعنى ولكن دون إسهاب أو إطناب ، ودون محاولة لتحقيق اللذة الفنية عن طريق السجع والازدواج وما ينحو نحوهما ، على شاكلة قوله في فصل آخر^(٦) :

« إن أعظم الحق حقُّ الدين ، وأوجب الحرمة حرمةُ المسلمين ، فحقيق لمن راعى ذلك الحق وحفظ تلك الحرمة أن يَرَاعَى له حسب ما رعاه الله به ، ويُحَفِّظَ له حسب ما حفظ الله على يديه . »

(٤) أقلت : نهضت
(٥) المقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .
(٦) المقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .

(١) اللائمة : اللوم .
(٢) مظاهره : مساعدة .
(٣) النظرة : التأجيل .

والرغبة في الإيجاز والاقتصاد في القول واضحة في هذا الفصل وخاصة في كلماته الأخيرة . ولم تُؤثّر لابن الزيات رسائل شخصية نثرية ، وكأنه كان يقدم الشعر على النثر في هذه الرسائل ، لمطاوعته له وسهولته عليه ، إذ تُروى له كتب الأدب بعض رسائل إخوانية شعرية كان يتبادلها مع بعض أصدقائه وخاصة الحسن بن وهب ، وقلما تجاوزت أبياته فيها عدد أصابع اليدين . ويُروى أن ابن وهب مرض أياماً ولم يأت به رسوله ولا تعرّف خبره ، فكتب إليه رسالة شعرية يعاتبه فيها ، وردّ عليه ابن الزيات برسالة شعرية أيضاً ، يعتذر إليه متنصلاً من علمه بمرضه ، وطالباً إليه التفضل بصفحه والتطول بعفوه ، على هذه الشاكلة (١) :

دَفَعَ اللهُ عَنْكَ نَائِبَةَ الدَّهْرِ ، وحاشاك أن تكون عليلاً
أُشْهِدُ اللهَ ما علمتُ وماذا لك من العُذْرِ جائزاً مقبولاً
ولعمري أن لو علمت فلا زِمْتُكَ حَوْلًا لكان عندي قليلاً
فاجعلنّ لي إلى التعلّق بالعُذْرِ سبيلاً إن لم أجد لي سبيلاً
فقدماً ما جاد بالصفح والعَفْوِ وما سامح الخليلُ الخليلاً

ويقول صاحب الأغاني إنه كان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب ، ويسوق شاهداً على ذلك أنه « جلس يوماً للمظالم ، فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالساً ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال الرجل : نعم تُدْثِنِي إِلَيْكَ ، فإني مظلوم ، فأدناه ، فقال : أنا مظلوم ، وقد أعوزني الإنصاف ، قال : ومن ظلمك ؟ . قال : أنت ، ولست أصل إليك فأذكر حاجتي ، قال : ومن يحجبك عني وقد ترى مجلسي مبذولاً ؟ قال الرجل : يحجبني عنك هيبتي لك وطول لسانك وفصاحتك واطراد حجتك ، قال : فقيم ظلمتك ؟ قال الرجل : ضَيِّعَني الفلانية أخذها وكيك غَضَبًا بغير ثمن ، فإذا وجب عليها خراج أدّيته باسمي لئلا يشبّ لك اسم في ملكها ، فيبطل ملكي ، فوكيك يأخذ غلّتها وأنا أؤدى خراجها » . وتمضي القصة فتذكر أن ابن الزيات ردّ على الرجل ضيعته ووهبه بعض المال ليستعين على عمارتها . وأبو الفرج إنما ساق القصة ليدل على ما شاع عند معاصري ابن الزيات من فصاحته وبلاغته ولسنه وقوة حجته .

خاتمة

تحدثتُ في هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول عن الحياة السياسية وما اتصل بها من قيام الدولة العباسية وبناء بغداد وسامراء واتخاذهما حاضرتين متعاقبتين ، كما تحدثت عن غلبة الطوايع الإيرانية على نظم الحكم وما ارتبط بها من دواوين ووزراء وتقاليد مختلفة . وقد مضى العلويون يقاومون أبناء عمهم العباسيين سرّاً وجهراً ، بينما ضعف شأن الخوارج ضعفاً شديداً . ويُعَدُّ أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي لدولة بني العباس ، ويخلفه المهدي فيقضى على ثورات الحرمية وترتعد فرائص البيزنطيين أمام جيوشه في غير موقعة . ويعقبه ابنه الهادي لمدة قصيرة . ويتولى مقاليد الخلافة بعده أخوه هرون الرشيد ، وعصره يعدُّ أزهى عصور الخلافة العباسية ، بما شاع فيه من رخاء ، وقد محقت جيوشه الخوارج محققاً وسحقت البيزنطيين سحقاً . ويخلفه ابنه الأمين لسنوات قصيرة ، ويتولى بعده المأمون ، ويقود حركة عقالية واسعة ينتصر فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ، بينما يقضى قواده على كثير من الثورات ، ويقلم أظافر البيزنطيين مراراً ، ويخلفه أخوه المعتصم فيقضى على ثورة بابك الخرمي ، ويدق أعناق البيزنطيين دقاً في عمورية وغير عمورية ، ويعقبه ابنه الواثق ، وبه يُخْتَمُ العصر العباسي الأول .

وكانت بغداد وسامراء تحفل بالقصور الباذخة وتكتظ بالثراء ، وصبّت سيول منه في حجور المغنين والشعراء والعلماء ، مما أعدّ لنهضة واسعة في الفنون والآداب والعلوم ، وشاع الترف في الملابس والمطاعم والمشارب كما شاعت أدوات مختلفة للترويح عن النفوس ، وكثر الرقيق والجواري وشُغِفَ الناس بالغناء وبضروب مختلفة من الظرف وتورط كثيرون في الخمر والحجون . وكان انتصار العنصر الفارسي على العنصر العربي في الثورة العباسية سبباً في أن تبرز موجة حادة من الشعبية ، ورافقتها موجة حادة من الزندقة ، جعلت المهدي ينصب ديواناً لتعقب الزنادقة ومحاکمتهم ، ويبعث العلماء للرد على بُهتانهم . وتغنّى كثيرون بالزهد ورفض

الدنيا ومتاعها الزائل ، وتعالى أصوات الوعَّاظ والقُصَّاص وأخذت تظهر مقدمات التصوف .

وقد حدث امتزاج جنسى ولغوى وثقافى واسع بين الشعب العربى والشعوب المستعربة ، إذ امتزجت به فى السكنى والتزواج وفى الأخلاق والعادات ، واتخذت لفته لساناً لها فتترجم به عن ضميرها ومشاعرها وذات نفسها ، وسرعان ما استوعبت تلك اللغة الثقافات التى كانت مبثوثة فى هذا المحيط الحديد سواء أكانت هندية أم فارسية أم يونانية أم دينية خالصة . ونشطت الحركة العلمية نشاطاً واسعاً ، فشاع التعليم فى الكتاتيب والمساجد وكثر العلماء فى كل فن ، وانتشر اقتناء الكتب والمكتبات الخاصة ، وترجمت علوم الأوائل إلى العربية من هندية وفارسية ويونانية ، وأنشأ الرشيد للترجمة داراً كبيرة هى دار الحكمة وألحق بها المأمون مرصداً فلكياً ضخماً . وأخذت تُوضَعُ منذ أوائل العصر العلومُ اللغوية : علوم النحو والتصريف والعروض وُوضِعَ أول معجم للعربية ، وهو معجم العين المشهور . ونمت المصنفات التاريخية . وصُنِفَت فى الحديث النبوى كتبٌ جامعة . وكثرت المصنفات فى تفسير القرآن الكريم . ووُضِعَت مذاهب الفقه الأساسية : مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب ابن حنبل . وأحكم المتكلمون أصولهم العقيدية وخاصة المعتزلة الذين تعمقوا فى المباحث الفلسفية .

وازدهر الشعر ، وحذق الشعراء الموالى لغته ، واستوعبوا مقوماتها وخصائصها نافذين إلى أسلوب مولد جديد ، اعتمدوا فيه على الألفاظ الواسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة البدو الجافية ، أسلوب يمجج بالجزالة والرصانة حيناً ، وحيناً بالعدوبة والنعومة . واصطبغ شعرهم ومعانيه بحكم رقيهم الفكرى بطوابع عقلية دقيقة ، وقد مكن لها المعتزلة بمباحثهم العميقة وطرقهم فى الاستدلال وتوليدات المعانى وتفرعاتها المتشعبة . وظل الشعراء ينظمون فى موضوعات الشعر العربى القديمة متطورين بها قليلاً أو كثيراً ، وبذلك حافظوا على شخصيته الموروثة ، مع الوصل بينه وبين حياتهم الاجتماعية والعقلية والحضارية . وقد اضطرم المديح اضطراماً بما صوروا فيه من المثالية الخلقية والبطولات العربية والأحداث الكبيرة ، وبما أضافوا إلى عناصره البدوية القديمة من عناصر حياتهم الحضارية وملكاتهم العقلية . ونظور

الهجاء بما أشاعوا فيه من روح الاستخفاف والسخرية المريبة والفكاهة السامة . وتحولوا بالفخر القبلى إلى فخر شعوبى محتدم . واتسعوا بالرثاء . فثرثوا المدن المنكوبة والحيوان والطير . وتفتنوا فى الغزل بنوعيه الإباحى والعفيف . وتبدلوا فى شعر المحبون والخمر . ونظموا كثيراً فى الزهد . ونفذوا إلى موضوعات جديدة ، إذ أفردوا قصائد لتصوير بعض المثل الخلقية أو تصوير الرياض ومظاهر الحضارة العباسية أو بكاء البصر والتفجع على فقده أو وصف بعض الغرائز كغريزة الغيرة أو وصف حياة الشظف والبؤس والمسغبة أو نظم بعض الفكاهات والنوادر . واستحدثوا فن الشعر التعليمى ونظموا فيه كثيراً من التاريخ والقصص والمعارف والنحل المختلفة . وأكثروا من النظم على الأوزان القصيرة والمجزوءة ونفذوا إلى اكتشاف أوزان المضارع والمقتضب والمتدارك أو الحب ، وإلى أوزان أخرى لم يستخدمها العرب قبلهم ، غير أنه لم يكتب لها الشيوخ لنقص أنغامها بالقياس إلى الأوزان الموروثة . وعرفوا وزناً شعبياً هو وزن المواليا . وجددوا تجديداً واسعاً فى القوافى ونمط القصيدة ، فاستحدثوا المزدوجات والرباعيات والمسمطات ، ونظموا صورة تُعَدُّ أمّاً للموشحات مما يدل على أنها ترجع إلى أصول عباسية .

وأعلامُ الشعراء فى العصر بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، فأما بشار فكان فارسى الأب روى الأم ، وكان أكمه ، ووُلِدَ على الرِّقِّ ، ونشأ فى البصرة نشأة عربية خالصة ، فحذق اللغة وبرع فى الشعر ، وكان يجالس المتكلمين وأصحاب المقالات الدينية ، فاضطرب بين هذه المقالات وصار إلى الشك ثم إلى الزندقة ، واستظهر شعوية آثمة . وهو يُعَدُّ زعيم الشعراء المحدثين بما رسم لهم من التمسك بأصول الشعر التقليدية والملاءمة بينها وبين العصر ومجتمعه وحضارته وثقافته . وقد أكثر من الفخر الشعوبى الذميم ، وآثُرَ فَقْدَهُ لبصره واضحٌ فى غزله فهو فى أكثره غزل حسى يصدر فيه عن الغريزة النوعية صدوراً يُزَرى بمروءة الرجل الحر الكريم مما جعل الوعاظ يذمونه ذمّاً شديداً . وأكثر أيضاً من وصف مجالس الخمر والغناء دون رادع من خلق أو دين إذ كان زنديقاً وقُتِلَ على الزندقة . وكان أبو نواس فارسى الأب والأم ، ونشأ مثل بشار فى البصرة ، وتحول عنها إلى الكوفة مع شيطان كبير نفث فيه من غيِّه ومجونه

ولأمته هو والبة ، ورحل إلى البادية يتزود من ينابيع اللغة الأصيلة وعاد إلى البصرة ولزم مجالس اللغويين والمتكلمين والقصاص والمحدثين وعَبَّ من الثقافات الأجنبية عَبًّا . ونزل بغداد وامتدح الرشيد والبرامكة ، ورحل إلى مصر وعاد إلى بغداد فاتصل بالأمين . وشعره يجري في اتجاهين : اتجاه تقليدى فى المديح والثناء واتجاه تجديدى فى الهجاء والغزل والمجون والطَّرْدِيَّات ، وهو أكثر شعراء عصره مجوناً وإفحاشاً فيه . ومع إكثاره من الجهر بالفسق والمعصية يردد اعتماذه على عفو الله ومغفرته ، وهو — غير منازع — شاعر الحمرة على توالى العصور العربية بما ابتكر فى صورها ومعانيها وما أشاع فيها من حيوية دافقة . أما أبو العتاهية فكان نبطياً ونشأ بالكوفة لأب يشتغل بالحجامة ، وكان سيئ السيرة فى صباه إذ انتظم فى سلك الخنثيين ، وعمل مع أخ له فى بيع الحرار وصنعها ، واختلف إلى بينات الرواة واللغويين والعلماء والمتكلمين ، ولم يلبث أن أتقن العربية وبرع فى الشعر فرحل إلى بغداد ومدح المهدي وتعلق بجارية من جواري قصره تسمى عُتْبَة ونظم فيها غزلاً كثيراً ، ومدح ابنه الهادي والرشيد ، ويقبل على الخمر والمجون مفرطاً فيهما . ويحدث انقلاب فى حياته ، فيتزهد ويلبس الصوف ، ويظل متصلاً بالخلفاء والحسن بن سهل وزير المأمون حتى يبرح دنياه . وأشعاره تمثل حياته وما حدث بها من انقلاب فهو فى جانب منها يمدح ويتغزل ويصف الخمر ، وفى جانب يتزهد وينثر الحكم مع التفنن فى المراثى ، وتشيع فى أساليبه سهولة وليونة مفرطة . وكان يعاصره مسلم بن الوليد ، وهو أيضاً ينتظم فى عداد الموالى ، وقد نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى البصرة ، وأكبَّ على الشعر القديم وشعر بشار خاصة ، حتى إذا لمع اسمه بين الشعراء المجيدين رحل إلى بغداد فمدح الرشيد وقواد الدولة ووزراءها وعمَّالها وولَّاه بأخرة الفضل بن سهل وزير المأمون بريد جرجان فظلَّ بها حتى وفاته . واشتهر بتجويده لشعره والتدقيق فى معانيه والعناية برصانة اللفظ وجزالته ونصاعته والإكثار من ألوان البديع . وأبو تمام الطائي خاتمة هؤلاء الأعلام ، وقد ولد بجاسم ، وهى قرية من قرى دمشق ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرحل إلى حمص ، ثم إلى الفسطاط ، وعاد إلى الشام وتردَّد بينها وبين الرقة والموصل ، ثم هبط بغداد ، ورحل عنها إلى خراسان ، ثم عاد إليها ، وتحوَّل عنها مع المعتصم إلى « سُرَّ من رأى » ولزم بابيه وأبواب وزرائه وكبار رجال الدولة ، وظل وثيق الصلة بابنه

الواثق ووزيره ابن الزيات وكتابه الحسن بن وهب ، وولاه الأخير بريد الموصل وسرعان ما وافته منيته . وشعره يفيض بثقافات عصره العربية والأجنبية وخاصة الثقافة الفلسفية والكلامية ، واشتهر بأنه صاحب مذهب جديد ، يقوم على التدقيق في المعاني والأخيلة والتعمق فيها تعمقاً قد يفضي إلى الغموض ، كما يقوم على استخدام ألوان البديع ، حتى لا يكاد يخلو منها بيت من أبياته ، بل حتى لتتوهج فيها توهجاً .

وكثر حينئذ شعراء السياسة والمديح والهجاء ، فكان هناك شعراء الدعوة العباسية الذين ينافحون عن العباسيين زاعمين أنهم أصحاب الخلافة الشرعيون ، ومن أشهرهم أبو دلالة نديم السفاح وغيره من الخلفاء ، ومروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر اللذان وجهما شعرهما نحو الدفاع عن حق العباسيين في الخلافة وإنكار حق العلويين فيها والرد عليهم ردّاً عنيفاً . وكان شعراء الشيعة يدافعون بدورهم عن حق العلويين في الخلافة ، يجهرون بذلك كلما سنحت لهم الفرصة ويخفونهم كلما أشفقوا على أنفسهم من العباسيين ، ومن أشهرهم السيد الحميري وكان كيسافى العقيدة لا يرى بأساً في مديح الخلفاء العباسيين ، كما كان لا يخفي حبه للعلويين ، وأكثر من تغنيه بمناقب علي بن أبي طالب وذم قاتلي الحسين وثلثهم . ومثله منصور النمرى الشيعي الإمامي ، وكان يمدح العباسيين ويأخذ جوائزهم ويتفجع على قتلى آل البيت وحقوقهم المهذرة في الخلافة . ومثلهما دعبل ، وكان يعلن تشييعه إعلاناً صريحاً ، وتشكك أبو العلاء المعري في صدقه وقال إنه كان يريد التكسب بإعلان تشييعه . وكان ديك الجن مخلصاً في تشييعه ، غير أن ما أثر من شعره الشيعي قليل . وكان البرامكة مجوراً فياضة ، فنظم الشعراء فيهم كثيراً من المدائح ، وفي مقدمتهم أبان بن عبد الحميد اللاحق مترجم كليله ودمنة شعراً ، وأشجع بن عمرو السلمي ، وله قصائد طنانة فيهم وفي انتصارات الرشيد على تقفور إمبراطور بيزنطة . وكان كثير من الوزراء والقواد والولاة يجزلون العطاء للشعراء ، فدبّجوا مدائح كثيرة فيهم ، على نحو ما يلقانا عند أبي الشيص شاعر عقبه بن جعفر الخراعي وإلى الرقة بالموصل ، وعبد الله بن أيوب التميمي شاعر يزيد بن مزيد قائد الرشيد ، وعلى بن جبلة شاعر أبي دلف العجلي قائد

المأمون ، والحريجي شاعر عثمان بن خُريّم المُرّيّ وإلى أرمينية . وبرع في الهجاء شعراء كثيرون من أمثال أبي عيينة المهلبى وكان يُكثّر في هجائه من الإقذاع الشديد ، وعلى شاكلته عبد الصمد بن المعتدل وكان هجاءً شكساً حديد اللسان .

وتكاثر شعراء الغزل بنوعيه النقي العفيف والمادى الصريح ، وكان النوع الثانى أكثر شيوعاً لكثرة الجوارى والإماء ، وخير مَنْ يصور النوع الأول العباس بن الأحنف الذى عاش يتغنى بالغزل العذرى الطاهر . أما النوع الثانى فخير من يصوره ربيعة الرقى وغزله يسيل عذوبة . وكان شعراء الحجون والزندقة كثيرين كثرة مفرطة لما شاع من فساد الأخلاق وكثرة النحل والمقاتلات والمذاهب الدينية والفلسفية ومن أشهرهم حماد عجرد ، وكان يخلط مجونه بزندقة أُشربت بها روحه . ومنهم مطيع ابن إبّاس وهو من أكثر الشعراء مجاهرة بالفسق والعصيان . ومنهم صالح بن عبد القدوس ولم يكن ماجناً ، ولكنه كان زنديقاً كبيراً ، إذ كان يعتنق عقيدة الثنوية المانوية مجاهراً بها ، ومجادلاً مناظراً إلى أن أمر الرشيد بضرب عنقه ، وجمهور شعره أمثال وحكم . وكان غير شاعر يأخذ نفسه بحياة زاهدة ناسكة على نحو ما نجد عند عبد الله بن المبارك ودعوته إلى الجهاد فى سبيل الله وإلى التقوى واجتناب الآثام ، وعند محمد بن كناسة الكوفى وتغنيه طويلاً برفض الدنيا ومتاعها الزائل ، وعند محمود الوراق ودعوته إلى طاعة الله والرضا بقضائه والتوكل عليه والقناعة بكفاف العيش مع التفكير الدائم فى الموت والفناء . وشارك المعتزلة فى الشعر وفنونه ، وكان منهم من ينظم فى نفس الأغراض التى ينظم فيها الشعراء من حوله مثل الجتنابى الذى يروع قارئه بمعانيه الطريفة ، ومثل النّظام الذى يصبغ أشعاره فى الغزل وغير الغزل بصبغة كلامية واضحة . ومنهم من كان ينظم فى حوار أهل الملل والنحل مثل بشر بن المعتمر وكان يكثّر من الحديث عن عجائب الله فى خلقه . وصوّر نفر من الشعراء فى أشعارهم النزعات الشعبية صادرة عن روح العامة وأحاسيسها ، وخير من يمثلهم أبو الشّمقمم وكان يستخدم فى شعره أحياناً ألفاظ العامة ، مجسماً فقره وبؤسه ومسغبته وأسماؤه البالية ، وكثيراً ما يعرض ذلك فى صورة فكهة .

وتطور النثر فى هذا العصر وتنوّع وكثرت فنونه بما ملأ أوانيه اللفظية من

الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وما استوعبه من صنوف العلوم وذخائر الفلسفة ، وقد انبرى المتكلمون معتزلة وغير معتزلة يبحثون في الأسس التي تقوم عليها براعة القول وبلاغته ، واقتبسوا كثيراً مما سجلته الأمم القديمة من أصول البيان . وعُنى كُتّاب الدواوين هم الآخرون بفصاحة الكلام وبلاغة القول ، مما جعلهم يتحولون بدواوينهم إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة . وحقاً ضعف شأن الخطابة السياسية والحفلية ، غير أن الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعاظ وقصص وقصّاص ازدهرت ازدهاراً عظيماً ، كما ازدهرت المناظرات وخاصة في بيئة المعتزلة إذ كانوا يكثر من حوار زعماء الفرق والنحل في المساجد ومجالس البرامكة ومجالس المأمون ، مثيرين ما لا يُحصى من دقائق المعاني وخفيات الأدلة ، وبلغ من إتقانهم للجدل وقدرتهم على الإقناع وإفحام الخصوم أن نفذوا كثيراً — بقصد إظهار المهارة الجدلية — إلى تقييح الأشياء المستحسنة وتحسين الأشياء المستقبحة ، مما هيباً لظهور كتب المحاسن والمساوى . واتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما اتصل بها من عهود ملوك الفرس ووزرائهم ورسائلهم إلى العمال ووصاياهم وتوقيعاتهم ، وكان لذلك أثر بعيد فيما كان يصدر عن الخلفاء والوزراء ويدبّجه الكتاب من رسائل وعهود ووصايا وتوقيعات . وكان الكُتّاب يحرصون في هذا النثر الديواني الرسمي على بلاغة القول والتفنن في الأفكار والمعاني ، ويلقّان في عصر كل خليفة كُتّاب ذاع صيتهم وطارت شهرتهم كل مطار . وازدهرت حينئذ الرسائل الإخوانية ، إذ تناول كثير من الكتاب الأغراض التي كان ينظم فيها الشعراء من ثناء وشكر وهجاء وذم وعتاب واعتذار واستعطاف وتهنئة وتعزية ، وأخذوا يجبرون فيها رسائل شخصية مفتنّين في أساليبها البيانية وما يصوّرون بها من عواطفهم وأهوائهم . ونفذ نفر منهم إلى كتابة رسائل أدبية طريفة تتناول النفس الإنسانية وعواطفها وسلوكها وحياتها العاملة وما يهديها سبيل الرشاد . وأخذ بعض الكُتّاب البارعين يحاكون ما نقله ابن المقفع وغيره إلى العربية من القصص الحيوانية والرسائل السياسية الفارسية .

وأعلام الكتاب في العصر ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات . أما ابن المقفع فكان فارسي الأصل ونشأ بالبصرة

في ولاء آل الأهم ، وهم بيت فصاحة وخطابة ، فحذق العربية ، وعمل في دواوين العراق آخر زمن بني أمية ، ثم في دواوين سليمان بن علي وعيسى بن علي عمي المنصور ، وكان لا يزال مجوسياً فأسلم على يد الأخير . وأغرّى به المنصور سفيان بن معاوية وإلى البصرة ، فقتله . وقد اشتهر بترجمته عن لغته بعض كتب الأدب الفارسي وكتاب كليله ودمنة الهندي الأصل وبعض منطق أرسططاليس . وكان آية في البلاغة وحسن الأداء وفصاحته . على نحو ما يتضح في الأدب الصغير والأدب الكبير وكتاب اليتيمة ورسالة الصحابة ، وهي جميعاً تفيض بالوصايا السياسية والاجتماعية والخلقية . وتُعدُّ ترجمته لكليله ودمنة من روائعه الفذة . وله رسائل إخوانية زائدة بديعة . وكان سهل بن هرون مثله فارسي الأصل ، وعكف على الآداب الأجنبية ، وشارك في الترجمة عن لغته الأصلية ، ويقال إنه كانت فيه نزعة شعوبية . وكان فيه ميل إلى التندر ، ووظفه الرشيد بخزانة الحكمة التي أنشأها ، وقرّبه المأمون وجعله خازناً لبعض أقسامها . وكان من أفراد عصره في البلاغة والبيان وصحة المنطق ، وعُني بتأليف قصص حيواني على شاكلة كليله ودمنة ، وهو يملؤه بالترية السياسية والاجتماعية والحكم والأمثال على شاكلة كتابه « النمر والثعلب » . ومن رسائله الأدبية الطريفة رسالته في الاحتجاج للبخل . ورسالته الأخرى في نصرة الزجاج على الذهب . وله رسائل شخصية بديعة . ومن أهم ما يميزه عنايته بدقة معانيه وتوفير الازدواج والجمال الصوتي لألفاظه وأساليبه . أما أحمد بن يوسف فكان من بيت كتابة ، إذ كان أبوه يوسف بن صبيح ممن ذاع صيتهم في دواوين القرن الثاني ، وقد عُني بتأديب ابنه وإعداده للعمل في الدواوين . وسرعان ما استخلصه الفضل بن سهل للمأمون ، فجعله على ديوان الرسائل ، ثم اختاره وزيراً له ، وظل على وزارته حتى توفي . وكان واحد زمانه في الكتابة الديوانية ، ومن لزوع رسائله السياسية رسالة الحميس التي كتبها في تأييد الدعوة العباسية ، وثقافته الكلامية واضحة في تحميدها إذ تحول به إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً في الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم . وله رسائل شخصية يتضح فيها ما يتضح في رسائله الديوانية من تألق التعبير ، حتى يمكن أن يقال إنه هو الذي أعتد في قوة لأن يشيع في النثر الديواني الرسمي أسلوب الازدواج والترادف الصوتي وما يجري فيه أحياناً من السجع . وكان عمرو بن مسعدة مثله من بيت كتابة ،

إذ كان أبوه مسعدة إلى ديوان الرسائل للمنصور ، وقد أحكم تأديبه وثقيفه ، وتلقفه جعفر بن يحيى البرمكي ، فاتخذته كاتباً للتوقيع بين يديه ، وغرس فيه شغفه بالإيجاز والتأنق في التعبير، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر نفسه .
والتحق بدواوين المأمون ، حتى إذا رفع أحمد بن يوسف إلى الوزارة أقامه مقامه على ديوان الرسائل وظل إليه إلى وفاته . وتتميز كتابته الديوانية بالاعتصام بالمسرف حتى كان يُضربُ به المثل في الإيجاز ، وهو يضيف إليه ميلاً شديداً إلى التأنق والتنميق . وكان ابن الزيات من بيت تجارة ، غير أنه نشأ محبباً للأدب ، فأقبل على التزود بعلوم اللغة وكنوز الآداب الأجنبية والعربية ، حتى برع في الشعر والكتابة جميعاً ، وسرعان ما التحق بدواوين المأمون ، وما زال نجمه في صعود ، حتى استوزره المعتصم ، وظل وزيراً في عهد ابنه الواثق والمتوكل إلى أن نكبه الأخير فكتبته المشهورة . وكان لسناً بليغاً ولم يكن يصدر في بلاغته ولسنه عن تكلف ، وإنما كان يصدر عن طبع مهذب دون قصد إلى التأنق المسرف أو التنميق المفرط ، وكان يحرص دائماً على فصاحة اللفظ وحسن الأداء مع الجزالة والتصاغة .

فهرس الموضوعات

صفحة

٧ - ٥

مقدمة

٤٣ - ٩ الفصل الأول : الحياة السياسية

٩ (١) الثورة العباسية

١٥ (٢) بناء بغداد ثم سامراء

١٩ (٣) النظم السياسية والإدارية

٢٦ (٤) العلويون والحوارج

٣٣ (٥) أحداث مختلفة

٨٨ - ٤٤ الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية

٤٤ (١) الحضارة والراء والترف

٥٦ (٢) الرقيق والحواري والغناء

٦٥ (٣) المجون

٧٤ (٤) الشعوبية والزندقة

٨٣ (٥) الزهد

١٣٧ - ٨٩ الفصل الثالث : الحياة العقلية

٨٩ (١) الامتزاج الجنسي واللغوى والثقافى

٩٨ (٢) الحركة العلمية

١٠٩ (٣) علوم الأوائل : نقل ومشاركة

١١٨ (٤) العلوم اللغوية والتاريخ

١٢٦ (٥) العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال

٢٠٠ - ١٣٨ الفصل الرابع : ازدهار الشعر

١٣٨ (١) ملكات الشعراء اللغوية

صفحة

١٤٧	(٢) طوابع عقلية دقيقة
١٥٩	(٣) التجديد في الموضوعات القديمة
١٨١	(٤) موضوعات جديدة
١٩٣	(٥) التجديد في الأوزان والقوافي
٢٨٩-٢٠١	الفصل الخامس : أعلام الشعراء
٢٠١	(١) بشار
٢٢٠	(٢) أبو نواس
٢٣٧	(٣) أيو العتاهية
٢٥٣	(٤) مسلم بن الوليد
٢٦٨	(٥) أبو تمام
٣٦٩-٢٩٠	الفصل السادس : شعراء السياسة والمدح والهجاء
	(١) شعراء الدعوة العباسية : أبو دلالة ، مروان بن أبي حفصة ،
٢٩٠	سلم الحاسر
	(٢) شعراء الشيعة : السيد الحميري ، منصور النمرى ، دعبل ،
٣٠٥	ديك الجن
	(٣) شعراء البرامكة : أبان بن عبد الحميد اللاحق ، أشجع بن
٣٢٦	عمرو السلمى
	(٤) شعراء الوزراء والولاة والقواد : أبو الشيص ، عبد الله بن
٣٤١	أيوب التيمى ، على بن جبلة ، الخريمى
٣٥٩	(٥) شعراء الهجاء : أبو عيينة المهلبى ، عبد الصمد بن المعدل
٤٤٠-٣٧٠	الفصل السابع : طوائف من الشعراء
٣٧٠	(١) شعراء الغزل : العباس بن الأحنف ، ربيعة الرقى
	(٢) شعراء المحون والزندقة : حماد عجرد ، مطيع بن إياس ،
(٣٨٢)	صالح بن عبد القدوس

صفحة

	(٣) شعراء الزهد : عبد الله بن المبارك ، محمد بن كناسة ،
٣٩٩	محمود الوراق
٤١٤	(٤) شعراء الاعتزال : العتابي ، بشر بن المعتمر ، النظام .
٤٣٤	(٥) شعراء النزعات الشعبية : أبو الشمقمق
٥٠٦-٤٤١	الفصل الثامن : تطور النثر وفنونه
٤٤١	(١) تطور النثر
٤٤٨	(٢) الخطب والوعظ والقصص
٤٥٧	(٣) المناظرات
٤٦٥	(٤) الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات
٤٩١	(٥) الرسائل الإخوانية والأدبية
٥٦٥-٥٠٧	الفصل التاسع : أعلام الكتاب
٥٠٧	(١) ابن المقفع
٥٢٦	(٢) سهل بن هرون
٥٤١	(٣) أحمد بن يوسف
٥٥٢	(٤) عمرو بن مسعدة
٥٥٩	(٥) ابن الزيات
٥٦٥	خاتمة